الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة
Université d'Oran 1
معهد الترجمة
Institut de traduction

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الترجمة الموسومة بـ :

استراتيجيتي التدجين (Domestication) والتغريب (Foreignization) في الترجمة
- دراسة تطبيقية -

إعداد الطالب:
دريس محمد أمين

تحت إشراف:
أ.د فرقاني جازية

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د توهامي وسام	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1	رئيساً
أ.د فرقاني جازية	أستاذة التعليم العالي	جامعة وهران 1	مشرفاً ومقرراً
د. داني فتيحة	أستاذة محاضرة 'أ'	جامعة وهران 1	عضواً مناقشاً
أ.د محمصاجي مختار	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضواً مناقشاً
د. زغودي يحي	أستاذ محاضر 'أ'	جامعة تلمسان	عضواً مناقشاً
د. سنقادي عبد القادر	أستاذ محاضر 'أ'	جامعة الشلف	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية

1436-1437هـ/2015-2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى حبيبنا ومعلمنا الأول محمد صلى الله عليه وسلم

إلى من قرن الله سبحانه وتعالى عبادته وطاعته ببرّهما والإحسان إليهما

إلى من ربّياني على حب العلم والفضيلة

إلى والديَّ حفظهما الله وأطال في عمرهما

إلى زوجتي خديجة وأبنائي فاطمة الزهراء وأنس منيب وأشرف معاذ

إلى إخوتي الأحبة وأخواتي العزيزات

إلى كل من مد لي يد العون وأخلص فيها

أهدي عملي هذا

شكر وتقدير

{وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب}

(هود، الآية 88)

الحمد لله الذي يسر لي أمري، وهيأ لي سبل إتمام هذا البحث. وبتوفيق منه عزّ وجلّ، الذي أنعم عليّ بموفور الصحة وتمام العافية، أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذتي الدكتورة فرقاني جازية لتفضلها بالإشراف على هذه الأطروحة، وعلى صبرها وسعة صدرها، ثم على نصائحها النيرة وتوجيهاتها العلمية الجادة.

كما أتقدم بشكري الخالص إلى الأساتذة الأفاضل، أعضاء لجنة المناقشة، الذين تجشّموا عناء قراءة هذا العمل وتقييمه.

مقدمة

إنّ الترجمة اليوم من أهم التخصصات تأثيراً في العلوم كلها، بحيث تنبه الباحثون و الدارسون بمختلف توجهاتهم النظرية و ميولهم الفكرية بأنّ نقل كل المستجدات في هذا الحقل أو ذاك و في شتى صنوف المعرفة لهو أكثر من ضرورة حضارية، بل إنّه واجب أخلاقي تمليه ماهية العلم في الأساس الذي ينبغي أن يصل إلى الإنسان في كل مكان و زمان. و لذلك راح العلماء يضبطون المصطلحية (terminology) تلو الأخرى حتى لا يلتبس الأمر على الدارسين، و اعتنوا أكثر بتدريس اللغات الأجنبية و تعلمها و أن يواكب ذلك تحيين للأبعاد المفهوماتية و التداولية فيها. و قد كان لتأثير الترجمة في العلوم الأثر البالغ فيها أيضاً، فقد انفتحت العديد من الأبواب التي كانت في السابق موصدة أمام قضايا من مختلف مناحي العلم من علوم إنسانية و تجريبية التي أسست لمناهج جديدة في الدراسات الترجمية (translation studies)، و بلورت رؤى مبدعة سمحت بوفرة في النظريات و المقاربات و بمختلف الألوان همها الوحيد الدفع بالترجمة إلى أقصى حدود التحري و الاستقصاء. كما شكل ذلك فرصة سانحة للكثير من الأسماء البارزة للإسهام في هذه الحركة الترجمية من خلال تزويد الترجمة بأدوات مساعدة في فهم الظواهر و تطبيق الآليات التي شكلت محور اهتمامهم في تخصصاتهم الأولى. و قد تمكن العديد من هؤلاء بأن يصبحوا العلامة المسجلة في علم الترجمة أكثر من أصحاب الاختصاص –مترجمون و لغويون– أنفسهم. و بالتالي يكون هذا الأنموذج الشاهد الحي على سماحة الترجمة التي لا تقصي أحداً مهما كانت آراؤه و أفكاره، و سعة صدرها لأنّها تفتح الباب لأي كان حتى تعم الفائدة و يتحقق المبتغى، و علو كعبها بكونها الوجهة الأولى لعلماء ضاق بهم العلم بما رحب و السبب النظرة المتزمتة و الإقصائية للبعض من جهة، و نضوب معينه و روافده من جهة أخرى؛ لتبقى الترجمة وحدها المتنفس الأخير لهؤلاء لتجسيد مشاريعهم على أرض الواقع لا بمحاكاتها بالعوالم الافتراضية.

و قد شكلت الثقافة (culture) العامل الحاسم في هذا الانفتاح، و المحرك لكل متوالياته النظرية و التطبيقية، كيف لا و هي مصدر انبعاث ما في اللغة من أبعاد تتجاوز الفكر و المعنى و المخيال، و تصبغها بأنماط سلوكية تخص كل مجموعة بشرية على وجه هذه المعمورة. و منه تفرعت المفاهيم و تشعبت الأطر التي تتعامل مع هذا البعد في علم الترجمة، و برزت استراتيجيات تعنى بالبعد الثقافي و توصيله من دون إقصاء للبعد اللغوي الذي هو بمثابة الحامل و الناقل له.

انبثقت كل الاستراتيجيات الترجمية (translation strategies) –التي توصف بأنّها شمولية (global)– و ما يدور في فلكها من إجراءات (procedures)، و تقنيات (techniques)، و مخططات (plans) و ما إلى ذلك من تسميات مختلفة –التي تعرف بالموضعية (local)– عن توجهين ترجميين اثنين لا ثالث لهما: التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) اللّذان شكلا موضوع دراستنا هاته و الموسومة بـــ

'استراتيجيتي التدجين (Domestication) و التغريب (Foreignization) في الترجمة –دراسة تطبيقية–'.

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع الجديدة القديمة في علم الترجمة، فالقديم فيه يكمن في أنّه ضارب في تاريخ الترجمة بوصفها ممارسة إنسانية و نشاط تواصلي بين الأمم و الشعوب لأنّه يمكن أن تصنّف جميع الترجمات التي رأت النور في خانة أحد التوجهين (التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)) حتى و إن لم ينتبه المترجمون و الناقلون إلى ذلك صراحة. و ثمة طرح آخر يزكي مسألة القدم تلك: الصراع السرمدي بين الرأي القائل بوجوب ترجمة الروح (l'esprit) و الآخر القائل بضرورة نقل الحرف (la lettre)، و هما التوجهان اللّذان لا يعتبران سوى تدجين و تغريب باسمين مستعارين. و لذلك كانت محاضرة شلايرماخر عام 1813 بمثابة الميثاق الذي يحكم هاذين البعدين اللّذين يجمعان في كنفهما كل ما قيل بشأنهما في السابق، ما يرقى إلى أبحاث مؤسسة منهجاً و طرحاً و ما لا يرقى إلى ذلك على حد سواء. أما جديده فهو أنّ الحديث فيه و الخوض في تفاصيله يعد مبتكراً في علم الترجمة، و قد بدأ ذلك مع المنظر الأمريكي الذي ينتمي إلى المحدثين سنوات التسعينات Lawrence Venuti الذي أعاد إلقاء الضوء على هذا الموضوع في كتابه (اختفاء المترجم: تاريخ الترجمة) (The translator's Invisibility)، و الذي اعتنى بالجانبين السياسي و الأيديولوجي اللّذين يحكمان مثل هذا التوجه. و نتيجة ذلك أنّ العديد من الكتب و المقالات جاءت للتقصي عن هذا الموضوع، و من مختلف الجوانب ما يبين عن أهميته في الدرس الترجمي اليوم الذي لا يعدو أن يكون إلا امتداداً لما جاء به القدامى من المنظرين في هذا الحقل.

و قد كان ذلك بمثابة الدافع الأول في اختيارنا هذا الموضوع، فقد بدا لنا –من خلال القراءات و المراجعات لما كتبه المنظرون، خاصة الغربيون، حوله– أنّه موضوع فتي يحتاج إلى تبصر أكثر و أخذ بالحجج و البراهين؛ ثم إنّ الباحثين العرب في حقل الترجمية لم يحركوا ساكناً اتجاهه، بل اقتصر المتوفر –و هو ضئيل يكاد ينعدم و لا يرقى إلى مستوى ما يطرحه الغربيون– على اجترار ما قاله هؤلاء من دون أي اجتهاد فيه أو إضفاء البصمة العربية عليه. كما أنّ هذا الموضوع يعد بحق أساس الفعل الترجمي و قانونه الخاص و ذلك في أنّ ما من مترجم إلا يكون مصدرياً ينتمي إلى أهل المصدر (les sourciers) أو هدفياً ينتمي إلى أهل الهدف (les ciblistes). و عليه ثمة هنا حتمية التعاطي مع هاتين الاستراتيجيتين الترجميتين بوصفهما مركز جاذبية (un centre de gravité) لما يحيط بهما و يدور حولهما من مفاهيم و مدركات على المستويين النظري و الإجرائي. و قد كان هدفنا الأول من هذا كله لفت انتباه الدارسين العرب إلى هذا الموضوع و ما يصاحبه من مواضيع فرعية و جانبية، و تذليل الصعاب أمام طلاب الترجمة و تزويدهم –و لو بالشيء القليل– بمكنيزمات لفهم آليات التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) معاً، و التحكم في

الطرق التي تتدخل في توظيفهما على مستوى النصوص و الأصعدة كافة. و هناك العديد من التساؤلات التي تطرح في هذا الصدد، أهمها:

ما الثقافة (culture) و ما الأسس التي تقوم عليها؟ ما علاقتها بالترجمة و ما هي المكانة التي تحتلها فيها؟ ما هو مفهوم الاستراتيجيات (strategies) في الترجمة و ما هي أنواعها؟ ما التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) في الترجمة؟ و ما هي الخصائص التي تجمعهما و مواطن التمايز بينهما؟

هذه جملة من التساؤلات التي حاولنا الوقوف عندها في هذا البحث بكثير من الفحص و التحليل.

و قد حاولت بعض الدراسات تسليط الضوء على استراتيجيتي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) في الترجمة، لعل أبرزها ما جاء به فريدريش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher و لورانس فينوتي Lawrence Venuti و أنطوان برمان Antoine Berman و يوجين نيدا Eugene Nida الذين شرحوا مفهوميهما و فسروا ماهيتيهما و أعطوا أمثلة على ذلك، من دون أن ننسى في السياق ذاته الآراء السديدة لكل من ماريا تيموشكو Maria Tymoczko و أنطوني بيم Anthony Pym و باربارا فولكارت Barbara Folkart و أمبرتو ايكو Umberto Eco و غيرهم. أما عربياً فثمة مقالة الأستاذ رجائي خانجي من الجامعة الأردنية الموسومة بـ (استراتيجيات التطويع في ترجمة إحسان عباس لرواية موبي ديك) التي عكف من خلالها على تبيان أساليب التطويع –و هو الاسم الذي اقترحه للتدجين (domestication)– الموظفة في ترجمة (موبي ديك) إلى العربية. و قد اعتمد رجائي خانجي في دراسة استراتيجيات التطويع (التدجين) على التنوع اللغوي، إذ أنّه لم يلامس كفاية البعدين المهمين الآخرين اللّذين هما الدلالة و الثقافة، و هو ما شكل اختلافاً جوهرياً بين عملنا هذا و مقالته تلك و ذلك في أنّ تعاملنا مع استراتيجيتي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) قد شمل كل الأبعاد من لغوية صرفة، و دلالية و ثقافية. أضف إلى أنّ رجائي خانجي قد نفى صراحة وجود أي تغريب (foreignization) في ترجمة إحسان عباس في لقاء لنا معه أثناء قدومه للمشاركة في إحدى الملتقيات المنظمة من قبل قسم اللغة و الأدب الانجليزي بجامعة معسكر التي أدرس فيها، و تبعتها لقاءات أخرى لأنّه كان يحضر و لا يزال بصفته أستاذاً زائراً يدرس طلاب الماجستير و الماستر بقسمي اللغة و الأدب العربي و اللغة و الأدب الانجليزي بذات الجامعة.

إنّ من أكبر الصعوبات التي واجهتنا أثناء انجاز هذا البحث استحالة الحصول على المراجع –أصلية كانت أو مترجمة التي تسلط الضوء على استراتيجيتي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)– من مكتباتنا الجامعية بسبب عدم توفرها على مثل هذه المراجع. لكن بفضل التربصات العلمية خارج الوطن تمكنا من زيارة العديد من

الجامعات الأجنبية و مكتباتها ما أتاح لنا فرصة الاطلاع على أنواع شتى من المصنفات –كتباً و مقالات– و من ثم جمع كم هائل من المادة العلمية القيمة التي ساعدتنا كثيراً في انجاز هذا البحث. و هناك أيضاً المصطلحية المعقدة و المتشعبة التي يتصل بها التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)، و التي لا نحوز على ما يكافئها في اللغة العربية ما دفعنا إلى بذل جهد كبير لترجمتها عبر القيام ببحث توثيقي شمل جميع الوسائل المتاحة. أضف إلى ذلك أننا –أثناء التعاطي مع التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)– وجدنا أنفسنا نخوض في مسائل عديدة أخرى تتعالق معهما، و هو ما أدى إلى تشعب هذا الموضوع و وجود الكثير من المفاهيم المتداولة فيه.

و قد قسمنا هذا البحث إلى ثلاثة فصول فضلاً عن مقدمة و خاتمة. يشتمل الفصل الأول المعنون **بـ 'الثقافة و الفعل الترجمي'** على مبحثين: الأول هو الثقافة و الترجمة الذي بدأناه بتعريف الثقافة (culture)، و تبيان محتواها من عموميات و خصوصيات و بدائل، و إبراز الفرق بينها و بين الحضارة من المنظورين الفرنسي و الألماني، ثم اتجاهات ترجمة كلمتي (culture) و (civilization) إلى اللغة العربية مع إبراز ماهية هذه الأخيرة. و يلي ذلك الحديث عن مكانة الثقافة من الفعل الترجمي، و إشكالية نقل البعد الثقافي في الترجمة. و ختمناه بضبط مفهوم المثاقفة (acculturation) و مناقشة العلاقة التي تربطها بالترجمة من خلال تجارب تاريخية رائدة.

أما المبحث الثاني الموسوم باستراتيجيات التوصيل الثقافي في الترجمة فاستهلناه بتعريف الاستراتيجية (strategy) لغة و اصطلاحاً، ثم الانتقال إلى مفهومها و كذا أنواعها في الترجمة. و قد عرّجنا على أهم استراتيجيات التوصيل الثقافي التي تتقاطع مع موضوع هذا البحث و هي التكييف (adaptation) و التمركز العرقي (ethnocentrism) و التهجير/العصرنة (archaization/modernization) مع الإحاطة بالاستراتيجيات ذات الميل التحريفي التي جاء بها أنطوان برمان Antoine Berman.

و قد شكل الفصل الثاني المعنون بـ **'استراتيجيتي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) في الترجمة'** نواة هذه الدراسة و لبها، فقد قسمناه مناصفة إلى مبحثين: يعنى الأول بالتدجين (domesticating) و الثاني بالتغريب (foreignizing).

تطرقنا في المبحث الأول إلى مفهوم التدجين (domestication) لغة و اصطلاحاً، ثم إلى مفهوم استراتيجية التدجين (domestication strategy) من المنظور الترجمي. و أعقب ذلك تفصيل مسهب لجميع المسائل المرتبطة بها سواء من قريب أو بعيد.

أما المبحث الثاني فقد خصص للتغريب (foreignization)، و بدأناه بتوضيح المفهوم اللغوي و الاصطلاحي لهذه

الكلمة. و انتقلنا إلى الحديث عن استراتيجية التغريب (foreignization strategy) في الترجمة مع تبيان كل ما يرتبط بها من قضايا و حسبنا في ذلك آراء المنظرين و العديد من النماذج الترجمية.

أما الفصل الثالث و الأخير فقد شكل **مدونة هذه الدراسة** و خُصص للتطبيق. و قد وقع اختيارنا على رواية (Moby-Dick) الانجليزية لهرمان ملفل Herman Melville و ترجمتها إلى اللغة العربية من قبل إحسان عبد القادر عباس عن مؤسسة ناصر للثقافة. و قد قمنا باستخراج الأمثلة التي تعنى بالتدجين و التغريب حالة بحالة، ثم دراستها و تحليلها مع تبيان نوع الاستراتيجية الموظفة و الخلفية التداولية في ذلك معتمدين على الجانب النظري و أسسه. و في الخاتمة تم رصد أهم ما توصلنا إليه من نتائج مرحلة بمرحلة بعد أن أجبنا على التساؤلات التي غذت فضول هذا البحث.

و عن المنهج المتبع في هذه الدراسة فلم نحد في الفصلين النظريين عن المنهج التحليلي لأننا حاولنا فيهما الكشف عن مجموعة التصورات و المفاهيم التي تصب إما في ماهية الثقافة (culture) أو التوصيل الثقافي (cultural conveyance) أو الاستراتيجيات (strategies)، و إما في مفهومي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) و ما يتصل بهما من مسائل في نظريات الترجمة المتنوعة. و اعتمدنا في الفصل الثالث على المنهج الأسلوبي المقارن بغية الوصول إلى بعض النتائج الإجرائية عبر المقارنة بين النص الأصلي و ترجمته.
و يبقى أي بحث علمي معرضاً للنقد و التعليق لأنّه لا يخلو من النقائص مما يفتح المجال أمام الدارسين لإعطاء رؤى جديدة تطعّم ماهية و مقاصد التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) خاصة في الدرس الترجمي العربي الذي هو بأمس الحاجة إلى تثوير خلفيات هذا الموضوع و أبعاده.

و الله المستعان و هو ولي التوفيق

محمد أمين دريس

الفصـل الأول

الثقافة و الفعل الترجمي

I. الثقافة و الترجمة

1. مفهوم الثقافة (culture)

لقد أصبح موضوع الثقافة، على الرغم من اعتباره أكثر المفاهيم إثارة للجدل، محل اهتمام كبير من لدن المشتغلين في حقول العلوم الإنسانية. ذلك لأنّه يحمل في طياته مفاهيم عدة و ينبني على أسس شتى. و يرى البعض أنّ الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة و العقائد و الفنون و القيم و العادات التي يكتسبها الإنسان على مر الأزمنة بوصفه عضواً فاعلاً في مجتمعه؛ في الوقت الذي يعتبرها فيه آخرون تنظيماً مضبوطاً يشمل مظاهر لأفعال و أفكار و مشاعر يعبّر عنها الإنسان من خلال الرموز أو اللغة التي يتداول بها ليؤرخ لتاريخه المتراكم عبر الأجيال. و تدور هذه المفاهيم جميعها حول المعنى نفسه في أنّ الثقافة كل مركب من ألوان السلوك و أسلوب التفكير و التكامل و التوافق في الحياة التي اصطلح أفراد مجتمع ما على قبولها فأصبحوا يتميّزون بها عن غيرهم من باقي المجتمعات الأخرى. و يدخل ضمن ذلك بالطبع المهارات و الاتجاهات التي يكتسبها أفراد المجتمع و تتناقلها، في صور و أشكال مختلفة، أجيال بعد أخرى عن طريق الاتصال و التفاعل الاجتماعي، و عن طريق نقل الخبرات و التجارب. و قد يتناقلونها كما هي أو يُعدّلون فيها وفق تغيّر الظروف و حاجاتهم الاجتماعية.

إنّ الثقافة هي ذلك الجزء من البيئة الذي قام الإنسان باختلاقه لنفسه، متمثلاً في الأفكار و المثل و المعارف و المعتقدات و المهارات و طرق التفكير و العادات و طرق معيشة الأفراد و قصصهم و ألعابهم و مواضيع الحب و الجمال عندهم و الأدوات المفضية إليهما و وسائلهم في الإنتاج و التقويم و الموسيقى التي يعزفونها و النظام الأسري الذي يسيرون عليه و غير هذا كثير مما أنشأه الإنسان ليجمع بين أفراد مجتمع من المجتمعات و يربط بين مصالحهم. و بمعنى آخر، الثقافة هي اللغة و مجموع العادات السائدة و الديانات و الاختراعات و العلوم في المجتمع و التي يتميّز بها مجتمع عن آخر و تؤدي إلى تحقيق وظائف الحياة الاجتماعية.

و الثقافة وليدة البيئة و ثمرة تفاعل الأفراد مع بيئتهم، لذلك كان من الطبيعي أن تتعدد و تختلف باختلاف البيئات (الشمال و الجنوب، الشرق و الغرب، المدينة و الريف). و كان من الطبيعي أيضاً أن تتعدد تعاريفها و تختلف، فمنها ما هو بالغ العمومية و الاتساع مثل تعريفها على أنّها طريقة حياة شعب من الشعوب، أو هي من نتاج التفاعل الإنساني، و ليست كل طريقة من طرق الحياة و ليس كل نتاج من نتاج التفاعل الإنساني ثقافة لأنّ الثقافة تقتضي الاشتراك.
و ثمة طرق و تفاعلات خاصة، و منها ما هو بالغ الخصوصية مثل وصفها على أنّها مجموعة من المعتقدات و الممارسات المتوارثة اجتماعياً، أو هي كل أنواع السلوك التي تنتقل بواسطة الرموز، أو هي تنظيم خاص من الرموز؛ فالثقافة لا تقتصر

على الموروثات الاجتماعية التي انحدرت من الماضي فحسب بل هي تغيّر للحاضر الذي نحياه و نعلمه، و المستقبل الذي نتصوره و نأمله. و لا تنحصر الثقافة أيضاً في تنظيم خاص من الرموز لأنّها أوسع من ذلك بكثير، كما إنّه من الصعب ترميز كل مكوناته. و قد وُجدت الثقافة قبل أن تعرف الأمم الرموز و قبل أن يشيع ترميز المدلولات عندها بكثير.

إنّ الثقافة، بذلك، لا توجد في غير مجتمع كما لا يوجد مجتمع من دون ثقافة. و من ثم يستند كل من المجتمع و الثقافة في ادراك ماهيته على فهم ماهية الآخر، و إن كان أحدهم لا يعني الآخر على وجه التحديد. و هي بهذا المعنى تختلف من تركيبة اجتماعية إلى أخرى؛ فمكونات الثقافة في إحداها تختلف عن مكوناتها في الأخرى، كما أنّ الثقافة في المجتمع الواحد تختلف في فترة زمنية عنها في فترة زمنية أخرى. و السبب أنّ الظروف و الأحوال التي تطرأ على مجتمع ما كثيراً ما تدفع بالناس إلى أن يعدلوا عن أفكارهم و معتقداتهم و وسائل معيشتهم و طرقهم في ذلك و أساليبهم العلمية و أنواع المعرفة لديهم و نظمهم السياسية و الاقتصادية. و يعني هذا بالطبع اختلاف عناصر الثقافة و تغيّر معالمها. و تعتبر المدنية أو الحضارة (civilization) آخر مرحلة من مراحل الثقافة، إذ إنّها تمتاز بالصناعات الضخمة و الفنون المتقدمة و الأساليب العلمية و التكنولوجية البالغة الدقة. و يميّز بعض العلماء بين الثقافة و الحضارة بقدر ما بين الاثنتين من اختلاف كمي في المحتوى، و من تعقيد في النمط مع عدم اختلافهم في النوع.

يلعب مفهوم الثقافة (culture) دوراً بارزاً في مختلف العلوم الإنسانية و بخاصة في العلوم الاجتماعية، مثل علم الاجتماع (Sociology) و علم الإنسان (Anthropology) و علم الادارة (Management) و علم النفس (Psychology). و يهتم أحد فروع علم النفس بدراسة الثقافات المختلفة، و يتخدها محوراً لاهتمامه و هذا هو علم الأنثروبولوجيا الثقافية (Cultural Anthropology). و لما كانت السمة الغالبة لهذا العلم تؤكد الاطار الثقافي كما تطور من الماضي إلى الحاضر، فإنّ فرعاً جديداً قد ظهر هو علم ثقافات المستقبل (Futures Cultures)، ليضيف بعداً جديداً لأهمية هذا المفهوم في الحياة العملية حاضرها و مستقبلها.

الثقافة كلمة عربية كانت معروفة لدى العرب قبل ظهور الإسلام و بعد ظهوره، و متداولة على اللسان العربي الفصيح. فقد وردت و تكررت في الشعر العربي القديم، و هو ديوان العرب، و تطرقت إليها معظم و أشهر معاجم اللغة العربية القديمة و الحديثة، مثل (لسان العرب) لابن منظور، و (معجم مقاييس اللغة) لابن زكريا، و (أساس البلاغة) للزمخشري، وصولاً إلى (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة[1].

و تدور معاني كلمة الثقافة في اللغة العربية حول الإدراك مع الظفر، قال تعالى {فإمّا تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من

(1)زكي الميلاد، المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، سلسلة الدراسات الحضارية، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2010، ص09.

خلفهم لعلكم يذكرون}[1](*)، و الحذق و الفهم، فثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً فطناً، و هي أيضاً سرعة التعلم. يرتبط معناها إذن بالإدراك و حسن الفهم مع الفطنة، أي ما يمكن أن نوجزه بأنّها البراعة في أي نوع كان من أنواع المعارف و العلوم، سواء أكانت إنسانية أم مادية؛ فالطبيب الماهر الذي يتقن حرفته يقال عليه مثقف بهذا المعنى أي ماهر في مهنته. و يبدأ المعجم الوسيط، الذي وضعه مجمع اللغة العربية في مصر، بالجذور اللغوية الأصيلة لكلمة الثقافة. فيذكر أصلها اللغوي من (ثَقِفَ) أي هذب، ثم ينتقل إلى تعريفها بأنّها العلوم و المعارف و الفنون التي يطلب الحذق فيها[2]. و نجد تعريف لسان العرب و القاموس المحيط في أنّ الثقافة من (ثقف) أي حذق و فهم و ضبط ما يحويه و قام به أو ظفر به، و كذلك تعني فطن ذكيّ ثابث المعرفة بما يحتاج إليه؛ و تعني تهذيب و تشذيب و تقويم و تسوية من بعد اعوجاج[3].

و تعني (cult) في اللغة الانجليزية مذهباً أو أسلوباً في الحياة، و تسمى بها الطائفة أيضاً؛ و تطلق (culte) باللغة الفرنسية على الطقوس الدينية[4]، إذ يُعد الدين في الحقيقة منهجاً و طريقة حياة. و يشير ذلك إلى الارتباط بالمعتقد الذي يؤثر بدوره في السلوك الصادر عن البشر و عن أوامر من العقل عموماً. و ينبغي أن نتوقف ملياً عند الاتجاه الفرنسي في استخدامه لكلمة الثقافة، إذ يبدو واضحاً أنّ التطور الدلالي النهائي للكلمة، و الذي سيمكّن لاحقاً من ابتكار المفهوم، قد برز في اللغة الفرنسية منذ عصر الأنوار قبل التداول به في اللغات الأخرى عن طريق الاقتراض مثل

(**1**)سورة {الأنفال، الآية 57}.

(*)إنّ الفعل (ثقف) الذي هو مصدر كلمة (ثقافة)، ورد في النص القرآني، و تطرقت إليه بعض معاجم ألفاظ و كلمات القرآن الكريم مثل كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني، حيث جاء في سياق الحديث عن الحرب و القتال، و تحدد بمعنى الإدراك و الظفر. و المقصود بالإدراك هنا الوصول إلى الشيء بالمعنى الحسي و الوجودي و ليس بالمعنى الذهني. و هذه التوظيفات التي وردت في النص القرآني هي: قال تعالى{و اقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم و الفتنة أشد من القتل} (سورة البقرة، الآية191)، و قال تعالى{فخذوهم و اقتلوهم حيث ثقفتموهم و أولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً} (سورة النساء، الآية91)، و قال تعالى{إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء و يبسطوا إليكم أيديهم و ألسنتهم بالسوء و ودوا لو تكفرون} (سورة الممتحنة، الآية2)، و قال تعالى{ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس} (سورة آل عمران، الآية112)، و قال تعالى{ملعونين أينما ثقفوا أُخذوا و قتلوا تقتيلا} (سورة الأحزاب، الآية61).

– لا يعد الاقتران الذي تكرر في الآيات المذكورة بين الفعل (ثقف) و بين الحرب و القتال غريباً، كما أنّه يمكن ملاحظة هذا الاقتران في أشعار العرب أيضاً، فقد استشهد أحمد فارس بن زكريا في معجمه (مقاييس اللغة) ببعض تلك الأشعار، كقول عدي بن الرقاع:

نَظَرَ المثقَّفِ في كُعوب قناتِهِ حتى يقيم ثِقافُهُ منآدها

و في بيت آخر يقول:

فإما تَثْقَفوني فاقتلوني و إن أُثْقَفْ فسوف ترون بالي

(ينظر زكي الميلاد، م س، ص15–16).

(**2**)ينظر المعجم الوسيط، ط4، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، 1425هـ–2004م، ص98.

(**3**)ينظر أبي الفضل بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ط3، مج9، دار صادر، بيروت، لبنان، 1994، ص19–20؛ و مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ–2008م، ص218.

(**4**)ينظر الطاهر لبيب، سوسيولوجية الثقافة، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1978، ص07.

الانجليزية و الألمانية. و يعود تشكل المعنى الحديث لكلمة الثقافة إلى العام 1700، إلا أنّ هذه الكلمة قديمة في مفردات اللغة الفرنسية تعود في أصلها إلى اللغة اللاتينية (cultura) التي تعني رعاية الحقول أو قطعان الماشية. ثم ظهرت في القرن الثامن عشر لتدل على جزء من الأرض المزروعة[1].

و يعتمد فرنسيس بيكون Francis Bacon صورة التثمير الزراعي للدلالة على أحد مرامي الفلسفة الكامن من وراء هذا المفهوم. و استخدمها بذات المعنى العديد من المفكرين الفرنسيين، حيث كانت كلمة (culture) تعني بالنسبة إليهم تنمية العقل و غرس فيه الفهم و الذوق و تزيينه بالمعرفة[2] ، و استعملها توماس هوبز Thomas Hobbes بمعنى العمل الذي يبذله الإنسان لغاية تطورية سواء أكانت مادية أم معنوية[3]. و يعد اهتمام الأوروبيين بملكة العقل و السعي وراء تهذيب الأنفس احدى أصول الحضارة الغربية و لبنة من اللبنات التي ساعدت على تكوين الفكر الأوروبي. و على الرغم من أنّه لم يكن للثقافة ذلك البعد التحريضي في بداية حياة الشعوب الغربية عامة، إلا أنّ الأمر سرعان ما تبدّل و أصبحت تلك من المسائل التي يوليها الأوروبيون كل العناية و الاهتمام. و سواء وظفت الثقافة بمعنييها اللغوي أو الاصطلاحي فإنّها تعني في كلتا الحالتين عملية الانتقال من مادة خام رجعية إلى مادة تحولية تقدمية تقبل التوظيف في شتى ميادين حياة الإنسان، و التي من خلالها يمكنه أن يرتقي بحاله إلى الصفة البشرية المتحضرة و التخلص من الحالة الحيوانية البدائية، و ذلك ما ستشهد عليه العديد من فترات الحضارة الأوروبية التي استطاع فيها الفرد أن يوظف ما اكتسبه من تقنيات و علوم (العقل) بعدما استطاع أن يسبر أغوار البيئة التي يعيش فيها و محيطه، و من ثم تسخير تراثهما لقضاء حوائجه و سد متطلبات عيشه، فأصبحنا نتحدث عن ثورة بل ثورات صناعية بكل المقاييس؛ ذلك ما ساعد على الانتقال من معنى الثقافة، التي كان ينظر إليها حتى هنا على أنّها صفات عقلية مجردة تكون مكتسبة، إلى معنى آخر أكثر شمولية يرتبط بالحضارة، أي بالجانب المادي من حياتنا.

الثقافة كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية (cultura) و التي اشتقت بدورها من كلمة (كولير) (colere) التي تعني

---

(1)voir Philippe Bénéton, Histoire de Mots: Culture et Civilisation, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1975, p19.

(**2**)ينظر معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يوليو 1987، ص48.

– ما يدعم فكرة أن كلمة (الثقافة) ظل معناها يتأرجح بين حرث الأرض و زراعتها طوال العصرين اليوناني و الروماني، هو ما ذهب إليه المفكر اليوناني شيشرون Ciceron الذي أطلق على الفلسفة تسمية (Mentis culture) بمعنى زراعة العقل و تهذيبه، مؤكدا على أنّ دور الفلسفة يكمن في تنشئة الناس و تكريم الآلهة.

(ينظر معن زيادة، م ن، ص29).

(**3**)ينظر معن زيادة (مجموعة من المؤلفين)، الموسوعة الفلسفية العربية، ط1، مجلد3، معهد الإنماء العربي، 1987، مادة (ثقافة)، ص382.

(يزرع الأرض)[1]. و للثقافة دلالات متعددة لهذا السبب أعطيت لها تعاريف عديدة؛ فعلى سبيل المثال قام كل من ألفريد لويس كروبير Alfred Louis Kroeber و كلايد كلوكهون Clyde Kluchhohn[2] في العام 1952 بوضع قائمة مؤلفة من مائة و أربعة و ستون تعريفاً لكلمة ثقافة في كتاب بعنوان (الثقافة: مراجعة نقدية للمفاهيم و التعاريف)[3]. و مع ذلك، فإنّه يمكن استخدام كلمة (ثقافة) للتعبير عن أحد المعاني الثلاثة الأساسية التالية:

– التذوق المتميز للفنون الجميلة و العلوم الإنسانية، و هو ما يعرف أيضاً بالثقافة عالية المستوى.

– نمط متكامل من المعرفة البشرية، و الاعتقاد، و السلوك الذي يعتمد على القدرة على التفكير الرمزي و التعلم الاجتماعي.

– مجموعة من الاتجاهات المشتركة، و القيم، و الأهداف، و الممارسات التي تميّز مؤسسة أو منظمة أو جماعة ما.

عندما ظهر هذا المفهوم لأول مرة بأوروبا في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، كان يشير فيما أشار إليه إلى عملية الاستصلاح أو تحسين المستوى، كما هو الحال في عملية الزراعة و البستنة. أما في القرن التاسع عشر، أصبح يشير بصورة واضحة إلى تحسين أو تعديل المهارات الفردية للإنسان، إذ لم تعد كلمة (ثقافة)، في بداية القرن السادس عشر، تدل على حالة الشيء المزروع بل على فعل زراعة الأرض، و لم يتبلور معناها المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، حيث أصبح يدل على تثقيف (الملكة) (culture d'une faculté) أي العمل على تطويرها لاسيما من خلال التعليم، و من ثم تحقيق قدر من الرخاء القومي أو القيم العليا. لكن هذا المعنى المجازي بقي قليل الشيوع حتى نهاية القرن التاسع عشر و لم يتم الاعتراف به أكاديمياً على الاطلاق، و لم يظهر في غالبية معاجم تلك الفترة[4].

و أكدت كلمة (ثقافة) حضورها بهذا المعنى المجازي في القرن الثامن عشر، و تمكنت من أن تلج به معجم الأكاديمية الفرنسية في طبعته لعام 1718. و منذ ذلك الوقت ألحق بها المضاف فصار يقال ثقافة الفنون، ثقافة الأدب، ثقافة العلوم كما لو كان تحديد الشيء المهذب ضرورياً. ثم تحررت كلمة (ثقافة) من مضافاتها تلك و انتهى بها الأمر إلى أن استعملت للدلالة على تكوين العقل أو النفس و تربيتهما. و عبر حركة عكسية لتلك التي لاحظناها سابقاً، تم الانتقال

---

(1)voir Wiener philip (ed), Dictionary of the History of Ideas, New York: Charles Scribmer's sons, (1), 1973, p613.

(**2**)يعرفها كلايد كلوكهن بأنّها "مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها؛ أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه و هي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو هي طريقة في التفكير و الشعور و المعتقدات، إنّها معلومات الجماعة البشرية مخزونة في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في المواد و الأدوات".

(كلايد كلوكهون، الإنسان في المرآة، علاقة الأنثروبولوجي بالحياة المعاصرة، تر.شاكر مصطفى، المكتبة الأهلية، بغداد، 1964، ص24-37).

(3) Kroeber, A..L, and C. Kluchhohn, Culture: A Critical Review of Concepts and Definions, Cambridge, M.A, Peabody Museum , 1952, p77.

(**4**)دوني كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر. قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص12.

من كلمة الثقافة باعتبارها فعلا أو عملية التعليم (instruire) إلى اعتبارها حالة العقل المثقف عن طريق التعلم، أي حالة الفرد الذي يملك ثقافة[1]. و تكرس هذا الاستخدام في نهاية القرن الثامن عشر من قبل معجم الأكاديمية الفرنسية في طبعته الصادرة العام 1798 و الذي تحدث عن (عقل طبيعي بدون ثقافة) مشيراً بذلك إلى تعارض في المفاهيم بين كلمتي الطبيعة و الثقافة. و أصبح هذا التعارض أساسياً عند فلاسفة عصر الأنوار الذين نظروا إلى الثقافة على أنّها سمة مميّزة للنوع البشري و أنّها محصلة المعارف التي تراكمها البشرية عبر تاريخها و تغيّرها باعتبارها كلية. و بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قام بعض العلماء بتوظيف كلمة الثقافة للاشارة إلى قدرة الإنسان البشرية على مستوى العالم[*].

برز مفهوم كلمة الثقافة في القرن العشرين ليصبح أساسياً في علم الأنثروبولوجيا[**]، و ليشمل بذلك كل الظواهر البشرية التي لا تعد بمثابة نتائج لعلم الوراثة بصفة أساسية، و هو أيضاً ما صعّب على الأنثروبولوجيين و علماء الاجتماع و التربية إعطاء تعريف واضح و صريح لمفهوم الثقافة[***].

و تنطلق الأنثروبولوجيا من ثلاث قواعد أساسية تندرج فيها جهود مختلف علمائها و تنبع منها تحليلاتهم و مناهجهم، و تتغلغل في تفسيراتهم و خلاصاتهم و نتائجهم. هذه القواعد هي:

1. تسير المجتمعات وفق نسق تطوري و نمط متصاعد انطلاقاً من الحالة البدائية الأولى –التي وجد عليها الإنسان في

(**1**)دوني كوش، م س، ص13.

(*)يقول جولز هنري في هذا الصدد :

"إنّ الإنسان الغربي باعتماده النظرية النسبية، و التشكيك الدنيوي الحاد في الثبات و الرفض المطلق ظاهراً أو خفياً لوجود إله متحكم في هذا الكون يسيّره وفق ارادته، كل ذلك جعل الإنسان الغربي يشعر دائماً بالحاجة إلى قاعدة يبدأ منها التفكير حول ذاته. و سواء أكان هذا الإنسان تاكيتس أم هيغل أم كيركغارد أم ماركس أم الأنثروبولوجيين جميعهم، فإنّهم دائماً يبحثون عن نقطة ثبات مرجعية تقف عندها تطلعاتهم و تنطلق منها مقولاتهم".

(جولز هنري، مصطلح البدائية عند كيركغارد و هايدغر، في أشلي مونتاغيو، البدائية، تر. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد53، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، مايو 1982، ص332-333).

(**)استخدم (علم الإنسان) لأول مرة العام 1755 من قبل ديدرو Diderot في مقالة له معنونة بـ (موسوعة) في الموسوعة. و في عام 1787 ابتدع ألكساندر دو شافان Alexandre César Chavannes مصطلح (علم الإناسة) (اثنولوجيا) باعتباره العلم الذي يدرس تاريخ تقدم الشعوب نحو الحضارة.

(***)يمكن أن نشير هنا إلى كتاب طاهر لبيب المعنون بـ (سوسيولوجية الثقافة)، و فيه يعرض المفاهيم المختلفة لكلمة (الثقافة)، و يشير إلى عدد المراجع التي عالجت هذه المفاهيم. و لأخذ فكرة عن هذه التعددية نورد الفقرة الأولى من مقطع له بعنوان (متاهات كلمة) و الذي يقول فيه :"مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولاً و لكنه أيضاً من أكثرها غموضاً و تلوناً. فالتعاريف التي اقترحت في المائة سنة الأخيرة على الأقل بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف. و إذا كان كربير kroeber و كلوكهن kluckhohn عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان قد صنفا قبل ربع قرن ما لا يقل عن 160 تعريفاً للثقافة، فإنّ التفرعات التي تبلورت بعد ذلك تزيد و لاشك في عدد هذه التعاريف المقترحة. و أمام هذا لا يستغرب إذا أن يكون من بين الأعمال الأكاديمية بحوث تنحصر في تتبع المغامرة التاريخية لكلمة ثقافة مبينة كيف أصبحت هذه الكلمة ضحية النجاح الذي حظيت به. لا يستغرب أيضاً أن يكتب ادجار موران Edgard Morin بعد مرور قرن على أول تعريف انتروبولوجي معروف للثقافة : "الثقافة بداهية خاطئة، كلمة تبدو و كأنّها كلمة، ثابتة، حازمة، و الحال أنّها كلمة فخ، خاوية، منومة، ملغمة، خائنة ... الواقع أنّ مفهوم الثقافة ليس أقل غموضاً و تشككاً و تعدداً في علوم الإنسان منه في التعبير اليومي".

(الطاهر لبيب، م س، ص6-7).

مرحلة ما بعد انفصاله عن عالم الحيوان- إلى المرحلة الراقية التي وصل إليها المجتمع الأوروبي المعاصر. و بذلك يتم تقسيم المجتمعات وفقاً لمعايير مستخلصة من مفهوم الثقافة بمعناها العام، بحيث وُضع سلم تدريجي يمكّن من تصنيف المجتمعات بحسب اقترابها أو ابتعادها عن الثقافة السائدة في المجتمع الأوروبي المعاصر، و من ثم ظهرت مفاهيم مثل اللحاق بالركب، تضييق الفجوة، و التحديث[1].

2. تنشأ الثقافة في مجتمع معين ثم تنتشر إلى المجتمعات الأخرى في ما يترجم بـ (الانتشار الثقافي)، أي انتقال الثقافة من المجتمع الأكثر رقياً إلى المجتمعات الأدنى أو الأقل تطوراً. و تحت هذا المعنى برزت مفاهيم مثل رسالة الرجل الأبيض، و الدور التحضيري لأوروبا، و الثورات الثقافية[2].

3. التثاقف أو المثاقفة (acculturation) و التي يقصد بها تأثر الثقافات ببعضها البعض نتيجة الاتصال بينها أيّا كانت طبيعة هذا الاتصال أو مدته. و قد عرّف كل من ميلفين هرسكوفيتز Melville J. Herskovits و رالف لنتون Ralph Linton و روبرت ردفيلد Robert Redfield التثاقف بأنّه التغيير الثقافي في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر، مما يترتب عليه حدوث تغيير في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في احدى الجماعتين أو فيهما معا. و عرّفه رادكليف براون Radcliffe Brown "بأنّه تغيّر الحياة الاجتماعية بفعل تأثر أو سيطرة الغزاة الفاتحين الأوروبيين، و خاصة في القارة الافريقية. و قد ارتبط هذا الدور بالبغي الأوروبي (الاستعمار)، و شكّل معه وسيلة أساسية للسيطرة على الشعوب غير الأوروبية، إذ إنّ هناك فارقاً كبيراً بين "Acculturation" و "Transculturation"، فالأخيرة تعني تبادلاً متساوياً، أما الأولى فتعني عملية نقل لثقافة معينة بل فرضها"[3].

و قد تنطوي كلمة الثقافة على تفسيرين اثنين في الأنثروبولوجيا الأمريكية، يُعنى الأول بنبوغ القدرة الإنسانية إلى حد يجعلها تصنّف و تبيّن الخبرات و التجارب بطريقة رمزية، و من ثم التصرف على هذا الأساس بطريقة ابداعية و خلاّقة. أما التفسير الثاني فيشير إلى الطرق المتباينة للعديد من الناس الذين يعيشون في أرجاء مختلفة من العالم، و التي توضح و تصنّف بدورها خبراتهم، و تؤثر بشكل كبير على تميّز تصرفاتهم بالإبداع، و على رؤيتهم للعالم في الوقت ذاته[*]. و في

(**1**)ينظر نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإقتصاد و العلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1994، ص81-82.

(2)see Ralph Linton, The Study of Man, An Introduction, New York: D. Appletine Century Company, 1963, pp324-345.

(**3**)حسين فهيم، قصة الأنثرويولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 98، فبراير 1986، الكويت، ص198-203.

(*)يقول كلود لفي شتراوس Claude lévi-strauss، عالم الأنثروبولوجيا البنيوية، أنّ الثقافة هي "مجموعة نظم رمزية تتصدرها اللغة، و قواعد الزواج، و العلاقات الاقتصادية، و الفن، و العلم و الدين. و تهدف كل هذه النظم للتعبير عن بعض جوانب الواقع الحسي و الواقع الاجتماعي".

(Jean Francois Hersent, Traduire ou la Rencontre Entre les Cultures, BBF N° 05, paris, 2003, p57).

أعقاب الحرب العالمية الثانية، صار لهذا المفهوم قدر من الأهمية و لكن بمعاني مختلفة بعض الشيء في التخصصات الأخرى، مثل علم الاجتماع، و الأبحاث الثقافية، و علم النفس التنظيمي.

من جهة أخرى، انطلق المفكرون الانجليز في المسائل السياسية و الدينية لينظروا إلى (culture) من زاوية تطبيقاتها العملية؛ فقد عرّفها ماثيو أرنولد Matthew Arnold بأنّها عملية ترتقي بنا نحو الكمال الإنساني و التي تتم بتمثل أفضل الأفكار التي عرفها العالم و بتطوير الخصائص الإنسانية المتميزة. و يرى أنّ (culture) الدينية –لكونها تعلم الاستقامة و الانضباط– تسهم إلى جانب (culture) العلمانية –التي تبلور الحقائق الموضوعية– في ترقية الحياة الإنسانية؛ و بذلك جاءت رؤيته للثقافة من منظور أنّها تساعد على ابتناء المثل الإنسانية.

كان لأنصار الحركة الإنسانية الكلاسيكية، في غضون القرن التاسع عشر، و منهم الشاعر و الكاتب الانجليزي ماثيو أرنولد مفهوماً آخر لكلمة الثقافة، حيث وظّفوها للاشارة إلى الصورة المثلى في دماثة الخلق، أو بصورة أخرى الوصول إلى أفضل ما توصل إليه البشر من طرق للتفكير قيلت أو اعتقد فيها آنذاك[1].

يعتبر مفهوم الثقافة هذا قريباً من مفهوم (البلدونغ) (bildung) باللغة الألمانية، و الذي يعني أنّ "الثقافة هي ما تهدف بدورها إلى تحقيق غاية الكمال عن طريق التعرّف على أفضل ما تم الوصول إليه فكراً و قولاً في كل ما يهمنا بصورة أساسية على مستوى العالم كله في ذلك الوقت"[2]. و بصورة عملية، فإنّ مفهوم (الثقافة) يشير إلى كل ما هو مثالي، أو يخص علية القوم أو الصفوة و كل ما هو وثيق الصلة بهما. و يدخل في عموم ذلك الفن، و الموسيقى الكلاسيكية، و فن الطبخ المتميّز و الأزياء الراقية. و تندرج التعاريف المعاصرة للثقافة ضمن ثلاثة أطر هي:

– الثقافة عملية تنمية للنواحي الفكرية و الروحية و الجمالية.

– الثقافة طريقة معينة في حياة شعب من الشعوب، أو مجموعة من المجموعات، أو حقبة من الحقبات.

– الثقافة هي جميع الأعمال و الممارسات الخاصة بالنشاط الفكري و الفني. و اتسمت كلمة الثقافة بكل ما تعنيه كلمة حضارة المشتقة من الكلمة اللاتينية (سيفيتاس) (civitas) التي تعني المدينة. و يعد الاهتمام بالفلكلور الشعبي من أهم ما يميّز الحركة الرومانسية، و هو ما أفضى إلى تعريف كلمة (الثقافة) بين العامة من غير النخب. و هذا التمييز يشبه إلى حد كبير ذلك الموجود بين النخبة من الطبقة الاجتماعية الحاكمة و عامة الناس؛ أي أنّ ذلك التخمين حول ماهية الثقافة الذي نشأ في أوروبا إبان القرنين الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر عكس بدوره حالة من عدم المساواة

(1)see Stefan Collini, Matthew Arnold: Culture and Anarchy and Others Writings, Cambridge University Press, 1993, p188.
(2) Idem, p188.

داخل المجتمعات الأوروبية.

يرى ماثيو آرنولد Mathew Arnold أنّ هناك تناقضاً بين كل من مفهومي (الثقافة) و (الفوضى السياسية)؛ مقلداً في ذلك عدد من الفلاسفة الآخرين من أمثال توماس هوبز Thomas Hobbes و جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau أصحاب النظرة القائلة بأنّ هناك تناقضاً بين مفهوم الثقافة و حالة الإنسان الطبيعية. فبالنسبة لهما عاش سكان أمريكا الأصليين من الهنود الحمر، الذين تعرضوا للغزو من قبل الأوروبيين بداية من القرن السادس عشر، بدافع الغريزة أو الفطرة، و قد تم التعبير عن ذلك من خلال التناقض بين (المتمدنيين) و (غير المتمدنيين). يمكن للواحد منا، من خلال هذا المنظور، أن يصنّف بعض الدول و الشعوب بأنّها أكثر تحضراً من غيرها، و بعض الناس على أنّهم أكثر ثقافة من غيرهم. و من ثم، أدى هذا التناقض إلى توصل كل من هربرت سبنسر Herbert Spencer إلى نظريته الداروينية الاجتماعية(*) (Social Darwinism)، و لويس هنري مورغان Lewis Henry Morgan إلى نظريته الخاصة بالتطور الثقافي(**). وقد أشار بعض النقاد (من أمثال فريدريش إنجلس Friedrich Engels) إلى أنّ التمييز بين الثقافات المتحضرة و المتخلفة يعزى في واقع الأمر إلى وجود حالة من الصراع بين الصفوة من الأروبيين و غيرهم ممن ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى (الطبقة العليا (High Class) أو الأرستقراطية التي يتوارث أهلها النفوذ و الثروة و طبقة الفقراء من الناس؛ أو النخبة (الصفوة (Intelligentsia)) و العوام). و هذا و أرجع بعض النقاد الفجوة بين الشعوب المتحضرة و غيرهم من الشعوب غير المتحضرة إلى الصراع القائم بين كل من الامبراطورية البريطانية من جهة و الدول التي شكلت مستعمراتها من جهة أخرى.

(*)ظهر مصطلح (الداروينية الاجتماعية) لأول مرة العام 1879 في مقالة لأوسكار شميدت في مجلة (Popular Science)، ثم في منشور بباريس يحمل عنوان (le darwinisme sociale)، أي (الداروينية الاجتماعية). و لم يكن هذا المصطلح متداولاً في العالم الناطق باللغة الانجليزية على الأقل حتى قام المؤرخ الأمريكي ريتشارد هوفستارد بنشر مؤلفه (الداروينية الاجتماعية في الفكر الأمريكي) العام 1944 خلال الحرب العالمية الثانية. اعتقد داروين أنّ الصراع على الموارد الطبيعية جعل بعض الأفراد، ذوي خصائص جسدية و عقلية معينة، أن يتكاثروا أكثر من غيرهم مما أدى، مع مرور الزمن و تحت ظروف محددة، إلى نسل مختلف إلى درجة أنّه يعتبر جنساً آخر. ادعى داروين أنّ (الغرائز الاجتماعية) مثل التعاطف و الاحساس الأخلاقي تطورت أيضاً بواسطة الانتخاب الطبيعي، و قد أدت هذه القيم إلى تقوية المجتمعات التي ظهرت فيها. و على الرغم من أنّ الداروينية الاجتماعية استمدت اسمها من داروين إلا أنّها تعتمد على مؤلفات العديد من الباحثين الآخرين، مثل هربرت سبنسر، و توماس مالتوس، و فرنسيس غالتون مؤسس علم تحسين النسل.

(**)يعتبر لويس هنري مورغان محام و عالم إنسان أمريكي، اهتم في بداية حياته بدراسة أمريند الاروكيز و غيرهم من سكان الشمال الشرقي الأمريكي الأصليين. حاول مورغان إعادة تركيب صورة المجتمعات الإنسانية و تصنيفها بغية التعرف على تاريخ المجتمع الأوروبي، و المراحل التي مر بها وصولاً إلى ما هو عليه في عصره. و قد تأثر مورغان بكتاب باخوفن (حق الأم) و بأبحاث لافيتو. كان اهتمام مورغان بنظم القرابة و النظم الاجتماعية و السياسية كبيراً مما دفعه للقيام برحلات واسعة بين الأمريند؛ و راسل المبشرين العاملين في جهات مختلفة من العالم مستفسراً عن أنظمة القرابة و التنظيمات الاجتماعية لدى الشعوب التي يبشرون بينها.

بالنسبة للنظرية التطورية الثقافوية، لا يمكن فهم العقل الإنساني إلا من خلال ربطه بالعقل التاريخي. إنّ فهم الممارسة النظرية ممكن فقط من خلال التاريخ بوصفه تاريخ بشر متجانسين تحتويهم دائرة واحدة عامة. أما التمايز فهو وليد ظرف تاريخي محدد. تمثل المجتمعات الإنسانية تواصلاً متجانساً مؤلفاً من طبقات تطورية و أقسام موازية. لقد رأى أنصار الاتجاه التطوري في التقدم ثمرة التكامل في الأدوات المادية و ثمرة التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية مركبة.

يعتبر عالم الأنثروبولوجيا البريطاني ادوارد تايلور برنت Edward Taylor Burnett واحداً من بين العلماء الانجليز الأوائل ممن وظفوا كلمة الثقافة بالمعنى الواسع و الشمولي[1]. و إذا كان ادوارد تايلور أول أنثروبولوجي وضع تعريفاً انا سياً للثقافة، فإنّه ليس أول من استخدم هذا المصطلح في علم الإناسة. و قد تأثر هو نفسه في استخدامه لهذا المصطلح بشكل مباشر بعلماء الإناسة الألمان الذين قرأ لهم لاسيما غوستاف كليم G. Klim الذي استخدم كلمة (kultur) بمعنى موضوعي خاصة حينما كان يحيل إلى الثقافة المادية، و هو ما كان مخالفاً للتقاليد الرومانسية الألمانية.

و قد كان تردد تايلور في الاختيار بين كلمتي (الثقافة) و (الحضارة) سمة من سمات سياق تلك الفترة. و إذا فضل في نهاية الأمر استخدام كلمة (الثقافة) فذلك لأنّه أدرك أنّ كلمة حضارة، حتى بمعناها الوصفي الصرف، تفقد طابعها باعتبارها مفعولاً فعالاً حين نطبقها على المجتمعات البدائية بسبب أصلها اللغوي الذي يرجع إلى تكوّن المدن، و بسبب المعنى الذي اكتسبه في العلوم التاريخية، حيث الدلالة على المنجزات المادية التي كان تطورها ضعيفاً في تلك المجتمعات.

كان تايلور يؤمن بقدرة الإنسان على التقدم، و كان يشترك في هذا مع الفرضيات التطورية التي كانت سائدة في وقته، و لم يكن يؤمن بمفهوم الوحدة النفسانية للبشرية الذي كان يفسر التشابهات الملحوظة في المجتمعات الشديدة التباين، فهو يرى أنّ العقل البشري يعمل في الشروط المتشابهة بشكل واحد في أي مكان. و بما أنّه من ورثة عصر الأنوار، فقد انضم أيضاً إلى فلاسفة القرن الثامن عشر أصحاب المفهوم العالمي للثقافة.

إنّ المشكلة التي كان تايلور يحاول حلها، من خلال تفسير واحد، هي المصالحة بين تطور الثقافة و بين عالميتها. يتساءل تايلور في الجزء الأول من كتابه (الثقافة البدائية) الذي نشر العام 1871، و هو كتاب قيل أنّه يؤسس للإناسة بوصفها علماً مستقلاً و الذي سرعان ما ترجم إلى الفرنسية عام 1876، عن أصول الثقافة و عن آليات تطورها. و كان أول إناسي يتطرق فعلاً إلى الوقائع الثقافية ضمن هدف عام و منتظم، و أول من اهتم بدراسة الثقافة في كل أنماط المجتمعات و في مختلف أوجهها المادية و الرمزية و حتى الجسدية. هذا و قد وافق بعض نقاد القرن التاسع عشر، ممن أعقبوا أرسطو، على هذا الاختلاف بين ثقافة ما كان يعرف بالأعلى و الأدنى؛ و لكنهم في الوقت ذاته أقروا بأنّ محاولة التعديل و التكلف في صياغة قالب من الثقافة العالمية المستوى تعد إفساداً بل و محاولة تعديل في غير موضعه، و الذي من شأنه جلب المفسدة و التشوه لفطرة الله التي فطر الناس عليها. و قد اعتبر جلّ أولئك النقاد هذه الشعوب الأهلية نبلاء بدائيون، إذ يعيشون حياة فطرية غير معقدة و لا تشوبها شائبة و لم تعبث بها أيادي أنظمة الغرب الطبقية الرأسمالية الفاسدة. و في العام 1870، قام ادوارد تايلور بتطبيق أفكار الثقافة الأعلى مقابل الثقافة الأدنى في محاولة من شأنّها

(1)عرّف تايلور ادوارد برنت E.T Burnett الثقافة العام 1871 بأنّها "ذلك المركب الذي يشمل المعارف، و المعتقدات، و الفن، و الأخلاق، و القانون، و كل الاستعدادات و العادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً ينتمي إلى مجتمع معين".

(Encarta, Encyclopédie professionnelle Eléctronique, ‘culture’, 2005).

اقتراح نظرية التطور الديني. وفقاً لهذه النظرية، يتطور الدين لدى الفرد من شكل للشرك المتعدد إلى شكل للتوحيد المطلق[1]. أعاد تايلور في هذه العملية تعريف الثقافة بأنّها مجموعة متنوعة من الأنشطة المميّزة لجميع المجتمعات البشرية. و بذلك مهدت وجهة النظر تلك الطريق لفهم ماهية الثقافة الحديثة.

وضع الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط Immanuel Kant تعريفاً شخصياً لمفهوم التنوير، و هو مفهوم مماثل لمفهوم (البلدونغ) (Bildung) الذي ذكرناه آنفاً: فكلمة تنوير تعني خروج الإنسان من حالة عدم النضج التي تكبّده الكثير من العناء[2]. و أشار كانط بأنّ هذا النضج لا يأتي من حالة عدم الفهم، بل يتأتى من حالة نقص في الشجاعة على التفكير بشكل مستقل. و نادى كانط بما أسماه سابير أوود Sapere Aude في محاولة منه لدفع هذه الحالة من الجبن العقلي بقوله: (كن شجاعاً لتكن حكيماً). و قد أثار بعض المعلمين الألمان، كرد فعل لما ذكره كانط، مثل يوهان غوتفرايد هيردر Johann Gottfried Herder بأنّ الإبداع البشري، الذي لا يمكن التنبؤ به و يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ أشكالاً متنوعة للغاية، لا يقل أهمية عن عقلانية الإنسان بأي حال من الأحوال. و علاوة على ذلك، عرض هيردر صيغة مقترحة من (البلدونغ): فهذا المفهوم يعد بالنسبة إليه بمثابة مجمع الخبرات التي توفر للفرد الهوية المتماسكة و الشعور بالمصير المشترك[3].

دعى العالم اللغوي و الفيلسوف الكبير ويلهام فون همبولدت Wilhelm von Humboldt لفكر من الأنثروبولوجيا، و الذي من شأنه تجميع اهتمامات كل من كانط و هيردير معا. وضع العلماء الألمان، ابان العصر الرومانسي، و خاصة أولئك الذين اهتموا بالحركات القومية مثل النضال القومي لتوحيد ألمانيا التي كانت عبارة عن مجموعة امارات مختلفة، و الصراعات العرقية للأقليات الوثنية ضد الامبراطورية النمساوية–الهنغارية، مفهوماً أكثر شمولية للثقافة بوصفها وجهة نظر عالمية. وفقاً لهذه المدرسة الفكرية، كان لكل جماعة عرقية نظرة عالمية متميّزة تتعارض مع وجهات النظر العالمية لدى المجموعات الأخرى. و على الرغم من شمولية و جهة النظر تلك مقارنة بما كان سائداً في الفترات السابقة، فإنّ هذا الاتجاه ما ينفك يغذي ثقافة التمييز بين كل من المتحضر و البدائي، أو ما يعرف باسم الثقافات القبلية.

نادى أدوف باستيان Adof Bastian بفكرة الوحدة النفسية للبشرية، إذ اقترح بأنّ المقارنة العلمية بين كافة

(1)see Mccleon James, Tylor Edward Burnett, Encyclopedia of Religion and Society, ed. William Swatos and Peter Kivisto, Walnut Creek: Altamira, 1998, p528-529.

(**2**)ينظر ايمانويل كانط، ما هو التنوير، تر. اسماعيل المصدق، مجلة فكر و نقد، ديسمبر 1997، ص143.

(3)see Michael Eldridge, The German Bildung Tradition, U.N.C Charlotte, p79.

المجتمعات البشرية من شأنّها أن تميط اللثام على حقيقة أنّ وجهات النظر العالمية المتميّزة تتكون من العناصر الأساسية نفسها. و بحسب باستيان، تتشارك كل المجتمعات البشرية في مجموعة من الأفكار الأساسية، و الثقافات المختلفة أو الثقافات الشعبية المختلفة و هي بمثابة تعديلات عامة للأفكار الأساسية. و أعطى هذا الرأي دفعاً قوياً لمزيد من الفهم الحداثي لمفهوم كلمة الثقافة. و نشأ فرانس بواس Franz Boas على نفس ذلك الرأي، ليس هذا فحسب، بل حمله معه عندما غادر ألمانيا في اتجاهه إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

إذا كان تايلور مخترع المفهوم العلمي للثقافة، فإنّ بواس هو أول أنثروبولوجي يقوم باستطلاعات ميدانية من خلال الملاحظة المباشرة و الطويلة للثقافات البدائية. و بهذا المعنى يكون مخترع علم وصف الأجناس البشرية (Ethnographie).

ينحدر فرانس بواس من أسرة يهودية ألمانية ذات تفكير ليبرالي. و قد تأثر بمسألة العنصرية و كان أحد ضحايا معاداة السامية على يد أحد زملائه في الجامعة. تابع دراسته العليا في الجامعات الألمانية المختلفة، فدرس الفيزياء أولا ثم الرياضيات و بعدها الجغرافيا الفيزيائية و البشرية. و قد شارك بواس في العام 1883 في بعثة إلى أرض (بافن) في بلاد الاسكيمو، فلاحظ أنّ التنظيم الاجتماعي كان محكوماً بالثقافة أكثر منه بالبيئة المادية. ثم سافر العام 1886 إلى أمريكا الشمالية للقيام باستطلاعات ميدانية لوصف الأعراق من خلال هنود الشاطئ الشمالي الغربي في كولومبيا البريطانية. و أقام في الأعوام 1886 إلى 1889 بين قبائل الكويوتل و الشينوك و التزيميشان، ثم عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية و تحصل على الجنسية هناك.

إنّ أعمال فرانس بواس تشكل كلها محاولة للتفكير في قضية الاختلاف، حيث يعتبر أنّ الاختلاف الأساسي القائم بين الجماعات البشرية هو اختلاف ثقافي و ليس اختلافاً عرقياً. و بما أنّه درس الأنثروبولوجيا الفيزيائية فقد أولى هذا الفرع اهتماماً كبيراً، لكن اهتمامه انصب على تفكيك ما كان يشكل في تلك الفترة مفهوماً رئيساً و هو مفهوم العرق. و قد أعطت جهود فرانس بواس دفعاً حقيقياً لهذا العلم، بحيث كان اهتمامه منصباً على التحليل الوصفي للظواهر الاثنوغرافية التي تبنى على التجربة و الاستقصاء و ليس فقط على الجوانب النظرية الجافة. و يمكننا القول بأنّ هذا الاتجاه هو من أكثر الاتجاهات الأنثروبولوجية و الإثنوغرافية جدية في فهم و تفسير الظواهر الإنسانية عامة.

و بخلاف تايلور الذي أخذ عنه تعريفه للثقافة، و ضع بواس نصب عينيه هدف دراسة الثقافات و ليس الثقافة. و لأنّه كان متحفظاً إزاء التركيبات النظرية، لاسيما النظرية التطورية ذات الاتجاه الواحد التي كانت سائدة في الوسط الفكري، فقد عرض في العام 1896، في مداخلة له، ما كان يعتبره حدود المنهج المقارن في دراسة الأعراق. و هاجم الاتجاه التطوري غير المتحفظ؛ و كان يرى أنّه لم يكن هنالك إلا القليل من الأمل لاكتشاف القوانين العامة لحركة

المجتمعات و الثقافات البشرية، و كذلك القوانين العامة لتطور الثقافات. و قد وجّه نقداً جذرياً للمنهج المسمى بـ (التحقيب) (périodisation) الذي ينطوي على إعادة بناء مختلف حقبات تطور الثقافة انطلاقاً من أصولها المزعومة. و ندين لبواس بالمفهوم الأنثروبولوجي حول النسبية الثقافية حتى و إن لم يكن هو من اخترع هذا التعبير الذي لم يظهر إلا لاحقاً، أو أول من فكّر بالنسبية الثقافية. و النسبية الثقافية عنده هي أولاً مبدأ منهجي. و بغية الإفلات من كل أشكال (العرقية المركزية) (Ethnocentrisme) في دراسة ثقافة معينة، أوصى بواس بدراسة تلك الثقافة دون أفكار مسبقة و دون مقارنتها قبل الأوان بثقافات أخرى.

زيادة على أنّ بواس يعتبر النسبية الثقافية مبدأ منهجياً، فإنّها تتضمن أيضاً مفهوماً نسبياً للثقافة. و نظراً لأصله الألماني و دراسته في الجامعات الألمانية فقد كان متأثراً بالمفهوم الذاتي الألماني (particulariste) للثقافة، إذ يرى أنّ كل ثقافة هي ثقافة وحيدة و نوعية. و كان اهتمامه مشدوداً بشكل عفوي إلى ما يكوّن أصالة ثقافة معينة. و لذا لم يسبقه أي باحث أبداً في موضوع دراسة الثقافات الخاصة بشكل مستقل، ذلك لأنّه يعتبر أنّ كل ثقافة تمثّل كلاً فريداً، و انصب جهده على البحث عن أسباب هذه الوحدة. و من هنا لم يكن اهتمامه قائماً على وصف الوقائع الثقافية فحسب بل فهمها أيضاً من خلال إعادة وصلها بالمجموع الذي ترتبط به. فالعرف الخاص لا يمكن تفسيره إلا برده إلى السياق الثقافي الذي هو سياقه.

كل ثقافة لها أسلوب خاص يتضح من خلال اللغة و المعتقدات و الأعراف و الفن و غير ذلك. و هذا الأسلوب هو نبض يخص كل ثقافة و يؤثر على سلوك الأفراد. و كان بواس يظن أنّ مهمة الإناسي أو عالم الأعراق تنطوي أيضاً على توضيح العلاقة التي تربط الفرد بثقافته.

شدد بواس في نهاية حياته على وجه آخر من أوجه النسبية الثقافية، و هو ما يمكن عده أيضاً مبدأ أخلاقياً يؤكد قيمة كل ثقافة و ينادي بالاحترام و التسامح إزاء الثقافات المختلفة. و طالما أنّ كل ثقافة تعبّر بشكل خاص عن كون الإنسان إنساناً، وجب إذن احترامها و حمايتها إذا كان يتهددها خطر ما.

إن نحن قمنا بملاحظة الإنسان في ممارسته لطقوسه الاجتماعية اليومية، و ما يتطلبه ذلك من أنواع النشاط سنجد أنّ أنماطاً عديدة من هذا النشاط تتكرر يومياً و بنفس الصورة تقريباً. و يعني ذلك أنّ الناس يميلون إلى الاتفاق أو التشابه فيما يبدر منهم من سلوك في المواقف المختلفة، أو يكون سلوكهم هذا مقنناً إلى أبعد الحدود.

و قد تساعد الثقافة على التمييز بين الفرد و الآخر، و بين جماعة و أخرى و بين مجتمع و آخر. بل إنّ الثقافة هي التي تميّز الجنس البشري عن غيره من الأجناس لأنّها هي التي تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري.

يعتبر منتسكيو Montesquieu في نظر الكثيرين مؤسس العلم الاجتماعي، و إن لم يستخدم لفظاً وظيفياً يربط الوظائف بنماذج التنظيم الاجتماعي. يُميّز منتسكيو في كتابه الشهير (روح القوانين) بين ثلاثة نماذج لأنظمة الحكم: الجمهورية–الملكية–الاستبدادية. و يعتبر هذا التصنيف عند الكثيرين تصنيفاً للعلاقات الاجتماعية كذلك[1]. إنّ هذه المبادئ ضرورية للحفاظ على روح كل نظام، مثل الشرف في الملكية، و الفضيلة في الجمهورية و الخوف من الحكومة الاستبدادية.

و رفض أوجست كونت Auguste comte تصنيف منتسكيو للأنظمة الاجتماعية السياسية، أو بالأحرى للأنماط في المجتمع. يعنى كونت بجانبين أساسيين تقوم عليهما الحياة في المجتمع هما: التوابث الاجتماعية و الديناميات الاجتماعية[2]. يقصد بالتوابث الشروط الضرورية لوجود مجتمع ما، أو ما الذي يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة في هذا المجتمع. أما الديناميات فإنّها تتناول التغيّر الاجتماعي أو العوامل و الأساليب التي يتغيّر بها المجتمع. و يقدم كونت نظريته في التطور الاجتماعي بمراحله الثلاثة: من اللاهوتية (الدينية) إلى الميتافزيقية (ما وراء الطبيعة) إلى الوضعية (العلمية). و قد أولى منتسكيو، لكن كونت بدرجة أقل، عناية خاصة بوظيفة الدين كعامل في الاستقرار الاجتماعي لأنّه ينبغي عليه وظيفياً، حاله في ذلك حال القوانين، أن ينسجم مع نمط العلاقات الاجتماعية، و لربما صح قول اليوت بأنّ الثقافة "دين جديد من حيث دورها في تحسين الحياة"[3].

و في حديثنا عن الثقافة، لا بد أن نشير إلى مسألة التنصل عن الهوية، و اتباع سنن جديدة لا تمث بأي صلة لتلك التي نشأ الفرد فيها، و ترعرع بين ربوعها. و السبب في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى سياق فرضته ظروف تاريخية و حضارية معينة تشبه كثيراً تلك التي تحدث عنها ابن خلدون في مقدمته، حيث يقول بأنّ "المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره و زيّه و نحلته و سائر أحواله و عوائده"[4]، و حتى في لسانه. و يعكس ذلك بشكل لافت ما ذئب عليه الاستعمار حتى في عصرنا هذا، من تجريد للثقافة المحلية، و تهديم للبنى و التراتبية الاجتماعية و تعجيم للألسن، و ما تبع ذلك من ظهور للحركات الثورية، و المنظمات الانفصالية، و مؤسسات تدافع عن الحقوق الأقليات العرقية و الدينية المستضعفة و تدود عنها.

---

(1)ينظر مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، تر. علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 223، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1978، ص15.

(2)م ن، ص15.

(3)علي عقلة عرسان، حرية الابداع في المجتمع العربي، الثقافة و الابداع، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، في الخطة الشاملة للثقافة العربية(2)، تونس، 1992، ص56.

(4)عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر العربي، بيروت، 1982، ص255.

إنّه من تنصل عن هويته و تنكر لها سيبقى دوماً حبيس الاستلاب و فريسة سهلة للغزو الثقافي الأجنبي، فالتنصل بالتالي، و التمزق، و الانسلاخ، و الانبهار، و غير ذلك من العبارات الدالة على المعنى نفسه تسيء للنماذج الثقافية البدئية (original cultural patterns)، بل وتمحقها. لذلك كان من الواجب أن نحصّن أنفسنا، و نقوي ذواتنا لمجابهة الخطر المحذق بنا، و الذي يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى ضمنا إليه، و تغيير الصبغة المحلية و الوطنية و القومية بصبغات أجنبية و أعجمية ذخيلة، لنظل خانعين و تائهين بين ثقافة الغالب و ثقافة المغلوب[1]، لا نحن من هذا و لا نحن من ذاك.

يعترف ريموند وليامز[*] Raymond Williams، الكاتب المنهجي المدقق، في مقدمة كتابه (الثقافة و المجتمع) بصعوبة تحديد مفهوم لكلمة الثقافة، و هو الذي يعد من أوائل الكتّاب الذين استنوا سنّة تحديد ماهية المصطلحات و الكلمات المفتاحية تحديداً مضبوطاً و صارماً في بداية كل دراسة. و يقول ريموند وليامز عن موضوع الثقافة: "نظراً لاتساع مدى مرجعيتها، يبدو ضرورياً –على أية حال– إقامة التساؤل منذ البدء على قاعدة عريضة. و كنت في البدء نويت أن أحافظ على التصاق شديد (بالثقافة) نفسها، و لكن كلّما تفحصتها بشكل وثيق كان علي أن أعيد ترتيب حدود احالاتي"[2].

و إن نحن قمنا بتصفح المعاجم لوجدنا أنّ التعاريف الخاصة بكلمة الثقافة تتعدد و تتنوع، بل و تنفلت من مفهوم إلى آخر: فمثلاً يذكر معجم (وبستر) (webster) المطول للقرن العشرين أنّ كلمة ثقافة تشمل مايلي:

– تهذيب و تدريب العقل و العواطف و آداب السلوك و غيرها.

– حصيلة هذا التدريب كله.

– مفاهيم و عادات و مهارات و فنون و أدوات و مؤسسات ...إلخ تخص شعباً معيناً في فترة معطاة من الفترات أي الحضارة[3].

و تعود المرادفة بين كلمة (culture) و كلمة (civilization) إلى المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة الذي يشير إلى أنّ كلمة الثقافة باللغات الأوروبية المختلفة أوسع دلالة منها في اللغة العربية التي تسعى إلى ابقائها حبيسة نطاق الأدب و الفن و المعرفة. لكن الثقافة في مفهومها أوسع من ذلك بكثير. تتجلى في المهارات الفردية التي تحكمها الخبرات المتوارثة عبر الأزمنة، ثم في اللغة المتداولة بين المجموعة البشرية الواحدة، ثم في الجغرافيا التي تنتمي إليها هذه المجموعة

(1)ينظر مزيان عبد المجيد، عواقب التعايش بين ثقافة الغالب و ثقافة المغلوب، مجلة الثقافة، العدد 71، أكتوبر 1982، الجزائر، ص65.

(*)ينتمي ريموند هنري ويليامز Raymond Henry Williams إلى مجموعة الاشتراكيين المائة في بريطانيا، و هي مجموعة رفيعة المستوى الأكاديمي و متزمتة منهجياً و وجدانياً. توفي العام 1988.

(2) Raymond Williams, Culture and Society, Peguin, 1988, p17.

(3)see Webster, New Twentieth Century Dictionary-unabridged, U.S.A, 1978, 'culture', p102.

و تعيش بين أحضانها و التي تلقي، لا محالة، بظلالها على الطبيعة البشرية لهذه المجموعة، و على حال لسانها و على خصوصيتها البنيوية المورفولوجية (لون البشرة، القوة الجسدية، تحمل قسوة الطبيعة من عدمه)، و غيرها من الأمور التي تنبني عليها الخصوصيات الإثنوغرافية عامة.

و قد اضطلعت المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم (الكسو ALECSO) بدور ريادي في اعطاء دفع قوي و نقلة نوعية للثقافة عبر بلدان القطر العربي من خلال الخطة الشاملة للثقافة العربية. و قد تجلى ذلك من خلال الجهد الذي استغرق زهاء عقد من الزمن. و كان الميل، من خلال تلك الخطة، إلى المعنى الفكري و الفني الابداعي مع محاولة الاحتفاظ بجانب من المعنى الاجتماعي و آخر من المعنى الأنثروبولوجي. و تشمل ثقافة الأمة، بحسب المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، "مجموع النشاط الفكري و الفني بمعناهما الواسع، و ما يتصل بهما من المهارات أو يعين عليهما من الوسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى ... أو أنّها تشمل مجموعة المعارف و القيم و الالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها، و طرائق السلوك و التصرف و التعبير و طرز الحياة"[(1)].

لقد كانت الثقافة، طوال أزمنة مديدة، تخصصاً رفيعاً يقتصر على الحاشية الحاكمة و الطبقات المسيطرة و الموسرة التي كانت تتبجح ببعدها عن العامة و الغوغاء و انزوائها على الصفوة المختارة. و قد كانت قضية جماهرية الثقافة هجينة على أسماع مثقفي الغرب. و يمكن أن نشير إلى مثال انتقالي مرتبط بتاريخ المؤتمر الأول لليونسكو العام 1946. و يتمثل في محاضرة الشاعر الفرنسي لوي أراغون Louis Aragon في تلك المناسبة. و قد كان جلياً أنّ عنوان المحاضرة (الصفوة المختارة، تجارب الثقافة) جاء رداً على النزاعات التي كانت حتى ذلك الحين تحاول –من على منبر اليونسكو و خارجه– أن تتشبث بفكرة اصطفائية الثقافة، و أن تعبّر عن خوفها من التقهقر الذي يمكن أن تتعرض له الثقافة إن هي نزلت إلى الجمهور. إنّ محاضرة أراغون تلك وثيقة تاريخية–ثقافية كبرى، فهي موجّهة مباشرة ضد النزعات الترفعية في الثقافة، و تحاول أن تؤسس لعصر ثقافي جديد تكون فيه الجماهير شريكاً فاعلاً في عملية الثقافة بشقيها الانتاجي و الاستقبالي، على أساس ما أسماه أراغون[(*)] (النظرة الديمقراطية إلى الحضارة).

---

(1)المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، الخطة الشاملة للثقافة العربية، ذات السلاسل، ثلاث مجلدات بأقسامها المختلفة (خمسة كتب)، الكويت، 1986، ص42 (ينظر كذلك مستند هذه الخلاصة في بحث الدكتور فؤاد زكريا (المبادئ الأساسية للتخطيط الثقافي من زاوية عربية، م3، القسم الأول، ص99–101).

(*)يقول أراغون: "ولكني إن احتججت أنا أيضاً على هذا التعبير (ثقافة الجماهير) فإنني لا أحتج عليه لهذا السبب فحسب، لا أحتج عليه من قبل التأدب مع العدد الأكبر من الناس، بل لأنّ مثل هذا التعبير يفترض أنّ هناك ثقافتين تختلف طبيعة احداهما عن طبيعة الأخرى: ثقافة الجماهير و ثقافة العدد صغير من الناس. و أريد قبل كل شيء أن أضع هذا المبدأ، و هو أنّ الثقافة واحدة لا تنقسم، و إنّها ليست حصة عدد من الأفراد يستمدونها من سحب رؤوسهم، و إنمّا هي ملك مشترك بين جميع الناس، و إنّ الجماهير أو الشعوب أو الأمم –أو ما شئتم فسموها– إنّما تمتد جذورها الوطيدة في الإنسانية، و إنّها من أعماق الأمم تستمد أصلها و مبدأ نموها و تجددها".

(لوي أراغون، الصفوة المختارة، تجارب الثقافة، من كتاب في الثقافة (عدد خاص من مجلة المعلم العربي)، تر. سامي الدروبي، و هو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقيت بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول لليونسكو العام 1946، مجلة المعلم العربي، العدد7–8، ص8، أيار–حزيران 1955، ص94–112).

يعتبر ادوارد سعيد واحداً من بين هؤلاء الذين تمكنوا من اختراق تلك النظرة الغربية التقليدية التي كانت قائمة على مدى عقود طويلة إبان القرنيين الماضيين، و كيف استطاع أن يحوّل الأنظار إلى ما هو حيوي و هام. و تعتبر مقالة ماثيو آرنولد Mathew Arnold (الثقافة و الفوضى) (culture and anarchy)، التي أشرنا إليها آنفاً و التي مازال بعض الناس يذكرها عن ظهر قلب، المؤسسة لتلك النظرة. و بعده، حمل هذه الراية فرانك رايموند ليغيز Frank Raymond Leavis الناقد المعروف الذي يذكره تاريخ النقد الأدبي على أنّه كان رائداً في تسليط الضوء على النص في دراسة الأدب عوض مقاربته على أساس أنّه مادة تاريخية أو سيرة ذاتية. و كان أول ما نشر كتابه المعنون بـ (حضارة الجماهير و ثقافة الأقلية) (Mass civilization and minority culture) الذي أبدى فيه تخوفاً من الثقافات الجماهيرية خشية أن تؤثر على ثقافة النخبة، و قد ضرب مثالاً عن ذلك حال المعسكر الشيوعي آنذاك.

و في الخمسينات و أوائل الستينات انهارت المؤسسة الليغيزية التي كانت قد جمعت حولها أتباعاً كثر عرفوا باسم (ليغيز)، و حلت الثقافة بحرفها الأول الصغير (culture) التي تشير في الوقت ذاته إلى مجموعة من الثقافات محل ثقافة الصفوة الواحدة التي كانت تكتب عادة بحرف تاجي (Culture)، و ذلك حفاظاً على تميّزها بوصفها ثقافة الصفوة البرجوازية.

لقد قدم لنا ادوارد سعيد مساهمة جليلة في ميدان الثقافة شهد له العالم بها، بدءاً من محاضراته التي ألقاها في هيئة الإذاعة البريطانية و نشرت فيما بعد تحت عنوان (صور المثقف)، و التي دعا فيها المثقف إلى الجهر بالحقيقة في وجه السلطان، و إلى أن يكون المثقف هاوياً لا مهنياً بمعنى أن يكون حراً، ثم كتابه (الثقافة و الامبريالية) الذي أصبح مرجعاً مهماً في ميدان الثقافة.

يقول ادوارد سعيد أنّ الثقافة تملك عنصراً كونياً يجعلها تسمو على الإقليمية و القومية و المحلية و الآنية و العرقية و الطبقية و غيرها من التصنيفات التي ظلت، إلى عهد قريب، تثقل كاهلها. و قد بيّن ادوارد سعيد أنّ كل ثقافات العالم متداخلة فيما بينها، و أنّها تأخذ من بعضها البعض و تعطي بعضها بعضاً؛ و هذا ما كان سبباً في اغناء الثقافة. و من المعروف أيضاً أن ادورد سعيد ساهم في إخراج الثقافة من برجها العاجي الذي ظلت تقبع فيه ردحا من الزمن، إذ قدمها على أنّها نمط من العيش يمارسه أي مجتمع بتلقائية تجعل من الصعب اخضاعه لمنطق جاهز أو تبرير مسبق.

في الحقيقة لا ينتج البشر مجتمعاً فحسب، بل ينتجون مجتمعاً ذو أشكال متعددة يستعصي علينا حصرها، يتغير دائماً و أبداً، و هو بالغ التعقيد في بناه و تفاصيله. و لا يمكن أن نجد مجتمعاً آخر ينضوي على مثل هذه التعقيدات و مثل هذه الخصوبة مثل المجتمع البشري. لذلك تعتبر المشكلة المحورية في علم الأنثروبولوجيا تنوع الحياة الاجتماعية و الثقافية للبشر.

تشير روث بنيديكت Ruth Benedict في كتابها (أنماط الثقافة) (Patterns of culture) الذي صدر العام 1935 إلى حكاية مثيرة تزخر بالمعاني، إذ تصوّر الإحساس بالصدمة اتجاه الاستعمار و صورته بين الشعوب المحتلة؛ بالإضافة إلى نظرة ثاقبة و رؤية جوهرية عن تنوع الأعراق.كلها أبعاد تلخّص رؤية بنيديكت الخاصة عن التنوع الثقافي. تقول بنيديكت "تحدث إليّ أحد شيوخ الهنود الحفارين، (وهم الهنود الحمر الذين يعيشون على اتخاد جذور النباتات التي يستخرجونها من باطن الأرض طعاماً لهم) كما يسميهم أهل كاليفورنيا، حديثاً طويلاً عن أساليب أبناء جلدته في أيام زمان. كان مسيحياً و زعيماً من زعماء أهله في زراعة الخوخ و المشمش في الأراضي المروية. غير أنّه كان إذا ما تحدث إلى أحد رجال الدين المشتغلين بالسحر، المسمين الشامان و قد كان بامكانهم أن يحولوا أنفسهم إلى دببة أمام عينيه اثناء رقصة الدب، كانت يداه ترتجفان، و صوته يتهدج بفعل حالة الاستثارة التي تغلب عليه. لقد بدا شعور أبناء شعبه بسلطان الأيام الخوالي أمراً فريداً. و كان أحب شيء لديه الحديث عن ... الأطعمة التي كانوا يأكلونها ... كانوا يطعمون (خير الصحراء) كما قال. و لم يعرفوا شيئاً عن محتويات علب الصفيح، و لا الأشياء المعروضة للبيع أو محال الجزارة. و فجأة، و دون مقدمات قطع رامون حديثه عن طحن نبات المسكيت و إعداد حساء جوزة البلوط و قال: في البدء أعطى الرب لكل شعب كأساً من الفخار، و شربوا جميعاً جرعة الحياة بهذا الكأس ... إذ غمسوا جميعاً كؤوسهم في الماء، و لكن كؤوسهم لم تكن سواء. و ها قد تحطم كأسنا الآن. انقضى زمانه و لم يعد له وجود"[1] .

إنّ نحن أمعنا النظر في قصة بنيديكت على لسان رامون فسينتهي بنا المطاف إلى فهم فكرتين أساسيتين: مرارة الاحساس بفقدان ماض مجيد و تاريخ حافل لا يعوض، و الشعور بوجود تباين عرقي متجدر في أي مجتمع. و تؤكد بينديكت أنّ الثقافات تتصف بالوحدة الشاملة المتكاملة التي لا تقبل أي رأب للصدع أو رتق للفتق، فالثقافة بالنسبة لها "شأنها شأن الفرد، نمط من الفكر و العمل المتسق مع بعضه البعض بدرجة أو بأخرى"[2].

و تعلق بنيديكت على ما قاله رامون بقولها إنّ "الأشياء التي أضفت معنى و دلالة على حياة شعبه–و الطقوس المحلية عند تناول الطعام، و التزامات النظام الاقتصادي، و تعاقب الاحتفالات الجماعية في القرى، و الاستغراق في رقصة الدب، و معانيهم حول الخطأ و الصواب ... لقد ولت جميعها و اختفت، و اندثر معها شكل حياتهم و معناه ... لم يقصد رامون أنّ ثمة شكاً فيما يتعلق بانقراض أهله، و لكنه يحتفظ في وعيه بذكرى فقدان شيء عزيز قيّم يعادل الحياة

(**1**)مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية: نشأتها و تنوعها، تر. شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب (سلسلة كتب ثقافية شهرية)، الكويت، يناير 1998، ص37-38، نقلاً عن (R. Benedict, patterns of culture, p15)، (العنوان الأصلي: (Michael Carrithers, Why Humans Have Cultures, Oxford University Press, 1992)

(**2**)م ن، ص39، نقلاً عن (R. Benedict, Patterns of Culture, p16).

ذاتها، هو جماع نسيج معايير شعبه و معتقداته"[1].

إذن فثقافة مجتمع بشري ما تتبدل و تتغير وفقاً للمتطلبات الاجتماعية و المعيشية و الأحداث التاريخية و غيرها، لكنها قد تندثر و تختفي و تزول إلى الأبد. و يعني هذا أنّه مهما بلغت أمة من الأمم شأواً ثقافياً و حضارياً فسيأتي عليها يوم تسلم بدورها هذا المشعل الثقافي و الحضاري إلى أمة ستكون بدورها رائدة بثقافتها و حضارتها لردح من الزمن. لكن الأهم من ذلك كله، في قصة بنيديكت، هو وجود ظاهرة ثقافية لا تقل أهمية عن جميع الظواهر الثقافية الأخرى و هي ظاهرة فقدان الثقافة التي تعود إلى عدة عوامل؛ فإذا كانت ظاهرة المثاقفة على سبيل المثال تفاعلاً اختيارياً بين جماعتين أو أكثر تنبني على الأخذ و العطاء المتبادل، فإنّ ظاهرة فقدان الثقافة ظاهرة قصرية و استلابية يتفشى فيها مبدأ البقاء للأقوى.

و المصير الآخر الذي يقع فيه الكثير من أفراد المجتمع الواحد، بل و واقع معاش بحلوه و مره، الجمع بين ثقافتين في آن واحد بعيدتين كل البعد من حيث الماهية و الصنف و القيم و أساليب التفكير. و تعتبر بنيديكت هذا الأمر بمثابة المصير الصعب، كما تردد صدى هذه النظرة أيضاً على لسان مارجريت ميد Margaret Mead التي ترى أننا "إذا ما أدركنا أنّ كل ثقافة إنسانية، شأن كل لغة، هي كل متكامل ... إذن نستطيع أن نرى أنّ الأفراد أو جماعات البشر إذا ما كان لابد أن يتغيروا ... فسوف يكون الشيء الأهم هو أن يتحولوا من نمط كلي متكامل إلى آخر"[2].

و لنا في الكثير من المجتمعات أمثلة عن ذلك، في كندا على سبيل المثال هناك صراع راسخ منذ زمن بعيد بين المتكلمين باللغة الفرنسية و نظرائهم الناطقين باللغة الانجليزية. و لا تكاد توجد أي بقعة في العالم يتجسد فيها هذا الصراع الخفي و إصرار اللغة الفرنسية على المحافظة على صورتها التي اهتزت و قهر توسع اللغة الانجليزية كما هو الحال في كندا، بل وصل هذا السجال الخفي إلى المستوى الرسمي، إذ هنالك من المؤسسات و الادارات من تشهر إعلاناتها و تعرض خدماتها باللغتين معاً. و ليس حال بلجيكا في ذلك بأفضل حال، فالصراع المتأجج بين الوالونيين و الفلمنكيين يكاد يزج بها في دوامة ثقافية غير محمودة العواقب، و ما استقالة الحكومات المتتابعة و دخول البلاد في فراغ سياسي إلا دليل على ذلك. بل و حتى في غينيا الجديدة التي تحصي وحدها سبعمائة لغة. و من ثم هنالك بالمقابل سبعمائة شكل مختلف من أشكال الثقافة و المجتمع. يكون الفرد، في مثل هذه المجتمعات، في رحلة البحث عن ماهيته؛ رحلة الغدو و الرواح الدائمة من ثقافة الأنا إلى ثقافة الأنا الذي ليس بالأنا، و هو ما يجعل من ذات الفرد متعدد الأنوات في الجسد الواحد. و لنا أن نتساءل: ترى كم عدد الأشكال المختلفة للحياة المحتمل وجودها في عالم البشر كله؟ لنفكر معاً في آسيا

(1)مايكل كاريذرس، م س، ص39-40.

(2)م ن، ص40، نقلاً عن (Mead, quoted in fox, Lions of the Punjab, p192).

و افريقيا و أوروبا التي تضم لغات كثيرة، و بالتالي العديد من الثقافات و التراتبيات الاجتماعية المتباينة.
و قد كان ذلك سبباً مباشراً في نشأة نمط الثقافة العالمية أو (الكوزموبوليتانية)[1](*).يعتبر هذا النمط من الثقافات الأكثر تجسيداً للتفاعلات الثقافية، بحيث إنّه يخوّل للفرد أن يكون محلياً بانتمائه و لكن عالمياً في تفاعله و مشاركته.

تعتبر الثقافة أيضاً نتاج العلاقات بين الأفراد، بغظ النظر إن كانت هذه العلاقات بسيطة ساذجة أم مركبة حصيفة، و هي ذات مغزى سببي بالدرجة الأولى. و يعني ذلك أنّ الكائنات البشرية لا تقنع فقط بمجرد الحياة في علاقات، بل إنّها تنتجها لكي تعيش. و تبتكر على مدى وجودها سبلاً جديدة للفعل و الفكر، لتفكر و تعمل سواء بالنسبة لبعضها البعض، أو بالنسبة للطبيعة المحيطة بها؛ و من ثم، فإنّ البشر ينتجون الثقافة و يخلقون التاريخ[2].
و معنى ذلك أنّ الأفراد لا يكسبون عيشهم فرادى بل على نحو جماعي، و ذلك حتى في أبسط المجتمعات التي تفتقد للتكنولوجيا. و لا يمكن أن تعيش أي جماعة بشرية ما إلا إن هي وحدت جهودها و تكافلت فيما بينها. فاللغة التي نتداولها، على سبيل المثال، لن تكون لها أية قيمة إلا إذا تداولناها مع الآخرين، و سلوكنا المكتسب، من طرائق التفكير و أساليب العيش و غيرها، لن يكون ذا قيمة إلا في تصور الأفراد الآخرين و نظرتهم إلينا، أو من منظور تصورنا نحن للأفراد الآخرين و نظرتنا إليهم. فالثقافات، إذن تفترض مسبقاً وجود هذا الحس التفاعلي القابع وراء هذه العلاقات.

يعيش البشر داخل شبكة هائلة و معقدة من العلاقات مع بعضهم البعض، و يبذلون جهداً مشتركاً في سبيل فهم العالم الطبيعي و التعامل معه. و من خلال هذا المنظور، فإنّ الثقافة، أو ما أصطلح عليه علماء الاجتماع الفرنسيون تسمية (التصورات التمثيلية الجمعية) (les representations collectives)، قائمة ضمن هذه العلاقات و من خلالها، و أنّه لا سبيل للفصل بين أهمية و دلالة التصورات الجمعية و بين مختلف العلاقات.

---

(1)يقول جون تومليسون في هذا الصدد: "إنّ الأصل الاشتقاقي للمصطلح (كوزموبوليتاني) واضح بما فيه الكفاية: من الكلمة اليونانية كوزموس kosmos التي تعني (عالم)، وبولِس polis التي تعني (مدينة). و من ثمَّ، فإنّ الكوزموبوليتاني هو مواطن عالمي. و الآن، من الواضح أنّ فكرة المواطنة هذه لها تضمينات محددة في مجال السياسة ضمن السياق الخاص بالعولمة. و قد تمثل أحد التأكيدات الهامة هنا –في خطاب تعود أصوله إلى الفكرة السياسية الدولية التي طرحها إيمانويل كانط Kant– في التفكير ملياً في جدوى النماذج الديموقراطية و المؤسسات السياسية التي تتخطى نظام الحكم الخاص بالدولة القومية (Held 1992, 1995). لكن المقاربة التي أود أن أنظر من خلالها إلى فكرة الكوزموبوليتانية هي، بوضوح، باعتبارها رمزاً ثقافياً: يضيف معجم أكسفورد الموسوعي للغة الإنجليزية إلى تعريفها معنى التحرر من المقيدات و صور الانحياز الوطنية، و هذا يقترب بشكل أكبر من المعنى الذي أسعى إليه. فأن (تكون مواطناً عالمياً)، بالنسبة لأغراضنا هنا، يعني أن تكون لديك نزعة ثقافية، و التي لا تقتصر على الاهتمامات المتعلقة بالناحية المحلية المباشرة، بل تعترف بالانتماء، و المشاركة، و المسؤولية العالمية، و يمكنها دمج هذه الاهتمامات الأوسع في ممارسات الحياة اليومية". (جون تومليسون، الثقافة و العولمة، تر. إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة، العدد 354، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، أوت 2008، ص246-247).

(*)يمكننا أن نشير هنا إلى كلمتي (Metropole) التي تترجم إلى (المدينة الأم)، و (Metropolis) التي تترجم إلى (حاضرة)؛ و هي التي يقيم فيها الرؤساء ويتسلم حكام الأقاليم أوراق اعتمادهم منها، مثل بغداد و دمشق و القاهرة و القيروان في التاريخ الاسلامي.
(ينظر الشيخ طه الولي، المدينة في الاسلام، مجلة الفكر العربي، العدد 29، نوفمبر 1983، ص129).

(2)see Maurice Godelier, The Mental and the Material, London, Verso, 1986, p50.

و تتميّز الكائنات البشرية، على نقيض الحيوانات الاجتماعية الأخرى، في نظر الأنثروبولوجيين بالعقل الذي يحكم و يصنّف مختلف العلاقات الإنسانية و المواقف التداولية التي تُعنى بها، فالجهاز العصبي عندها بحسب كليفور جيرتز Cliford Geerts "لا يمكنّه فقط من اكتساب الثقافة، و إنّما يستلزم منه بالضرورة أن يفعل ذلك إذا كان لابد أن يؤدي وظيفته في الأساس"[1].

و قد أتاح علم الأنثروبولوجيا الفرصة أمام الباحثين و الدارسيين لتسليط الضوء على الظاهرة البشرية عامة، بمختلف مكنوناتها و شتى أنماطها الاجتماعية و الثقافية و النفسية. و نشوء الظاهرة الثقافية في المجتمعات البشرية منذ أن وجد الإنسان على وجه هذه البسيطة واكب حتمياً ظهور النظرية الثقافية في الأنثروبولوجيا التي اعتبرها العديد من الدارسين لها مرجعاً أساساً و حجر الزاوية لأي درس أنثروبولوجي. و هنا على سبيل المثال، نرى روبرت بوروفسكي Robert Borofsky يبحث هذا الموضوع في خاتمة دراسته الإثنوغرافية عن شعوب احدى جزر البولينيز المسماة بوكابوكا (Pokapuka) إذ يقول إنّه "على الرغم من أنّ علم الأنثروبولوجيا ليس موضوعياً بالمعنى المطلق، إلا أنّ له قدراً من الموضوعية يجعله أكثر من أن يكون مجرد نموذج لصورة صور المعارف الشعبية أو المحلية، و يتضمن علم الأنثروبولوجيا في جوهره مقارنة و تحليلاً لأوجه الاختلاف و التماثل في الثقافات"[2].

إنّ للثقافة دوراً محورياً في تهيئة الآليات الاجتماعية و النفسية بغية ترويض الكائن البشري أو الطبيعة البشرية، إذ يتم تكييف سلوك الفرد و شخصيته و تنظيم و تسخير قواه و التحكم في ادراكه و أحلامه و لغته و خياله خدمة للثقافة أو الحضارة.

و قد تصطدم الثقافة، في الكثير من الأحيان، بهذه الطبيعة الإنسانية، فإما أن يصبح حكمها لطاقة الحياة حكماً تعسفياً (فرويد)، أو حرمانها للإنسان من المتعة و اللذة حفاظاً على القيم العليا (نيتشه)، أو تسخيراً للجسم و الجنس خدمة لأهداف الحضارة (ماركوز)؛ و بذلك تتحول الثقافة من تعبير عن الإنسان إلى آداة لقمعه و كبت غرائزه.

ترتبط البنية الشخصية ارتباطاً وثيقاً بالثقافة السائدة في مجتمع ما، بل هي بالنسبة للكثيرين نظام القيّم الرئيس لمجتمع معين. و يعتبر كاردنر Kardiner أنّ كل نظام اجتماعي ثقافي يتسم بشخصية أساسية و أنّ الأنا ترسب ثقافي. أما دافيد ماكليلاند David Meclelland فيقول أنّ بعض المجتمعات تجعل من الكمال الذي هو الفوز و النجاح في آن معاً و الذي غالباً ما يعبّر عنه بكلمة (accomplissement) قيمة مركزية. و تميل الحاجة إلى الكمال (need for achievement) لأن تكون جزءا أساسياً من شخصية الأفراد الأعضاء في هذه

(1) Clifford Geerts, The Interpretation of Cultures, New york, Basic books, 1999, p73.
(2) Robert Borofsky, Making History: Pukapukan and Anthropological Constructions Of Knowledge, Cambridge University Press, 1978, p154.

المجتمعات[1].

يميل كل مجتمع إلى تشكيل مكنون ثقافي فريد. و يمكننا أن نعطي أمثلة على ذلك لنبيّن أنّ البشر كافة تختلف سلوكاتهم الثقافية على الرغم من أنّها تقوم على نفس المعطى الثقافي. و لنبدأ بالهندام مثلاً، إذ لا يمكننا أن نتحدث عن الجسم الإنساني دون أن نطرح مسألة الهندام لأنّه كما قال هيجل Hegel يصوّر اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالاً، أي أنّ الثياب هي التي تكسب الجسم علامات خاصة.

و قد كان الهندام في المجتمعات القديمة وظيفة إشهار و تبيان حالات و ظروف و مهن مختلفة، أي أداة تجسد الاختلاف الطبيعي. و لم يكن الجسم يرى عارياً، بحيث أنّ العري لم يكن موجوداً إلاّ في بعض الطقوس الدينية و بصورة فيها الكثير من التسامي. و كانت المهن المختلفة في مثل هذه المجتمعات تتجسد من خلال الهندام أو الزي الذي عكس بدوره حالة من التقنين الرسمي و التراتبية الاجتماعية الصارمة. و ربما تشابه الهندام أو الزي في الشكل و اللون، و لكن وضع الإيقونات و الشارات و العلامات كان وحده كفيلاً بتمييز أصحابها اجتماعياً و مهنياً.

أما في المجتمع المعاصر، و ابتداءا من القرن التاسع عشر و بعد الثورة الفرنسية و انبثاق الديمقراطية كان هنالك نوع من توحيد الهندام، لكن الطبقات العليا البرجوازية التي ظلت موجودة حتى في ظل الديمقراطية كانت في حاجة ماسة إلى شيء يميّزها عن الطبقات العاملة فابتدعت بالتالي تفاصيل لباسية معينة قادرة على انتاج هذه القيمة التفضيلية الخاصة بمجتمع القرن التاسع عشر.

و تشهد المجتمعات اليوم نزعة متصاعدة في مجال الهندام، إذ تتوقف هذه النزعة على نوع من التبعية التي تجعل البعض يتخد نمطاً معيناً منه و من ثمة الجسم، مثال ذلك لباس الشباب و الشعر الطويل و نماذج الاقتداء المختلفة بالمشاهير و النجوم؛ بل هنالك أيضاً إلغاء للفوارق بين الجنسين من خلال الهندام. و قد عاود العري إلى الظهور في مرونة و فسحة اللباس المنفتح. كما أنّ العنق ظل و لزمن طويل مطوقاً محكم الإغلاق بربطة العنق التي كانت تؤدي وظيفة اخفائه. لكن العنق تحرر الآن و أطلق العنان لنفسه و انفتحت القمصان؛ و أدى ذلك كله إلى جعل الجسم يبدو جديداً. جسم حديث يعبّر عن نفسه و يصبح دالاً[2].

يعتبر النوم من بين تقنيات الجسم التي يتفق فيها جميع البشر. بيد أنّه ثمة ما يميّز بين الكثير من المجتمعات حول هذه التقنية. فالكثير منها ليس لديها ما تنام عليه، باستثناء الأشياء الصلبة، و المجتمعات التي تستعين ببعض الأدوات. بعض

(1)ينظر بودون و بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر. سليم حداد، بيروت، 1986، ص228-229.

(2)voir Roland Barthes, Encore le Corps, in Critique, 1978, p22-26.

الحضارات تتميّز عن غيرها باستعمال خشبة تحت العنق خلال النوم. و المتكأ في الغالب عبارة عن طوطم منحوت أحياناً من أشكال أناس جالسين القرفصاء، أو من حيوانات طوطمية. وهناك أناس يستعملون الحصائر و أناس بدونها كما في آسيا و جزء من أمريكا.

هناك أناس يستعملون الوسادة و أناس بدون وسادة. و ثمة مجتمعات بشرية تتزاحم في دوائر و تنام حول النار أو بدونها. و هناك أيضاً العديد من الطرئق البدائية في التدفئة أو في تسخين الأرجل. فالفويجيون (les Fugiens) (سكان أرض النار) الذين يعيشون في أماكن باردة جداً لا يعرفون إلا تسخين الأرجل خلال النوم، و ليس لهم إلا غطاء واحد من الجلد. و هناك أيضاً النوم وقوفاً كما هو حال المساي و هم قبائل من رعاة الماشية بكينيا و تنزانيا، و النوم على ظهور الأحصنة كما وثّق ذلك مؤرخو الغزوات القدامى لمحاربين مثل المونغول و الهونس.

يعد الطعام أيضاً شكلاً من أشكال الخصوصية الثقافية لدى كل مجتمع، بحيث ينظر إليه على أنّه وسيلة من شأنها أن تعزز أواصر الروابط الاجتماعية و تزيد من قوتها، بل قد يكون بالنسبة للكثير من المجتمعات البشرية بمثابة آداة مثلى تبتغي من ورائها تحقيق علاقة اجتماعية معينة. و عليه نصت العديد من المواثيق الاجتماعية–الثقافية على وجوب اعطاء الطعام المكانة الثقافية التي يستحقها و ليس فقط اعتباره ضرورة بيولوجية الغرض منها اشباع حاجة الجوع. و لنا في الكثير من السير أخباراً و شواهد عن مفعول الطعام الاجتماعي و الثقافي، و كيف استطاع حلّ المنازعات و فظ النزاعات فقط لأنّ أصحابه اجتمعوا حوله في مأدبة. لكننا سنتطرق إلى هذا الجانب من زاوية مختلفة تتمثل في قدرة الطعام على تبديد المخاوف من الآخر المختلف، و جعل هذا الأخير جزءا لا يتجزأ من الأنا و امتداداً له من خلال مثال عن شعب كالولي، الذي يعيش بمقربة من جبل بوسافي في بابواغينيا الجديدة، جاء على لسان عالم الأنثروبولوجيا إدوارد شيفلن Edward Cheflin في كتابه (أسس المتوحد و توهج الراقصين). يقول شيفلن "أدركت هذا فور دخولي و لأول مرة مسكناً خشبياً مقاماً فوق هضبة. جلست منهكاً على حافة احدى المصاطب الخاصة بنوم الرجال بينما كنت أستخرج ديدان العلقة من داخل جوربي. و بينما أنا كذلك اقترب مني رجل و بيده حزمة مغطاة بالسواد و تشبه الرغيف. كسر كسرة و أعطانيها، و إذا بها تشبه الطباشير المغطى بمادة رمادية و قشرة مطاطية. و سادت فترة صمت بينما الحضور داخل المسكن يراقبونني ليروا ماذا عساي أن أفعل. وأخذت قضمة و أنا على مضض. و ذكّرني الطعم بمادة المصيص إذ يشبهها كثيراً. و سألني أحد المضيفين مشجعا "نافا؟" أي "جيد؟" ... و أجبت قائلا "نافا" و لكن بعد أن جاهدت لاستجلب بعض اللعاب في فمي ... و قال مضيفي: "آه"، و هو ينظر حوله إلى الآخرين. و أحسوا براحة و استرخاء. إذ مادمت قد أكلت الخبز المصنوع من نبات الساغو فقد استقر في أذهانهم أنني أصبحت

رفيقاً لهم"[1].

ينبغي علينا هنا أن نتتبع الخطوات الذهنية عند كل من شيفلن و شعب كالولي، فقد جاءت البداية متوثرة و احتوت على منظر غريب و دخيل بالنسبة لشعب كالولي: شروع شيفلن بنزع ديدان العلقة من جواربه، بحيث أنّ هذا المشهد الثقافي (إنسان أجنبي+حذاء+جوارب+ديدان العلقة) ليس مألوفاً بالنسبة إليهم، ثم اقدام رجل كالولي على تقديم الخبز لشيفلن لأنّه أجنبي ينبغي أن يندمج معهم، و هي الحالة التي تؤكد أنّ الطعام يستخدم لديهم لإقامة علاقة اجتماعية. يأتي بعد ذلك حالة من الترقب الحاسم لرجال كالولي في ما إذا سيكون الخبز لذيذا بالنسبة لشيفلن فيصير مرحباً به، أم سيكون كريهاً بالنسبة له فينبذوه و يطردوه، ليتبع كل ذلك بمشهد من الانفراج و الاسترخاء العام عندما أجاب شيفلن إجابة ودية حول مذاق الخبز. إنّ الفكرة هي أنّ الخبز شكّل في هذه الحالة استراتيجية من استراتيجيات الاندماج، ذلك لأنّ "تقديم الطعام و المشاركة فيه عند شعب كالولي هما عملية توصيل عاطفي. إنّها تعبير عن المشاعر الوجدانية و عن الألفة و حسن الطوية. و الطفل الذي لا يزال يدرج و انفجر باكياً حين رآني أول مرة أنبه أبوه قائلا "لا تبك، إنّه يقدم الملح". و شرح لي الرجل قائلاً إنّ على المرء أن يقدم طعاماً إلى صغار الأطفال حتى يعرفوك و يحبوك و لا يخافوك"[2].

و ثمة أيضاً وجه آخر من أوجه ابتناء العلاقات الاجتماعية من خلال تقديم الطعام بالنسبة لشعب كالولي، لكن هذه المرة ليس مع أناس غرباء بل مع فلذات أكبادهم نفسها. حين يولد طفل لدى شعب كالولي، يأخذه أبواه و بعض من أقاربه، بعد يوم أو بضعة أيام من مولده، في رحلة إلى الغابة لقضاء بعض من الوقت هناك في صيد جراد البحر و ديدان نبات الساج لإطعام هذا الصغير. إنّ هدفهم المشترك هو أن يجعلوا من الطفل قوي البنية صحيح العود، و هو أول هدف نبتغيه من تناول الطعام: تمام الصحة و العافية. بيدأنّ لشعب كالولي هدفاً آخر من وراء ذلك: ادخال السرور إلى نفس هذا الطفل، و جعله يحس أنّه موضع ترحيب حتى لا يعود أدراجه من حيث أتى و يقضي. بل ينبغي على الجميع أن يجتمعوا حول أمه التي ترضعه من صدرها حتى تتهيأ الفرصة لخلق علاقة معه من خلال اطعامه. و بهذا تكون عملية تقديم الطعام و المشاركة فيه مقننة للاصطلاح الاجتماعي عليه، و الذي يتبلور من خلاله العلاقات المتجذرة و المشاعر الوجدانية الجمعية. و من بين المشاعر الوجدانية الجمعية الأخرى التي يدخل الطعام في انشائها لدى شعب كالولي حالتا الحب و الموت مثلا؛ فقد يدس رجل مغرم بامرأة قليلاً من الملح أو قطعة لحم سراً لكي تعرف حقيقة مكنون مشاعره اتجاهها، أو إن وجد أنّ رجلاً أراد أن يعبّر عن أساه لفراقه عزيزاً فسيقول "أعطاني قطعة من لحم الخنزير"[3].

يكون الطعام في هذه الحالة إذن أحد العوامل التي تسهم في ابتناء العلاقات البشرية من نوع خاص. و ينبغي أن لا نهمل

(1)مايكل كاريذرس، م س، ص268.

(2)م ن، ص269-270.

(3)نفسه، ص270-271.

عاملاً محرضاً آخر لا يقل أهمية عن جميع العوامل المحرضة الأخرى، بل و قد يكون حاسماً في تكوين الأفكار الاجتماعية حول كل الأمور الحياتية التي تصنّف ضمن خانة المقومات الثقافية: مسألة (الاعتقاد) و ما يتصل بها من طقوس و شعائر التي تقنن تلك العلاقة التي تربط الفرد بالمقوم الثقافي و ممارسته له بغض النظر عن نمط هذا المقوم الثقافي ونوعه، سواء كان مادياً أو فكرياً أو اجتماعياً، و الذي يدخل في تكوين الخصوصية الثقافية المائزة لكل مجتمع. فكل هذه التقنيات المتنوعة هي عبارة عن ممارسات ثقافية لها صداها الكبير و مفعولها البيولوجي و العقلي بحسب كل مجتمع[1].

و هناك مثال آخر عن الخصوصية الثقافية و المكنون الثقافي الدفينين في كل مجتمع. و يتعلق الأمر بمسألة التنفس التي تتنوع من حال إلى حال و تختلف من مجتمع إلى آخر؛ إذ هناك طرائق مهذبة في التنفس و أخرى ليست كذلك. نحن ندرك أنّ الفرد هو الحاكم بأمره في وتيرة تنفسه، لكن ثمة عوامل تتداخل فيها أيضاً: المعرفة العملية بفن الحياة و آثار التراث و منه تحديد النموذج الاجتماعي. هنالك التنفس المحسوب بالثواني لدى الهندي الذي يمارس اليوغا، و التنفس المكتوم لشخص يشارك في جنازة صديقه المتوفى، و التنفس المراقب الذي يلقّنه مغني الأوبرا لتلامذته، و هذه كلها نماذج من السلوك الخاضع لتوجيه المجتمع، و لكل واحد منها مكانته المحفوظة له في تاريخ الثقافة الإنسانية. و ليس هناك أي فرق بين عمليات التنفس هاته شريطة أن ننظر إليها كسلوك اجتماعي[2].

و قد نجد أنّ مجتمعات متماثلة في التطور الاقتصادي مثلاً تختلف عن بعضها بشكل كبير من الناحية الثقافية. و كما يلاحظ رالف لينتون[*] Ralph Linton أنّه إذا أوكل مسافر وصل للتو إلى أحد المرافئ النرويجية إلى حمّال مهمة قبض مبلغ معيّن من المصرف، فإنّه سيكون متأكداً من أنّ هذا الحمال سيعاود إليه بالمبلغ. أما في ايطاليا فسيكون متأكداً بأنّه لن يرى هذا الحمّال مجدداً.

إنّ الأمريكيين، بحسب بارسونز Parsons، يعلّقون أهمية كبيرة على الكمال (achievement) أكثر من الألمان، في حين يبدون أهمية أقل منهم لمسألة لمحافظة على النماذج الثقافية. و تعتقد مارغريت ميد M. Mead أنّ "الأمريكيين يرون العالم مدى واسع و قابل للتطويع يقع تحت رقابة الإنسان، نبني عليه ما نشاء (...) و الشعور الهام هو امكانية الاشراف على البيئة"[3]. أما بالنسبة للانجليز، فإنّ العالم هو مدى طبيعي يتكيّف معه الإنسان و لا ينسب لنفسه فيه أي إشراف على المستقبل.

---

(1)voir Marcel Mauss, Sociologie et Anthropologie, PUF, 1968, p378-383.

(2)voir Edward Sapir, Anthropologie, Point, N°27, 1971, p36-37. (Bartholy et Despin, la Culture, Magnard, 1976).

(*)يعرّف رالف لينتون Ralph Linton الثقافة بأنّها "شكل متكامل من السلوك المكتسب و نتائجه، يشترك في عناصره و ينقلها أفراد مجتمع معين". (رالف لينتون، الأصول الحضارية للشخصية، تر. عبد الحميد اللبان، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964، ص58-60).

(3) Margaret Mead, l'Anthropologie Comme Science Humaine, traduit par Elisabeth le Quéré, Paris, Payot bibliothèque scientifique, 1971, p123.

و قد تنتظم الثقافة في مجتمع معيّن ضمن جملة من العناصر المترابطة و المكملة لبعضها البعض، "فالطموح الثاني للأنثروبولوجيا على حد قول ليفي شتراوس (الذي لا يمكننا تصنيفه بين الأنثروبولوجيين الثقافويين، و لكنه لا يتميّز عنهم حول هذه النقطة) هي الكلية. و هو يرى في الحياة الاجتماعية نظاماً ترتبط به عضوياً كل الجوانب"[1].

تشتمل كلمة الثقافة عند ادوارد سابير Edward Sapir على معان ثلاثة. فهي تستعمل أولا بمعنى تقني من قبل الإثنولوجيين أو مؤرخي الثقافة لجمع عناصر الحياة البشرية كلها، و التي يتناقلها المجتمع مادية كانت أو معنوية. و يعني ذلك أنّ الثقافة ملازمة للإنسان ذاته، لأنّه لا وجود لإنسان، بما في ذلك أكثر الشعوب بدائية، لا ينخرط في عالم اجتماعي تسمه شبكة معقدة من الوظائف و العادات و المواقف التي يحافظ عليها التراث و تتناقلها الأجيال. فتقنيات الصيد لدى قبائل البوشوما في جنوب افريقيا، و اعتقاد الهنود الحمر بأمريكا الشمالية في السحر، و الدينامو الكهربائي في الصناعة الحديثة كلها عناصر من الثقافة[2].

و أما عن المعنى الثاني لذات الكلمة، فهو الأكثر تداولاً و انتشاراً. و هو يشير، حسب سابير، إلى مثال أكاديمي إلى حد ما من التدقيق الفردي و الذي يتم تصوره انطلاقاً من عدد صغير من المعارف و التجارب المتمثلة؛ بيدأنّه يتشكل على وجه الخصوص من مجموعة من ردود الفعل الخاصة و المعترف بها من قبل طبقة معيّنة و تراث مقيد. و يجمع المعنى الثالث لكلمة الثقافة بين المعنيين الأول من حيث أنّه يركز هو أيضاً على الممتلكات أو الخيرات الروحية للجماعة أكثر مما يركز على الممتلكات الروحية للفرد، و المعنى الثاني من حيث تركيزه على عدد صغير من العوامل المستقاة من تيار الثقافة الواسع[3] .

و هكذا تقترب الثقافة، من وجهة نظر سابيرية، من الروح أو العبقرية الخاصة بشعب من الشعوب من دون أن تكون هاتين الكلمتين مرادفتان لها بالكامل.و تحيل هذه الكلمات، بالخصوص، على الماضي السيكولوجي أو شبه السيكولوجي لحضارة قومية ما[4]؛ في الوقت الذي ينطوي مفهوم الثقافة أيضاً –بالإضافة إلى هذا الماضي– على جملة من التجليات الملموسة و المميّزة، و بالتالي، فإنّه يمكننا أن نعرّف الثقافة بأنّها الحضارة من حيث كونّها تتضمن العبقرية القومية.

إنّ للثقافة أيضاً مفهوماً يدل على أساليب السلوك التي توصف بأنّها تكتسب عن طريق التعلم، و إن كان نطاق هذا المفهوم يتحدد في أنّه لا ينطبق إلا على تلك الجوانب من السلوك الملقّن بالنسبة لجماعة بعينها. إنّه لمن الصعب، يقول كل من رالف بيليز Ralph L .Beals و هاري هويجر Harry Hoijer، أن نقدم تعريفاً دقيقاً لمفهوم الثقافة.

(1)كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجيا البنيوية، تر. مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1977، ص399.

(2)voir Edward Sapir, op cit, p326.

(3) Ibid, p326.

(4) Idem, p326.

و ما يتبث ذلك قيام كروبر و كلوكهون بدراسة ما يزيد على مائة تعريف من التعريفات التي قدمها الأنثروبولوجيون للثقافة، لكنهما لم يجدا بينها تعريفاً مقبولاً. و وجه القصور في الكثير من التعريفات هو أنّها لا تتسم بالوضوح بين المفهوم من جهة و الأشياء التي يشير إليها من جهة أخرى، فمن التعريفات من اعتبر بأنّها تتصل بالإنسان و طبائعه و ملكاته، و منها من نظر إليها على أنّها العوامل البيئية التي يركن الإنسان إليها، و منها أيضاً من جمع بين ذات الرؤيتين: الإنسان و البيئة معاً؛ و ذلك على الرغم من أنّ السمة المشتركة بين معظم هذه التعريفات تكمن في أنّ الثقافة تكتسب عن طريق التعلم، و أنّ هذا التعلم مهما اختلفت منهجياته يتصل بجماعات أو مجتمعات معينة[1]. و لعل مفهوم الثقافة الذي حدده كلايد كلوكهون يساعدنا في فهم السلوك البشري حيث يقول "نقصد بالثقافة كل مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ، بما في ذلك المخططات الضمنية و الصريحة، و العقلية و اللاعقلية و غير العقلية. و هي توجد في أي وقت كموجات لسلوك الناس عند الحاجة"[2].

و قد يوضّح لنا هذا المفهوم تنوع السلوك البشري عندما ندرك أنّ لكل مجتمع إنساني ثقافته المتميزة أو "إنّ ثقافة مجتمع من المجتمعات هي نسق تاريخي المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة و الضمنية، يشترك فيه جميع أفراد الجماعة أو أفراد قطاع خاص معين منها"[3] .

يعتبر ادغار موران Edgar Morin الإنسان كائناً بيوثقافياً، و ليس هذا القول مجاورة بين هاذين المفهومين (بيولوجيا – الثقافة) فحسب، بل هو سعي حثيث لإبراز أنّ كليهما يتعاونان في انتاج بعضهما البعض، و أنّهما يفتحان الطريق أمام مسألة ثنائية: كل فعل إنساني هو فعل بيوثقافي (الأكل، الشرب، النوم، التفريغ، الارتباط بشخص آخر، الغناء، الرقص، التفكير أو التأويل)، و أنّ كل فعل إنساني هو في الوقت نفسه فعل بيولوجي كلية و فعل ثقافي كلية[4].

ينبغي أن نعود إلى فكرة أنّ كل فعل بشري هو فعل مكيّف ثقافياً (culturisé) بغية أن نبرز أنّ الإنسان كائن ثقافي كلية، و من ذلك الأكل و النوم و حتى الابتسام أو البكاء؛ فابتسامة الياباني تختلف عن شهقة ضحك الأمريكي. و الشيء المثير للاستغراب هنا، في نظر موران، هو أنّ الأفعال الأكثر بيولوجية هي أيضاً الأفعال الأكثر انصباغاً بالثقافة، و منها الميلاد و الموت و الزواج[5]. فالأسرة على سبيل المثال هي نواة الانتاج البيولوجي للأفراد و في نفس الوقت مدونة ثقافية تتشكل فيها تربيتنا و خلية اجتماعية تشكل جزءا و عينة من كل أشمل.

(1)ينظر رالف بيليز و هاري هوبجر، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، تر. محمد الجوهري و آخرون، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1977، ص137.

(2)م ن، ص138.

(3)نفسه، ص139.

(4)voir Edgar Morin, l'individualité de l'Homme, in philosopher, Fayard, 1980, p75.

(5)Ibid, p77.

إنّ اللغة بالنسبة لكلود ليفي ستراوس C.L Strauss احدى السمات الثقافية الخصيصة. و يأخذ هذا التميّز أشكالاً عدة: أولها في أنّ اللغة جزء لا يتجزأ من الثقافة، و مرآة عاكسة لها، بل و احدى الاستعدادات التي نتلقاها من التراث المحيط بنا. و ثانيها في أنّها الوسيلة الأكثر تصويراً و تعبيراً عن الثقافة التي تكتسبها مجموعة بشرية ما، فالطفل يتعلم الثقافة لأننا نتحدث إليه و هو بدوره يجوب ما حوله، و يتم كل ذلك عن طريق الكلم بغض النظر عن الحالة التواصلية نفسها. أما المظهر الثالث، فيكمن في أنّ أي محاولة لفهم معطى ما، سواء ارتبط بالفن أو بالدين أو بالقانون ينبغي أن نتصورها كمجموعة قواعد تتشكل عبر تمفصل العلامات للتتجسد أخيراً ضمن نموذج التواصل اللساني.

تتشكل الثقافة من العناصر الثقافية التي تعتبر أصغر الوحدات الثقافية، و لذلك فهي لا تقبل التحليل. و يطلق عليها اصطلاح (السمات الثقافية) (culture trait) التي يمكن تعريفها بأنّها الوحدات الأولية التي يتكوّن منها النمط الثقافي. و يمكننا في هذا الصدد أن نشير إلى مفهوم النمط الثقافي الذي هو عبارة عن مجموعة السمات الثقافية المتضمَنة في نظام معين مثل النظام الاقتصادي؛ و النظام بدوره عبارة عن العديد من الأنماط الثقافية. أما الصيغة الثقافية فهي عبارة عن دراسة الترتيب الخاص بتلك السمات و العلاقات المتبادلة بين تلك الأجزاء، مما يضفي عليها خاصية أو كل ثقافي جديديين.

يشير مفهوم الصيغة الثقافية إلى ظاهرة التكامل الثقافي (culture integration)، بحيث لا يمكن فهم أي نظام أو نمط أو سمة ثقافية بمعزل عن غيرها من النظم أو الأنماط أو السمات الثقافية الأخرى. فمثلاً، لا يمكن فهم النظام العائلي السائد في مجتمع ما دون أن نفهم النظام الديني لتكامل و تلاحم النظم داخل الثقافة الواحدة.

و عليه، و جب علينا عند دراستنا للثقافة أن نعير اهتماماً بالغاً للعلاقات المتبادلة و التأثيرات الانعكاسية بين السمات المختلفة و بين الأنماط و النظم المتنوعة التي تشكّل في بنيتها المتراصة ثقافة مجتمع ما، و من دون هذه الدراسة التوفيقية لن نتمكن أبداً من استيعاب مكنونات هذه الثقافة و لا حتى الأجزاء المشكلة لها، كما أنّه لن تتاح لنا أيضاً امكانية مقارنتها بالثقافات الأخرى.

إنّ الثقافات متعددة و الكائن الإنساني واحد مفرد و لكنه يصطبغ بصبغة الجماعة، فيأتي سلوكه مشابهاً أو مختلفاً لجماعة دون جماعة أخرى. يتعيّن علينا أن نفرق بين الثقافة و المجتمع أو الناس، إذ يميّز لنتون Linton بين الفرد و المجتمع و الثقافة، فكل لفظة منها تشير إلى كيان مختلف، كما أنّ لكل منها سماته المائزة و دوره الخاص المنوط به في الصورة الدينامية أو الحركية المتطورة التي لا تتجسد إلا بالثلاثة معاً. فالمجتمع جماعة منظمة من البشر، و الثقافة أنماط منظمة من الاستجابات المكتسبة التي يتميّز بها مجتمع ما، و الفرد كائن بشري حي له القدرة على التفكير و الإحساس

و التصرّف من خلال تفاعله مع الآخرين (المجتمع) مكتسباً تلك المقومات الثقافية التي ينشأ فيها. و مجال الفرد في حياته الشخصية محدود و متزامن بوجوده على قيد الحياة. أما المجتمع و الثقافة فهما غير محدودان و مستمران في وظيفتهما، و بذلك تتحقق فكرة صيرورتهما الاجتماعية بغض النظر عن المكان و الزمان و العناصر المؤثرة الأخرى.

تحدد ثقافة أي مجتمع بشري أسلوب الحياة فيه، سواء من ناحية وسائل الإنتاج و التعامل و الأنظمة السياسية و الاجتماعية، أو من ناحية الأفكار و القيّم و العادات و التقاليد و آداب المعاملات و غيرها. و تتمثل وظائفها، زيادة على ذلك كلّه، في أنّها:

– توفر للفرد أنماط السلوك و التفكير و المشاعر التي ينبغي أن يكون عليها.

– تشجع حاجاته العضوية البيولوجية و السيكولوجية الاجتماعية؛ بحيث تلقّنه كيف ينقذ نفسه من الجوع و العطش، كما تلقّنه السلوك الخلقي الأمثل في التعامل الاجتماعي.

– تزوّده بتفسيرات جاهزة لطبيعة الكون و أصل الإنسان و الدور المنوط به في هذا الكون.

– تكشف له عن المعاني و المعايير التي يميّز في ضوئها بين الأشياء و الأحداث، بحيث تحدد له الجميل و القبيح، الأخلاقي و غير الأخلاقي.

– كما تكشف له أيضاً عن المبادئ و القيم ما يساعده في تكوين ضميره الذي يتواءم به مع جماعته و يعيش متكيفاً معها؛ و ما يشعره بالانتماء لجماعته، و ما يربطه بسائر أفرادها لتميّزهم عن سائر الجماعات الأخرى.

2.1 محتوى الثقافة

ينقسم محتوى الثقافة في أي مجتمع متجانس إلى ثلاثة أقسام رئيسة حسب لنتون[1] Linton تسمى أيضاً بالمقومات، هي:

1.2.1 العموميات (Universals)

إنّها تلك العناصر التي يشترك فيها أفراد المجتمع جميعهم، و هي أساس الثقافة و تمثل الملامح العامة التي تتميّز بها الشخصية القومية لكل مجتمع مثل اللغة و الملبس و العادات و التقاليد و الدين و القيّم. و هي أيضاً الأفكار و الاستجابات العاطفية المختلفة و أنماط السلوك و طرق التفكير التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع الواحد، و تميّزهم بوصفهم مجتمعاً و ثقافة عن غيرهم من المجتمعات، و مثال ذلك المسكن و طقوس الزواج و الموت و غيرها. و تشكّل هذه العموميات مركز اهتمام التربية، و إليها تتجه الجهود لنقلها و تبسيطها و تجديدها إن لزم الأمر.

(1)ينظر رالف لينتون، دراسة الإنسان، تر.عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ص70.

2.2.1 الخصوصيات (Specialities)

و هي عناصر الثقافة التي يشترك فيها مجموعة معينة من أفراد المجتمع، بمعنى أنّها العناصر التي تحكم سلوك أفراد معينين دون غيرهم في المجتمع، فهي العادات و التقاليد و الأدوار المختلفة المختصة بنشاطات اجتماعية حددها المجتمع في تقسيمه للعمل بين الأفراد. و قد تكون هذه المجموعة مهنية متخصصة، مثل الخصوصيات الثقافية الخاصة بالمعلمين أو المهندسين أو الأطباء أو غيرهم. و هم يتصرفون فيما بينهم بأنماط سلوكية معينة. و قد تشمل هذه الخصوصيات عناصر تتعلق بالمهارات الأساسية للمهنة و المعرفة اللازمة لاتقانها و كذا طرق آدائها.

و قد تكون الخصوصيات مرتبطة بالطبقة الاجتماعية، فالطبقة الأرستقراطية مثلاً لها سلوكيات و عادات تميّزها عن الطبقة الشعبية. و تكون الخصوصيات عموماً أقل مقاومة للتغيير من العموميات.

3.2.1 البدائل (Alternatives)

و هي تلك الظواهر التي لا تندرج تحت العموميات أو الخصوصيات، بحيث هي عناصر تظهر حديثة و تجرّب لأول مرة في المجتمع و يمكن الإختيار من بينها؛ و تشمل الأفكار و أساليب العمل و الأذواق و أنواع الاستجابات غير المألوفة بالنسبة لمواقف متشابهة، مثال ذلك ظهور موضة جديدة في اللبس لم تكن معروفة من قبل، أو ظهور طريقة لإعداد الطعام. و تعتبر هذه البدائل و المتغيرات أنماطاً سلوكية مضطربة، و هي كثيرة في المجتمعات المتقدمة و أكثر مقوّمات الثقافة عرضة للتغير. و ثمة رأيين آخرين لبعض العلماء في أنّ مقومات الثقافة تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

1.2.1 العناصر المادية

و تتضمن كل ما ينتجه الإنسان و يمكن اختباره بواسطة الحواس مثل الآلات و الملابس و وسائل الاتصال و المواصلات و ما إلى ذلك من وسائل و وسائط.

2.2.1 العناصر غير المادية–المعنوية

تتضمن العرف و قواعد السلوك و القيّم و الأخلاق و التقاليد و اللغة و الفنون و كل العناصر السيكولوجية التي تنتج عن الحياة الاجتماعية. بيدأنّ تقسيم لنتون Linton هو الأقرب إلى الواقع من هذ التقسيم الثنائي، ذلك لأنّ الثقافة تجمع العنصرين معاً و لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل أي منهما عن الآخر. أما الرأي الآخر فيرى أنّ الثقافة تشتمل على ثلاثة مقوّمات رئيسة هي:

1.2.1 المكونات المادية

و هي كل ما يستعمله الإنسان في حياته اليومية، من بنى تحتية و ماكنات و أجهزة و غيرها، أي تلك المسائل التي ترتبط بالجانب المادي الذي يوظفه البشر في قضاء حوائجهم الحياتية و تدبير أمورهم المعيشية.

2.2.1 المكونات الفكرية

تشتمل على اللغة و الأدب و الفن و الدين و العلم و المسائل الأخلاقية و غيرها.

3.2.1 المكونات الاجتماعية

و هي البنية الاجتماعية القاعدية و الهيكل الاجتماعي لمجموعة إثنوغرافية معينة. و يدخل في عموم ذلك تصنيف الأجناس و الفئات العمرية و التراتبية الاجتماعية، و الضوابط التي تحكم سير العلاقات الاجتماعية المتنوعة من زواج و طلاق و حب و كراهية و غيرها. و ترتبط هذه المكونات الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً بالأبعاد الأيديولوجية و العقائدية و التاريخية و الجغرافية لمجتمع ما، كما أنّها تخضع لسنن الانصياع و الاتباع قد تصل إلى حد التعصب لها.

3.1 مفهوم الثقافة و الحضارة من المنظورين الفرنسي و الألماني

ظهرت كلمة (kultur) بالمعنى المجازي في اللغة الألمانية خلال القرن 18 عشر، و بدت للوهلة الأولى على أنّها ترجمة أمينة للكلمة الفرنسية (culture). و ما شجع هذا النقل هو تداول اللغة الفرنسية آنذاك من قبل الطبقات الراقية، و تأثير عصر الأنوار على المجتمع الألماني.

و مع ذلك ستشهد كلمة (kultur) تطوراً سريعاً، و يصبح مفهومها أكثر دقة من نظيرتها الفرنسية؛ و ستلقى نجاحاً أكبر من الذي لم تكن قد عرفته بعد كلمة (culture) الفرنسية. و السبب في ذلك أنّ كلمة الحضارة كانت قد تبؤت مكانة مرموقة لدى المفكرين الفرنسيين أنفسهم.

يقول نوربير الياس Nourpier Elias "إنّ سبب هذا النجاح يعود إلى اعتماد هذا المصطلح من قبل البرجوازية الثقافية و الأرستقراطية الألمانية و إلى استخدامها له معارضتها لأستقراطية البلاط"[1].

لم يوجد أي روابط وثيقة بين البرجوازية و الأرستقراطية في ألمانيا على عكس الوضع في فرنسا التي انعزلت فيها طبقة النبلاء عن الطبقات الاجتماعية الوسطى، و كانت قصور الأمراء موصدة و استبعدت البرجوازية عن أي نشاط سياسي. هذا ما شجع أعداداً كبيرة من المثقفين لوضع أسس القيّم التي أطلق عليها تسمية القيم الروحية التي تنبني على العلم و الفن و الفلسفة و الدين، في مقابل قيّم المجاملات الأرستقراطية التي تعتبر سطحية و فاقدة للصدق بينما تعتبر القيم الروحية وحدها القيم الأصيلة[2] .

انحدر هؤلاء المثقفين من الأوساط الجامعية و اتهموا أمراء الدول الألمانية بإهمال الفن و الأدب و تكريس وقتهم و خيرات الشعب للاحتفالات باعتبارهم يقلدون الأساليب المتحضرة للبلاط الفرنسي. و هذا ما سيتيح لهم ضبط هذا

(1)دوني كوش، م س، ص15.

(2)م ن، ص15.

التقابل بين منظومتي القيّم المذكورتين: سيعتبر كل ما ينشأ عن الأصالة و يسهم في الإغناء الفكري و الروحي ثقافة، أما المظاهر البراقة و الخفة و التهذيب السطحي فهي من الحضارة[1].

ثم انتقل بعد ذلك هذا المفهوم التناقضي لكلمتي الثقافة و الحضارة من التعارض الاجتماعي إلى التعارض الوطني أو القومي، بحيث تعززت القناعة بالروابط الوثيقة التي توحّد الأخلاق المتحضرة للبلاط الألماني مع حياة البلاط الفرنسي، و هو ما سيتم ادانته باعتباره نمطاً دخيلاً. و ثمة أيضاً ارادة رد الاعتبار للغة الألمانية التي كانت وسيلة التعبير الأولى بل الوحيدة التي يعرفها جمهور المثقفين، و ضبط كل ما هو ألماني في مجال الفكر و العقل؛ و السعي إلى تحقيق الوحدة الألمانية سياسياً و التي لن تتأتى في نظر هؤلاء المثقفين إلا من خلال البحث عن الوحدة ثقافياً[2].

إنّ الصعود المتنامي لهذه الطبقة الاجتماعية التي كانت فيما مضى عديمة التأثير أكسبها الاعتراف بها كناطق رسمي باسم الوعي القومي الألماني. و غداة اندلاع الثور الفرنسية فقدت كلمة الحضارة في ألمانيا دلالتها الايحائية الأرستقراطية و أصبحت تحيل على فرنسا و القوى الغربية عامة.

فبعد أن انتشرت هذه الفكرة لدى الأمة الألمانية قاطبة أصبحت مبهمة بعد الشيء، و صارت تعبر عن وعي وطني يتساءل عن الخصائص النوعية للشعب الألماني الذي لم يتوصل بعد إلى تحقيق وحدته السياسية مقارنة بالدول المجاورة له على غرار فرنسا و انجلترا، ما دفعه إلى تأكيد وجوده عبر الرفع من شأن ثقافته ليصبح بذلك مفهوم الثقافة هنا مفهوماً يميل نحو النزعة الذاتية (particulariste) الذي يتعارض و المفهوم الفرنسي الشامل و الكوني.

انحاز يوهان غوتفريد هردر Johann Gottfried Herder من خلال نص سجالي باسم (العبقرية القومية لكل شعب) إلى مفهوم تنّوع الثقافات و غنى البشرية، و وقف ضد العالمية التوحيدية (uniformisant) التي نادى بها عصر الأنوار و حكم عليها بأنّها تؤدي إلى الافقار. أراد هردر، من خلال هذه الرؤية، أن يعيد لكل شعب كبرياءه بدءا بالشعب الألماني، و ذلك في مقابل ما يعتبره امبريالية ثقافية تنادي بها فلسفة عصر الأنوار الفرنسية. و يعتبر هردر أنّ لكل شعب قدراً خاصاً به ينبغي عليه مجابهته من خلال ثقافته لأنّ كل ثقافة تعبّر بطريقتها الخاصة عن وجه من أوجه الإنسانية. و مفهوم هردر للثقافة التي تتميّز بالانقطاع لا يستبعد تواصلاً ممكنا بين الشعوب. و من هنا يمكن اعتبار هردر رائد المفهوم النسبي للثقافة و ذلك بشهادة الكثيرين ممن اعتبروه أنّه هو الذي فتح أعيننا على الثقافات.

شهد الوعي الألماني انبعاث النزعة القومية خاصة بعد هزيمة الألمان على يد الفرنسيين في معركة (يينا) العام 1806.

---

(1)ينظر دوني كوش، م س، ص16.

(2)ينظر ماتيو غيدر، الثقافة و التواصل و الترجمة، تر. محمد أحمد طجو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 140، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف 2009، ص02.

و قد تضاعفت الجهود بغية التعريف بالطابع الألماني، و ليس فقط التأكيد على مفهوم أصالة الثقافة الألمانية فحسب، بل على تميّزها و تفوّقها أيضاً ما دفع ببعض الأيديولوجيين إلى القول بأنّ الشعب الألماني يضطلع برسالة نوعية اتجاه البشرية.

و ينبغي أن نربط في هذا الصدد هذه النزعة القومية بالانجازات التقنية المرتبطة بالميادين الصناعية، بحيث قابل الكتّاب الرومانسيون في القرن التاسع عشر الثقافة التي هي تعبير عن الروح العميقة لشعب ما بالحضارة التي أصبحت تعرف بالتقدم المادي المرتبط بالتطور الاقتصادي و التقني. و تتطابق هذه الفكرة الذاتية (particulariste) عن الثقافة مع المفهوم العرقي–العنصري للأمة (مجموعة من الأفراد يجمعهم أصل واحد) الذي تطور في الوقت نفسه في ألمانيا و شكّل مفهوماً أساسياً لتكوّن الدولة–الأمة الألمانية.

كما اختلف تطور الكلمة خلال القرن التاسع عشر اختلافاً كبيراً. و لا شك أنّ ذلك النوع من الافتتان ازاء الفلسفة و الآداب الألمانية التي كانت في ذروة عطائها قد ساهم في توسيع دائرة مفهوم كلمة (culture) الفرنسية، بحيث لم تعد تعنى بالتطور الفكري للفرد فحسب، بل تشير كذلك إلى مجموعة من الصفات الخاصة بجماعة بشرية معينة. و على الرغم من التأثير الألماني، بقي المفهوم الفرنسي متميّزاً بتركيزه على فكرة وحدة النوع البشري؛ إذ بالإضافة إلى وجود ثقافة فرنسية و ثقافة ألمانية هناك الثقافة الإنسانية بحسب أرنست رينان Ernest Renan في محاضرته الشهيرة لعام 1882 و المعنونة بـ (ما الأمة؟).

و قد أدى هذا الصراع المحتدم بين النزعتين القوميتين الفرنسية و الألمانية إلى تفاقم الجدل الأيديولوجي بين المفهومين حول الثقافة. و يرد الفرنسيون على الألمان الذين يزعمون الدفاع عن الثقافة بقولهم أنّهم أبطال الدفاع عن الحضارة، و ذلك ما يفسر التدهور النسبي الذي عانت منه فرنسا في بداية القرن العشرين عبر استخدامها لمصطلح الثقافة بمفهومه الجماعي. إنّ الجدل الفرنسي–الألماني الذي امتد من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين هو في العمق شكلين مختلفين لتحديد مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية المعاصرة.

4.1 اتجاهات ترجمة مفهوم كلمة (culture) إلى اللغة العربية

1.4.1 ترجمة كلمة (culture) إلى (الثقافة)

يعد سلامة موسى أول من أنشأ هذا اللفظ في مقابل اللفظ الأجنبي (culture)، إذ يقول "كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، و لم أكن أنا الذي سكّها بنفسه فإنني انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظة "كلتور" الشائعة في الأدب الأوروبي. و الثقافة هي المعارف و العلوم و الآداب و الفنون التي يتعلّمها الناس و يتثقفون بها. و قد تحتويها الكتب و مع ذلك هي خاصة بالذهن. أما الحضارة فمادة محسوسة في آلة

تخترع و بناء يقام و نظام حكم محسوس يمارس، و دين له شعائر و مناسك و عادات و مؤسسات، فالحضارة مادية و أما الثقافة فذهنية"[1].

و من هنا نلاحظ أنّ سلامة موسى اقتفى أثر المدرسة الألمانية، إذ اعتبر أنّ (culture) ترتبط بالأمور الذهنية و الفكرية في حين أنّ (civilization) تعنى بالأمور المادية. و قد عكف معظم الكتاب العرب على نقل (culture) بالمفاهيم نفسها و المضامين عينها التي لم تخرج عن نفس التعريفات المتعددة ذاتها لمفهوم (culture) الأجنبي، و كأنّ هذا المفهوم الأجنبي قد نسخ كل المعاني العربية للثقافة أو حلّ محلها.

فكان من الطبيعي، إذن، أن تظهر الاتجاهات التي تدعو إلى نقل ثقافة الغرب الأوروبي على أساس أنّها سبيل التطور و التقدم. و من ثم التخلي عن الثقافة البالية الرجعية السائدة في المجتمعات العربية الاسلامية. و السبب في ذلك أنّ مفهوم الثقافة الماثل في الأذهان هو مفهوم (culture) نفسه الداعي إلى النقل و الاحلال، و ضرورة أن تتبنى المجتمعات التقليدية الثقافة الحديثة كسبيل للنهوض و الرقي.

2.4.1 ترجمة كلمة (culture) إلى (الحضارة)

قام العديد من علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا العرب بترجمة (culture) الانجليزية إلى (الحضارة) باللغة العربية و خاصة أولئك الذين ترجموا أعمال كلايد كلوكهون و رالف لنتون و لويس مورغان و جوردن تشايلد. لكنهم بالمقابل ترجموا اللفظ الأوروبي (civilization) إلى اللفظ العربي (المدنية). و في كلتا الحالتين فإنّ التعريفات المقدمة و الدلالات الراسخة هي مدلولات المفهوم الأوروبي المترجم نفسه، و ليس الجذر العربي لهذه الألفاظ أو دلالاتها في الفكر العربي[*] .

و من هاذين الاتجاهين في استخدام مفهوم الثقافة، لا يمكن القول أنّ أولئك الكتاب يقصدون المفهوم و المدلول العربي له، و إنّما المقصود هي الدلالات و المفاهيم التي اكتسبها مفهوم (culture) خلال تطور الفكر الأوروبي و تاريخه. و قد أدى ذلك إلى افقار مفهوم الثقافة في اللغة العربية، و إبقائه مجرد معنى تابع و مقتبس، تعريفاً و تداولاً، ليس إلاّ.

5.1 مفهوم كلمة (civilization)

يعود أصل كلمة (civilization) إلى الجذر اللاتيني (civites) بمعنى المدينة، و (civis) بمعنى ساكن المدينة، و من ثم (civilis) النعتية التي تشير إلى كل ما هو مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة[2]، أو (citizen) و هو ما كان يعرف به المواطن الروماني المتعالي على البربري. و لم يشتق منها الكلمة (civilization) إلاّ بحلول القرن الثامن عشر.

---

(1)سلامة موسى، الثقافة و الحضارة، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر 1927، ص52.

(*)ينظر على سبيل المثال: ترجمة شاكر مصطفى و تعليقاته على كتاب كلايد كلوكهون، مرجع سابق؛ أو ترجمة عبد الرحمن اللبان لكتاب رالف لنتون، مرجع سابق.

(2)see Edward Sapir, op.cit, p273.

يعتبر المركيز دي ميرابو أول من استخدمها في كتابه (l'ami des femmes en traite de la civilization) الذي لا توجد منه سوى صورة خطية في المتحف الوطني بباريس و كتبه العام 1766[1]. و يعرّفها دي ميرابو بقوله "إنّ (civilization) شعب ما هي رقة طباعه و عمرانه و تهذيبه و معارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة و يفسح المجال لقانون التفضيلات، فمن صلب المجتمعات التي هذبت حواشيها جميع العناصر التي عددناها آنفاً ينبثق مفهوم الإنسانية[2].

و لم تلق كلمة (civilization) رواجاً حينئذ، إذ نجد أنّ بيزول Beswell حث الدكتور جنسون ليدرجها في معجمه سنة 1772 لكنه رفض ذلك مفضلاً الكلمة القديمة (civility) التي تعبّر –تماماً مثل الكلمة الأخرى (urbanity)– عن ازدراء الرجل المدني للقروي أو الهمجي[3]. و يبدو ما عناه غالبية من تداولوا الكلمة لأول مرة هو مزيج من الصفات الروحية و الخلقية التي بدأت آنذاك بالظهور في المجتمعات الأوروبية، و من بين تلك الصفات الأدب و اللباقة و النزاهة و الرقة و الاعتدال و ضبط النفس عند الكلام و في السلوك و الفكر أيضاً. و أدت هذه العناصر، بحسب ميرابو، إلى ولادة المفهوم الجديد للإنسانية. و يرى روبرتسون أنّ هذا التهذيب في المعاملات ظهر في أوروبا في أواخر العصور الوسطى، و سواء استخدم الفرد الأوروبي كلمة (civilization) أم لم يستخدمها، فإنّ أبرز المفكرين الأوروبيين من أمثال ميرابو و آدم سميث و جيبون و حتى قبل ذلك بكثير في زمن أسلافهم العظماء مثل دوفو و منتسكيو و فولتير اقتنعوا بأنّ الأوروبيين كانوا أقرب إلى الكمال من أي شعب آخر في أي وقت مضى[4].

و تحمل كلمة (civilization) الكثير من دلالات الكلمة المشتقة منها (civitas) التي تعني المدينة، و المقصود بهذا المفهوم في جوهره ينبني على أنماط العيش بالمدينة من قيّم و سلوكات و أنظمة و مؤسسات و غيرها. و ينقسم تطور المدينة في أوروبا، في نظر لامبارد، إلى ثلاث مراحل:

1. مرحلة المدينة ما قبل الصناعية

و هي مدن أساسها المحكمة أو الكاتدرائية أو الحصن أو السوق أو الميناء أو هذه الظواهر مجتمعة.

2. مرحلة المدن الصناعية

و هي مرحلة شهدت فيها المدن تطوراً صناعياً ضخماً و حراكاً اقتصادياً كبيراً بفعل استخدام الماكنات و الآلات، و توظيف التقنيات، و تشييد كبرى المصانع و المؤسسات الانتاجية.

---

(1)ينظر جون نيف، الأسس الثقافية للحضارة الصناعية، تر. محمود زايد، دار الثقافة، بيروت، 1962، ص127.

(2)م ن، ص128.

(3)ينظر جيمس هارفي روبنسون، الحضارة، تر. علي إسلام، مطبعة مصر، القاهرة، 1965، ص08.

(4)جون نيف، م ن، ص128-129.

3. مرحلة المتروبوليتان

و هي مدينة تتميّز بالاتساع الصناعي و ازدياد الغنى فيها و انتشار نفوذها خارج نطاقها[1]. كما تتميز مثل هذه المدن بأنّها مركبة ثقافياً و عرقياً نتيجة انفتاحها على الآخر، ما يجعل منها مجتمعات أكثر اندماجية و تنوعاً من غيرها.

يقول جون نيف و هو يشرح مفهوم كلمة (civilization) في أول ظهور لها في الفكر الأوروبي "civilization بالمعنى الذي وضعت فيه الكلمة في الأصل أمدتنا باطار أساسي لنشر الصناعة، و civilization بهذا المعنى لم تكد توجد في منتصف القرن السادس عشر، و إذا كانت قد برزت إلى الوجود بعض الشيء في منتصف القرن الثامن عشر فمرّد ذلك إلى عدة أسباب منها تفضيل الأوروبيين للاقتصاد الجديد الذي استهدف النوعية، و انتشر في أوروبا خلال القرنين السابع عشر و الثامن عشر –و بمساعدة الصناعة الغنية الجديدة– طراز من الحياة انتهى بالأوروبيين إلى أن يرغبوا في المشاركة إلى حد ما على الأقل في (طراوة العيش) مثل طلاء المنازل و تزيينها و تنظيفها، و الاهتمام بالموسيقى، و ظهور (الصالون) في العلاقات الاجتماعية و ما صحبها من مستويات عالية من الفضيلة في الحياة الواقعية و هي مستويات يبلغها عدد من الناس لا بأس به لأول مرة في التاريخ"[2].

و مع تطور المجتمعات الأوروبية، برزت تعريفات عدة لمفهوم (civilization) التي و على الرغم من اختلافها في المضامين و في الظواهر التي ارتكزت عليها إلا أنّها عكست صورة أنماط العيش المدني الأوروبي. و من بين هذه التعريفات نجد ما ذهب إليه ول ديورانت William James Durant في تعريفه لكلمة (civilization) التي اعتبرها "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في انتاجه الثقافي، و تتألف civilization من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، و النظم السياسية، و التقاليد الخلقية، و متابعة العلوم و الفنون، و هي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق، لأنّه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع و عوامل الابداع و الانتماء و بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة و ازدهارها"[3]. كما يعرّفها أصحاب الفكر الألماني، خاصة الرومانسيون منهم، بأنّها كل الأبعاد المادية من حياة الإنسان؛ في الوقت الذي يركز فيه الفكر الفرنسي على أنّ (civilization) تشتمل على البعدين المادي و الفكري من أبعاد التقدم[4].

يتبين لنا من خلال هذه التعاريف أنّ هنالك تداخلاً كبيراً في تناول الفكر الأوروبي لمفهوم (civilization)،

---

(1)ينظر عبد المنعم شوقي، مجتمع المدينة: الاجتماع الحضري، الفكر العربي، العدد 30، ديسمبر 1983، ص136-137.

(2)جون نيف، م س، ص213-216.

(3)وايرل ديورانت ول، قصة الحضارة، الجزء الأول: نشأة الحضارة، ط2، تر. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1959، ص03.

(4)ينظر الطاهر لبيب، م س، ص6-7.

فهناك من جعل هذا المفهوم مرادفاً لمفهوم الثقافة (culture)، و هناك من جعله قاصراً على نواحي التقدم المادي من آلات و معدات و وسائل و مؤسسات، ثم هناك من قال أنّ هذا المفهوم مقتصر على نواحي التقدم الخاصة بالفرد، و منهم من قال أنّه مقتصر على الجماعة، و منهم من قال أنّه عالمي أي أنّ هناك حضارة (civilization) واحدة و كل الشعوب تسهم فيها بقدر ما، على خلاف الثقافة (culture) التي تخص كل شعب و تميّزه عن غيره.

6.1 اتجاهات ترجمة مفهوم كلمة (civilization) إلى اللغة العربية

1.6.1 ترجمة (civilization) إلى اللفظ العربي (المدنية)

ما يلاحظ هنا أنّ ترجمة مفهوم (civilization) إلى اللغة العربية شهدت الظروف نفسها التي تمخض عنها ترجمة مفهوم (culture) إلى اللغة العربية. فقد انقسم المفكرون العرب إلى اتجاهين في ترجمة هذا المفهوم: إذ هناك من ترجمه باللفظ العربي (المدنية)، و هناك من ترجمه باللفظ العربي (الحضارة) المستقى من الجذر (حضر) الذي يعني في اللغة العربية مدّن، و هو عكس البداوة.

و قد بدأ الاتجاه القائم على ترجمة (civilization) بـ (المدنية) في أوائل القرن التاسع عشر، إذ وظّف رفاعة الطهطاوي مفهوم التمدن للتعبير عن المفهوم الأوروبي نفسه. "و يفهم مما قلناه أنّ للتمدن أصلين: معنوي؛ و هو التمدّن في الأخلاق و العوائد و الآداب، و يعني التمدن في الدين و الشريعة، و بهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمى باسم دينها و جنسها للتميّز عن غيرها. و القسم الثاني؛ تمدّن مادي و هو التقدم في المنافع العمومية"[1].

ظل هذا الفهم للتمدن راسخاً و ظل اللفظ العربي المقابل هو (المدنية) طوال القرن التاسع عشر و حتى أوائل القرن العشرين. ففي أحد أعداد جريدة (الجوانب)[2] ذكر المحرر أنّ الكثير من الناس خاصة أولئك الذين خالطوا الإفرنج في بلادهم و غيرها اعتبروا أنّ من بين مستلزمات التمدن أن يتمتع الإنسان بالحرية التامة في كل شيء، إذ لا يوجد أي تمدن حقيقي من دون حرية تامة. ثم إنّ للتمدن كمفهوم العديد من الدلالات، إذ يتصل بالعلوم و المعارف تارة؛ و يدل تارة على الصنائع و الحرف و الكدّ في أسباب الرزق؛ و تارة على التأدب و التظرّف و التكيّس و البشاشة و حسن استقبال الناس؛ و تارة أخرى على الضبط و التدقيق في المعاملة و إعطاء الأجرة. و التمدن صفة مشتركة بين الرجال و النساء.

و ثمة أيضاً ما ذهب إليه محمد قدري عند نشره لرسالته في التمدن و التي جاء فيها أنّ التمدن هو اجتماع الناس في المدن و الأمصار للأنس و التعاون، فهو أخص من العمران الذي هو مطلق الاجتماع الإنساني سواء في البوادي و القفار أو في المدن و الأمصار. فهناك إذن وجهين للتمدن في نظره: التمدن بوصفه اجتماع الناس في مكان معين بغية أن

(1)رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص06.

(2)ينظر جريدة الجوانب، الأعداد التالية: (12/20 1286هـ، 18/6 1286هـ، 11/29 1286هـ، 15/10 1286هـ، 15/31 1286هـ).

يعيشوا سوية، و ما ينتج عن ذلك من تبادل للمنافع و المصالح وفقاً لما هو متفق عليه و معمول به من شرائع و قوانين؛ و التمدن باعتباره الناتج المادي لهذا الاجتماع البشري و المتمثل في العمران بكل أنواعه. و قد عرّفها نابليون الثالث أيضاً في بعض مؤلفاته تعريفاً شافياً حيث قال أنّ التمدن ليس بالانغماس و التفنن في النعيم و الترف و اللذات و الشهوات، و إنما التمدّن الاعتناء بالنفس و تهذيبها، و تقويم السلوك المعوج فيها، و حثها على التخلق بالأخلاق المرضية و الكمالات الأدبية[1].

و جاء كذلك في جريدة (روضة الأخبار) اصطلاح (التقدم التمدني) الذي يطلق على كل دولة تجنح إلى السلم و لا تلجأ إلى الحرب[2]. و استخدم لفظ (المدنية) كذلك في الترجمات العديدة لكتب القانون و خاصة ما اصطلح عليه (القانون المدني). و وظف ذات المفهوم بذات الدلالة في (الوقائع المصرية)، حيث كتب محمد عبده في مقال له بعنوان (التمدن) واصفاً العالم المتمدن بأنّه عمرت دياره بعد أن كانت قاعاً صفصفاً بالأبنية العالية، و تزينت بالأسواق الفسيحة، و الصنائع العديدة، و صارت محط رجال السياسة و مطمع أنظار النبلاء[3].

أما قاسم أمين فاستخدم مفهوم التمدن للإشارة إلى تحرر المرأة في مجتمعها إذ يقول "أما في البلاد التي ارتفعت إلى درجة عظيمة من التمدن، فإنّهن أخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق"[4]. و ظل استخدام مفهوم المدنية سائداً حتى اليوم بنفس الدلالات و المعاني التي تمثل بها مفهوم (civilization).

و عُرّفت المدنية العام 1939 على أنّها "حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون و العلوم و تدبير الملك، حيث جرت عادة الكتاب المتأخرين أنّهم إذا أطلقوا كلمة (المدنية) أرادوا بها المدنية الحاضرة في مقابل الهمجية التي كان عليها البشر في الأزمنة الخالية، أو التي لا تزال بعض الأقوام المنحطة تعيش في كنفها"[5].

و أطلقت (المدنية) أيضاً على كل ماهو مادي في حياة مجتمع ما، في الوقت الذي أطلق لفظ الحضارة (culture) على الظواهر الثقافية و المعنوية في هذه الحياة، فالمدنية تنقل و تورث من جيل إلى آخر، أما الحضارة (culture) فهي انتاج مستقل يصعب انتشاره من مجتمع إلى آخر.

و يظهر التباس المعاني هنا جلياً بين مفهوم (الثقافة) و مفهوم (الحضارة) و مفهوم (المدنية). و السبب في هذا الخلط مرده تداخل المعنى الأوروبي مع المعنى العربي لهذه المفاهيم، ذلك أننا نجد هذه المعاني الثلاث في اللغة العربية تنبني كل

(1)ينظر محمد قدري، رسالة جليلة في التمدن، القاهرة، 1287هـ، ص123.

(2)ينظر روضة الأخبار الأسبوعية، العدد 08، 32 صفر 1294هـ، 8 مارس 1877، ص05.

(3)ينظر الإمام محمد عبده، التمدن، الوقائع المصرية، 1298/2/19هـ، 1881/2/20م، ص07.

(4)قاسم أمين، تحرير المرأة، القاهرة، 1899، ص4-18.

(5)عبد الرحمن شهبندر، القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي (الأعمال الكاملة)، ط2، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 1993، ص78.

واحدة على حدى، أما اللغات الأوروبية فلم تعرف سوى مفهومي (civilization) و (culture)؛ و هذا ما دفع بالكثير من الكتاب العرب إلى اختلاق تعريف لهذا المعنى أو ذاك، و ترتيب علاقات، بحسب ما يرونه مناسباً، بين هذه المفاهيم؛ فالمشكل إذن مشكل تداولي بالدرجة الأولى.

2.6.1 ترجمة (civilization) إلى اللفظ العربي (الحضارة)

يعتبر هذا الاتجاه الأكثر شيوعاً في الكتابات العربية على الرغم من أنّه لم يكن موجوداً خلال القرن التاسع عشر. و نلاحظ أنّ التعريفات المختلفة لمفهوم (civilization) هي نفس التعريفات التي وضعت لنقل مفهوم (المدنية). و ارتبط مفهوم (الحضارة) إما بالوسائل التكنولوجية الحديثة، مثل الحديث عن وسائل المواصلات بأنّها حضارة[1]. و تعنى الحضارة هنا بالجانب المادي الذي يؤطر عيش الأفراد في مجتمعاتهم و يعكس مدى الرفاهية عندهم؛ فهي إذن أي "مادة محسوسة في آلة تخترع و بناء يقام و نظام حكومة محسوس يمارس و دين له شعائر و مناسك و عادات و مؤسسات"[2].

و أعطى حسين هيكل تعريفاً شمولياً للحضارة، إذ رأى أنّها علمية و واحدة تجسدت في المجتماعات الأوروبية خلال القرن العشرين باعتبارها نتاج التطور البشري و النتيجة المنطقية له. و يدفع هنا حسين هيكل بفكرة أنّه ليس للحضارة مكاناً أو زماناً محددين، فهي ليست وليدة عصر من العصور أو مكان من الأمكنة، بل هذه العصور المتلاحقة في الأمكنة المتتابعة هي التي تكاتفت في تشييد بنيان الحضارة مع إسهام كل الأمم بإعلاء صرحها.

و نجد أنّ القواميس و المعاجم التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين أوردت الأصل العربي لكلمة (الحضارة) و اشتقاقها من الكلمة (حضر) و هي الاقامة في الحضر بخلاف البادية؛ و أجمعت أنّ الحضارة "هي جملة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي و العلمي و الفني و التكنيكي الموجودة في المجتمع، و أنّها تمثل المرحلة الراقية في التطور الإنساني"[3].

إنّ المتمعن في هذه المفاهيم عموماً (مفهوم الثقافة و الحضارة و المدنية) سيسجل حتماً وجود اضطراب واضح في الفكر العربي بمختلف توجهاته عند تعامله مع مفهومي (culture) و (civilization)، حيث قدم للمفهومين الأوروبيين ثلاثة ألفاظ عربية هي (الثقافة) و (الحضارة) و (المدنية)؛ فمن نقل (culture) إلى (الثقافة) فقد ترجم (civilization) إلى (الحضارة)، و من ترجم (culture) إلى (الحضارة) فقد ترجم (civilization) إلى (المدنية)، و في كل حالة يختلف تعريف المفهوم العربي عن الآخر. فعندما تعنى الثقافة بالجانب الفكري من الحياة البشرية، تكون

(1)ينظر عباس شوقي، طرق المواصلات في مصر، جريدة السياسة الأسبوعية، العدد 70، 9 يوليه 1927، ص10.

(2)سلامة موسى، م س، ص171.

(3)جميل صليبا، المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية و اللاتينية)، ج2، دار الكتاب اللبناني، 1994، ص475-477.

الحضارة في الجانب المادي منها. و عندما تكون الحضارة هي الجانب الفكري، تكون المدنية هي الجانب المادي. و ما يسترعي الانتباه حول هذا كله هو اختلاف الترجمات لذات المفاهيم من باحث و دارس إلى آخر، و كأنّ الأمر لا يعدو أن يكون اجتهاداً فردياً و ميلاً شخصياً و اختياراً قد ينبع من الهوى، حتى و إن قدمت لهذه الترجمات الأسباب المفضية إليها ما من شأنه أن يكبل كل الجهود الرامية لتمحيص الترجمات الصائبة من المغلوطة بحسب كل حالة، و التأسيس لها علمياً من خلال البرهنة عليها دلالياً و مفهوماتياً و حتى تداولياً.

تساءل مالك بن نبي في كتابه (مشكلة الثقافة)[1]، و هو يبحث عن تاريخ كلمة (الثقافة) في اللغة العربية، عن أصلها و منذ متى استخدمت في اللغة العربية، لكنه لم يلتفت إلى مسألة أنّ ابن خلدون قد تحدث عن الثقافة في مقدمته و التفت إليها قبله سلامة موسى. و يجيب مالك بن نبي عن سؤاله من أين جاءت كلمة (الثقافة) و منذ متى استخدمت في اللغة العربية بقوله "فإذا ما رجعنا قليلاً في مجال هذا البحث لم نجد أثراً لتلك الكلمة في لغة ابن خلدون، الذي يعد على أية حال المرجع الأول لعلم الاجتماع العربي في العصر الوسيط"[2]. و على الرغم من وجود تدارك في هامش هذا الكتاب لهذا اللبس إلاّ أنّه يظهر لنا أنّه إما من المترجم أو من المراجع و ليس من المؤلف الذي كرر نفس الملاحظة مرة أخرى و هو يتحدث عن فكرة الثقافة. و قد يكشف ذلك أنّ مالك بن نبي لم يطّلع على مقدمة ابن خلدون كاملة.

إنّ حديث ابن خلدون عن الثقافة في مقدمته[3] جاء على أنساق مختلفة من حيث الاستعمال و باشتقاقات متنوعة، حيث كانت الكلمة تتبدل و تتغير المرة تلو الأخرى بتصريفات و صيغ متباينة. جاء أول استعمال لها بلفظ (الثَّقافة)، بوجود الفتحة و الشدة على الثاء، في سياق حديث ابن خلدون عن ما إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد و حصول الترف و الدعة فستقبل الدولة على الهرم. و وضح ابن خلدون ذلك من ثلاثة وجوه، و اعتبر في الوجه الثالث "أنّ طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه، و إذا اتخدوا الدعة و الراحة مألفاً و خلقاً صار لهم ذلك طبيعة و جبلة شأن العوائد كلها... و ينقلب خلق التوحش، و ينسون عوائد البداوة، التي كان بها الملك من شدة البأس، و تعوّد الافتراس، و ركوب البيداء، و هداية القفر، فلا يفرق بينهم و بين السُّوقة من الحضر إلاّ في (الثَّقافة) و الشارة"[4]. و في الاستعمال الثاني و ردت (الثِّقافة)، بكسر الثاء مع وجود الشدة، و جاءت في سياق الحديث عن أنّ للدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص. و اعتبر ابن خلدون أنّ عمر الدولة في الغالب لا يعدو أعمار ثلاثة أجيال،

(1)مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000، ص19.

(2)م ن، ص20.

(3)ابن خلدون، المقدمة، ضبط و تقديم محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998.

(4)م ن، ص166.

و هو يقول عن الجيل الثالث من عمر الدولة "أما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة و الخشونة كأن لم تكن، و يفقدون حلاوة العز و العصبية بما هم فيه من ملكة القهر، و يبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم و غضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة .. و تسقط العصبية بالجملة، و ينسون الحماية و المدافعة و المطالبة، و يلبسون على الناس في الشارة و الزي، و ركوب الخيل، و حسن (التِّقافة) يموهون بها، و هم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها"[1].

و جاء الاستعمال الثالث (الثِقاف)، بكسر الثاء، في سياق الحديث عن ديوان الرسائل و الكتابة و عن الشروط الواجب توفرها عند أصحابها؛ فأحسن من تحدث في هذا الشأن، بحسب ابن خلدون، هو عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى معاشر الكتاب. و جاء في هذه الرسالة التي نقلها ابن خلدون كاملة في مقدمته "فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، و تفقهوا في الدين، و ابدأوا بعلم كتاب الله عزّ و جل و الفرائض ثم العربية، فإنّها (ثِقاف) ألسنتكم"[2]. و في الرابع، تكرر استعمال كلمة (ثِقافة)، بكسر الثاء، ثلاث مرات في مقطع واحد؛ و جاءت في سياق الحديث عن قيادة الأساطيل البحرية، و كيف أنّ العرب لم تكن لهم دراية في ركوبه و الجهاد على أعواده. و قدم ابن خلدون السبب في ذلك "أنّ العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرة في (ثِقافته) و ركوبه، و الروم و الافرنجة لممارستهم أحواله، و مرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه، و أحكموا الدراية (بثِقافته)، فلما استقر الملك للعرب، و شمخ سلطانهم... و تقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، و استخدموا من النَّواتية في حاجاتهم البحرية أممًا، و تكررت ممارستهم للبحر و (ثِقافته) و استحدثوا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه"[3].

و جاء التوظيف الخامس بصيغة (تَثقيف) في سياق الحديث عن التفاوت في مراتب السيف و القلم في الدول، و كيف أنّ الدولة تحتاج إلى السيف في أولها، و يستغنى عنه بعض الشيء في وسطها، و القلم هو المعين لها في هذا الطور، فتكون أرباب الأقلام كما يقول ابن خلدون "في هذه الحاجة أوسع جاها، و أعلى رتبة، و أعظم نعمة و ثروة، و أقرب من السلطان مجلساً، و أكثر إليه تردداً، و في خلواته نجياً، لأنّه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، و النظر إلى أعطافه، و (تَثقيف) أطرافه، و المباهاة بأحواله"[4].

و أما في الاستعمال السادس و الأخير، فقد جاءت الكلمة بصيغة (تثقيفا) في سياق الحديث عن صناعة النظم و النثر، و أنّ حصول هذه الملكة يعود إلى كثرة الحفظ، و كيف أنّ كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة و أذواقها

(1)ابن خلدون، المقدمة، ضبط و تقديم محمد الاسكندراني، م س، ص168.

(2)م ن، ص235.

(3)نفسه، ص239.

(4)نفسه، ص234.

من كلام الجاهلية في منثورهم و منظومهم. و السبب في ذلك، بحسب ابن خلدون، هو أنّ "هؤلاء الذين أدركوا الاسلام و سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن و الحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم، و نشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، و ارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة، و لا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم و نثرهم أحسن ديباجة، و أصفى رونقاً من أولئك، و أرصف مبنى، و أعدل (تثقيفا) بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة"[1].

و يتضح لنا جلياً من كل هذه التوظيفات بصيغها و هيئاتها المتنوعة أنّ ابن خلدون في تعامله مع هذه الكلمة نظر إليها كونها مفردة لغوية متعارف عليها في مفردات و قاموس اللغة العربية ليس إلاّ، و لم يقاربها كمفهوم له من المعاني و الدلالات الاجتماعية و الأنثروبولوجية و السلوكية ما يجعله متطابقاً أو قريباً من الفهم و الادراك الذي يتحدد اليوم حول مفهوم الثقافة. و عليه يمكن القول بأنّ ابن خلدون لم يسهم في اكتشاف و بلورة مفهوم الثقافة، و اكتفى بتوظيفها بوصفها مفردة لغوية شائع التداول بها في اللغة العربية. و نلحظ كذلك أنّ ابن خلدون غاب لديه، في تحليله لأطوار التحول من نمط البداوة إلى نمط الحضارة، الرؤية الاجتماعية لمفهوم الثقافة، إذ يمكننا أن نفهم اليوم أفكاره و نظرياته التي قدمها لكن بطريقة مغايرة تماماً عن رؤيته و تحليله. و قد يتفق معه الكثير من الدارسين حول مسألة ما أصبح يصطلح عليه اليوم تسمية (قانون الدورات التاريخية)، بحيث أنّ جميع المجتمعات و الدول و الأمم و الحضارات لا تبقى على حال واحدة، بل تمر بأطوار و دورات مختلفة من النهوض و الركوض، لكنهم سيختلفون معه لا محالة بخصوص رؤيته المتشددة للحضارة التي يرى فيها نهاية العمران، و غاية الفساد، و البعد عن الخير؛ ناهيك على مبالغته في ذكر البداوة و تمجيدها.

و قد ذكر حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) أنّ ابن خلدون قد أدرك الفرق بين الثقافة و الحضارة من خلال تمييزه و تفريقه بين العمران و الحضارة، و أنّ ما يقصده من العمران هو الثقافة. و لكن هذا الرأي لا يبدو صائباً، بحيث أنّ العمران الذي قصده هو الاجتماع البشري القائم على مفهوم العصبية. أضف إلى أنّ ابن خلدون أسس نظريته على مفهوم الدولة و ليس حول الحضارة، و هذا ما أشار إليه مالك بن نبي، و به تميزت نظريته التي تحددت حول الحضارة عن نظرية ابن خلدون التي تحددت حول الدولة. كما أنّ عمر عودة الخطيب ذهب في كتابه (لمحات في الثقافة الاسلامية) إلى أنّ ابن خلدون عنى بلفظ (ملكة) ما تدل عليه الثقافة. و قد أشار الخطيب، على خلفية أنّ ابن خلدون لم يأت على ذكر كلمة الثقافة في مقدمته، اعتماداً على رأي مالك بن نبي في هذا الشأن، فقد ذكر أنّه "و إذا كان من غير الميسور أن يحصي الباحث كل ألفاظ ابن خلدون في المقدمة ليرى إن كان قد استعمل هذا اللفظ أم لا؟ فإنّ الحقيقة أنّ

(1)ابن خلدون، المقدمة، ضبط و تقديم محمد الاسكندراني، م س، ص536.

ابن خلدون قد تناول في الباب السادس من المقدمة الكلام على كل أنواع العلوم و أصنافها، و التعليم و طرقه، و قد عقد واحدا و ستين فصلاً عالج فيها البحث في مختلف أنواع الثقافة في عصره، و إن لم يستعمل لفظ الثقافة نفسها كما سلف"[1]. و قد أحال ذلك في الهامش على كتاب (مشكلة الثقافة) لمالك بن نبي.

و قد كشفت هذه الآراء عن حالة الإرباك و الاضطراب في الكتابات و الدراسات العربية و الإسلامية في التعامل مع مفهوم الثقافة، و صعوبة تكوين المعرفة بهذا المفهوم، و تعقيده على نحو دقيق؛ كما كشفت عن ضعف و محدودية الخبرة في التعاطي مع هذا المفهوم الملتبس و الذي لا يخلو من غموض و تعقيد. لكن ذلك لا يعني البتة عدم حاجتنا إلى مقدمة ابن خلدون، بل إنّ حاجتنا إليها ملحة لأنّها من أهم كتب التراث قرباً و اتصالاً بمسألة الثقافة، كما إنّها تعتبر من أولى المحاولات الجادة التي سعت إلى بناء نظرية ذات أسس علمية حول الثقافة.

إنّ كان هناك اختلاف في ضبط مفهوم الثقافة عامة و الثقافة العربية الاسلامية بصفة خاصة فإنّ مرجع الخلاف يعود إلى أسباب و عوامل مختلفة، يمكن استقصاؤها من الأبعاد التاريخية أو الحضارية أو الأيديولوجية أو العقائدية. و يتصل بموضوع الثقافة الاسلامية جهود بعض الدارسين من المستشرقين و المستغربين أيضاً. و نتيجة لذلك، خصت دراسة التراث الثقافي ببعض الاعتبارات التي تتفاوت بين الممنوع و المباح؛ بين تيار ينادي بالأصالة و الحفاظ على التراث التقليدي كما هو متوارث، و بين تيار ينادي بالمعاصرة أو التجديد أو الحداثة. و من ثم انحسرت دائرة الدراسات العلمية على مسألة الثقافة، و زاد من انحسارها مناداة البعض بوجوب تحديد مفهوم الثقافة بناء على المقوّم الديني أو العقيدة، أو المقوم العرقي أو العنصري أو اللغة. فأدى ذلك إلى التهجم على نزعة التفلسف من جهة و نزعة التصوف من جهة أخرى، و افتقدت الثقافة لبعض مكوناتها العقلية و الوجدانية و انزوت على الوازع الديني.

و إن نحن تأملنا تاريخ تيارات الفكر الإسلامي العربي القديم و الوسيط و حتى الحديث و المعاصر نجدها تزخر بمجالات عقائدية و أخرى فلسفية، و ما يبرهن على ذلك المعطى هو تعدد الفرق و الحركات و المذاهب الإسلامية من سلفية و شيعية و معتزلة نتيجة مواكبة مجرى التاريخ، و مجابهة الصراع الحضاري و العقائدي و الفلسفي لأنصار الديانات و الفلسفات الأخرى التي جمعها بالاسلام المجادلات و المشاحنات الضارية في محاولة منها الطعن في الاسلام و النيل من عقيدته و منهجه. ثم إنّ حركة الترجمة آنذاك لخير برهان على ازدهار المنهج الاسلامي و الفكر العربي الذي ينادي بالتفتح نحو الآخر و عدم التقوقع على الذات، ما مكنه من انتزاع الدور الريادي ثقافياً و حضارياً في شتى العلوم الفيزيائية و الرياضية و الكيميائية و غيرها.

(1)عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991، ص25.

2. مكانة الثقافة من الفعل الترجمي

إنّ المتمعن في تاريخ الترجمة عبر مختلف الحقبات سيدرك أنّها أولت عناية بكافة الاتجاهات التي تدخل في سير الفعل الترجمي. و كانت البداية مع الاتجاه اللغوي بلسانياته التقابلية الذي يدين بشكل كبير للكنديين فيني جون بول Vinay Jean Paul و جان داربلنيه Jean Darbelnet من خلال ما اقترحاه من إجراءات ترجمية صنفت بطريقة علمية و برهن عليها بمدونات من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية و العكس سعياً منهما للتخفيف من مشاكل ازدواجية اللغة في كندا، و استجابة لمطالب بيداغوجية خاصة بتعليم اللغات و الترجمة[1].

ثم شهدت بداية التفكير في الترجمة خلال القرن العشرين دفعة قوية و منعرجاً حاسماً بسبب ما جاء به فرديناد دو سوسير Ferdinad de Saussure الذي أماط اللثام عن العديد من المسائل اللغوية المهمة، بحيث قسم علم اللسانيات إلى اللسانيات النظرية و اللسانيات التطبيقية التي يدخل في مجملها تخصصي الترجمة و تعليمية اللغات الأجنبية. و قد شكلت الترجمة نوعاً من اللسانيات التطبيقية لأنّها لم تخضع إلى قواعد تضبطها كتلك التي يخضع لها علم الصرف مثلاً. كما أعطى دو سوسير تعريفات مضبوطة لأكثر المفاهيم اللغوية تداولاً: اللغة و اللسان و الكلام[*]. و قام البحث في هذا الاتجاه على الأبنية اللغوية المجردة، فكان من الطبيعي إذن أن تكون مثل هذه الأبحاث ضيقة و لا تصلح إلاّ للمقارنة بين اللغات لأنّ قضايا الترجمة أكثر تنوعاً و تشعباً.

و المقاربات اللسانية في الترجمة كثيرة و متعددة، لكنها تتفق في أنّ الترجمة فعل لغوي و حسب كما ذهب إليه رومان جاكبسون Roman Jakobson، يتجسد من خلالها نقل المرسلة (un message) من اللغة (أ) إلى اللغة (ب). أضف إلى أنّها تعتبر الكلمة الوحدة الترجمية التي ينبغي الانطلاق منها و هي لذلك تهتم باللفظ و تصب جل اهتمامها على اللغة (la langue) و قواعدها المجردة.

سعت بعض الدراسات اللسانية في الستينيات و في نطاق التركيز الأساسي على الكلمة و المركب اللغوي في مجال الدلالة

---

(1)voir Ines Oseki Dépré, Theories et pratiques de la traduction littéraire, Armand collin, 1999, p56.

(*)عرّفها دو سوسير كما يلي:

– اللغة (langue)

سمة مميّزة لمجموعة من البشر تمتلك نظاماً، و هي مظهر من مظاهر اللسان (language). و تعتبر أيضاً نظاماً من القواعد المجردة التي يحتدى بها و يحتكم إليها في نطاق المجموعة. و هذه القواعد محدودة العدد و هي نظام مغلق.

– اللسان (language)

جزء معين، متحقق من اللغة بمعناها الإنساني الواسع، و هو اجتماعي، عرفي، مكتسب. يشكل اللسان نظاماً متعارفاً عليه داخل جماعة إنسانية محددة.

– الكلام (parole)

انجاز فردي واقع في الزمان و المكان، و هو انجاز لا محدود (des réalisations infinies).

(ينظر عبد الصابور شاهين، في علم اللغة العام، ط6، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1413هـ-1993م، ص29-38).

إلى البحث حول ما سمي بالسمات الدلالية (les traits sémantiques). و اعتبرت الكلمة بمثابة حزمة من السمات أي مجموعة من الوحدات المعنوية الدنيا. و يخص ذلك أكثر المستوى الصوتي في الكلمة. فكل كلمة تتشكل من السمات المائزة (traits distinctifs) التي تميّزها عن غيرها من الكلمات خاصة ما تعلق بالدلالات الايحائية (connotatives) و الدلالات التصريحية (denotatives) فيها.

و كان ذلك بمثابة النقلة النوعية في هذه الأبحاث، بحيث تحولت الدراسات إلى مفهوم المكافئات (équivalences)، أي المطلوب إحداث الأثر نفسه الذي أحدثه النص في لغته الأصلية لدى قارئه. و تطورت هذه الدراسات اللسانية بمرور الوقت إلى دراسات تعنى بالنص سميّت بالمقاربات النصية (approches textuelles)؛ جاءت نتيجة وعي المنظرين بأنّ دراسة مسائل الترجمة من الناحية اللغوية ينبغي أن تتمثل في شكلها الواسع من خلال النص و مختلف تصنيفاته لا من خلال الكلمة و التعابير اللغوية، معيرة الاهتمام كله للملفوظات (les énoncés) التي تعتبرها بمثابة حجر الزاوية لمقاربتها النصية.

أسست المقاربات النصية لمرحلة جديدة في التفكير حول الترجمة، إذ أولت عناية خاصة بأنماط النصوص. و من أهم استنتاجاتها أنّ الترجمة تختلف باختلاف أنواع النصوص. تعتبر المنظرة الألمانية Katharina Reiss احدى رواد هذا الاتجاه، حيث وضعت تصنيفاً لمختلف النصوص انطلاقاً من الوظيفة اللغوية السائدة في كل نص؛ و اعتمدت في ذلك على وظائف اللغة التي جاء بها اللساني كارل بهلر Karl Buhler. و يلاحظ هنا أنّ دافع رايس في تصنيفها ذاك جاء من منطلق لساني، و هو نابع من الفكر الألماني الذي أولى اهتماماً كبيراً بالتلقي.

ينطلق تصنيف رايس من اللغة و نوعية المادة اللغوية الموجودة في النصوص، و هذا ما دفع بالكثير من المنظرين إلى اعتباره أحد التوجهات اللسانية بامتياز. ينبغي أن يرتكز التصنيف على ماهو مقرؤ و ليس على نية الكتابة. و أصناف النصوص عندها هي: النصوص التمثيلية وفقاً لوظيفة التمثيل، النصوص التعبيرية وفقاً لوظيفة التعبير، و النصوص الدعوية و التحريضية و الإثارية وفقاً لوظيفة المناداة.

يتمثل النوع الأول في النصوص الإخبارية أين يقع التركيز فيها على موضوع الكتابة، فمثلاً نجد نصوص الأخبار التي تقدمها وكالات الصحافة و الأنباء، و النصوص ذات الطابع الوصفي مثل النصوص العلمية عامة. و يتجلى النوع الثاني في النصوص الجمالية التي تكون الغاية من ورائها التعبير عن مكنون ما، أو سرد لأحداث تم معايشتها. و يوظف هذا النمط من النصوص لغة مكثفة و أسلوباً تعبيرياً متدفقاً، كما أنّ التركيز يكون على الباث و غالباً ما يكون لهدف استيتيكي. و نصوص الأدب هي غالباً من ذات الغرض. أما النوع الثالث، فهي النصوص الدعوية و التحريضية و الإثارية التي يكون فيها التركيز على المتلقي و كيفية استمالته. يستدعي كل صنف من هذه الأصناف النصية ضرباً من

ضروب الترجمة (الطرق اللغوية، و الحيل البلاغية، و السبل الإثارية).

تميل مقاربة رايس إلى اعتبار الترجمة عملاً تواصلياً (باث–موضوع–مستقبل)، ثم إنّها كانت تسعى دائماً لوضع نماذج صارمة و إقامة بنى مرجعية في الترجمة تخضع لنظريات مضبوطة مثل مختلف العلوم؛ لكنها في مقابل ذلك كله لم تنكر فكرة الإبداع في الترجمة. و ما يؤخذ على رايس أنّها جمعت في الصنف الثاني ما قد لا يجتمع بسهولة، ذلك أنّ النصوص الإنشائية الجمالية ليست صنفاً واحداً. كما اعتبرت أنّ النص الإخباري قليل الكشف عن الجوانب الأسلوبية، و هي وجهة نظر مخالفة لما دأب عليه الكثير من اللسانيين ممن يعتبر أنّ كل أسلوب يحمل في ثناياه معنى ما من المعاني. و تتسم مقاربة رايس ببعض من الميكانيكية و الآلية، إذ إنّ التصنيف التعسفي أو القصري في نظرها قد ينجم عنه ترجمات قيصرية و غير سوية.

و لم يتوقف الاشتغال على المسائل الترجمية، بل في وضع أسسها بوصفه علماً قائماً بذاته، عند هذه المقاربات، لكن تعداه إلى المقاربات التأويلية أو الهرمسية. و مفهوم التأويل مبحث قديم في الدراسات الغربية، إذ كان يعني في بداياته نوعاً من التقنية في شرح الكتاب المقدس (hermeneutica sacra)، و هو مفهوم يقترب كثيراً من مفهوم فقه اللغة. و كانت هذه التقنية بمثابة آداة تفهم من خلالها النصوص الدينية؛ حيث إنّ جميع الشعوب و الحضارات التي عرفت ماهية هذه النصوص و تداولت بها إلاّ و كان لها مبحث التأويل هذا، و قد ساعدها ذلك كثيراً على فهم الظواهر الطبيعية مثل الزلازل و الخسوف و الكسوف و غيرها.

استمرت، على امتداد تاريخ البشرية، مختلف الحضارات في اعتبار أنّ التأويل طريقة إجرائية لفهم النصوص، و الركيزة في ذلك الجانب اللغوي بالعودة إلى المعاني و الدلالات اللغوية. و قد شكل القرن التاسع عشر نقطة تحول كبير بالنسبة لهذا المبحث، بحيث تحول ليشكل نظرية في الفهم و التأويل بفضل جهود العالم اللغوي الألماني فريدريش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher الذي صنّف التأويل ضمن ما أسماه بـ (المادة المساعدة)، و اعتبره فناً أكثر منه علماً؛ و خرج به من الجوانب العلمية الإجرائية و جعلها في خدمة (فلسفة الأخلاق). يذكر شلايرماخر في جميع المسائل المتصلة بالتأويل، و تعتبر محاضرته المعنونة بـ (ما معنى أن نفهم؟) محاولة في الدفع بهذا المفهوم نحو الأمام؛ فلا أحد ينكر أنّ صراع الإنسان مع مسألة الفهم لا تنتهي أبداً (فهم الطبيعة، فهم الذات البشرية، فهم الآخر...) بغض النظر عن الموضوع المراد فهمه؛ و ما معنى أن نعطي معنى لشيء ما. ثم تداول على ذلك ديلتي Dilhti، و استقر الأمر بهذا المبحث في القرن العشرين بوصفه فرعاً من فروع الفلسفة (la philosophie herméneutique) بتوطين من الفيلسوف مارتن هايدجر Martin Heidegger، ثم تبعه في ذلك يورغن هبرماس Jürgen Habermas و جاك دريدا Jacques Derrida الذي لم يكن يهتم بالقضايا الفلسفية، و بول ريكور Paul Ricoeur و هانس غادمير Hans-Georg Gadamer.

كان حديث هؤلاء الفلاسفة عن الترجمة من باب التمثيل، إذ اعتبروا أنّ الترجمة تعد الطريقة المثلى لمعالجة الظواهر التأويلية. و قد كتب هانس غادمير الكثير من المقالات حول التأويل، بيدأنّ كتابه (verité et methode) يعتبر مرجعاً أصيلاً مازال ينهل منه الدارسون إلى اليوم. و هو كتاب صدر باللغة الألمانية في الستينيات كتبه في نهاية مشواره العلمي في حقل الفلسفة. يعتبر غادمير أول من استعمل مصطلح (l'herméneutique) في الفلسفة، و قصد به تمكين الناس من الفهم، و شرح و تقريب آلياته إليهم. تقتضي كل ترجمة تأويلاً، و يعد كل مترجم مؤولاً بيدأنّه ليس كل تأويل ترجمة لأنّ الترجمة تعتمد على النصوص، فالنص بالنسبة لغادمير هو حيز اللقاء بين الفلسفة الهرمسية و الترجمة المختلفة. و من بين المبادئ الأساسية التي تقوم عليها النظرة الغادميرية للدرس التأويلي اعتبار أنّ كل عمل يعد فعلاً تأويلياً و هو ذو طابع استحواذي؛ إذ أنّ كل مؤول يستحوذ على ما أوّله بعد جهد لامتلاك الآخر الغريب و المغاير له. ثم إنّه علينا حين الترجمة أن نتملّك النص من خلال الفهم و التحليل، لكنه ينبغي علينا أيضاً في الوقت نفسه أن نبقى مباعدين له بحيث لا ينبغي لذواتنا أن تذوب مع ما تم تأويله. و تلح النظرة التأويلية كثيراً على تجنب الفهم المغلوط و غير السوي (la mécompréhension)، ففي بعض الأحيان تؤدي الفوارق الزمنية و المكانية إلى فهم مغلوط، كما تتغير بعض معاني الألفاظ أو تكتسب معان جديدة.

و تبع ذلك تنوع في النظريات و الاستراتيجيات أسهمت كلها في وضع اللبنة الأولى لعلم الترجمة (translatology)[*] الذي يشتمل على ثلاث أنواع من الدراسات الترجمية: الدراسات الوصفية ثم الدراسات النظرية الصرفة و الدراسات التطبيقية. و لا يمكن أن تصنّف الدراسة على أنّها وصفية فحسب، بل هناك تكامل و روابط علائقية بين هذه الدراسات كلها. و نحن هنا لم نقم بجرد جميع المقاربات التي وصمت مسار الترجمة، إذ ثمة المقاربات الأدبية و العرفانية و غيرها، و لكننا أردنا أن نبيّن أنّ جلّ المنظرين و المشتغلين في هذا الحقل أدركوا، منذ ارهاصاتهم التنظيرية الأولى، وجود عامل آخر يتداخل في الفعل الترجمي. إلى أن حانت لحظة الحسم، فتيقن أولئك الباحثون و المترجمون أنّ هناك ضرورة لاقحام عنصر آخر في عملية الترجمة، و هو العنصر الثقافي مستفيدين بذلك من اسهامات علوم الاجتماع و الأنثروبولوجيا[**].

(*)يعتبر البعض أنّ المنظر الكندي براين هاريس Brian Haris هو أول من اصطلح عليه تسمية (علم الترجمة) (translatology) العام 1972 في مقاله المعنون بـ (What I really meant by translatology?). لكننا نجد أنّ الأدبيات الإنجليزية توظف مصطلح (الدراسات الترجمية) أو (دراسات الترجمة) (translation studies) بدلاً من توظيفها اصطلاح (علم الترجمة) (translatology). كما نجد أيضاً مصطلح (traductique) الذي وظّفه أصحاب النظرية التأويلية الذين لا يؤمنون بالتنظير في الترجمة بقدر ما يؤمنون بالجانب العملي.

(**)يمكننا أن نتطرق في هذا الصدد إلى أعمال عالم الأنثروبولوجيا برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي Bronislaw Kasper Malinowski و عن نظريته حول السياق الموقفي و تبنيه للترجمة المشفوعة بالتعليق، و أخذ العوامل الثقافية المؤثرة في عملية انتاج النص و تلقيه بعين الاعتبار، خاصة عندما كان يترجم من لغات شعوب المحيط الهادي إلى اللغة الانجليزية.

لقد رسّخ هذا العنصر الثقافي، الذي يصر عليه الكثير من الباحثين، الكثير من الخصوصيات التي تصبح معها الترجمة أمام موضوع معقد لا يكفي فيه حضور الجهاز اللغوي عارياً من الجهاز السوسيوثقافي لأنّ الترجمة عبور بين الثقافات[1]، و هو عبور يجمع بين ضفتين تختلفان في التاريخ و في التراث و في العقيدة مشكلاً نوعاً من التواصل الثقافي و الحضاري. و هذا السياق الثقافي ليس نتاج البعد اللغوي وحده، بل ثمرة تفاعل البعدين اللساني و ما وراء اللساني لأنّه لا توجد لغة خارج السياق الثقافي؛ فكان لزاماً علينا إذن أن ننطلق من مقولة "لغة–ثقافة بدل مقولة لغة"[2].

و تعد اللغة وعاء الثقافة و مرآة تعكس جميع التجليات الاجتماعية و السيكولوجية و عقلية المتكلمين بها؛ و تصوّر كذلك بيئتهم و منشأهم أين يتفاعلون فيؤثرون و يتأثرون. و هذا التأثير و التأثر محكوم عليهما بالفشل سلفاً إن لم ترافقهما فكرة الانفتاح على الآخر و عدم الخوف منه أو إبداء الكره اتجاهه. و هي عوامل تسعى الترجمة إلى تحقيقها من خلال رأب الصدع و رتق الفتق بين مختلف الثقافات مهما بعدت في الزمان و المكان، و مهما اختلفت ماهيتها و الدور المنوط بها في الحضارة العالمية، أكان دوراً ريادياً أم دوراً ثانوياً أو تخلفياً يبحث لنفسه عن صيت يذيعه. و للغة دوراً حاسماً في ذلك، إذ بحسب النظرة التميّزية بين اللغات تعتبر اللغة لغة عالمية عندما يترجم إليها أعداد لا تحصى من الكتب و في مختلف المجالات، لا اللغة التي يتكلم بها الكثير من الناس. و هو حال اللغة الانجليزية مثلاً، فبالإضافة إلى انتشار التداول بهذه اللغة، نجد أنّ البيئة الانجليزية أيضاً أذيعت لدى الثقافات المستقبلة، فكثرت أقسام اللغة الانجليزية عبر كبرى الجامعات، و أصبح يدرس فيها الأدبيات الانجليزية و الحقبات الزمنية المؤسسة لها. و هذا إن دل على شيء إنّما يدل على أنّ اللغة تحمل معها دوماً "آثار البيئة و الثقافة"[3].

و ليس ذلك بالأمر الهيّن على المترجم، إذ عليه أن يتعلم اللغة أولاً و يتقنها أيضاً، ثم امتلاك حس تراثي و آخر ثقافي يستطيع من خلاله أن يذلل أنواع الصعاب الترجمية التي تتصل بالمعطى الثقافي. و هذا ما يجعل من الاختصاص الترجمي اختصاصاً هو غاية في التعقيد. و يدخل في دائرة التعقيد أيضا الأغراض المقصودة من كل ترجمة: هل جاءت لتحقيق الدور التواصلي أولاً و أخيراً؟ أم لتحقيق منفعة علمية كانت أو اقتصادية؟ أم لقهر الانعزالية الحضارية و الانزواء الثقافي؟ أم تجسيداً للفعل التعليمي و التلقيني الديداكتيكي؟

تمكنت الترجمة أيضاً من مواكبة التطور الحاصل في مجالات الاتصال و تكنولوجيا الإعلام لتبرهن مرة أخرى أنّها تستقطب جميع العلوم. و قد سهّلت هذه التكنولوجيات من مهام المترجم كثيراً، بحيث مكنته من الاستعانة بالحواسيب

(1)voir Jean René Ladmiral, Traduire, théorèmes pour la traduction, Payot, Paris, 1979, p13.
(2) Ibid, p18.
(**3**)محمد عبد الرحمان مرحبا، قراءات و تحليلات في الفلسفة العربية الإسلامية، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، بيروت، 1995، ص338.

و بمختلف البرامج الخاصة بمعالجة النصوص في شتى اللغات؛ كما مكنته أيضاً من انجاز الترجمات (خاصة الفورية)، و المشاركة في مختلف الملتقيات و الندوات و هو متواجد في مكتبه. فالعالم اليوم يعيش حالة من التحول لم يسبق للبشرية قاطبة أن شهدتها من قبل، إذ صرنا نقطن بأرض تكاد تختفي فيها الحدود الجغرافية لتصبح وطناً واحداً. و مما لا شك فيه أنّ التعبير المتداول اليوم الذي يصف العالم بالقرية الصغيرة "أصبح من الأدبيات التي أنتجتها عولمة الاعلام، و بهذا التعبير نتمكن من ملامسة مستويات الاندماج و الانفتاح التي أصبحت تسم كل المجتمعات بما فيها الانفتاح الثقافي"[1].

إنّ معرفة الآخر هي معرفة للذات أيضاً، بها تنكشف مواطن الخلل فيها؛ كما تنكشف أيضاً على صورة الآخر في طبيعته البشرية و في طرق ملبسه و مأكله و عاداته و تقاليده و فنونه و قيّم الجمال عنده. هي إذن وسيلة للاغتناء الثقافي من دونها تتسم ثقافتنا بالركوض. بيدأنّ ذلك لا يعني البتة إهمال الهوية الثقافية التي انبنت لأجيال و التي تشكل إرث الأمة الحضاري. و بهذا تكون الترجمة فعلاً مؤسساً للتجربة الفكرية و الثقافية للأمم لأنّها تدفع في التفكير في العديد من الثنائيات و الأبعاد:

– ثنائية اللغة و الفكر، حيث ينبثق البعد التقني نظراً لما تتطلبه مهارة تحويل نص من لغة إلى لغة، مع الحفاظ على أسسه البنائية و محمولاته الفكرية.

– ثنائية اللغة و الثقافة، حيث يطفو البعد الإبداعي أولا لأنّ النص المترجم جاء في سياق التعبير الفني عن ذات ممتلكة لخصائصها الثقافية المميّزة، كما يبرز بالموازاة البعد الايديولوجي ثانياً، على اعتبار أنّ النص المترجم يجسد رؤية خاصة اتجاه العالم نظراً لكونه نصاً يحمل موقفاً أيديولوجياً و يعبر عن ثقافة معينة.

– ثنائية لغة الذات و لغة الآخر، و هنا يبرز البعد التواصلي. حيث تغدو الترجمة قناة تواصلية تقلّص المسافة بين الشعوب و المجتمعات من خلال الاطلاع على منجزاتها و خبراتها؛ و لعل الثورة في مجال الاتصال و وسائطه الجماهيرية تدعم هذا البعد و تؤطره لأنّه من يمتلك المعلومة و سبل انتاجها يمتلك زمام المبادرة و سلطة القرار.

يعد كل تفكير في الترجمة تفكيراً اشكالياً يتطلب الكثير من الدراسة و التمعن. فهي تجمع بين العديد من الأبعاد المرافقة للغة التي تجعل منها نمطاً صعباً بل و يستحيل أحياناً كثيرة. و قد صنّف منظرو الترجمة[*] نوعين من الصعاب التي

---

(1)تيسير شيخ الأرض، الترجمة بين الفعل و الانفعال الثقافي، مجلة الوحدة، العدد62/61، تشرين1/تشرين2، أكتوبر–نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص11.

(*)من بينهم: جون كونيسون كاتفورد John Cunnison Catford، و رومان جاكبسون Roman Jakobson، و أوجين ألبير نايدا Eugene Albert Nida، و بيتر نيومارك Peter Newmark، و كريستيان نورد Christiane Nord، و مونا بيكر Mona Baker، و جيرمي مانداي Jeremy Munday، و إيان ميسن Ian Mason و باسل حاتم Basil Hatim، و أنطوان برمان Antoine Berman، و أنطوني بيم Anthony Pym.

قد تنّغص على المترجم عمله: تندرج الأولى ضمن حالات اللاترجمة اللغوية حيث يتعذر على المترجم إيجاد مكافئ لغوي في اللغة المنقول إليها، و عليه أن يسعى جاهداً لإيجاد ما يمكن أن يمثل مكافئاً في اللغة الهدف. و تندرج الثانية ضمن حالات اللاترجمة الثقافية، إذ يتعذر على المترجم إيجاد مكافئ ثقافي أي ما يمت إلى أحد العناصر المكوّنة للثقافة و للحياة الاجتماعية من سلوك و أعراف و غيرها في اللغة الهدف. و يترتب عليه في هذه الحالة شرح و توضيح السبب المؤدي إليها، و بالتالي التقصي عن مكافئ يفي بالغرض.

لهذا السبب أيقن جل المنظرين أنّ الفعل الترجمي فعل مركب إلى أبعد الحدود، و أنّ "أي تعريف لمفهوم (الترجمة) لا بد و أن يتسع ليشمل جدلياته الحية و آفاقه المتعددة، كفعل ابداعي، و نشاط لغوي، و ضرورة حضارية، و موقف ايديولوجي"[1].

مما لا جدال فيه أنّ الثقافات تتعدد و تختلف في جوهرها، و أنّ لكل واحدة منها سمات تميّزها، لذلك وجب الحفاض قدر الإمكان على الخصائص الإثنوغرافية للجماعات التي تنتمي إليها. و لم يكن الأمر كذلك في العقود الماضية، إذ لم تكن هنالك تعددية ثقافية (multiculturalisme)، و كانت الفكرة السائدة هي وجود ثقافة شمولية (une culture universelle) لا غير تقتصر على ثقافة الرجل الأبيض الأوروبي المتحضر، و بالتالي تم إلغاء الثقافات الأخرى. و يعود الفضل في دحض وجهة النظر تلك إلى علماء الأنثروبولوجيا من أمثال ليفي ستراوس Levi Strauss و مالينوفسكي Malinowski اللّذان برهنا للعالم أنّ وجود ثقافة إنسانية من نوع كوني شيء غير طبيعي؛ و أنّ هناك ثقافات أخرى غير ثقافة الرجل الأوروبي المتحضر.

و يقودنا الحديث عن التعددية الثقافية إلى الحديث عن (الغيتوهات الثقافية) (les ghettos culturels). و يعني هذا المفهوم انعزال بعض الجماعات البشرية ثقافياً من أجل الحفاظ عن ماهيتها و أصالتها و الدفاع عنها، فلا تأخذ من الثقافات الأخرى و لا تمدها شيئاً. لكن الترجمة لا تقصر النظر إلى ثقافة بعينها و تهمل أخرى، بل إنّ المترجم، و على العكس من ذلك تماماً، يقضي وقته في رحلة الغدو و الرواح بين ثقافة اللغة المنقول منها و ثقافة اللغة المنقول إليها سعياً منه إلى تجسيد الفعل التواصلي بينهما؛ و حتى و إن فضّلت ثقافة ما الانزواء و الانطواء بعيداً، إلاّ أنّها ستكون حاضرة حين الترجمة إلى جانب لغتها، مرغومة لا مخيّرة؛ و كأنّهما (اللغة و الثقافة) وجهين لعملة واحدة.

إنّ المتفحص لما جاء به المنظرون في حقل الترجمة سيبدي اهتماماً بمسألة وجود علاقة متينة جداً بين اللغة و الثقافة

(1)محمد حافظ دياب، الترجمة و أسئلة النهضة العربية، مجلة الوحدة، ع62/61، السنة6، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص36.

في الخطاب. و على الرغم من أنّ كل لغة تملك طريقة خاصة في التعبير عن الثقافة و المفاهيم، أي أنّ لكل لغة مفرداتها و تراكيبها و قواعدها فإنّ ذلك لا يعني أبداً أنّها لا تستطيع تصور مفاهيم ثقافات أخرى و أفكارها، بل حتى فهمها و التعبير عنها.

و هناك اتجاهان حول هذه الفكرة، إذ يرى البعض "أنّ اللغة تؤثر في الثقافة و تساعدها ليس فقط على وصف الواقع، و إنّما أيضاً على نمذجته؛ و يعد البعض الآخر أنّ اللغة تعكس الثقافة، و أنّها ناطق فعلي باسم تجلياتها و قيمها، و وسيط من جملة الوسطاء الآخرين. و هكذا لا يمكن انكار العلاقات بين اللغة و الثقافة، و لكن اللغوي و الثقافي يبدوان حقلين متميزين و مستقلين عن بعضهما البعض"[1] .

تحدث جون فرانسوا جولي[*] Jean-Francois Joly عن تاريخ الترجمة، و رأى أنّ هذا التخصص اليافع لم يكن ليدّعي مستقبلاً إن هو لم يقدر على أن يستمد من مكتسبات الماضي، و ينبع من نماذج قديمة. إنّ التأسيس لتاريخ الترجمة هو تسليط الضوء على الشبكة المركبة للتبادلات الثقافية التي حدثت بين البشر من جهة و بين الثقافات و الحضارات عبر الأزمنة و العصور. و أكدت هذه التبادلات الثقافية أنّ الترجمة نشاط إنساني لا غنى عنه في فهم الآخر و في أن يفهمنا الآخر؛ و هذا ما مكنها من تبؤ المكانة الرفيعة التي هي عليها اليوم بشهادة جميع التخصصات و شتى المعارف و كل العلوم.

لم يختلف منظرو الترجمة في إعطاء تعريف محدد و مضبوط للثقافة، لكنهم يركزون على معناها الشائع اليوم الذي يرتبط بأنماط العيش و التفكير التي يشترك فيها أفراد جماعة ما، و التي تدفع بالأفراد المنتمين إلى هذه المجموعة التصرف وفقاً لبعض الحالات الاجتماعية بصفة مشتركة. و ينظر بعض الباحثين إلى الثقافة أيضاً على أنّها عبارة عن شبكة متداخلة من العادات التي تتحول إلى (طبع روتيني) ثم إلى (تقنية) عندما تتوقف من أن تكون حقيقة ثقافية. و الحقيقة أننا أمام ميدان بحث شاسع و واسع، و الذي يمكننا من خلاله أن نلحظ العلاقة الجدلية بين تعميم و تبسيط الحقائق الثقافية، و بين العمل المستمر حول التقليل من حجم ما هو متعذر ترجمته.

تثير كل ترجمة ما اشكالية الانتقال من لغة إلى أخرى، من تصور للعالم إلى آخر؛ و لكنها تلح أيضاً على ضرورة التفكير في الزمن الذي يبدل معاني المفاهيم داخل كل ثقافة. كيف تنتقل التصورات من مجال ذو معنى إلى آخر، من العالم الذي شهد نشأتها إلى عالم آخر مختلف أين ستكسب مفهوماً و مظهراً آخرين. إنّ مثل هذه المسائل المهمة لهي

(1)ماتيو غيدر، م س، ص04.

(*)رئيس الفدرالية الدولية للمترجمين (la Fédération Internationale des Traducteurs-FIT) العام 1995.

بحق نواة علم الترجمة و محرك للتنظير فيه(*).

و يمكننا أن نفهم أيضاً سبب تدخل الثقافة في كيفيات الترجمة، إذ بما أنّ الترجمة عملية ثقافية للغاية فإنّه لا يمكننا أن نترجم بالشكل نفسه في جميع الثقافات. كما أن هنالك تفاعل بين طرائق الترجمة و كيفياتها، و بين طرق العيش التي تحكم تلك الثقافات(1).

خصص أنطوان بارمان Antoine Berman قسطاً كبيراً من أعماله لإشكالية الثقافة و الترجمة، و ذلك من خلال دراسته لبعض الأدباء الألمان، و تسليط الضوء على بعض المعوّقات خاصة في الترجمة الأدبية، و الأسس و المعايير التي ينبغي أن ينبني عليها أي نقد ترجمي. و قد اعتبر الكثير من هؤلاء الأدباء (من أمثال غوته و نوفاليس و هولدرين) أنّ الترجمة تعد واحدة من بين الوسائل المؤسسة للعالمية. و توصف الترجمة بأنّها مسار يمر عبره كل ما هو خاص ليصبح عالمياً، بحيث يلقى فيه كل شبيه إلى بعد سيتكفل بتحويله تماماً؛ مسار تؤطره التجربة لغيرية العالم التي سيتشكل الأنا من خلالها، و التي ينبغي أن تحدث في طار الالتحام و الهوية و الوحدة. و للأجنبي هنا دور الوساطة، إذ سيكون كل من يبحث عن نفسه في هذا الأجنبي مجبراً على تخيل صوراً التي ستوظف أولاً كنماذج ثم كوساطات. يمكن لأي شخص أو شعب أو أمة، كما يمكن أيضاً للغة أو أدب أو لمؤلف أدبي بشكل عام، من خلال هذا البناء، أن يتشكل و يكتسب بذلك مظهراً.

إنّ من بين الإشكاليات التي تطرحها الترجمة: اشكالية الآخر و ثقافته. ذلك أنّ الترجمة تتحقق بشرطين الواحد منهما لا يكفي: معرفة اللغة و معرفة الخصائص الإثنوغرافية للجماعة المتكلمة بها. و يمكن أن تكون هناك مقاومة و رفض للسيطرة الثقافية لدولة ما (مثل ما حدث للإرلنديين من صعوبة في التأقلم مع المجتمع الانجليزي منذ العام

(*)Roland Haumont cite à ce propos:

“c'est donc 1'étude d'une réalité extérieure à toute culture. Mais, comme chaque culture entraine toute une série d'expressions qu'elle a figées dans la langue au cours des siècles, il devient également évident que nous verrons cette réalité au travers d'un filtre qui s'appelle la culture. Cela influence nos hypothèses, le cheminement de nos raisonnements qui ne sont pas autre chose que des suites d'idées organisées et enchainées logiquement. Mais, comme nous venons de le voir, chaque culture possède sa logique: n'est-ce pas Meillet qui a dit que « chaque siècle a la grammaire de sa philosophie. Le Moyen Age a essayé de fonder la sienne sur la logique et ... notre grammaire générale n'a été que le prolongement de la logique “ [1]. Si nous acceptons l'observation générale de Meillet, chaque culture voit sa philosophie évoluer avec le passage du temps. Ce qui vient encore compliquer l'étude du traducteur”.

([1] A. Meillet, introduction à l’étude comparative des langues indo-europeénnes, Paris, Hachette, 1921, p118. (Roland Haumont, Pensée, culture et message, Meta, vol.12, N°03, 1967, p79-80).

(1)voir Jean-Louis Cordonnier, Aspects culturels de la traduction: quelques notions clés, Meta, vol.47, N°1, 2002, p40.

1945) الذي كان أقل حدة و أخف وطأة بسبب الخفاء الإثنوغرافي؛ و يعني ذلك أنّ الإيرلنديين لا يختلفون كثيراً عن الانجليز (استعمال نفس اللغة، نفس البنية المورفولوجية، نفس التاريخ، نفس الثقافة)، و السبب هو التأثير الكبير للثقافة الانجليزية على هذا البلد[1].

تعد النصوص بمختلف أنماطها الصورة التي تتجسد من خلالها الترجمة، أي أنّ كل فعل ترجمي لا يدور إلا في فلك هذه النصوص، فهي بالتالي تمنح للمترجم حيزاً تعبيرياً قد يقل أو يعظم من نص إلى آخر. و على هذا الأساس تظهر إشكالية الترجمة في كونها تعرض نظاماً معرفياً كاملاً داخل نظام مختلف. و أوضح دليل على ذلك إشكالية ترجمة النصوص الفكرية عامة و الدينية بنحو خاص التي تكون دائماً محاطة بدائرة القداسة، و لا تتيح للمترجم أي شكل من أشكال الحرية و الابداع، و ربما تحرمه أيضاً من أبسط حقوق الاجتهاد ما يجعل من الترجمة تقنية معرفية لأنّها تتناول مباشرة المخزون الثقافي للنص و مكنونه الحضاري.

و بغية فهم هذا المخزون الثقافي، الذي يتجلى أولاً من خلال البنى اللغوية التي توظف لخدمة فكرة أو مجموعة أفكار أو مفاهيم قابلة للتفسير، ينبغي أولاً فهم العلامات اللغوية و العلاقات الداخلية لتلك العلامات التي يتشكل السياق من خلالها، و يمنحها متغيرات دلالية. و هو ما يعني أيضاً ضرورة فهم العلاقة بين الدوال فيما بينها ثم بين الدوال و مدلولاتها القائمة على التناوب و الثنائية. فأي حديث عن ثقافة نص ما يعني الحديث عن "وظيفة العلامة أو الاشارة اللغوية (sign) التي تكتسب طبيعتها و مشروعيتها من النسق اللغوي "السياق" من خلال علاقاتها الجدلية بالعلامات الأخرى و التي تشكل في مجموعها وحدات النص ضمن وظيفته التواصلية و ضمن العلاقة التالية: المرسل–النص–المتلقي"[2].

و يمكننا هنا أيضاً أن نعرض ما ذهب إليه روبرت شولز Robert E. Scholes في تعريفه للنسق الذي قال فيه أنّه "مجموعة القوانين و القواعد العامة التي تحكم الانتاج الفردي للنوع (اللغوي) و تمكّنه من الدلالة. و لما كان النسق تشترك في انتاجه الظروف و القوى الاجتماعية و الثقافية من ناحية، و الانتاج الفردي للنوع من ناحية أخرى، و هو انتاج لا ينفصل هو الآخر عن الظروف الاجتماعية و الثقافية السائدة، فإنّ النسق ليس نظاماً ثابتاً و جامداً. إنّه ذاتي التنظيم من جهة، و متغير يتكيف مع الظروف الجديدة من جهة ثانية"[3].

---

(1)voir Karin Fisher, Sylvie Mikowski, Avant-propos: Irlande: l'épreuve de l'étranger, sources (revue d'études anglophones), N°15, automne 2003, p06.

(**2**)عدي جوني، اشكالية الترجمة و ثقافة النص، مجلة أفق الثقافية، الموقع الالكتروني (http://www.ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=90)،(أدرج بالموقع بتاريخ 01 فبراير 2001، و تمت آخر زيارة للموقع بتاريخ 30 أوت 2010).

(**3**)عبد الرحمن حمودة، المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، مجلة عالم المعرفة، العدد 232، نيسان، الكويت، 1998، ص223.

بالعودة إلى تعريف شولز للنسق، يبدو واضحاً أنّ اللغة تدخل في تركيب النسق و تمنحه المتغيرات الدلالية. و تتأثر اللغة كذلك بالعوامل الخارجية التي تحكم إنتاجها. و تتجلى هذه العوامل الخارجية في النظام المعرفي للنص، أي في مخزونه الثقافي و الحضاري و كل ما يدخل في تشكلهما من عوامل ميتالغوية. و يخضع النسق لتبدلات و تغيرات بحسب ما يطرأ من ظروف و متغيرات على العوامل الخارجية المؤثرة في الفرد المنتج للغة. و يسمح ارتباط العلامة اللغوية بالآلية الدلالية، أي علاقة الدوال بالمدلولات و النسق الذي يؤطرها، تشكل المظهر اللغوي لجملة المدولات التي تأتي انعكاساً للمكنون الثقافي ضمن دائرة النسق الاجتماعي و السوسيوالثقافي للغة. و يمكن أن يحدث أنّ المعطى الثقافي للجملة الواحدة يختلف عن المعطى الثقافي للجملة الأخرى و اللّذان يختلفان عن المعطى الثقافي لفقرة من الفقرات أو للنص عامة. و مرد ذلك أنّ العلائقية بين الدال و المدلول ليست ثابتة بل متغيرة بحسب تغير السياق الذي جاءت فيه.

و تشكل مسألة فهم الآلية الدلالية للنص، و معرفة و تأويل ثقافتها إحدى المعوقات التي تنغص على المترجم عمله. و يظهر ذلك جلياً عند ترجمة النصوص الأدبية التي لا يكفي فيها فهم العلامة اللغوية و معناها القاموسي ضمن قواعد اللغة النحوية و الصرفية و التعبيرية، بل يتعداه إلى كشف العلاقات الاستيتيكية بين الدال و المدلول ضمن مفهوم المجاز و الحيل البلاغية. و هذا ما من شأنه أن يسهم في جعل الترجمة الأدبية ظاهرة من "الظواهر المميّزة للحركة الثقافية"[(1)]، و عاملاً أساسياً من عوامل التنمية الفكرية و أداة مغذية لرقي الفن و الابداع.

و بذلك قامت الترجمة الأدبية بدحض التصور الذي كان قائماً و المتمثل في "استحالة الترجمة و نسف مبدأ العزلة الثقافية"[(2)] لتصبح فعلاً معرفياً يتجاوز الاشتغال الضيق على اللغة، و رديفة للتواصل الأدبي المجسد للحوار الذي "تجريه الشعوب عبر الكلمة الفاعلة و التي من وسائلها الأساسية ...الشعر و الأدب و المسرح"[(3)].

و ما يسترعي الانتباه هنا أنّ المنظرين اللسانيين أنفسهم أشاروا إلى أنّ أي تحويل للبنى اللغوية من لغة إلى أخرى يحقق نقلاً من ثقافة إلى أخرى، بهذا تصير "الترجمة نقلا لنص من ثقافة إلى ثقافة أخرى عبر الإشتغال على تحويل لغته"[(4)].

و في الحقيقة تعد مختلف التعريفات التي أعطيت للترجمة، ذات الأصل الابستيمولوجي، نابعة من النظر إلى الغاية من الترجمة و ليس من فعل الترجمة ذاته.

تقدم لنا النهضة التشيكية في أوائل القرن التاسع عشر مثالاً عن الأدب القومي المتنامي الذي يسعى إلى توسيع مجال

(1)جان ألكسان، الترجمة الأدبية و التنمية الثقافية، مجلة الوحدة، ع62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص97.

(2)رشيد برهون، الترجمة و رهانات العولمة و المثاقفة، مجلة عالم الفكر، ع1، المجلد 31، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يونيو/سبتمبر، 2002، ص173.

(3)ضاهر مسعود، الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان و الوطن العربي، مجلة الوحدة، ع64/63، أكتوبر/نوفمبر، 1990، ص46.

(4)ج.س كاتفور، نظرية لغوية في الترجمة، ط1، تر. خليفة العزابي- محي الدين حميدي، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1991، ص33.

نماذجه الأدبية عن طريق الترجمة. و لقد درس الباحث التشيكي فلاديمير ماكورا Vladimir Macura الدور الذي قامت به الترجمة في حركة إحياء التشيكية، و أشار إلى أهمية الترجمة بوصفها سياسة ثقافية معلنة. و كان فعل المصادرة هذا في نظره على درجة كبيرة من الأهمية في حركة بعث التشيكية، بحيث أنّه حدد النصوص المنتقاة للترجمة. أعاد ماكورا تفسير موضوع ترجمة يونغمان (للفردوس المفقود) التي دار حولها جدل كبير لعقود طويلة، و اعتبرها محاولة تنم عن وعي كبير من خلال تقديم نص يعكس مزيجاً من الثقافات المختلفة من مسيحية و يهودية و وثنية التي اتحدت فيما بينها مشكّلة مظهراً من مظاهر الثقافة الإنسانية ثم دمجه ضمن نظام أدبي حديث الظهور؛ و لهذا فلقد كان لعمل ميلتون الأدبي وظيفة رمزية أيضاً بوصفه وسيلة للتأكيد على عالمية الأصول السلافية الشاملة.

تتصل الترجمة إذن بمسألة نقل الآخر المغاير و إكسابه صبغة محلية؛ لكنها تمنح المترجم أيضاً امكانية أن يطور ثقافته و يحدث فيها تبدلات من شأنها أن تقضي على عناصر الرتابة فيها و تهبها وجهاً جديداً. و أدرك المترجمون، و منهم العرب، منذ الوهلة الأولى (العصر العباسي) تلك الفوارق (écarts) بين اللغات (اليونانية و الفارسية). هذه الفوارق نفسها هي التي جعلتهم ينتبهون إلى أنّ اللغة العربية لازالت تكتنز العديد من الطاقات اللغوية وجب التنقيب عنها و البحث فيها انطلاقاً من المقابلة بين الثقافة العربية و الثقافات الأجنبية السائدة في تلك الحقبة[1].

إنّ ضرورة الانفتاح على الآخر، و مواكبة عصر النهضة جعلت العرب آنذاك يدركون يقيناً دور الترجمة في الإعداد الثقافي. و على رأس هؤلاء حنين بن إسحاق الملقب بشيخ المترجمين. و قد ترجم حنين بن إسحاق رفقة ولده إسحاق و ابن أخته حبيش و تلميذه عيسى بن يحي العديد من الكتب ذات القيمة العلمية الأكيدة و في مختلف المجالات. بيدأنّه كان ثمة إشكالاً استعصى على أولئك حله، و تمثل في كيفية التعامل مع الترجمة: هل يكون بوصفها عملية لغوية صرفة؟ أو عملية تبادل ثقافي و حسب؟ أم إنّها عملية تناص تنبع النصوص فيها من بعضها البعض؟ للثقافة إذن مكانتها المحفوظة في الترجمة. بل إنّها تطرح إشكالية العلاقة بين المكتسبات اللغوية و المكتسبات الثقافية الواجب توفرها لدى كل مترجم. و يقوم الدرس الترجمي اليوم على اتجاهات جديدة–قديمة تسلط الضوء على أهم التحولات الثقافية من خلال مفاهيم المثاقفة و الثقافوية و غيرها التي تسم الثقافات المستقبلة؛ و أهم هذه الاتجاهات مسائل الترجمة و الاستعمار[*]، و الترجمة و ما بعد الكولونيالية.

---

(1) Mohamed Dib, The Causes of Failure In Translation And Strategies, Al-Meshaal journal, vol.I, issue 01, Department Of The Arabic Language and Literature, Laboratory Of Automatic Treatment Of Arabic Language, Linguistics and Applied Linguistics, University Of Tlemcen, April 2005, p02.

(*)"يهتم بول باندیا Paul Bandia المنظر الكندي على سبيل المثال بتأثير علم الترجمة على ثقافة الأصل المستعمَرة، و يرى أنّ الآداب الإفريقية الناطقة باللغات الأوروبية نفسها ليست سوى ترجمات. تقوم هذه الأعمال جزئياً على خطاب أيديولوجي، و ترافقها جزئياً أيضاً دراسات تجريبية متعددة الأنساق العلمية يلتقي فيها الأدب المقارن، و علم الاجتماع، و اللسانيات التي تقتبس منها تصورات اللسانيات النصية و البراغماتية".

(دانييل جيل، مبادئ في علم الترجمة، تر. محمد أحمد طجو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد135، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف 2008، ص04).

إنّ الاهتمام بالثقافة في الترجمة أدى إلى ظهور نمط جديد من الدراسات الترجمية التي قامت بركن النظريات اللغوية جانباً و ركزت جهدها حول ماهية الفعل الترجمي بوصفه تحويلاً ثقافياً وعياً منها بأنّ الترجمة تتصل بالجانب البيئي و بالمحيط الذي نشأ فيه النص و بخلفيات الكاتب الشخصية (نقصد بالشخصية ذلك الكل المركب بأبعاده السيكولوجية و الفكرية و الدينية و غيرها)، و التي تبرز من خلال اتجاهات الكتابة الموظفة في النص و المعاني المتجلية في لغتها ظاهرة كانت أم مضمرة. تسمى هذه الدراسات بـ (الدراسات الثقافية) التي من بين اهتماماتها نجد:

– الترجمة بوصفها عملية إعادة كتابة، و هو اتجاه تطور عن نظريات النظم و كان رائده اندريه لوفيفر Andre Lefevere، تتم فيه دراسة أيديولوجيات علاقات القوة الموجودة في رعاية و بوطيقا الأنظمة الأدبية و الثقافية التي تتداخل مع الترجمة الأدبية.

– الترجمة و الجندر، و هو اتجاه يتمثل في مشروع الترجمة الأنثوي الكندي الذي نظرت له شيري سايمون Sherry Simon، جاعلاً من المرأة حاضرة في الترجمة.

– الترجمة و ما بعد الاستعمارية، و هو اتجاه يمثله كل من شبيفاك Spivak و نيرانجانا Niranjana و كرونن Cronin، تتم فيه مقارنة (زحزحة النصوص) و المترجمين العاملين في المستعمرات السابقة للقوى الأوروبية أو بلغاتهم[1].

و لا تقل أعمال لورانس فينوتي Lawrence Venuti أهمية عن ذلك، فهي تشكّل جزءا مما يسمى بـ (المنعطف الثقافي) (The cultural turn) الذي يهتم بالترجمة أكثر شمولاً بعيداً عن التصورات التقنية المتعلقة بالاختلافات اللغوية و التكافؤ و الأمانة. و تشكل أعمال سوزان باسنيت Susan Bassnett لبنة هامة في الدرس الترجمي، و التي حاولت من خلالها جاهدة أن تستقصي عن العلاقات التي تربط الترجمة بالأدب المقارن. و تناقش باسنيت و لوفيفير، في مقدمتهما لمجموعة مقالات بعنوان (الترجمة، و التاريخ و الثقافة) العام 1990، مسألة تهميش الترجمة داخل الأدب المقارن؛ بحيث يقرّان بأنّ الوقت قد حان لإعادة التفكير في هذا الإقصاء لأنّه "مع تطور دراسات الترجمة بوصفها حقلا معرفيا قائما بذاته، و له منهجيته المستمدة من علم المقارنة و من تاريخ الثقافة، فإنّ الوقت قد حان للتفكير في ذلك ثانية. فقد أصبحت الترجمة من قوى التعبير في تطور الثقافة العالمية، إذ لم يعد ممكنا إجراء دراسة أدبية مقارنة دون الاهتمام بالترجمة"[2].

(1)ينظر جيرمي مندي، ملخص نظرية الترجمة، ترجمة و اعداد كاظم علي، منتديات الجمعية العلمية السعودية للغات و الترجمة (http://www.saolt.net/forums/showthread.php?t=4394)، (تمت آخر زيارة للموقع بتاريخ 2010/12/26).

(2)سوزان باسنيت، من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة، تر. فؤاد عبد المطلب، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 124، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف 2005، ص10.

أولى بيتر نيومارك Peter Newmark أهمية كبيرة للثقافة في الترجمة من خلال نظريته السوسيوثقافية التي تعتمد على الرجوع إلى المرجعية الثقافية للغة النص. و قد استند نيومارك في نظريته تلك على مفهوم فرضية اللغات لسابير و وورف الذي ينبني على الرؤية المختلفة للعالم. إنّ اللغة لا تقدم وسائل الاتصال لمتحدثيها فحسب بل تفرض عليهم تحليل التجارب الحياتية بشكل مختلف عن الآخرين. و يطرح هذا المفهوم إشكالية ترجمة الفوارق الثقافية بين اللغات التي قد تستعصي على المترجم في الكثير من الأحيان؛ لهذا نجد أنّ أصحاب هذا الاتجاه ركزوا على المعنى مباشرة.

و قد عُرف نيومارك بنظرية الترجمة الدلالية و التواصلية. ترتكز هذه النظرية على التكافؤ الديناميكي بين النصوص و تعير اهتمامها للسياقين اللغوي و الثقافي لتحليل معاني الكلمات. و جاءت نظرية نيومارك نتاج ثمرة تدريسه لسنين طوال في حقل الترجمة. و هي تنبني على فكرة علمية دقيقة في أنّ أي فعل ترجمي لا ينعزل أبداً عن ظروف الاتصال المؤطرة له مستشهداً بما قاله ويليامز Williams يوماً و هو يتساءل عن ما إذا ستعرف برامج الجامعات دروساً في علم الترجمة أين يكون المترجم في المجموعة الثقافية[1].

يشبّه بيتر نيومارك النص المراد ترجمته بجسم في مجال كهربائي تتجاذبه قوتان عكسيتان تتشكلان من لغتين ثم من ثقافتين، و تشاركهما في ذلك أيضاً قوة جاذبة أخرى تتمثل في السمات الشخصية للكاتب الذي قد يخالف جميع معايير لغته.

تتصف النظرية السوسيوثقافية عموماً بالطابع البرغماتي، إذ تتعامل مع النصوص من خلال ثقافتها و الظروف التي أنتجت فيها، ثم من خلال المواقف التواصلية التي تجسدها.

و ما يختلف فيه نيومارك عن سابقيه من المنظرين هو أنهم استمدوا الكثير من علم اللغة، فوظفوا مصطلحاته و نقلوا مفاهيمه، في حين ابتعد هو عن ذلك واضعاً بصمته الخاصة في علم الترجمة. و تعتبر النظرية السوسيوثقافية في الترجمة من بين النظريات القليلة التي تتفق مع واقع الممارسة العملية[2]. فهي لا تنظر إلى الترجمة من منظور اللغة فحسب، بل من منظور الثقافة أيضاً التي تملي على الجماعات البشرية المنتمية إليها طرائقاً معينة تكسبها خصوصيات تتميز بها عن غيرها من الجماعات؛ فجوهر الفعل الترجمي إذن لا يتحقق إلا من خلال اللحمة بين الظروف التي تدخل في انتاجه برمتها.

تتسائل سوزان باسنيت عن السبب الذي أدى بالدراسات الترجمية من أن تأخذ منحى ثقافياً في محاولة منها و أندري لوفيفير إلى لفت الانتباه حول التغيرات الكبيرة التي أعتقد أنّها عززت، يوماً بعد يوم، مجال البحث في الدراسات الترجمية. و قد نتج عن هذه التغيرات تبدلاً تاماً من مقاربة الترجمة الشكلية إلى أخرى التي وضعت تركيزاً كبيراً على

(1)ينظر سعيدة كحيل، نظريات الترجمة: بحث في الماهية و الممارسة، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 135، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف 2008، ص05.

(2)ينظر محمد عناني، نظرية الترجمة الحديثة، مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، مصر، 2003، ص72.

العوامل الميتالغوية. فدراسة ممارسة الترجمة قد لفتت الانتباه، الذي كان ضرورياً، إلى مسائل خارجية عن النص مثل السياق و التاريخ و ليس فقط المجادلة في المسائل الترجمة الكلاسيكية.

و قد تغيرت بفعل ذلك أيضاً الأسئلة المطروحة حول الترجمة، و أعيد ضبط مفهوم موضوع الدراسة من جديد: ما ينبغي أن ينظر إليه الآن، كموضوع قيد الدراسة، هو وجود نص مؤطر داخل نظامين من الرموز الثقافية تتشاركان فيه كل من اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها.

كان لزاماً علينا، تقول باسنيت، أن نضع حداً فاصلا بين المقاربات اللسانية و المقاربات الأدبية في الترجمة. لقد تطورت دراسات الترجمة من حيث كونها اختصاصاً مستقلاً خلال سنوات الثمانينات، مستخدمة في ذلك المنهجيات التي تنتمي إلى البحوث اللسانية و الأدب المقارن. بيدأنّه سرعان ما أدرك جل المنظرين أنّ الوقت قد حان لزيادة توظيف أدوات تاريخ الثقافة و الدراسات الثقافية في الترجمة.

تلعب الترجمة دوراً فعالاً في بناء الأنظمة الأدبية، فهي لا تأخذ مكاناً على محور أفقي فحسب، و أنّ المترجم يعد طرفاً في علاقات القوة المركبة (الوساطة الثقافية)، و أنّها دوماً عبارة عن إعادة كتابة للأصل؛ كلها مسائل تطرق إليها و بكثير من الإسهاب العديد من المنظرين من أمثال مايكل كرونين Micheal Cronin، و ادوين غانتزلر Edwin Gentzler، و لورنا هاردويك Lorna Hardwick، و ثيو هارمنز Theo Hermans، و تجاسويني نيرانجانا Tejaswini Niranjana، و دوغلاس روبنسون Douglas Robinson، و شيري سايمون Sherry Simon، و هاريش تريفيدي Harish Trivedi، و إلزا فيرا Elsa Viera، و لورانس فينوتي Lawrence Venuti و آخرون كثر. أصبحت الدراسات الترجمية موضوعاً أكاديمياً مقبولاً، تبحث فيه الكتب و الصحف و رسائل الدكتوراه بسرعة كبيرة حتى أنّه لا يمكن قرائتها كلها. و في خضم هذا البحث الجديد و المفعم بالحماسة، ثمة العديد من الأسئلة المرتبطة بالأيديولوجيا و الأخلاق و الثقافة.

لم تكن سوزان باسنيت العام 1990 المنظرة الوحيدة التي أشارت إلى (المنحى الثقافي) (The cultural turn) في الدراسات الترجمية، إذ إنّ الاهتمام بالعوامل الخارج نصية ظهر منذ زمن طويل من خلال أعمال أصحاب نظرية (تعدد النظم) (Polysystems) و على رأسهم اتمار ايفن روهار Itmar Even-Zohar و جدعون توري Gideon Toury و جيمس هولمز James Holmes. كما قامت أيضاً حججاً مماثلة حول هذا الموضوع في ألمانيا و كندا و البرازيل و الهند؛ و إن كان ذلك بوجهات نظر مختلفة كما هو الحال بالنسبة لمسألة إعادة تمثيل أهمية الترجمة في تاريخ الأدب، و تعقب أصل الترجمة ضمن السياقات الثقافية الفردية الخاصة بها، و استكشاف المزيد من الحضور

الأيديولوجي للترجمة، و علاقات القوة الحاضرة عندما يتم نقل نص من سياق إلى آخر[1].

اعتنت نظرية تعدد النظم في بدايتها الأولى بالترجمة الأدبية، بيدأنّ العديد من المنظرين الآخرين، ممن اشتغلوا بمجالات غير الترجمة الأدبية، اتبعوا الاتجاه نفسه. نجد من بين هؤلاء أصحاب نظرية (Skopos) على سبيل المثال التي وضعها هانز فيرمير Hans Vermeer و كاترينا رايس Katharina Reiss و آخرين ممن افترضوا أنّ غاية أو وظيفة ترجمة ما هي التي تحدد الاستراتيجيات الترجمية التي ينبغي توظيفها. و من ثم تأخذ ذاتية المترجم الأسبقية، و تخوّل الوظيفة التي تسعى أي ترجمة إلى الوفاء بها في الثقافة المستقبلة هذا المترجم من القيام ببعض الخيارات. و يعتبر ذلك بعيداً كل البعد عن نظريات الترجمة التي تركز على اللغة المصدر، و التي يمكن القول بأنّها تعكس أيضاً منحى ثقافياً.

يقول ادوين غانزلر Edwin Gentzler ملخصاً دراسات الترجمة خلال سنوات الثمانينات و التسعينات أنّ هذه الأخيرة شهدت تغيرين مهمين للغاية حول تطور الجانب النظري فيها: الانتقال من النظريات المركزية التي تهتم بالنص الأصل إلى النظريات اللامركزية التي تهتم بالنص الهدف، ثم الانتقال إلى تضمين العوامل الثقافية فضلاً عن العناصر اللغوية في النماذج الخاصة بالتدريب على الترجمة.

ما هو واضح الآن أنّ المنحى الثقافي في الدرس الترجمي كان بمثابة الظاهرة الفكرية ذات التأثير الكبير، و لم يحدث ذلك، بأي حال من الأحوال، إلا في دراسات الترجمة. تكتسب الأسئلة الثقافية أهمية ضمن دراسات العلوم الإنسانية عموما. و قد أخذت اللسانيات أيضاً منحى ثقافياً مع ظهور تحليل الخطاب كما أشار إلى ذلك دوغلاس روبنسون، فكان الانتقال من اللسانيات الاستنتاجية إلى اللسانيات الأدائية.

و تزايد الاهتمام بلسانيات المدونة التي اعتبرت مونا بيكر Mona Baker رائدة فيها، و هو ما يشكل مظهراً آخر من مظاهر التحول الثقافي في اللسانيات.

إنّ ترجمة الكلمات بحسب لورنا هردويك Lorna Hardwick، التي تعتبر واحدة من بين العلماء المختصين في الحضارة اليونانية القديمة و مؤلفة كتاب (عن الترجمة بين الثقافات) (On intercultural translation)، تنضوي أيضاً، في الثقافة المستقبلة، على ترجمة أو (زرع) الإطار الثقافي الذي جاء فيه النص المهجور، مما يجعل من الترجمة أداة للتغيير (توظف هنا صورة مجازية تتصل بعملية (زرع) عضو ما في جسم آخر، و التي استمدتها من ماري شيلي Mary Shelley). إنّ مهمة من يترجم النصوص المهجورة هي انتاج ترجمات تتجاوز فورية النص و تسعى إلى توضيح

(1)see Piotr Kuhiwczak and Karin Littau, A Companion to Translation Studies, Library of Congress Cataloging in Publication Data, 2007 (Chapter 1, Culture and Translation, SUSAN BASSNETT), p13-14.

الاطار الثقافي الذي أنتج فيه. علاوة على ذلك، يخوّل الفعل الترجمي القويم القراء المعاصرين إعادة تخيل و بناء الحضارات المفقودة. و بذلك تكون الترجمة البوابة التي يمكن من خلالها العبور نحو الماضي.

تساءل النقد النسوي عن سبب هيمنة الكتّاب الرجال على التخصص الأدبي، و أجبره، على نحو فعّال، على إعادة تقييم الطريقة التي تم من خلالها بناء هذا التخصص. و كنتيجة لذلك، إن نحن نظرنا إلى القرن 18 من وجهة نظر ما بعد النسوية، فلن يظهر كقرن هيمن فيه الكتّاب الرجال، و إنما الزمن الذي بدأت فيه النساء بتقديم مساهمة كبيرة في الحياة الفكرية. و بالطريقة نفسها، إن نحن نظرنا من منظور الدراسات الترجمية خلال القرن 15 في انجلترا التي كان ينظر إليها على أنّها أرض بور، مع القليل من عدم أهمية ما تم انتاجه بعد موت جيوفري شوسر، فسنجد أنّه ثمة فترة من النشاط الترجمي المكثف للنصوص الدنيوية و النصوص المقدسة على حد سواء. إنّ إعادة تقييم الحركة النسوية في القرن 18 من حيث إعادة التفكير في التخصص ثم إعادة تقييم الإنتاج الأدبي في القرن 15 من حيث أهمية الترجمات المنجزة ليس سوى مثاليين عن الكيفية التي من خلالها تقوم المعلومات الجديدة بتغيير وجهة نظرنا التاريخية. ببساطة، أصبحت الأعمال المنتجة من قبل النساء غير مرئية، مثلما تم تجاهل أهمية الترجمة. يفترض إعادة تقييم هاتين الفترتين من التاريخ الأدبي إعادة النظر في مفهومنا نحن عن ما يشكل الأدب المهم. في كلتا الحالتين، أخذت عملية موازية للاستجوابات المؤسسة للمعايير مكاناً، و هو ما يمكن اعتباره تحولاً ثقافياً حاسماً.

كانت مسائل البحث المركزية في نظرية تعدد النظم هي الطعن في التأسيس للقوانين الأدبية. و قد أشارت إلى أنّ أي نموذج لنظام أدبي ينبغي أن يحتوي على الأدب المترجم، بحيث كانت الترجمة في الكثير من الأحيان القناة التي من خلالها يمكن مباشرة الابتكار و التغيير، فلا يمكن لأي مراقب لتاريخ أدب ما أن لا يعترف بالحقيقة المهمة لأثر الترجمات و دورها في تطور الخصائص التزامنية و السيرورة التطورية لبعض الآداب.

أسس ايفين زوهار رؤيته تلك على الأهمية الأساسية لدور الترجمات في نظام أدبي ما، و سعى بعد ذلك إلى التعريف بالظروف التي تحدوا بالترجمة إلى أن تكون ذات أهمية خاصة. و أشار إلى أنّه كلما يتطور الأدب فإنّ حاجته إلى الترجمة تتقلب، إذ يمكن لنظام أدبي راسخ بشكل جيد أن يُترجَم بشكل أقل مقارنة بنظام آخر يشهد تغيرات و اضطرابات. ستقوم الآداب التي تطورت حديثاً بترجمة نصوص أكثر، و قد تم اثبات هذه الفرضية من قبل علماء الترجمة من أمثال ندى ماكورا Nada Macura عند اشتغالها على الآداب الأوروبية الشرقية و الوسطى منها على سبيل المثال. تدين آداب مثل الأدبين التشيكي و الفلندي اللّذان تطورا خلال القرن 19، ضمن سياقات النهضة اللغوية و النضال السياسي لأجل الاستقلال الوطني، للترجمة بشكل كبير. و على النقيض من ذلك، نجد أنّ الصين لم تترجم بشكل كبير

و لعقود، ذلك لأنّ الكتّاب الصينيين لم يكونوا بحاجة إلى التأثيرات الخارجية. مع ذلك، تشهد الصين اليوم ازدهاراً في الترجمة بسبب العصرنة و التأثير الغربي و ولوجها الاقتصاد العالمي.

يقدم الأدب الانجليزي مثالاً آخر، حيث بدأ نشاط الترجمة بالتباطؤ خلال القرن 18، و ذلك بعد قرون عديدة شهدت ادخال أشكال شعرية جديدة (مثل السوناتة) و أفكار جديدة (مثل النظريتين السياسية و الإجتماعية)، و التحولات الكبيرة في الدين مع قدوم الاصلاح، و النقاشات الكبرى حول موضوع ترجمة الكتاب المقدس. بحلول القرن 18، تضاءلت الحاجة إلى جلب الابتكار من الخارج، و نجم عن ذلك الزخم من الكتاب ممن أنتجوا نصوصاً باللغة الانجليزية نقصاً في الترجمة. أدى ذلك إلى تراجع مكانة الترجمة، بحيث تعتبر اليوم الترجمة إلى اللغة الانجليزية ضئيلة جدًا؛ و بما أنّ اللغة الانجليزية تواصل تطورها بوصفها لغة عالمية مشتركة، فإنّه لا يوجد أدنى دليل يوحي بأنّ الترجمة ستستعيد تلك الأهمية التي تميّزت بها في عهدي وليام شكسبير William Shakespeare و جون درايدن John Dryden.

تبدو اليوم وجهة نظر ايفين زوهار في أنّ الثقافات تترجم وفقاً للحاجة بديهية. بيدأنّه اعتبر ذلك آنذاك معياراً مهماً إلى أبعد الحدود، و منه كانت الآثار المترتبة عن نظريته حول التغير الثقافي هائلة جداً[1].

و قد أشار ايفين زوهار إلى أنّ الوضع التاريخي يحدد كم و نوع الترجمات التي يمكن انجازها. و تكون منزلة هذه الترجمات إما مهمة أو أقل أهمية وفقاً لمنزلة الثقافة المستقبلة. و بالتالي يمكن أن يكون لعمل ما أهمية أساسية في ثقافة اللغة المنقول منها، و عندما تتم ترجمته لن يحظى بأية أهمية إطلاقاً في الثقافة المستقبلة؛ أو على العكس من ذلك، يمكن لترجمة ما أن تغيّر شكل نظام الأدب المستقبل. بإمكاننا أن نشير في هذا الصدد إلى مثال عن ذلك، و الذي يتمثل في حالة الروائي الأمريكي جاك لندن Jack London الذي لم يكن مشهوراً على نطاق واسع، و الذي يتمتع بمكانة شرعية في روسيا و دول الاتحاد السوفياتي السابقة؛ و يمكن أن يوظف ذلك كمثال عن الطريقة التي يمكن للترجمة أن تغيّر جذرياً مخزون الكتابة أو ملكات مؤلف ما. و ثمة مثال آخر يحاكي الحالة نفسها، الكاتبة البرازيلية كلاريس ليسبكتور Clarice Lispector التي ترجمت أعمالها إلى اللغتين الفرنسية و الانجليزية في سنوات الثمانينات من قبل مترجمين أكفاء. جاءت هذه الترجمات في وقت كانت القارة الأمريكية الجنوبية مصدر إعجاب الأوساط الأدبية الأوروبية، و كرّم أدباء من أمثال لويس بورخيس Luis Borges، و غرسيا ماركيز Garcia Marquez، و فارغاس يوسا Vargas Llosa. لقد تمكنت ليسبكتور Lispector من إشباع حاجة خاصة: كانت إمراة برازيلية و ترجمت أعمالها بطريقة رائعة من قبل جيوفاني بونتيرو Giovani Pontiero. و كنتيجة لذلك، قُرأت أعمالها على أوسع نطاق،

(1)see Piotr Kuhiwczak and Karin Littau, op.cit p14-18.

و أصبحت تحتل مكانة بارزة في الآداب البرازيلية خارج بلدها الأصلي أكثر منها في وطنها البرازيل.

و ثمة مثال آخر عن التحول الثقافي في دراسات الترجمة، و هو التوسع في البحث عن المعايير التي تحكم الاستراتيجيات و التقنيات الترجمية. و قد سعى كل من جدعون توري Gideon Toury و أندرو شسترمان Andrew Chesterman و ثيو هارمنز Theo Hermans على وجه الخصوص إلى استكشاف المعايير الترجمية ليس فقط حول المسائل النصية بل أيضاً فيما يخص التوقعات الثقافية. و قد كان جدعون توري صريحاً حول أهمية المعايير الثقافية في الترجمة، إذ ينبغي أن ننظر إلى الترجمة على أنّها نشاط ذو أهمية ثقافية. و بالتالي ينبغي أن تكون الترجمة أولاً و قبل كل شيء قادرة على لعب دور إجتماعي معين. و لكي يصبح الواحد منا مترجماً ضمن البيئة الثقافية، ينبغي اكتساب مجموعة من المعايير لتحديد ملائمة هذا النوع من السلوك، و لأجل المناورة بين كل المعايير التي قد تقف حائلاً أمام تحقيق ذلك.

تقول باسنيت Bassnett أنّها في الوقت الذي كتبت فيه هي و لوفيفير Lefevere كتابهما (ابتناء الثقافات) (Constructing cultures) كان بمقدورهما القول و ببساطة أنّه أصبح للترجمة الآن العديد من القصور (كناية عن بلوغ النشاط الترجمي أوجه). لقد تمكنا من إدراك ذلك الكم الهائل جداً من الأعمال التي أنجزت حول جميع جوانب الترجمة، و تدريب المترجمين و نظرية الترجمة؛ و أدركا أيضاً أنّ عدداً متزايداً من علماء الدراسات الترجمية ركزوا بطرائق مختلفة على العديد من المسائل الترجمية المهمة. و قد أشارا في مقدمتهما إلى أنّ التغير الهائل الذي وسم حقل دراسات الترجمة لم يفاوت حدوث تداخل بين الحقول المعرفية أو بين التخصصات في الميدان الواحد (الأدبية، الأنثروبولوجية، الثقافية) التي أضيفت إلى اللسانيات فحسب، بل حتى إنّ الهدف من العمل في الحقل نفسه قد اتسع، بحيث اعتبرت الترجمة في سنوات السبعينات و كما هي من دون أدنى شك مسألة حيوية للتفاعل بين الثقافات. و إن كانت الترجمة كذلك، فلماذا لا يتم اتخاد الخطوة التالية و دراسة الترجمة ليس فقط من منظور تدريب المترجمين، و لكن دراسة التفاعل الثقافي بشكل أدق. لقد اعترفا بأنّ الترجمة تمنح مختبراً مثالياً لدراسة التفاعل الثقافي، ذلك لأنّ المقارنة بين النص في اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها لن تبرز الإستراتيجيات الموظفة من قبل المترجمين في أوقات معينة فحسب، بل ستكشف أيضاً عن مكانتي النصين داخل أنظمتهما الأدبية المتعددة، و سيتم عرض العلاقة الكامنة بين النظامين الثقافيين الذين أدرجا فيهما هاذين النصين.

اقترحت كل من سوزان باسنيت و أندري لوفيفير وسيلتين للنقد كوسائل منهجية بغية الانخراط في هذه العملية استمدتا من عمل بورديو بيير Pierre Bourdieu: فكرة الثقافة الرئيسة و مفهوم الشبكة النصية. يمكن أن تعرّف

الثقافة الرئيسة بشكل عام على أنّها كل ما هو ضروري لأي فرد بغية أن ينظر إليه على أنّه ينتمي إلى الدوائر الصحيحة في المجتمع. عندما اقترح كمال أتاتورك Kemal Ataturk بناء دولة مستوحاة من عملية (الأجنبة الأوروبية) التي من شأنها تقريب تركيا نحو أوروبا، كفل برنامج لترجمة أهم الأعمال الأدبية الأوروبية إمكانية أن يطلّع القراء التركيون على الثقافة الرئيسة للغرب. و قامت باسنيت و لوفيفير في كتابهما (ابتناء الثقافات) بمناقشة الوضع المتغير لعمل فرجيل (آينيد) (Aeneid) بوصفه غنى ثقافي؛ و أشارا في هذا الصدد إلى أنّ النظم التعليمية تعد الوسيلة الرئيسية لمراقبة إنشاء و تداول الغنى الثقافي.

إنّ التقليص من دراسة لغة ما كاللغة اللاتينية مثلاً يمكن أن يكون له تضمين ضخم للقيمة المعطاة للأدب اللاتيني، و تضمين ضخم بالمساواة لدور الترجمة ما إن يمكن أن يطّلع على هذا الأدب قلة قليلة فقط من القراء. لقد تغيرت قيمة الأدبيات الكلاسيكية، بوصفها غنى ثقافي، بشكل كبير خلال بضعة قرون.

إنّ أهمية الشبكة النصية في دراسة و إنتاج الترجمات هي بنفس القدر أو ربما أكثر أهمية. أشارت كل من باسنيت و لوفيفير، في صياغة مفهوم للشبكة النصية، أنّ بعض الثقافات (مثل الثقافات الفرنسية، الألمانية و الانجليزية) تتقاسم شبكة نصية مشتركة تنبع من التقاليد المسيحية و اليونانية–الرومانية. و لا تتقاسم ثقافات أخرى (مثل الصينية و اليابانية) الكثير مع الثقافات الأخرى، بيدأنّه يبدو وجود الشبكات النصية في جميع الثقافات بمجرد وجود اللغة.

تعد الشبكات بنى تعكس أنماط التوقعات التي تم دمجها من قبل أفراد ثقافة ما. و اقترحت كل من باسنيت و لوفيفير أنّه ينبغي على طلبة الترجمة أن يعيروها مزيداً من الانتباه مقارنة بما كان عليه الحال في الماضي، سواء رغبوا في تعلم تقنيات الترجمة أو في تحليل الترجمات و الدور الذي تؤديه في تطور الثقافات.

تعدّ فكرة الشبكات النصية فكرة مساعدة في تحليل الترجمة. أكد لوفيفير في مقال نشره في وقت لاحق و طوّر فيه مفهومه حول فكرة الشبكات النصية و المفهوماتية أنّ سبب المشاكل حين الترجمة هي التناقضات في الشبكات النصية و المفهوماتية كما هي التناقضات في اللغات. تصبح المشاكل واضحة خاصة عندما نترجم بين الثقافات الغربية و غير الغربية. يعلّق لوفيفير على ذلك بقوله أنّ الثقافات الغربية شيدت الثقافات غير الغربية من خلال ترجمتها إلى الفئات الغربية؛ و هي العملية التي تشوه و تزيّف. يقودنا ذلك بطبيعة الحال مباشرة إلى أهم مشكل أثناء الترجمة، و حين القيام بجميع المحاولات لفهم المسائل البيثقافية على الإطلاق: هل يمكن للثقافة (أ) حقاً أن تفهم الثقافة (ب) من خلال هذه الكلمات الثقافية الخاصة بها؟ أو هل تقوم الشبكات دائماً بتحديد الطرق التي من خلالها يكون بمقدور الثقافات أن تفهم بعضها بعضاً؟ هل تعتبر الشبكات شرطاً مسبقاً لفهم كلي أم لا؟

إنّ نظرية ما بعد الاستعمار في الترجمة لهي مثال آخر عن الكيفية التي تطور من خلالها البحث في حقل الترجمة بالموازاة مع البحث في الدراسات الأدبية و التاريخية بشكل عام. طرحت في الهند و كندا و البرازيل، كمثال لثلاثة مراكز لأنشطة نظرية ما بعد الاستعمار في الترجمة، أسئلة حول علاقات القوة غير المتكافئة التي تخص ترجمة نص مثلاً من التاميل أو الكنادا (إحدى لغات جنوب الهند) إلى اللغة الانجليزية، لغة المستعمر. و قد اعتبر الفعل الترجمي في حد ذاته في نظر البعض، أبرزهم تيجاسويني نيرانجانا Tejaswini Niranjana، فعلاً تملكياً و استيلابياً. برهنت نيرانجانا على أنّ الترجمة نشاط تواطئي و تآمري يسهم في تثبيت الثقافات المستعمرة في قوالب مشكلة من قبل القوة المسيطرة. دافع ايريك شيفيتز Eric Cheyfitz بالطريقة نفسها على النظرة القائلة بأنّ الترجمة كانت عنصراً حاسماً في الاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية[1].

ركز كل من شيفيتز Cheyfitz و نيرانجانا Niranjana الاهتمام حول عدم المساواة بين الأنظمة الأدبية و الثقافية التي تحوّل النشاط الترجمي إلى عمل عدواني. يعتبر موقفهما هذا موقفاً متطرفاً لأنّه إذا ما كانت الترجمة من قبل الثقافة السائدة أبداً غير مشروعة فستصبح الترجمة عندها شكلاً من أشكال السرقة الثقافية، و هو عمل غير شريف لا ينبغي أن يحدث. إنّ السبيل الوحيد لكي تصبح الترجمة شرعية هو أن تأخذ مكانة من اللغة المسيطرة إلى اللغة الأقل قوة. و بالتالي تصبح الترجمة من اللغة الانجليزية إلى الكيبيكية أو من اللغة الألمانية إلى الأسكتلندية عاملاً سياسياً يؤكد الرفع من مكانة اللغة التي كانت مهمشة قبل ترجمتها.

تعتبر قوة علم الأساطير الثقافي هائلة للغاية. إن نحن أخذنا مثال الصين كما تتجلى من خلال الترجمة فسنجد ثنائية ستخدعنا: من ناحية يوجد لدينا (كاتاي) (Cathay)، الصين الوهمية التي ذكرها مترجمو العصر المبكر مثل ازرا باوند Ezra Pound و آرثر وايلي Arthur Whaley عبر أسلوب من اللغة الشعرية التي أصبحت بدورها مقننة. يعتبر ما تم تقنينه قوياً جداً لحد أنّه ساد في السينما عندما تم نقل الأفلام الصينية إلى اللغة الانجليزية. تنطوي أسطورة (كاتاي) على الحنين الماضوي، و الخسارة، و الشغف و الإحساس الجمالي الفائق؛ إنّها صين خيالية من ماض سحيق و وهمي تم الحديث عنها في قالب شعري مقنن و بتوظيف للغة مصطنعة البنية. بيدأنّه من ناحية أخرى و على الرغم من الاهتمام الغربي الهائل بالصين الجديدة اليوم، فإنّه ثمة القليل من الاهتمام بالأدب الصيني المعاصر. لا يجد الروائيون الصينيون الواقعيون و الصارمون الجدد جمهوراً مستجيباً لدى الغرب. هل سبب ذلك يعود إلى حساسيات ما بعد الحداثة الغربية، أو أنّ الجيل الجديد من الكتاب لا ينسجم مع الصين الأسطورية (كاتاي) التي نشأت منذ أكثر من قرن من قبل شعراء

(1)see Piotr Kuhiwczak and Karin Littau, op.cit, p18-20.

انجليز و أمريكيين؟ إن كان هذا هو الحال فعلاً فينبغي علينا أن نفهم إذن كيف يمكن لبناء أسطوري أوجدته الترجمة أن يكتسب قوة كبيرة كتلك و يحتفظ بها.

ما يزال هناك الكثير مما يتعين القيام به في دراسة عمليات التبادل الثقافي، و فهم المزيد حول الطريقة التي تبني بها الثقافات المختلفة صورتها من كتّاب و نصوص. يمكن أن تكون نظرية الغنى الثقافي و أنظمة الشبكات النصية مفيدة هنا، و من المهم أنّه ينبغي أن يستفيد واحد من بين أحدث مجالات البحوث الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسات الترجمة من مجموعة تخصصات مختلفة من اللسانيات إلى الأنثروبولوجيا بوصفها تسعى للإجابة عن أسئلة مماثلة. و تشير هنا باسنيت إلى دراسة أدب الرحلات.

يمنح أدب الرحلات كما يشير إلى ذلك عدد متزايد من علماء الترجمة، مثله مثل الترجمة، القرّاء فرصة الإطلاع على نسخة من ثقافة أخرى. يقدم الكاتب الرحال نسخة من ثقافة آخرية، و ينتج ما يمكن وصفه بأنّه شكل من أشكال الترجمة ناقلاً لكل ما هو مجهول و غير مألوف ليصبح مستوعباً و مفهوماً من قبل القرّاء عند عودته إلى وطنه. يعتبر التدجين واحداً من بين النماذج السائدة، و الذي يقوم على جعل ما هو غير مألوف طبيعياً و مستصاغاً (من خلال مجموعة من الإستراتيجيات التي تخوّل للقارئ السفر و هو موجه بواسطة ما هو مألوف). يعمل الأديب الرحّال ضمن فضاء هجين يقع فقط بين الثقافات (in-between cultures)، كما يعمل المترجم في فضاء بين اللغات.إنّها مساحة خطرة و غير أخلاقية يشار إليها غالباً بـ (الأرض الحرام) (no-man's land).

لا تزال هناك في بعض الأحيان أصوات معارضة تزعم أنّ الترجمة هي في المقام الأول حول اللغة و ليس الثقافة، و أنّ الواجب الملقى على عاتقها هو التركيز على الجوانب اللغوية في عملية الترجمة. ردت باسنيت على مثل هذا الإدعاء بأنّه ينبغي بطبيعة الحال على علماء الترجمة أن يركزوا على اللغة لأنّ الترجمة هي قبل كل شيء نقل نص من لغة إلى أخرى. لكن فصل اللغة عن الثقافة يشبه النقاش القديم حول أيهما يحل أولاً الدجاجة أم البيضة !

إنّ اللغة متضمنة في الثقافة، و تأتي الأفعال الثقافية في سياق، و تنشأ النصوص في سلسلة متصلة و ليس في فراغ. يعتبر أي كاتب ما نتاج فترة زمنية و سياق معينين كما هو حال المترجم الذي يعتبر نتاج زمن و سياق آخرين. تعنى الترجمة باللغة لكنها تعنى كذلك بالثقافة لأنّهما لا ينفصلان. و كما أشار إلى ذلك كل من تيموشكو Tymoczko و غانزلر Gentzler في مقدمتهما لمجموعة من المقالات حول الترجمة و علاقات القوة، تكون الترجمة ضمنية في عمليات التحول و التغير الثقافي.

لقد ارتبطت الترجمة دائماً بالنشاط الإنساني سواء كان هذا النشاط فكرياً و معرفياً أم اقتصادياً و تجارياً؛ و الترجمة

فعل إنساني استطاع أن يواكب التطور الحضاري للبشر في مختلف مراحله، و يؤسس لنفسه المكانة الرفيعة في علوم و آداب الثقافات البشرية كافة. و نقصد بالفعل الإنساني أنّ الترجمة تدور في فلك الذات البشرية عموماً، فهي تنقل ما يدور في خلدها من رؤى و مشاعر و خواطر (الترجمة الأدبية)، و ما أنجزته من علوم (الترجمة العلمية)، و ما توصلت إليه من تقنيات (الترجمة التقنوعلمية). كما لا يمكن إغفال النظرة البسيطة جداً القائلة بأنّ الترجمة تنتج من قبل إنسان (المترجم بوصفه باثاً) لتستقبل من قبل آخر (القارئ بوصفه متلقياً). و قد دفع هذا كله بالمنظرين و الباحثين إلى الالتفات بجدية صوب ما يكوّن هذه الذات البشرية، و خاصة ما يتصل بالجانب الثقافي منها. إنّ العمل حول الجانب الثقافي في الترجمة قد كشف عن الصعاب الجمة التي تعتري أي فعل ترجمي؛ كما كشف أيضاً عن مدى تداخل الشبكات الثقافية، التي تكون صعبة و مركبة في الغالب الأعم، في الشبكات النصية، و هو ما يمكن اعتباره حالة طبيعية و نتيجة حتمية لمدى التعقيد الذي يكتنف العلاقات الإنسانية عموماً.

إنّ الحديث عن الثقافة في الترجمة يؤدي بنا حتماً إلى الحديث عن الأيديولوجيا فيها. لقد حاول العديد من المنظرين و المشتغلين بحقل الترجمة و على مدى تاريخ هذا العلم الفتي الإجابة على السؤال: هل الترجمة علم أم فن؟ قد يبدو هذا التساؤل بريئاً في جوهره، ساذجاً في تفكيره، لكنه مع ذلك يفيد الاستقصاء عن طبيعة الترجمة و طرائقها و منهجياتها. و إذا كانت الترجمة علماً فإنّ ذلك يعني أنّها تخضع لمعايير علمية و إجراءات تطبيقية تقصي أي عنصر أيديولوجي؛ و أما إذا كانت فناً فإنّ الأيديولوجيا موجودة حتماً، بل و قد تكون محدداً من محدداتها.

و المتمعن في تاريخ الترجمة سيفهم أنّ المشتغلين بحقلها حاولوا إبعاد هذا العلم عن الصراع الأيديولوجي بتوجههم نحو اللسانيات بأدواتها و أساليبها العملية و الإجرائية بغية تحليل العمليات الترجمية، و ينبع ذلك من إعتقادهم بأنّ الترجمة عملية لغوية فحسب، و هي بذلك ميدان من ميادين اللسانيات (أعمال رومان جاكبسون و جورج مونان و جون كاتفورد على سبيل المثال). و قد نشأ تيار مضاد لهذا الرأي كانت بدايته مع مدرسة باريس (E.S.I.T) التي اعتمدت منهجاً دلالياً و معنوياً. و قد دافع عن الترجمة ضد الاحتواء اللساني ادمون كاري و ألبير بن سوسان اللّذان اعتبراها عملية أدبية. و أكثر من أبدى مقاومة لهذا التيار اللساني نجد هنري ميشونيك الذي أكد أيديولوجية الترجمة، و عدها من بين الميادين التي تتجلى فيها الأيديولوجية و فضاء تمارس فيه. و بما أنّ الترجمة تجمع بين الممارسات الفكرية و اللغوية فإنّها تشكل جزءا من الحقل الأيديولوجي شأنّها في ذلك شأن جميع الخطابات اللغوية، حيث تنفذ الأيديولوجيا عبر شقوق النصوص المترجمة، و تتمفصل في كيانها لتكسبها صبغة معينة و توجهاً خاصاً.

و في الحقيقة، عندما يسأل المترجم نفسه: ماذا أترجم؟ فإنّ ذلك يعتبر ذا أساس أيديولوجي لأنّنا لا نترجم إلا

النصوص التي تتوافق مع رؤيتنا للعالم (أي مع ثقافتنا)، و تدافع عن الأفكار التي نعتقد فيها و نؤمن بها. كما أنّ سؤال المترجم نفسه: كيف أترجم؟ أساسه أيديولوجي أيضاً، و السبب هو أنّه يتجاوز المنهجيات و الإجراءات المتعارف عليها ليفسح المجال أمام المترجم لتمرير أفكاره و اقتراح مقاربة محددة للواقع.

و نلاحظ أنّ دوافع الترجمة في الوطن العربي هي دوافع سياسية بالدرجة الأولى على الرغم من أنّ المبررات التي يقدمها الباحثون على سبيل الحاجة إلى العلم و المعرفة، أو الضرورة الحضارية، أو الحاجة إلى التواصل مع الآخر إلى غير ذلك من الأسباب تعتبر واهية و تبطن موقفاً أيديولوجياً.

ارتبط الفعل الترجمي عند العرب، منذ العصور الأولى، بالفعل السياسي، كما ارتبط أيضاً بالبعد الأيديولوجي؛ إذ قام خالد بن يزيد بن معاوية، بعد أن أصيب بإحباط سياسي، بالجوء إلى الترجمة، و أوكل بعض كتب الصنعة (الكيمياء) إلى غيره لترجمتها، و عندما سئل عن الغرض من ذلك أجاب "ما أطلب بذاك إلا أن أغني أصحابي و إخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة أفلا أحرج أحدا عرفني يوما أو عرفته إلى أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة، و يقال و الله أعلم إنّه صح له عمل الصناعة"[1]. و من هنا نفهم أنّ الترجمة اعتبرت بمثابة عملية تعويضية عن مجد ضائع. و يمكن أن نقرأ هذا الموقف السياسي كاستعارة لأنّ الترجمة تعويض عن النص الآخر، بحيث من افتقد الأصل أو فشل في الوصول إليه استعان بالترجمة.

و يذكر تاريخ الترجمة بتباهي تفاني الخليفة العباسي المأمون في رعايته لنشاط الترجمة و استثماره فيه، و ذلك بتوجيه دهائه السياسي كله و أجهزة الدولة و مؤسساتها للحفاظ على مشروعه الترجمي الذي وصل إلى حد العالمية. و قد كانت بداية اهتمام المأمون الرسمية بالترجمة دافعها الحلم الذي رآه و الذي ذكره ابن النديم في كتابه (الفهرست). و يقول المأمون أنّه رأى في منامه أرسطو الذي طلب منه أن ينقل كتبه إلى اللغة العربية. و شرع الخليفة العباسي في ذلك بغية تحقيق مشروع علمي يستفيد منه العرب خاصة و البشرية عامة. و يقدم محمد عابد الجابري قراءة سياسية لحلم المأمون بحيث يقول أنّه كان "حلما سياسياً، و هل يكون حلم رئيس الدولة شيئا آخر؟ لقد عبر هذا الحلم عن اتجاه هذا الخليفة "المستنير" بسياسته الثقافية إلى "الحوار". لقد استنجد بالعقل الكوني اليوناني ليعزز به المعقول الديني، العربي، البياني، الذي يؤسس دولته أيديولوجياً، ضداً على الغنوص المانوي و العرفان الشيعي"[2]. و بهذا يمكننا القول بأنّ مضمون حلم الخليفة العباسي هو مضمون أيديولوجي في المقام الأول يهدف إلى صد هجمات خصومه من خلال امتلاك نفس الوسائل الهجومية لتعطيل فكرهم و إلغاء أيديولوجيتهم.

(1)ابن النديم محمد بن اسحاق، الفهرست، تح. ابراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1997، ص434.

(2)محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، 1984، ص247.

و قد بدأ تحقيق هذا الحلم أيديولوجياً بسخاء الخليفة المأمون مع العلماء، و خاصة مع المترجمين الذين كان يدفع لهم وزن مخطوطاتهم ذهباً. و تحدثنا كتب التاريخ أنّ إمام المترجمين في العصر العباسي و شيخهم حنين ابن اسحاق بالغ في تضخيم الورق و كتابة الحروف بخط كبير "قصد تعظيم حجم الكتاب و تكثير وزنه لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم، و كان ذلك الورق يستعمله بالقصد"[1]. و لا يمكننا القول بأنّ المأمون كان غافلاً عن ذلك أو عن ما سواه، لكن الوسائل هانت لديه لأنّه أراد لمشروعه الترجمي أن يكتمل، و لنظرته الأيديولوجية أن تستعر في رد الخطر و الدود عن حكم بني العباس برمته.

و لنا أن نتساءل في هذا الصدد عن سبب الاهتمام بالترجمة، و عن سبب و قوع الاختيار على فلسفة أرسطو دون غيرها من الفلسفات، و علوم الفلسفة دون غيرها من العلوم. إنّه لمن المعروف تاريخياً أنّ الفلسفة العربية لم تكن قد تبلورت آنذاك في شكل أنساق معرفية أو أنظمة فكرية، بل كانت مقتصرة على بعض الأمثلة و الحكم و التجارب الحياتية و التأملات الساذجة، و هو ما جعل العرب يشعرون ببعض النقص اتجاه الأمم الأخرى، و إن كانوا لا يزالوا يفاخرونهم بالقرآن الكريم المعجز و الشعر العربي الفصيح. و لما أحكم غير العرب على الدواوين و الوزارات في العصر العباسي، لأنّ الإسلام ينهى عن التفرقة بين العربي و الأعجمي إلا بالتقوى، و لحاجة الخلفاء و الوزراء لخدمتهم، فقد استفحل أمرهم و قويت شوكتهم، فكانت ترجمتهم ذات مضمون أيديولوجي، و السبب هو أنّها هدفت إلى عرض ثقافتهم و تفوقهم الفكري فنشأت ما يسمى بـ (الحركة الشعوبية) التي ناصبت العرب العداء، و تصدى لها في من تصدى الجاحظ[2] و فريق من علماء المعتزلة.

و عندما نقلت الفلسفة اليونانية إلى الفكر العربي، نشطت الجدالات السياسية و احتدمت النقاشات الفكرية التي طالت كل مظاهر الحياة بما فيها العقيدة، و وجد علماء الدين أنفسهم عاجزين أمام الوسائل التي يوظفها خصومهم، و "كان لظهور الفرق الإسلامية الأثر الكبير في ازدهار المصنفات الفلسفية اليونانية بصفة خاصة و ما عدا ذلك بصفة عامة"[3].

و تبع ذلك تعاطي العرب العلوم العقلية على نطاق واسع، و واكبه حركة كبيرة في الترجمة و النقل.

و قد كان لعلم المنطق قسمة الأسد من حركة الترجمة هاته بوصفه الجهاز الذي يوفر الأدوات الفكرية و التحليلية التي تساعد على معالجة القضايا من وجهة نظر عقلية. و لهذا فإنّ الاستراتيجية التي رسمها الخليفة المأمون لتنفيذ مشروعه الترجمي هي نقل تراث أرسطو الذي اعتبر (المعلم الأول). و بالتالي فإنّه من الأكيد أنّ حركة الترجمة "التي نشطها المأمون

(1)رشيد حميد حسن الجميلي، حركة الترجمة في الشرق الاسلامي في القرنين الثالث و الرابع للهجرة، الكتاب و التوزيع و الإعلان و المطابع، طرابلس، 1982، ص239.

(2)الديدواي محمد، الترجمة و التعريب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص210.

(3)رشيد حميد حسن الجميلي، م ن، ص56.

و جند إمكانيات دولته من أجلها و التي اتجهت إلى أرسطو أساساً، إنّما كان الهدف منها مقاومة الغنوص المانوي و العرفان الشيعي، أي مصدر المعرفة التي تدعيه و تنفرد به الحركات المعارضة للعباسيين. و إذن فحركة الترجمة، تلك التي اتجهت إلى أرسطو بالذات كانت جزءا، و جزءا أساسياً و رئيسياً، في استراتيجية جديدة لجأ إليها المأمون لمقاومة الأساس المعرفي لإيديولوجيا خصومه السياسيين"[1]. و من هنا يظهر لنا جلياً أنّ الاهتمام بالترجمة، على الأقل كما عرف عند الخليفة المأمون، يمثل استراتيجية سياسية تهدف إلى تفويض الأساس الأيديولوجي للفرق المناهضة لتوجهاته السياسية، و من ثم تدبير أمر صدها و ردعها.

و كانت فرقة المعتزلة هي الرائدة في التصدي لهذه الهجمة الشعوبية، و لهذا السبب لقيت تشجيعاً من الخليفة المأمون "فقامت بدور حاسم في تكوين النظام الفلسفي الاسلامي. و عملت هذه الحركة على إدخال العقل في الاعتقاد الديني، و مجابهة أعداء الاسلام مستخدمة الأسلحة نفسها لهؤلاء الخصوم"[2]. و ما كان لهذه الفرقة أن تقوم بما قامت به لولا دعم الخليفة المأمون "الذي كان من أنصارهم و قد أسس دار الحكمة في بغداد لهذه الغاية"[3].

و عليه يمكننا أن نعتبر أنّ الترجمة امتلاك لسلاح فكري و متعة عقلية. و بانتشار الشعوبية و نشاطها في المجال الترجمي فإنّها قد تبنت، بوعي أو بغير وعي، استراتيجية مناقضة و مضادة لاستراتيجية المأمون تمثلت في نقل الآثار الفكرية و الابداعية للفرس خاصة و ببلاغة عربية نادرة افتكوا بها إعجاب و تقدير جهابذة البيان العربي أمثال الجاحظ الذي عبّر عن إعجابه بابن المقفع الذي كانت شعوبيته مبطنة؛ في حين أنّ سهل بن هارون الفارسي الأصل قد جاهر بشعوبيته. لكن ذلك لم يثن الجاحظ عن الاعتراف له بالبلاغة و الابداع في اللغة العربية. و تكمن الاستراتيجية التي تبناها الشعوبيون في ترجمة "آثارهم الفكرية و آدابهم القومية على سبيل المباهاة و ليظهروا للعرب ما كانت عليه أممهم من حضارة و رقى. و هذه هي أهم الأسباب التي دفعت بابن المقفع إلى نقل كتاب (كليلة و دمنة) عن الفارسية إلى العربية"[4] و التي عارضه فيها سهل بن هارون.

و الوضعية نفسها سيشهدها العالم العربي في بدايات الترجمة في عصر محمد علي باشا مع فارق في الكيفية. ظهرت الحركة الشعوبية في هذه المرحلة من جديد، و ما شجع على ذلك هو ضعف الدولة الاسلامية، و وقوع العديد من الأقطار العربية تحت السيطرة الاستعمارية، فقام المستشرقون بالترجمة إلى لغاتهم الأوروبية لأغراض استعمارية. لهذا "يمكن

(1)محمد عابد الجابري، م س، ص224.

(2)مريم سلامة كار، الترجمة في العصر العباسي، مدرسة حنين ابن اسحق و أهميتها في الترجمة، تر. نجيب عزّادي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص70.

(3)رشيد حميد حسن الجميلي، م س، ص57.

(4)م ن، ص52.

القول إنّ حركة الترجمة في القرن التاسع عشر ارتكزت، في مرحلتها الأولى، على الأقل، على نخبة مطلعة على شؤون العرب و لغاته، اعتمدها نابليون عند حلوله بأرض مصر، ثم محمد علي من بعده في إدارة شؤون الدولة الحديثة التي أسسها"[1]. أما الفارق الكيفي فقد تمثل في النقل إلى اللغة العربية و اعتماد النموذج العربي مثالاً في الثقافة و الفكر و إدارة مؤسسات الدولة. و هكذا فإنّ الترجمة في هذه المرحلة يمكن أن نعتبرها أنّها ترجمة رسمية و وظيفية جاءت طلباً لحاجات سياسية و حضارية.

و لم تقتصر الترجمة في هذه الفترة على الجانبين السياسي و الاداري، بل انتقلت اهتماماتها إلى الإصلاح الديني و التوجه إلى العلم الحديث و إنجازاته المعرفية مثلما فعل المعتزلة. و هذا ما يمكن أن نلمسه عند جمال الديني الأفغاني و محمد عبده و شكيب أرسلان من بعدهما. و تشكل هذه القضية لب اهتمام الفكر السياسي الحديث الذي يرى أنّ كل إصلاح سياسي يمر حتما عن طريق امتلاك اللغة، و التي تفترض هي الأخرى إقامة علم أصولي للغة[2]. و اللغة في هذا السياق ليست رموزاً فارغة و لكنها مشحونة بدلالات أيديولوجية و تراثية و حضارية؛ كما أنّها أداة لإخضاع الآخر و جعله يذعن لأوامر مالك اللغة. و ذلك ما يؤكده أيضاً الفكر السياسي المعاصر الذي يرى في العمل السياسي منظومة رمزية تمارس سلطتها على المتلقي.

لقد أكدت نظرية الأدب و علم الاجتماع الأدبي أنّ النص وليد ظروف اجتماعية، و اعتبر النقاد الخطاب ظاهرة اجتماعية من الدرجة الأولى، و من هنا رأوا أنّه "لا توجد الخطابات، إذن، في فراغ، لكنها تكون دائماً في صراع مع خطابات و ممارسات اجتماعية أخرى مسائل الحقيقة و السلطة"[3]. و هذا الصراع بين الخطابات ناتج عن تصادم الفئات الاجتماعية و تضارب مصالحها. و تسعى هذه الفئات إلى احتواء الخطاب المضاد لتعطيله أو لإلغائه، كما أنّها توظفه كسلاح للهيمنة و ممارسة السلطة. و هو ما تسعى إليه جاهدة "النظم التعليمية التي هي وسيلة سياسية للمحافظة أو امتلاك الخطابات ضمن المعارف و السلط التي تحتضنها بين ثناياها"[4]. و يعني ذلك أنّ الأيديولوجيا تسكن كل خطاباتنا و تسمها بسمة خاصة، كما أنّها تخترق النسيج الاجتماعي من طرفه إلى أقصاه. و هذا ما يفيد حضور الأيديولوجيا في كل ممارسة اجتماعية، كما أنّها منبثقة في كل خطاب، و الترجمة بوصفها خطاباً فإنّها معنية بصورة أساسية بهذه الظاهرة، حتى و إن حاولت التخفي وراء الأمانة و الموضوعية أو وراء مراوغة اللغة.

و تعتبر الترجمة الأدبية، على خلاف الترجمة العلمية، المكان المفصل الذي يمكن من خلاله معاينة تجليات الأيديولوجيا.

---

(1)محمد كمال قحة، الترجمة في العصر الحديث، تاريخها و قضاياها، ضمن (الترجمة و نظرياتها)، قرطاج، بيت الحكمة، 1989، ص228.

(2)voir Christian Laval; Jeremy Bentham, Le pouvoir des fictions, P.U.F, paris, 1994, p37.

(3)سارة ميلز، الخطاب، تر. يوسف بغول، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2004، ص15.

(4)Michel Foucault, l'ordre du discours, N.R.F Gallimard, paris, 1971, p46.

و ثمة مثال على ذلك: ترجمة رفاعة الطهطاوي لقصيدة فرنسية لشاعر مجهول و قد صبغها بالطابع الاسلامي. "و يعلن الشيخ الطهطاوي أنّه بهذه الترجمة قد أخرج تلك القصيدة من "ظلمات الكفر إلى نور الاسلام"، و نلحظ أنّ المترجم هنا لم ينس أنّه شيخ واعظ و مرشد فأصبغ على قصيدته هذه السمة محاولا أسلمة العقيدة الفرنسية التي كادت تنزلق إلى شعر النواسي"[1].

و الطريقة نفسها اعتمدها سليمان البستاني عند ترجمته للإلياذة التي قام بأقلمتها، أي إخضاعها لمعايير الجمال الشعري عند العرب حتى يستطيع القارئ العربي تقبلها. و ما قام به البستاني "هو إخضاع النصوص الغربية للمزاج و الذوق العربي، و لم يول المترجم كبير عناية لمرجعية النص الذي يستخدمه"[2]، و هو بعمله هذا قد أدى خدمة كبيرة لا يمكن نكران فائدتها، و لكنه على مستوى الترجمة قد ابتعد كثيراً عن النص الأصل و عزله عن بيئته. و إذا كان ذوق المترجم هو الذي يتحكم في عمله فهذا يؤدي به إلى خيانة الأصل، و ربما يمكن أن نقول تجاوزه لأنّ "التذوق يختلف في الأمة الواحدة تبعا لظروف و ملابسات مختلفة، فقد كان التذوق الأدبي للإلياذة و الأوديسة و المسرحيات اليونانية في العصر العباسي معدوما، لاعتبارات الذوق العام للأمة أولا، و لاعتبارات الدين و الوثنية و آلهة اليونان ثانيا، و لاعتبارات الجهل و عدم المعرفة اللغوية التي تحجب الاهتمام ثالثا، و لاختلاف المزاجين العربي و الإغريقي رابعا"[3].

و تظهر الأيديولوجيا بطريقة مفضوحة عندما يعمد المترجم إلى الزيادة أو الحذف مقارنة مع النص الأصل مثلما فعل عادل زعيتر في ترجمته لكتاب (حضارة العرب) للمؤرخ غوستاف لوبون Gustave Lebon، حيث لجأ "المترجم إلى البتر و الحذف و إهمال بعض العبارات المذكورة في الأصل خاصة لديه، كان يؤذي شعور قومه بترجمة مطاعن و مثالب وجهها المؤلف الأجنبي، سواء أكانت مطاعن في الدين، أم في رسول هذا الدين، أم في الكتاب المقدس الذي نزل عليه و أوحي إليه به؛ أم في عادات القوم و تقاليدهم"[4]. و هذه الطريقة و إن كانت مجندة في النضال السياسي و الجدل الفكري و الدفاع الحضاري إلاّ أنّها غير مقبولة في الميدان الترجمي، لأنّها تحرم قارئ الترجمة من التعرف على كيفية نظرة الآخر إليه و إلى تراثه، و هو موقف أخلاقي لأنّ "الترجمة عملية أخلاقية في المكانة الأولى، فالناقل يجب أن يتحلى بالنزاهة حتى لا يعبث بالنقص عن قصد أو غير قصد، و لعله هنا أقرب إلى الطبيب الذي يقسم بيمين أبقراط قبل مزاولته لمهنته"[5]. كما يمكن أن تظهر الأيديولوجيا و بطريقة أكثر انكشافاً في الأعمال ذات الصبغة السياسية، حيث

(1)بشير العيسوي، الترجمة إلى العربية، قضايا و آراء، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001، ص125.

(2)م ن، ص127.

(3)عبد الغني حسن محمد، فن الترجمة في الأدب العربي، ط2، دار مطابع المستقبل، الاسكندرية، 1986، ص83.

(4)م ن، ص83.

(5)صلاح هاشم، أيديولوجية الترجمة، مجلة العربي، العدد 273، الكويت، 1981، ص18.

يتخد منها المترجم وسيلة لتمرير أفكاره السياسية. و لنا في الأدب العربي و الآداب العالمية شواهد كثيرة لا تعد و لا تحصى، منها أنّ النقيب إدغار ستراتفورد دغديل Edgar Stratford Dugdale في ترجمته لمذكرات أدولف هتلر (كفاحي) (Mein kampf) قد حذف ثلث الأصل تقريباً خاصة ما تعلق "بالمقطوعات القاسية جداً ضد السامية"[1].

و هناك ملاحظة أخرى تتعلق بالدوافع الأيديولوجية التي تحفز المترجم لإنجاز ترجمة لكتاب ما، سواء بغرض تدعيم هذا الموقف أو مهاجمة ذاك التيار بناء على خلفيات فكرية تهدف إلى الترويج الأيديولوجي. و ما يلاحظ في الفضاء العربي "أنّ معظم الترجمات الفكرية و النقدية التي تمت في البلدان العربية بعد الاستقلال، لم يتم بدافع معرفي بقدر ما كان بدافع إيديولوجي، بعبارة أخرى نقول إنّ معظم ما ترجم كان لصالح الاستهلاك الإيديولوجي و لم يكن لصالح تنمية الوعي العربي و تطويره"[2]. و انطلاقاً من قناعات كهذه، ترجمت الأعمال النقدية الوجودية، و الواقعية، و أعمال البنيوية و التفكيكية. و تعكس هذه الترجمات الانشغالات الفكرية و السياسية لجماعة ثقافية ذات توجهات معينة، كما ترتبط هذه المراحل بتغير المناخ السياسي على الصعيدين الوطني و العالمي.

و يعكس ذلك كله بعدين مميّزين تلعب فيهما الترجمة وظيفة رئيسة بإمتياز: يتمثل الأول في خطورة توفر سلاح الترجمة عند هؤلاء الذين يؤمنون بمعتقدات و يميلون لأديولوجيات تخالف تلك التي يتبناها أبناء جلدتهم، فيسعون إلى نشرها و تعميمها و غالباً ما ينجحون في ذلك لكونهم السادة و أصحاب القرار (الساسة على نحو خاص) الذين يملكون زمام الأمور، فيسخرون الوسائل و الإمكانات لإنجاح هذا المد الأيديولوجي ليُذعن لهم و يُمتثل لأمرهم. أما البعد الثاني فهو بأس الترجمة 'المؤدلجة' الذي من شأنه أن يفعل فعلته في أن يكون من وسائط فن نشر الدعايات (propagandism)، و ما يتبع ذلك من نتائج قد تكون غير محمودة العواقب على المجتمعات، و السبب هو أنّ الإنسان قد يغفر كل شيء إلا المساس بمقدساته و النيل منها.

و لنا عبر التاريخ الكثير من التجارب المريرة التي شهدتها العديد من المجتمعات، و التي تمثلت في نزاعات و نعارات و حتى حروب بسبب كتب مترجمة أو خطب منقولة نالت من مكتسبات الآخر الأيديولوجية و أساءت إلى ذاته، فلم يسلم لا الدين و لا العرق و لا المعتقد من هذه الفوضى ما جعل من الترجمة وساطة (mediation) منبوذة، و من المترجم شخصاً خائناً مهدور الدم. و بالتالي أميط اللثام عن مسألة جد حساسة كان البعض في غفلة عنها هي إمكانية أن تكون الترجمة إما آداة فاعلة تربط البشر و تقربهم، و إما وسيلة تُباعدهم و تُحل بها أواصر الوفاق بينهم.

---

(1)بيتر نيومارك، الجامع في الترجمة، تر. حسن غزالة، دار الحكمة للطباعة و النشر و التوزيع، طرابلس، د.ت، ص256.

(2)فؤاد مرعي، في اللغة و التفكير، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق، 2002، ص47.

3. إشكالية نقل البعد الثقافي في الترجمة

لقد شدد علماء الترجمة على مر الأزمنة و العصور على ضرورة العناية بجميع العوامل التي تدخل في تجسيد الفعل الترجمي تنظيراً كان أو ممارسة. و يعتبر ذلك في الحقيقة قمة الوعي بقيمة النظرية الترجمية، و اختصاص الترجمة في ميدان العلوم الإنسانية، و ما تقدمه من خدمات جليلة لفائدة علوم شتى. و ما زاد إضفاء الشرعية حول ذلك هو الانتقال من الاشتغال على البنى اللغوية عامة إلى العوامل التي تؤطر انتاج هذه البنى من ثقافية و عرقية و أيديولوجية و غيرها؛ ثم الاهتمام بالمترجم و سلوكاته، و ميوله و مدى قدرته على اتقان اللغة التي يترجم منها و إليها، و خلفياته الثقافية إلى الاهتمام بالمتلقي و ما يؤثر فيه و يحرّكه، و ما يجعله شخصاً مستقبلاً لا يختلف عن مستقبل الرسالة الأولى.

هي إذن نظرة ثاقبة لعلم الترجمة الذي لم يغفل أي من العوامل التي تلقي بظلالها على مسار الفعل الترجمي، و التي و إن أحسن المترجم توظيفها و الاستعانة بها لحقق عملاً يتوفر على كل سمات العمل المتكامل بنية و أسلوباً و مقروئية.

ذلك ما يدفعنا إلى القول بأنّ العناية بالترجمة هي العناية بكل ما يدور في فلكها من معطيات نصية و غير نصية، و أنّه لا وجود فيها للقشور و اللباب، ذلك أنّ للباب أهمية بالغة و أكيدة كما أنّ للقشور أهميتها البالغة و الأكيدة أيضاً حتى و إن كانت الترجمة في الأخير و بالنسبة للكثيرين لا تعدو أن تكون عملية إعادة تشكيل لمزهرية مكسرة لكن خطوط التكسرات و تعرجاتها تبقى بادية للعيان[1].

إنّ اختلاف المجتمعات البشرية في اللغة سيؤدي إلى اختلافهما في الثقافة و في أساليب العيش و طرقه، و سيؤدي ذلك حتماً إلى تعصي الترجمة و إثقال كاهلها أكثر فأكثر. و يكمن التحدي الحقيقي بالنسبة لكل ترجمة في نقل هذه الخصوصيات من مجتمع إلى آخر، و مدى توفيقها بين أفقي الانطلاق و الوصول اللّذان يتقاطعان من خلالها؛ أما ماهيتها فتبقى في تأكيد مسألة أنّ الإنسان قادر على أن ينقل إلى مركز رؤية مختلف، و أن يعدد المشاهد و المعاني.

و يحقق هذا الطرح فكرة المترجمين (ذوي الدم المختلط) التي جاء بها المفكر الألماني فريدريش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher في أنّ المترجمين برواحهم و غدوهم من لغة/ثقافة إلى لغة/ثقافة أخرى، و من عالم إثنوغرافي إلى آخر سيكتسبون شخصية جديدة و فكراً متجدداً، و سيكونون مثل العملة الواحدة بوجهين اثنين. فالترجمة بالتالي هي العملية التي تتحقق من خلالها الوساطة بشتى أنواعها اللغوية و الثقافية و الحضارية، بها تدخل الثقافات المتنوعة في حركية و حوار. لكن الترجمة تتطلب أيضاً التفكير في الكيفيات المثلى التي تخوّل الانتقال من عالم موسوعي إلى آخر، و التقليل من التشوهات و الإفسادات و الخسارات قدر الإمكان.

---

(1)voir Riccardo Pineri, Identité, altérité, paysage: questions de traduction, (www.montraykreyol.org), (http// www.montraykreyol.org/spip.plup?Article15656 début articles rubriques=15).

و قد اتصل الدرس الترجمي في الفكر الغربي منذ الرومانسية بمسألة (الهوية الوطنية) و (ما هو وطني)، بل و تعداه أحياناً كثيرة إلى مسألة (القومية) التي أججت الصراعات الثقافية و الحضارية و الأيديولوجية بين الأمم، و أوقدت فتناً تباينت أسبابها بين عرقية و دينية و سياسية و سلطوية. و لأجل أن تنهل كل جماعة بشرية، التي هي في الوقت نفسه شكل من أشكال العالم و رؤية من رؤاه، من جماعة أخرى ينبغي أن تتقبل هذه الجماعة مسألة أنّها مختلفة عنها، و من ثم غرابتها و غرائبيتها المتجذرة لأنّ الترجمة توظف دائماً علاقات (الغيرية) (l'altérité).

إنّ الدور المنوط بالمترجم ليس فقط نقل القيم و الحقائق الاجتماعية و الثقافية، و لا التنقيب عن الاختلافات، و استكشاف الأراضي الثقافية الوعرة، بل يتعداه إلى تبديل وجهات النظر الخاصة بجماعته، و ازعاج كلمات قبيلته[1]، الشيء الذي لن يتسنى إلا من خلال اعترافه بالآخر. و يعني ذلك أنّ المترجم يمتلك بين يديه وسائل شتى يمكن أن يوظفها في إحياء ثقافته أو الثقافة التي يترجم إليها بأن يكسبهما مظهراً جديداً لم يشهداه من قبل شريطة أن لا يتمركز عرقياً و أن لا يكره أو يعادي الأجانب.

تخوّل الترجمة إذن، ضمن علاقات الغيرية، في أن يقوم المترجم بهدم و بناء و إعادة ترصيص هوية ثقافته، ثم من خلال النصوص التي يترجمها هوية الثقافة الأجنبية. بيدأنّ ذلك ليس بالأمر الهين مطلقاً لوجود مشاكل جمة أبرزها أنّ الثقافات ليست بالمركب الثابث أو الجامد، بل كل متنوع و معقد يتسم بتطورات دائمة و مستمرة تواكب تطور النشاط الإنساني عامة، ثم في المكانة التي تحتلها هذه الثقافة من تلك؛ حيث أنّ بعض الثقافات تسعى إلى السيطرة في حين تعزف أخرى عن ذلك. و تعتبر مسألة سيطرة بعض الثقافات و رضوخ البعض الآخر مسألة لها تأثيرها الكبير في ضبط الاستراتيجيات المناسبة للترجمة و النقل، و في تجسيد الأبعاد الثقافية و الحضارية و الأشكال القومية فيها لأنّ مسائل كهاته تتغير بتغير علاقات القوة و المكانة التي تحظى بها الترجمات في الأنظمة الأدبية للثقافة المستقبلة.

تتطلب الترجمة حساً لغوياً راقياً و معرفة تامة بالخصائص الإثنوغرافية للجماعة المتكلمة بلغة ما، و هو اتجاه منشأه نظرية ادوارد سابير Edward Sapir و بنجامين لي وورف Benjamin Lee Whorf القائلة بأنّ اللغة تفرض على المتكلمين بها طريقة خاصة في رؤية العالم و تحليل الواقع. و قد يصطدم المترجم عند نقله لرسالة من لغة إلى أخرى ببعض الحقائق الثقافية المتفردة في اللغة/الثقافة الأصل، أي في حالة اللاترجمة الثقافية مما يؤدي إلى مقاومتها لعملية الترجمة[2]، و صعوبة بل و استحالة ايجاد ما يقابلها في اللغة المنقول إليها، و هذا ما يلغي فكرة التطابق الكلي بين اللغات بدءا

(1)voir Jean-Louis Cordonnier, op.cit, p41.
(2)voir Paul Bensimon, Traduire la culture, Palimpsestes N°11, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 1998, p10.

بالطريقة التي تُنظم بها، و التي تختلف حتى عند تعاملنا مع نفس الحالات التواصلية[1]، فبالتالي "ليس هناك من لغتين متشابهتين بشكل كاف لكي يتم عدّهما ممثلين لواقع اجتماعي واحد. فالعوالم التي تعيش فيها مجتمعات مختلفة هي عوالم متميزة، و ليست مجرد عوالم متطابقة"[2].

و ما يؤكد هذه الفكرة ذلك الزخم من الاجتهادات الأنثروبولوجية في فهم ماهية الكائن البشري و علاقته بأقرانه في مجتمعه، ثم في مدى تحكمه في بيئته و إدعانها له و تأثيرها فيه. و هذا ما فتح الباب على مصرعيه لتأويلات عدة في أنّ الإنسان يختلف من حيث الوجود (l'existence) من ثقافة إلى أخرى، و أنّ العوامل الفطرية–الغريزية و العوامل

---

(1) Roland Haumont cite les deux exemples suivants:

"… Prenons comme exemple une série d'expressions anglaises et francaises qui recouvrent la meme réalité:

1.	He tiptoed down the stairs	Il descendit l'escalier sur la pointe des pieds.
2.	He ran up the street	Il remonta la rue en courant.
3.	He flew across the Atlantic	Il traversa l'Atlantique en avion.

(…) Examinos plus attentivement les trois exemples ci-dessus ; voyons selon quels schèmes intellectuels les idées nous sont présentées suivant que l'on s'exprime en anglais ou en francais.

L'anglais nous offre l'ordre suivant :

A) la facon dont l'action est accomplie;
B) les limites ou la direction de cette action;
C) l'endroit ou elle s'accomplit

Le francais nous offre l'ordre ci-dessous :

A) ce que l'action a accompli;
B) ou cette action a eu lieu;
C) comment elle s'est accomplie

Ainsi, pour passer de l'anglais au francais en se basant uniquement sur cet ordre d'apparition des idées, on obtient :

ANGLAIS ABC = FRANÇAIS BCA

(…) Les messages succints et quasi impératifs des panneaux de signalisation devraient obéir à la méme règle, si nous sommes sur la bonne voie.

1.	Men at work	Travaux en cours
2.	No parking between signs	Zone de stationnement interdit
3.	Slippery when wet	Chaussée glissante par temps humide (de pluie)

(…) Dans le premier cas, l'anglophone pense à ceux qui travaillent derrière la barrière jaune alors que le francophone pense à ce qui pourrait arriver à ceux qui dépassent la barrière avec leurs automobiles.

Le deuxième cas varie quant à la description de l'endroit impliqué par le message, l'anglophone nous en donne les limites tandis que le francais le qualifie dans son ensemble.

Finalement pour le troisième cas nous constatons que l'anglais nous décrit le phénomène, sans plus. le francais pousse son analyse un peu plus loin (une espèce d'attitude concluante à rebours).

Nous voyons donc que l'anglais se limite souvent à la description « littérale » du phénomène, alors que le francais cherche à pousser plus loin son analyse et à insérer le phénomène dans quelque chose de plus général.

(Roland Haumont, op.cit, p76-77).

(**2**)محمد شاهين، نظريات الترجمة و تطبيقها في تدريس الترجمة من العربية إلى الإنجليزية و بالعكس، ط1، مكتبة دار الثقافة للنشر و التوزيع، الأردن، 1998، ص36.

الثقافية التي تتشكل من اللغة و الجغرافيا و العادات و التقاليد و العرف و الدين و العرق و غيرها هي التي تصقله صقلاً بيوثقافياً ينبغي مراعاة خصوصياته، فيصبح لكل ثقافة إذن نظام عمل خاص لن ينكشف فعلياً إلا من خلال مقارنته بالأنظمة الأخرى. و تكمن الصعوبة هنا بحسب عالم الإناسة ادوارد .ت هيل Edward T. Hall في فهم مكنون هذا النظام الخاص ببعديه الضمني و الفطري.

و قد قام هيل بدراسة أشكال مختلفة للتواصل بين العديد من الثقافات، أهمها مسألة التحكم بالسياق و الزمان و المكان في كل ثقافة. و استخلص أنّ هناك نمطين من الثقافات: ثقافات غنية السياق و أخرى فقيرة السياق و ذلك بحسب درجة وضوح كل رسالة[1]. فمن اللغات ما يحتاج إلى كم أكبر من الكلمات لتبليغ معنى ما، و منها ما يحتاج دون ذلك بكثير، و منها أيضاً ما يقبل التطويع بتوظيف الامكانيتين معاً.

و على الرغم من الاختلافات الجوهرية بين الثقافات البشرية فإنّه ثمة وجود (قاسم ثقافي مشترك) أولاً بين جميع الثقافات مثل المسائل المتعلقة بالحياة و الموت، و المسائل الغريزية–البيولوجية (مثل الجنس و قضاء الحاجة)، ثم بين أفراد الثقافة الواحدة نتيجة العلاقات العائلية و الاجتماعية، أو بتأثير عوامل خارجية مثل التقليد و التلقين و التشبع. و قد أطلق غاليسون Galisson على هذا (القاسم الثقافي المشترك) تسمية (الشحنة الثقافية المشتركة) (une charge culturelle partagée C.C.P) التي تعرّف على أنّها دلالات غير قاموسية للكلمات، زيادة على دلالاتها العادية، تنتمي إلى المجال التداولي.

فهناك بالتالي دائماً إمكانية ايجاد مقابل يفي بالغرض في اللغة المنقول إليها، و يتحقق ذلك من خلال نقل القيمة التواصلية ذاتها بين اللغتين لكون أنّ التجربة الإنسانية تشتمل على عناصر مشتركة بين جميع الثقافات[2] تسمى (الكليات) و لا تشكل أي صعوبة عند ترجمتها[*]، لكن الشيء الأكيد هو أنّه لا يمكن لأي عملية تواصلية أن تتحقق من دون خسارة (une perte)؛ و هو ما يذكرنا دائماً بأننا بصدد التعامل مع تخصص من العلوم الإنسانية.

قد يعتقد الكثيرون أنّ عدم تكلمنا اللغة نفسها هو العائق الوحيد الذي يحول بيننا لنتفاهم، في حين أنّ اتقان اللغة

(**1**)ينظر ماتيو غيدر، م س، ص05.

(2)see Yowell Y.Aziz, Muftah S.Lataiwish, Principles of Translation, Dar Annahda Alarabiya, Benghazi, Libya, 2000, p111.

(*)يقول غازغراند في هذا الصدد:

« رغم الصعوبات المتنوعة التي تلازم طريقة الترجمة،... فإنّ الحقيقة تظل أنه يتم فعلاً إيصال المعلومة عبر الحدود اللغوية. كما أنّه يمكن لقصد المتكلم المعبر عنه في لغة ما أن يعبر عنه في لغة أخرى، بطريقة تسمح بفهمه و تقديره. و إن كان هناك خسارة في المعلومة خلال عملية تحويل الرموز هذه، يجب التذكر أنّ هناك أيضا خسارة في أكبر نسبة من المعلومة في الرسائل التي يتم إرسالها بين أفراد جماعة تتحدث اللغة ذاتها ... ».

(محمد شاهين، م س، ص38).

الأجنبية لا يخوّل بمفرده التفاهم بين الناس بل يجب أن تصاحبه معرفة الثقافة المعنية. نحن إذن أمام نمطين من التواصل، يتمثل الأول في التواصل اللساني الذي يبقى الهدف من ورائه المقارنة بين اللغات، أما النمط الثاني فيتمثل في التواصل الثقافي الذي يرتكز على إبراز الجانب الحيوي للثقافة و هدفه تحقيق التفاعل بين الثقافات.

يثير التواصل الثقافي صعوبات جمة، ذلك لأنّه يتجاوز المعرفة اللغوية لأنّ اللغة في الواقع ليست سوى قمة جبل الجليد المغمورة كما يصفها به اللسانيون. و تأتي العناصر المعجمية ضمن شبكة من العلاقات المتداخلة، و تعطي معانيها المبوبة في القواميس و الطرق الجاهزة التي تقدمها بها المعاجم (قيمة نسبية)[1]، و هذا ما جعل من الحقول الدلالية[2]، الفوارق و درجات المعنى، تقل أو تعظم من لغة إلى أخرى. و من بين الأمثلة على ذلك، نجد أنّ لغة (الغوشو) في الأرجنتين تحوز على حقل دلالي واسع يضم ما لا يقل عن 200 عبارة للدلالة على تنوع جلود الأحصنة، فيما تحصي اللغة الفرنسية عدداً أقل بكثير من الكلمات و العبارات المتداولة في هذا الصدد[3]، و هو ما سيدفع بالمترجم إلى ضبط استراتيجياته الترجمية وفقاً لما يتوفر عليه كل حقل دلالي في لغة ما.

و قد يكون ضبط هذه الاستراتيجيات الترجمية نتيجة حتمية لمسببات أخرى، فقد يلجأ المترجم إلى حذف بعض المقاطع أثناء الترجمة لأسباب أيديولوجية أو أخلاقية تنافي الذوق العام للجمهور المستقبل، إذ لا يمكننا البتة أن نترجم مشاهداً جنسية كما وردت في رواية أدبية أجنبية لجمهور عربي مسلم و ننتظر منه قبولها بصدر رحب، أو أن نوظف أشكالاً و ألواناً تنفّر القراء منها بسبب دلالاتها الايحائية أو تمثيلاتها التداولية المشينة. إنّ المترجم في مثل هذه الحالات أمام خيارات صعبة و مصير محتوم في أن يأخذ بعين الحريص جميع المكنونات الثقافية و التاريخية و السياقية، و أن لا يهمل أي منها. و هذا ما قد يعزز فكرة أنّ الترجمة ما هي في الأصل سوى "عملية إعادة كتابة للنص المصدر"[4]، أو في أحسن الأحوال تلاعباً به.

لا ينبغي أن نغض الطرف أبداً عن الحقيقة في أنّ المترجم إنسان كغيره من البشر، و كائن اجتماعي يؤثر و يتأثر. و سواء كان تدخله في الترجمة بالسلب أو بالإيجاب فإنّ ذلك لن يقلل من دور الوساطة الذي يلعبه، و لا من قيمته

---

(1)see Farouk. A.N.Bouhadiba, Semantic Fields and Translation, Al Mutargim, Dar El Gharb, N° 01, 2001, p68.

(**2**)يذكر أحمد عزوز في هذا الصدد أنّ الحقل الدلالي هو «مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تندرج ضمن مفهوم عام يحدد الحقل، و يعبّر عن مجال معين من الخبرة و الاختصاص»، و يذكر جوست تريير Jost Trier أنّ الحقل الدلالي هو «مجموعة من الكلمات التي تشتمل على مجال كامل و محدد من الدلالات و التي تتشكل عن طريق التجربة الإنسانية».

(ينظر أحمد عزوز، جذور نظرية الحقول الدلالية في التراث اللغوي العربي، مجلة التراث العربي، العدد 85، دمشق، 2002، ص40).

(3)voir Georges Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Gallimard, 1963, p72.

(**4**)محمد عناني، م س، ص246.

الحضارية المحفوظة، بل على العكس من ذلك، ينبغي علينا أن نبدي تعاطفاً معه و ليناً اتجاه مواقفه تلك لأنّه يشتغل أحياناً كثيرة تحت وطأة البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، و التي تفرض عليه قيوداً و ضغوطاً دينية أو سياسية أو أيديولوجية يتخد وفقها لقراراته الترجمية حتى و إن كان ذلك نابع من لاشعوره.

و قد يساعد هذا في ترجيح كفة الترجمة لصالح مذهب سياسي أو تيار أدبي أو مسار نقدي في ثقافة أمة ما. و إن نحن أخذنا مثال ثقافتنا العربية لوجدنا أنّه خلال سنوات الخمسينيات "غزت المؤلفات الوجودية المترجمة الحقل الفكري العربي و تحكمت به و بقوة حتى باتت تصوغ له اشكالية و تعيّن له لغة تعبيره"[1]، كما أنّ المذهب الماركسي و أيديولوجيته وجدا لنفسيهما طريقاً إلى العربية من خلال ترجمة العديد من المؤلفات الأدبية التي تنتمي لهذه الأيديولوجيا، و منها أعمال ماركس و لينين و غوركي و غرامشي ما يؤكد أنّ المترجم إنسان موجود بأهوائه و ميوله، و أنّ الترجمة "تتضمن، بالفعل، الآثار الدالة على موقف الذات المترجمة من غيرية النص المترجم"[2].

تعبر الترجمة بالنسبة للكثرين عن صدام للأعراق و الثقافات و الأيديولوجيات، و هو ما يجعل منها حراكاً عدوانياً و استيلابياً اتجاه الثقافات تسعى من خلاله إلى السطو على قيم الآخر، و غزو أراضيه و التمتع بخيراته و ثرواته. و يمكننا في هذ الصدد أن نستشهد بتعليق الكاتب التشيكي جان افانجيليستا بوركين Jan Evangelista Purkinje الذي اعتبر بأنّ الترجمة فعل انتقامي جاء رداً على التأثير المدمر للثقافات الأجنبية المحتلة و هو يصف حال الأمة السلافية: "لماذا كان الألمان و الايطاليون و المجريون (لكي يوقعوا الضرر بالسلافيين) قد حاولوا سلب الشعور القومي من أناسنا العاديين و طبقاتنا العليا، فالنستخدم نحن وسيلة أكثر نبلاً في الرد، و ذلك عن طريق امتلاك كل ما هو متميّز كانوا قد أبدعوه في عالم الفكر"[3].

و قد يفسر ذلك سبب اهتمام الدارسين بالأساليب القومية التي تعتبر مرآة الثقافات المحلية. قام أصحاب المدرسة الهولندية و على رأسهم غيرت هوفستيد Geert Hofstede و ماريك دو مواج Marieke de Mooij و جون كلود ايوزونيي Jean-Claude Usunier بالتأسيس لنموذج ثقافي يقوم على مبدأ خماسي الأبعاد تتداخل فيه المكونات الثقافية و الخصائص الاقتصادية التسويقية. تشبه الثقافة في نظرهم (البرمجة الذهنية) التي تتأسس من قيم تم تعلمها في سياقها الأصلي، إذ تتكون كل ثقافة قومية من أبعاد ترتكز على أنظمة من القيم قابلة للتكميم، و تتشكل من خمسة أبعاد كونية تنبني عليها الهوية هي: التوجه الزماني، و التحكم بالمخاطر، و الفارق التسلسلي، و الذكورة–الأنوثة،

(1)جورج الطرابيشي، الترجمة و الأيديولوجيا المترجمة، مجلة الوحدة، ع62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص33.

(2)رشيد برهون، م س، ص175.

(3)سوزان باسنيت، م س، ص14.

و الفردانية[1].

تسهّل الترجمة، بوصفها نشاطاً إنسانياً، من امكانية التواصل المتعدد اللغات الذي يراعي التنوع اللغوي و الثقافي. فلا يمكن بالتالي فصل اللغة عن الثقافة إن نحن أردنا احترام الهويات المحلية و انجاح الحوار الثقافي (interculturalité). و قد تمكن علماء التواصل من التوفيق بين الاتجاهات العرقية و النسبية الثقافية ما ساعد على نقل الرسالة نفسها بلغات شتى من خلال السعي وراء الأبعاد الكونية للتواصل (الكليات) التي من خلالها يمكننا أن نتجاوز الحواجز اللغوية الراسخة في المعالم الزمانية–المكانية، لتبقى الغيرية و التنوع الثقافي أهم المظاهر الواجب نقلها و تجسيدها في الثقافة المستقبلة عند إلتقاء أي ثقافتين في الترجمة. إنّه لمن الصعب على كل مترجم أن يحيط بهذه الغيرية و أن يضبط جميع العناصر التي تدخل في تكوينها، و التي تأخذ أوجهاً مختلفة، فقد ترتبط بالجانب السلوكي للأفراد (behaviourism)، أو بالجانب السيكولوجي، أو بالجانب التقني للعوالم المؤطرة لها. ينبغي على المترجم إذن و كما أسلفنا أن يجسّد الخصوصيات الثقافية في ترجمته لأنّ الثقافات و ببساطة ليست بالمتماثلة لا من حيث الماهية و المفهوم و لا من حيث المحتوى و المضمون؛ بيد أنّ نقل الخصوصيات الثقافية (أو ما يعرف بالترجمة الثقافية) يخضع دوماً لقواعد محكّمة لا يمكن إلا أن نأخدها بالحسبان، و التي تعتبر ثمرة جهد المنظرين و المشتغلين في حقل الترجمة عموماً، و قد يتساءل الواحد منا ما الواجب القيام به من خطوات عند نقل نص من لغة/ثقافة إلى لغة/ثقافة أخرى.

للاجابة على ذلك، سنعتمد على المخططين التاليين لنوضح ما ينبغي على المترجم أن يتفاداه عند ترجمته أي نص:

---

(1)"تمثل النقاط التي أعطيت لكل دولة وفق هذه الشبكة متوسطاً، لأنّ أفراد الدولة نفسها ليسوا جميعاً متماثلين في دمجهم هذه الأبعاد. و هكذا، تظهر الثقافات الآسيوية في ما يتعلق «ببعد التوجه الزماني» زمناً أكثر طولاً للأحداث، يقترن بتقويم للعلاقات بين الأشخاص، بينما تعمل الثقافات الغربية في سياق مقاربة «تصالحية»؛ حيث يضطر الناس بسبب ثقافتهم إلى تفكير قصير الأمد، و إلى الاهتمام قليلاً بالعلاقات بين الأفراد.

و أما بخصوص «بعد التحكم بالمخاطر»؛ أي الطريقة التي يتناول فيها أفراد مجتمع ما المخاطر، فيلاحظ أنّ الثقافات لا تنظر إلى المخاطرة بالطريقة نفسها: إنّ بعضها يشجعها، و بعضها الآخر يتجنبها. فالفرنسيون على سبيل المثال يخاطرون قليلاً عندما نقارن سلوكهم في التجارة و الأعمال مع سلوك الأمريكيين. ينتج عن ذلك أنّ المفاوضات التجارية معهم تستغرق وقتاً أطول.

يتعلق «بعد الفارق التسلسلي» بدرجة التفاوت المنتظرة و المقبولة لدى أفراد مجتمع ما: احترام التسلسل بين الرؤساء و موظفيهم، و الفارق بين من يتمتع بتأهيل عال و من لا يحمل أية شهادة. إنّه لمن المعروف أن الأمريكيين أقل تعلقاً بالتسلسلات و بمظاهرها الرمزية، و ذلك على العكس من الفرنسيين و الألمان الذين يولونها أهمية كبيرة.

يساعد «بعد الذكورة–الأنوثة» على قياس الأهمية الممنوحة للتعاون و التكافل و المحيط الاجتماعي قيم أنثوية؟، أو على العكس من ذلك، للطموح، و السلطة، و التملك، قيم ذكورية؟. ففي المناقشات التجارية، تولي الدول التي تكون فيها الصفة الغالبة ذكورية، الدول الأنجلوسكسونية، أهمية كبيرة للحجج العقلية، بينما تعطي الدول التي تكون فيها الصفة الغالبة أنثوية، مثل الدول الأسكندينافية، أهمية أكبر للحجج العاطفية.

و أما «الفردانية» بصفتها بعداً فهي تخبر عن تقويم الحرية و الاستقلال في بعض المجتمعات. إنّ هاتين القيمتين تأتيان في المقدمة في البلدان فردانية الثقافة مثل بريطانيا العظمى، و الولايات المتحدة؛ الأمر الذي يجعل الانفتاح على الخارج طبيعياً أكثر. و بالمقابل، يذوب الفرد في الجماعة في البلدان التي تتمتع بثقافة جماعية قوية، و يشكل حلقة صغيرة بين أعضائها".

(ماتيو غيدر، م س، ص12).

– المخطط 01:[1]

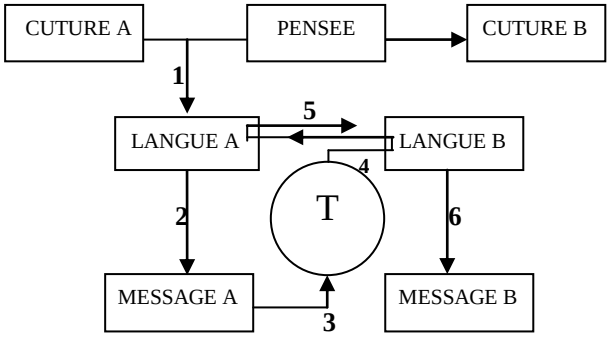

يتلقى المترجم، كما هو مبيّن أعلاه، المرسلة (A) في اللغة المنقول منها (في 3)، بعد أن أنتجت بحسب عالم الفكر/رؤية العالم (univers de l'esprit-vision du monde) و الثقافة (culture) (A)، و التي تم انجازها لغوياً بحسب الامكانات التعبيرية و القيود اللغوية للغة (A). إن اقتصر نشاط المترجم على الغدو و الرواح بين اللغتين (A) و (B) التي تتجسد من خلال القواميس و المعاجم (في 5)، فسيحصل (في 6) على رسالة في اللغة المنقول إليها (B) تكون عبارة عن خليط من اللغة (B) و الثقافة (A)، و السبب هو أنّ المترجم تجاهل كلياً الثقافة (B)، لتتلخص ترجمته هنا كمايلي: الرسالة (B)= اللغة (B)+الثقافة (A).

و قد أخطأ المترجم هنا خطأ جسيماً بتخليه عن الثقافة (B)، إذ هل يعقل أن نترجم لغة ما من دون الوعاء الذي يحملها و الذي يتمثل في الثقافة؟ أضف إلى ذلك أنّه مزج بين عنصرين لا ينبغي لهما أبداً أن يُمزجا معاً: اللغة (B) و الثقافة (A) لأنّه و ببساطة تتبع كل لغة ثقافتها الخاصة بها، و التي لا تصور إلاّ سواها.

– المخطط 02:[2]

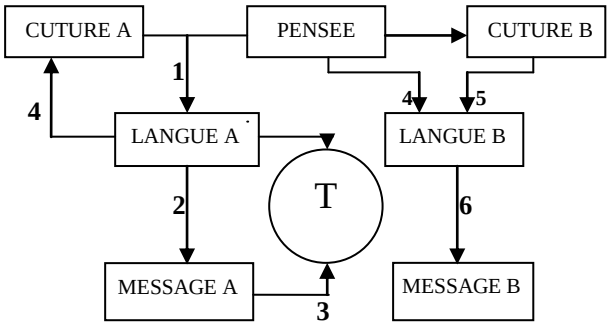

ينبغي على المترجم عند تلقيه الرسالة (A) كما يعكسه هذا المخطط أن يجردها، من خلال اللغة (A)، من محمولها الثقافي ليصل إلى عالم فكر/رؤية للعالم محايد تماماً. بامكانه أن يصبغ عالم الفكر هذا بكل ما يمت بصلة إلى الثقافة (B)

(1) Roland Haumont, op.cit, p78.
(2) Ibid, p78.

و ما هو خاص بها (في 5). و من خلال اللغة (B)، التي تدخل في العملية لأول مرة، سيتحصل على المرسلة (B). يوجد لدينا هذه المرة توازن في الخطوات الذهنية لتجسيد المرسلتين (A) و (B): المرسلة (A) (اللغة (A)+الثقافة (A)) = المرسلة (B) (اللغة (B)+الثقافة (B)).

و ينبغي الإشارة إلى أنّ المخطط الثاني لا يحمل أي خطوة إضافية مقارنة بالمخطط الأول (ست خطوات في كليهما)، لكنه يعتبر طويلاً نوعاً ما خاصة ما تعلق بالرقم (4) فيه. ستبقى بصمة المترجم في الحقيقة ماثلة من خلال براعته التي سيوظفها في تجريد المرسلة (A) الأصلية، و في اختياره للمكافئات بين الثقافتين (A) و (B) من دون أن يزيد في ترجمته أو يطنب فيها[1].

إنّ هاذين المخططين قد يبدوان في غاية البساطة للوهلة الأولى، لكنهما يحملان الشيء الكثير بالنسبة لكل مترجم يسعى إلى تحقيق الغاية التواصلية في ترجمته من خلال الربط بين كل ما هو لغوي و ما هو ثقافي، و هو ما يشكل لحمة واحدة غير قابلة لأن تتجزأ.

و يمكننا أن نلاحظ من خلالهما كيف يجيء عالم الفكر/رؤية العالم وسطاً بين الثقافتين (A) و (B)، بحيث تنقل كل ثقافة في اللغة المنقول منها بما يقابلها ثقافياً في اللغة المنقول إليها من خلال عوالم الفكر/رؤى العالم التي تحوز على التصنيفات الثقافية المتنوعة و المتداول بها من قبل الجماعة البشرية التي تتكلم باللغة المنقول إليها، فتقوم بمحاكاة نفس الحالات التواصلية الثقافية، و من ثم قبول النماذج الثقافية المطابقة للحالة التواصلية الثقافية، أو قبول النماذج الثقافية الجزئية للحالة التواصلية الثقافية مع التقيد بشروحات و بتفسيرات حول الأسباب المفضية إليها (الترجمة الشارحة)، أو رفض النماذج الثقافية التي لا تعكس البتة نفس الحالة التواصلية الثقافية. و يتبيّن لنا من خلال ذلك كله أنّ المترجم هو الحاكم بأمره في سير العملية الترجمية عموماً من خلال مدى اطلاعه على الثقافتين المعنيتين بالترجمة. فمثلاً، قد يعتبر الخيار الترجمي الذي سار عليه المترجم في المخطط الأول خياراً مقبولاً فقط إن نحن أردنا تسليط الضوء على بعض أنواع الترجمة التي كانت سائدة في بعض الأوساط، و ربما لازالت كذلك، لطلبة الترجمة في درس تعليمي يعالج الاستراتيجيات الترجمية المختلفة أو الاتجاهات التاريخية المتنوعة للترجمة. و هذا النوع من الترجمة هو الترجمة بالتمركز العرقي (la traduction ethnocentrique) التي يقوم المترجم من خلالها برد جميع الأشكال الثقافية التي يجيء بها النص موضوع الترجمة إلى ثقافته، و يدير ظهره بذلك، لسبب أو لآخر، للثقافة المستقبلة. يعتبر هذا الخيار الترجمي مجحفاً في حق الثقافات و خصوصياتها، ذلك لأنّ المترجم في هذه الحالة يقوم بطمس التمايزات الثقافية، و هي إرادة تأتي عكس ما جُبلت عليه الطبيعة. و من هنا يتسنى لنا أن ندرك جيداً و أكثر من ذي قبل الدور المهم بل الخطير الذي تلعبه

(1) Roland Haumont, op.cit, p78.

كل ثقافة حين الترجمة، و لصدق من قال "إنّ المرء لا يترجم لغات، بل يترجم الثقافات"[1].

سيؤثر عدم معرفة الثقافة المترجم منها أو إليها معرفة نوعية سلباً على سير الترجمة، ثم في عزوف قرّاء الثقافة المستقبلة عنها و عدم التجاوب معها ذلك لأنّ الثقافة نمط من أنماط التفكير و التصريح بالأشياء، و هذا ما تسعى الترجمة إلى الوقوف عليه دائماً. إنّ من المنظرين من لا يخفي رأياً في أنّه ينبغي على المترجم أن يعيش في الوسط الاجتماعي الذي يترجم إليه و لو لبعض الوقت، و ذلك لسبر أغوار العوالم الثقافية الدفينة لهذا الوسط، و تحيين معرفة ما تبدّل منها و ما تغير. و لن يتأتى ذلك إلا من خلال الروابط التي سينشأها هذا المترجم مع أفراد هذا المجتمع و احتكاكه اليومي بهم. و لعل اعتماد العديد من الكتاب و المؤلفين، الأدبيين منهم خاصة، على مترجمين بعينهم في اللغات التي ينوون نشر أعمالهم بها لخير دليل على مدى حساسية هذه المسألة، حتى إنّه صار لكل كاتب و أديب مترجمه الخاص في كل لغة، يتصل به مستفسراً عن ما قد ينغص عليه عمله، أو طالباً للشرح أو التفسير بغية أن يفهم هو لكي يستطيع أن يُفهم. و من بين هؤلاء نجد مثلاً حال الكاتب و الفيلسوف الايطالي امبرتو ايكو Umberto Eco الذي تجمعه علاقات ترجمية بالعديد من المترجمين في لغات شتى.

إننا نؤكد هنا على وجوب الأخذ بعين الاعتبار الظاهرة الثقافية في الترجمة ليكتمل النشاط الترجمي بشقيه اللغوي و الثقافي محققاً للفعل التواصلي المنشود ذو القيمة و المغزى الأكيدين. بإمكان قارئ ما أن يستوعب المعنى و يفهم المقصدية حتى و إن كانت اللغة مضطربة في بنيتها و هزيلة في مضمونها؛ غير أنّه لن يتمكن من ذلك أبداً إن انحرف المترجم عن المسار الثقافي القويم، بتوظيفه في ترجمته لأشكال و تمثيلات ثقافية لا تمت للقارئ المستقبل بأية صلة، و تبتعد كل البعد عن أفق انتظاره فتجعله يحس بالغرائبية و الغرابة لا بالألفة و القرابة.

إنّ معرفة الثقافة و السياق التاريخي و الدلالي اللذان كانا سائدين في حقبة زمنية معينة ستسير بالمترجم إلى بر الأمان. و يمكننا هنا أن نذكر مثالاً عن ذلك يخص ترجمة أحد الكتيبات التي تختص بالبيولوجيا الذي جاء فيه أنّ داروين Darwin و ابنه قاما حوالي العام 1874 بتجارب عن الأطعمة المصنّعة بواسطة (علب الحفظ) (boites de conserve) . لكن هذه الأخيرة لم تظهر إلا بحلول العام 1895، فإذن يوجد لدينا هنا مفارقة تاريخية و علمية لا يمكن غض الطرف عنها أبداً، و التي غفل عنها المترجم في ترجمته.

و الحقيقة هي أنّ العلب المستخدمة من قبل داروين صنعت من الصفيح (القصدير) (fer-blanc) (tin). بيدأنّ المترجم الجاهل بذلك قام بترجمة (tin can) بـ (boite de conserve)، و حتى القاموس لم يكن باستطاعته أن يمد

(1)محمد شاهين، م س، ص26.

له يد العون[1] لأن ما هو ضمني هنا يشير إلى حقيقة ثقافية تتصل بفترة تاريخية محددة، فوحده القيام ببحث توثيقي دقيق عنها يعتبر المنفذ الوحيد.

إنّ المترجم مطالب بالتأكيد بالقيام بأبحاث مشابهة لتلك التي يقوم بها الكاتب قبل أن يشرع في كتابة نصه/مؤلفه حول المواضيع التي يتطرق إليها، و الأحداث التي يسلط الضوء عليها وفقاً لخطة محكمة تعرض الشخصيات و الحيز المكاني–الزماني و الحبكة المحددة سلفاً. ينبغي عليه بالتالي أن يحوز على المحتوى الكلي أو الشمولي قريب من ذلك الخاص بالمؤلف. و يأخذ هذا حيزاً واسعاً حين ترجمة النصوص الأدبية لما يشتمل عليه النص الأدبي من توجهات حياتية متنوعة تضم الدين و السياسة و الأيديولوجيا و غيرها، بيدأنّ ذلك لا يعني أنّ التخصصات النصية الأخرى لا تعنى بمثل هذه المسألة.

و يشكل النص الأدبي تحد حقيقي بالنسبة لكل مترجم نظراً لتداخل الوظائف فيه من لغوية و دلالية و جمالية، لتبقى الترجمة الجيدة لكل نص أدبي "هي التي تقوم بما يقوم به النص، ليس فقط من حيث وظيفته الاجتماعية المتعلقة بالتمثيل، و لكن أيضاً من حيث عمله السيميوطقي و الدلالي"[2].

و قد يكون النص بالنسبة لمؤلفه الملتجأ الوحيد لكي يدافع فيه عن مذهب أو معتقد أو اتجاه ما أو أيديولوجية، و يبدو ذلك واضحاً من خلال النصوص السياسية التي قد تحمل أفكاراً مناوئة للنظام و مناهضة للاستعمار مما يدفع بالمترجم دفعاً إلى القيام بتعديلات أو اللجوء إلى حذف هذه الأفكار خشية أن يصيبه مكروه (يتعلق الأمر هنا بمسألة الرقابة بأنواعها). بيدأننا و في المقابل قد نجد أنّ بعض المترجمين يتصرفون بحرية تامة و على أساس ذاتي في مضمون النص، و يتحيزون بشكل كبير لفكر أو مذهب خاصة إن كانوا لا ينتمون إلى الثقافة العربية الاسلامية.

و لعل أبرز مثال على ذلك كيفية تعامل بعض الساسة و وسائل الإعلام في الغرب مع القضية الفلسطينية و الصراع العربي الاسرائيلي، إذ يسمون حركات المقاومة بالمنظمات الإرهابية، و يبدّلون فكرة (الشهادة) بالقتل أو أنّه (تم القضاء على)، و هذا ما جعل من الإنسان الفلسطيني، في نظر الكثيرين، إنسان بربري و مجرم، و من القضية الفلسطينية قضية ليست بالعادلة أو بصاحبة حق (التقارير الصحفية و النشرات الإخبارية). و ينبع ذلك كله من الأفكار العنصرية و حب السيطرة و السعي لخدمة مصالح أخرى التي توجه مثل هؤلاء. فالترجمة بالتالي تؤثر على الجمهور المستقبل (أو الرأي العام) إلى حد لا يمكن تخيّله في شتى جوانب الحياة، و تبدل لديه المشاهد و الشواهد باعتبارها أحد أهم الوسائط الثقافية الجماهرية.

(1)voir Roland Haumont, op.cit, p80.
(2) Henri Meschonnic, Poétique du traduire, Verdier, 1999, p84-85.

في مقال عنوانه (The translator's Dilemma with Bias) [1] الذي ورد في مجلة (Babel)، يقول صاحبه إنّه يتردد كثيراً في ترجمة المسائل التي تبدي العداوة للاسلام، و يقترح اعتماد ملاحظة تشير إلى النص كما ورد في اللغة المنقول منها و ذلك في حالة ما إذا ترجمت مثل هذه الأمور الحساسة. لكن إذا تعلق الأمر بمجرد الوصف حينها يمكن ترجمة كل شيء. إنّ اللجوء إلى أساليب الإسقاط و التخفيف و التلطيف من حدة ما هو حساس و مزعج بالنسبة للقارئ المستقبل، في نظره، لا يؤثر كثيراً على المعنى، و أنّ الذاتية تكتسب بعداً ايجابياً عندما تخدم أهدافاً عادلة و نبيلة، لكنها تصبح منبوذة إن هي انطوت على نيات مبيتة و سلبية. و هكذا، فإنّ شخصية المترجم و ذاتيته، كما أشرنا إليه آنفاً، ينعكسان و بشدة على نص الترجمة، و من دون أن يحول بين ذلك أي حائل. إنّها نتيجة حتمية و ثمرة تفاعله مع النص في اللغة المنقول منها بوصفه قارئاً و مؤولاً يحاول نقل تأويله هذا إلى القارئ في اللغة المستقبلة، و هو ما يعكس أهمية التأويل و دوره في تحديد طرائق الترجمة و ضبط استراتيجياتها.

يمكن أن تفسر مسألة اختلاف اللغات ثقافياً بموضوعية المدلول و ذاتية الشحنة الثقافية المشتركة، أي بموضوعية المنهج الدلالي و ذاتية المنهج البراغماتي. فعندما نقوم بتقطيع الواقع نفسه (découpage) الذي ينشأ عن المرجع نفسه (référent)، يحدث أن يكون لمدلولات (signifiés)، متطابقة في اللغتين، شحنات ثقافية مختلفة. مثال عن ذلك كلمة (بقرة) (vache) التي تدل من دون شك على الشيء نفسه في الهند و في فرنسا في أنّها حيوان من الثدييات و أنّها أنثى الثور؛ أما بالنسبة لمسألة الشحنة الثقافية لهذه الكلمة في هاتين اللغتين فالأمر سيختلف: ذلك أنّ للبقرة في الهند بعداً ثقافياً دينياً فهي محمية إلى درجة القداسة، في حين أنّه يُنتفع بلحمها و جلدها في فرنسا لأنّها مصدر للغذاء[2].

و حتى و إن حصل و تحقق البعد الثقافي نفسه في اللغة المنقول إليها، فإنّ ذلك لا يعني البتة أنّ هذه الشحنة الثقافية ستحدث الأثر نفسه، و نقصد بذلك البعد الديناميكي للترجمة. فإن أراد مترجم عربي على سبيل المثال أن ينقل المقولة الانجليزية (love me love my dog) إلى اللغة العربية فسوف يضع في حسبانه سلفاً أنّ الثقافة العربية الاسلامية تكرّه اقتناء الكلاب أو مصاحبتها إلا لأجل الحراسة أو الصيد، فلا يمكنه إذن أن يحتفظ بكلمة (كلب) التي لا توحي للقارئ العربي بنفس ما توحي به للقارئ الغربي إلا للأمانة. و هذا الاختلال الثقافي بسبب مكانة (الكلب) في الثقافتين العربية (التي تنظر إليه في أحسن الأحوال على أنّه حيوان يتصف بالوفاء لصاحبه)، و الانجليزية (التي تنظر إليه على أنّه فرد من أفراد العائلة الواحدة، يعيش في كنفها و يحزن لأجله إن هو أصيب بمكروه) يضطر المترجم إلى

(1) Hasan Ghazala, The translator's Dilemaa with Bias (English-Arabic), Babel, vol.48, N°2, pp147-162, 2002. (in Hasan Ghazala, Essays in translation and stylisctics, Dar El-Ilm Lilmalayin, Beyrouth, july 2004, pp149-167).

(**2**)ينظر ماثيو غيدر، م س، ص07.

تكييف الأصل مع أفق انتظار القارئ المستقبل ليصبح المقابل عندها "إكراما لعين يكرم مرج عيون"[1]. و يمكننا هنا أن نترجمها بشكل آخر نابع من التقاليد الذي يتحقق من خلاله تصوير البعد الثقافي نفسه كأن نقول "و أحبها و تحبني و يحب ناقتها بعيري"[2]، للاشارة إلى ما يمثله (الجمل) للعربي في البيئة البدوية الصحراوية حباً و وداً عوضاً عن (الكلب).

و لايمكننا في هذا الصدد أن نفصل بين صعوبة تجسيد الشحنة الثقافية و صعوبة فهم الشحنة الدلالية التي يضبطها السياق الذي وردت فيه. و تتفرع الشحنة الدلالية للكلمات إلى معنيين: يعرف الأول بالدلالة التقريرية (sens dénotatif) و الثاني بالدلالة الحافة (sens connotatif). و تعرّف الدلالات التقريرية على أنّها الدلالات الأولى للكلمات كما جاءت مبوبة في القاموس، أما الدلالات الايحائية فهي تلك التلوينات المعنوية التي تكتسبها الكلمات في السياقات المختلفة. و يعرّف لادميرال Ladmiral الايحاءات بأنّها "قيم دلالية تحددها الشبكة الاستبدالية للعلاقات الترابطية الخاصة بالتضاد بين ألفاظ متقاربة على الأكثر أو على الأقل"[3]. و بما أنّ الايحاءات عبارة عن قيم، فإنّها تخضع لمعايير تتعلق بالذوق العام للمجتمع. و قد يكون المعنى الذي تعده لغة ما رئيسياً بالنسبة للفظ معين ثانوياً في لغة أخرى[4].

إنّ خاصية تطور اللغة عبر الزمن (la diachronie) هي التي تكسب الكلمات معان متجددة. و قد تنطوي هذه الدلالات على معاني ايجابية و أخرى سلبية، و ما قد تعتبره مجموعة بشرية ما دلالات ايجابية، قد تنظر إليه أخرى نظرة مقززة بحكم خلفيتها الثقافية. و يدخل في عموم ذلك الألوان المتنوعة التي تختلف رمزيتها من ثقافة إلى أخرى، و أسماء العلم التي تتشبع في الكثير من الأحيان بحمولة دلالية معينة. فمثلاً، نجد أنّ اسم (Emma)، الذي هو اسم شخصية محورية في رواية (Madame Bovary) لصاحبها Gustave Flaubert، يوحي حسب أصوله الجرمانية بالقوة، و هي صفة تتميّز بها هذه الشخصية. و إذا قمنا بترجمة هذا الاسم حرفياً إلى اللغة العربية فلن يعطي الانطباع نفسه لدى القارئ العربي، لأنّ ما يتحقق صوتياً من خلال كلمة (ايما) يوحي بالرقة و الحنان[5] لا بالقوة.

و لا نستثني في هذا الصدد أيضاً العادات السلوكية للأفراد في بيئة اجتماعية معينة. و قد عبر بيتر نيومارك عن ذلك

(1) Hasan Ghazala, op.cit, p152.
(2) Ibid, p152.
(3) Jean René Ladmiral, op.cit, p173.
(4)voir Jan de Waard, Eugene A. Nida: Traduire d'une langue à une autre: l'équivalence fonctionelle en traduction biblique, trad. Janine de Waard, Alliance universelle, 2003, p179.
(5)voir Cristina Adrada Rafael, La traduction de la connotation onomastique en Littérature, in la traduction, contact de langues et de cultures, Artois Presses Université, 2005, p83.

بالايماءات و الاشارات و حركات الجسم. و من بين الأمثلة على ذلك (البصق) الذي يتخد معنى التبريك[1] في بعض الحضارات، و هو ما قد تعتبره حضارة أخرى أسلوباً مهيناً. و ينبغي هنا أن يعير المترجم الانتباه كله لأهمية العناصر السياقية و دورها في تحديد المعاني و الدلالات، و من ثم الشحنات الثقافية بغية أن يضمن أكبر قدر ممكن من الافهام. و قد أورد نيدا Nida مثالاً على ذلك كلمة (sacré) التي يختلف معنها بحسب ما إذا قيلت في الكنيسة أو في الشارع[2] .

يرى هيل Hall أنّ جل الثقافات الآسيوية غنية السياق، و أنّ الثقافات الغربية فقيرة السياق. بيدأنّ لكل ثقافة منها أسلوبها الفريد في تطوير و التعامل مع منظومتها الإحالية الخاصة بها. و قد صنّف هيل الثقافات الصينية و اليابانية ضمن حدود السياق الغني، و الثقافات الألمانية و السويسرية و الأمريكية ضمن السياق الفقير. و من الثقافات الغنية السياق نجد ثقافات جنوب أوروبا عكس ثقافات الشمال الفقيرة السياق. لا توجد حسب هيل ثقافات غنية السياق و أخرى فقيرة السياق كلياً، بل قد يتنوع ذلك تناوبياً و يقل أو يعظم من ثقافة إلى أخرى بحسب المجالات و الأوساط و المتكلمين[3]، و هو حال السياق الثقافي الفرنسي، إذ لم يكن من السهل على الأوروبيين في الشمال أو على الانجليز أو الأمريكيين فهم الغاليين (Gaulois)، ربما لأنّ الثقافة الفرنسية عبارة عن خليط معقد من المواقف التي يتروح سياقها غنياً أو فقيراً بالتناوب مما يصعّب على أي أجنبي أن يسبر أغوارها و أن يهتدي إلى سبيل لفهمها. إنّ فهم الرسائل ذات السياق الفقير في الثقافات الأجنبية أكثر سهولة من فهم الرسائل الغنية السياق التي تتسم بمضمرات متجدرة فيها تجدراً عميقاً، و التي لا يفهمها كلياً إلا من اعتاد عليها، أو أفراد الجماعة الثقافية الذين ينتمون إليها. و على النقيض من ذلك، تأتي الرسائل الفقيرة السياق مباشرة أكثر و تخلو من الغموض. تعتبر هذه الاختلافات السياقية مفيدة جداً لتحقيق التواصل اللفظي و غير اللفظي. و قد تم لهذا السبب اجراء دراسات عديدة لإعلانات دولية أخدت بعين الاعتبار سياقات هيل Hall خاصة ما تعلق منها بتحليلاته للأبعاد الثقافية المرتبطة بالزمان و المكان.

إنّ من بين الأسباب التي تقف حاجزاً أمام التواصل تغيّر مفهوم المكان و الاحساس بالزمان من ثقافة إلى أخرى. من بين الأمثلة على ذلك في نظر هيل Hall، عادة العمل في مكتب مغلق الباب لدى الألمان، عكس الأمريكيين الذين يعتبرون أنّ الباب المغلق دليل على المزاج السيء أو الانزعاج من أمر ما. ينطبق الأمر نفسه على الزمان الذي يتغير الاحساس به حسب الثقافات. و قد قسّم هيل الأزمنة إلى نوعين: الزمان الأحادي اللون (temps monochrone)

(1)بيتر نيومارك، م س، ص138.

(2)voir Jan de Waard, Eugene A. Nida, op.cit, p07.

(3)ينظر ماثيو غيدر، م س، ص06.

و الزمان المتعدد الألوان (temps polychrone)، ما يسمح لنا بالتمييز بين الأشخاص القادرين على القيام بأعمال عديدة و متابعتها في الوقت نفسه من الأشخاص الذين ليس باستطاعتهم القيام إلا بعمل واحد[1] . و ثمة وجود علاقة متبادلة بين الثقافات الغنية السياق و الزمان المتعدد الألوان من جهة، و بين الثقافات الفقيرة السياق و الزمان الأحادي اللون من جهة أخرى. و يمكن لهذه الاتجاهات الزمانية أن تتبدل وفقاً لمجالات الحياة و المواقف التواصلية، و هو حال الثقافة اليابانية التي ينظر إليها على أنّها أحادية الزمن في العمل و متعددة الزمن في العائلة.

إنّ نموذج هيل Hall الثقافي قد سلط الضوء على العديد من الجوانب الضمنية و الخفية في اطار التواصل بين الثقافات، و التي يصعب جداً التحكم بها خاصة ما تعلق بالجوانب غير اللفظية التي تعتبر مهمة جداً في الترجمة. و مع ذلك، يبقى هذا النموذج مبتكراً و متميزاً في أنّه استطاع أن يصف العديد من الظواهر السلوكية الغامضة و أكثرها تلوناً بالثقافة.

إنّ من بين العوامل التي تغذي الهوة الثقافية بين اللغات و تعيق عملية التواصل فيها مسألة عدم انتماء اللغتين المنقول منها و المنقول إليها لنفس العائلة اللغوية. فالترجمة من الانجليزية إلى الفرنسية تطرح القليل من الاشكالات مقارنة بالترجمة من الانجليزية إلى العربية أو من الفرنسية إلى العربية لاختلاف الأصل اللغوي فيها (اللغتين الانجليزية و الفرنسية من اللغات الهندوأوروبية، أما اللغة العربية فلغة سامية)، و تباعد طريقة التفكير بينها في كل ما يتصل بالمسائل الثقافية عموماً. و قد ميّز نيدا على هذا الأساس بين خمسة أنواع من المشاكل الثقافية التي قد تنغّص على المترجم عمله، و وافقه في ذلك بيتر نيومارك[2] الذي أعطى خمس تصنيفات للفئات الثقافية:

1. البيئة الطبيعية (الايكولوجية)

النبات و الحيوان، أنواع الريح المحلية، الجبال و السهول ...

2. الثقافة المادية

الطعام و الهندام و السكن و وسائل النقل و وسائل الاتصال ...

(**1**)ينظر ماثيو غيدر، م س، ص06.

(2) Peter Newmark has defined culture, with the best, clearest, simplest and straightforward manner, as the way of life and its manifestation that are peculiar to a community that uses a particular language as its' means of expression. He had also drawn a distinction between three types of language:

1.Cultural language: refering to all cultural matters.

2.Universal language: are the common words of neutral reference like: eat, speak, man, street …

3.Personal language: is to express yourself in a personal way, like the use of once dialect (or idiolect).

(Hasan Ghazala, Translatability of Cultural Terms (English-Arabic): Translation Mechanisms, Turjuman translation journal, vol.11, N° 02, 2002, pp67-90 (in Hasan Ghazala, Essays in translation and stylisctics, op.cit, p172).

3. الثقافة الاجتماعية

الأعمال و أوقات الفراغ

4. التنظيمات الاجتماعية، التصورات المختلفة و التقاليد

من اجتماعية و سياسية و قانونية و دينية و فنية.

5. العادات و الإيماءات

الملامح غير لغوية[1].

انطلاقاً من هذه التصنيفات للفئات الثقافية، يمكننا أن نميّز بين أنواع ثلاثة من المشاكل الترجمية المرتبطة بها: أولها المشاكل الترجمية المتصلة بالبيئة الإنسانية عامة. و يدخل في عموم ذلك ما اصطلحت عليه جماعة بشرية تسميته من جغرافيا و تضاريس و أسماء طوبونيمية مختلفة، و أسماء النباتات و الحيوانات و أنواع المناخ و غيرها. و ثانيها المشاكل الترجمية التي ترتبط بالحياة الاجتماعية و المادية و الملامح الشعبية الضاربة في تاريخ كل مجتمع. أما آخرها، فهي تلك المشاكل التي تعنى بترجمة كل ما هو محضور من جهة، و بترجمة المسائل الدينية من جهة أخرى. فقد يصعب مثلاً ترجمة مفهوم الفصول الأربعة لشعب لا يعرف إلا فصلين[2]. و قد تكون المعاناة أكبر عند نقل أسماء الرياح المحلية السائدة في بيئة جغرافية معينة مثل (السيروكو) الريح الجنوبية الحارة[*]، أو (monsoon) و هي ريح موسمية هندية؛ أو أسماء لبحيرات مثل (loch) و هي بحيرة اسكتلندية.

و قد يواجه المترجم صعوبة من نوع آخر خاصة بالثقافة اللسانية، و التي تكون الاشكالات الترجمية فيها أقل حدة من المشاكل الثقافية الأخرى. و تتلخص في العادات اللغوية عامة. و من بين الأمثلة على ذلك، ضمائر المخاطب في اللغة العربية التي يتنوع استعمالها و يتغير بحسب الشخص المخاطب (إن مذكراً أو مؤنثاً؛ مفرداً أو مثنى أو جمعاً)، فنقول (أنتَ–أنتِ–أنتما–أنتم–أنتن) في الوقت الذي لا تملك فيه اللغة الانجليزية إلا ضميراً واحداً لكل هذه التنوعات التخاطبية، هو الضمير (you)، ليبقى وحده التقيّد بالسياق الحل الوحيد لتفادي أي لبس ترجمي.

و من بين المشاكل أيضاً، نجد تلك المرتبطة بالحياة الاجتماعية و المادية و الملامح الشعبية–التراثية من أشكال الهندام و أصناف الطعام، و علاقات الحب و الزواج و الطلاق، و الأدب الشعبي المحكي و المروي من أساطير و خرافات

(1)see Hasan Ghazala, Translatability of cultural terms (English-Arabic): Translation Mechanisms, op.cit, p172-173.
(2)voir Georges Mounin, op.cit, p62.

(*)تسمى مثلاً بالعامية الجزائرية بحسب كل منطقة (الشهيلي) أو (القبلي).

و سيرات، و المظاهر الاحتفالية المتنوعة و الرقص و الفلكلور و الأمثال الشعبية و غيرها، و التي تسم بيئة محلية معينة. إنّ أسماء الأطعمة مثلاً قد تطرح نوعاً من الفراغات اللفظية و الانزياحات الدلالية في اللغة المنقول إليها لأنّها لا تنطوي على فوارق في المعنى (nuances de sens) فحسب من حيث المكونات و زمن تناولها، بل و قد تغيب كلياً في الثقافة المستقبلة. و قد أورد نيومارك أمثلة عن ذلك (entremets – entrée – hors d'œuvres)[1]. و يمكن أن تتنوع هذه الأطباق و يجهل ماهيتها حتى في المجتمع الواحد (طبق (الدبارة) البسكرية، (الرشتة) العاصمية، و (زينابو) الأكلة المحلية الخاصة بسكان اليزي). و ثمة ما يتصل بأنواع اللباس، فكلمة (ملاءة) تعبر عن لباس المرأة الشرقية. و نجد كلمة (مظل) و هو عبارة عن قبعة خاصة بسكان المناطق الريفية الجزائرية منذ الحقبة الاستعمارية، و ما قد تشكل محاولة ايجاد مرادف لها في اللغة الفرنسية صعوبة كبيرة. و يمكننا أن نذكر في هذا الصدد أيضاً كلمة (béret) و هي قبعة خاصة بسكان إقليم الباسك؛ و كلمة (la fraise) اللباس الذي كان يرتديه الأوروبيون في عصور خلت. و من بين الألفاظ التي تعبر عن الأمكنة كلمتي (الدشرة) و (الدوار) الجزائريتين اللّتين تشكلان حتماً مشكلاً ترجمياً حتى في السياق العربي–العربي فما بالنا بنقلها إلى سياق أجنبي؟ و نجد الأسماء الطوبونيمية المتنوعة و ما توحي إليه من دلالات مختلفة و قيم تراثية و حضارية كبيرة لأصحابها دون سواهم، و ذلك بحسب الأحداث الاجتماعية و الحقبات التاريخية التي عايشتها، إذ نجد أنّها تسمى تارة باسم ولي صالح أو شخص متعبد (سيدي الحاج عبد الكريم بولاية سعيدة، يما قوراية بولاية بجاية)، و تارة باسم ذكرى بطولية (الزلاقة بولاية معسكر نسبة إلى معركة (الزلاقة) التي خاضها الأمير عبد القادر ضد الاحتلال الفرنسي)، و باسم طبيعة جغرافية أو تضاريسية أو حتى حيوانية تارة أخرى (ولاية النعامة التي سميت بذلك لانتشار النعام فيها قديماً). و من بين التسميات المتعلقة بخصائص بناء المساكن العربية و تشيدها، هنالك مثلاً كلمة (مشربية) التي قد نعتقد للوهلة الأولى أنّها عبارة عن آنية لتقديم الشراب[*]، خاصة إذا لم تكن محاطة بسياق نصي و موقفي يشير إلى أنّها "عبارة عن فتحات منخلية شبكية خشبية ذات مقطع دائري تفصل بينها مسافات محددة و منتظمة بشكل هندسي زخرفي دقيق و بالغ التعقيد و تعمل على ضبط الهواء و الضوء إضافة لتوفيرها الخصوصية"[2]. و من هنا تبدو رمزية هذا المكان التي تتمثل في الحفاظ على حرمة الأسرة المسلمة و منع العيون المتسللة إليها، و هو الإيحاء الذي قد يفشل المترجم في تجسيده. إذن، فإنّه ما من فعل ترجمي إلا و تصاحبه خسارة بل خسارات في المعنى أو في الدلالة أو في الايحاء الناتجة عن ترجمة كل ما يُعنى بالثقافة.

(**1**)بيتر نيومارك، م س، ص130.

(*)سميت على هذا النحو لأنّها في الأصل غرفة توضع فيها القلل الفخارية، و هي معروفة في مصر، خاصة في القاهرة، تعود إلى العصر المملوكي. و تُعرف المشربية بأسماء أخرى أيضاً هي (الشنشول) أو (الروشان).

(**2**)حنان نادر الكعبي، تخطيط و بنيوية عمارة الصحراء (http://www.jeaconf.org/UploadedFiles/Document/e5d6258b.pdf).

و قد يحاول المترجم بكل ما أوتي من حيل أن يحقق مبتغاه في نقل ما تعذر ثقافياً إلا أنّه قد يصطدم بواقع عدم وجود البديلة الثقافية في الثقافة المستقبلة. إنّ ترجمة كلمة (chaumière)، التي تعني الكوخ البسيط و المتواضع إلى اللغة الايطالية، على سبيل المثال، قد تطرح الاشكال نفسه. ذلك لأنّه لا وجود لكلمة قد تحقق فكرة أنّها عبارة عن بيت صغير و متواضع يسكنه الفلاحون بني من حجر و سقفه من قش. و قد تطلّب الأمر من المترجم أن يتنازل عن بعض معاني هذه الكلمة. قام بذلك وفقاً للسياق التالي: من جهة، تمثلت الفكرة المحورية في أنّ البيت من حجر (قام بترجمة (chaumière) هنا بكلمة (casupole))، و من جهة أخرى، كان من الضروري الإشارة إلى مسألة أنّ مثل هذه البيوت عبارة عن مباني صغيرة و متواضعة (جسّدها بـ (casetta)). و يتبيّن لنا من خلال ذلك أنّ المترجم يجبر في الكثير من الأحيان على التكيّف ثم التنازل عن بعض المعاني فقط لابانة تلك التي تعتبر أساسية في فهم المرسلة، أو بغية جعل القارئ يعايش ذلك الجو، تلك البيئة[1] .

و قد يشكل توظيف اللهجات المحلية (dialects) و اللهجات الشخصية (idiolects)، و اللهجات (sociolects) في النص المراد ترجمته مشقة أخرى بالنسبة للمترجم، خاصة إن هي تداخلت مع اللغة الفصحى، أو كما سماه أنطوان برمان Antoine Berman بـ (التراكب اللغوي) [2] (superposition des langues). و قد عرفت هذه الظاهرة عند الكثير من الأدباء العرب، و خاصة عند نجيب محفوظ الذي كان يوظف في رواياته و قصصه حوارات بين شخصيات تتكلم العامية، أو لهجة من اللهجات المحلية لتنتقل بعدها إلى اللغة العربية الفصحى في اطار منحى تصاعدي و تنازلي وفقاً لما أراد الكاتب قوله (المقصدية)، أو الجمهور المستهدف من ذلك. و يمكننا أن نشير هنا إلى القصص الشعبية و الملحمات البطولية التي كانت تروى على لسان (الحكواتي) في مصر و بلاد الشام، و طرق نظمها بالتراكيب المسجوعة إيقاعاً، و المستقاة من السجل العامي الخاص بلهجة تلك البلاد التي قد تخلق لدى المترجم نوعاً من التغريب اللغوي–الدلالي الذي لا يمكنه تدجينه إلاّ إن هو فهم المكنون اللغوي العامي الشديد المحلية، و تفاعل مع الايقاع فيه، و أحس بمخارج بعض الحروف التي تنطق بشكل خاص. و من ثم ايجاد السبل الكفيلة لنقل هذا كله إلى اللغة الأجنبية. و قد يتساءل الواحد منا كيف السبيل إلى ترجمة هذا القول الشعبي "جرح في ظهر الحصان تحت السرج متداري، لا الحصان بيقول آه و لا الخيال داري"[3]، أو عبارات مثل (بدك كثير فت خبز)،

---

(1)voir Umberto Eco, Dire presque la même chose, Expériences de traduction, traduit de l'italien par Myriem Bouzaher, édition Bernard Grasset, paris, août 2007, p65.

(2) Antoine Berman, La traduction et la lettre ou l'auberge du lointain, Editions du Seuil, Paris, 1999,p66.

(**3**)حسام الدين مصطفى، الأدب الشعبي... ذاكرة الأمم، نموذج من الأدب الشعبي المصري، مجلة جسور لعلوم الترجمة و اللغة (http://traductionmagazine.com).

(يا أرض اشتدي ما حد قدي)، (عيش يا غديش (البغل) حتى ينبت الحشيش)، (ياهمّلالي)[1] إلى اللغة الفرنسية أو الانجليزية.

إنّ ثقافة النص هي في الحقيقة التي تحدد طبيعة العمل و الوسائل المنتهجة لذلك، من دون أن نقصي ذاكرة المترجم اللغوية و ذوقه الجمالي، فالمترجم غير المتذوق للعوالم الجمالية القابعة حتى في النصوص الأكثر تقنية يعد غير قادر على نقلها إلى لغة أخرى مهما بلغت درجة نبوغه فيها و مدى تحكمه في الاستراتيجيات و التقنيات الترجمية حولها.
و قد يكون للبعد الدلالي في شحنة ثقافية ما بعداً استيتيكياً خاصة في النصوص الشعرية. و هو ما يطرح اشكالاً بالنسبة للمترجم في ضبط العلاقة الجمالية بين الدال و المدلول من جهة، و التوفيق بين المكافئ الاستيتيكي في النصين مع ايجاد الوزن و القافية المناسبين من جهة أخرى. و يمكننا أن نتبيّن ذلك من خلال الأبيات التالية للشاعر الفلسطيني محمود درويش المعنونة بـ (أبيات غزل):

أتبقين فوق ذراعي حمامة
تغمس منقارها في فمي،
و كفك فوق جبيني شامة
تخلد وعد الهوى في دمي[2]

ثمة في هذا المقطع مثال عملي عن مفهوم ثقافة النص. و يبدو جلياً أنّ الرمزية فيه تنبني على البعد الدلالي لكلمتي (حمامة–شامة)، و الذي أضفى على هذه الأبيات مناخاً ثقافياً خاصاً.
و بغية أن نفهم معنى هذه الأبيات، ينبغي علينا، بادئ ذي بدأ، أن نحلل اللعبة الدلالية التي أرادها محمود درويش من خلال توظيفه لكلمتي (حمامة–شامة). عُرض هذا النص الشعري على طلاب جامعيين من كلا الجنسين (خمسة طلاب و ست طالبات) من جنسيات مختلفة: أسترالية و يابانية و أمريكية و سريلانكية و ماليزية. و لم يسبق لأي أحد من هؤلاء الطلاّب أن سمع باسم محمود درويش. كما تم اسماعهم القصيدة مغناة بصوت الفنان البحريني خالد الشيخ، و طلب منهم أن يدوّنوا انطباعاتهم بعد قراءة الترجمة الانجليزية التالية لهذه الأبيات:

A pigeon on my arm would stay
In immersing, her peak to my mouth
A mole your palm

(1)عبد الله الشناق، صعوبة ترجمة آداب المهمشين، هبيلة بشرى نموذجاً، مجلة المترجم، العدد12، دار الغرب للنشر و التوزيع، جويلية–ديسمبر 2005، ص159.

(2)عدي جوني، م.س.

The promise of love in my blood eternalizing [1]

استغرب الأمريكيون استخدام الحمام في الصورة التي رأوا فيها تضميناً غير مباشر لفعل جنسي، كما أنّ الحمام طائر مزعج بالنسبة لهم، في حين وجد الطلاب الأستراليون العلاقة بين الحمامة و الشامة (pigeon-mole) غريبة نوعاً ما. و قد فهم الطلاب اليابانيون، و كذا السيريلنكيون و الماليزيون، أنّ المغزى من توظيف الحمام يكمن في الاشارة إلى السلام لكونه رمزاً له. و تمكّن طالب أسترالي واحد من أن يربط الحمام بالسلام تبيّن أنّه يحضّر لرسالة الماجستير في شؤون الشرق الأوسط. و قد رأت طالبة أسترالية أخرى، متزوجة و أم، في صورة الحمام رمزاً للأمومة. أما فيما يخص صورة (الشامة) و فكرة الخلود، فقد استغرب جميعهم، باستثناء طالب واحد، توظيفها في مثل هذه القصيدة الغزلية لكونها جسم غريب يحمل في ثنياه امكانية أن يتحول إلى سرطان قاتل. أما ذلك الطالب الذي صنع الاستثناء فقد أشار إلى أنّ الشاعر ربما وظّف (الشامة) للدلالة على تأصل الحالة الوجدانية لديه بما أنّه لا يمكن إزالة (الشامة) إلا باستئصالها[2] .

أعطى استخدام مفردة واحدة هنا العديد من المفاهيم الدلالية تبعاً لثقافة كل قارئ و بيئته الاجتماعية أو الدراسية أو المهنية، مما لا يدع مجالاً للشك في أنّ للعبة الدلالية ذات البعد الثقافي دوراً حاسماً في توجيه المتلقي ثقافياً. و قد اختلفت انطباعات هؤلاء الطلاب بعد سماع الأغنية، بحيث انتبه جميعهم إلى نبرة الحزن التي تعتريها، و التي جاءت على مقام (الصبا) على الرغم من افتقار الترجمة الانجليزية لجماليات الأدوات الشعرية، و انسياب القافية و الخصوصية الغنائية التي عادة ما تتمتع بها نصوص محمود درويش.

و إن نحن عدنا إلى تحليل هاته الأبيات، لوجدنا أنّ النص يتوزع على مساحات دلالية ترتبط بالواقع الفلسطيني الذي ينظر إلى الحمام بوصفه رمزاً للسلام، و ذلك في صراعه اليومي لإثبات وجوده على أرضه. و قد يرى البعض في ذلك الرمز دعوة للتعايش السلمي إن نحن افترضنا أنّ المخاطب هنا فتاة يهودية. أما بالنسبة للقارئ العربي، تعتبر (الشامة) واحدة من بين الخصائص الجمالية التي تضفي على العشيقة حسناً آخر، إلى جانب علاقتها العضوية المباشرة بالجسد رمز العلاقة الحميمة.

و على الرغم ما لأمهات الكتب من دور حضاري بارز في تفعيل أواصر المثاقفة البنّاءة، إلاّ أنّ ترجمتها على مر الأزمنة و العصور لم تكن أبداً بالأمر الهين. و مرد ذلك إلى التباعد الثقافي و الشرخ الحضاري من جهة، و صعوبة تجسيد المكنون اللغوي ببعديه التعبيري و الجمالي من جهة أخرى. و قد تجلت هذه المشقة بصفة خاصة في نقل النصوص

(1)عدي جوني، م.س.

(2)م ن.

المسرحية، إذ تعد ترجمة أعمال شكسبير على سبيل المثال خطوة شائكة و معقدة لكون هذا الأديب الفذ قد أحدث ثورة عارمة قلبت موازين الفن الدرامي في القرنين السادس عشر و السابع عشر.

و قد أضفى المسرح الشكسبيري ببصمته الخاصة و الخالصة على الخصائص الفنية للمسرح الانجليزي و المسرح العالمي على حد سواء. فقد جاء تأليف المسرحيات شعراً مرسلاً بموسيقاه و ايقاعه المتميزين؛ أضف إلى ذلك حب شكسبير للمراوغات و التلاعب بالكلمات التي كان يشبّعها بالعواطف الجياشة و الأفكار النيرة ليعبر عن الحقائق العميقة للنفس البشرية. و يعني ذلك أنّه يتوجب على من يتحمل عناء نقل هذه الروائع الفنية إلى لغة غير الانجليزية أن يحتفظ بهذا الزخم من الصور الجمالية، و أن يولي اهتماماً بالغاً بلغتها الشعرية ذلك لأنّه "بغية ترجمة الشعر، ينبغي علينا أن نلبس ثوب الشعراء"[1].

و ثمة مسألة أخرى تتعلق بشكل العمل المسرحي نفسه: هل نترجم لشكسبير مسرحياته محافظين على الشكل الذي اعتبره جلّ المنظرين جزءا لا يتجزأ من المضمون[2]، أم ثمة امكانية أن نترجمها نثراً و نكتفي بنقل محتواها نقلاً أميناً، و إن كان ذلك ممكناً، فهل سيحافظ النص على بعده الجمالي و قيمته الموسيقية؟

إنّ من بين الصعاب التي واجهت مترجمو شكسبير ما كان في ترجمة فرانسوا فيكتور هيغو Francois Victor Hugo الفرنسية لمسرحية (أنطونيو و كليوبترا) (Antony and Cleopatra) على الرغم من تشابه اللغتين الفرنسية و الانجليزية من حيث قواعد بنية الجملة بخلاف اللغة العربية مما يزيد من الأمر اعتياصاً. فلفظة (mallard) التي تعني (ذكر البط البحري) تم استبدالها بـ (canard). و يتضح أنّ توظيفها من قبل شكسبير جاء ليعكس صورة حسية و من ثم صورة فنية. و يُعرف طائر (mallard) في انجلترا بوفائه لمحبوبته من حيث أنّه يتبعها، و هي جريحة، حتى يهلك معها. أما الصورة الفنية فتمثلت في تشبيه شكسبير لأنطونيو بهذا الطائر عندما تخلى عن جنده و مركباته في معركة (أكتيوم) (Actium) ليلحق بحبيبته كليوبترا.

و لا يمكن أن يفهم هذه الصورة إلاّ متلقي انجليزي لأنّها تنبع من تجربة معايشته لهذا الطائر الذي يعيش في الشواطئ الشمالية لإيرلندا، و الذي يضرب به المثل في مثل هذه المواقف. أما لفظة (canard) فلا تحمل أدنى الايحاءات الدلالية أو الجمالية أو الثقافية ذلك لأنّه بالنسبة للفرنسيين مجرد طائر ذو مشية متعوجة و عديمة الظرافة يعيش في البرية أو في حظيرة لتربية الدواجن. الشيء الذي قد يولّد لديهم نوعاً من الغرابة الدلالية و حتى سخريتهم.

(1) Edmond Cary, Traduction et Poésie, in Babel, III, N° 01, 1957, p27.
(2)voir Efim Etkind, Un Art en Crise, Essai poétique de traduction poétique, traduit par W. Troubetzkoy avec la collaboration de l'auteur, Lausanne, l'Age d'Homme, 1982, p23.

و نجد أيضاً في المسرح الشكسبيري بعض المسائل الأخلاقية التي لم يعرها شكسبير أي اهتمام، بحيث عبّر مضمون أعماله بكل حرية عن ما يعتمل في صدره من أحاسيس و مشاعر من دون أدنى مراعاة للمسائل الأخلاقية التي قد تُقبل أو تُنبذ من قبل معاصريه أو من قبل الجمهور المستقبل. عاش شكسبير في عصر احتك فيه المثقفون بالتراثين الإغريقي و اليوناني، إذ أصبح الواحد منهم "لا يرى كثير ضير فيم يصوره من مشاهد صريحة بغض النظر عما تراه الكنيسة أو بعض التربويين"[1]. و لهذا السبب لم يمتنع شكسبير في العديد من مسرحياته (مثل روميو و جوليت، عطيل) عن تصوير ما يوحي إلى الجنس و متعته.

و قد يلجأ المترجم في مثل هذه الحالات إلى نوع من (التلطيف) (euphémisme) الناتج عن مراقبة ذاتية (l'autocensure)، فيقوم مثلاً بالتلميح لمبتغاه دون التصريح به علناً نتيجة لتعارض ذلك مع قناعاته الدينية و الأخلاقية و الأيديولوجية؛ أي ما يشكل الطابوهات أو الثالوث المحرم في الترجمة الذي يتنافى مع المسلمات العقائدية و الأيديولوجية و الأخلاقية لوسط اجتماعي معين.

و يُطرح هذا الإشكال بحدة في ترجمة كل من الأستاذين مؤيد الكيلاني و جبرا ابراهيم جبرا لمسرحية (هاملت) التي عرفت العديد من الانحرافات الترجمية بابتعادها عن معنى النص في اللغة المنقول منها، أبرزها مايلي:

-Ophelia : will he tell us what this show meant ?
-Hamlet: Ay, or any show that you'II show him, be not asham'd to show, he'II not shame to tell you what it means.
-Ophelia: you are naught, you are naught, I' II mark the play [2]

* مؤيد الكيلاني:

-أوفيليا: ماجن، أنت ماجن[3]

نلاحظ أنّ مؤيد الكيلاني امتنع عن ترجمة الحوار الذي دار بين أوفيليا و هاملت حول العرض الصامت في مشهد التمثيلية الذي كان الغرض منه معرفة ما إذا كان كلاوديوس مذنباً في حق أخيه الملك الراحل أم لا. و قد دلّت كلمة (show) هنا على معنيين اثنين: المعنى التقريري الذي يشير إلى العرض التمثيلي، و المعنى المجازي الذي يوحي إلى العرض الجنسي الذي يمكن أن تقدمه أوفيليا بصفتها امرأة. و نلتمس من خلال قرائتنا لهذا المقطع تلك النبرة الحادة (نوع من التهجم) التي جاءت في كلام هاملت للأوفيليا، المرأة، و كأنّي به يعاتبها على ما اقترفته والدته جرترود بخرقها للعقيدة

(1)سلوم داود، دراسات في الأدب المقارن و التطبيقي، وزارة الثقافة و الإعلام، دائرة الشؤون الثقافية و النشر، دار الحرية، بغداد، 1984، ص133.
(2)The Complete Works of William Shakespeare, Selfridge's, coltd, London, 1990, p66.
(3)وليام شكسبير، هاملت، تر. مؤيد الكيلاني، منشورات دار مكتبة الحياة، 1975، ص72.

الكنائسية و اقترافها لزنى المحارم المتمثل في ارتباطها بأخ زوجها الراحل. و قد تفادى المترجم نقل الحوار احتراماً للمتلقي العربي و خصوصياته الثقافية، بحيث نقل العبارة الأخيرة من الحوار فقط (ماجن، أنت ماجن) التي سببت شرخاً في نقل المعلومة كلها لكونها جاءت في آخر الحوار. و ثمة مثال آخر:

-Hamlet : lady, shall I lie in your lap? (sits at ophelia's feet)
-Ophelia: o, my lord
-Hamlet : I mean my head upon your lap
-Ophelia : Ay, my lord
-Hamlet : do you think I meant country matters ?
-Ophelia : I think nothing my lord
-Hamlet : that's a fair thought to be between maid's legs **(1)**

* مؤيد الكيلاني:

-هاملت: أ أضع رأسي على ركبتك يا حبيبي؟**(2)**

* جبرا ابراهيم جبرا:

-هاملت: سيدتي، أ أضطجع في حضنك؟

-أوفيليا: كلا يا مولاي

-هاملت: أعني و رأسي في حضنك**(3)**

أضاف شكسبير في هذا الحوار جملة شارحة وضعها بين قوسين (sits at ophelia's feet) التي تعني أنّ هاملت كان (جالساً على ركبتي أوفيليا)، و هو ما يقرّب لنا المعنى أكثر فأكثر. و ما أضفى على المشهد ضبابية أكثر، و تصويراً لمشهد جنسي حدث أو أوشك أن يحدث هي تلك اللعبة الدلالية و التلاعب بالكلمات و المراوغة بها، بحيث نجد توظيفه لكلمة (lap) التي تعني (الحضن)، لكنه ذكر فيما بعد كلمة (feet) (القدمين) (هنا الركبتين بحسب المشهد) و هو المعنى الثاني لكلمة (lap) الانجليزية. ثم زاد بعد ذلك من توضيح للمشهد أكثر قوله (my head upon your lap) (وضع الرأس على الصدر-في الحضن-على الركبتين ...)، ليتساءل هاملت بعدها عن ما إذا كانت أوفيليا قد ظنت به سوءا من خلال قوله (country matters). و كلمة (country) اصطلاح انجليزي يعني المسألة التي يكون فيها شخص ما ماهراً و حذقاً؛ و (country matters) تعبير اصطلاحي يدل على المسائل المشينة التي قد تراود فرداً ما. لينتقل بعدها إلى وصف حالة أخرى من قعودهما (to be between) الدالة على

(1) The Complete Works of William Shakespeare, op.cit, p64.

(**2**)وليام شكسبير، م س، ص72.

(**3**)وليام شكسبير، هاملت، تر. جبرا ابراهيم جبرا، دار المأمون، بغداد، 1986، ص103.

(كون الشيء بين كذا و كذا)، و الانتقال من (feet) (الركبتين) إلى (legs) (الساقين) مع توظيف أسلوب التمني في بداية الجملة (that's a fair thought) و هو ضمني إلى أبعد الحدود. أدى كل ذلك بالمترجمين إلى الحذر من هذا الحوار الذي أربكهما ثقافياً. و يمكن أن نبرهن على ذلك من منطلق بسيط جداً: كلمة (maid) الانجليزية التي تعني (الوصيفة) أو (الخادمة) في قصر، لكنها تعني أيضاً (المرأة البكر)، فهل كان هاملت يا ترى يخاطب (المرأة البكر) أم (الوصيفة)؟ أم كان يخاطب (المرأة الوصيفة) أم (الخادمة البكر)؟ ثمة إذن تأجج في الموقف التواصلي و تلاعب في طياته أحدث نوعاً من الفراغ الترجمي (التدرج في المستويات من خلال توظيف حروف الجر (at-upon-between))، و يرجع ذلك إلى تضمين شكسبير لمسارحه بالعديد من المقاطع الجنسية الصريحة قد تصل إلى حد الإباحية. و ثمة أيضاً مثال آخر:

-Ghost: let not the Royal bed of Danemark be a couch for luxury and damned incest **(1)**

* مؤيد الكيلاني:

-الشبح: إياك أن تدع بلد الدنمارك لأن يكون مهدا للعهر**(2)**

امتنع المترجم هنا عن نقل الايحاء الذي حملته العبارة الانجليزية (Royal bed of Danemark)، بحيث حرص على التخفيف من حدة صفة الرذيلة (الزنا) التي تعد من الكبائر في الدين الاسلامي؛ فعوض أن يذكر (الفراش الملكي للدنمارك) للدلالة على فكرة الجماع و المضاجعة كتب يقول (بلد الدنمارك)، الشيء الذي أحدث نوعاً من الخسارة الترجمية المعنوية.

و يفتح هذا الإشكال الباب على مصرعيه حول ترجمة ما هو محظور، أي تلك المسائل التي تعد من المحرمات في ثقافة ما. و لا يمكننا أبداً أن ننقص من مكانة الدين الثقافية لدى جميع الشعوب بوصفه بعداً أساسياً في أي تعريف للثقافة. و يعرّف الدين على أنّه "نظام من المعتقدات و الممارسات التي تقوم على علاقة الإنسان بالكائن الأعلى (الله)، بالإضافة إلى مجموعة من القوانين و الطقوس و التنظيمات"**(3)**. و ثمة تعريف آخر للدين يأخذ في الحسبان ما جاءت به الدراسات الحديثة في أنّ "المجتمع و أشكاله، و تنظيم الفضاء، و العلاقات التي تربط بين الأفراد و طبقات الأفراد، و أيضاً العلاقات بين الفرد و المجتمع، و بين جماعة دينية و مجموعة اجتماعية هي كلها دوال تشير إلى مدلول واحد ألا و هو الدين"**(4)**. و هو ما يؤكد فكرة أنّ الدين في مجمله مرتبط بكل ما يمت بصلة إلى حياة البشر و سلوكاتهم.

---

(1) The Complete Works of William Shakespeare, op.cit, p28.

(**2**)وليام شكسبير، هاملت، تر. مؤيد الكيلاني، م س، ص52.

(3) Encarta, op.cit, 'Religion'.

(4) Dictionnaire Encyclopédique Quillet, Librairie Aristide Quillet, Paris, 1983, p5769.

و يعتبر نيدا Nida من بين المنظرين الذين سلطوا الضوء على صعوبة ترجمة المسائل المرتبطة بالبعد الديني من خلال التصنيف الذي وضعه. و يشكل العامل الديني في ترجمته تحد كبير لكونه انتقال من عالم إثنوغرافي إلى آخر، و هو ما معناه الاشتغال على الأيديولوجية الدينية. و قد أورد نيدا Nida أمثلة كثيرة على الهوة التي تفصل بين التجربة الأيديولوجية لحضارتين و ذلك بسبب اهتمامه و تخصصه في ترجمة الكتاب المقدس ذات الغرض التبشيري.

يلعب الدين دوراً مهماً في ثقافة المجتمعات العربية الإسلامية، إذ يضبط علاقة الفرد بخالقه و باقي الأفراد في مجتمعه، و يملي عليه الأحكام الشرعية و الضوابط الفقهية حول جميع المسائل المرتبطة بحياته اليومية في اطار الحلال و الحرام. و قد يطرح ذلك صعوبة في نقل هذا البعد الديني المتجذر في المجتمع العربي الاسلامي إلى اللغة الفرنسية مثلاً، ذلك لأنّه تكاد لا تخلو عبارات التحية أو الألفاظ المتداولة حول اللباس أو حتى أسماء العلم من خلفيات دينية اسلامية في مجتمعاتنا، و هو ما أدى إلى ظهور مفهوم (المصطلح الاسلامي) الذي يعرّف على أنّه كل لفظ أو تعبير أو مفهوم جديد في العربية مصدره القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة و الفقه الاسلامي. فلفظ الجلالة (الله) موجود في استعمالاتنا اليومية إما للحلف (و الله، أقسم بالله)، أو لمباركة الشيء في حسنه و جماله (ما شاء الله)، أو للتهديد و الوعيد (و الله لتدفعن الثمن غالياً)، أو حتى للدعاء على شخص ما بسوء (الله يعطيك كذا و كذا)؛ فأي ترجمة حرفية لهذه العبارات ستحيد حتماً عن المعنى الأصلي، و لن تطلع القارئ الغربي المعاصر –الذي لا يمثل الدين بالنسبة إليه بعداً حياتياً مهماً مقارنة بما كان عليه الوضع في العصور الوسطى– على المغزى التداولي و السياق الدلالي الذي تعنى به.

يكتسب لفظ الجلالة (الله) دلالة خاصة في الثقافة الاسلامية، و يمكن أن يترجم إلى اللغة الفرنسية بـ (Dieu) كما يمكن أن يترجم أيضاً بـ (Allah) الذي يؤكد صفة الربوبية على الله عزّ و جلّ دون سواه. و لا يمكن أن يصرّف لفظ (الله) إلى المثنى أو المؤنث أو الجمع، في حين أنّه يمكننا أن نقول بالفرنسية (une déesse – des dieux)[1]. و يمكننا الحديث أيضاً عن مفاهيم إسلامية مجردة أخرى تتصل بالعبادات مثل الصلاة التي تختلف ماهيتها و طرق و زمن تأديتها عن تلك الخاصة بالمسيحين أو اليهود، إذ سيواجه المترجم صعوبة في نقل مفهوم (صلاة العصر) مثلاً إلى لغة أجنبية ينعدم فيها وجود مثل هذه الصلاة أو حتى من الطقوس ما يشابهها. و ثمة أمثلة عديدة تبرز هذا البعد الديني المتأصل في الثقافة الإسلامية، نذكر من بينها أركان الإسلام، بالإضافة إلى الصلاة، مثل الشهادتين و الصوم و الزكاة و الحج؛ ثم المسائل المرتبطة بالعذاب و الجزية و الجهاد الذي قد يفهم على أنّه (الارهاب) إن عجز المترجم عن تبني الاستراتيجية

(1)محمد عبد المجيد حسنات، صعوبات الترجمة الثقافية للحديث النبوي الشريف من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية، سلسلة الآداب و العلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد2، 2005، ص140.

المناسبة التي تحول دون حدوث مثل هذا اللبس الخطير.

و قد يؤدي اعتياص نقل المسائل المحظورة أو الطابوهات (tabou) من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية إلى "تعقيد لسان"[1] المترجم، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالحديث عن المرأة أو الجنس أو الشذوذ الجنسي أو البغاء؛ إذ ثمة العديد من المفاهيم التي يعتريها الغموض لدى القارئ العربي نظراً للمحرمات التي هي بمثابة خط أحمر لا يمكن تجاوزه في المجتمعات العربية، و الناجمة عن اشكالية ترجمة (الجنسانية) (sexiness) إلى اللغة العربية.

و يعد أسلوب (التلطيف) (euphemisation)، الذي يختلف عن أسلوب التضليل اللغوي، في مثل هذه الحالات التي يشعر فيها المترجم بنوع من الحياء الاستراتيجية المثلى، إذ تخوّل له الدنو من المعنى من دون أن يختار مقابلاً بنفس الوزن و قوة الايحاء. و من الأمثلة عن ذلك كلمة (bastard) الانجليزية التي غالباً ما تُلطّف و تُترجم بـ (ابن الخطيئة، ابن غير شرعي) بدلاً من (ابن زنا) أو (ابن حرام)[2] .

إنّ من بين الأخطاء الترجمية التي تحدثت عنها روضة كمون في دراستها التي اتصلت بالمعنى في ترجمة كتاب عن (الجنسانية) في الإسلام، ترجمة عبارة (l'alchimie érotique) بـ (الخيمياء الغرامية). و ثمة استراتيجية أخرى بديلة تتمثل في حذف مقاطع بالكامل ما يزكي فكرة حضور ذاتية المترجم و تأثره بالوسط السوسيوثقافي الذي نشأ فيه؛ بالإضافة إلى الرقابة الذاتية التي تتحكم في كل قراراته الترجمية (prise de décision).

تتفق جميع المجتمعات البشرية في الكثير من السلوكات الاجتماعية ذهنية كانت أم اشارية أم لغوية. و نجد من بين هذه السلوكات الاجتماعية المسائل المتعلقة بالفكاهة و الدعابة. لكن ترجمة هذه الفكاهة تنطوي أيضاً على بعض المعوقات التي تتصل بالأساس بالعوامل الثقافية. و ما يثير الدعابة و التهكم و الضحك في ثقافة ما قد لا يثيره في ثقافة أخرى لاختلاف البعد الثقافي المؤسس للفكاهة. و ما يثبث صحة ذلك ترجمة أعمال ويليام فولكنر William Faulkner الساخرة إلى اللغة الفرنسية من قبل مترجمين تبيّن أنهم لم يقرؤا عن الأدب الساخر من قبل بشهادة الناقدين، بحيث أعتبر فولكنر كاتباً تراجيدياً بامتياز بدلاً من أن يُنظر إليه على أنّه صاحب الروايات الأدبية الساخرة كما هو الحال في بلده الأصلي أمريكا، و ذلك منذ أن نشرت روايته الأولى الشهيرة (Sanctuary-Sanctuaire) بفرنسا، ما طرح اشكالية ملحة حول مسألة تلقي هذه الأعمال بصفة عامة[3] .

(1) Raoudha Kammoun, Traduire la sexualité en arabe, Traduire la langue, traduire la culture, rencontres linguistiques méditerranéennes, Maisonneuve et Larose, 2003, p124.
(2)see Hasan Ghazala, The Translator's Dilemma with Bias (English-Arabic), op.cit, p163.
(3)voir Annick Chapdelaine, l'échec du Faulkner comique en France: un problème de réception, Meta, vol.34, N°2, 1989, p268.

إنّ مسألة تلقي الترجمات و فهمها و استيعابها من قبل الجمهور المستهدف، و من ثم شيوعها و رواجها في الثقافات المستقبلة لهي حجر الزاوية في علم الترجمة، و لبنة أولى من لبناته. و بما أنّ ترجمة الفكاهة تخصص ترجمي لا يختلف عن التخصصات الترجمية الأخرى، فإنّه يخضع لقواعد استراتيجية معينة أهمها أن نبحث، في الثقافة المستقبلة، عما يثير دعابة الجمهور فيها؛ أي أن نسبر أغوار النفس البشرية و أن نبحث في مكنونها عن العوامل المفضية إلى الضحك عندها. و قد يصطدم المترجم في سعيه وراء ذلك بالعديد من الفراغات الثقافية بين الثقافتين المنقول منها و المنقول إليها التي يجب عليه أن يملئها، أو أن يحوّر أو يبدّل نموذجاً ثقافياً بآخر، أو بيئة ثقافية بأخرى ليصل إلى مبتغاه. و ينعكس ذلك على القول الفكاهي التالي:

-Why is an elephant like a pink sausage ?
-Neither of them can climb a tree **(1)**

لا يحمل هذا القول الفكاهي أي منغص من النوع اللغوي، بحيث يمكن تجسيد كل بناه من مفردات موظفة و أسلوبي الاستفهام و المقارنة إلى اللغة الفرنسية، كأن نقول مثلاً:

-Pourquoi l'éléphant ressemble-t-il à une saucisse rose ?
-Aucun des deux ne peut grimper à un arbre **(2)**

لكن على الرغم من ذلك يتوقف فهم هذه الأحجية الخاصة بالأطفال على معرفة شكلي (الفيل) و (السجق). و إن نحن قمنا بترجمة هذه المزحة إلى طفل من بلاد (الإسكيمو) الذي لم ير في حياته فيلاً، و ليس معتاداً على أكل (السجق) فهل يا ترى سيثير ذلك ضحكه و نشوته؟ بالطبع لن يثير أي نفس مازحة لديه لاختلاف الوسط الثقافي و البيئي بالنسبة له مقارنة بالطفل الأوروبي أو الأمريكي المتعود على زيارة حدائق الحيوانات، و التمتع بأكل (سندويشات السجق) (hot dog) مع (الكاتشوب عصير البندورة) (ketchup) و الخردل (mustard).

عندما نترجم لطفل من ثقافة مغايرة، كما هو الحال هنا، سيكون من الأنسب أن نبدل (الفيل) (elephant) إلى (حوت) (whale)، و (الشجرة) (tree) إلى (جبل الجليد) (iceberg)، و (السجق) (sausage) إلى (بفتيك الفقمة) (seal steak) مراعاة لخصوصية ثقافية التي تحكم نمط الدعابة إلى حد كبير. أما فيما يخص لون (السجق) (pink-rose)، فينبغي أن نحذر من تقاطع ذلك مع تسمية (الفهد الوردي) (pink panther) الشائع عند الأطفال. و إن نحن اقتبسنا من اللغة الفرنسية عبارات مثل (saucisse de Francfort, Strasbourg ou Toulouse) (سجق فرانكفور، ستراسبورغ أو تولوز) فسيكون من الصعب جداً أن نجد ما يربط اسم مدينة باسم حيوان يتسلق شجرة. و ثمة مثال آخر عن صعوبة ايجاد ما يجسد البعد الثقافي نفسه عند ترجمة هذه الفكاهة:

(1) Anne-Marie Laurian, Humour et traduction au contact des cultures, Meta,vol. 34, N° 1,1989,p07.
(2) Ibid, p07.

- A pessimist is one who can only see the hole in the doughnut [1]

لا يوجد هنا أيضاً أية مشكلة معجمية أو نحوية التي من شأنها أن تنغّص على المترجم عمله، بيدأنّ الحقيقة الثقافية التي تحيل إلى (الكعك المقلي و المحلى) ذو النتوء المستدير (doughnut) منعدمة في فرنسا، إذ لا يمكن ترجمتها بـ (beignets)، و هو نوع من الفطائر المقلية ليس بها ثقب في الوسط و تباع في الشوارع. يعتبر (الكعك المقلي و المحلى) (doughnut) ذو النتوء المستدير تخصص مطبخي أمريكي بالدرجة الأولى، و عليه تبرز مشقة نقل هذا التشاؤم إلى اللغة الفرنسية. يمكننا أن نعبّر عن ذلك من خلال النظرة التقليدية للقارورة ذات النصف الفارغ عكس القارورة المملوؤة إلى النصف. بيدأنّ هذه الصورة معروفة لدى الجميع لدرجة أنّها لن تثير أي إحساس لا بالدعابة و لا بالمرح[2] .

لقد تم البحث عن صورة تشبه إلى حد كبير صورة (الكعك المقلي و المحلى) (doughnut) الأمريكي لتجسيد هذا التشاؤم، و هي صورة مستقاة من تخصص مطبخي فرنسي و أوروبي يتوفر على ثقب أو ثقوب. لقد تم اقتراح (جبنة الغروييز) (le gruyère) لتصبح الترجمة كمايلي:

- Le pessimiste est celui qui ne voit dans le gruyère que les trous [3]

– المتشائم هو الذي لا يرى في جبنة الغروييز سوى الثقوب (الترجمة لنا).

و عليه نكون قد حافظنا على تلك النظرة المتشائمة التي طبعت المقولة الانجليزية بتوظيف نفس المكافئ الديناميكي المتمثل في نوع من الأطعمة التي يعرف بها المطبخ الفرنسي و الأوروبي على حد سواء.

و قد تختلف مكانة المترجم الاجتماعية من ثقافة إلى أخرى، و هو ما من شأنه أن يحدث فوارقاً ثقافية كبيرة إلى جانب ماهية الثقافات و تنوعها. و ثمة مثال عن تفاوت المكانة الاجتماعية هاته بين الثقافات. تخضع غالباً مكانة المترجم الاجتماعية في اليابان مثلاً، مقارنة بالمكانة الاجتماعية لأصحاب المهن الحرة الأخرى، لأحكام مسبقة اتجاهه. و يشكل هذا الأمر نزعة اجتماعية تخص اليابانيين وحدهم. و يقارن أحد المترجمين اليابانيين نفسه بزميل مترجم سويسري له قام بأخذ سلفة من بنك سويسري، بعد إلحاح من هذا الأخير، و بنى بها فيلا فاخرة على أطراف جنيف؛ بل و قد تهافت عليه مسؤولوا ذات البنك ليحصل على سلفات أخرى لكي يقتني سيارة فاخرة أو ربما يختاً. لكنه يقول أنّ مثل هذه الأشياء هي بمثابة أضغاث أحلام بالنسبة للمترجمين اليابانيين، و أنّ الأمر لن يحدث البتة في اليابان حتى و إن أثبت أي مترجم أنّه يحصل على دخل مريح من نشاطه لكي يستدين، لا من أجل أن يبني فيلا فاخرة، بل من

(1) Anne-Marie Laurian, op.cit, p08.
(2) Ibid, p08.
(3) Idem.

أجل أن يحصل سوى على شقة[1]. بيدأنّ أفراد المهن الأخرى من محامين و محاسبين و أطباء لا يعانون من قيود كهاته. و ليبرهن أكثر على تلك النظرة السلبية اتجاه المترجم، ذكر نفس المترجم أنّه كان ذات مرة بصدد التحدث إلى شخص يعرفه يعمل تقنياً عن ندوة دولية بين هاواي و اليابان و هو يحمل قصاصة جريدة كتبت مقالاً عن هذا الموضوع. أجاب هذا التقني أنّ هذه الندوة الدولية قد جرت بفضل تجهيزات الترجمة الفورية؛ لكنه لم يتطرق أبداً إلى المترجم الفوري الذي قام بعملية الترجمة، أو حتى بوصفه إنساناً (لم يذكر بطبيعة الحال أي تقني).

إنّ للغة اليابانية، كغيرها من اللغات الأخرى، العديد من الجوانب التواصلية التي يكثر فيها الغموض (تشبه اللغة اليابانية اللغة الألمانية مثلاً في كون الفعل في جملها يأتي في آخرها؛ تختلف المعاني في الكثير من الأحيان على الرغم من أنّ أصوات الكلمات هي نفسها؛ مشكل نقل الكلمات غير المنطوقة؛ اللغة اليابانية لغة كتابية إلى أبعد الحدود و ليست لغة مشافهة؛ يخضع المجتمع الياباني إلى تراتبية اجتماعية صارمة على الرغم من عدم وجود الفوارق الطبقية في المجتمع)[2]؛ لكن اللغة اليابانية تطرح اشكالاً من نوع آخر: مسألة الهوية اليابانية ببعدها السوسيوثقافي التي ينظر إليها على أنّها بيئة منغلقة؛ ثم في الطريقة التي تطورت بها هذه اللغة، و التي تدين بنسبة كبيرة إلى اللغة بل الرواسم الصينية.

و يمكننا القول أنّ الثقافات، بفعل اختلافها و تمايزها، اكتسبت خصائصاً تسمها و تُنعت بها للوهلة الأولى. و إن نحن قمنا بمقارنة بين هذه الثقافات لكان بإمكاننا الجزم أنّ الثقافة العربية مثلاً تعتبر ثقافة بدوية (الخيل و الليل و البيداء تعرفني و السيف و الرمح و القرطاس و القلم)[3]، و أنّ الثقافة الفرنسية ثقافة بورجوازية (الكونتيسة و المركيزة و الدوقة)، و أنّ الثقافة الانجليزية ثقافة بحرية (لا يوجد أي رواية أدبية في اللغة الانجليزية لا يذكر فيها البحر و أطرافه)، و أنّ الثقافة اليابانية ثقافة صموتة (تفضل المكاتبة على المشافهة) و هكذا دواليك؛ و هو ما يجعل التواصل عن طريق الترجمة عملاً كله نسبية بسبب القصور اللغوي و الثقافي الذي يعتريه، حتى و إن كان المترجم ابن بيئة إحدى اللغتين/الثقافتين موضوع الترجمة[*].

---

(1)see Masaomi Kondo, Japanese Interpreters in their Socio-Cultural Context, Meta, vol.33, N°1, 1988, p70.

(2)see Fujiko Hara, Understanding the Silent Culture of the Japanese, Meta, vol.33, N°1, 1988, p23-24.

(**3**)أبو الطيب المتنبي.

(*)"Translators often have an inadequate knowledge of the source language; even when they are native speakers of it; they often have inadequate knowledge of the receptor language; even when they are native speakers of it; and they often lack an adequate grasp of translation principles and procedures".
(Charles R. Taber, Sociolinguistic Obstacles to Communication through Translation, Meta, vol.25, N°4, 1980, p421).

4. الفعل الترجمي و الفعل التثاقفي (acculturation)

استطاعت المجتمعات البشرية أن تلاحظ مختلف وقائع و حالات الاحتكاك بين العديد من الثقافات قبل أن يظهر إلى الوجود مفهوم المثاقفة بكثير، لكن هذا الوعي التام بمثل هذه الاحتكاكات لم يخضع لنظريات علمية تفسّره و تشرح ماهيته، بل اتكأ في مجمله على أحكام تتصل بالآثار المترتبة عن مثل هذه التقاربات الثقافية. و قد اعتبر العديد من أولئك الملاحظين أنّ هذا المزج الثقافي يعد سلبياً و مرضياً حاله حال المزج البيولوجي. و يمكن التأريخ لكلمة (المثاقفة) بأنّها ظهرت العام 1880 على يد جون ويسلي باول John wesley powell، إذ نجد أنّ الحرف البادئ (a) في كلمة (acculturation) مشتق من اللاتينية (ad) الدال على حركة تنم عن (الاقتراب من)[1]. و مع حلول ثلاثينات القرن العشرين، شهد هذا المفهوم تطوراً في التفكير المنهجي حول ظاهرة تلاقي الثقافات بفضل جهود علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين، و منه أصبح التداول بهذا المفهوم دقيقاً و مضبوطاً.

و قد قام مجلس البحث في العلوم الاجتماعية العام 1936 في الولايات المتحدة الأمريكية بتكليف لجنة للقيام بأبحاث ترتبط بوقائع المثاقفة. و قد أصدرت هذه اللجنة (مذكرة لدراسة المثاقفة) التي تمثل كل ما تم جمعه من مادة علمية في هذا الشأن. و قد عرّفت ذات المذكرة المثاقفة على أنّها "مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر و مباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغيرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات"[2]. و قد ميّز علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين بين مفهومي (المثاقفة) و (التغير الثقافي) الذي تداوله نظرائهم البريطانيون، ذلك لأنّ (المثاقفة) ليست سوى أحد أشكال التغير الثقافي الذي يستجد لأسباب داخلية. و ينبغي علينا أن نميّز بين مفهوم (المثاقفة) و مفهوم (التماثل الثقافي) الذي يُنظر إليه على أنّه آخر مرحلة من مراحل الفعل التثاقفي، أين يتم تغييب ثقافة جماعة ما تغييباً نهائياً و استظهار ثقافة الجماعة المهيمنة استظهاراً كلياً.

و قد أسهمت مذكرة مجلس البحث في العلوم الاجتماعية اسهاماً كبيراً في تأصيل مجال البحث حول المثاقفة و تحكيمه بأعمال نظرية كاملة، فنجد مثلاً تصنيفها لمختلف أنواع الاحتكاكات الثقافية و الأسباب المؤدية إليها التي تكمن في:

-تبعاً لوقوع الاحتكاكات بين المجموعات كلها، أو بين سكان بأكملهم و مجموعات خاصة من سكان آخرين (البعثات التبشيرية، المستعمرين، المهاجرين ...).

-تبعاً لكون الاحتكاكات ودية أو معادية.

-تبعاً لكون هذه الاحتكاكات تقع بين مجموعات تتساوى في الحجم، أو بين مجموعات مختلفة الحجم.

---

(1)ينظر دوبي كوش، م س، ص66.

(2)م ن، ص66.

-تبعاً لكون هذه الاحتكاكات تقع أولاً بين مجموعات ثقافية ذات مستوى واحد من التعقيد.

-تبعاً لكون هذه الاحتكاكات تنشأ عن الاستعمار أو الهجرة[1].

إنّ من بين اسهامات الأنثروبولوجيين الأمريكيين النظرية في حقل المثاقفة تحليلهم لمفهوم (الميل) أو (الاتجاه) (tendance) الذي وظّفه سابير من منطلق لساني لتفسير طرحه المتمثل في أنّ المثاقفة ليست مجرد عملية تحول بسيطة من ثقافة إلى أخرى، بل إنّ تغيّر النماذج الثقافية البدئية يتم عن طريق اختيار عناصر ثقافية مقترضة، و الذي يحدث تلقائياً تبعاً للميل أو الاتجاه العميق للثقافة المقترضة. فالمثاقفة بالتالي لا تغيّب الثقافة المقترضة و لا أصولها الداخلية. و قد اقترح ميلفيل هيرسكوفيتس Melville J. Herskovits مفهوماً جديداً ليوضح مختلف مستويات المثاقفة. يتمثل هذا المفهوم في (إعادة التأويل) (la réinterprétation) الذي عرّفه في كونه "العملية التي يتم من خلالها نسب الدلالات القديمة إلى عناصر جديدة، أو التي من خلالها تقوم القيم الجديدة بتغيير الدلالة الثقافية للأشكال القديمة"[2].

و يمكننا في هذا الصدد أن نسرد مثالاً عن ذلك: العلاقة التي تربط شعب (الفوكوركاما) في غينيا الجديدة بكرة القدم التي تعلمها من المبشرين. و لا يقبل شعب (الفوكوركاما) ايقاف اللعبة إلا إذا تعادل الفريقين، بحيث يمكن أن تمتد اللعبة إلى عدة أيام. و لا يمارس هذا الشعب كرة القدم حباً في التنافس، بل بغية تحويلها إلى طقس الغاية منه تعزيز التضامن بين أبنائه[3]. و يمكننا هنا أن نفهم هذا التلاعب الثقافي من خلال الثنائية القائمة على الدلالات الثقافية الجديدة و الدلالات الثقافية القديمة؛ بحيث يعتبر مفهوم اللعب بكرة القدم دلالة ثقافية جديدة عرفها هذا الشعب من خلال المبشرين، لكن مسألة التضامن كانت حتماً معروفة لديه فتمثل إذن فكرة قديمة. لكن هذه الفكرة القديمة أعيد تمثلها في فكرة جديدة بسبب ما تحتويه من مرح و دعابة، و التي من شأنها أن تزيد أواصر الأخوة ترابطاً و تلاحماً.

و قد ركز العديد من الباحثين على فكرة (البقاء الثقافي) (la survivance culturelle). و يكمن هذا المفهوم في قدرة العناصر الثقافية القديمة على المحافظة على نفسها كما هي و من دون تغيير في الثقافة المحتواة. و قد يحدث أن يؤدي هذا الوضع إلى نوع من (الطبعنة الثقافية) (naturalisation culturelle)، و ذلك بسعي العناصر الثقافية القديمة إلى إثبات استمراريتها على الرغم من التغيرات الظاهرية. و قد أسهمت أعمال روجيه باستيد Roger Bastide، الأستاذ و الباحث الفرنسي في الثقافة الأفروأمريكية، في التعريف بالأنثروبولوجيا الأمريكية في شقها المتعلق بالمثاقفة. كما كان له الفضل الكبير في تحقيق الاعتراف بميدان هذا البحث بوصفه حقلاً أساسياً من حقول الثقافة و الأنثروبولوجيا الثقافية. و ينطلق روجيه باستيد Bastide، في تشخيصه لظاهرة المثاقفة، من مسلمة أنّه يستحيل علينا أن نفصل بين

(1)ينظر دوني كوش، م س، ص67.

(2)م ن، ص68.

(3)ن، ص68.

الدراسات الثقافية و الوضع الاجتماعي الذي تمخضت عنه؛ كما أعاب على المدرسة الثقافوية الأمريكية تغييبها للعامل الاجتماعي المؤسس لكل حركة ثقافوية.

يمكننا أن نحيد عن المنهج القويم في الدراسات الثقافوية من خلال السعي وراء اختزال الوقائع الاجتماعية إلى وقائع ثقافية، بل إن ذلك في حد ذاته يعزز فكرة ما يمكن تسميته بالتوجه الاجتماعي في الدراسات الثقافوية. الواجب أن ندرس العلاقات الثقافية داخل مختلف أطر العلاقات الاجتماعية من منافسة و صراع و اندماج و غيرها التي قد تحضر أو تغيب في ظل التنظيم الاجتماعي أو في انعدامه[1].

يعترض روجيه باستيد Roger Bastide على فكرة أنّه ثمة مجموعتين تكون الأولى مجموعة (معطية) و الأخرى مجموعة (متلقية) في الظاهرة التثاقفية، بحيث لا يوجد في نظره ثقافة معطية أو ثقافة متلقية بشكل تابث و راسخ، لأنّ المثاقفة لا تكون أبداً أحادية الاتجاه و هو ما دفعه إلى اقتراح مفاهيم اصطلاحية أخرى بدلاً من كلمة (مثاقفة) التي لا تشير إلى ذلك التأثير المتبادل و المعكوس، فنجد مثلاً حديثه عن (التداخل الثقافي المتبادل) و عن (تقاطع الثقافات). و قد وضع باستيد ثلاثة معايير رئيسة لكل واقعة تثاقفية، يعتبر المعيار الأول معياراً عاماً، و الثاني ثقافي و الثالث مرتبط بالوضع الاجتماعي الذي ركّز عليه كثيراً. و ينبثق عن المعيار الأول ثلاث حالات نمطية، و السبب فيه يكمن في غياب (التعامل) (la manipulation) مع الواقع الثقافي و الاجتماعي.

أما المعيار الثاني فيتمثل في الجانب الثقافي، أي في مدى تجانس أو تنافر الثقافات موضوع المثاقفة. و يُقصد بالمعيار الثالث، ذو الطبيعة الاجتماعية، مدى انفتاح أو انزواء المجتمعات المتماسة فيما بينها.

عمد باستيد Bastide، بالإضافة إلى تصنيف الظواهر التثاقفية، إلى تفسيرها من خلال إبراز أهم العوامل التي من شأنها أن تدخل في عملية المثاقفة دون اغفال العوامل غير الثقافية. و يمكن أن نذكر في هذا الصدد أهم المتغيرات التالية:

1. **العامل السكاني**: يكمن في البحث عن المجموعة الغالبة عدداً و المجموعة الأقل عدداً. بيدأنّه ينبغي علينا هنا أن نفرق بين الأغلبية التعدادية و الأغلبية السياسية؛ ففي وجود الاستعمار مثلاً، نرى أنّ الأغلبية التعدادية لا تغدو أن تكون في الحقيقة سوى أقلية سياسية. و ثمة أسس أخرى تدخل في تشكل العامل السكاني من قبيل الجنس و الهرم العمري، مثل ما إذا كان السكان يتشكلون من غالبية شابة أو عازبة أو غيرها.

2. **العامل البيئي**: و يتمثل في البقعة الجغرافية التي حصل فيها التماس الثقافي، هل حصل في قلب المدينة أم في الضواحي؟ أو هل حصل في الريف أم في المدينة؟

3. **العامل العرقي**: و يتمثل في الأوجه التي تضبط العلاقات الاجتماعية بين الفئات العمرية المتنوعة، أي حول مختلف

(1)ينظر دوني كوش، م س، ص71.

العلاقات التي تنشأ عن التراتبية الثقافية كالهيمنة أو الخضوع؛ ثم النمط الذي يضبطها: هل هي أبوية في إطار أسري؟ أم تثاقفية في إطار بيأسري أو اجتماعي على نطاق واسع؟[1].

و لم يكتف باستيد Bastide بهذا التفسير فحسب، بل زاد عليه مفهوم (فكرة العلتين) (les deux causes) التي تربط بينهما علائقية الأخد و العطاء أي علاقة المثاقفة. و تتمثل هاتين العلتين في العلة الداخلية التي يقصد بها الطريقة الخاصة لعمل ثقافة ما، أي منطقها الخاص بها. و يتسنى لها، وفقاً لهذا المنطق، إما أن تشجع على المثاقفة و الميل إليها، أو أن تقف حجر عثرة أمامها؛ ثم العلة الخارجية التي تتصل بالتغير الخارجي و لا يستقيم معها الأمر إلا بحضور العلة الداخلية.

و ما يسترعي الانتباه هنا هو أنّ الأبحاث التي قام بها العلماء و الدارسون لظاهرة المثاقفة قد بدّلت بشكل عميق نظرتهم إلى الثقافة و مفاهيمهم حولها، بحيث أصبحت المثاقفة المنطلق لفهم الثقافة و ليس العكس كما كان متداولاً به من قبل. و مرد ذلك هو أنّه لا وجود لثقافة تشابه نفسها ببقائها في الحالة الخام من دون أن تتعرض لعوامل خارجية تؤثر فيها فتقلب كيانها لأنّه ما من ثقافة في وضع التماس الثقافي إلاّ و تتعرض لتفكيك بنيتها الأصلية ثم إعادة تركيبها من جديد، و هي بالتالي عملية ذات بعد ديناميكي لا يكاد يستقر على شكل معين. و هو نفس ما يميز تشكل مفهوم الثقافة الذي يتنوع بتنوع العوامل المؤسسة له.

و قد أبرز باستيد Bastide أنّ دراسة مرحلة (التفكيك الثقافي) (la déconstruction culturelle) تعد أيضاً مرحلة مهمة لاحتوائها على العديد من المسلمات العلمية الغنية بالعبر كحال مرحلة إعادة البناء، و ذلك لأنّها تكشف عن مرحلة (نزع الثقافة) (la déculturation) التي لا تعتبر فقط ظاهرة سلبية تؤدي إلى تفكيك البنى التحتية لأي ثقافة ما.

و على الرغم من أن (التفكيك الثقافي) (أو الهدم الثقافي) ذو أهمية كبيرة قدره في ذلك قدر أهمية البناء الثقافي نفسه، إلاّ أنّه لا يشكل سوى المرحلة الأولى من مراحل التكوين الثقافي. يمكننا في هذا الصدد أن نشهد تبدلاً ثقافياً حقيقياً بمعنى أنّ الانقطاع (rupture) يتغلب على الاستمرارية (continuité). يتحدث باستيد في هذه الحالة عن (مثاقفة شكلية) لأنّها تصيب أشكال الحياة النفسية و السيكولوجية، أي بنى اللاوعي التي تتأثر بالثقافة. في المقابل، ثمة حالة (المثاقفة المادية) التي لا تصيب سوى مضامين الوعي النفسي الذي يشكل مادتها الأولى مثل القيم و التصورات، كما يندرج في إطار الوقائع المدركة مثل نشر ميزة ثقافية معينة، أو إحداث تبدلات في أخرى كتغير طقس من الطقوس أو إشاعة أسطورة أو خرافة ما.

(1)ينظر دوني كوش، م س، ص74.

لقد كانت الترجمة عبر تاريخ البشرية جمعاء، باختلاف أجناسها و أديانها و ثقافاتها، ضرورة حضارية لتحقيق اللحمة بين الأمم و الشعوب، و تقوية أواصر التبادلات العلمية و الأدبية و الفنية و التراثية بينها من خلال السعي لمعرفة الآخر، و الاطلاع على مكنون ذاته و خباياها بشتى توجهاتها من تاريخية و ثقافية و أيديولوجية و غيرها. و لعل ما يزكي هذا الطرح هو ما قدمته الترجمة للعديد من الثقافات في أن وهبت لها وجهاً جديداً استطاعت من خلاله النهوض في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية، و من ثم الالتحاق بالركب الحضاري المسابق للزمن، فتبؤت بذلك المكانة المرموقة و الدور الحضاري البارز. و من هنا كانت الترجمة، بكل أسئلتها المتشعبة، فعلاً معرفياً هادفاً و نشاطاً علمياً دقيقاً يدفع بالتواصل الثقافي و الحضاري بين الشعوب نحو الأمام ذلك لأنّها "كانت و لا تزال جزءا لا يتجزأ من العملية التواصلية بين الثقافات الحية، فهي تعكس إلى حد بعيد، النشاط العلمي و الأدبي، و تكشف عن ارهاصات التطور الفكري و مدى قدرة الثقافة على استيعاب الراهن و رفع تحديات المستقبل"[1]، موظفة في ذلك الزخم في النظريات الترجمية المختلفة، و تعدد رؤى المنظرين و المشتغلين في حقلها و تنوع توجهاتهم. كما تمنح لنا الترجمة أيضاً فرصة أن نعمّق المعرفة بذواتنا، سواء بلغتنا أو بثقافتنا أو بنمط حياتنا الفكرية و المعيشية في عصر تطورت فيه وسائل الاتصال و التواصل الجماهيرية، مما يتطلب بالضرورة حداً أدنى من المعرفة بلغة (الآخر) و ثقافته و خصوصياته المجتمعية العامة. و يؤكد ذلك الحاجة الملحة للفعل الترجمي بوصفه "استراتيجية لتوليد الفوارق و اقحام الآخر في الذات، إنّها ما يفتح الثقافة، ما يفتح اللغة على الخارج، ما يفتح النصوص على آفاق لم تكن لتتوقعها و لا تتوخاها"[2]. و لا يعني ذلك مطلقاً أنّ الترجمة نشاط تعم فيه الفوضى و تسيطر عليه العشوائية، بل على العكس تماماً ثمة (إواليات)[*] أساسية تخلصها من ذلك و تضعها في سياق استراتيجية ثقافية مضبوطة و محكمة إلى أبعد الحدود.

(**1**)الطيب بوتبقالت، ضمن أسئلة الترجمة، ص80-81. (عبد الرحيم حزل، أسئلة الترجمة، سلسلة شراع، العدد 55، ماي 1999).

(**2**)عبد السلام بنعبد العالي، الترجمة و المثاقفة، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص08.

(*)تتمثل هذه الإواليات في:

"**-الإواليات الذاتية**: و تتضح من خلال رغبة (الذات) في معرفة (الآخر) و تعميق علاقته به، مع إشراك الفرقاء الثقافيين في هذه الرغبة و الفضول المعرفيين. و قد تحكمت هذه الإوالية في مترجمين جامعيين و باحثين أكاديميين. و تُعد هذه الإوالية قناة أساسية لتعميق الانفتاح على فكر (الآخر)، مما يعكس رحابة فكر (الأنا) المشدودة إلى التخلص من التقوقع لكن دونما السقوط في التغريب.

-الإواليات الثقافية: إنّ الترجمة هنا تتجاوز ما هو ذاتي شخصي إلى ما هو مجتمعي، فترتقي إلى مستوى الإجابة عن الأسئلة المطروحة على المشهد الثقافي و الحضاري و المعرفي لمجتمع ما، حيث الحاجة إلى (ثقافة) الآخر؛ خاصة إذا كانت ثقافة (الأنا) تعاني من مأزق تاريخي، مما يطرح اعتماد فعل الترجمة للمواكبة الثقافية قصد التحديث و التغيير. و هذه الإواليات الثقافية/الحضارية تبدو أهميتها كبيرة، لكنها مشروطة بالتكتل الجماعي في (بيت الحكمة) كي تصبح مشروع بناء، لهذا فالترجمة لكي تحقق فعاليتها ينبغي أن تتحول إلى مشروع مجتمعي يدخل ضمن الأولويات الإستراتيجية لحاجاته. و بالتالي ينبغي أن تنتظم الترجمة في مؤسسات علمية مختصة تبحث في إواليات الترجمة و أهدافها و ملاءمتها لحاجيات المجتمع، و ألا تظل مجرد مجهودات فردية منعزلة لا تربط بينها أية رؤية حضارية نسقية".

(محمد بوعزة، استراتيجية الترجمة في (جمالية التلقي) لرشيد بنحدو، العلم الثقافي، السنة 35، السبت 6 نوفمبر، الرباط، 2004، ص04).

إنّ الترجمة فعل إنساني بالدرجة الأولى تعرف على أنّها (قيمة مضافة) (an added value) إلى رصيد كل ثقافة مستقبلة. و قد أثبتث هذه الظاهرة الإنسانية و لازالت أنّ الإنسان السوي لا بد من أن ينفتح على الآخرين عبر جسور التواصل ليتأثر و يؤثر، و يأخد و يعطي. و يشكل هذا التأثير و التأثر، الأخد و العطاء مفهوم المثاقفة الفاعلة التي تحدد المراكز و الأدوار بين مختلف الثقافات بحسب شيوعها، و مدى بلوغ الانتاج العلمي و الأدبي عندها. و لا يمكن أن تحوز أمة من الأمم على هذا الدور الريادي، المتمثل في (المشعل الحضاري)، إلى الأبد مهما بلغ صيتها اللغوي و الثقافي، و سقف انتاجها العلمي و الأدبي، إذ ثمة نظرية تقول أنّ "للحضارة أطوار و مراحل و إنّ لكل طور و مرحلة شعباً من الشعوب يحمل مشعل الحضارة (...) إذ ليس باستطاعة أي شعب أن يحمل هذا المشعل إلى الأبد ... بل هو يأخده من شعب سابق و يسلمه إلى شعب لاحق (...) مستفيداً من مجمل الانجازات التي توصلت إليها الشعوب الأخرى قبله"[1]. و لا يمكن لأي أمة من الأمم، تسعى لأن تكون طرفاً فاعلاً في هذا الحراك الثقافي و الحضاري، أن تنزوي على نفسها و تتقوقع بداخلها ظناً منها أنّه السبيل إلى الاستمرار، ذلك أنّ هذا الانزواء سيقود إلى الموت المحتم، فكان لزاماً عليها إذن أن تمد جسور الحوار و التبادل مع الأمم الأخرى حتى يتم التلاقح و الإخصاب لأنّه قدر محتوم و سنة كونية و قانون طبيعي و اجتماعي يؤطر حياة الشعوب كما لو أنّ الأمر يتصل بعلة دواؤها (طب الحضارات) الذي يؤكد أنّ الإنزواء و العزلة الحضارية لا بد أن يؤديا إلى الذبول و الاضمحلال الحضاري مثل الجسم الذي يتقوت على ذاته من دون أي مدد[2].

إنّ انخراط الترجمة في تفعيل هذا الحوار الثقافي و تثبيث ركائزه ليس وليد التاريخ المعاصر، بل هو فعل واكب تطور الأمم و الحضارات منذ ارهاصاته الأولى و إن كان يتخد مفاهيماً متعددة. و نجد من بين هذه المفاهيم مثلاً مفهوم (المقابسة) الذي نحته أبو حيان التوحيدي (414هـ)، و الذي يعتبر الأبلغ تعبيراً عن هذا التفاعل الثقافي.

يشهد العالم حراكاً كبيراً في شتى الميادين، و تكتلات شرقية و غربية في ظل العولمة الزاحفة. الشيء الذي نصّب المثاقفة فوق كل الاعتبارات و أكثر من أي وقت مضى كما نصّب الترجمة من قبل لمواكبة كل ما يستجد في عالم المعرفة عموماً. لتتحول الترجمة و المثاقفة معها، في ظل هذا الوضع، إلى "تعبير مكثف عن المجتمع في تحولاته الإنسانية الشاملة، على المستويات كافة"[3]. و بغية أن يكون ثمة اتزان بين الضفتين موضوع التثاقف، ينبغي على كليهما أن يخلصا النية إلى مسألة التثاقف نفسها بوصفها ظاهرة حضارية ذات شأو عظيم، و التي ستعود بالفائدة عليهما معاً.

---

(1)عبد الكريم ناصيف، الترجمة: أهميتها و دورها في تطوير الأجناس الأدبية، مجلة الوحدة، السنة6، العدد 61-62، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص57.

(2)ينظر محمد عمارة، العطاء الحضاري للإسلام، سلسلة اقرأ، العدد 626، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص129.

(3)ظاهر مسعود، م س، ص47.

إنّ كل ترجمة هي بالأساس فعل تثاقفي بالدرجة الأولى. و قد يكون هذا التثاقف إما بناءا في مضمونه و آثاره في أن يجلب معه ما يدعم الثراث القومي في فكره و فنه بل في ماهيته كلها، و إما هداماً يئد اللون الطبيعي القومي الأول بشتى سماته الأصيلة من شخصية و دينية و خلقية و عقائدية و أيديولوجية و غيرها، ما يجعل هذا الوسط البشري مجرد تابع لا أكثر. و قد عرّف ميشال دوكستر Michel de coster هذه المثاقفة بأنّها "مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير و التأثر و الاستيراد و الحوار و الرفض و التمثل و غير ذلك مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير و أسلوب معالجة القضايا و تحليل الاشكاليات، مما يعني أنّ التركيبة الثقافية و المفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية"[1].

لقد شهدت الإنسانية عبر تاريخها الحافل بالترجمة نماذج عديدة لهذه المثاقفة التي أسهمت في تقريب الرؤى و وجهات النظر بين الأمم و الشعوب، و إغناء تجاربها الحضارية، و توسيع آفاقها، و اشاعة الثراث البشري، و اتاحة الفرصة لجميع الأجناس للاطلاع عليه و المشاركة فيه. لم يكن أبداً متاحاً لمختلف القوميات أن تبرز ذواتها و تعبّر عما يعتمل بداخلها من دون هذا التلاقح الثقافي، فهذا التعدد اللغوي في الكثير من المجتمعات و التنوع الإثنوغرافي فيها يدين بشكل كبير إلى ارتحال (الأنا) نحو (الأنا الآخر) و العكس. و ما يضفي شرعية أكثر حيال ذلك هو تكاثف الجهود و مشاركة كل الأطراف في هذا (الارتحال) من ضفة إلى أخرى، "فحتى لو أمكن لأمة مستقلة منفردة أن تنتج و تبدع و تعطي، إلا أنّ الاحتكاك و التلاقح و التعاون و التبادل يضاعف كمية الانتاج، و يرفع نوعية الابداع، و يوسع ساحة العطاء"[2].

إنّ للترجمة أهمية بالغة في التعريف بالآخر، إذ يتم من خلالها اكتشاف طرائق عيش الناس في وسط اجتماعي معين بمختلف خصوصياته من أعراف و تقاليد و أفكار و آداب و سلوك و تاريخ، بل حتى من تضاريس و جغرافية. و تعتبر الترجمة الأدبية خير مثال على ذلك كله، إذ بالاضافة إلى أنّها تزودنا بالقوالب اللغوية المبدعة و الصيغ الجمالية المؤثرة، تصور لنا خصائص النفس البشرية التي تسبر أغوارها، و تعرض لنا نماذج ثقافية بدئية و كيفية تحولها في الثقافة الأخرى. فأعمال دوستويفسكي قد تعرفنا بالمجتمع الروسي، و أعمال شارلز ديكنز قد تعرفنا بالانجليز، و أعمال فيكتور هيغو و فلوبير و لوتريامو قد تعرفنا بالمجتمع الفرنسي، و أعمال نجيب محفوظ و طه حسين و مصطفى العقاد بالمجتمع المصري. و مثلها في ذلك أعمال محمد ديب و مولود فرعون و عبد الحميد بن هدوقة التي تعبر عن المجتمع الجزائري في صميمه،

---

(1) Michel De Coster, L'acculturation, diogène, N°73, Janvier-Mars, 1971, p28.

(**2**)أحمد لواساني، العلاقات التاريخية بين العرب و الإيرانيين، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية حول العلاقات العربية الإيرانية الاتجاهات الراهنة و آفاق المستقبل، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تموز-يوليو 1996، ص74.

و ما إلى ذلك من أمثلة.

و ما استطاعت الترجمة الأدبية أن تبرهن عليه أيضاً، مسألة مطابقتها للواقع و عدم ميلها نحو الخيال، و هو ما مكنها من أن تصبح خاصية بشرية تعرفها كل المجتمعات من دون استثناء، فبخيل موليير، و دون كيشوت سرفانتسن، و هاملت شكسبير أنماط ابداعية استطاعت الترجمة "أن تخلقها و تكرسها إلى أن أصبحت نماذج بشرية عامة يعرفها الناس في كل مكان"[1]. و قد ساهمت كتابات العديد من المفكرين و النقاد من أمثال بارت و دريدا و كرستيفا و لوكاتش في التأسيس للترجمة الأدبية، و ذلك من خلال وضع النظريات و المقاربات التي سار عليها مترجمو الأدب عامة، بحيث تمكنوا من جعل العديد من النصوص المترجمة قادرة على الاستجابة لمثل هذه النظريات و المقاربات في الثقافة المنقول إليها. و دفع ذلك بالكثيرين إلى اعتبار أنّ الترجمة نشاط أدبي صرف يتجسد من خلاله اللقاء العاطفي بتجاوبه الكلي بين المترجم و النص موضوع الترجمة[2].

و قد شهد تاريخ البشرية الحافل بالانجازات تعاقب العديد من الحضارات التي كان لها الفضل كله في التواصل و التلاقح بين الأمم و الشعوب على وجه هذه البسيطة، و ذلك من خلال انجازاتها العلمية و الفنية الفذة. نذكر من بينها الحضارة اليونانية، و الحضارة المصرية القديمة، و الحضارة الصينية، و حضارة ما بين النهرين و غيرها من الحضارات الإنسانية التي تغذت من بعضها البعض؛ فالمعارف و العلوم المختلفة التي انحدرت من مصر و بابل و كنعان و الهند هي التي هيأت لقيام الحضارة اليونانية التي قد يظن البعض أنّها ولدت من العدم، و أنّها كانت السبّاقة إلى بلورة المعرفة بشتى فروعها من دون أن تتأثر أو تؤثر. و ما يدحض هذه الفكرة التي ظلت سائدة لدى الكثيرين و لفترة لا يستهان بها من الزمن تلك الأبحاث و الدراسات التي قام بها العديد من العلماء و الدارسين، من أنثروبولوجيين و علماء آثار، و التي أثبتت أنّ الحضارة اليونانية ترجم عنها العديد من النصوص، إذ نجد أنّ مخطوطات نجع حمادي التي تم العثور عليها مصادفة في المنطقة المسماة (نجع حمادي) في صعيد مصر العام 1954، و التي يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الرابع الميلادي تحتوي على ترجمات إلى اللغة المصرية القبطية للعديد من الدراسات و النصوص، من بينها فصول من جمهورية أفلاطون، و نصوص زرادشتية، و نصوص يونانية فلسفية قديمة كانت مفقودة[3]. و قد وصف جورج سارتون George Sarton هذه المعجزة اليونانية الزائفة بقوله أنّ "لها أب و أم شرعيان، أما أبوها فهو تراث مصر القديمة،

(1)عبد الكريم ناصيف، م س، ص61.

(2)ينظر أحمد حماد، الترجمة الأدبية بين قيود النص و حرية الابداع، مجلة عالم الفكر، العدد4، المجلد 3، أبريل-يونيو، الكويت، 2002، ص24.

(3)ينظر محمد شوقي جلال، تقرير المسح الميداني لوضع الترجمة الراهن في الوطن العربي، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية حول الترجمة في الوطن العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، فبراير 2000، ص73.

و أما أمها فهي مهد بلاد ما بين النهرين و الشرق القديم مهد الحضارات، و المعلم الأول للبشرية في المجالين المدنية المادية و العلوم كلها، و في المجال الروحي و المعتقدات الدينية"[1].

بيدأنّ هنالك محطات بالغة الأهمية كان لها الدور البارز و الإسهام اللامحدود في تخصيب العقل البشري و تثقيفه، و في الربط بين الحضارات عبر جسور التفاعل و التثاقف، و توطين بناها و تثبيث أركانها بكل ما يستجد ليبعث فيها القوة و الحياة. و من أهم هذه المحطات فتوحات الاسكندر الأكبر و ما صحبها من رواج للثقافة اليونانية في بلاد الفرس، و انتقال كنوز الفرس الثقافية إلى بلاد اليونان من خلال تلك المكتبة الضخمة التي بعث بها الاسكندر إلى معلمه أرسطو، و هو ما نتج عنه ظهور الثقافة الهيلينية كنتيجة مباشرة لامتزاج الثقافتين اليونانية و الفارسية.

تعتبر المثاقفة بين الحضارتين العربية–الإسلامية و الفارسية أحسن مثالاً عن الزخم الترجمي الذي تمخض عنها. و مرد ذلك أصلاً إلى طبيعة الاتصال الذي حصل بين العرب و الفرس بعد الفتح الاسلامي، و الذي اتسم باللحمة الشديدة و بالحيوية و العمق كلها في كنف الاسلام. و تعتبر اللغة الفارسية "احدى لغات المجموعة الآرية أو الهندية–الأوروبية بينما العربية واحدة من اللغات السامية و من ثم فإنّ اختلاف اللغتين في الأصول اختلاف جوهري لا يجعل للصلات اللغوية بينهما مكاناً. و مع ذلك فإنّ الاسلام الذي ربط الشعوب الاسلامية برباط وثيق جعل بين هاتين اللغتين و هاذين الشعبين من صلات اللغة و الحضارة ما يندر أن يقوم مثله بين اللغات الأخرى"[2].

و قد ارتحلت العديد من الألفاظ العربية إلى الضفة الأخرى الفارسية، و خاصة تلك التي ارتبطت بالمسائل و المعتقدات الاسلامية مثل الصلاة و الزكاة و الحج و العقاب و الحلال و الحرام و غيرها. و حتى ترجمة القرآن الكريم كان لها دورها في إرساء هذه المفاهيم و تأصيلها لدى الفرس لغاية نشر الاسلام و إعلاء كلمة التوحيد عبر الأصقاع كلها. و لم يكن هذا الاهتمام بترجمة القرآن الكريم متأخراً أو وليد مصادفة، بل رافق نزول الوحي، حيث يروى عن الصحابي سلمان الفارسي ترجمته للبسملة و سورة الفاتحة لأبناء جلدته من الفرس الذين لا يعرفون العربية، و قراءتهم لها في صلواتهم إلى أن أتقنت ألسنتهم العربية و تفننت فيها. كما يروي الجاحظ ما كان من موسى بن يسار الأسواري، الذي كان قاص من قصاص البصرة و واعظها، فيقول أنّه كان من أعاجيب الدنيا بحيث كانت فصاحته بالفارسية على قدر فصاحته بالعربية، و كان يجلس في مجلسه فتقعد العرب عن يمينه و الفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله و يفسرها للعرب، ثم يحول نظره إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين[3]. كما شهدت الثقافة الفارسية شيوع العديد من

(1)جورج سارتون، تاريخ العلم، تر.محمد خلف الله و آخرون، ج1، القاهرة، 1957، ص21.

(2)طه ندا، الأدب المقارن، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص35 .

(3)ينظر أبو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان و التبيين، ط1، دار الكتب العلمية، 1999، ص222.

المفاهيم العربية التي تتصل بالتنظيم الاداري و السياسي للدولة الجديدة كالإمام، و الحاكم، و الحملة، و الحرب و غيرها. و قد جاء التداول بمختلف هذه الألفاظ و بمفاهيمها لدى الفرس على مرحلتين: مرحلة أولى اتسمت بنوع من المحدودية، إذ لم يتجاوز هذا التداول نسبة 5% إلى 10%، لكنه سرعان ما عرف قفزة نوعية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ببلوغه نسبة 50%، ثم تخطيه نسبة 80% في القرن السادس و السابع و الثامن[1].

و لم يقتصر الأمر على الألفاظ و المفاهيم، بل تعداه ليشمل الكثير من الخصائص الإعرابية العربية في بناء الجمل و تشكيلها و ترصيصها، إذ يلاحظ هنا تأثر اللغة الفارسية بالمصادر العربية، و بالتنوين، و شيوع قواعد بناء الجملة العربية من حروف الجر و أسماء الإشارة و حروف النداء و التنبيه. و قد أخد الفرس أيضاً يركّبون أفعالهم مع مصادر اللغة العربية، و وظفوا المفعول المطلق للتأكيد وفق النحو العربي، كما قدموا و أخروا، و طابقوا الصفة بالموصوف، و أولوا عناية خاصة بالأسجاع[2]. و قد أولى الفرس أيضاً عناية خاصة بالشعر، بحيث جاءت أشعارهم تطابق الشعر العربي في الأوزان و القوافي مع ادخالهم لبعض التعديلات فيها.

و قد جاء ابداع أهل الأدب و العلم و الثقافة في كتاباتهم باللغتين العربية و الفارسية واضح و جلي، نذكر من بين هؤلاء ابن سينا و الغزالي و الرازي. و على الرغم من ظهور النزعة الفارسية في ضرورة إحياء اللغة الفارسية، إلاّ أنّ اللغة العربية تمكنت من الحفاظ على مكانتها بوصفها لغة الثقافة و العلوم إبان تلك الفترة. و قد كان للنزعة القومية بالغ الأثر في تحفيز الفرس على تأليف ملاحم (الشاهنامة) التي نظمت للتغني بآثار الآباء و الأجداد من أمجاد و بطولات، كما نُقلت إلى العربية أيضاً أمهات الكتب و روائع الأدب الفارسي رغبة منهم في مزاحمة اللغة العربية علمياً و ثقافياً و حضارياً، و أن يعرّفوا بأنفسهم كأمة لها دخرها من الآداب و الثقافة المبدعة[3].

يعتبر الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي أحد أهم الشعراء الفارسيين، إذ استطاع بشعوره الإنساني، الذي تجاوز المظهر العنصري و النظرة القومية الضيقة التي كانت سائدة عند الكثير من الشعراء الفرس آنذاك، أن يبسط سلطانه على العراق و فارس، و ما بين بغداد و البنغال[4]. و يبدو واضحاً أنّ حافظ الشيرازي تأثر باللغة العربية و بيئتها و آدابها، فقد درس الشعر الجاهلي و الأموي و العباسي، كما حفظ القرآن الكريم مع التجويد بقراءات متعددة. و قد ترجمت غزليات حافظ الشيرازي إلى اللغة الانجليزية شعراً و نثراً، و تبعتها بعد ذلك ترجمات إلى اللغة الألمانية. و ما يدل على مكانة الشيرازي

(1)ينظر طه ندا، م س، ص73.

(2)م ن، ص75-78.

(3)ينظر محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية و الصوفية، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976، ص174.

(4)ينظر بسمة أحمد صدقي الدجاني، دور الترجمة في حوار الحضارات، تجارب رائدة تركت أثراً بارزاً في المجتمع المتلقي، مجلة فكر و إبداع، الجزء 52، رابطة الأدب الحديث، 2009، ص154.

الرفيعة بين أعلام الأدب و الشعر هو قيام الشاعر الألماني غوته Goethe بإهدائه ديوانه (الغربي الشرقي) تعبيراً عن شدة اعجابه به. كما عبّر الفيلسوف نيتشه Nietzsche عن تأثره الكبير بالشيرازي واصفاً إياه بالشاعر الأكمل[1].

و قد كان الشعراء الفرس ينظمون القصيدة وفق طراز القصيدة العربية، مستخدمين في ذلك المصطلحات ذاتها. فكلمة (مثنوي) تعني أن نكتب الشعر كل بيتين اثنين بقافية واحدة، أما الرباعي فهي كتابته أربعة أبيات أربعة أبيات، و منه رباعيات الخيام. أما عن أنواع القصيدة، فنجد نقلهم لنفس الأنماط العربية: (الغزلية) مثلاً هي التي تنظم لذكر محاسن الحبيبة و تشبيبها و بث الأشواق إليها، أما (المشاعرة) فهي اجتماع عدد من الشعراء لدى الأمير أو السلطان و بثهم الشعر تنافسياً لمعرفة من هو أبلغهم قولاً في الشعر. و قد كان هنالك أيضاً الشعر الصوفي و الرثاء، و منه (المرثية) و هي القصيدة التي ينظمها الشاعر، خاصة من الوسط الشيعي، في ذكرى عاشوراء لكي يرثي فيها الحسن و الحسين و آل البيت الذين استشهدوا في كربلاء و التي تتكرر فيها الكلمات العربية بشكل نظامي.

و ما يسترعي الانتباه أيضاً هو أنّ الفرس نقلوا عن العرب صناعة المعاجم و تأليفها[2]، ما يعكس شدة تأثرهم و عميق تفاعلهم مع الحضارة العربية المعطاءة. و لنا أن نتصور مدى أهمية تلك المعاجم في الحفاظ على المادة العلمية الخصبة من الضياع، خاصة إن هي اتسمت بالصنعة الجيدة في التغليف و التجليد، و بالقيمة العلمية في التخريج و التبويب حال المعاجم العربية التي انتشرت صناعتها آنذاك لوجود دكاكين مخصصة لهذا لغرض، مع توفر هؤلاء الصنّاع على المهارات العالية، و معاجمهم على خاصتي الاتقان و الجودة.

شهد الشرق ميلاد نمط أدبي جديد يعنى بتصوير حياة الأفراد في مجتمعات تأن تحت الحكم المطلق و الاستبداد العنيف، و كانت الأمثال و الرموز و الكنايات الوسيلة الوحيدة للاحتجاج المكظوم، و الذي أراده أصحابه أن يصل إلى آذان الطغاة فيكون بمثابة نصح و وعظ. و كانت الهند مهد ظهور هذا النمط من الأدب، ثم انتقل إلى الصين و فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. و أقدم ما عرف من هذه الأمثال أمثال لقمان الحكيم و ايزوب الرومي و بيدبا الهندي. و يعتبر ابن المقفع مترجم (كليلة و دمنة) أشهر من كتب فيها في اللغة العربية، إذ حمل هذا الكتاب روائعاً قصصية تهدف إلى تقويم الأخلاق بالعظة و تهذيب العقول بالحكمة. و لم يكتب ابن المقفع هذا الكتاب بنفسه، بل ترجمه إلى العربية عن الفهلوية. و يعتبر بيدبا الهندي أول من خط هذا الكتاب باللغة السنسكريتية لملك يدعى (دبشليم) منذ عشرين قرناً، و كان أبطاله من الحيوانات و الطيور، و تم تبويبه إلى إثني عشر باباً[3]. و يعتبر هذا الكتاب أحد الكتب

(1)ينظر بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص155.

(2)ينظر بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص74.

(3)ينظر أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة، دت، ص396.

القليلة التي نالت رواجاً كبيراً و ترجمت إلى لغات شتى. و قد أضاف ابن المقفع بعض القصص من تأليفه، كما عدّل في بعضها بتوظيفه لأسلوب مشوق أكسبه روحاً جديدة[1].

و قد أشار المؤرخون إلى كتاب تاريخ كبير كتب بالبهلوية موطنه ايران، كان عنوانه (خداي خامه) أو (خداي ناماه). و قد كان هذا الكتاب بمثابة سيرة جامعة لتواريخ ملوك ايران، ألف نهاية العصر الساساني و عُرف في الأدب البهلوي باسم (خوتاي نامك). و قد عرفت ترجماته باسم (تاريخ ملوك الفرس)، (سير ملوك الفرس)، (سير الملوك)، و هي كلها تسميات تعكس موضوع الكتاب و مضمونه. و قد أولى العديد من المثقفين، عرباً كانوا أم فرساً، عناية كبيرة بهذا الكتاب لاحتوائه على ما يهذب الذوق و يكسب النفس ثقافة عالية، حيث قال فيه الجاحظ أنّه "من احتاج إلى العقل و الأدب و العلم بالمراتب و العبر و المثلات و الألفاظ الكريمة و المعاني الشريفة فلينظر إلى سير الملوك"[2].
و قدم الفرس أيضاً للحضارة العربية على وجه الخصوص كتاباً أسطورياً آخر هو كتاب (هزار أفسانه) أو (ألف ليلة و ليلة) العربي. و نسج الفرس قصة هذا الكتاب حول حكاية ملك و وزيره و ابنته شهرزاد و وصيفتها دنيزاد. و قد ترجم العرب هذا الكتاب من الفهلوية أواخر القرن الثالث للهجرة. لكن الملاحظ أنّهم، و نظراً لإعجابهم بهذا الكتاب، أضافوا إليه العديد من أساطيرهم و أخبارهم في الجاهلية و الإسلام. و ظل الأمر كذلك حتى القرن العاشر للهجرة، بحيث اختفى كل ما كتب من قبل الفرس و لم يبق سوى أقاصيص العرب و حكاياهم. و يعتبر هذا الكتاب لوحة تنكشف من خلالها عادات العرب و أخلاقهم و أنظمتهم ببلاد العراق و مصر و الشام.

و قد كان للفكر اليوناني و فلسفته تأثيراً آخر لا يستهان به على الحضارة العربية، بحيث كانا سبّاقين في ذلك منه إلى الترجمة. و السبب هو أنّ الكثير من السريان و النصارى، ممن كانوا على دراية بعلم الآثار و بالتفكير اليوناني، عاشوا بين المسلمين في ذلك الوقت، فنقلوا، مشافهة، الكثير من المسائل المتصلة بالفكر اليوناني. و قد كان لهؤلاء النصارى و السريان الكثير من الجواري الافرنجيات ممن لهن ثقافة واسعة وظفوها في خدمة الخلفاء الأثرياء، و في تربية الناشئة عندهم. فبالتالي، أدى الاختلاط البسيط للمجتمع العربي بأجناس أخرى إلى نشوء حوار ثقافي بامتياز بعيداً عن التراتبية الثقافية الصارمة، و القيود الكابحة التي تفرضها أمام أي فعل تثاقفي.

يعتبر هوميروس Homère بمثابة معلم اليونانيين الأول، إذ استطاع بشعره أن يجمع شملهم، و يتغنى بأمجاد أسلافهم، فذب فيهم ذلك نزعة النهوض لأجل بناء أمة قوية. و قد عاش هوميروس في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد،

(1)ينظر عبد الوهاب عزام، ابن المقفع حكايات كليلة و دمنة، قراءة جديدة في كتاب قديم، مجلة وجهات نظر، العدد51، القاهرة، أبريل 2003، ص36.
(2)عبد المجيد بدوي أمين، جولة في شاهنامة الفردوسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976، ص64.

بعد انتهاء حرب طروادة و ازدهار الشعر الغنائي اليوناني.

ألف هوميروس أشعاراً كثيرة يصف فيها حوادث هذه الحرب باعتماده على ما سمع من الروايات، و على ما شاهد من الآثار، فجاءت هذه الأشعار بأسلوب جميل و قالب قصصي يجمع بين الحقيقة و الخيال.

و لم يقتصر الاهتمام بهوميروس على أفراد الشعب اليوناني و أدبائه و علمائه، بل تعداه ليشمل الملوك و الأمراء. فقد كان الاسكندر مثلاً مولعاً بإلياذته حتى أنّها أصبحت أحب الكتب إليه. كما اهتم بطليموس الثاني بجمع أشعاره، و أمر بطليموس الرابع بعبادته و تأليهه[1] .

ثم كان تأثير هوميروس على الشعراء الرومانيين واضح و جلي، إذ مع القرن الأول قبل الميلاد كانت مواضيع هوميروس الشعرية الملحمية حاضرة في الأدب اللاتيني و في جميع المؤلفات. و ظلت هذه المكانة محفوظة بل زادت و ترسخت حتى في عصور الظلمة التي شهدتها أوروبا بعد زوال الإمبراطورية الرومانية و ظهور الديانة المسيحية. و نجد أنّ بعض النقاد الانجليز من أمثال جون دريدن John Dryden و ألكسندر بوب Alexander Pope سخروا جل أعمالهم لنقد أشعار هوميروس و ترجمتها، و الشيء نفسه حدث في فرنسا و ألمانيا[2] .

انتهج الكتاب العرب النهج نفسه في احتفائهم بالإلياذة، فقد كان صدور ترجمة سليمان البستاني لها بمثابة حدث عظيم في الثقافة العربية. ذلك لأنّها كانت المرة الأولى التي تقدم فيها الإلياذة كاملة، نظماً، باللغة العربية للجمهور العربي التوّاق إلى ولوج عوالم اليونان الخرافية و الأسطورية، و ما صحبها من جهد جهيد في تطويع اللغة العربية خدمة لهذه المعتقدات الأسطورية. و قد قدم البستاني أيضاً دراسة تحليلية و وصفية عن هوميروس و أشعاره، مقارناً بين الشعر العربي و الشعر اليوناني بعيداً عن النزعة القومية الضيقة[3]، و خدمة للمصلحة الحضارية و التثاقفية في المقام الأول التي لن تتأتى إلا من خلال الانفتاح على الآخر.

يعتبر الجاحظ أبرز أدباء العصر العباسي، حيث استطاع بفضل ذوقه الأدبي المتميّز أن يصور ثقافته و ثقافات عصره في كتاباته الكثيرة و المتنوعة. و قد كان الجاحظ واسع الاطلاع على ما ترجم إلى العربية من الثقافات الأخرى مثل الفارسية و الهندية و اليونانية. و قد تأثر الجاحظ بالتراث اليوناني في العلم و الفلسفة، بحيث اطلع على كتاب (الحيوان) لأرسطو فدفعه ذلك إلى كتابة مؤلفه (كتاب الحيوان) الذي يعتبر أول كتاب من هذا النوع في اللغة العربية. و قد اطلع الجاحظ أيضاً على مؤلفات العديد من العلماء مثل أفلاطون و أبقراط و بطليموس و جالينوس الذين ورد ذكرهم في

(1)ينظر بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص144.

(2)م ن، ص144.

(3)ينظر جابر عصفور، مؤتمر الترجمة و تفاعل الثقافات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص42.

مواضع كثيرة من كتاب (الحيوان)[1] .

و يمكن أن نقسم حركة الترجمة في العصر العباسي إلى مراحل ثلاثة[2]: تبدأ المرحلة الأولى من خلافة المنصور إلى وفاة الرشيد (132-193هـ). و نجد من بين المترجمين في هذه المرحلة يحي ابن بطريق مترجم (المجسطي)، و هو من بين أهم الكتب الفلكية التي وقف المنصور على ترجمتها، و ابن جبرائيل الطبيب و عبد الله ابن المقفع. أما المرحلة الثانية، فيؤرخ لها من حكم المأمون سنة 198 إلى العام 300هـ. و من بين مترجميها يوحنا ابن البطريق، و الحاج بن البطريق و قسطا ابن لوقا البعلبكي و عبد المسيح ابن ناعمة الحمصي و حنين ابن اسحاق و ابنه اسحاق ابن حنين و ثابث ابن قره الصافي و حبش الأعشم. و قد شهدت هذه المرحلة ترجمة جل كتب أبوقراط و جالينوس و أرسطو و بعض كتب أفلاطون و الكثير من تفاسيرها[3].

أما المرحلة الثالثة، فتبدأ من العام 300هـ إلى منتصف القرن الرابع. من مترجميها سنان ابن ثابث ابن قره، و يحي بن عدي و أبو علي ابن زرعة. و قد صب هؤلاء المترجمون كل اهتمامهم على الكتب المنطقية لأرسطو، و على كتب التفاسير للاسكندر و الأفروديسي و يحي النحوي[4].

و قد كان لأرسطو و كتبه حظاً وافراً من عناية العرب و مترجميهم، إذ قسموا هذه الكتب بحسب ما تناولته من مواضيع، فنجد مثلاً كتباً خاصة بالمنطق و بالطبيعيات و بعلم النفس و بعلم الأصوات، و كتباً أخرى تعنى بالأخلاق و السياسة. كما كان بين أيدي العرب أيضاً فهرست يجمع كل مؤلفات أرسطو ألفه بطليموس إلى أن ضاع الأصل اليوناني و لم تبق إلا الترجمة العربية له.

إنّ تأسيس (بيت الحكمة) سنة 832م من قبل الخليفة العباسي المأمون لهو بحق فعل تثاقفي من الطراز العالي، كيف لا و هو من قرّب بين المجتمعات الإنسانية على اختلاف الأعراق و الأجناس و المذاهب، لتجسد معاً صرحاً حضارياً و ثقافياً هو أقرب إلى العالمية. و قد كان وضع اللبنة الأولى لهذا البيت بمثابة "إعلان عن مشروع فكري و حضاري خلق جسوراً قوية للتواصل و التفاعل الثقافي عبر الترجمة؛ حيث تم الانفتاح على الثقافة اليونانية و الفارسية و السريانية إلخ. و تنوع الانشغال بثقافة الآخرين و الاقتباس منها؛ سواء كانت ثقافة متعلقة بالعلوم المعرفية و الحقة (فلك، رياضيات، طب، فيزياء ...)، أو بالعلوم الإنسانية (آداب، دين، فلسفة، تاريخ،

(1)ينظر بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص149.

(2)ينظر محمد عزيز نظمي سالم، الثقافة و العقيدة الاسلامية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و التوزيع، الاسكندرية، 1986، ص29.

(3)م ن، ص30.

(4)م ن.

فن ...)"[1]. و يعكس ذلك جلياً النظرة العربية التي تقوم على الانفتاح على الآخر و النهل من علومه من دون أي مركب نقص. و قد أدرك العرب أيضاً امكانات اللغة العربية الكبيرة التي ستتيح لها حتماً نقل مختلف العلوم و المعارف و حتى الثقافات دون أي عناء في ظل وجود ما يتعذر نقله من لغة إلى أخرى الذي سيتطلب تطويعاً و تحويلاً ثقافياً حتى يتم استصاغته من قبل الجمهور المستهدف.

و قد عاشت الترجمة قبل ذلك أيضاً في زمن الخليفة أبو جعفر المنصور فترة من النضج الفكري و الانتعاش المعطاء. و كان الخليفة أبو جعفر المنصور "[...] أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها كتاب "كليلة و دمنة"، و كتاب "السندهند"، و تُرجمت له كتب أرسطاطاليس، من المنطقيات و غيرها، و ترجم له كتاب "المجسطي" لبطليموس، و كتاب "الأرتماطيقي"، و كتاب "إقليدس" و سائر الكتب القديمة [...]"[2] . و لم يكن ذلك بالفعل المنعزل، بل إنّ جميع الخلفاء الذين جاؤوا بعده خصوا الترجمة بالعناية الكريمة في كنف مؤسسات رسمية ممونة من خزينة الدولة مباشرة. و قد أغدق المأمون أموالاً طائلة على المترجمين الذين نقلوا علوم الأمم الأخرى. و لنا أن نتخيل ما قد خلفه ذلك عند أولئك المترجمين من آثار تحفيزية تدفعهم إلى بذل المزيد من الجهد. و قد ضم (بيت الحكمة) "العديد من القاعات و الحجرات الواسعة موزعة في أقسام الدار تضم مجموعة من خزائن الكتب، في كل خزانة مجموعة من الأسفار العلمية التي تنسب في الغالب إلى مؤسسها كخزانة الرشيد و خزانة المأمون"[3].

أما عن هؤلاء الذين أشرفوا على حركة الترجمة في بيت الحكمة فكانوا علماء من مختلف الأديان و الثقافات: من المجوس و السريان و اليهود و النصارى و العرب و المسلمين. و ما يسترعي الانتباه هنا، هو أنّ أولئك المترجمين على اختلاف إثنوغرافياتهم كانوا يحظون بمنزلة مرموقة عند الخلفاء و في مجتمعاتهم أيضاً، يأخدون بمشورتهم و آرائهم، مانحين إياهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية و طقوسهم الروحية. و قد كان العمل في (بيت الحكمة) منظم و مضبوط إلى أبعد الحدود، يخضع في مجمله لتفاصيل دقيقة لا تدع النشاط العلمي به يفتر أبداً، فثمة "تراجمة يقومون بترجمة الكتب المختلفة إلى العربية، و نساخون يشتغلون بنسخ الكتب التي تترجم و التي تؤلف للخزانة، و لها مجلدون يجلدون الكتب و يعنون بزخرفتها و تزويقها، و كان يدير بيت الحكمة مديريون و أمناء على الترجمة و معهم كتاب حذاق، كما كان يشتغل فيه علماء و نساخون و خزان و مجلدون من مختلف الأديان و الأجناس و الثقافات، و معهم الوراقون فصار بيت الحكمة

(**1**)عبد الرحمن التمارة، سؤال الترجمة: من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة، الموقع الإلكتروني (www.aljabriabed.net/n86_04tamarai.htm) (تمت آخر زيارة للموقع بتاريخ 2010/12/21).

(**2**)أبي الحسن علي المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر، مر. كمال حسن مرعي، ط1، ج 4، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، 2005، ص250.

(**3**)ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ط3، مجلد1، دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1975، ص473.

دوائر ممنوعة لكل منها علماؤها و تراجمتها و مشرفون يتولون أمورها المختلفة"[1].

كان (بيت الحكمة) في الحقيقة مؤسسة ترجمية سبقت زمانها بكثير، إذ لا يختلف اثنان في القول بأنّ ما كان معمول به في (بيت الحكمة) آنذاك يوافق ما هو معمول به اليوم في الكثير من دور الترجمة العالمية التي نجد فيها المترجم و المترجم المساعد و المراجع و المحقق. و اقترن الربح و المذخر العلمي و المعرفي لبيت الحكمة بربح اقتصادي عاد بالفائدة على الكثير من التجار و المهنين، بحيث انتشرت مصانع الورق بمقربة منه، و وُجد شارع طويل لدكاكين الوراقين بمحاذاته، و هو ما يقابل دور النشر اليوم؛ كل ذلك أغذق الناس في كثير النعم، فتقاسموا الثمار فيما بينهم بفضل الترجمة و بفعل المثاقفة الحضارية المربحة.

و يُعتبر ما قام به ابن رشد من شروحات لمؤلفات أرسطو إضافة قيمة في التحصيل العلمي و المعرفي الذي سعى العرب إلى الظفر به خدمة لحضارتهم. و قد أخد ابن رشد على عاتقه تلخيص كتب أرسطوطاليس بعد أن استعصى على أمير المؤمنين آنذاك السلطان أبو يعقوب يوسف أمير مراكش فهم العديد من مسائله[*]. و قد كتب ابن رشد ثلاثة شروحات لمؤلفات أرسطو، و اعتمدت كتبه هاته كمراجع أساسية في جامعة باريس و غيرها من الجامعات الأوروبية حتى العمل بالعلوم التجريبية الحديثة. و تتمثل هذه الكتب في كتاب (الجامع) الذي يمثل خلاصة الموضوع، و استخدم في تلقين الطلاب المبتدئين، ثم كتاب (التلخيص) الذي اعتمد في تلقين الطلاب ممن يمتلكون نوعاً من الإلمام بالموضوع، فكتاب (التفسير) الذي اعتبر المرجع الأساس في تدريس طلاب الدراسات العليا.

و قد التفت العرب أيضاً صوب الحضارة الهندية التي تعتبر احدى مهود الحضارة البشرية، و نبعاً غزيراً من ينابيعها العلمية و المعرفية، إذ شهدت أرضها ميلاد حضارة هي من أعرق الحضارات الإنسانية و أغناها، كما عُرف شعبها بالرقي في مجالات كثيرة من الآداب و العلوم التي سعى العرب إلى نقلها لما تحتويه من عجائب و غرائب و من قيمة علمية أكيدة.

إنّ من بين أهم العلوم التي نقلها العرب عن الهنود نجد الرياضيات التي حذق الهنود فيها كثيراً، فأصبحت تسمى عند العرب باسم (السند هند) و هي ترجمة لـ (السدهانات) التي تعتبر "أكبر موسوعة هندية في الحساب و الفلك و التنجيم، من وضع براهما جويت، و تتألف من جزأين أحدهما عن الانزياح أي سير الكواكب التي نستخرج منها جداول التقاويم.

---

(1)نافع توفيق العبود، من تاريخ الترجمة عند العرب، مجلة المؤرخ العربي، العدد10، 1979، ص163-164.

(*)"حكى أبو الوليد ابن رشد: قال له أبو بكر ابن الطفيل يوماً: سمعت اليوم أمير المؤمنين السلطان أبي يعقوب يوسف يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه و يذكر غموض أغراضه و يقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها و يقرب أغراضها بعد أن فهمها فهماً جيداً لقرب مأخدها على الناس؛ فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ... فقال أبو الوليد ابن رشد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس".
(بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص156-157).

و الآخر عن الوسائل الحسابية لهذه الجداول التي فتحت أمام العرب أفاق الحساب و حساب المثلثات"[1]. و قد أتاحت ترجمة (السدهانات) فرصة كبيرة للعلماء العرب لسبر أغوار الرياضيات الهندية، و من ثم نشأة الرياضيات العربية التي يرجع الفضل فيها للعالمين الكبيرين الخوارزمي و البيروني و ذلك بفضل زيارتهما للهند و اتقانهما اللغة السنسكريتية[2].

من بين ما نقله العرب عن الهنود في هذا الشأن، نظامهم العشري في الترقيم الذي يعتبر في الحقيقة هبة قدمها الهنود للحضارة العالمية قاطبة. و قد رجّح العرب هذا النظام بدلاً من النظام الحسابي الذي كانوا يتداولونه و القائم على نظام الترقيم على حساب الجمل. و قد جعل العرب من هذه الأرقام، بعد أن هذبوها، سلسلتين اثنتين: عُرفت الأولى بالأرقام الهندية و الثانية بالأرقام الغبارية التي انتقلت إلى أوروبا و عُرفت بالأرقام العربية[3]. كما أخدوا عنهم فكرة الصفر الذي كان يسميه الهنود باسم (سونيا) أي الفراغ ليصبح بذلك المعنى. و قد ساعد الصفر العلماء العرب كثيراً، بحيث سهّل لهم الترقيم و أعمال الحساب.

و قد استطاع العرب أن يبرعوا في الرياضيات و يؤسسوا لها مبادئها و ضوابطها الخاصة بها بعد أن أخدوا عن الهنود و اليونانيين دعائمها الأولى. إنّ حقيقة اهتمام العرب بالرياضيات و علو شأنها عندهم مكمنه التطور الهائل الذي شهدته الحضارة العربية الاسلامية، و اتساع رقعة الدولة و كثرة الأفراد و تنوع المؤسسات و تعددها ما حتم ايجاد الطريقة المثلى للجرد و الإستقصاء و الإحصاء و ذلك باتباع استراتيجية حسابية متقنة لتسيير أمور الدولة في النفقات و المشتريات و بالتالي التحكم في صرف مال المسلمين. و يمكننا أن نلخص هذه الحاجات في "نظام المواريث الاسلامي المعقد، و تعاظم جحافل الجيوش الجرارة، و توزيع رواتبها و غنائمها، و حساب نفقاتها، ثم الرخاء الاقتصادي و التراكم المالي الذي تلا تكوين الامبراطورية الاسلامية، و مشاكل حساب أنظمة الجزية و الخراج و الضرائب و الزكاة، هذا فضلاً عن مشاكل عمليات المساحة و تقسيم الأراضي و تشييد المدن"[4].

و نجد أيضاً أنّ العرب أخدوا عن الأمم القديمة، بما فيهم الهنود، علم الفلك الذي يرجع فضل ارساء قواعده العربية الأولى إلى ما نقل من مفاهيم هندية و يونانية و فارسية. لكن العرب أحدثوا تغيرات جوهرية على علم الفلك، بحيث ميّزوا بين التنجيم الذي رأوا فيه أوهاماً لا أساس لها من الصحة، و الفلك كعلم قائم على التقصي و الاستقراء و على الأرصاد و الحسابات الفلكية، و هذا كله نابع من وحي عقيدتهم الاسلامية. و نجد أنّ المسلمين نادوا منذ بداية احتكاكهم بالمفاهيم الفلكية الهندية إلى "إبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم، و لعلهم أول من فعل ذلك، و مالوا

(1)يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ديسمبر 2000، ص42.

(2)م ن، ص42.

(3)ينظر قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات و الفلك، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، دار الشروق، بيروت، 1990، ص46.

(4)يمنى طريف الخولي، م ن، ص43.

بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة و الاختبار و العلم ... و كانوا كثيري العناية بعلم الأفلاك، يرصدون الأفلاك و يؤلفون الأزياج، و يقسمون العروض، و يراقبون الكواكب السيارة، و يرتحلون في طلب ذلك العلم إلى الهند و فارس، و يتبحرون في كتب الأوائل، و يتممون ما نقص منها و يجمعون بين مذاهبها"[1].

و عكف العرب أيضاً على ترجمة ما ألفه الهنود في ميدان الطب، إذ شهد العصر العباسي ترجمة العديد من الكتب الطبية الهندية، كما وفد العديد من الأطباء الهنود على الخلفاء العباسيين إما كموظفين في (البيمارستانات) التي تأسست في هذا العهد، و هي عبارة عن مؤسسات طبية عمومية يقصدها الناس طلباً للعلاج؛ و إما كأطباء خاصين بالخلفاء و الوزراء و القادة أو بذويهم. و قد تمكن العديد من أولئك الأطباء من الاندماج في هذا المجتمع الجديد حال الطبيب (بهله) الهندي الذي جاء بناءً على طلب يحي بن خالد البرمكي في القرن الثاني للهجرة[2]. و قد اشتغل هذا الطبيب عند الخلفاء العباسيين و البرامكة، فأسلم و رزق بولد سماه (صالحا) الذي أصبح بدوره طبيباً حذقاً. و ثمة طبيب هندي آخر اسمه (ابن دهن)، اشتغل رئيساً لبيمارستان البرامكة في عهد هارون الرشيد، كما اشتغل أيضاً بحقل الترجمة فنقل كتباً طبية هندية قيمة إلى اللغة العربية.

و هنالك أيضاً الطبيب (منكه) الذي استدعاه هارون الرشيد فعالجه من مرض أصابه استعصى على الكثير من الأطباء قبله، فأجزل له هارون الرشيد العطاء، و سمح له بممارسة الطب في بغداد. و قد اشتغل الطبيب (منكه) في ميدان الترجمة أيضاً، بحيث كان من بين أصحاب إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي، فنقل العديد من الكتب الطبية من الهندية و الفارسية إلى العربية[3].

و لم يقف العرب عند هذا الحد، بل ساروا إلى نهل العلوم من مختلف الأمم و الحضارات، إذ ثمة تثاقف عربي–صيني إلى جانب تثاقفهم مع الفرس و اليونانيين و الهنود و غيرهم. و ما يسترعي الانتباه هنا هو أنّه على الرغم من أنّ الصين "لم يفتحها العرب و لم يطأها جندي مسلم، فإنّ طرق الحرير و القوافل التجارية قد تكلفت بنقل تراثها الثقافي الزاخر إلى العرب"[4]. و نجد ضمن هذا التراث الثقافي ذلك الزخم من العلوم التطبيقية، في مقدمتها الطب الصيني المحنك، و العديد من الابتكارات مثل صناعة الورق و البارود و غيرها. و قد أحرزت الصين خلال القرنين الأول و الثاني الميلاديين تقدماً علمياً كبيراً أدى إلى تصنيفها ضمن أهم الحضارات الشرقية القديمة. بيدأنّه و بحلول القرن العاشر،

---

(1)يمنى طريف الخولي، م س، ص347.

(2)ينظر عبد الله مبشر الطرازي، العلماء الهنود في البلاد العربية و خدمتهم للعلم في العصر العباسي، مجلة الفيصل، العدد114، سبتمبر 1986، ص57-58.

(3)م ن، ص58.

(4)يمنى طريف الخولي، م ن، ص40.

انحطت الأحوال فيها، و تغيرت اللغة الصينية تغيراً كبيراً لدرجة أنّها أصبحت لغة مهجورة، و استعصى على رجل القرن السادس قبل الميلاد قراءة مؤلفات الحضارة الصينية القديمة ما أدى إلى انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة و بين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد. و هنا برز أهم وجوه الحضارة الصينية على الاطلاق: (الكنفشيوس) الملقب بـ (نبي الصين) و (معلم الجنس البشري)[1] الذي أخذ على عاتقه نقل هذا التراث القديم إلى لغة الصين الجديدة آنذاك.

و تُعرّف (الكونفوشية) على أنّها مجموعة من المعتقدات و المبادئ في الفلسفة الصينية تتمحور في مجملها حول الأخلاق و الآداب و طريقة ادارة الحكم و العلاقات الاجتماعية. و تمكنت هذه المدرسة الصينية من تخطي الحدود بانتشارها في كوريا و اليابان و الفيتنام، و أسست لنفسها مذهباً قائماً بذاته لدى شعوب شرق آسيا، بل جلبت انتباه العديد من الفلاسفة الغربيين عندما اطلعت عليها المجتمعات الغربية.

و ثمة وجه آخر عن دور الترجمة، لا يقل أهمية عن الأوجه السالفة الذكر، في دفع الحراك التثاقفي إلى أبعد الحدود، و خلق اللحمة بين ضفتين تختلفان في كل شيء. و يعتبر هذا الوجه الآخر منطلق كل دراسة تأريخية عن ماضي العرب المزهر، و اسهامهم الكبير في مختلف العلوم و المعارف، بل أكثر من ذلك كله، تمكن العرب إبان هذه الحقبة من بسط سيادتهم على جغرافية شاسعة و واسعة، و أرغموا ملوك أوروبا على دفع الجزية و إقامة عهود السلام و مواثيق الصلح، كما استبسلوا في إعلاء كلمة التوحيد و نشر الدين الاسلامي إلى أصقاع بعيدة إلى أن وصلوا به أرض البلقان. إنّه من دون شك اتصال الحضارة العربية الاسلامية بالحضارة الغربية الأوروبية.

يعتبر محمد عبدو في (رسالة التوحيد) أنّ دور الاسلام كان حاسماً في التحولات التي شهدتها أوروبا في عصر النهضة، و ما تبعها من آثار على الإنسان و البيئة الأوروبية عامة، بحيث بدأت الأفكار و الرؤى "تتراسل و الرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين و نهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد و نزعت الغرائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين و الأخد على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه و حرفوا في معناه، و لم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح و الرجوع بالدين إلى سذاجته و جاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الاسلام إلاّ في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه و سلم و أن ما هم عليه إنّما هو دينه يختلف عنه اسماً و لا يختلف معنى إلاّ في صورة العبادة لا غير"[2]. و يمكننا أن نورد في هذا الصدد العديد من الآراء التي تؤيد الاتجاه نفسه، إذ يقول الطهطاوي بل و يذهب بعيداً في القول أنّ المعرفة الأوروبية "التي تبدو

(1)بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص145.

(2)محمد عبده، رسالة التوحيد، ط3، دار إحياء العلوم، بيروت، 1979، ص153.

أجنبية ليست سوى معرفة إسلامية"[1](*).

إنّ هذا الدور الريادي الذي لعبه العرب في ارساء قواعد الحوار مع الآخر ثقافياً، و ضبط آلياته و أنماطه ليعد بحق نموذجاً مثالياً في تبيان أنّ المثاقفة ظاهرة تتحقق في كل فعل ترجمي، و من خلال هذا التقارب و التفاعل تنشأ ألوان ثقافية جديدة و تختفي أخرى، فيصير المجتمع المنغلق منفتحاً، و تختفي النزعات التعصبية المذهبية و النعرات العرقية لتترك مكانها لعلائقية الأخد و العطاء المشيدة على أسس التفاهم و اللين، و التي تؤدي بدورها إلى إغناء متبادل للثقافتين موضوع المثاقفة بكل ما فيه صالحهما العام، و بكل ما يسير و فق تطلعاتهما الحضارية.

إنّ المتصفح لهذه الحقبة من اتصال العرب بالأوروبيين لا يمكنه إلا الحديث عن تلك الخدمات الجليلة التي قدموها للحضارة الغربية التي كانت تعاني الهون و تبعاته بعد أن شهدت عصراً هو الأكثر ظلمة و جهلاً بين عصور أوروبا كلها. و يمكن الحديث بشيء من الدقة عن وجود ثلاث محطات تاريخية اتسمت بأبعاد عسكرية و سياسية و ثقافية وصمت تاريخ العلاقة بين العرب و الأوروربيين: الحروب الصليبية، نهاية الوجود العربي الاسلامي في الأندلس العام 1492، و حملة نابليون على مصر العام 1798[2].

و قد انتقلت المعرفة العربية إلى القارة الأوروبية عبر وسائط شتى، أهمها المنافذ التي كانت متاحة في الأندلس و صقلية و جنوب فرنسا و ايطاليا و ثغور الشام. و قد أسهم طلاب العلم الأوروبيين الذين قدموا من مختلف أصقاع أوروبا و شتى بقاعها للنهل من العلوم العربية التي بلغت أوجهها في إقامة جسور التواصل بين الضفتين الشمالية و الجنوبية، خاصة و أنهم كانوا يعانون جدباً معرفياً حتى النخاع بسبب عصر الظلمة الطويل.

---

(1)محمود نور الدين أفاية، الغرب في المتخيل العربي، ط1، منشورات دائرة الثقافة و الإعلام، الشارقة، 1996، ص26.

(*)كما يرى حسن حنفي بدوره أنّ "الحضارة الغربية تقوم في دوافعها على بواعث إسلامية، تطابق العقل و الطبيعة، نظراً لأن تدوين الوحي لم يصمد أمام النقد التاريخي، و أقوال الكنيسة لم تصمد أمام النقد الفلسفي". و قد أعطى حسن حنفي أمثلة كثيرة على ذلك، منها حركة مارتن لوثر الإصلاحية الدينية، و هو الكاهن المسيحي زعيم البروتستانتية الذي "تعلم العربية لمعرفة كيف استطاع الإسلام أن يحل معضلات الكاثوليكية. فجاءت البروتستانتية على النموذج الإسلامي و مبادئه: الكتاب وحده، حرية التفسير، رفض التوسط بين الإنسان و الله، أولوية الإيمان القلبي على الشعائر الخارجية"، و منها عقلانية ديكارت "و استمر النموذج الإسلامي في القرن السابع عشر في المنهج العقلي عند ديكارت (أنا أفكر فأنا إذن موجود). فالعقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس. و لا فرق بين شك ديكارت المنهجي و شك الغزالي النفسي (من لم يشك لم ينظر، و من لم ينظر لم يبصر، و من لم يبصر بقي في العمي و الضلال). و النظر أول الواجبات عند المعتزلة، و مناط التكليف عند الفقهاء، و أساس النقل عند الحكماء بل و الفقهاء كما قال ابن تيمية (درأ تعارض العقل و النقل)، (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)، و ما لا دليل عليه يجب نفيه". و لم يسلم عصر التنوير من هذا التأثير الإسلامي أيضاً "و لم تبتعد مثل التنوير في القرن الثامن عشر عن الأصول الخمسة عند المعتزلة و لا عن نموذج الحكمة عند الفلاسفة أو المصالح العامة عند الأصوليين. فالعقل و الحرية و المساواة و العدالة الاجتماعية و الطبيعة و التقدم هي نفسها المثل التي قامت عليها الحضارة الإسلامية. اكتشفها الوعي الأوروبي في صراعه ضد المعجزات و الإقطاع و القهر و الظلم الاجتماعي".
(حسن حنفي، العولمة التبادلية خيار الاتفاق بين الأمم، جريدة الزمان، عدد 25 جوان 2002، موقع (Globalization) (http://glo110.blogfa.com/post-32aspx). (تمت آخر زيارة للموقع بتاريخ 18 سبتمبر 2012).

(2)ينظر محمود نور الدين أفاية، م ن، ص22.

كانت طليطلة، في القرن الثالث عشر، المحطة الأهم في ارتحالهم الثقافي هذا، و من ثم الطريق عبر جبال البيرينيه مروراً بالبروفانس و مضائق جبل الألب وصولاً إلى اللورين و ألمانيا و أوروبا الوسطى ثم إلى انجلترا عبر القناة. إنّ العديد من المراكز الفرنسية، في الحقيقة، كانت في مجملها مراكزاً يشع منها الفكر العربي مثل مرسيليا و تولوز و مونبليه. و قد أسهم (دير كلوني)، الواقع في شرق فرنسا، اسهاماً كبيراً في نشر مختلف العلوم العربية، و قد ضم هذا الدير عدداً من الرهبان الإسبان برئاسة بيير لوفينير الذي أبدى كل حرصه على ترجمة ما توفر من العلوم العربية، بحيث أشرف شخصياً في عام 1141 على أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى نشرات عديدة كتبت ضد الإسلام، و هو ما يمكن أن نعتبره النواة الأولى للعمل اللاهوتي الكنائسي في فرنسا حول الدين الإسلامي الحنيف. و قد أثر ذلك في هذه المنطقة برمتها، لأنّها أصبحت مركزاً للنفوذ العلمي في القرنين المواليين[1].

و ما يسترعي الانتباه هنا هو أنّه على الرغم من أنّ معركة (بواتي) في العام 732 المعروفة تاريخياً بمعركة (بلاط الشهداء) شكلت في حد ذاتها منعرجاً حاسماً في ايقاف الزحف العربي نحو العمق الأوروبي، و احتفظت فيه بذلك المسيحية على هذه المنطقة الحيوية، إلا أنّ ذلك لم يمنع المسلمين من بناء صرح ثقافي مزهر دام ثمانية قرون بالأندلس، حيث استطاعوا من خلالها أن يبينوا للبشرية قاطبة لمستهم الذهبية في الكثير من أمور الحضارة كالمعمار مثلاً، و ما انقسامهم إلى طوائف، و تناحرهم المستمر فيما بينهم، و تربص ملوك قشتالة بهم إلاّ بداية زوالهم، بل يمكننا أن نجزم أنّه لولا (معركة الزلاقة) التي كسر فيها المرابطون شوكة القشتاليين، و أخرت سقوط الأندلس لقرنين آخرين لا ما عمر العرب طويلاً فيه، و لا ما كان لهم ما كان من عز و أبهة بين ربوعه.

و قد شهدت مدينة طليطلة، خلال العهود الأخيرة التي بدأ فيها الحكم الإسلامي في الأندلس بالإنحسار و التراجع، حركة نشيطة في ترجمة مئات الكتب و المخطوطات العربية إلى اللاتينية. و من بين الأسباب المباشرة التي ساعدت على ذلك شغف الملك ألفونسو الثالث ملك قشتالة بالعلم و حبه للثقافة، إذ أمر بترجمة المخطوطات في الخزائن التي كانت تحتوي ملايين الكتب الأدبية و العلمية و الطبية بعد أن أنتزعت مدينة طليطلة من أيدي المسلمين سنة 1085.

و شملت هذه الحركة الترجمية السخية كذلك المكتبة العامة لمدينة قرطبة التي كانت تحتوي على أكثر من نصف مليون مخطوط. و نتيجة هذا الكم الهائل من الكتب العلمية في شتى التخصصات، أقيمت في أوروبا ورشات و مراكز للترجمة أين تعلم مرتادوها اللغة العربية كخطوة أولى، ثم أخدوا يترجمون أهم الكتب العلمية و أشهرها من اللغة العربية إلى اللغة العامية المتمثلة في اللغة القشتالية كلغة وسيطة، ليتم الانتقال بعدها إلى اللغة اللاتينية الفصحى التي كانت اللغة الرسمية آنذاك و لغة العلم و الكنيسة معاً.

(1)see Philip K. Hitti, The Arabs, A Short History, Gateway Editions, october, 1996, p177.

إنّ من بين ما يُستشهد به على حجم ما تم تأليفه في اللغة العربية، قيام الإسبان ببيع مكتبة قرطبة بعد سقوطها التي كانت تحتوي على أربعمائة و أربعين ألف مجلد، إلى باعة متجولين. و نفس المصير لاقته مكتبة طليطلة بعد سقوطها التي كانت تضم أكثر من خمسمائة ألف مجلد. كما باع الإسبان أيضاً مؤلفات المكتبة العامة لغرناطة ما أدى إلى انتشار هذه الكتب عبر كل القارة الأوروبية، و أشيع ما كان فيها من مادة علمية نتيجة وقوعها بين أيدي النخبويين من رجال العلم و الثقافة[1].

و قد كانت نزعة ملوك صقلية[2] ميّالة لأنّ تقارب قرطبة في كونها عاصمة للعلم و منارة له. و قد اتسمت الحياة في صقلية خاصة في عهد الملكين روجر الثاني[*] و فريدريك الثاني برغد العيش و رفاهه، و اختلطت الأجناس فيها، فكان في بلاط هاذين الملكين مستشارون و موظفون من العرب و المسلمين، بل منهم من كان خبيراً عارفاً و عالماً حذقاً. و قد أولى الملك روجر الثاني عناية خاصة بترجمة العديد من الكتب العربية، أشهرها كتاب (المجسطي) و كتاب (كليلة و دمنة) و كتاب بطليموس الخاص بالبصريات. و تشهد كتب التاريخ أيضاً أنّ الرحالة و الجغرافي الإدريسي اتخد من صقلية مستقراً له لمدة طويلة من الزمن، فقرّبه روجر الثاني إليه و كلّفه بتأليف كتب في الجغرافيا بالإضافة إلى رسم الخرائط. و من بين أشهر كتبه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي ترجمه الأوروبيون فأصبح يحمل عندهم اسم (روجار)، و ظلوا ينهلون منه العلوم الجغرافية لزمن طويل[3].

و كان الملك فريدريك الثاني، الذي توج على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة العام 1220، بدوره محباً للعلوم، بحيث أقام المناقشات و المناظرات العلمية و الفلسفية، بل و حضر العديد من التجارب الطبية في علم الحيوان. و يعود الفضل لهذا الملك أيضاً في تأسيس جامعة نابولي العام 1324، كما منح لها عدداً لا يحصى من المؤلفات و المخطوطات العربية، و فتح الباب لترجمة بعضها إلى اللغة اللاتينية ما أدى إلى شيوع الثقافة العربية الإسلامية عبر أرجاء القارة الأوروبية؛ بل أصبحت مفاهيم هذه الثقافة تدرس حتى في الأقطاب العلمية التي بدأت بالبروز كباريس و أكسفورد. و من بين الأعمال التي لاقت رواجاً آنذاك أعمال ابن رشد[4] التي نقلها مايكل سكوت Michael Scott سنة

(**1**)ينظر نصر الدين البحرة، الحضارة العربية و الترجمة، مجلة التراث العربي، العدد63، السنة16، نيسان (أبريل)/ذو القعدة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996م-1416هـ، ص96.

(**2**)ينظر أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ط3، دار الفكر، دمشق، 1417هـ، 1996م، ص120-125.

(*)اعتبر جورج سارتون أنّ الملك روجر الثاني كان أكثر حكام عصره معرفة، إذ استطاع أن يجعل صقلية في مدة قصيرة أغنى و أرقى دولة في أوروبا.

(see Georges Sarton, Introduction to the History of Science, Vol II, part I, Published by Williams and Wilkins Company, Baltimore, 1931, p339).

(**3**)ينظر كامل عياد، أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوروبيين، ضمن أبحاث المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، 2-7 نيسان، دمشق، 1981، ص11.

(4)voir Lucien Leclerc, Histoire de la médecine arabe, Tome II, Paris Ernest Leroux, 1876, p295.

1236 بطلب من الملك فريدريك الثاني نفسه. و قد أثرت فلسفة ابن رشد بشكل كبير في الثقافة الأوروبية لكونها تضم شروحاً وافية لفلسفة أرسطو و مذهبه؛ و تبدو أكثر تجلياتها في حركة الإصلاح الديني التي قادها توما الاكويني(*)، و ذلك بعد أن إطلع على فكرة وجوب التوفيق بين الفلسفة و الدين، و ضرورة دعم المبادئ الدينية بالأفكار الفلسفية. كما نجد أيضاً، بالإضافة إلى مايكل سكوت، مترجمين آخرين برزت أسماؤهم في نقل الموروث المعرفي العربي(**) مثل أدلرد من باث Bath الانجليزي حوالي سنة 1116-1142، و اسطيفان من بيزا الأنطاكي سنة 1127.

و كان لثغور الشام و منافذه إبان الحروب الصليبية دوراً لا يستهان به في نقل الثقافة العربية الإسلامية و علومها إلى القارة الأوروبية. و من بين المسائل التي نقلها الأوروبيون الأنظمة العلمية التدريسية في كيفية تلقين العلوم، و إجازة الأطباء، و طرق العلاج و سبله، و إرساء قواعد المؤسسات العلاجية و أساليب إدارتها كنظام المستشفيات التي عرفها العرب باسم (البيمارستانات) منذ العهد العباسي. كما تعلم الأوروبيون أيضاً العديد من الصنعات التي لم تكن معروفة لديهم، أهمها صنعتي النسيج و الورق. و أول ما ظهرت صناعة الورق عند العرب في مراكش أين دخلت لأول مرة، ثم انتقلت إلى إسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر و منه إلى ايطاليا على يد مسلمي صقلية العام 1270، ثم إلى فرنسا

(*)يدعم عباس محمود العقاد هذا الرأي و يؤكد أنّ "تأثير ابن رشد على آراء القديس توما الاكويني واضح المعالم بالرغم من نقد هذا الكاهن له و التقليل من شأنه، فقد ألّف القديس توما كتبه بعد أن شاعت بين الرهبان دروس الفلاسفة الأندلسيين و فلاسفة المشرق من المسلمين، و لم يكن في كل ما كتب في الله و الروح و وسائل الوصول إلى الحقيقة رأي واحد لم يتناوله قبله ابن سينا و الغزالي و ابن رشد على الخصوص".

(عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1960، ص106).

(**)إنّ من بين الكتب التي ترجمت أيضاً و تركت أثراً عميقاً في النهضة الأوروبية الحديثة نجد كتاب (الحاوي) للرازي الذي ترجم إلى اللاتينية بأمر و رعاية شارل الأول العام 1279، ثم انتشر في القرون التالية على شكل مخطوطات لا عد لها. و بداية من العام 1486 أخذ يطبع باستمرار و كان أثره في الطب الأوروبي جد عظيم. و منها أيضاً كتاب (القانون) في الطب لابن سينا، و الذي عاش مدة أطول من أي كتاب آخر كمرجع أوحد في الطب؛ و قد وصل عدد طبعاته إلى خمس عشرة طبعة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي، و ازداد عدد هذه الطبعات أكثر في القرن السابع عشر. مكن هذا الكتاب علماء أوروبا من الشروع في وضع أساس الثورة العلمية التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر و بلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر. و نجد أيضاً كتاب (المناظير) لابن الهيثم الذي بنيت عليه جميع دروس و أبحاث البصريات في القرون الوسطى خصوصاً أعمال روجيه بيكون في القرن الثالث عشر، و منها القسم الخاص بالجراحة من كتاب (التصريف) لأبي القاسم الزهراوي الذي طبع في البندقية عام 1497 و في بال عام 1541 و في أكسفورد عام 1778، و بقي كتاباً مدرسياً للجراحة قروناً عديدة في مدرستي سالرنو و مونبيليه. و رسالة الخوارزمي المشهورة في الحساب و التي تقوم على التدوين العشري و على نظام عددي جديد نقله جيرارد دوكريمون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، و كان له أكبر تأثير على الرياضيات في أوربا. و بوساطة هذه الرسالة دخلت الأرقام العربية و الصفر و الكسور العشرية الحساب الغربي. كما نقحت جداوله الرياضية من قبل المجريطي و ترجمت إلى اللاتينية عام 1126.

(ينظر:

- سير توماس أرنولد، تراث الإسلام، عرّبه و علق حواشيه: جرجيس فتح الله، ط3، دار الطليعة، بيروت، تموز (يوليو) 1978، ص465-472.

- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبة، ط4، نقله عن الألمانية فاروق بيضون و كمال الدسوقي، راجعه و وضع حواشيه مارون عيسى الخوري، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص143-305.

-Aziz S. Atiya, Crusade, Commerce and Culture, Indiana University Press, Bloomington, 1962, p223).

و بعده إلى أوروبا كلها[1].

و لنا في الآداب نماذج شاهدة على مدى تأثر الأوروبيين بالثقافة العربية، إذ يمكننا القول أنّ قصة (حي ابن يقظان) لصاحبها ابن طفيل، على سبيل المثال، كانت أوفر المؤلفات العربية حظاً من العناية و الاهتمام من لدن الأوروبيين في العصر الحديث، بحيث ثمة تشابه مثير بين موضوع هذه القصة و مؤلف الأب اليسوعي غراثيان بالتزار Gracian Baltazar الذي نشر سنة 1650 و المعنون بـ (El criticor). و قد يتبادر إلى ذهن الواحد منا سؤال هو في غاية الأهمية حيال ذلك: كيف عرف غراتيان بالتزار بقصة (حي ابن يقظان) و ترجمة ادوارد بوكوك Edward Pocoke، مع النص الأصلي العربي، لم تنشر إلا في سنة 1681، ناهيك عن أنّ غراثيان بالتزار لم يكن يتقن اللغة العربية؟ و ثمة تشابه في الفكرة العامة بين قصة ابن طفيل و قصة (روبنسون كروزو) لدانيال دي فوي Daniel de Foe التي نشرها سنة 1719[2]، أي بعد ثمانية و ثلاثون عاماً من نشر ترجمة ادوارد بوكوك. و قد توالت العديد من الترجمات لهذه القصة في العالم الغربي[*] منذ منتصف القرن التاسع عشر و بشتى اللغات ما يؤكد أهميتها الإنسانية و شيوعها كنموذج تثاقفي عالمي.

أسهم العرب أيضاً في وضع اللبنة الأولى لأدب عرفوه خير المعرفة بفعل عديد التجارب التي شهدت على ذلك. يتمثل هذا الجنس الأدبي في أدب الرحلة الذي ترك بصمة على نحو جلي في الآداب الأخرى. و لقد اقترن الحديث عن ماركو بولو Marco Polo البندقي بالحديث عن ابن بطوطة الطنجي عند الدارسين الغربيين[**] قبل العلماء العرب أنفسهم. و على الرغم من أنّ ماركو بولو كان السبّاق في رحلته (قبل نحو ستين عاماً من رحلة ابن بطوطة) التي كانت

---

(1)ينظر سير توماس أرنولد، م س، ص508-512.

(2)ينظر بسمة أحمد صدقي الدجاني، م س، ص158.

(*)ترجمت قصة (حي ابن يقظان) إلى لغات أجنبية وصلت إلى أكثر من أربعين لغة حية حتى يومنا هذا، إذ نجد أنّها ترجمت إلى العبرية من قبل موسي النربوني العام 1341، و في العام الذي تلى ترجمة ادوارد بلوك، ترجمت إلى الهولندية على يد الفيلسوف سبينوزا، و ترجمها سيمون أوكلي إلى الإنجليزية العام 1709، و ترجمها إلى الألمانية بيتروس العام 1726، و أعاد ترجمتها إلى الألمانية انجهور عام 1782، و ترجمها في عام 1900 بونس بويجس إلى الإسبانية و ليون جوتيه إلى الفرنسية، و ترجمها بتروف إلى الروسية العام 1920، و ترجمها أنخل غونثالث بالنثيا إلى الإسبانية عام 1934، و أعاد جوتيه ترجمتها إلى الفرنسية عام 1936، كما أعاد بالنثيا ترجمتها إلى الإسبانية عام 1948.

(**)يمكن أن نورد في هذا الصدد ما ذهب إليه المستشرق الألماني يوهان لودفيج بوركهارت Johann Ludwig Buckhardt عندما لفت انتباه الأوروبيين لرحلة ابن بطوطة عقب تكليفه بمهمة في إفريقيا العام 1809. و قد ذكر بوركهارت أنّ ابن بطوطة يعتبر أعظم رحالة في العصر الوسيط يقوم بتدوين مذكرات عن رحلته تلك. و قد قام كل من البروفسور أندري ميكيل André Miquel، و الكاتب الانجليزي توماس ج. أبيركرومبي Thomas J.Abercrombie و الأكاديمي الفرنسي جان دورميصون Jean D'ormesson بتزكية هذا الرأي. أما المستشرق الروسي إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي فقد وصف ابن بطوطة في كتابه القيّم (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) بأنّه منافس خطير لمعاصره الأقدم منه تاريخاً ماركو بولو لكونه امتلك احساساً فطرياً و ذاتياً بظروف حضارة العالم الذي كان يصفه أكثر مما كان لدى منافسه المسيحي.
(ينظر عبد الهادي التازي، تحقيق رحلة ابن بطوطة، مج1، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ص88-91).

محل اهتمام كبير، إلا أنّ رحلة ابن بطوطة اتسع فضاؤها أكثر مما كان عليه الأمر بالنسبة لرحلة الإفرنجي، ناهيك عن قيمتها العلمية المقننة و فائدتها الحضارية الجمة. و ما يسترعي الانتباه هنا هو أنّ الرحالة المغربي كان سريع الألفة مع المكان الذي ينزل فيه و الناس الذين يخالطهم، بحيث تعلم لغتهم من دون أي عناء، كتعلمه الفارسية التي كان التداول بها حتى أرض الصين و كذا اتقانه اللغة التركية.

و قد تُرجمت رحلة ابن بطوطة إلى لغات شتى منها الألمانية و التشيكية و السويدية و الايطالية و التركية و الفارسية و الهندية و غيرها. و قد قام المترجمون، في الكثير من الأحيان، بوضع تعليقات بل و مقدمات لكل جزء من أجزاء الرحلة حتى يوطنوا القارئ الأجنبي و يدجنوه ثقافياً ليفهم تمام الفهم الصورة الكاملة التي كان عليها العالم الإسلامي في عاداته و تقاليده، و في دولته و أمور سياسته و حكمه.

و قد عمدت جهات كثيرة، خاصة تلك التي تنتمي إلى الثقافة الأنجلوسكسونية، إلى الاستفادة من رحلة ابن بطوطة خاصة بعد ظهور ترجمة ألكساندر هاملتون روسكين كيب Alexander Hamilton Rosskeen Gibb الذي لم يكتف بالترجمة الحرفية، بل راح يشتغل على المعنى، فتمكن من ضبط قائمة بالعديد من الطبونيمات الجغرافية و مواقعها. كما عمد أيضاً إلى التعريف بأسماء العديد من الشخصيات التي ذكرها ابن بطوطة موثقاً ذلك من المصادر و المراجع التي استقاها. و من الأمور التي تدعو إلى العجب أنّ المجلة الأمريكية الذائعة الصيت (ناشيونال جيوغرافيك) قامت في العام 1991 بتكليف الأستاذ توماس ج. ايبركرومبي للقيام برحلة فريدة من نوعها تقوم على تتبع خطى سير الرحالة ابن بطوطة و التي وصلت تكاليفها إلى مائة ألف دولار على الأقل[1]. يقول عبد الهادي التازي أنّه لم يسمع قط عن رحلة ترجمت من لغتها الأصلية إلى لغة أخرى، ثم ترجمت ترجمة عكسية من تلك اللغة الثانية لتعود إلى لغتها الأولى بصياغة فيها نوع من العصرنة ما عدى في رحلة ابن بطوطة التي ترجمها الإسباني فيرمو غوستافينو غيانت عن الإسبانية بأسلوبه العربي الذي اعتبر أنّه أكثر تجسيداً للإثارة و أوفى تعبيراً عن الاشارة[2].

يثبت هذا التهافت على رحلة ابن بطوطة دراسة و ترجمة احترافية هذا الأخير في التعاطي مع أحداث رحلته و أخبارها من توثيق للمعلومات و تأصيل للوقائع و الخبرات، كما يبرهن أيضاً على مدى معرفة العرب بالبحر و فنون ركوبه، و ولعهم باكتشاف الآفاق و الإطلاع على أحوال الناس، و نبذ سياسة النأي بالنفس التي ينتهجها آخرون لكون السفر و الترحال بالنسبة لهم ضرب من المجازفة، و هو ما يمكننا توصيفه بأنّه صورة نمطية ثقافية تضاف إلى سجل العرب الحافل بمثلها. و قد قام العديد من الأدباء الأوروبيين بمحاكاة رحلة ابن بطوطة شكلاً

(1)ينظر عبد الهادي التازي، م س، ص101-104.

(2)ينظر غيرمو غوستافينو غيانت، الرحالة الكدود ابن بطوطة، دار النشر المغربية، تطوان، 1999، ص07.

و مضموناً. فنجد مثلاً جيوفاني بوكاكشيو Giovanni Boccaccio في الأدب الايطالي، و جيوفري شوسر(*) Geoffrey Chaucer و جون بنيان John Bunyan في الأدب الانجليزي، و غوته Goethe في الأدب الألماني، و ميغال دي سرفانتس Miguel de Servantes في الأدب الإسباني؛ بل تؤكد بعض الدراسات أنّ الرواية الإسبانية الشهيرة (دون كيشوت) (Don Quichotte) لسرفانتس تعود في أصلها إلى مخطوط عربي وجد في إحدى المكتبات العربية في الأندلس بعد سقوطه. و ما يعزز فكرة توالي الاقتباس الموضوعاتي من الثقافة العربية ما ذهبت إليه العديد من الدراسات في أنّ دانتي أليغييري(**) Dante Alighieri قد تأثر تأثراً بالغاً (برسالة الغفران) للمعري، و حادثة المعراج ذات البعد الديني الإسلامي، بالإضافة إلى العديد من المفاهيم الفلسفية للغزالي قبل أن يكتب الكوميديا الالهية.

هذا عن أدب الرحلة، أما عن قصص الحيوان فقد كان لترجمة (كليلة و دمنة) أثرها البالغ في الآداب الأوروبية الذي يبدو واضح المعالم في أكثر من أدب أوروبي. و من أبرز ما كتب في هذا الصدد (خرافات لافونتين) في القرن السابع عشر، و هي القصص التي أمتعت و لا زالت القراء الفرنسيين و الأوروبيين على حد سواء.

(*)لقد قام جيوفري شوسر Geoffrey Chaucer في العديد من أعماله إن لم نقل كلها، النثرية منها و الشعرية، و المقدر عددها بخمسة و خمسون عملاً أدبياً بما في ذلك رائعته (حكايا كانتربري) (The Canterbury Tales) البالغ مجموع قصصها خمسة و عشرون قصة باقتباس العديد من الكلمات العربية. و بلغ عدد الكلمات الدخيلة على اللغة الإنجليزية ذات الأصل العربي في جميع أعماله 948 كلمة، و بلغ عدد هذه الكلمات في (حكايا كانتربري) (The Canterbury Tales) لوحدها 608 كلمة. و قد يعجب الواحد منا لهذا العدد الهائل من الكلمات المقتبسة، لكن الدارسين صنّفوا هذه الكلمات فقط ضمن خانة (التسميات) أو (الألقاب)، و التي جاءت على هذا النحو و متهجأة كما كتبت بلغة شوسر الانجليزية :

1. Astral constellations (Taur, Adeberan, Aldiran, Astrolabe, Nadir, Azimuthz, Algomeysa, Alhabor, Al-mikanteras, Al-manak, Altazir). **2.** Celebrities (Makomete, Argus, Augrym, Haly, Averrois, Avycen, Alocen, Razis). **3.** Herbs (Saffron, Comyn). **4.** Games or game terms (Hasard, Shatranji, Checkmate). **5.** Chemical things (Bora, Al-Kaly, Alambike, Elixir). **6.** Places and towns (Arabe, Alisaundre, Gernade, Algezir, Septe, Jubaltare). **7.** Books (Alkoran, Al- Mageste, Cannon, Fen) and **8.** Rank- titles (Sultan, Sultanesse).

بيدأنّه ثمة من العلماء من يعتقد أنّ الكلمات التي وظفها جيوفري شوسر في أعماله كلها و المقتبسة من اللغة العربية بلغ عددها 24 كلمة. و هي وفقاً لرأي جيسكا ويلسون كما يلي:

Almagest, almanac, almucantar, almury, alnath, nadir, alkali, azimuth, borax, tartar, amalgam (as a verb), satin, gipon, lancegay, jupon, fers, checkmate, Damask, sarsenish, fen, Arabic, ribibe, carrack, and dulcarnon.

(see Abdul-Settar Abdul-Latif, The matter of Arabic in Chaucer: Arabic loan words in chaucer's complete works, Globusz Publishing, community books (http://archive.org/details/TheMatterOfArabInChaucerArabicLoanWordsInChaucersComlpeteWorks).

(**)يقول ميغيل بالاسيوس Miguel Palacios، أحد المستشرقين الذين اهتموا بمسألة النقل في كتابه (اللباب و القشور) أنّ "دانتي أخد عن المعري أموراً كثيرة". و قد أعطى بالاسيوس في كتابه هذا العديد من الأمور التفصيلية مقارناً بين ما جاء في رسالة الغفران و الملهاة الايطالية.

و قد شبه دنكونا في كتابه (السابقون) دانتي بأنّه "مثل البحر الواسع تمده الروافد، فمن الروافد العظمى القرآن و حديث المعراج النبوي و رسالة الغفران للمعري و رواية محي الدين بن عربي الالهية و كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. كل هذه المصادر كانت معروفة في أوروبا قبل مولد دانتي، و قصة المعراج كانت شائعة في ايطالية و اسبانية بين المتأدبين و العامة أيضاً".

(عبد الكريم ناصيف، م س، ص29-30).

و قد شكلت ترجمة (ألف ليلة و ليلة)، في مضمار أدب الحكاية، المعين الرئيس بالنسبة للأدباء الأوروبيين على اختلاف الأوساط التي ينتمون إليها، إذ ساهمت ترجمتها في بلورة رؤى هؤلاء الأدباء عرفانياً و اجتماعياً و فلسفياً، و مكنت الناس من تذوق لذة الحياة و متعتها بعيداً عن أغلال العقل و قيود الفكر التنويري المتشدد الذي كان يهيمن حينها، بل و مهد ذلك إلى نشأة الأدب الرومانسي عبر كافة القارة الأوروبية. من هنا أخذت قصص (ألف ليلة و ليلة) طابعاً عالمياً، بحيث ذاع صيت علاء الدين و المصباح السحري، و السندباد و رحلته العجيبة، و مغامرات الجن و الغيلان. و انتقلت شهرزاد، المرأة الشرقية الجميلة و الذكية، إلى بلاط ملوك أوروبا و قصورهم المتعالية، فغيرت نظرة مجتمعات بأكملها إلى الذات البشرية، امرأة كانت أم رجلاً. و لقد "حملت شهرزاد ألف ليلة و ليلة الكثير من أحلامها و حركياتها و شهوتها المكبوتة و غير المكبوتة التي تشكل في مجموعها تمرداً على السلطة و النظام و القانون بغية التخلص منها. و ركبت المخاطر لتتحرر و لم يكن ذلك ممكناً لولا جذور الرفض التي في أعماقها"[(1)].

و قد أسهم أنطوان جالان Antoine Galland و معاونيه في أن تتعزز مكانة شهرزاد بلياليها في المجتمعات الأوروبية، و هو ما جعل هذا القرن يعرف بقرن شهرزاد مصدر الإلهام و الوحي. و قد مكنت هذه الترجمة أيضاً من التعرف أكثر على العالم الشرقي، فزاد الاهتمام بالدراسات الشرقية، و نشأت مدرسة كاملة تُعنى بدراسته و استقصاء أخباره. و على الرغم من أنّ قصص (ألف ليلة و ليلة) تضمنت العديد من جوانب الحياة بشقيها الثقافي و الاجتماعي السائدة لدى الشرقيين في الحقبة الزمنية التي كتبت فيها، إلا أنّ ذلك لا يرقى أبداً إلى مستوى التعميم و المطابقة التي تفصح عنها رؤية الكثير من كتاب أوروبا في توظيفاتهم المختلفة[(2)]. و هذا الاستعصاء على الأدباء الغربيين في تمثيل نفس المادة الحكائية الغزيرة و التي حوت غرائب الأخبار و عجائب الأمصار من عفاريت و سحرة و إباحية قابله ولوج سهل لشهرزاد المرأة الرمز إلى ثقافة بأكملها، من دون أن تحمل أي سلاح، أو أن تعترض طريقها أي مقاومة أو كفاح، لتنجح شهرزاد خلال مدة قصيرة "في تحقيق ما فشلت به الجيوش خلال الحروب الصليبية. لقد غزت العالم المسيحي معتمدة في ذلك على القوة الوحيدة التي تملكها، أي قوة الكلمات، فانقاد لجاذبيتها الزهاد الكاثوليكيون و البروتستانتيون و الإغريق و الأرثوذكسيون تباعاً ..."[(3)]. ليكون بذلك كتاب (ألف ليلة و ليلة)، على حد تعبير أندري جيد André Jide أحد أمهات الكتب العالمية، التي حصرها في ثلاث، إلى جانب الكتاب المقدس و أشعار هوميروس.

و كانت بداية تأثير شهرزاد على من حولها تأثيرها على الملك شهريار نفسه، إذ تحول من قاتل شره إلى سامع

(1)خديجة صبار، المرأة بين المثلوجيا و الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص75.

(2)ينظر سعد البازغي، مقاربة الآخر، مقارنات أدبية، دار الشروق، 1999، ص96.

(3)فاطمة المرنيسي، العابرة المكسورة الجناح "شهرزاد ترحل إلى الغرب"، تر.فاطمة الزهراء أزرويل، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص79.

متشوق، و استطاعت بفضل حنكتها و ذكائها أن تعيد للمرأة عنده، و لو لبعض الوقت، المكانة الطبيعية التي تستحقها، و خلصتها من وصف المرأة القربان كما في الطقوس الدينية القديمة؛ و أصبح الشغف كله، عند الكثيرين بعد أن تذوقوا معنى الخيال و السحر و تخلصوا من مظاهر الكآبة و السأم، معرفة ما ينتظرها من مصير بعد انتهاء الليالي. و هنا راح الأدباء الأوروبيون ينسجون نهاية عالم شهرزاد الساحر(*) بما ينسجم مع قناعاتهم الذاتية أولاً، ثم مع رؤى المجتمعات السائدة في ذلك العصر و روحها. و قد كان تجاوب المرأة الأوروبية مع شهرزاد كبيراً للغاية، كيف لا و هي صاحبة الفضل في أن عرفتها أكثر بأنوثتها، و لقنتها كيف تخطو نحو الأمام و كلها ثقة بالنفس. يرى جون جولمبير John Jeanlambert أنّ "شخصية شهرزاد أثرت تأثيراً حاسماً في تاريخ المرأة الأوروبية. و جعلت القرن الثامن عشر أعظم القرون في حياتها، و كان لجمالها و ثقتها بنفسها و تصديها و تحديها لشهريار الذي قد عجز كل الرجال أن يوقظوه و استخدامها لسلاح الأنوثة و المعرفة معاً. كان لهذا كله أثر كبير في تكوين شخصية المرأة الأوروبية"(1).

و كانت نساء الطبقة الراقية من مركيزات و كونتيسات و أميرات أول من عرفن بشهرزاد عند ارتحالها إلى فرنسا. و قد شكل ذلك منعرجاً حاسماً في تاريخ الحياة الأدبية و الفكرية بفرنسا، ذلك لأنّ موضة الصالونات الأدبية في تلك الفترة كانت مقتصرة على أولئك النسوة دون سواهن، بل كانت سيدات الطبقة الراقية تملكها كلها. و كانت هذه الصالونات الأدبية فضاء للتعارف و الحديث عن مستجدات الساحة الأدبية و الفكرية و الفنية، و من ثم نقد أنشطتها و تقييمها، و تقليد أوسمة الشهرة لأصحابها، بل أكثر من ذلك كله، كانت تعمل على نشر الفكر الجديد متحكمة في معايير التذوق(2).

(*)يمكننا في هذا الصدد أن نعرض مثالين عن المصير الذي رسمه كل من تيوفيل غوتيه Théophile Gautier و هنري دورونه Henri de Rénie لشهرزاد عندما انتهت من سرد حكاياتها. اختار تيوفيل غوتيه أن تكون شهرزاد عنده صموتة إلى أبعد الحدود. و يصور الكاتب في قصته (الليلة الثانية بعد الألف) (la mille et deuxième nuit) أنّ شهرزاد نفذ ما كان لديها من حكايا فجاءت و أختها دنيازاد متوسلة إلى الكاتب لعله يقص عليها بعض من الحكايا حتى تنقذ نفسها من الموت. و هو ما قام به على لسان (فرانشسكو). لكن شهريار الذي لم تعجبه حكاية شهرزاد قطع رأسها بينما أصيبت أختها بالجنون. فمن الملاحظ إذن أن غوتيه انتزع من شهرزاد ملكة الكلام فأصبحت قاصرة لا تقوى على الخلاص. أما الكاتب هنري دورونه في مؤلفه (le voyage d'amour ou l'intimation vénitiènne) فقد بدأ عند انتهاء ليالي شهرزاد ليصور لنا كيف تفردت شهرزاد بالحكم بعد مقتل شهريار. امتلكت شهرزاد ما تصبو إليه كل امرأة من جمال و سلطة و مال و ذكاء، لكنها تشعر بالكآبة داخل ذلك القصر الساحر، و عليه تتخلى عن هوايتها في قص الحكايا و تبحث عن من يقص عليها الحكايا و يسليها (من راوية إلى مستمعة)، و يكون عقاب كل من يفشل في ذلك صلم أذنيه. جرب الكثيرون لكن دون جدوى إلى أن ينجح أحد الشبان الوسيمين و تغرم شهرزاد به، لكن سرعان ما تكتشف أنّه يخونها. و هنا تلتقي بامرأة فرنسية تدعى جرمين Germine التي عاشت نفس تجربة الخيانة فتتحابان و تقران التخلي نهائياً عن الرجال، ليصبح الحب الحقيقي بالنسبة لهما هو في التماثل الجنسي وحده.
(ينظر نظيرة الكنز، شهرزاد في فرنسا من الانبهار إلى الاستلاب الأنا و الآخر في مواجهة، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 124، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف2005، ص06).

(**1**)م ن، ص02.

(**2**)ينظر هيام أبو الحسين، شهرزاد و تطور الرواية الفرنسية من الكلاسيكية إلى الرمزية، فصول، ع2، ج3، م13، صيف 1994، ص267.

و قد أسهمت الكثير من سيدات فرنسا، بعد أن استفدن من تجربة شهرزاد، في الدفع بالحركة الأدبية نحو الأمام، إذ منهن من كن شاعرات ينضمن الشعر و يقرأنه على الوافدين عليهن، و منهن من كن مترجمات كمدام داسيه Madame Dacier مترجمة هوميروس، و منهن من كن ذوات ميول إلى الكتابة، و هو حال الروائيتين دوجوميزو و دوفيليدو اللّتان ضربتا في كتاباتهما بالحياء و الاحتشام عرض الحائط عند حديثهما عن الحب و الجنس، و الكونتيسا دولنوا D'enoloy التي برعت في مجال كتب الأطفال و أدب المراسلات الذي اقترب من نمطين أدبيين سيكون لهما لاحقاً شأن كبير هما السيرة الذاتية و الرواية[1].

هذا عن الاستقبال الفكري الباطني لشهرزاد و حكاياها، أما عن الاستقبال الشكلي الظاهري فقد اقتصر اهتمام بعض السيدات الفرنسيات على أشكال الزينة المبالغ فيها حسب ما تعودن عليه، أي بتلك الجوانب الحسية و الشكلية المغرية. و هنا فقدت شهرزاد خصالها الفكرية و النظرة الثاقبة، فعاشت غربة و استلاباً حقيقيين، و لم تختلف عن أولئك النسوة بتسريحات شعرهن المثيرة، و ألبستهن و حليهن الزاهية. و قد شكل ذلك واقعاً مزيفاً لشهرزاد و تكلفاً لم تعهدهما ما أدى إلى تجريدها من هويتها. و "الواقع أنّ الفرنسيين لم يأبهوا إلا بمشاهدة المغامرة و الغرام في ألف ليلة و ليلة الذي انحصر هو الآخر في الزينة و لغة الجسد بشكل يبعث على الاستغراب"[2].

و لم يقتصر تأثير شهرزاد على المرأة الفرنسية فحسب، بل تعداه إلى الرجل الفرنسي أيضاً بوصفه الأديب و الفنان و الرسام و الفيلسوف و الموسيقي. و قد تأثر أدباء القرن الثامن عشر بالعالم العجائبي و الأسطوري الخارق الذي جلبته شهرزاد معها عند ارتحالها من الشرق إلى الغرب، بل حاول الكثير منهم تقليده و توظيف رموزه المختلفة. و ما ساعد على ذلك، هو أنّ الساحة الفرنسية كانت تشهد العديد من الأحداث بدءا "بشتى ألوان الصراع ضد الملكية و الثورة على مفاسدها، و على ذلك كانت الفرصة مواتية لاستخدام شهرزاد و ايحاءاتها الخصبة التي لا تنتهي في النيل من الملوك و السخرية منهم، و هو ما تحددت به مهمة السيدة العربية الغامضة المثيرة في كل آداب القرن الرومانسي"[3].

كما أتاحت ليالي الشرق للأدباء الفرنسيين فرصة الهروب إلى عالم جديد ملؤه السحر و الخيال، موظفين ذلك في كتاباتهم و محاولين بالتالي رسم مستقبل جديد للمجتمع الفرنسي. و قد قام ديدرو Diderot في مؤلفيه (الطائر الأبيض) (l'oiseau blanc) و (الجواهر كاشفة السر) (les bijoux indiscrets) بالنقل من شهرزاد لكل ما يتفق و يخدم أفكاره السياسية و الاجتماعية و الدينية. و قد تأثر فولتير Voltaire بحكايا الشرق أيضاً، إذ حظي بمكانة مميزة

(1)ينظر هيام أبو الحسين، م س، ص267.

(2)فاطمة المرنيسي، م س، ص80-81.

(3)مصطفى عبد الغني، شهرزادفي الفكر العربي الحديث، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1985، ص26.

في كتاباته، بل عمد فولتير في الكثير من الأحيان إلى المقارنة بين الحضارة الشرقية و الحضارة الغربية مستشهداً في ذلك بالأجواء الشرقية و الأبعاد الاجتماعية و الثقافية القابعة من ورائها. و قد تمكن فولتير، انطلاقاً من ذلك كله، من إشاعة أفكاره التربوية و الفلسفية و الاجتماعية خاصة في مؤلفه (صادق أو القدر) (Zadig ou la destinée)، أين قارن بين عالمين مختلفين في الماهية، هما عالم الشرق المفعم بالحكمة، و عالم الكنيسة الممتلئ بالكتب؛ و هو الكتاب نفسه الذي أهداه فولتير إلى السيدة الشرقية. و قد بدى هذا التأثر واضح المعالم على جميع الأصعدة التي يمكن تلخيصها في:

1. **على الصعيد السياسي**: ارتبطت شهرزاد بالثورة الفرنسية و بالحركات التحررية التي رمت إلى المساواة بين الأفراد، و التخلص من الظلم و العبودية، و نبذ الحكم الطبقي و تأسيس نظام جمهوري.

2. **على الصعيد الاجتماعي**: أكسبت المرأة الفرنسية جرأة في أن تبوح بما يعتمل بداخلها من مشاعر و أحاسيس، و العمل على تفعيل دورها على الصعيدين الاجتماعي و الأدبي بعيداً عن النظرة التقزيمية لها و التي اعتبرتها جسداً من دون روح.

3. **على الصعيد الأدبي**: من أهم نتائجه بروز الارهاصات الأولى للمذهب الرومانسي الذي شكل وثبة فكرية ذات أهمية بليغة من حيث المعطى.

4. **على الصعيد الديني**: أثرت شهرزاد في الإنسان الأوروبي، و جعلته يمعن النظر في ماهيته كإنسان في هذا الكون الفسيح، و في وجوب التمييز بين الخير و الشر، و الانفتاح على الحياة و خوض تجارب جديدة؛ و أنّ الكنيسة ليست الشيء الوحيد في هذه الحياة، و أنّ بإمكانها هي أيضاً أن تنحرف من حيث الأفكار و المعتقدات.

و قد ترجم كتاب (ألف ليلة و ليلة) إلى لغات عدة كالألمانية و الايطالية و الإسبانية و الفرنسية و الانجليزية، كما طبع طبعات كثيرة بعناوين مختلفة (ليال عربية)، (ألف ليلة و ليلة) و غيرها من العناوين. و قد أدت ترجمة هذا الكتاب إلى التأسيس لأدب الحكاية في الآداب الأوروبية، إذ كتب فولتير (كانديد) (Candide) و مغامراته بعد أن تشبع بقصص الليالي، و نشر الألماني جان سبايز John Spize، الذي كان يمتلك داراً للطباعة، كتاباً مجهولاً لا يُعرف مؤلفه يحمل عنوان (قصة الدكتور جون فاوست) (John Faust)، و هو العمل الذي لاقى رواجاً كبيراً بفضل حمى الليالي.

و من بين الأمثلة عن المثاقفة أيضاً، رائعة جبران خليل جبران التي كتبها باللغة الانجليزية في ديار الغربة و المعنونة بـ (النبي). يحكي هذا العمل الشعري الفذ علاقة العابد المتزهد بربه. و قد وردت هذه القصائد، البالغ عددها ستة و عشرون، على لسان نبي سماه جبران خليل بـ (المصطفى). و قد تناولت هذه القصائد، بالإضافة إلى مسائل التوحيد، مختلف العلاقات الإنسانية التي تحكم عيش الأفراد و التي ينبغي أن تستمد أسسها و قواعدها من الدين مثل الحب و الحرية و الرحمة و الأخلاق و غيرها. و قد نال هذا العمل إقبالاً جماهيرياً كبيراً و ترجم إلى ما يزيد على عشرين لغة.

هو دور الترجمة الحضاري إذن، يفتح الآفاق على عوالم جديدة، و يعزز علاقة الأخد و العطاء القائمة على الإغناء المتبادل ما دفع بالكثيرين إلى القول بأنّ الترجمة هي "السحر الحلال لقدرتها على نقلنا من عالم إلى آخر و من حضارة إلى أخرى في غمضة عين"[1].

تذكرنا نظرة (الأنا) إلى (الآخر) أو نظرة (الذاتية) إلى (الغيرية) (l'altérité-otherness) التي تعتبر لب الفعل الترجمي و أحد دعمائه الغليظة برؤية المثقفين العرب إلى الغرب في حقبة من حقب تاريخ حضارتنا العربية، بحيث وقف المثقف العربي بين نارين: الماضي العربي و الإسلامي المجيد، و عالم غربي يمثل الرقي و التقدم و الحداثة. و قد عانى المثقف العربي كثيراً من هذا الانجذاب المزدوج ذو الطبيعة المتعارضة، في وقت شهد المجتمع العربي تأخراً معرفياً و ثقافياً و علمياً قابلته هيمنة أوروبية على نطاق واسع. و قد دفع هذا الشعور بالنقص اتجاه أوروبا، والاصطدام بالتطور و الحداثة بالمثقف العربي إلى التفكير في حال مجتمعه و بالوسائل الكفيلة باصلاح أحواله و تحديثه. و لعل أوفى مثال عن ذلك موقف طه حسين الذي مثل الغرب بالنسبة له حلماً سالباً للعقل.

غادر طه حسين مصر على متن سفينة (اصفهان) إلى مدينة مونبولييي الفرنسية سنة 1914 طالباً للعلم بعد أن منحته الجامعة فرصة اتمام دراسته بالخارج ضمن بعثة علمية لكونه من الطلبة الأوائل. و قد وصف طه حسين أوروبا بأرض الإغراء الذي لا يقاوم في جو من الدهشة بين عائلته و أصدقائه. و قد اعتبر طه حسين نفسه أوفر الناس حظاً، إذ كيف يعقل أن يتمكن شاب مصري فقير و ضرير من الذهاب إلى فرنسا في ظل النكسات الاجتماعية المتتالية في المجتمعين المصري و العربي على حد سواء؟ لكن سرعان ما تبدد ذلك كله، و عاد طه حسين إلى مصر مجدداً بسبب الضائقة المالية التي كانت تعاني منها الجامعة المرسلة، و كان وقع ذلك على نفسه شديداً، بحيث أحس بعودته إلى مصر كما لو أنّه يعود إلى الموت مجدداً، فشتان بين حياة الأنوار في فرنسا و حياة الظلام بمصر.

عاد طه حسين ثانياً إلى فرنسا بعد انفراج الضائقة المالية لجامعته. و جدير بالذكر هنا أنّ تجربة طه حسين بفرنسا شكلت بالنسبة له رافداً علمياً غزيراً، بحيث عاد إلى مصر حاملاً معه رصيداً ثقافياً غنياً و متنوعاً. و قد تتلمذ طه حسين على يد نخبة من الأساتذة الأكفاء بجامعة السربون مثل ايميل دوركاهايم Emile Dorckhaiem و أرنست بلوخ Ernest Belock و غيرهم من أصحاب المدارس الفلسفية و الأدبية المختلفة. و على الرغم من أنّ أوروبا مارست إغراءا هائلاً على جل المثقفين العرب الذين سبقوا طه حسين، و تمكنت في ذلك، إلاّ أنّ الأمر اختلف مع طه حسين

(1)آمال فريد، إعداد المترجم للمشاركة في التنمية الثقافية (ندوة عن د. أحمد حماد، الترجمة الأدبية بين قيود النص و حرية الإبداع)، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 3، أبريل–يونيو، الكويت، 2002، ص285.

الذي أسس نظرة واضحة و منسجمة للغرب، فاعتبر الحضارة الأوروبية و ثقافتها نموذجاً جديراً يحتدى به لكن من دون أن ينغمس فيها متنكراً لذاته و هويته؛ و كان هدفه الأساس الإسهام في مساعدة مصر على تخطي حواجز الانحطاط و التخلف و ذلك بنشر ما تعلمه في فرنسا من مبادئ و رؤى و أفكار تنويرية.

إنّ فكرة التطلع نحو الآخر و ماهيته الإنسانية و عوالمه الثقافية و الحضارية، و منه حركة الكتابة و التأليف و الترجمة لم تكن أبداً رافداً جديداً على التصور العربي. و السبب هو أنّ الإنسان العربي ألف الترحال و المغامرة، و أبقى على باب الحوار الحضاري بينه و بين الأمم و الشعوب الأخرى مفتوحاً على مصرعيه؛ كما يعود مرد ذلك أيضاً إلى البصمة التي تركها الأدب العربي لدى الآخر و تأثره به. و يعتبر قيام اتحاد الكتاب الايرلنديين بتنظيم أمسية أدبية احتفاءا بالأدب العربي الحديث بتاريخ 14 مارس 1991 ضمن تظاهرة (دبلن Dublin عاصمة الثقافة الأوروبية) لنفس السنة إحدى تلك المظاهر. و قد كان ذلك تعبيراً عن تضامن الأدباء الايرلنديين مع الشعب العربي في محنة حرب الخليج. و نجد أنّ الشاعر الايرلندي ذو الأصل الألماني غابريال روزنستوك Gabriel Rosenstock كتب قصيدة بلغته الأم قال فيها أنّه بينما كان يسترق النظر إلى ساق حسناء رهيفة فإذا بحرب الخليج و مآسيها تتبادر إلى ذهنه فيحول بصره بعيداً في الفضاء مهموماً[1].

مُنح في ذات الاحتفالية ثلاثة من الأدباء الايرلنديين جوائزاً في الترجمة لنقلهم روائعاً عالمية إلى لغتهم القومية، هم الشاعرة نوالا ني دومهنيل Nuala Ni Dhomhnaill لترجمتها أشعاراً من التركية إلى الايرلندية، و الشاعر غابريال روزنستوك Gabriel Rosenstock، و أود أوكانين Aodh Ocanainn لترجمته رائعة خوان رامون خمينيث مانتكون Juan Ramon Jiménez Mantécon (بلاتيرو و أنا) (platero y yo) إلى الايرلندية عن الإسبانية. و (بلاتيرو) هو حمار خمينيث الشهير الذي أثار زوبعة في سنوات الأربيعينات حول (حمار الحكيم). و ليست بالمصادفة اتجاه هؤلاء الأدباء الايرلنديين إلى الأدبين التركي و الإسباني، بل إنّ الأمر مرتبط بالغوص في الهوية الثقافية لايرلندا، و محاولة اكتشاف أصولها و جذورها الأولى، و هي الفكرة نفسها التي تطرق إليها المخرج الايرلندي بوب كوين Bob Quinn في فيلمه المشهور (أطلانطيون) (Atlantean)؛ كما أنّ لديه كتاباً يحمل عنوان (تراث ايرلندا المنتمي إلى شمال افريقيا) الذي خالف فيه النظرة السائدة بأنّ الأصول الثقافية و الحضارية لبلاده ترجع إلى (السلت) (celt) الشمال ذوي العرق الآري. و يدفع بوب كوين في الفيلم و الكتاب معاً بفكرة أنّ التراث الايرلندي الثقافي يرجع في الأصل إلى تلك الآداب و الفنون التي عبرت إلى ايرلندا عبر المحيط من منطقة الشرق الأوسط و لاسيما من مصر و شمال افريقيا.

(1)ينظر مجدي يوسف، التداخل الحضاري و الاستغلال الفكري، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993، ص189.

و قد هجر السواد الأعظم من الايرلنديين، الذين كانوا من الفلاحين البسطاء ممن بقوا على قيد الحياة عقب المجاعة المهولة التي ضربت ايرلندا في منتصف القرن الماضي، و التي أودت بحياة المليون منهم، نحو شتى أصقاع المعمورة، خاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. و كان من بينهم من نزل بمصر. و يُذكر أنّ أحد هؤلاء الايرلنديين المسمى فيني أسس حي (الدقي) بالقاهرة على غرار ضاحية (دوكي) (Dalkey) الملحقة بمحافظة دبلن الايرلندية[1].

طرح مايكل كرونين Michael Cronin في أحد كتبه الرائعة مسألة مهمة جداً ينبغي أن نوليها الكثير من العناية و الاهتمام، و التي تتمثل في علاقة أدب الرحلات و الترجمة بالآخر المختلف لغوياً و ثقافياً. إنّ كل من الكاتب الرحال و المترجم في حوار متأصل مع اللغات و الثقافات الأخرى. و قد وظف مايكل كرونين مصطلح (البداوة) (nomadism) لإبراز أوجه التشابه و مواطن الاتفاق بين أدب الرحلات و الترجمة. و الواقع أنّه و بمجرد أن يصير ثمة احتكاك بمجموعة أو بمجموعات إثنوغرافية أخرى، يقوم الكاتب الرحال و المترجم بنقل تلك (الغيرية) (altérité-otherness) بمختلف أشكالها و شتى تجلياتها من لغوية و تداولية و فكرية و ثقافية بغية جعلها مقبولة و متداولة من قبل جمهور الثقافة أو الثقافات المستقبلة. كما يُعتبر المترجم و الترجمان، اللّذان ينتقلان من تخصص علمي و معرفي إلى آخر، و من لغة تنتمي إلى الثقافة العامة إلى أخرى منغلقة تنتمي إلى الثقافة المتخصصة، ممارسين لثقافة ثالثة شاملة هي ليست فقط من أقطاب العلوم الإنسانية الكلاسيكية، و لكنها تنحو نحو العديد من المجالات الأخرى التي تبحث في ماهية الإنسان.

يُسهم كل من الكاتب الرحال و المترجم اسهاماً كبيراً في تشكل الثقافة، و هذا ما كان ينبغي أن تشير إليه العديد من الأبحاث التي أجريت حتى الآن بشأن العلاقة بين الترحال و الترجمة. كما يمكن لذات الأبحاث أيضاً أن توظف لفهم الأسباب الحقيقية التي جعلت الدراسات الترجمية تأخذ منحى ثقافي.

و لنا في الثقافة العربية مثالاً عن ذلك كله. نموذج تاريخي ينبض بالحياة و لا ينضب: رحلة أحمد ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة، و دور رسالته في كشف خبايا حياة رجال الشمال الأشاوس الذين لم تطأ أرضهم أقدام عربية قط. ولسنا هنا بصدد التقليل من أهمية الرحلات العربية الأخرى، أو من قيمتها الحضارية الأكيدة و إغنائها للأنا و للأنا الآخر على حد سواء، و لكن فقط تمييز رحلة ابن فضلان لكونها تطابق تماماً ما نحن بصدد الحديث عنه، كما أنّه استطاع أن يصور بلغة بالغة الدقة و الجمال كل ما كان يجري من حوله على الرغم أنّه لم يكن لا كاتباً قاصاً و لا أديباً راوياً. و قد كثرت الرحلات في العصور الإسلامية، و اشتهر عدد من الرحالة الذين دونوا جميع ما شاهدوه حتى غدت كتبهم أحسن

(1)ينظر مجدي يوسف، م س، ص187-188.

المصادر بالنسبة لنا عن أحوال عالم العصور الوسطى. و كانت الرحلة لدوافع سياسية أو تجارية أو علمية، أو كانت حباً بالرحلة و التعرف على أرض الله الواسعة. و قد أسهمت هذه الرحلات في بعث العديد من العلوم، نذكر على سبيل المثال علم الجغرافيا و الأبحاث المتصلة به، و علم الأنواء (علم الطقس و المناخ) و التفصيل فيه من أنواع المناخ حسب المناطق الجغرافية و زمنها و مقارنة تأثير كل مناخ على المجموعات البشرية المختلفة. كما أسهمت الرحلات أيضاً في نبوغ العرب في مجال القياسات الفلكية، و طرق حساب المسافات بين النجوم و الكواكب، و تسخير كل ذلك أثناء السفر و الترحال بجعلها علامات يُهتدى بها. و لا ينبغي أن ننسى أيضاً ما كان لهذه الرحلات من دور كبير في إغناء الآداب الشفوية و المكتوبة على حد سواء، و التي تناقلتها الأجيال على مر الأزمنة و العصور. و من بين أشهر الرحالة المسلمين الذين تركوا بصمتهم في هذا المجال نجد كل من ابن بطوطة و ابن جبير و الحسن بن محمد الوزان[1].

كان أحمد ابن فضلان يتمتع بمستوى علمي كبير مكنه من تطويع اللغة العربية و تسخيرها لوصف كل ما كان يجري من حوله من أحداث على الرغم من أنّه لم يكن كاتباً أديباً بل رسول أمير المؤمنين المقتدر إلى بلاد الشمال. و قد جاءت رسالة ابن فضلان بليغة في المعنى، سديدة في الرؤية، تكشف الأسرار، و تنقل الأخبار بنبرة فيها الكثير من (العجائبية) حول أناس آخرين و مجتمع آخر، و عاداتهم في المأكل و المشرب و الملبس ... و يعتبر العديد من النقاد و المفكرين أنّ هذه الرسالة مهمة بالنسبة للعرب كافة في أنّها تحمل الآخر إلينا بكل ألوانه و أطيافه. بل أكثر من ذلك كله، إنّ رسالة ابن فضلان، في نظر المستشرق فرهن Ferhan الذي قام بدراسة ابن فضلان في الألمانية، تمثل مرجعاً رئيساً بالنسبة للأوروبيين أنفسهم، ذلك لأنّ تاريخ روسيا و ما جاورها من البلدان في العصور القديمة غير معروف، وهو ما يزال غامضاً

---

(1)**1. ابن بطوطة (777هـ)**

رحالة أندلسي ساح في أكثر أجزاء العالم الذي عاصره و وصل إلى أماكن لم يصل إليها ماركو بولو الرحالة الجنوي، فقد وصل إلى روسيا و تركستان و الهند و الصين و جزيرة سرنديب (سيلان) و جزر أندونيسيا و مر بمكة عدا البلاد الإسلامية، و جمع مشاهداته بكتابة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار)، و المشهود باسم (رحلة ابن بطوطة).

2. ابن جبير

و هو رحالة أندلسي قام بثلاث رحلات واسعة ابان الحروب الصليبية سجلها في كتابه (رحلة ابن جبير) بأسلوب أدبي رفيع، و طريقة علمية دقيقة الملاحظة.

3. الحسن بن محمد الوزان

يعرفه الأوروبيون باسم (ليو الافريقي)، و هو رحالة عربي من مواليد غرناطة بالأندلس، قضى شطراً من حياته في تونس و مراكش، و أسر في رحلة بحرية، و قدم هدية إلى البابا ليو العاشر الذي عمده و سماه بنفسه، و كتب و هو في روما كتابه (وصف افريقيا و تاريخها) الذي نشره باللغة الايطالية. و بعد أن مكث في ايطاليا من 1518 إلى 1550م تمكن من الفرار إلى تونس، حيث رجع إلى الإسلام إلا أن توفي مسلماً عام 1552 في عهد آخر ملوك بني حفص. و يعتبر كتابه (وصف افريقيا و تاريخها) أول مرجع ساعد الأوروبيين على معرفة افريقيا التي كانت لا تتعدى المناطق الواقعة شمال خط الاستواء و هي أرض البربر– ليبيا – السودان الغربي– اثيوبيا – بلاد المغرب و مصر.

(أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته و نظمه الادارية و السياسية و الأدبية و العلمية و الاجتماعية و الاقتصادية و الفنية، ط3، دار الفكر، دمشق، 1997، ص591-592).

في أكثر من جانب[1]. و على الرغم من أنّ نسطور Nestor كتب عن البيزنطيين و الفرنك و الاسكاندنافيين إلا أنّه لم يتوسع في أخبار الروس و البلغار، ليكون العرب بذلك قد فتحوا عيون الغرب على حقبات مهمة من تاريخ الغرب القديم. و قد نقل العرب الكثير من الأخبار عن بلاد الهند و الصين و بلدان المحيط الأطلسي، و كان ذلك بدافع النهل من علوم هذه الأمم و معارفها تمسكاً بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف الداعي إلى طلب العلم و السعي ورائه و لو في أقاصي الأرض.

و قد كان المترجمون و التراجمة عبر تاريخ البشرية الحضاري و الفكري العصب النابض لأي حراك ثقافي و تثاقفي. و قد بزغ نور هذا الحراك منذ الارهاصات الأولى لحياة الإنسان على وجه هذه البسيطة، منذ أن عرف الإنسان الأول الأبجديات (alphabets) التي اخترعها مترجمون من أمثال أولفيلا Ulfila الروماني (الملقب بالذئب الصغير) الذي يعتبر مؤسس الثقافة الغوطية، و هو ما خول الباحثين فهم تطور اللغات الجرمانية خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد[2]، وميسروب ماشتوت Mesrop Mashtots الذي أسهم اسهاماً بالغاً في ارصاء قواعد الثقافة الأرمينية من خلال اختراعه الأبجدية الأرمينية بين 392 و 406[3]. و من بين اسهامات المترجمين أيضاً عملهم على تطوير اللغات و الآداب الوطنية في العديد من الثقافات، و نشر المعرفة و الدين، و نقل القيم الثقافية، و خط القواميس و إنشائها. كلها أدوار محورية لعبتها الترجمة عبر تاريخ الحضارة الإنسانية بعيداً عن النظرة الضيقة التي ترى أنّ فعل الترجمة يكمن فقط في تبديل البنى اللغوية من نص إلى آخر. و ينبغي أن ننتبه هنا إلى أنّ تبديل البنى اللغوية هذا يخضع بدوره لمعايير نصية مضبوطة التي أشار إليها العديد من اللسانيين من أمثال بوغراند Beaugrande و درسلر Dressler. ينبغي أن تتحقق هذه المعايير النصية السبعة[*]، بوصفها شروط حدوث أي فعل تواصلي نصي، في نص الترجمة كما في النص الأصل أو في أي نص آخر.

و قد دفع ذلك بالعديد من الأمم إلى الاهتمام بالترجمة و العناية بها إلى حد تقديسها. و من الأمثلة على ذلك قيام لينين في روسيا السوفياتية بتكليف الأديب و المفكر مكسيم جوركي Maxime Jorky بالإشراف على كل أنشطة

---

(1)ينظر سامي الدهان، رحلة ابن فضلان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960، ص29.

(2)see Jean Delisle, Judith Woodsworth, Translators Through History, volume13, John Benjamins publishing company, UNESCO publishing, 1995, p08-09.

(3) Ibid, p11.

(*)These standards of textual communication are: cohesion, coherence, intentionality, acceptability, informativity, situationality and intertextuality.
(see Ali Darwish, The translation process: A view of the mind, at-Turjuman Online http://www.translocutions.com/translation/index.html), document identifier AD 020789-01, 1989).

الترجمة هناك، و قد كان ذلك نابع من قناعة لينين الشخصية في أنّ الترجمة تعادل في أهميتها المضي قدماً في كهربة روسيا[1]. وضع لينين استراتيجية شاملة للترجمة من خلال إنشاء جهاز لها يضم أكثر من مائة ألف مترجم لنقل علوم الغرب إلى اللغة الروسية، مع إشرافه الشخصي على هذا الجهاز، فأصبح الاتحاد السوفياتي، الذي كان يضم قبل انهياره قرابة مليوني مترجم عن جميع لغات العالم، موطناً للإنجازات العلمية في مختلف المجالات. كما يشهد التاريخ أنّ اليابان في بداية نهضتها الحديثة عهدت إلى مؤسسة هولندية مقيمة في اليابان مهمة بلورة حركة ترجمة واسعة النطاق تنقل إليها إنجازات أعلام الفكر و العلم في أوروبا، كما عقدت اتفاقات عديدة مع كبرى دور النشر العالمية لكي تصدر طبعات باللغة اليابانية لكل اصدارات هذه الدور في اللغات الأخرى أي الأصلية[2]. و قد عكفت الولايات المتحدة الأمريكية في ذات السياق على ترجمة ما يعادل 80% من انتاجها المعرفي الكلي، كما أنّ إسبانيا قامت في خطوة استباقية بترجمة الكتب إلى اللغة الإسبانية حتى قبل أن تصدر هذه الكتب بلغتها الأصلية[3].

و بغية أن تكون الترجمة آداة فاعلة للدفع بالفعل الثقافي نحو الأمام في ثقافتنا العربية، ينبغي أن تكون فعلاً منتجاً، بل أكثر من ذلك فعلاً يقدر على حماية الفكر العربي و انقاذه من الأخطار المتربصة به و خاصة "خطر الحنين الماضوي و الاستلقاء في أكناف الآباء و الأجداد، و خطر الاستلاب و الضياع فيما هب و دب من نتف الثقافات المستوردة دون وعي أو هضم، و دون غربلة و انتقاء"[4].

يشهد العصر الذي نعيش فيه تحولاً كبيراً في شتى جوانب الحياة، و ثورة في وسائل الإعلام و الاتصال و العلوم التقنية المتصلة بها، ما يشكل تحدياً آخر بالنسبة لأمتنا العربية في ضرورة أن تمتلك هذه الوسائل و التقنيات التي أصبحت بمثابة حواس المجتمعات البشرية التي لا يمكن الاستغناء عنها أو إغفال دورها في الارتقاء بها إلى مصاف الأمم المتحكمة في زمام المبادرة و "بحركة العالم الذي بات لا يستطيع الحركة بدون هذه الحواس، و هو الذي سوف يقود قطار العولمة، و يمر به في سائر أنحاء العالم"[5].

سيدرك الواحد منا يقيناً أنّ ضرورة امتلاك أمتنا العربية لمثل هذه التقنيات و الوسائل في هذا الوقت بالذات، الذي طُمست فيه الحدود فأصبحنا نعيش فيما يشبه قرية صغيرة، بات مطلباً ملحاً، و ذلك بسبب العولمة الزاحفة التي تهدف

(1)ينظر جابر عصفور، حول المشروع القومي للترجمة، العربي، العدد 494، يناير، 2000، ص70.

(2)ينظر محمد شوقي جلال، م س، ص74.

(3)ينظر جريدة البيان، العدد103، الأحد 15 شوال 1422هـ الموافق لـ 30 ديسمبر 2001، ص06.

(4)هاشم صالح، دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي المعاصر، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، 1989، ص25.

(5)بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة، رؤية نقدية، كتاب الأمة، تقديم عمر عبيد حسنه، ط1، العدد 86، السنة 21، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ذو القعدة 1422هـ/يناير- فبراير 2001م، ص41.

إلى دمج الأجناس و الأعراق و الأقوام في نظام عالمي موحد "يقوم على العقل الالكتروني و الثورة المعلوماتية القائمة على المعلومات و الابداع التقني غير المحدود دون اعتبار للأنظمة و الحضارات و الثقافات و القيم و الحدود الجغرافية و السياسية القائمة في العالم"[1].

و بما أنّ الترجمة تشكل في حد ذاتها وسيلة من وسائل الإعلام و التواصل، و إحدى طرائق نشر المعرفة الإنسانية فإنّها تدخل أيضاً في دائرة الضروريات العلمية و الحضارية التي ينبغي امتلاكها و السعي وراء اكتسابها أكثر من أي شيء آخر لأنّها كانت و ستبقى السبيل الأمثل لتجسيد التماثل الثقافي و التواصل الحضاري بين البشر كافة، شعارها في ذلك الترجمة لأجل البقاء.

II. استراتيجيات التوصيل الثقافي في الترجمة

لقد واكب تطور علم الترجمة مع بداية منتصف القرن العشرين و ارتقاء الدراسات المتصلة بهذا الميدان كماً و نوعاً ظهور العديد من المفاهيم و المصطلحات الجديدة التي لم تكن متداولة في الحقل اللساني. و من بين هذه المفاهيم مفهوم (الاستراتيجية) (strategy) الذي ارتبط و لقرون طويلة بفنون الحرب و القتال و التخطيط لها و ضبط متطلباتها اللوجيستيكية قبل أن ينتقل العمل به إلى التخصصات العلمية المتنوعة الأخرى مثل علم السياسة و علم الاقتصاد و علم الإدارة و الأعمال و غيرها.

يرتبط مفهوم (الاستراتيجية) في حقل الترجمة بشكل عام بسعي المترجم الحثيث في بحثه عن السبل الكفيلة لنقل النص ببعديه اللغوي و الثقافي بطريقة تأخذ بعين الاعتبار نمط هذا النص و الجمهور المستهدف. و قد ينطوي ذلك أحياناً كثيرة على حيل لغوية و بلاغية (اللغة+الصورة)، أو أسلوبية أو حتى ثقافية تكون للمترجم المعين الرئيس في مجابهة أي تعذر لغوي أو أسلوبي أو ثقافي الذي قد يكتنف عملية النقل. و قد اقترح العديد من المنظرين الغربيين، على إختلاف توجهاتهم الترجمية من أمثال فيناي و داربلنيه Vinay et Darblnet، و أوجين ألبير نيدا Eugene Albert Nida، و ج.س كاتفورد J.C Catford، و لورانس فينوتي Lawrence Venuti الكثير من الاستراتيجيات التي تهدف إلى إيجاد السبل المثلى للتعامل مع النص و ضبط الطرائق الأنجع لترجمته بما يحافظ على معناه و يتوافق مع توجهات المتلقي الثقافية و الأيديولوجية و حتى أفق انتظاره. و قبل أن نغوص في دراستنا لمفهوم (الاستراتيجية) من المنظور الترجمي، باعتباره من المفاهيم المتقدمة في ميدان علم الترجمة، سنعرج على معاني كلمة (strategy) اللغوية ثم الاصطلاحية في بعض من مجالات المعرفة الإنسانية.

---

(1)عبد الكريم بكار، العولمة، طبيعتها، وسائلها، تحدياتها، التعامل معها، ط1، دار الأعلام للنشر و التوزيع، عمان، 1421هـ/2000م، ص11.

1. مفهوم (الاستراتيجية) (Strategy)

1.1 لغة

إنّ السابر لأغوار مختلف اللغات الأوروبية أو اللغات الإغريقية–اللاتينية بشكل أعم سيلحظ أنّ مصطلح (الاستراتيجية) (strategy) متدوال فيها جميعها، إذ نجد في اللغة الألمانية كلمة (strategie)، و في اللغة الروسية كلمة (strategija)، و في اللغة الهنغارية كلمة (strategi). و يعود أصل كلمة (strategy) إلى الكلمة الإغريقية (stratos agein) ذات المقطعين: الكلمة الأولى (stratos) تعني الجيش، أما الكلمة الثانية (agein) فتعني القيادة و منه معناها (الجيش الذي ندفع به إلى الأمام). و إن نحن وصلنا الكلمتين معاً على نحو (strategos) سنحصل على معنى (الجنرال)، و منه الفعل (strategо) الذي يعني (قاد) أو (أمر)، ثم الصفة (strategikos) التي تدخل ضمنها كلمة (strategika)، و التي تعني ما يقوم به الجنرال من مهام و وظائف و الصفات التي يمتلكها هذا الأخير[1]. يدور مفهوم (الاستراتيجية) على هذا المستوى إذن في فلك الدلالة العسكرية للكلمة بوصفها فن قيادة الجيش أو فن القيادة بصفة عامة.

و ثمة رأي يقول أنّ هنالك فرضية أخرى حول الأصل الاشتقاقي لكلمة (strategy) و هو أنّ كلمة (stratos) لا تعني الجيش أو الجيوش بشكل عام، بل الجيش الذي يرابط في منطقة ما إيذاناً بالحرب. و كلمة (stratos) هنا تتصل بمعنى آخر أكثر إلماماً و دلالة: (gia) التي تعني الأرض و (agein) التي تعني الدفع بالشيء نحو الأمام. و يعتبر هذا المعنى الأكثر شيوعاً بين جمهور المؤرخين للعلوم الاستراتيجية. و من بين الكلمات التي انبثقت من ذات الأصل أيضاً، نجد الإسمين (strategia) و (strategema) اللّذان أشتقت منهما كلمة (stratagème). و يرى الماريشال دو بويسغير De Puységur أنّه كان لكلمة (stratagème) معنى آخر في اللغة اللاتينية لم يكن موجوداً في اللغة الفرنسية، إذ كانت تعني في اللاتينية الحيلة أو الخديعة أو الوسيلة في الحرب[2]. بيدأنّ هذا الخداع و التحايل يقبع ورائه ذكاء باهر و نظرة ثاقبة يتميّز بهما الجنرال أو القائد الحربي.

يشهد تاريخ البشرية أنّ مفهوم (الاستراتيجية) كان معروفاً و معمولاً به قبل أن يتطور مفهوم (المخطط الاستراتيجي) أو الحربي بأبعاده الحداثية المعاصرة. ففي أثينا مثلاً كانت القبائل، منذ القرن الخامس قبل الميلاد، تختار عشرة استراتيجيين بغية تأسيس مدرسة حربية، و يمكن لواحد منهم أن يفرض نفسه بعد ذلك مسيطراً على البقية. لكنه بإمكان جميع الأفراد

(1)see Everett L. Wheeler, Stratagem and the Vocabulary of Military Trickery, Leyde, Brill; Mnemosyne Supplement 108, 1988, p03.
(2)voir Hervé Coutau- Begarie, Traité de Stratégie, Economica, paris,1999, p36-37.

المكونون لهذه المدرسة قيادة الجيش أو قطعاً منه، على أن توزع المهام على الاستراتيجيين منهم، فيكلف أحدهم بالتسليح و التجهيز، و يُعهد لآخر مهمة الدفاع عن الحدود، و يُعين آخر لقيادة الجيش و التقدم به إلى غير ذلك من المهام. و قد تغيرت مدرسة الاستراتيجيين هاته عند قيام الحضارة الهيلينية، لكن هذا التغير اقتصر فقط على شيوع هذا المبدأ في كافة أرجاء اليونان مع تسجيل تراجع لأهمية هذه المدرسة، ليبقى الأهم من ذلك كله أنّ مفهوم (الاستراتيجية)، في حد ذاته، ظل يكتنفه الغموض.

و في الربع الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ظهرت كلمة (strategema) لصاحبها غزينوفون Xénophon لكن الدفع الحقيقي لمعنى هذه الكلمة كان على يد الحكيم المسيحي كليمو ألكسندري Clément Alexandrie في القرن الثاني قبل الميلاد، و ستظهر في نفس العصر كلمة (strategika) لصاحبها ديمتروا دو فالير Demetrois de Phalère. و قد ارتبطت كلمة (strategema) انطلاقاً من كتابات مؤرخي القرن الأول قبل الميلاد بفكرة الحيلة و الخداع في المعركة، و السبيل المؤدي إليها؛ في حين أنّ كلمة (strategika) ارتبط معناها بوظيفة الجنرال أو القائد. وبين هاذين المفهومين، اكتسب الفعل (stratego) معنى أكثر دقة، بحيث عرّفه الفيلسوف أونوساندر Onosander، على سبيل المثال، أنّه (المناورة) من الفعل (ناور).

لجأ الرومان إلى عملية (لتينة) (latinization) العديد من المصطلحات، أي اعطاء كلمة غير لاتينية صيغة و صبغة لاتينيتين، فتحدث المفكر و الفيلسوف شيشرون Ciceron عن كلمة (strategema) في إحدى رسائله العام الواحد و الخمسون قبل الميلاد. و ستحل هذه الكلمة تدريجياً مكان الكلمات اللاتينية المكافئة لها (sollertia, ars, astutia, dolus). و لابد من أن نشير إلى أنّ الرومان قد درسوا العلوم العسكرية و الحربية أو كما سمّوه (علم الأشياء العسكرية) (Scientia nie militaris) الذي يحمل بين طياته مفهوم (الاستراتيجية). و ليس ذلك بمحض الصدفة لأنّ الرومان خبروا الحرب و نبغوا في فنونها و طرائقها و وسائلها.

لقد عمد الكثير من الاستراتيجيين البيزنطيين في القرن الخامس بعد الميلاد إلى تعريف (strategos) أو (stratège) بوصفها التسمية التي تطلق على من يكون في المكان الأول في الجيش، أي قائده. و ثمة دراسة للكاتب سريانوس Syrianos أنجزها في القرن السادس الميلادي تحت عنوان (Peri Strategikes) أو (الاستراتيجية). و سيعرف مصطلح (الاستراتيجية) تراجعاً كبيراً في العصر الهيليني من ناحية الماهية و الأهمية، ليصبح الاستراتيجي بعد ذلك (القائد ضمن إقليم جغرافي معين)، أي أنّه بمثابة منصب حكومي ليترك معناه فيما بعد لكلمة (الدوق). و على الرغم من هذا التواثر، استطاع مصطلح (الاستراتيجية) أن يحفظ لنفسه بعضاً من الاهتمام، و الفضل في ذلك يعود إلى

ولوج مصطلح جديد آخر إلى ميدان الفنون الحربية و العسكرية، هو مصطلح (التكتيك) (Taktiks).

و على خلاف الحضارتين اليونانية و الرومانية، يمكننا أن نجزم أنّه لا وجود لأي ما يعادل مصطلح (الاستراتيجية) في المجتمعات التي كانت لديها تجربة مميّزة في فنون الحرب و القتال باستثناء المجتمع الصيني الذي كان من بين المجتمعات الرائدة في ذلك، بل و أبرزها على الإطلاق. و مرد ذلك هو تاريخ الصين الحافل بالحروب و الصراعات في زمن حكم الامبراطوريات المتعاقبة، و ما رافقه من أساطير و خرافات ممجدة لها. و نجد في هذا الصدد أنّ العالم الصيني الشهير زون زي Zun Zi وضع مصطلح (بينغ فا) (Bing Fa) الذي تُرجم بـ (الاستراتيجية) من قبل مترجمين معاصرين على الرغم من أنّ هذا المصطلح يشتمل على دلالة أوسع من مفهوم طرائق الحرب و فنونها.

و يُطرح السؤال عن العلاقة الموجودة بين الحرب و السياسة في العصر نفسه. يعتبر ذلك في حد ذاته نقلة نوعية لمفهوم (الاستراتيجية) الذي سيرتبط منذئذ بفن السياسة و إدارة شؤون الحكم و تدبيره. إنّ السبب في الربط بين هاذين المفهومين هو أنّ الحاكم الحذق بإمكانه أن يكسب الرهانات و ينتصر في الصراعات إن توفر لديه حس سياسي مميز و حنكة و خبرة في ذلك، و إلاّ فسيأخذ هذا الصراع شكلاً مسلحاً المعروف بالحرب. ينبغي على الحاكم أن يختار إما أن يكون "ملكاً محترماً، لديه أرضاً واسعة، و حاكماً للعالم، أو أن يكون ضعيفاً أرضه محتلة و يفقد سلطته، كل ذلك تقريره بالحرب. من القديم و حتى أيامنا هذه، ليس لدينا أي مثل أو نموذج على أحد أصبح قائداً للعالم من غير الانتصار بالحروب أو بالحصول على السلطة من غير منازع"[1].

و على الرغم من أنّ الدارسين لا يجدون أي كلمة أو مفردة لمصطلح (الاستراتيجية) في الفكر الصيني، إلاّ أنّ التفكير الاستراتيجي عُرف لدى الصينيين من المنظور نفسه، أي من خلال فن الجنرال و وضع المخططات و تحليل الحالات و الأزمات، و رصد الطرائق و الأساليب العسكرية.

و قد شهد القرن الثامن عشر نهوضاً بمفهوم (الاستراتيجية). و يعتبر الأميرال ماتي Mathey أنّ السبب المباشر في ذلك هو توظيف كلمة (stratège) من قبل الكاتب هاريغتون Harrigton في مؤلفه (أوسيانا) (Oceana) العام 1656. يعني ذلك ببساطة الرجوع إلى الكلمة اللاتينية (strategos). أما المصطلح المعاصر (strategy)، فقد ظهر في اللغة الانجليزية العام 1688 في كتاب (Geography) لمؤلفه موردن Morden و لكن بمعنى (إدارة مقاطعة أو إقليم). و لم يأخذ مفهوم (الاستراتيجية) أية دلالة عسكرية إلى غاية العام 1810 عند صدور الطبعة الثالثة للقاموس

(1) Guang Zi, Les Sept Méthodes du Gouvernement, cité dans Xu Zhen Zhou (l'art de la politique chez les légistes chinois), Economica, paris, 1995, p229).

العسكري (Military dictionary) لمؤلفه جيمس James؛ ثم اشتق بعد ذلك الظرف (strategically) من الكلمة (strategy) في العام نفسه. و قد وظف الكاتب فرانشسكو باتريزي Francesco Patrizi مصطلح (strategy) في كتابه (Paralleli militari) سنة 1594، حيث أكد أنّه على العسكري أن يتعلم مهنته في كتب التكتيك و الاستراتيجية. و لن يحظى هذا المصطلح بقدر كبير من النجاح في أوروبا الشمالية إلا عندما يقترح جون دوناصو Jean de Nassau تقسيم الآداب العسكرية الرومانية إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي (strategetica, tactica, poliorcetica).

أما عن اللغة الفرنسية، فقد كان لها الدور الكبير في إعادة إدخال مفهوم (الاستراتيجية) إلى اللغة الحديثة. و أول دلالة اكتسبها المصطلح في اللغة الفرنسية تشبه تلك التي تداولها الرومان في القرن السادس عشر للإشارة إلى إدارة عسكرية في إقليم أو مقاطعة. و قد أشار قاموس (تريفو) (Trévoux) سنة 1721 أنّ (الاستراتيجية) تعني قيادة الكتائب و الجماعات عند اليونانيين. و يشرح هذا القاموس أيضاً كلمة (stratagème) على أنّها حيلة أو وسيلة عسكرية تستخدم في الحروب من أجل مفاجأة العدو أو خداعه. و ثمة قواميس أخرى عكفت على شرح مصطلح (الاستراتيجية)، نذكر منها على سبيل المثال القاموس اللاتيني لصاحبه دو كونج Du Cange الذي أحصى أكثر من اشتقاق (stratigus, stratigotus, strategus, straticus)، و قاموس (ايستيان) (Estienne) الذي عرّف كلمة (strategus) بأنّها لقب رئيس الجيش.

2.1 اصطلاحاً

إنّ لدى العديد من العلوم المتصلة بالإنسان مادة و موضوعاً، التي تسمى بالعلوم الإنسانية، مسلمة ادعاء فهم ظاهرة إنسانية ما فهماً عميقاً، و ادعاء تشخيصها و ايجاد الحلول للمعضلات التي تصادفها أكثر من هؤلاء الذين يعيشونها أنفسهم. و بما أنّ الاستراتيجية هي إحدى هذه العلوم الوثيقة الصلة بالإنسان، فإنّها تؤمن بهذه المسلمة. و تسعى الاستراتيجية إلى أن تكون علماً مؤسساً ذو قواعد و ضوابط يأتي على رأس جميع أنواع الصراعات؛ كما أنّ (الاستراتيجية) أو (علم الاستراتيجية)، على الرغم من تعدد تعريفاته و تنوعها، يعتبر عملاً نبيلاً لا يمارسه إلاّ صفوة الصفوة. و قد شهد هذا العلم تحولات في الماهية و الدلالة، فبعدما كان الحديث في السابق عن (الاستراتيجية الفطرية–الغريزية) عند هيربرت روزينسكي Herbert Rosinski، تحول الحديث عن مادة علمية خصبة تلقن في كبرى الأكاديميات العسكرية و أعرق الجامعات العالمية، لا تختلف عن غيرها من المواد العلمية التدريسية الأخرى.

و نجد أنّ أول دلالة ترافق مفهوم الفعل الاستراتيجي أو ما يرتبط به من مفاهيم مسألة التوافق أو التلاؤم. و يعني ذلك

أنّه لا ينبغي علينا أن ننظر إلى الاستراتيجية على أنّها مجرد مفهوم بسيط و سهل، بل ينبغي أن نضع نصب أعيننا شخص الممارس و المخطط لها الذي يجب أن تتوفر فيه خصلتي المسؤولية و الكفاءة. و ما يبرهن على ذلك هو توظيفنا لمفهوم كلمة استراتيجية في لغتنا العامية، فإن قلنا مثلاً أنّ (هذا الشيء استراتيجي) فيعني أنّه ذو أهمية بالغة أو أنّه لا يقدر بثمن.

أما الدلالة الثانية التي ترافق هذا المفهوم فهي مسألة المستقبل، ذلك لأنّ الاستراتيجية تنتقل بنا من اللحظة الآنية التي نعيشها إلى لحظة في الزمن المستقبل نتخيلها، أو كما يقول الاستراتيجيون أنّها تخلصنا من الخنوع لديكتاتورية اللحظة. و لا يعني ذلك البتة أنّ الاستراتيجية قد تختزل إلى خطة أو مخطط للتطبيق، لأنّ المخطط عادة ما يقصد به (خطة عمل) أو (خارطة طريق) تنبني على توقعات و تنبؤات تجعل من الممكن القيام بفعل ما مستقبلاً، بل إنّ الاستراتيجية شكل من أشكال ولوج المستقبل بأكمله. و إن نحن قارنا مثلاً بين عمل الإداري و عمل الاستراتيجي لوجدنا أنّ عمل الإداري يُجسد في الحيزين المكاني و الزماني نفسهما؛ في حين أنّ عمل الاستراتيجي يخرج في أحيان كثيرة عن هاذين الحيزين. و هنا ترتبط الاستراتيجية ارتباطاً وثيقاً بما أصبح يصطلح عليه اليوم (علم الاستشراف)، لأنّ المستشرف، حاله في ذلك حال الاستراتيجي، يملك نظرة ثاقبة و نفساً طويلاً.

و يعتبر ذلك بمثابة الحقيقة الأزلية في نظر سون زي Sun Zi، الإستراتيجي الصيني الشهير، الذي أكد أنّ الأكثر تميّزاً من القادة هم الأكثر حكمة و الأكثر استشرافاً. ليأتي القانون العسكري الياباني، بعد زهاء عشرين قرناً، متأثراً بذات المقولة أيضاً، و الذي ألزم العسكريين بالإلمام بالفنون و النظريات العسكرية معاً. ثم جاء الملك فريدريك الثاني برأي مشابه للرأيين السابقين، حيث أكد أنّ قراءة الأدب و الرسائل الجميلة مهمة بالنسبة لمن هم في الحياة العسكرية. و يمكننا أن نصنّف ذلك ضمن خانة ما يعرف بـ (الثقافة الاستراتيجية)، التي يدخل في تشكلها مختلف التجارب الحياتية، و نمط الشخصية و ميولها، و مدى الإطلاع على العلوم و المعارف و غيرها من الأمور التي تمثل العلبة السوداء بالنسبة لكل استراتيجي.

و بما أنّ الاستراتيجية هي علم قائم بذاته (علم الاستراتيجية أو الاستراتيجية العلمية) مثله مثل أي علم آخر، فإنّه يتكون من شقين اثنين: شق نظري و آخر عملي–إجرائي. إنّ من بين حقائق الفكر الاستراتيجي التركيز على المعرفة النظرية كسابقة على الإجراء التطبيقي. و يؤكد في هذا الصدد العديد من الاستراتيجيين أنّ الجانب النظري ذو أهمية قصوة لتكوين المنفذين أو الذين سيطبقون الخطط بغية أن يصبح لديهم رؤية جديدة تخدمهم و تشد من عضدهم في كل خطوة ضرورية لإنجاز مهمتهم على أحسن وجه و أكمله.

و للاستراتيجية قواعد مؤسسة و ضوابط تحكمها قد تتغير بحسب الموقف لكن معضمها يبقى ثابتاً، كما أنّ الجهل بهذه القواعد أو تجاهلها قد يؤدي حتماً إلى أزمات و نكسات غير محمودة العواقب.

على الرغم من التعريفات العديدة التي خص بها المفكرون كلمة (استراتيجية)، إلاّ أنّنا نلحظ تقاطعاً بين ذات التعريفات. و ما يعزز هذا الطرح هو أنّ الكثير من هذه التعريفات تضمنت نفس النعوت، فمنها على سبيل المثال أنّ الاستراتيجية هي مجموعة وسائل، أو أنّها نمط من الأفعال و التصرفات، أو أنّها تقنيات و فنون و وسائط. و قد أجمع هؤلاء الدارسين أنّ الأمر لن يستقيم أبداً من دون استراتيجية محكمة توضع سلفاً بغض النظر عن التخصص العلمي و الحقل المعرفي موضوع الدراسة؛ فهي بذلك بمثابة منهاج و أسلوب يخلص من الفوضى و يقوّم الإعوجاج و يقيّم الناتج. و لا يدعم ذلك الفكرة السائدة عند الكثيرين بأنّ كلمة (استراتيجية) لها نفس مدلول كلمة (صراط) (strata) اليونانية، و الذي يعتبر اعتقاد غير مؤسس علمياً. لتكون الاستراتيجية في مجملها عبارة عن مجموعة من الوسائل تستخدم للوصول إلى غرض محدد، أو العمل على تفادي حدوث أمر ما بطريقة عكسية. و قد أشار مجدي ابراهيم في السياق ذاته أنّ الاستراتيجية أفعال و تصرفات تستخدم لتحقيق نتائج معينة، أو أنّها تعمل على وقف نتائج غير مرغوب فيها.

تعتبر الاستراتيجية فناً من الفنون أيضاً لأنّها، مثل باقي الأنشطة الإنسانية، تحقق بعداً جمالياً. و قد تعرف الاستراتيجية على أنّها فن توزيع و استخدام مختلف الوسائل للوصول إلى الهدف المعين و الغاية المنشودة، على أن يتم قبل ذلك تخصيص المهام و توزيع الأدوار منفصلة و متصلة التي بمجموعها أو اجتماعها يتحقق المبتغى.

تعددت السياقات التي من خلالها تم توظيف كلمة (استراتيجية)، و لعل أبرزها و أكثرها شيوعاً و تداولاً هما سياقي الحرب و الاقتصاد. و بالتالي يمكننا أن نصادف مثل هذه الاصطلاحات ضمن هاذين السياقين مثل الاستراتيجية العسكرية، و الاستراتيجية الاقتصادية، و الاستراتيجية التسويقية، و استراتيجية إدارة الأعمال. و ثمة توظيفات أخرى لهذه الكلمة في سياقات عديدية أخرى كاستراتيجية كرة القدم، أو الاستراتيجية النظرية لرياضة أو لعبة ما.

و من بين المعاني الاصطلاحية لكلمة (strategy) باللغة الانجليزية نجد مايلي:

- A strategy is a long term plan of action designed to achieve a particular goal **(1)**

– الاستراتيجية تخطيط على المدى الطويل للأعمال المعدة لبلوغ هدف معين (الترجمة لنا)

- A broad non-specific statement of an approach to accomplishing desired goals and objectives **(2)**

– عرض واسع و غير خصوصي لمقاربة ما بغية بلوغ الأهداف و المقاصد المرغوب فيها (الترجمة لنا)

(1)en.wikipedia.org/wiki/Strategy.
(2)www.for.gov.bc.ca/hfd/library/documents/glossary/S.htm.

- The general plan or direction selected to accomplish incident objectives **(1)**

– المخطط أو التوجه العام الذي أختير لبلوغ أغراض خارجية (الترجمة لنا)

- A systematic plan, consciously adapted and monitored, to improve one's performance in learning **(2)**

– مخطط نظامي تم تبنيه و مراقبته بوعي لتحسين فعالية شخص ما في التعلم (الترجمة لنا)

- A systematic plan **(3)**

– مخطط نظامي (الترجمة لنا)

- In the broadest sense, a specific way in which something is to be done **(4)**

– بالمعنى الأكثر شمولاً، إنّها طريقة خاصة التي من خلالها ينبغي لشيء ما أن ينجز (الترجمة لنا)

- A course of action to achieve targets **(5)**

– سير الأفعال لبلوغ أهداف (الترجمة لنا)

- A strategy is a planned, deliberate, goal-oriented (has an identifiable outcome) procedure achieved with a sequence of steps subject to monitoring and modification **(6)**

– تعتبر الاستراتيجية إجراء مدروس تم التخطيط له و موجه نحو هدف (لديه نتيجة معروفة) أنجز من خلال تسلسل خطوات تكون موضوع مراقبة و تعديل (الترجمة لنا)

- The logical framework and set of coordinated decisions linking development goals with the actions required to achieve them **(7)**

– الإطار المنطقي و مجموعة القرارات المتناسقة التي تربط أهداف التطوير بالأفعال اللازمة لبلوغها (الترجمة لنا)

- A set of explicit mental and behavioral steps used to achieve a specific outcome **(8)**

– مجموعة من الخطوات الذهنية و السلوكية الصريحة الموظفة لبلوغ نتيجة نوعية (الترجمة لنا)

- A plan or method including options and priorities towards the achievement of a defined goal or objective **(9)**

– مخطط أو منهجية تتضمن خيارات و أولويات نحو تحقيق هدف أو غرض محدد (الترجمة لنا)

---

(1)www.w0ipl.com/ECom/icsterms.htm.
(2)www.mdk12.org/instruction/curriculum/reading/glossary.shtml.
(3)www.nmlites.org/standards/language/glossary.html.
(4)www.oup.com/uk/booksites/content/0199274894/student/glossary/glossary.htm.
(5)www.moh.govt.nz/moh.nsf/0/15f5c5045e7a1dd4cc256b6b0002b038.
(6)education.qld.gov.au/curriculum/learning/literate-futures/glossary.html.
(7)www.oas.org/usde/publications/Unit/oea03e/ch13.htm.
(8)www.deeptrancenow.com/dict_r.htm.
(9)www.undp.org/rbec/nhdr/1996/georgia/glossary.htm.

و بما أنّ المعنى الاصطلاحي لكلمة (استراتيجية) يختلف من حقل علمي متخصص إلى آخر، فلا بأس من أن نشير إلى مفهوم بعض الاستراتيجيات العلمية بحسب الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه. إنّ مفهوم الاستراتيجية، و كما أشرنا إليه آنفاً، تم التداول به لأول مرة في المجال العسكري و الحربي، و اتخذ كل معناه في هذا الميدان. و تعنى الاستراتيجية العسكرية بعملية التخطيط لخوض الحروب، إذ تقوم على دراسة و تعبئة كافة الامكانات و الطاقات الاقتصادية و البشرية و ما إلى ذلك من قوى الضغط بغية التأثير على معنويات الخصم و النيل من عزيمته لإجباره على الخضوع و الاستسلام. و بالتالي فإنّ الغاية من كل ذلك هو تحقيق أهداف سياسية و سلطوية.

تعتبر الاستراتيجية العسكرية وسيلة في يد (الاستراتيجية العليا) لإحراز النصر في ميدان القتال، و تحقيق هدف السياسة التي هي تابعة لها و تعمل وفق مخططاتها و مناهجها و في تطبيقها العملي على مستوى أدنى؛ كما أنّها تشكل الجانب التنفيذي لسياسة القوة. و تعتمد الاستراتيجية العسكرية، بغية تحقيق النصر، على محاولة إختزال إمكانات العدو إلى الحد الأدنى للوصول إلى هدفها بأيسر السبل و أكثرها فعالية و أقلها تكلفة، مزودة في ذلك بدراسة حثيثة و تقدير سليم لعوامل الزمان و المكان و القدرات المادية و المعنوية المشكلة للوضع الاستراتيجي، و بفهم واع لأهدافها، و متسلحة بعاملي الحركة و المباغتة اللّذان يشكلان معاً عنصر (المناورة الاستراتيجية) التي تحدد تتابع الأحداث و علائقية الأوضاع و تعاقب الحالات. و تعتبر المناورة العامل الموجّه و المحرك لبقية العوامل؛ و هو العامل الذي يعبر عن الصراع المجرد بين إدارات الخصوم على شكل أفعال و ردود أفعال متعاقبة.

إنّ الاستراتيجية السياسية، التي تربطها علاقة وطيدة بالاستراتيجية العسكرية، هي عملية تكتل و دراسة و تنمية القوى السياسية المتوفرة بهدف تقديم أقصى دعم للسياسات المتبناة، أو المعمول بها أوقات السلم و الحرب. و تسمى إما بالاستراتيجية السياسية، أو الاستراتيجية الشاملة، أو الاستراتيجية الكبرى، أو العامة، أو العليا. و تشمل التخطيط و التنسيق و تطوير جميع موارد و إمكانات الدولة لتحقيق الأهداف المرجوة. و إن حصل و تساوت دولتان في الموارد و الإمكانات و القوى السياسية، فإنّ الدولة التي تملك الاستراتيجية الأنجع و الأكثر تماشياً و ملائمة للوضع هي التي ستحقق النجاح. و ترتكز الاستراتيجية السياسية على مبادئ أساسية هي:

– صياغة مجموعة من المبادئ و الخطط التي تحدد الأهداف القومية للدولة.

– ضرورة وجود القيادة القادرة على إدارة هذه الخطط.

– أن لا تتنافى هذه المبادئ مع مبادئ و قيم السياسة الداخلية للدولة؛ كما يجب أن لا تتسبب في زعزعة الاستقرار الداخلي أو الخفض من وتيرة التنمية بها.

– أن تتماشى هذه المبادئ و الخطط مع النظام العالمي القائم.

برز مفهوم الاستراتيجية في حقل التدريس مع منتصف القرن العشرين، حيث كثرت الكتابات و الدراسات حول مناهج التعليم الفعالة، و الخطط المقترحة للنهوض بميدان التربية و التعليم. و تعرّف الاستراتيجيات التربوية على أنّها الدمج بين طرق التدريس الخاصة و العامة المتداخلة و الملائمة لأهداف الموقف التعليمي؛ و يقصد بها أيضاً تحركات الملقن داخل الأقسام و الفصول و خارجها. فالاستراتيجية التربوية هي إذن طرق التدريس و أساليبه التي يوظفها المعلم و الأستاذ لتحقيق الأهداف البيداغوجية و السلوكية للتلاميذ من أجل الوصول إلى مستوى أفضل.

و من مواصفات الاستراتيجية التربوية الناجحة نجد مايلي:

– أن تراعي الفروق الفردية بين المتعلمين.

– أن تراعي الإمكانات المتاحة.

– أن ترتبط بنوع و نمط التدريس و أهدافه.

و ثمة العديد من الاستراتيجيات التعليمية، نذكر منها: استراتيجية لعب الأدوار، استراتيجية التفكير الناقد، استراتيجية العصف الذهني، استراتيجية التواصل اللغوي، استراتيجية البحث و الاكتشاف، استراتيجية التعليم التعاوني، استراتيجية التقويم البنائي و استراتيجية الأنماط.

إنّ الإدارة الاستراتيجية هي مجموعة من القرارات و النظم الإدارية التي تحدد رؤية المؤسسة و رسالتها (vision and mission) على المديين القصير و البعيد في ضوء ميزاتها التنافسية (competitive advantages) التي تسعى نحو تنفيذها من خلال دراسة و متابعة و تقييم الفرص و التهديدات أي كانت (threats and opportunities)، و علاقتها بالقوة و الضعف التنظيمي (strenght and weakness)، و من ثم تحقيق التوازن بين مصالح الأطراف المختلفة. و تمر الإدارة الاستراتيجية بمراحل أثناء تكونها هي:

1. التخطيط المالي الأساسي (Basic Financial Planning)

2. التخطيط على ضوء التنبؤات (Forecast-based Planning)

3. التخطيط الاستراتيجي على ضوء العوامل الخارجية (Outward Factors-based Strategy Planning)

4. الإدارة الاستراتيجية (Strategic Management)

2. مفهوم (الاستراتيجية) (Strategy) من المنظور الترجمي

تعد الترجمة نشاطاً إنسانياً قديماً قدم الإنسان على وجه هذه البسيطة، اتخدها وسيلة تواصلية في غياب البديل الآخر. و تقوم الترجمة على نقل مرسلة مكتوبة أو خطاب ملفوظ من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف بغض النظر عن الميدان العلمي و الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه، فمنها المرسلات و الخطابات الأدبية و السياسية و الفلسفية و الدينية لتكون،

من خلال الفعل الترجمي و بوساطته، متاحة لجمهور عريض من القرّاء شريطة أن تتوفر على معيار الجودة اللازم في كل ترجمة. و إن كانت اللغة عبارة عن تصنيف للتصورات العامة و الكونية و حسب، فإنّه سيكون من السهل الترجمة من اللغة/الثقافة المنقول منها إلى اللغة/الثقافة المنقول إليها؛ و سيكون، لا محالة أيضاً، تعلم لغة أجنبية أسهل بكثير مما نتخيل. بيدأنّه و بما أنّ اللغات ليست مدونات جاهزة، و أنّ المفاهيم و التصورات تختلف جذرياً منها و إليها، و حقيقة أنّ كل لغة تقسّم الواقع حسب رؤيتها للعالم الخاصة بها، فإنّ أحد أبرز المعوقات الترجمية هو ذلك التمايز بين اللغات التي كلما اتسعت الفوارق بينها استعصت الترجمة أكثر فأكثر. و منه كان هذا التمايز بينها تحدياً حقيقياً أثناء عملية الترجمة.

سمي الاختصاص الذي تكون فيه مادة الترجمة موضوع الدراسة، و الذي ظهر في منتصف القرن العشرين، بمسميات عدة: (علم الترجمة) (Science de la traduction)، (علم الترجمة) (Translatology) قبل أن يستقّر به الأمر على (علم الترجمة) (la Traductologie) باللغة الفرنسية و (الدراسات الترجمية) (Translation Studies) باللغة الإنجليزية[*]. و يعتبر جيمس هولمز James Holmes أول من صنّف حقل الدراسة فيه و شرح ماهيته بشكل مضبوط في مقال له بعنوان(تسمية و طبيعة الدراسات الترجمية)(The Name and Nature of Translation Studies)، و هذا بعكس الرأي القائل بأنّ براين هاريس Brian Harris هو من كان سبّاقاً إلى ذلك (أنظر الصفحة 48). و يميّز هولمز في مقاله هذا بين فرعين من الدراسات الترجمية: (علم الترجمة النظري) (la Traductologie théorique) و (علم الترجمة التطبيقي) (la Traductologie appliquée). يعنى الأول بتوصيف الظواهر الترجمية و شرح المبادئ التفسيرية و التنظير للممارسات الترجمية؛ أما الثاني فيرمي إلى توظيف المبادئ و النظريات لتكوين المترجمين، تطوير الأدوات المساعدة على الترجمة أو حتى نقد الترجمات[1].

بالنسبة لهولمز، يربط بين هاذين الفرعين علاقة جدلية و لا ينبغي أبداً أن ينظر إليهما بطريقة استئثارية أو أحادية الاتجاه.

(*)« Le mot «traductologie» désigne littéralement la science (logos) de la traduction (traducto). Garnier (1985 :13) attire l'attention sur la question de la dénomination: «les dénominations globales que l'on donne aux études dont l'objet est la traduction sont variables: outre théorie (de la traduction), on rencontre également science de la traduction ou encore traductologie». Il est peut etre utile de préciser que «science de la traduction» est l'équivalent communément admis de l'anglais «Translation Studies» qui désigne le vaste domaine des études sur la traduction dans le monde anglo-saxon. Ainsi, Bassnett (1980 :2) estime, dans le prolongement des propositions d'André Lefevere, que la traductologie (Translation Studies) est l'étude de la production et de la description des traductions ».

(Mathieu Guidère, Introduction à la traductologie, penser la traduction: hier, aujourd'hui, demain, collection Traducto, de boeck Université, Bruxelles, Belgique, 2008, p12).

(1) Ibid, p09.

يقوم علم الترجمة النظري في الحقيقة بإعالة التطبيقات العملية؛ و يقوم علم الترجمة التطبيقي من جهته بإثراء التفكير النظري. إنّهما يستخدمان على المستوى نفسه، و عليه وجب إعطاء لكل واحد منهما الانتباه و الأهمية ذاتها. إنّ هولمز، بالتالي، لا يحدد موضوع دراسة واحد لعلم الترجمة، بحيث يشتمل الأمر عنده على دراسة الناتج (النص المترجم) و المسار المفضي إلى ذلك (سير عملية الترجمة).

يمكن للدراسة في علم الترجمة، حسب هولمز، أن تكون دراسة (عامة) (générale) في أنّها تلامس هذا التخصص بطريقة شمولية، أو أن تكون (محصورة) (restreinte) على بعض الميادين أو أنماط النصوص أو مشاكل نوعية أو حقبات تاريخية، لكن المهم يبقى في كون نواة الاهتمام منصب على الترجمة و ليس على اللغة أو اللسان أو علم النفس أو علم الاجتماع أو التكنولوجيا، على الرغم من أنّه يمكن لهذه المظاهر أن تكون ذات أهمية في انتاج أو سير الترجمة. ثم إنّ الترجمة، و عبر تاريخها، قد صُنّفت بشكل تقليدي ضمن العلوم الاجتماعية، و كثيراً ما يُنظر إليها على أنّها علم من علوم اللغة. ثمة مع ذلك العديد من الدراسات التي تبحث عن مبادئ عامة يمكن تطبيقها على جميع أنماط النصوص، و التي قد يعبّر عنها بـ (des Théorèmes pour la traduction) كما أشار إلى ذلك لادميرال و قام بترجمتها الأستاذ محمد الزكراوي بـ (مبرهَنات بين أيدي الترجمة)، و (المبرهَن) (théorème) هو كل طرح علمي يمكن إثباته بالأدلة و البراهين (المنطق و الرياضيات). إنّ بعض هذه الدراسات تعير (علم الأعصاب) (la neurologie) العديد من المسائل بما في ذلك حتى مسلماتها و منهجياتها، و تسعى إلى ربط الترجمة بالعلوم الطبيعية و بتركيز البحث حول الإنسان بوصفه موضوع الدراسة.

من هنا كان تداخل الإختصاصات في علم الترجمة محل إثبات في الكثير من الأحيان، كما أنّ خيار تصنيفها ضمن العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية يشتمل على نتائج إن على مستوى الأهداف المتبعة و إن على مستوى المنهجيات الموظفة.

ينبغي على علم الترجمة، بوصفه من العلوم الإنسانية، أن يأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية التي لا تنتمي إلى موضوع الترجمة الملموس و المحدود بالمعنى الحرفي للكلمتين، أي بمعنى كونه منتجاً (النص). وجب على الترجمة دائماً أن تعير اهتمامها كله للسياق، أي لتلك الظواهر التاريخية و الاجتماعية و النفسية و السياسية التي تؤطر الفعل الترجمي. انطلاقاً من وجهة النظر تلك، فإنّه ثمة علم ترجمة اجتماعي و علم ترجمة نفسي خفيين في كل دراسة حول الترجمة. و من هذا المنطلق، سيكون ثمة (علم ترجمة داخلي) (une traductologie interne) الذي لا يهتم سوى بكيفية سير الترجمة، و (علم ترجمة خارجي) (une traductologie externe) الذي يهتم بالترجمة بوصفها نتاج العوامل السياسية و التاريخية و الاجتماعية و غيرها. بيدأنّه يوجد لدينا في كلتا الحالتين علم للترجمة مفتوح على تأثيرات و مكتسبات العلوم

الاجتماعية و الإنسانية التي تعتبر بمثابة نقاط القوة و التمايز بالنسبة لهذا التخصص[1].

قد يتساءل الواحد منا ما الجدوى، و نحن نتحدث عن مفهوم الاستراتيجية في الترجمة، من عرض هذه المفاهيم الأولية و القاعدية لعلم الترجمة؟ و هو سؤال شرعي ينبغي الإجابة عليه. إنّ علم الترجمة، و كما ذكرناه آنفاً، علم جامع استطاع أن يخص كل الجوانب المتصلة بالفعل الترجمي بالكثير من الدراسة و التحليل. و المتفحص فيه يجد أنّ سير عملية الترجمة، الذي يوظف المترجم من خلاله الاستراتيجيات الترجمية التي تخدم خياراته، يتداخل مع مسائل أخرى كثيرة بدءاً بالنظريات و المقاربات الترجمية (Théories et approches de traduction) و انتهاءاً بمسألة (اتخاد القرار) (la prise de décision). لذا كان من المسلّم به أن نسلط الضوء على كل هذه المسائل التي تلقي بظلالها على بلورة و تحصيل الناتج النهائي حسب شروط الفعل الترجمي و مقتضيات السياق و الحالة التواصلية.

لقد كان القرن 19 عشر بحق عصر التنظير في الترجمة بكل ألوانه و أطيافه، بحيث أدت الثورة العلمية في مجال اللسانيات إلى غزارة في الكتابات و الدراسات حول هذا الميدان الفتي. و من بين أهم ما برز، خلال هذه الحقبة من الزمن، في حقل الترجمة ما يعرف بـ (استراتيجيات الترجمة) (translation strategies) الذي عرف –كمفهوم– جدلاً واسعاً. و من أوجه هذا النقاش المحتدم بين المنظرين و الدارسين، على سبيل المثال لا الحصر حول الاستراتيجيات عموماً، مسألة اختلاف تسميتها من منظر إلى آخر و من وسط تنظيري إلى آخر؛ فمنهم من يسميها بـ (تقنيات الترجمة) (translating techniques) (أوجين ألبير نيدا و بيتر نيومارك)، و منهم من يطلق عليها تسمية (اجراءات الترجمة) (translating procedures) (جون بول فيني و جون داربلنيه)، و منهم من اصطلح عليها تسمية (استراتيجيات الترجمة) (translating strategies) (لورانس فينوتي و أنطوان برمان).

تتعدد و تتنوع المهارات الواجب توفرها لدى المترجم، بحيث اتفق جل الباحثين حول حتمية حضور ثلاثة منها على الأقل هي اتقان اللغة الأم و اللغات التي نترجم منها و إليها، و الفهم النوعي لثقافات اللغات التي نترجم منها و إليها، و القدرة على الترجمة التي غالباً ما يشار إليها بـ (الكفاءة الترجمية) (the translational competence). كما اقترح آخرون، من بينهم هاريس Harris و شاروود Sherwood، مفهوم (الترجمة الفطرية)[2] (Natural translation) الذي يشير إلى القدرة التي تتطور آلياً و جنباً إلى جنب مع إزدواجية اللغة عند شخص ما. و يعد توظيف كلمة (فطري) (natural) هنا مثيراً للانتباه، ذلك لأنّه يفترض ضمناً أننا لا نحتاج إلى تدريب لكي نصبح مترجمين بالفطرة. إنّ اتقاناً

(1)voir Mathieu Guidère, op.cit, p10.
(2) Brian Harris & Bianca Sherwood, Translation as an innate skill, In Gever, D.& Sinaiko, H.W (eds), 1978, p77.

جيداً للغتين و اكتساب تجربة العيش في ثقافتين، مع ذلك، لا يجعلان منا بالضرورة مترجمين بارعين. يعتقد جدعون توري Gideon Toury، على سبيل المثال، أنّ الكفاءة الترجمية هي قدرة منفصلة، و أنّها لا تتطور بالضرورة آلياً مع ازدواجية اللغة، لكنها يجب أن تصقل بالتعلم و الميراس بشكل استقلالي على الرغم من أنّه يزكي فكرة أنّ ازدواجية اللغة تعتبر شرطاً مسبقاً و ضرورياً لتطوير الكفاءة الترجمية[1]. يحاول لورشر Lorscher من جهته التوفيق بين وجهتي النظر تلك بقوله أنّ الكفاءة الترجمية تتطور مع ازدواجية اللغة كما هو الحال عليه في أقسام تعلم اللغات الأجنبية، غير أنّه ثمة العديد من أنواع الكفاءة الترجمية. إنّ الكفاءة الترجمية الفطرية و القاعدية التي نجدها في أقسام تعلم اللغات الأجنبية تعتبر بدائية و مشوهة لأنّها غالباً ما تعير اهتماماً مبالغاً فيه لشكل اللغة من دون أن تلج إلى المعنى الضمني. و هو يسمي نوع الكفاءة الترجمية التي يحتاجها المترجمون المحترفون بـ (الترجمة الفطرية المطورة) (Evolved natural translation)[2].

كثيراً ما يشار إلى الكفاءة الترجمية بالعلبة السوداء. و لقد حاول الباحثون شرح الكيفية التي من خلالها تتطور هذه الكفاءة، و ما هو ممكن القيام به لتطويرها. كما يعد تدريب المترجمين المحترفين إجراء طويل و فيه الكثير من الالتزام، أضف إلى أنّه يشتمل على عديد المكونات الفرعية.

يذكر أندرو شسترمان Andrew Chesterman في كتابه (Memes of translation) وجود خلط و لبس كبيرين حول المصطلحات التي تتصل بمسألة استراتيجيات الترجمة. و قد قام بتعداد بعض الميزات العامة التي تتمتع بها هذه الأخيرة: أن تكون ناجعة و يمكن الاعتماد عليها في الجانب الاجرائي؛ أن تستلزم تلاعباً بالنص؛ أن توجّه نحو هدف محدد؛ أن تكون مركّزة على مشكل ما؛ أن يكون إدراكها محتملاً؛ و أن تكون بيشخوصية، أي في أنّ تكون قابلة للتجريب و الفهم من قبل أي شخص آخر علاوة على الشخص الذي يقوم بتوظيفها[3].

يتفق جل الباحثين حول مسألة أنّه يتم توظيف الاستراتيجيات الترجمية من قبل المترجمين عندما يواجهون صعاباً ما، و يعني ذلك أنّه غالباً ما تكون الترجمة المباشرة و الحرفية غير كافية لإنجاز المهمة الملقاة على عاتقهم. لقد قام الكثير من الباحثين، كما أشرنا إليه آنفاً، بالبحث و الاستقصاء عن أنواع متعددة من استراتيجيات الترجمة، و من ثم شرح مبادئها و تفسير خط سيرها بحسب تجليات الظاهرة الترجمية التي كانوا بصدد دراستها. إنّ من بين الطرق في تصنيف استراتيجيات

(1)see Gideon Toury, Natural Translation and the Making of Native Translator, TEXTconTEXT, 1, 1986, p18.
(2) Wolfgang Lorscher, Process-oriented Approaches to Translation and the Development of Translation Competence, in Neubert, A., Shreve, G. & Gommlich, K. (eds), 1995, p117.
(3)see Andrew Chesterman, Memes of Translation, Benjamins: Amesterdam & Philadelphia, 1997, p87.

الترجمة تكمن في تحديد (الفاعل) (the actor) أو (طور سير عملية الترجمة) (phase of translation process) الذي يكون موضوع المعاينة. يمكننا على سبيل المثال أن نركز اهتمامنا على المترجمين و ما يقومون به قبل أو خلال أو بعد سير عملية الترجمة في حينه. تكون النتيجة تنوع بين (استراتيجيات الفهم) (comprehension strategies)، و (استراتيجيات النقل) (transfer strategies)، و (استراتيجيات الإنتاج) (production strategies) التي تعتبر كلها أمثلة عن استراتيجيات الترجمة. يمكننا من جهة أخرى أن نركز اهتمامنا على النص نفسه، و نقارن بين النص المصدر (the source text–ST) و النص الهدف (the target text-TT) و من ثم تحديد أوجه الإختلاف بينهما. كما يمكننا في الأخير أن نركز اهتمامنا على مستقبلي الترجمة (جمهور القرّاء)، و الكيفية التي سيتعاملون بها مع النص الهدف. ستدفع بنا كل هذه المقاربات إلى إمعان النظر في (القرارات الاستراتيجية الشاملة) (overall strategic decisions) التي تحدد الكيفية التي يتم من خلالها الفعل الترجمي.

لقد أطلق العلماء و الباحثون على العملية الترجمية العديد من النعوت و الأوصاف، من بينها الخيانة و التحوير و الأسر و العنف. و قد كان همّ أولئك الباحثين الأول هو النص في اللغة/الثقافة المنقول إليها الذي ينبغي أن يكون نصاً يستوفي جميع شروط المقروئية و أن لا يحمل أي أثر للترجمة فيه؛ أي كأنّه نص أصلي ثان. و قد عمد لورانس فينوتي Lawrence Venuti، في حديثه عن كون المترجم خفياً، إلى تكرار الإشارة إلى العنف الثقافي الذي تمثله عملية الترجمة[1]، و الناتج عن التمركز العرقي فيها. و قد أكد أنّ الهدف الأول من كتابه الموسوم بـ (The Translator's Invisibility : a history of Translation) يبقى في حمل القرّاء و المترجمين على التفكير ملياً في هذا الشأن، و حثهم على الإستقصاء عن أساليب مغايرة للقراءة و الترجمة تقر بالخصائص اللغوية/الثقافية للنصوص الأجنبية[2]. و أما أن يكون المترجم خائناً، فقد توالت في ذلك الأقوال نثراً و شعراً، و لعل أكثرها رواجاً المثل الإيطالي الذي يساوي بين المترجم و الخوان (traduttore, traditore)، و كتاب جورج مونان G. Mounin (Les belles infidèles) (الجميلات الخائنات) الذي يجمع فيه بين مدلولي الأدب الرفيع و الخيانة الزوجية، و كأنّ النص في اللغة المنقول منها هو الزوج المخدوع و النص في اللغة المنقول إليها هي الزوجة الخائنة. و نجد أيضاً تشبيهاً آخر لعملية الترجمة بعملية الأسر، و هو رأي يذهب إليه جورج ستاينر George Steiner ينقله عن القديس جيروم St.Jerome

---

(1) Lawrence Venuti, The Translator's Invisibility, Routledge, London and New York, 1995.

– يتمثل ذلك في عبارة (the ethnocentric violence of translation) التي وظفت في العديد من المرات: ص ص 20-41-101-111.

و لقد ترجمت ذات العبارة من قبل سمر طلبة، الأستادة المساعدة بقسم اللغة الانجليزية بجامعة عين شمس بمصر، بـ (العنف العرقي للترجمة). يذكر أنّ كتاب فينوتي هذا الذي يعتبر من أهم مؤلفات المنظر الأمريكي من جامعة (تامبل) (Temple)، قد صدر العام 2005، أما ترجمته فكانت العام 2009 بمراجعة الأستاذ محمد عناني. (لورنس فينوتي، اختفاء المترجم: تاريخ الترجمة، تر. سمر طلبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009).

(2) Ibid, p41.

يصور المعنى بمثابة الأسير الذي يظفر به المترجم[1]، و كأنّ الأمر يتعلق بحرب مستعرة تتحدد بموجبها ملامح الغالب و المغلوب.

و يشير ذلك كله إلى أنّ العلاقة بالنص المترجم، التي هي في الأصل نتاج علاقة المترجم بالنص الأصلي، علاقة مشبعة بالتناقضات و محفوفة بالمخاطر و المغامرات. و مرد ذلك هو أنّ القارئ المستقبل، بوصفه نتاج العلاقتين معاً، يطمح إلى نص مستصاغ و سلس يكون سهل المنال، كما يبتغيه نصاً أجنبياً يحمل الآخر إليه بكل ألوانه و أطيافه. و هذا ما يدفع ربما بالكثيرين، ممن يتقنون اللغات الأجنبية، إلى قراءة الأعمال و النصوص في لغتها الأصلية، و السبب هو انعدام الثقة في الترجمة لكونها عملية قراءة للنص أو تفسيراً له تختلف بإختلاف المعطيات النصية و الشخص المترجم و زمن الترجمة و القارئ المستقبل.

تتبلور عملية الترجمة ضمن شبكة من العلاقات الوظيفية و البراغماتية، كما أنّ هنالك مكونات قاعدية لكل عملية ترجمة لن تتحقق من دونها. هذه العناصر الهيكلية المكونة للترجمة التي أشار إليها المنظرون و الدارسون، بإختلاف انتماءاتهم و توجهاتهم، هي الشخص المنجز للترجمة الذي يشار إليه بالمترجم؛ و المرسلات النصية و الخطابية بشتى أنواعها التي يشار إليها بالنص (المصدر/الهدف، الإنطلاق/الوصول، الأصلي/المترجم)؛ ثم الشخص المستقبل لتلك المرسلات الذي يعرف بالقارئ. بيدأنّ ذلك لا يعني البتة عدم وجود عناصر أساسية أخرى تدخل في تشكل الفعل الترجمي التي لا تقل أهمية عن المكونات الهيكلية الأخرى. يقوم كل مترجم بضبط المنهجيات و الاجراءات و التقنيات الترجمية التي يشار إليها باسم جامع هو (الاستراتيجيات) و ذلك إما سلفاً، أي في أنّه يقرر منذ الوهلة الأولى أي الاستراتيجيات سيختار لترجمة هذا النص أو ذاك وفقاً لأغراض الترجمة و أهدافها على الرغم من أننا ندرك تمام الإدراك أنّه قد يصعب علينا في الكثير من الأحيان الاعتماد على استراتيجية بعينها حين الترجمة؛ أو أنّه يقرر توظيف استراتيجية ما فقط أثناء الترجمة و دون سابق إنذار، بمعنى أنّ قراره ذاك يتحدد خطوة بخطوة بحسب نوع مشاكل الترجمة و الصعاب التي تعتريها، و هو ما يجعل من هذه الاستراتيجيات تتنوع و تتفاوت بين لسانية–لغوية محضة، أو تأويلية–معنوية، أو سوسيوثقافية و تداولية. و يعتبر هذا التوجه الأقرب إلى واقع الترجمة العملي من حيث أنّ المترجم فيه مدرك لما هو بصدد القيام به آنياً و حالة بحالة. أما التوجه الأول فهو توجه ارتجالي لا استشرافي (هكذا قمنا بتوصيف مفهوم الاستراتيجية في كونها نظرة استشرافية للمستقبل) قد يشوبه من الشوائب ما يعكر صفو عملية الترجمة برمتها، ويطعن في جودتها و مدى ملائمتها للقراء، و السبب هو أنّ المترجم حين يعزم أمره سلفاً حول أي الاستراتيجيات سيختار فإنّه لا يعرف أي نوع

(1)see George Steiner, The Hermeneutic Motion, In Lawrence Venuti (The Translation Studies Reader), Routledge, London and New York, 2000, p87.

من المنغصات ينتظره، و سيضطر إلى تبديل الاستراتيجيات المرة تلو الأخرى أو التخلي عن خياره الأول و تعويضه بآخر. و قد دفع ذلك بالمنظرين إلى دعم و تزكية التوجه الثاني لأنّ الترجمة في نظرهم ليست بعملية استباقية لما هو مجهول بقدر ما هي عملية آنية و حينية تستند على الشواهد و على ما هو معلوم.

و ما يسترعي الانتباه أيضاً بل و مدعاة للعجب أنّ جل التعريفات التي أعطيت للترجمة دائماً ما يمهد أصحابها لاستراتيجيات الترجمة التي يتبناونها هم و يدعون كل ممارس إلى تبنيها. و هو موقف جلل لن يتسنى للناظرين إلا بعد طول دراسة و تمعن. فعلى سبيل المثال، يذهب حسن غزالة Hasan Ghazala في تعريفه للترجمة بأنّها "العمليات و المنهجيات التي توظف لنقل المعنى من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف"[1] (الترجمة لنا). و هو يقحم بقوله هذا العنصر الأساسي الآخر (العمليات –يقصد بها الذهنية– و المنهجيات) الذي أشرنا إليه آنفاً، أي الاستراتيجيات (ما يدخل في عموم سير الترجمة و تخريجها). كما أننا سنفهم من تعريفه بأنّه يعير المعنى الاهتمام كله، و هو ما قد يفسر بأنّه يحدو حدو المؤول، أو (المنجمي) بحسب تعبير جورج ستاينر الهرمنوطيقي، الذي يسبر أغوار العوالم الخفية للنصوص مستظهراً خباياها. و يشير صالح بسلامه Salah Basalamah بوضوح إلى أنّ الترجمة هي "نتاج فهم نص مصدر (الأصلي) من خلال قرائته و بالتالي من خلال تأويله"[2] (الترجمة لنا). فالتأويل و الفهم عنده بمثابة الوسيلة و الغاية معاً: وسيلة في أنّهما يحيلان المترجم إلى لب الفكرة و جوهرها بعيداً عن تمفصلات البنى اللغوية الخاوية و الجافة؛ و غاية في كونهما الهدف الوحيد و المطلب الأساس من كل فعل ترجمة و نقل.

و قد أكدت سوزان باسنيت Susan Bassnett، في سياق حديثها عن ماهية الترجمة و مفهومها، أنّه لا يمكن لأحد أن يتجاهل قط معاني الكلمات لأنّه و في حال حدوث ذلك فلن تؤدي الكلمات دورها الأصلي الذي أريد لها في النص[3]. و تنطلق رؤية باسنيت تلك من مسلمة بسيطة جداً هي أنّه عندما يعبّر بالكلمات في مرسلة معينة نجد أنّها تحاكي حقيقة واحدة لا غير يراد بها غرض معين. و بغية أن نفهم الغرض الذي أنتجت لأجله الكلمات (هكذا عبرت عنها بـ produced for) في سياق محدد و مضبوط (المرسلة النصية أو الخطابية)، كان لزاماً علينا تأويل هذه المرسلة

(1) According to Hasan Ghazala, translation refers to "the processes and methods used to convey the meaning of the source language into the target language".
(Hasan Ghazala, Translation as Problems and Solutions: A Course Book for University Students and trainee Translators, Valetta: ELGA publications, 1995, p01).
(2) Salah Basalamah stated that "translation results from an understanding of a source text (the original) from its reading, and thus from its interpretation".
(Salah Basalamah, Translation rights and the philosophy of translation. Remembring the debts of the original (in translation reflection, refraction, transformation), Edited by Paul St Pierre and Parafulla C Kar, John Benjamins publishing company, Netherlands, 2007, p118).
(3)see Susan Bassnett, Translation Studies (3rd edition), Routledge, London and NewYork, 2005, p12.

و استنباط معناها. و قد ربط كل من شاتلورث Shuttleworth و كووي Cowie المعنى (meaning) بالأسلوب (style) في تحقيق أي ترجمة، بحيث اعتبرا أنّ الترجمة ليست نقل مرسلة اللغة المصدر فحسب بل ينبغي أيضاً العناية بمعناها و أسلوبها [1] . و قد أريد للأسلوب هنا دوراً وظيفياً، إذ ينبغي أن ينظم على نحو يتحقق المعنى به و يتجسد من خلاله. و قد أخذت التعريفات التي أعطيت للترجمة أبعاداً أخرى، و هو ما جعلها توحي باستراتيجيات ترجمية مغايرة تماماً. و نجد أنّ هذه التعريفات اتخذت اتجاهين اثنين: يكمن الأول في قيام أصحابها بتطوير مفاهيم الترجمة السابقة لنظرائهم الدارسين بادخال عناصر بحثية جديدة تمثل توجهاتهم و استراتيجياتهم الخاصة بهم؛ و يكمن الثاني في تعويض مفاهيم الترجمة السابقة بمفاهيم أخرى جديدة، و تضمينها مسائل وثيقة الصلة بالفعل الترجمي سواء كانت مسائل لسانية أو ما وراء لسانية (الأبعاد السوسيوثقافية، الشبكات الاجتماعية، رؤى العالم، الدين، الأيديولوجيا...).

تتمثل عملية الترجمة بالنسبة لأوجين ألبير نيدا E.A Nida و شارلز تابر Charles Taber في "إعادة إحداث في اللغة المستقبلة (اللغة الهدف) المكافئ الطبيعي الأقرب للمرسلة في اللغة المصدر أولاً على مستوى المعنى و ثانياً على مستوى الأسلوب"[2] (الترجمة لنا). و منه سنفهم أنّ استراتيجية الترجمة التي يدفع بها كل من نيدا و تابر، زيادة على عنايتهما بالمعنى و الأسلوب، تنبني في الأساس على نظرية التكافؤ في الترجمة. و من أهم هذه التكافؤات، التي قد تتنوع بتنوع الحالات اللغوية و التواصلية، و التي لا ندعي أنّها جامعة و مانعة بل فقط في أنّ الآراء حولها تواترت في علم الترجمة، نجد: (التكافؤ اللغوي) (l'équivalence linguistique)، و (التكافؤ التبادلي) (l'équivalence paradigmatique)، و (التكافؤ الأسلوبي) (l'équivalence stylistique)، و (التكافؤ الدلالي) (l'équivalence sémantique)، و (التكافؤ الشكلي) (l'équivalence formelle)، و (التكافؤ الديناميكي) (l'équivalence dynamique)، و (التكافؤ التداولي) (l'équivalence pragmatique)، و (التكافؤ الوظيفي) (l'équivalence fonctionnelle). و قد انتهج كل من نيدا و تابر و طوّرا خلال ترجمتهما للإنجيل نظرية في الترجمة اشتملت على مفاهيم القواعد التوليدية (transformational generative grammar)، و قواعد التحليل اللغوي لمكونات التركيب (componential analysis). و يعود ذلك بدرجة كبيرة إلى نوعية الموضوع الذي اشتغلا عليه و أهميته في كونه

(1)see Mark Shuttleworth & Moira Cowie, Dictionary of Translation Studies, St.Jerome publishing, Manchester UK, 1997-1999, p20.

(2)"The reproduction in a receptor language of the closest natural equivalent of the source language message, first in terms of meaning and second in terms of style".
(Eugene Nida & Charles R. Taber, The Theory and Practice of Translation, published for the United Bible Societies, E.J Brill, Leiden, 1982, p208 (glossary)).

موضوع ديني صرف و كلام الله ذو الشأن العظيم، و بالتالي يجب التركيز عليه و القيام بما يمكنه المحافظة على كلماته و مدلولاتها و المعنى الحرفي الذي أريد من نصوصه. و نجد أنّ رومان جاكبسون Roman Jakobson قد عرّف الترجمة على أنّها إعادة تشفير و نقل مرسلة تم استقبالها من لغة أخرى مصدر. و بهذا تفترض الترجمة وجود مرسلتين متكافئتين في لغتين مختلفتين[1]. و يعتبر هذا الرأي امتداداً لرأيي نيدا و تابر في ضرورة أن تخضع الترجمة لمعايير التكافؤ ليس فقط على مستوى الشكل، بل على مستوى المضمون أيضاً لغوياً كان أم دلالياً أم أسلوبياً أم وظيفياً...

ثمة الكثير من التعريفات التي دأب أصحابها على تبني استراتيجية ترتكز على التكافؤات، بيدأنّه يجب الانتباه إلى مسألة أنّ حتى مذهب التكافؤ هذا لم يلق اجماعاً بين جمهور المنظرين، إذ يذهب أنطوني بيم Anthony Pym، على سبيل المثال، إلى القول بأنّه لم تكن هناك محاولات كثيرة لتعريف التكافؤ في الترجمة بطريقة تجنبنا ذلك التعميم الموجود حوله لأنّه من المفروض أصلاً أن يشرح كل من التكافؤ و الترجمة ماهية الآخر[2]. و يعني ذلك أنّ مفهوم التكافؤ في حد ذاته ليس محدداً من لدن المشتغلين في حقل الترجمة، بل منهم من يعتبر أنّ الترجمة هي التكافؤ ليس فقط من حيث المبدأ و التوظيف بل حتى من منظور التسمية. و هذا ما يجعل من استراتيجية التكافؤ في الترجمة أنّها ليست بالضرورة الاستراتيجية الأنسب دوماً لنقل النصوص. و سيفتح ذلك الباب على مصرعيه لدخول عوامل أخرى تؤطر الفعل الترجمي عكف أصحابها على مقاربة الترجمة من وجهات نظر مختلفة مفهوماً كانت أو ممارسة. وحتى الاستراتيجيات ذات الخلفية الهرمسية يختلف متبنوها في تحديد رؤية واضحة و تعريف دقيق للمعنى. و الشيء نفسه ينطبق على المكافئات: هل ينبغي أن تقابل الكلمة المفردة؟ أم المصطلح؟ أم العبارة؟ أم التركيب؟ أم المفهوم مقابل المفهوم؟ و من الواضح أنّ كلمة (مكافئ) (equivalent) أو حتى (مقابل) (correspondant) يبيّن مدى حصر عملية الترجمة في نطاق التطابق الشكلي بصفة عامة إذا ما تم مقارنتها بالاتجاهات الحديثة لعملية الترجمة التي تأخذ بعين الاعتبار التكافؤ النصي برمته (formal correspondence Vs textual equivalence).

و لم تتوقف التعريفات التي أعطيت للترجمة، و من ثم الاستراتيجيات المتبناة، عند هذا الحد، بل تنوعت و تعددت لدرجة أنّه يستحيل حصرها. و لنبرهن على هذه الحركية يمكننا أن نورد تعريف جوليان هاوس Juliane House للترجمة. يقول هاوس أنّه لا ينبغي لنص مترجم أن يطابق النص المصدر في وظيفته فحسب، لكن وجب عليه أن يوظف الوسائل

(1) For Roman Jakobson, "the translator recodes and transmits a message received from another source. Thus translation involves two equivalent messages in two different codes".
(see Roman Jakobson, On Linguistic Aspect of Translation, in R.A Brower (ed), 1959, p233).

(2) Anthony Pym argues that "equivalence is supposed to define translation, and translation, in turn, defines equivalence. Unfortunately, few attempts have been made to define equivalence in translation in a way that avoids this circularity".
(Anthony Pym, as quoted in Routledge Encyclopedia of Translation Studies, edited by Mona Baker, 2001, p77).

المقامية و البعدية المكافئة لتحقيق هذه الوظيفة[1] . و سنفهم من هذا التعريف أنّ هاوس ينطلق من بعد وظائفي للترجمة، أي أنّ مقاربته للترجمة يمكن تصنيفها ضمن النظريات الترجمية الوظيفية. يجب على الترجمة في نظر هاوس House أن تحقق نفس الوظائف (functions)، و هو شيء لن يتأتى إلا من خلال مراعاة الحال و السياق و الأبعاد الكلامية و التداولية و غيرها شريطة أن تتوفر على نسبة عالية من التكافؤ لتلك التي ترد في النص الأصلي. و يعتبر ذلك بمثابة المنحى الجديد الذي تأخذه الترجمة إن على مستوى الماهية و إن على مستوى الممارسة في حال ما تمت مقارنتها بالتعريفات التي أوردناها آنفاً، و التي دارت في فلك المعنى و الأسلوبية و التكافؤ.

وفقاً لذلك، فإنّ المفهوم الأول لأي استراتيجية من المنظور الترجمي ينبغي أن يُستنبط من التعريف الذي تعطيه كل نظرية ترجمية للترجمة أولاً بوصفها مفهوماً ثم بوصفها ممارسة. و ما يؤكد هذا الطرح هو أنّ المترجم مطالب بالإلمام ليس فقط بنظريات الترجمة بمعناها المفهوماتي (conceptual)، بل عليه أن يمتلك الحس الذي يخوّل له تطبيقها على النصوص كافة، و إلا بقيت المفاهيم النظرية كذلك إن هي افتقرت للتجريب و الإختبار في الوضع العملي. و ما الترجمات غير السوية في المعنى و المبنى لدليل على مدى القصور الذي يعاني منه المترجم في الربط بين الجانبين النظري و التطبيقي بشكل أو بآخر، إذ ثمة الكثير من المترجمين من يحفظون عن ظهر قلب الأسس و المبادئ النظرية لمقاربة ترجمية ما لكنهم يعجزون على تطبيقها عملياً. و عليه، يمكننا القول بأنّ التدرج من نظرية ترجمية إلى أخرى، اللتان قد تختلفان في الأسس و المفاهيم، ما هو في الحقيقة إلا تدرج من استراتيجية ترجمية نحو أخرى. بإمكاننا أن نعدد استراتيجيات الترجمة وفقاً لنظريات الترجمة نفسها، كأن نقول مثلاً أنّ نظريات الترجمة قبل القرن العشرين (ترجمة كلمة مقابل كلمة؛ ترجمة معنى مقابل معنى؛ ترجمة الحرف أو الروح؛ الترجمة الأمينة؛ الإرهاصات الأولى للتأسيس لنظرية بنيوية في الترجمة؛ شلايرماخر و إعادة تثمين الأجنبي) ما هي في الحقيقة إلا استراتيجيات الترجمة قبل القرن العشرين؛ و ما النظريات الوظيفية للترجمة (Functional theories of translation) (نظرية Skopos على سبيل المثال)؛ و النظريات الأنظمية (Systems theories) (نظرية تعدد النظم (Polysystem theory)، الدراسات الوصفية للترجمة، مدرسة المعالجة أو التحكم (Manipulation school))؛ و النظريات الثقافية (Cultural theories) (الدراسات ما بعد الكولونيالية، الترجمة و الجندر)؛ و النظريات الفلسفية (Philosophical theories) (نظرية شتاينر التفسيرية، النظرية التفكيكية للترجمة، نظرية وثاقة الصلة بالموضوع (Relevance theory)) ليست في الحقيقة سوى انتهاج للاستراتيجيات الوظيفية (functional strategies) و الاستراتيجيات الأنظمية (systems strategies)

(1) Juliane House says that "… a translation text should not only match its source text in function, but employ equivalent situational-dimensional means to achieve that function".
(Juliane House, A Model for Translation Quality Assessment, Tubingen: Gunter Narr, 1997, p49).

و الاستراتيجيات الثقافية (cultural strategies) و الاستراتيجيات الفلسفية (philosophical strategies) على التوالي. و لا يمكننا البتة أن نحيط بجميع هذه النظريات/الاستراتيجيات و غيرها من النظريات/الاستراتيجيات لتشعبها، لكن ينبغي أن نشير إلى أنّه ما من استراتيجية ترجمية إلا و تتقاطع مع استراتيجية أو استراتيجيات ترجمية أخرى، و كأنّنا بصدد التعامل مع تناص استراتيجي يصعب فك شفراته. و نقصد بذلك أنّ أغلب الاستراتيجيات الترجمية، إن لم نقل كلها، لا تقبل التوظيف لوحدها، بل ينبغي أن تصاحبها دوماً استراتيجيات أخرى لتكملها أو لتحل محلها إن لزم الأمر؛ و الشيء سيان بالنسبة لنظريات الترجمة المتنوعة، و هو ما يجعل من الفعل الترجمي أكثر تعقيداً و اعتياصاً. و يتطلب ذلك من المترجم بذل المزيد من الجهد لايجاد البديل الاستراتيجي، و من ثم البديل الترجمي الأكثر ملائمة و تماشياً مع البديل النظري الذي اختار وفقه و تبنى لأجله نهجه الترجمي.

تتفق الكثير من النظريات و المقاربات الترجمية المتنوعة حول العديد من الخطوات الاجرائية التي تشكّل النواة الأولى لأي فعل ترجمة، و المسائل العملية الرئيسة فيه من تحليل (Analysis)، و نقل (Transfer)، و إعادة بناء و تركيب (Restruction). و إنّه لمن الأهمية بما كان أن نشير هنا إلى أننا لا نعني بالنقل (transfer) عملية الترجمة بمفهومها الشمولي التي تعتبر نقل مرسلة من لغة/ثقافة باثة إلى لغة/ثقافة مستقبلة كما دأبنا عليه حتى الآن، بل نقصد به الخطوة الترجمية التي تلي عملية القراءة و التحليل، و التي تتمثل بشكل أساس في تبديل البنى اللغوية و الأسلوبية و محاكاتها في اللغة/الثقافة المنقول إليها. و يمكننا أن نبيّن ذلك من خلال المخطط[1] التالي:

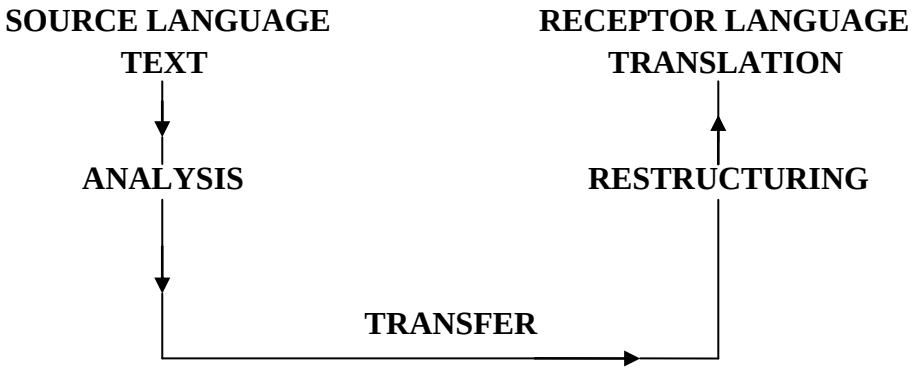

إنّ المشكلة التي تطرحها أي ترجمة لا تكمن في الاستراتيجية الترجمية المتبعة في حد ذاتها، بل في القرار الاستراتيجي و منه الخيار الترجمي الذي يترتب عنه. و بغية أن نشرح ذلك، سنأخذ مثال الكلمتين الانجليزيتين (yes) و (hello) و ترجماتهما إلى اللغات الفرنسية و الألمانية و الايطالية[2]. سيبدو هذا الأمر سهلاً للوهلة الأولى بسبب أنّ الانجليزية

(1) Susan Bassnett, op.cit, p25.
(2) Ibid, p25.

و الفرنسية و الألمانية و الايطالية لغات هندو-أوروبية (Indo-european languages) تنتمي إلى الأصل اللغوي نفسه، و تتشابه فيما بينها من حيث الأبعاد المعجمية و التراكيبية، كما أنّ مسألتي القبول (to assert) و التحية (to greet) معروفتين لديها كلها. بالنسبة لمسألة إبداء القبول أو الموافقة (to assert)، سنجد أنّ جل القواميس ستترجمها على هذا النحو:

French : *oui, si*
German : *jo*
Italian : *si* **(1)**

إنّ وجود كلمتين في اللغة الفرنسية يعني أنّه ثمة توظيف ثان ليس موجوداً في اللغات الأخرى (الانجليزية و الألمانية و الايطالية). و سيدفع بحث دقيق بالمترجم إلى أن يدرك أنّ كلمة (oui) هي التي توظف عامة، و أنّ كلمة (si) توظف فقط في حالات يكون فيها رأي الفرد مناقضاً و مخالفاً و معارضاً. و عليه، وجب على المترجم الانجليزي أن ينتبه إلى هذا الأمر، و أن يسعى لايجاد البديل الذي يتماشى مع كل السياقات الآنف ذكرها.

و سيزداد الأمر اعتياصاً مع كلمة (hello) التي توظف في اللغة الانجليزية للتحية عند اللقاء.

French : *ca va ?; hallo*
German : *wie geht's; hallo*
Italian : *olà; pronto; ciao* **(2)**

في الوقت الذي لا تميّز فيه اللغة الانجليزية بين الكلمة التي توظف لتحية شخص ما وجهاً لوجه و الكلمة التي تستخدم للرد على مكالمة هاتفية، نجد أنّ اللغات الفرنسية و الألمانية و الايطالية تميّز كلها بين السياقين. يمكننا أن نوظف الكلمة الايطالية (pronto) فقط للتحية عبر الهاتف، و الشيء نفسه بالنسبة للكلمة الألمانية (hallo). كما توظف كل من اللغتين الفرنسية و الألمانية أشكالاً أخرى للتحية هي عبارة عن استجوابات قصيرة، في حين يتم توظيف العبارتين الانجليزيتين (how are you?) (كيف حالك؟) أو (how do you do?) (ما أخبارك؟) فقط في الحالات الأكثر رسمية. و توظف الكلمة الايطالية (ciao)، التي تعتبر أكثر أشكال التحية شيوعاً بين أطياف المجتمع الايطالي، مناصفة حين الغدو و الرواح معاً. فعلى سبيل المثال، ينبغي على المترجم، إن هو أراد أن يترجم كلمة (hello) إلى اللغة الفرنسية، أن يستخلص منها لب معناها. و ستكون أطوار هذه العملية، وفقاً للرسم البياني الذي جاء به نيدا، على النحو التالي:

(1) Susan Bassnett, op.cit, p25.
(2) Ibid, p26.

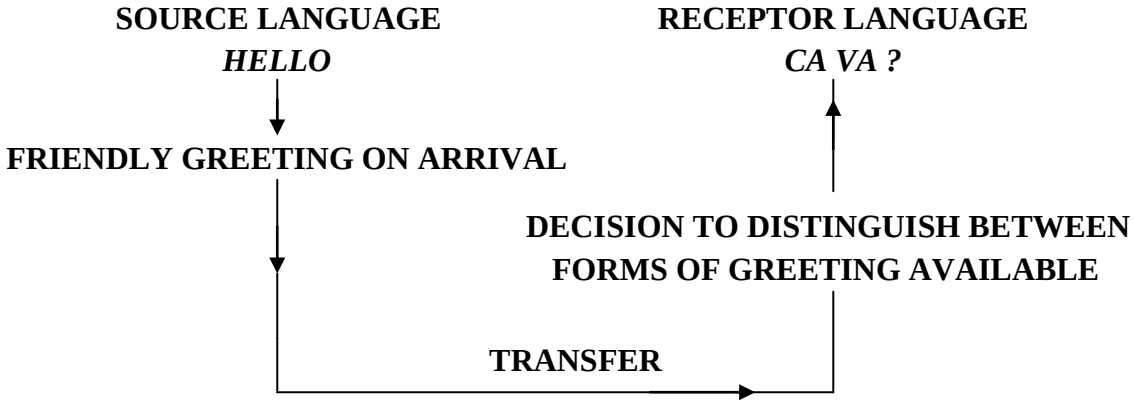

ما حدث هنا[1] هو أنّ ماهية التحية قد تم عزلها و تم تعويض كلمة (hello) بشبه جملة تعبّر عن الماهية نفسها. قد تختلف نظريات الترجمة حول شرح المعطى الترجمي (من المنظورين التصوري و المفهوماتي)، و حول تبيان كيفية تجسيده على مستوى العبارة أو الجملة أو النص برمته (من المنظور الاجرائي)، و حول طرق البرهنة عليه (من منظور التعليق على الترجمة أو نقدها)، لكنها ستتقاطع فيما بينها عند الناتج الأخير؛ أي أنّ الترجمة ستكون متقاربة إلى حد كبير إن لم نقل نفسها على الرغم من تعدد الطرائق و تنوع السبل المفضية إلى ذلك. فعلى سبيل المثال، سيذهب رومان جاكبسون Roman Jakobson إلى القول بأنّ ما حصل في المخطط أعلاه عبارة عن (إبدال بين لغتين) (interlingual transposition)، في حين سينظر إليه ألكسندر ليودسكانوف Alexander Ljudskanov على أنّه (تحويل سميوطيقي) (semiotic transformation). و بالتالي، حتى و إن سميت اجراءات الترجمة بمسميات مختلفة، و تفرق من حولها الدارسون توصيفاً و تطبيقاً، فإنّهم ما سيلبثون أن يحققوا اجماعاً فيما بينهم حول الناتج النهائي (النص المترجم) بحسب نزعة كل واحد النظرية و مطلبه الاستراتيجي.

يفيد معنى كلمة (استراتيجية) (strategy) ضمناً القيام بمجموعة من الخطوات بغية تحقيق هدف معيّن بأنجع الطرق الممكنة. بيدأنّ المشاكل ستبرز، مع ذلك، عند محاولتنا تعريفها بالدقة اللازمة. و لقد لاحظ أندرو شسترمان Andrew Chesterman أنّ كلمة (استراتيجية) (strategy) ليست فقط متداولة بطرق مختلفة في علم الترجمة، بل ثمة أيضاً العديد من الكلمات الأخرى التي يمكن توظيفها للغرض ذاته ((الاجراءات) (procedures)، و (تقنيات التعديل/التوضيب) (techniques of adjustment)، و (القلب/التحويل) (transformations)، و (عمليات النقل) (transfer operations) على سبيل المثال). و قد أكد كل من أمبارو أورتادو ألبير Amparo Hurtado Albir و لوسيا مولينا مارتينيز Lucia Molina Martinez على وجود اتجاهين اثنين في تعريف استراتيجية الترجمة: الأول (اجرائي) (procedural) يُعتمد غالباً من قبل أولئك الذين يتحرون عن مقاربات علم

(1) Susan Bassnett, op.cit, p26.

اللغة النفسي و المقاربات العرفانية للفعل الترجمي؛ و الثاني (نصي) (textual).

من بين الأمثلة البائنة عن توظيف كلمة (استراتيجية) (strategy) بمعناها الاجرائي ما ذهب إليه ولفغانغ لورشر Wolfgang Lorscher الذي ميّز بين (الاستراتيجيات) (strategies) و (المنهجيات) (methods) (التي تعتبر أقل خضوعاً للظروف الشخصية)، و (القواعد) (rules) (التي تعتبر اجتماعية أكثر)، و (التكتيكات) (tactics) (التي تعتبر أقل تسلسلاً)، و (الخطط) (plans) (التي تعنى بالتمثيلات الذهنية أكثر منه بالمعرفة الاجرائية). و ينبغي أن نشير إلى أنّه فيما يتعلق بالتمييزين الأخيرين، (التكتيكات) (tactics)-(الخطط) (plans)، يخالف بعض الدارسين وجهة نظر لورشر في أنّهم يعتبرون مثلاً أنّ (الاستراتيجيات) (strategies) فئة فرعية من (التكتيكات) (tactics) (ما ذهب إليه تان أ.فان ديك Teun A.Van Dijk و والتر كينتش Walter Kintch)، أو من (الخطط) (plans) (ما ذهب إليه كلوز فايرش Claus Faerch و غابريال كاسبر Gabriele Kasper).

و قد طوّر لورشر Lorscher تعريفاً وصفياً لاستراتيجية الترجمة في كونها "اجراء محتمل الادراك يوظف لحل مشكل يواجه شخصاً ما عند ترجمته لمقطع نصي من لغة إلى أخرى"[1] (الترجمة لنا). و بما أنّها ظواهر ذهنية، فإنّ (الاستراتيجيات) (strategies) من هذا المنطلق تعتبر خفية و غير مرئية على الرغم من أنّه يمكن إعادة تمثيلها من قبل الباحثين من خلال تحليل مؤشراتها (indicators). و يجدر بالذكر أنّه منذ دراسة لورشر هذه، حقق مفهوم (الاستراتيجية) (strategy) رواجاً كبيراً لدى الباحثين في علم الترجمة، و قد أعطى ذلك دفعاً قوياً للاهتمام بالأبحاث التجريبية حول اجراءات الترجمة خلال سنوات التسعينات. ارتكزت مجمل تلك الأبحاث -منذ ذلك الوقت- على إبراز دور استراتيجيات الترجمة في حل مشاكل هذه الأخيرة، على الرغم من أنّ ذلك بدوره يفترض بنا جدلاً أن نتساءل عن ما الذي يمكننا أن نعتبره مشكلاً فعلياً في المقام الأول، و السبب هو أنّ ما قد يعتبر مشكلاً بالنسبة للمترجم (أ) قد لا يكون كذلك بالنسبة للمترجم (ب)، مع أنّه يمكن لكلا المترجمين أن يتوصلا إلى الحل نفسه. هل سنقول عندها أنّ المترجم (أ) قد لجأ إلى استراتيجية ما في حين أنّ المترجم (ب) لم يفعل؟ اعترف لورشر أنّه ينبغي على الباحثين الذين يحللون المعلومات التجريبية لمؤشرات الاستراتيجية (كما هو الحال مع (بروتوكولات التصريح) (Think-aloud protocols TAPs)) القيام بذلك بطريقة تأملية و افتراضية إلى أبعد الحدود.

---

(1) Wolfgang Lorscher defines (translation strategy) as being "a potentially conscious procedure for the solution of a problem which an individual is faced with when translating a text segment from one language into another".
(see Mona Baker & Gabriela Saldanha, Routledge Encyclopedia of translation studies (2nd edition), Routledge, 2009, p283. (Wolfgang Lorscher, Translation Performance, Translation Process and Translation Strategies: A Psycholinguistique Investigation, Tubingen: Gunter Narr, 1991, p76).

قام لورشر Lorscher بمعاينة و تحليل سير عملية الترجمة عند كل من طلاب اللغات الأجنبية ذوي المستوى المتقدم، و مترجمين محترفين و أطفال مزدوجوا اللغة في محاولة منه للإستقصاء عن الاستراتيجيات التي يوظفها هؤلاء باعتماده على مقاربة ألسنية ممنهجة تمثلت بالأساس في (بروتوكولات التصريح TAP_S) التي يقوم فيها الشخص موضوع الدراسة بالتعبير اللفظي عن العمليات الذهنية التي يحتكم إليها أثناء الترجمة، و التي تشتمل على الصعاب التي تواجهه و الاستراتيجيات الكفيلة بحلها. يتم تقييد هذا التوصيف (مختلف أشكال العمل الذهني) عبر كافة مراحله، ليقوم بعدها الباحثون بتحليله. استنتج لورشر، من خلال هذه التجربة، أنّه ثمة تسع عناصر قاعدية ينبغي توفرها في أي استراتيجية ترجمية. هذه العناصر هي:

1. Realizing a translational **P**roblem RP

1. إدراك لمشكل ترجمي إ م (الترجمة لنا)

2. Verbalizing a translational **P**roblem VP

2. التعبير اللفظي عن مشكل ترجمي ت ل م (الترجمة لنا)

3. Searching for a possible solution to a translational **P**roblem →SP

3. البحث عن حل ممكن لمشكل ترجمي ←ب م (الترجمة لنا)

4. Solution to a translational **P**roblem SP

4. ثمة حل لمشكل ترجمي ث ح م (الترجمة لنا)

5. Preliminary **S**olution to a translational **P**roblem PSP

5. حل أولي لمشكل ترجمي ح أ م (الترجمة لنا)

6. Parts of a **S**olution to a translational **P**roblem SPa, SPb…

6. أجزاء من حل لمشكل ترجمي ح م أ، ح م ب… (الترجمة لنا)

7. A solution to a translational problem is still to be found SP ∅

7. لا يزال ايجاد حل لمشكل ترجمي مطروحاً ح م Ø (الترجمة لنا)

8. Negative solution to a translational problem SP= ∅

8. حل سلبي لمشكل ترجمي ح م= Ø (الترجمة لنا)

9. Problem in the reception of the **S**ource **L**anguage text PSL **(1)**

9. ثمة مشكل في استقبال النص في اللغة المصدر ث م ل م (الترجمة لنا)

يقوم المترجمون خلال عملية الترجمة، بحسب لورشر، بجمع هذه العناصر في (بنى قاعدية) (basic structures) و (بنى

(1) David Bergen, Translation Strategies and the Student of Translation, In Tommola J.(ed.): Kieli ja kulttuuri kääntäjän työvälineinä.Turku: University of Turku (Department of English Translation Studies), 2006, p112.

موسعة) (expanded structures) و (بنى مركبة) (complex structures). إنّ (البنى الموسعة) (expanded structures) و (البنى المركبة) (complex structures) هي ببساطة دمج للبنى القاعدية فيما بينها. و قد تمكن لورشر، على ضوء الحقائق و المعطيات التي جمعها، من الكشف عن خمس استراتيجيات قاعدية تم توظيفها من قبل أولئك الأشخاص محل الدراسة. يستخدم لورشر نظاماً من مجموعة رموز لوصف الاستراتيجيات؛ بحيث يمكننا على سبيل المثال أن نعرض الصنف الأول منها على النحو التالي:

- Type I: RP-(P)SP≠/SPØ **(1)**

– الصنف I: إ م–ح(أ)م≠/ح مØ

يعني ذلك أنّ المترجم يقوم بإدراك لمشكل من نوع ما، و لكنه لا يكشف عنه من خلال تسميته ({RP}{إ م})، ليقوم فوراً إما بايجاد حل أولي للمشكل ({(P)SP}{ح(أ)م}) و يتوقف عن التعامل معه ({≠})، أو ({/}) أن يقرر تركه دون حل و الرجوع إليه لاحقاً ({SPØ}{ح مØ}). بما أنّ هذه الاستراتيجية موجهة نحو مشكل و هدف محددين، فإنّها تتصل قطعاً بالتحولات التي تطرأ على النص. و ستبدو أيضاً أنّها مدركة بسبب أنّ لورشر كان قادراً على وصفها معتمداً في ذلك على تقارير مدروسيه. و يعني هذا بدوره أنّ هذه الاستراتيجية تعتبر أيضاً بيشخوصية (في كونها قابلة للتجريب و الفهم من قبل أي شخص آخر علاوة على الشخص الذي يقوم بتوظيفها)؛ و بالتالي فإنّها تستوفي جميع الشروط المطلوبة التي أكد عليها أندرو شسترمان Andrew Chesterman في تعريفه لاستراتيجية الترجمة.

تختلف الاستراتيجية القاعدية الثانية عن الأولى في أنّ المترجم فيها لا يبادر إلى حل فوري، أو أنّه يترك المشكل، لكنه يأخذ وقته في البحث عن حل أولي. و يمكن أن يكون ذلك عبر مراجعة القواميس و الشبكة العنكبوتية أو أي مصدر آخر.

و فيما يخص الصنف الثالث منها، فإنّ المترجمين قد يعمدون (كما قد لا يعمدون) إلى التعبير اللفظي عن حقيقة أنّهم أدركوا لمشكل ترجمي على المستوى المجرد، لكنهم، بدلاً من ذلك، يقومون بتسميته بطريقة صحيحة، و ينتقلون بعدها إما إلى ايجاد حل أولي للمشكل أو يقررون تركه جانباً و حله فيا بعد. إنّ الحقيقة التي مفادها أنّ الشخص الملاحظ (الباحث في هذه الحالة) قد لا يتمكن من أن يتحقق من أنّ مدروسيه قد أدركوا لمشكل على المستوى المجرد (أي إنّ هم لم يبلغوه بذلك) تعتبر من المسائل التي يؤسف لها في مقاربة بروتوكولات التصريح. إنّ حضور خطوة ما، التي يتم الإستقصاء عنها، في التقرير الشفوي للشخص موضوع الدراسة هو بمثابة الدليل المؤكد على أنّه واع بها تمام الوعي. و إن هو قام في هذه الحالة بتدوين أنّه بصدد توظيف استراتيجية معينة أو عنصراً استراتيجياً منها، فسنكون عندها متيقنين بأنّها الحقيقة. غير

(1) David Bergen, op.cit, p112.

أنّه إن لم يشير إلى هذا العنصر، كأن يقول مثلاً أنّه (ثمة خطب ما، لكنني عاجز بعد عن كشفه)، فإنّ ذلك لدليل على أنّه لم يجربه قط. قد لا يفكر الشخص موضوع الدراسة بأنّه من الضروري أن يبلّغ عن إدراك كهذا، أو أنّه قد لا يعبر عنه بطريقة يتعرف عليها الباحث، و هو ما سيدفعنا مجدداً إلى القول بأنّ ذلك يتوافق تماماً مع ما ذهب إليه شسترمان في أنّ إدراك استراتيجيات الترجمة يكون محتملاً.

يعتبر الصنف الرابع من استراتيجية الترجمة، في نظر لورشر، دمج للصنفين الأول و الثالث بشيء أكثر من التعقيد، مع كون أنّ بعض العناصر فيه تجيء اختيارية. أما في الصنف الخامس، فيقوم المترجمون بتجزئة المشكل إلى وحدات صغيرة أو إلى خطوات و من ثم حلها؛ أو محاولة حلها واحدة بواحدة إلى أن يتوصلوا إلى حل مرض، أو أن يتخلوا عن ذلك إلى حين.

قد يتبادر إلى أذهاننا أنّ هذه الاستراتيجيات الترجمية مبتذلة، و السبب هو أنّه ما من مترجم يصادف مشكلاً ترجمياً إلا و يحله أو سيحاول حله بإحدى الطرق الآنف ذكرها. قد أثبتت العديد من الدراسات الترجمية، خاصة تلك التي تتصل بتعليمية الترجمة، أنّه لا وجود لشيء مبتذل حول هذه الاستراتيجات، ذلك لأنّ طلاب الترجمة، خاصة المبتدئين منهم، غالباً ما يعتقدون أنّه بنقل النص حرفياً و باستعمال القاموس فإنّهم سينجزون ترجمة تحقق قدراً كاف من الجودة. قد لا يدرك هؤلاء بالضرورة وجود المشاكل الترجمية مثل إلزامية القيام بتغييرات على مستويات لغوية عديدة قبل أن يتخلص النص في اللغة المنقول إليها من صبغة الترجمة. تعتبر هذه التعديلات اللغوية القسرية في حد ذاتها نوع من أنواع استراتيجيات الترجمة و التي سنتطرق إليها لاحقاً.

و أثبتت الدراسات في حقل تعليمية الترجمة أيضاً أنّه في بعض الأحيان و من خلال الترجمة الأولى أو حتى في نسختها النهائية، يكون الطلاب على أكبر قدر من الوعي و الإدراك لخطأ لغوي ما، و يصرحون علناً عن علمهم بالخطأ الكامن هنا أو هناك؛ أو أنّهم يحفظون القواعد عن ظهر قلب لكنهم فقط لا يأخذون كفايتهم من الوقت لكتابة ترجمة سليمة المعنى و المبنى في اللغة التي يترجمون إليها، كما أنّهم يقرّون أحياناً بوجود خطب ما في ترجماتهم هاته غير أنّه لم يكن بمقدورهم أن يفكروا في شيء أحسن منها بديلاً، بل و في بعض المرات يقرون بأنّهم لم يدركوا أنّهم أخطأوا.

إن نحن قاربنا المسألة من منظور علم النفس العرفاني لماهية التعلم، فإنّه يوجد نوعين من المعرفة (knowledge): (معرفة ماذا) (knowing what) (توافق الفعل مع الفاعل في الجملة على سبيل المثال) التي يصطلح عليها تسمية (المعرفة التصريحية) (declarative knowledge)؛ و (معرفة كيف) (knowing how) (توظيف معرفة القواعد على المستوى التطبيقي) التي تسمى بـ (المعرفة الاجرائية) (procedural knowledge). و تقول ذات النظرية أنّه يمكن لشخص أن يكون عارفاً بشيء ما تصريحياً، لكنه ليس بمقدوره القيام به عملياً (أي ممارسة) لظروف خاصة. فقط من

خلال الميراس ستصبح المهارات مطورة بشكل تلقائي و ملقنة بوجه حقيق في شكل معرفة اجرائية. و منه، فإنّ تعلمنا إدراك وجود مشكل ترجمي في النص من عدمه، و فهم ماهية هذا المشكل و نوعه، و امتلاك القدرة على توظيف الاستراتيجية المناسبة تعتبر خطوات ضرورية لتطوير الكفاءة الترجمية.

عكف العديد من الباحثين على دراسة مفهوم (الاستراتيجية) (strategy) في الترجمة نظراً لما لهذا المفهوم من أهمية بالغة، و من حتمية في سير عملية الترجمة و في الكيفية التي من خلالها يتبلور نتاجها الأخير، أي النص المترجم. فعلى سبيل المثال، يعرّف هانس بيتر كرينغس Hans-Peter Krings استراتيجية الترجمة بنفس المنوال الذي عرّفها به لورشر Lorscher في كونها "خطط المترجم المحتملة الإدراك لحل مشاكل ترجمية ملموسة في اطار عمل ترجمي ملموس"[1] (الترجمة لنا). و في ذات الصدد، يؤكد أندرو د.كوهن Andrew D. Cohen على فكرة الإدراك هاته (consciousness) التي دفع بها كل من لورشر Lorscher و كرينغس Krings، و يقول أنّ عنصر الإدراك هو الذي يميّز الاستراتيجيات عن العمليات الأخرى التي لا تعتبر استراتيجية (هنا النعت strategic)[2].

و تعتقد كنداس سيغينو Candace Séguinot أنّه ثمة على الأقل ثلاث (استراتيجيات شمولية) (Global strategies) يوظفها المترجمون: تكمن الأولى في الترجمة من دون انقطاع لأطول مدة ممكنة؛ و الثانية في التصحيح الفوري للأخطاء السطحية؛ أما الثالثة فترك المراقبة للنوعية و الكيفية أو للأخطاء الأسلوبية في النص لطور المراجعة[3].

و يميّز بل روجر.ت Bell Roger.T بين الاستراتيجيات الترجمية الشمولية (Global strategies) (تلك التي تتعامل مع النص برمته)، و الاستراتيجيات الترجمية الموضعية (Local strategies) (تلك التي تتعامل مع مقاطع منه). و يأتي هذا التمايز، حسبه، نتيجة الصنوف المتنوعة لمشاكل الترجمة[4].

و تنطوي استراتيجيات الترجمة بالنسبة للورانس فينوتي Lawrence Venuti على "المهام الأساسية في اختيار النص

(1) Krings defines translation strategy as being the “translator’s potentially conscious plans for solving concrete translation problems in the framework of a concrete translation task”.
(see Marouane Zakhir et al., The Theories of Translation: From History to Procedures, Edited by Zainurrahman, Source: Personal Journal of Philosophy of Language and Education (http://zainurrahmans.wordpress.com), 2009, p121. (Krings, H.P. (1986:18). Translation problems and translation strategies of advanced German learners of French. In J. House, & S. Blum-Kulka (Eds.), Interlingual and intercultural communication (pp.263-75). Tubingen: Gunter Narr).
(2) Ibid, p121. (Cohen, A.D. (1984:4). On Taking tests: what the students report. Language testing, 11(1).70-81).
(3) Ibid, p121. (Séguinot, C. (1989). The translation process. Toronto: H.G. Publications).
(4) Idem, p121. (Bell, R.T. (1998:188). Psychological/cognitive approaches. In M. Baker (Ed), Routledge encyclopedia of translation studies. London & New York: Routledge).

الأجنبي بغية ترجمته و تطوير منهجية لذلك"[1] (الترجمة لنا). كما يوظف فينوتي مفهومي (التدجين) (domestication) و (التغريب) (foreignazation) للإحالة على استراتيجيات الترجمة.

من جهتها، تؤكد ريتا جاسكلاينن Riitta Jääskeläinen أنّ الاستراتيجيات بطبيعتها مرنة و مساعدة على كشف ما أشكل؛ و أنّ تبنيها يتعالق مع قرار المترجم المتأثر بالتعديلات و التنقيحات التي تطرأ على ما يرمي إليه من أهداف. و الاستراتيجية بالنسبة لجسكلاينن "مجموعة كفاءات و تشكيلة من خطوات و عمليات التي تدعم اكتساب و تخزين و/أو استخدام المعلومات"[2] (الترجمة لنا).

قسّمت جسكلاينن Jääskeläinen الاستراتيجيات إلى فئتين رئيسيتين، آخذة بعين الاعتبار في ذلك سير عملية الترجمة و نتاجها: بعضها يتصل بما يحدث للنصوص، بينما يتصل البعض الآخر بما يحدث في عملية الترجمة. تتضمن الاستراتيجيات التي تتصل بالناتج، في نظرها، بعض المهام الرئيسة أهمها اختيار النص في اللغة المنقول منها و تطوير منهجية لترجمته. أما الاستراتيجيات المتصلة بعملية الترجمة و سيرها فهي "مجموعة من القواعد و المبادئ يوظفها المترجم ليبلغ الأهداف التي يمليها عليه الوضع الترجمي"[3] (الترجمة لنا). و يعتبر مفهوم الوضع الترجمي (the translating situation) هنا محورياً، إذ يحيل على فكرة أنّ المترجم يذعن دائماً، بشكل أو بآخر، للقيود اللغوية و الميتالغوية التي تجيء في النص، أي أنّه سيوظف و ببساطة الاستراتيجية تلو الأخرى بحسب نوع المشكل الترجمي الذي يصادفه؛ و هذا يتفق مع ما ذكرناه آنفاً في أنّ استراتيجية الترجمة غالباً ما تكون حينية بحسب الحالة النوعية لكل مشكل ترجمي على حدى.

و علاوة على ذلك، تقسّم جسكلاينن Jääskeläinen هذه الاستراتيجيات (المتصلة بعملية الترجمة و سيرها) إلى صنفين: (الاستراتيجيات الشمولية) (Global strategies) التي تشير إلى المبادئ العامة و أساليب الآداء؛ و (الاستراتيجيات الموضعية) (Local strategies) التي ترتبط بحل المشاكل الترجمية و اتخاذ القرارات.

و عليه، فإنّ التوظيف الثاني لكلمة (الاستراتيجية) (strategy) يحيلنا على مفهومها (النصي) (textual) الذي يُعتمد

---

(1) Marouane Zakhir et al., op.cit, p121. (Venuti, L. (1998:240). Strategies of translation, In M. Baker, op.cit, pp.240-244).

(For Lawrence Venuti, The translation strategies "involve the basic tasks of choosing the foreign text to be translated and developing a method to translate it").

(2) Riitta Jääskeläinen considers that strategy is "a series of competencies, a set of steps or processes that favor the acquisition, storage, and/or utilization of information".

(Ibid, p121. (Jääskeläinen, R., (1999:71). Tapping the process: an explorative study of cognitive and effective factors involved in translating. Joensuu: University of Joensuu Publications in Humanities)).

(3) Ibid, p122. (Jääskeläinen, R., (2005:16). Translation Studies: What are they? Retrieved November 11, 2006 from http://www.hum.expertise.workshop).

في توصيف نتائج الاجراءات بدلاً من الاجراءات نفسها. و يعد هذا الاتجاه، الذي تقترن من خلاله الاستراتيجية بالمحصلة لا بسبل التحصيل، اتجاهاً حديثاً، بحيث كانت بدايته مع الدراسات المبكرة التي ناقشت المسائل المتصلة بـ (الاجراءات) (procedures) (جون بول فيني J.P Vinay و جون داربلنيه J. Darbelnet)، و (الانزياحات) (shifts) (ج.س كاتفورد J.C Catford و أنطون بوبوفيتش Anton Popovic) بين النصين في اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها.

إنّه لمن الصعب دائماً أن نلج إلى ذهن الآخر، و أن نفهم طريقة تفكيره بكل دقائقها و تفاصيلها[1]. و قد يكون هذا الآخر مؤلفاً أو مترجماً. و ما يدور في ذهن المؤلف لحظة التأليف أو قبيلها؛ و كل ما ينتج عن هذا الجهد الفكري إنّما هو النص ثمرته. و حين تصبح هذه الثمرة بين يدي المترجم نراه يتساءل: ترى ما مذاق هذه الثمرة؟ هل هي انعكاس صادق لنية زارعها و مقصديته؟ هل تحمل نفس الخصائص الفيزيائية و البيولوجية للوسط الذي زرعت فيه؟ لأنّها تفاجئ أحياناً حتى من زرعها بحيث لا تتغذى من التربة التي أعدها لها، و الماء و السماد اللّذين زودّها بهما. و كذلك هو النص يفاجئ صاحبه و يتخطى جميع توقعاته. و يدخل في انتاج النص، بوصفه نتاج الفكر و أحد ثمراته، آليات العمل المدركة (الواعية) و آليات العمل غير المدركة (غير الواعية)، تتسلل على غفلة منه و من ارادته. أضف إلى أنّ التعبير في أي لغة عملة بوجهين: قد تقصّر أحياناً في آداء كل ما يجول بخاطر المؤلفين، و لذا نرى بعضهم يلجأ إلى الرسم بالكلمات[2] لعله يساند الكلمة للتعبير عن المقاصد الكامنة في الذهن. و قد تحمل اللغة أحياناً أخرى في طياتها طاقات خاصة تضيف إلى النص جزئيات معنى لم تكن في حسبان المؤلف. و الموقف نفسه يحصل مع المترجم: إذ يصعب علينا الإحاطة بكل ما يدور في ذهنه، و كل ما ينتج عن ذلك الجهد إنّما هو النص في اللغة المنقول إليها. و لهذا، فإنّ المقاربات التي تسعى إلى فهم الدماغ البشري لتدرك طريقة عمله لم تصل بعد إلى نتائج أكيدة و ثابتة. و هو حال (بروتوكولات

---

(1)"Nothing is more difficult than to enter into the thought processes of another person and be able to rebuild his whole perspective in all its particularity".
(Katharina Reiss, Translation criticism, The Potentials and limitations, categories and criteria for translation quality assessment, traduit de l'Allemand par Erroll F. Rhodes, St. Jerome Publishing, American Bible Society, Manchester, New York, 2000, p09).

(**2**)يعتبر الشاعر الفرنسي غيوم أبولينير Guillaume Apollinaire رائد القصيدة الفرنسية الحديثة، بحيث تمكن من أن يؤسس نمطاً شعرياً جديداً عُرف بالشعر التصويري (calligramme). و يأخذ هذا الشعر رسوماً مختلفة ترتبط بموضوع القصيدة، كما قد يصور الرسم معنى يتعارض مع موضوعها. يعد الكثير من النقاد أبولينير أحد كبار الشعراء الرواد الفرنسيين الذين بثوا في الشعر الفرنسي المعاصر رعشة جديدة يمكن أن تماثل، في تأثيرها و عمقها، ثورة بودلير الشعرية حتى أنّ اسمه يرد في أي حركة تجديد في الفنون عامة، و في الشعر خاصة، لأنّ نفسه القلقة الطموح، كانت تملي عليه أن ينشد كل جديد مبتكر و أن ينبذ كل مألوف في الفن و الأدب؛ فقد دافع عن الحركة (التكعيبية) في التصوير، و كان بيكاسو أحد أعلامها، إبّان نشأتها و ذيوعها. و كان يبتكر و يتفنن في تسطير قصائده، كأنّه طفل فنان يعبث بكلماته فيسطّرها، وفقاً لموضوعاتها، على شكل حصان أو امرأة أو زجاجة أو غير ذلك. و قد جمع أبولينير العديد من قصائده المرسومة في ديوانه (Calligrammes, poèmes de la paix et de la guerre 1913-1916) الذي نشر العام 1918. كما أنّ نزار قباني أطلق تسمية (الرسم بالكلمات) على أحد دواوينه الشعرية التي نشرت العام 1966.

التصريح) (Raisonnement à haute voix) التي دخلت حيز التداول في علم الترجمة سنوات الثمانينات.

إنّ أهم ما يعيق التوصل إلى نتائج أكيدة و شاملة يكمن بالأساس في أنّ المترجم يعرف بأنّه مراقب و هو أمر قد يربكه و يخرجه عن طرق تفكيره العادية. و ليس من المؤكد أنّ المترجم، أو أي إنسان آخر، يدرك بشكل واعٍ كل ما يحدث في ذهنه. ثم حتى لو سلمنا جدلاً بأنّه مدرك لكل عملياته الذهنية، فإنّ سرعة التفكير تفوق حتماً سرعة التعبير[1]. و لا يمكن للمترجم إذن أن يعبّر بالكلام عن كل ما يعتمل في صدره. و لهذا نجد أنّ جون روني لادميرال Jean-René Ladmiral اصطلح على هذه المقاربات تسمية (ترجمية الغد)، لأنّ نتائجها لن تظهر في القريب العاجل و هي رهن تطور العلم. و هو ما دفعه إلى اقتراح بعض الفرضيات التي يأمل من خلالها إخراج المشاكل الترجمية إلى حيز الوعي و الإدراك، و من ثم تصنيفها و تحويلها إلى مفاهيم تساعد المترجم على اتخاذ قراراته و تسّهل عليه خياراته.

إنّ سعي المترجم الحثيث لتحليل و فهم مختلف إشكالات الوضع الترجمي سيدفع به إلى اتخاذ القرار بشأن اختيار الاستراتيجية أو الاستراتيجيات الأنسب بغية التقليل من معضلة الخسارة الترجمية، ذلك لأنّ الترجمة، مثلها في ذلك مثل أي فعل تواصلي، تتضمن درجات من الخسارة (entropie) قد تقل أو تعظم في النص الواحد. يتمثل عمل المترجم بالأساس في اختيار الاستراتيجية الأقل ضرراً. بيدأنّ عملية الإختيار تلك ستتعطل إن هو لم يعزم أمره و يقرر، لأنّ المترجم، قبل كل شيء، الحاكم بأمره في سير عمله، بل إنّه رجل من رجالات القرار (هكذا يصفه لويس تريفو Louis Truffaut[2] (Le traducteur est un décideur)). و ستكون جميع خياراته الترجمية نابعة من خيارٍ جوهري واحدٍ يرتبط بهدف الترجمة الأخير، و الجمهور المستهدف منها، و مستوى ثقافته و ألفته مع المؤلف الذي ينقل له، و مع لغته و ثقافته الأصلية. و لربما إنّه من حسن حظ الكثيرين (أو من سوء حظهم) عدم وجود استراتيجية ترجمية واحدة أو أحادية يتم توظيفها لترجمة جميع النصوص. و لأجل ذلك، ينبغي أن يكون المترجم ملماً بمختلف الاستراتيجيات الترجمية، لكن ذلك لن يتسنى إلاّ إن هو أيقن أولاً أنّ الاستراتيجية، بوصفها مفهوماً، تعد عملية ذهنية (a mental process) (قراءة النص، فهم النص، تحليل بنى النص، ربط النص بالمحمول المعرفي le bagage cognitive...)؛ و تعد عملية اجرائية (a procedural process) (ايجاد المكافئات، تحويل البنى اللغوية، اعادة التعبير و الصياغة...)؛ ثم إنّه يمكننا أن نعتبرها اسماً شاملاً (un hypéronyme) لكل الأسماء المشمولة

---

(1)يقتبس جون دوليل Jean Delisle عن جوليان غرين Julien Green قوله: "La pensée vole, les mots vont à pied".
(Jean Delisle, La traduction raisonnée, coll. Pédagogie de la traduction, Presses de l'Université d'Ottawa, Ottawa, 1993, p06).

(2) Gina ABOU FADEL SAAD et al., Thèses et Synthèses, Traduction-Traductologie, collection "SOURCES-CIBLES", Dirigée par Henri AWAISS et Jarjoura HARDANE, Ecole de Traducteurs et d'Interprètes de Beyrouth, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Saint-Joseph, 2011, p119.

الأخرى (hyponymes) (الاجراءات و التقنيات و المبادئ و العمليات و التغييرات و التبديلات...) أولاً من حيث المفهوم (في أنّها تحتويها)، و ثانياً من حيث التوظيف (تعنى الاستراتيجيات بالهدف الجامع و المانع، أي بالنص مجملاً، أما الاجراءات و التقنيات و المبادئ... فتعنى إما بالكلمة المفردة، أو بالجملة، أو بالعبارة، أو بالفقرة)، أي في كونها تنحاز، كل حسب رأي متبنيها، لمفهوم الوحدات الترجمية (les unités de traduction)، و ما يدخل في عموم الاتساق و الانسجام النصيين من نحو و صرف و وصل و فصل و توقيف و ما إلى ذلك.

إنّ المترجم أمام نصه مثل البنّاء أمام أدوات عمله و مادته الأولى، لن يبدأ بالبناء و التشييد إلاّ حين يعرف تمام المعرفة ماذا ينبغي عليه عمله. و لن يتسنى له ذلك إلاّ في حال وجود مخططٍ مفصلٍ و تام الوضوح يضعه المهندسون سلفاً بعد طول دراسة و تمعن. و إن نحن شرعنا في العمل قبل أن نعرف ما علينا القيام به، فإنّنا سنشتغل حينها خبط عشواء و سنبتعد أكثر عن الهدف[1]. و لهذا كان لزاماً علينا أن نكيّف الاستراتيجية بحسب النص (le texte)، و سياقه (son contexte)، و المجال الذي ينتمي إليه (son domaine)، و نمطيته النصية (sa typologie)، و وظيفته (sa fonction)، و قارئه المستهدف (son lecteur cible)؛ كما كان لزاماً علينا أيضاً أن نظهر نوعاً من المرونة، و أن تتسم ترجماتنا بلمسة ابداعية تجعل من الاستراتيجية وسيلة لا غاية.

يعتبر مفهوم (الاستراتيجية) (strategy) في الترجمة مفهوماً معقداً و تصعب الاحاطة به بسبب الغموض الذي يكتنفه، و خلطه مع مفاهيم اجرائية أخرى ((التقنيات) (techniques)، و (الأساليب) (procédés)، و (التكتيكات) (tactiques)) و غيرها. و قد أدى ذلك بالعديد من الباحثين إلى الوقوع في تناقضات نظرية فاضحة فضّاحة، إذ يذهب شارلز .س كرازيوسكي Charles S. Kraszewski، على سبيل المثال، إلى حد الخلط بين (الوظيفة) (fonction) و (الاستراتيجية) (stratégie) في تصنيفه لاستراتيجيات الترجمة الذي ضم أربع استراتيجيات هي (الاستراتيجيات الاخبارية) (les stratégies informationnelles)، و (الاستراتيجيات التصحيحية) (les stratégies correctives)، و (الاستراتيجيات الناقدة) (les stratégies critiques)، و (الاستراتيجيات المعينة) (les stratégies prosélytes)[2].

و تميّز ماريا بيوتروسكا Maria Piotrowska بين مقاربتين لتحديد مفهوم استراتيجية الترجمة: (المقاربة المنهجية) (l'approche méthodologique) التي تعتبر الاستراتيجيات أدوات تعليمية في تلقين الترجمة؛ و (المقاربة العرفانية)

(1)voir Gina ABOU FADEL SAAD et al., op.cit, p120.

(2)see Charles Kraszewski, Four Translation Strategies Determined by Particular Needs of the Receptor, Translation Theory Backwards, Lewiston-Queenston-Lampeter, The Edwin Mellen Press, 1998, p90.

(l'approche cognitive) التي تنظر إليها بأنّها طرائق بحث و تحري عن سير عملية الترجمة[1].

و بسبب عنايتها بالمسائل التعليمية، أعطت بيوتروسكا Piotrowska تعريفاً لاستراتيجية الترجمة يعنى أكثر بسير عملية نقل النص المصدر إلى نصٍ هدف. بيدأنّه لا يمكننا أن نعتبر هكذا رأي حصيفاً لأنّه يمكن لكلتا المقاربتين (المنهجية و العرفانية) أن تؤديان الغاية التعليمية نفسها.

تستشهد بيوتروسكا Piotrowska على نحو خاص بكل من ساندور هارفي Sandor Hervey و إين هكنز Ian Higgins اللّذان يقترحان نموذجاً لاستراتيجيات الترجمة يقوم على أساس استراتيجيات التعويض و استراتيجيات الحل الوسط (أي الاستراتيجيات التوافقية) التي تخوّل حل المشكلات الترجمية ذات الصلة بثقافة اللغة المنقول منها.

و استراتيجية الترجمة بالنسبة لماريا بيوتروسكا Maria Piotrowska "اجراء ذو قصد مفهوم و موجه نحو سياق الكلام، أو خطة العمل التي يوظفها المترجم للنقل من اللغة المصدر (ل م) إلى اللغة الهدف (ل هـ)، و التي تتبع، بطريقة متسقة، بتقنيات خاصة"[2] (الترجمة لنا). و عليه، فإننا نختار استراتيجة شمولية خلال طوري اتخاذ القرار و فك الرموز اللغوية بتركيزنا على النص في مستواه العام.

ترتبط استراتيجية الترجمة، بالنسبة لبيوتروسكا Piotrowska، بمسألة فهم النص كاملاً، و تتصف بالتالي في كونها استراتيجية شمولية، أي استراتيجية اتخاذ القرار. لتقوم بعد ذلك بعرض مفهوم (التقنيات) (techniques) باعتمادها على ما جاء به كل من هارفي Hervey و هكنز Higgins التي تعتبرها (قرارات حول تفاصيل) (decisions of details) "الطرق الملموسة التي ينبغي على المترجمين العمل بها ذهنياً إن هم واجهوا مشاكلاً ترجمية أثناء ممارسة الترجمة. تعتبر (التقنيات) (techniques) أو (التكتيكات) (tactics) أفعالاً واقعية و منفردة تهدف إلى انجاز مهام"[3] (الترجمة لنا). و بهذا تكون استراتيجية اتخاذ القرار سبّاقة عن استراتيجية التعاطي مع التفاصيل.

يقول جون دوليل Jean Delisle عن استراتيجية الترجمة أنّها استراتيجية توظف بطريقة متسقة من قبل المترجم وفق النظرة المتبناة لترجمة نص ما. و من ثم فإنّها توجّه مسعاه العام حيال ترجمة أي نص و تختلف عن (القرارات الدقيقة)

---

(1)see Maria Piotrowska, Towards a Model of Strategies and Techniques for teaching Translation, in Translators' Strategies and Creativity, edited by Ann Beylard-Ozeroff, Jana Králová and Barbara Moser-Mercer, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 1998, p210.

(2) Maria Piotrowska argues that a translation strategy is "a comprehensive purpose- and context-oriented procedure, or the policy a translator uses to make the transfer from the source language (SL) to the target language (TL), which is consistently followed by specific techniques".
(Ibid, p210).

(3) She deals with (techniques) as being "concrete ways in which translators should mentally proceed if faced with translation problems when they are engaged in the process of translating. Techniques, or tactics, are single concrete actions aiming at accomplishing tasks".
(Ibid, p210).

(les décisions ponctuelles) مثل تطبيق مختلف أساليب الترجمة[1]. و يضيف دوليل Delisle أنّه بإمكان المترجم أن يتبنى استراتيجيتي (التكييف) (l'adaptation) أو (الترجمة الحرفية) (la traduction littérale) بحسب المقتضيات، بل يمكنه حتى أن يغيّر نمط النص أو أن يعدّله وفق احتياجات المرسل إليهم الخاصة. يمكن للمترجم مثلاً أن يقدم في هذه الحالة ترجمة على شكل ملخص (un résumé) التي ستفي بالغرض. و قد أعطى كل من دوليل Delisle و لي-جانك Lee-Jahnke و كورميي Cormier كاصطلاح مرادف لاستراتيجية الترجمة (stratégie de traduction) (مشروع الترجمة) (projet de traduction)، و هو ما يجعل الرأي القائل بضرورة أن تؤخذ استراتيجية الترجمة بمفهومها الشمولي يرجّح الكفة لصالحه، خاصة و أنّ أي مشروع، بغضّ النظر عن كونه يتصل بالفعل الترجمي من عدمه، إلاّ و يحمل معه تصوراً عاماً عن الأهداف المتوخاة و الخطوات الواجب اتباعها لتجسيد تلك الأهداف على أرض الواقع، ناهيك عن جدوى المشروع و مردوده على مستويات الآداء كافة. و هذا الرأي القائل بتلك النظرة يجمع من حوله الكثير من المنظرين ممن تعاملوا مع مفهوم الاستراتيجة في الترجمة، و ممن يحسب لهم تمييزهم لمفهوم الاستراتيجية بمعناها الواسع عن المفاهيم الاجرائية البسيطة الأخرى.

عرفت الدراسات التي تعنى باستراتيجيات الترجمة انطلاقة نوعية في السنوات الأخيرة، و ذلك مقارنة بتلك التي تعنى بمبادئ الترجمة (les principes de traduction)، و التي تعتبر حديثة أكثر. و قد تم التطرق إلى استراتيجيات الترجمة من خلال توجهين: ينظر الأول إلى الترجمة بوصفها (مسار) (processus) و تمثله (الاستراتيجيات العرفانية) (les stratégies cognitives)؛ أما التوجه الثاني فيعتبرها (نتاج مكتوب) (un produit écrit) و تمثله (الاستراتيجيات النصية) (les stratégies textuelles) التي بفضلها يتلاعب المترجم بالمكوّن اللساني؛ غير أنّ كلا التوجهين يتداخلان معاً في الغالب الأعم.

تأثرت مختلف التعريفات التي أعطيت للاستراتيجيات الترجمية العرفانية، بشكل كبير، بالبحوث الخاصة باكتساب و تعلم لغة ثانية. تعد (استراتيجيات التواصل) (les stratégies de communication)، بحسب كلوز فايرش Claus Faerch و غابريال كاسبر Gabriele Kasper، خططاً محتملة الإدراك لحل ما يعتبره شخص ما مشكلاً عند محاولته الوصول إلى هدف تواصلي ما[2]. و بالنسبة لرواد الاستراتيجيات الترجمية العرفانية و متبنيها (لورشر و كرينغس على سبيل المثال) فإنّ مسائل مثل كون استراتيجيات الترجمة عبارة عن خطط، و ضرورة أن تكون محتملة

(1)voir Jean Delisle, Hannelore Lee-Jahnke, Monique C. Cormier, Terminologie de la traduction, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 1999, p77.

(2)see Claus Faerch & Gabriele Kasper, Plans and strategies in foreign language communication. In Claus Faerch & Gabriele Kasper, strategies in interlanguage communication, Longman, London, 1983, p36.

الادراك، و أنّها توظف لحل مشكل ترجمي ما حاضرة بقوة، أضف إلى أنّ الترجمة تعد فعلاً تواصلياً من الطراز الأول في كونها استراتيجية تلاقحية تفتح الأنا على الآخر و العكس. و بالتالي، فإنّ تعريف المقاربة العرفانية لاستراتيجية الترجمة مقتبس من تعريف علم اللغة النفسي لعملية التلقين اللغوي التي تعد بدورها حدثاً تواصلياً بامتياز.

قام ريكاردو مونوث مارتن Ricardo Munoz Martin بتصنيف استراتيجيات الترجمة المختلفة ضمن ثلاث مجموعات. تركّز المجموعة الأولى على مقاطع النص و تميل نحو تفضيل المظاهر المقارنة و التقابلية (les aspects comparatifs et contrastifs) بين اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، و هو ما يجعلها مفيدة أكثر على مستوى لساني صرف. أما المجموعة الثانية فتنظر إلى الاستراتيجيات بأنّها اجراءات تؤثر على ترجمة النص في مجمله. تهتم هذه المقاربة، ذات البعد اللغوي النفسي، بسير عملية النقل البيلساني (le transfert interlinguistique) خلال عملية الترجمة بفضل تقنية (بروتوكولات التصريح). غير أنّ هذه المقاربة تطرح صعاباً جمة لأنّه من الصعوبة بما يكون، كما أشرنا إليه آنفاً، أن نلج إلى علبة المترجم السوداء. و على العكس من ذلك، تبدو المجموعة الأخيرة من المقاربات، التي تضم تركيبات مختلفة من المجموعتين الأولى و الثانية، أكثر توفيقاً في طرحها، و بشكل خاص تلك التي تميّز بين (الاستراتيجيات الجامعة أو الماكرو استراتيجيات) (les macro-strategies) و (الاستراتيجيات الدقيقة أو الميكرو استراتيجيات) (les micro-strategies)[1]. تطبق الاستراتيجيات الجامعة على النص كله، في حين تعنى الاستراتيجيات الدقيقة بالمقاطع النصية. قد يتساءل الواحد منا كيف السبيل إلى تعريف المقطع النصي، و ما الذي يمكننا أن نعتبره مقطعاً نصياً دون سواه؟ يعرّف ر.م مارتن R. M. Martin المقطع النصي بأنّه كل جزء معزول من النص يتم فصله عن باقي النص لغرض التحليل. و هو يرى أنّ مفهوم الاستراتيجية على مستوى البنية اللغوية الصغيرة (la micro-structure) يعد ملموساً أكثر و الاحاطة به أسهل. و لو تمعّنا في هذا الطرح بشيء من التدبر لوجدنا أنّ ر.م مارتن R. M. Martin محق في قوله، ذلك لأنّ التوجه العام لترجمة نص ما بالنسبة لكل مترجم في إطار (الاستراتيجيات الشمولية/ الجامعة/ الماكرو) (global strategies /macro-strategies) ليس بالسهل، بل هو صعب للغاية لأنّنا بصدد الاشتغال على كلّ مركب لا ينبغي أن ننتقص منه شيئاً إن على مستوى الأسلوب و طرق التعبير و الصياغة، و إن على مستوى معايير الترجمة (the norms of translation)، و إن على مستوى الجمهور المستهدف. بل حتى على مستوى التصور نفسه: أليس من الصعب أن ندجّن القارئ أو نغرّبه أو نعصّرنه أو نهجّره بعد أن قررنا ذلك و كفى؟ إنّ المسألة

(1)see Ricardo Munoz Martin, Translation Strategies. Somewhere Over the Rainbow, edited by Beeby Allison, Ensinger Doris & Presas Marisa, Investigating Translation: Selected Papers from the 4th International Congress on Translation, Barcelona, 1998, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 2000, p131.

هنا مسألة تجسيد ذلك على أرض لم يعرفها المترجم قط، و حتى و إن كان قد عرفها يوماً فشتان بين الأمس و اليوم. إنّها أرض النص و جغرافيته الوعرة التي ما تلبث أن تظهر معلماً من معالمها إلاّ و ستخفي أخرى. أما الاشتغال على جزيئات نصية من كلمة أو شبه جملة أو جملة فهو في متناول كل مترجم، بل ستظهر بادية كل أساليب التعديل و التبديل و التطويل و الحذف و غيرها، كما يمكن للمترجم أن يبرهن على جميع تلك الخيارات من دون أن يحرك ساكناً. لكن الأمر الجلل هنا الذي لا نشاطر ر.م مارتن R. M. Martin الرأي حوله هو أنّ عملية الاشتغال على مقاطع النص و جزيئاته لا توظف فيها الاستراتيجيات بل (الاجراءات) (procedures) بخلاف عملية الاشتغال على النص برمته التي توظف فيها (الاستراتيجيات) أو (المنهجيات) (methods) باعتبار أنّها تتطابق معها في التوصيف و في التوظيف. و بهذا نكون قد حصلنا على ثنائيتين اثنتين: (الاستراتيجيات الشمولية أو الجامعة أو الماكرو/المنهجيات) (global or macro-strategies/methods) و (الاستراتيجيات الموضعية أو الدقيقة أو الميكرو/الاجراءات) (local or micro-strategies/procedures).

و ثمة مسألة اختلفت فيها وجهات نظر الباحثين بخصوص استراتيجية الترجمة ينبغي أن نشير إليها، و هي مسألة المعايير الواجب الأخذ بها لضبط مفهوم المشكل الترجمي. قلنا آنفاً أنّ الدافع وراء توظيف أي استراتيجية ترجمية هو وجود مشكل ترجمي من نوع ما. غير أنّ ذلك لا يلغي البتة فرضية أنّه حتى في ظل عدم وجود أي مشكل ترجمي، فإنّ للمترجم دوماً سلوك استراتيجي معيّن كأن يقرر مثلاً أن يتتبع عن كثب بنية النص المصدر و شكله، و الذي ينبني على أساس تخمينه لمتطلبات الترجمة. يكتفي ر.م مارتن R. M. Martin بالقول أنّ استراتيجية الترجمة تبدأ بتحديد مشكل ما دون أن يفصّل في ذلك. أما كريستيان نورد Christiane Nord فترى أنّه ينبغي أن يكون المشكل الترجمي مشكلاً موضوعياً و بمعزل عن كفاءات المترجم. و يبسط لورشر Lorscher الأمر بطريقة مغايرة لكنها وثيقة الصلة بما يحدث حقاً في كل فعل ترجمي إذ يقول أنّه في وقت ما من عملية الترجمة حينما يدرك المترجم أنّه غير قادر على نقل مقطع من اللغة المنقول منها إلى اللغة المنقول إليها بصفة تفي بالمراد فإنّ ذلكم هو مفهوم المشكل الترجمي[1]. لكن لورشر Lorscher لا يشير إلى ضرورة أن يكون المشكل الترجمي مشكلاً موضوعياً، و إن كانت مسألة الموضوعية تلك في حد ذاتها مسألة نسبية و صعبة المنال.

إنّ الحديث عن مفهوم الاستراتيجية في الترجمة حديث ذو شجون نظراً لتشعب موضوعاته و تفرع محاوره و اختلاط مفاهيمه بشهادة الكثيرين. و كنا قد بدأنا حديثنا عن مفهوم (الاستراتيجية) (strategy) في ميدان الدراسات الترجمية

(1) For Lorscher, "a translation problem is considered to occur when a subject realizes that, at a given point in time s/he is unable to transfer adequately a source-language segment into the target-language segment".
(see Mona Baker & Gabriela Saldanha, op.cit, p285).

بالميزات العامة التي عدّدها أندرو شسترمان Andrew Chesterman حول استراتيجيات الترجمة، و كيف أنّه من الضروري أنّ تتمتع بها هذه الأخيرة قبل أن تسمى كذلك. و سننهي حديثنا بشسترمان Chesterman أيضاً باعتبار أنّه من بين أبرز المنظرين الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع بكثير من الدراسة و التحليل، و هو ما سيتبيّن أكثر عند حديثنا عن أنواع الاستراتيجيات في الترجمة الذي سنركّز فيه –بشكل خاص– على التصنيف الاستراتيجي الشستراماني من دون أن ننسى مختلف التصنيفات الأخرى لمنظرين آخرين. و على الرغم من أنّ شسترمان Chesterman يقرّ باللّبس الذي يحيط بمفهوم استراتيجية الترجمة، بحيث يقول أنّ "لكلمة (الاستراتيجية) (strategy) العديد من المعاني المختلفة في علم النفس، و علم الاجتماع، و اللسانيات، و اللسانيات التطبيقية، و نظرية الترجمة. و أنّه تم وضع أنواع مختلفة من تمييزات بين الاستراتيجيات و التكتيكات و الخطط و المنهجيات و القواعد و العمليات و الاجراءات و المبادئ إلخ [...]: كانت النتيجة خلط مصطلحي كبير"[(1)] (الترجمة لنا)، فإنّ أول ما يصيبنا بالذهول هو أنّ شسترمان نفسه يجد صعاباً جمة عند محاولته ضبط مفهوم هذا المصطلح بالمعنى الذي يريده أن يتناسب أكثر مع مؤلفه (Memes of translation). و هو بذلك يعيدنا إلى نقطة الصفر التي بدأنا منها، ما جعلنا نؤخر رأيه لنعطي الحجة الدامغة أنّ الوهم كل الوهم في اعتبار أنّه تم ضبط مفهوم استراتيجية الترجمة نهائياً في تعريف جامع و مانع، بل يبقى الباب في ذلك مفتوح على مصرعيه لمن أراد أن يتبوأ فيه مقعداً.

يقول شسترمان أنّ الاستراتيجية "[...] نوع من العمليات و طريقة للقيام بشيء ما"[(2)] (الترجمة لنا). و هو ما يمكننا تصنيفه في خانة العموميات. ثم ينتقل إلى الحديث عن كونها آداة توظف للتلاعب بالنص المصدر بقوله "[...] يتضح أنّ للاستراتيجيات شرعية بديهية في كونها أدوات تصورية ذات فائدة"[(3)]، أو أنّها "[...] تحيل على العمليات التي قد يقوم بها مترجم ما أثناء صياغة النص الهدف [...]"[(4)] (الترجمتين لنا). لينهي تعريفه لاستراتيجية الترجمة عل هذا النحو: "إنّ الاستراتيجيات، بالمعنى الذي ينبغي أن أوظفها به، هي بالتالي أشكال تلاعبات نصية تامة

---

(1) Andrew Chesterman gives us a glance about the confusion which bounds the concept of (translation strategy) when he says that "the term «strategy» has many different senses in psychology, sociology, linguistics and applied linguistcs, and translation theory. Different kinds of distinctions have been made between strategies, tactics, plans, methods, rules, processes, procedures and principles, etc..[…]: the result has been considerable terminological confusion".
(see Andrew Chesterman, op.cit, p87).

(2)"[…] a kind of process, a way of doing something".
(Ibid, p88).

(3)"[…] strategies […] do appear to have the *prima facie* validity of being useful conceptual tools".
(Ibid, p88).

(4)"[…] they refer to operations which a translator may carry out during the formulation of the target text […]".
(Idem, p89).

الوضوح"[1] (الترجمة لنا)، و هو ما يصور حالة من التشوش و الارتباك حين التعامل مع مفهوم استراتيجية الترجمة لم يسلم منها حتى المنظرون ذوي الصيت الذائع.

إنّ الدارس لهذه المفاهيم، و لغيرها من المفاهيم التي أوردناها آنفاً، سيشق عليه ايجاد ضالته و إشباع حاجته من ماهية استراتيجيات الترجمة نظراً لتنوع الطرح العلمي حولها و تفاوته من منظر ترجمي إلى آخر. لكن ذلك لن ينتقص من أهمية هذا المفهوم و دوره الحاسم في سير عملية الترجمة عبر كافة مراحلها، و في تحصيل نتاجها الأخير (النص المترجم) الذي يعتبر المطلب الأساس بالنسبة لكل مترجم وفق الخطط و الأهداف التي يتم تسطيرها سلفاً، و التي تسعى الاستراتيجية إلى العمل بها و لأجلها. ليبقى المترجم وحده العارف بخبايا نصه و مكنوناته اللغوية و الميتالغوية، و بيئته و أفق انتظار قرّائه، و ما هي الاستراتيجيات الجامعة (بمفهومها الشمولي) و الاجراءات الدقيقة (بمفهومها الموضعي) الكفيلة بنقل هذا النص نقلاً يؤدي الأمانة إلى أصحابها، لأنّ المترجم شخص مؤتمن على هذا النص لحين عودة صاحبه و مطالبته بأن يرد الأمانة إليه.

3. أنواع (الاستراتيجيات) (Strategies) في الترجمة

لقد عرف علم الترجمة وضع الكثير من الضوابط الترجمية (الاستراتيجيات، و المنهجيات، و الاجراءات، و التقنيات و ما إلى ذلك) في مؤلفات كثيرة لا تعد و لا تحصى، ثم اتجهت هذه الضوابط نحو التخصص لتعكس عميق التجربة الترجمية للعديد من تلك المؤلفات و في مختلف ميادين العلوم و المعرفة، فمنها ضوابط ترجمة الأدب من شعر و نثر و مسرح، و ضوابط ترجمة النصوص العلمية و التقنوعلمية بشتى الطرائق و الأساليب، بالإضافة إلى المعايير التدريسية الواجب اتباعها في تلقين الترجمة نظرياً و تطبيقياً بدءاً بعملية اختيار النص و انتهاءاً بتحقيق التوازن بين الأمانة العلمية و الغاية التواصلية التي يطرحها كل نص من أبعاد معرفية-إخبارية، و أبعاد عاطفية-جمالية، و أبعاد ثقافية.

و بما أنّ الترجمة لعبت دور المحرّض الحضاري بين مختلف الثقافات البشرية، فإنّ الاستراتيجيات الترجمية قد اختلفت و تنوعت بحسب السياقات الثقافية و نمط الأعمال الموجهة للترجمة. و يمكننا أن نستشهد في هذا الصدد بالترجمات من اليونانية إلى العربية التي اعتمدت على تقنيتين ترجميتين بارزتين على الرغم من أنّ العرب آنذاك سبق و أن ترجموا إلى اللغة العربية كماً هائلاً من المؤلفات، و من لغات و ثقافات العالم المختلفة مثل الفارسية و الهندية، و لمواضيع و مخطوطات متنوعة ذات القيمة العلمية الأكيدة من رياضيات و فلك و طب و كيمياء و فلسفة. و قد أنجزت هذه الترجمات باتباع تقنيتين إثنتين: تكمن التقنية الأولى في الترجمة الحرفية (أو ترجمة كلمة مقابل كلمة) التي نجم عنها إدخال كلمات غريبة إلى رصيد اللغة العربية لعدم وجود ما يقابلها من مكافئات؛ و تكمن التقنية الثانية في الترجمة الدلالية (أو معنى مقابل معنى)

(1)"strategies, in the sense I shall use the term, are thus forms of explicitly *textual* manipulation". (Andrew Chesterman, op.cit, p89).

التي تهدف إلى نقل المعنى الأصلي إلى المتلقي العربي بطريقة تختلف عن الأولى في كونها تبتعد عن الحرفية أو التطابق اللفظي. و ثمة مثال آخر عن عديد الترجمات من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية، تأتي في مقدمتها ترجمة القرآن الكريم الذي نظراً لخصائصه الفريدة في كونه يفوق الكلام العادي للبشر، فإنّه يعتمد إلى حد كبير على أهم ميزاته الرئيسة التي تكمن في طبيعة ارتباطه الوثيق باللغة[1]. و الأصل في ذلك النظرة المتزمتة القائلة بأنّ القرآن الكريم لا يمكن تقليده و بالتالي لا يمكن ترجمته. و ثمة أيضاً ترجمة المعلقات في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، و ترجمة مقدمة ابن خلدون التي وصفت بأنّها سلسة و بلاغية، كما أنّها تمكنت من الحفاظ على مطلبي الأمانة و التطابق مع النص الأصلي[2]. و فيما يتعلق بالأدب العربي الحديث، كانت هناك ترجمات عديدة لمؤلفات طه حسين و لصنوف الأعمال في المسرح و الشعر و الرواية، منها ترجمات لأعمال الروائي نجيب محفوظ التي اختلفت تبعاً لدرجة التغريب و الألفة أكثر مما هي وقف على ايجاد المكافئات[3].

أعطى ألكسندر فرازر تيتلر Alexander Frazer Tytler توصيفاً للترجمة الجيدة (a good translation) بأنّها كل ترجمة تولّد لدى القارئ في اللغة المنقول إليها نفس درجة الفهم و الشعور العالي اللّذان تمتع بهما القارئ في اللغة المنقول منها[4]. و قام بصياغة القوانين الترجمية الثلاثة الآتية التي تعتبر حجر الزاوية لمبادئ الترجمة، و التي طرحها المنظرون لاحقاً:

- في أن تقدم الترجمة نسخة عن أفكار العمل الأصلي.
- في أن تكون أساليب و طرائق الكتابة بنفس وتيرة العمل الأصلي.
- في أن تتمتع الترجمة بجميع خصائص الإنشاء في اللغة الأصلية.

و تتصف هذه الضوابط الترجمية –على الرغم من أنّها نواة الترجمة الأولى– بالعمومية و اللاتخصصية، و هو ما حرّك الباحثين لسبر أغوار مختلف فروع العلم و المعرفة، و من ثم استخلاص طرائق الترجمة الخاصة بكل واحد منها. و قد أدى ذلك إلى وضع القواعد الناظمة لترجمة الشعر كتلك التي جاء بها أندري لوفيفير André Lefevere، و التي تمثلت في سبعة تلخّص طرائق ترجمة الشعر نظماً كان أو نثراً أو شعراً ايضاحياً ينقل المعنى الأصلي. و قام هيلير بيلوك Hilaire Belloc بوضع الطرائق الخاصة لترجمة النثر التي قيّدها في ستة بدءاً من الانتباه إلى عدم توظيف الترجمة

(1)see Peter France, The Oxford Guide to Literature in English Translation, Oxford: Oxford University Press, 2000, p145.
(2) Ibid, p149.
(3) Ibid, p158.
(4)see Alexander Frazer Tytler, Essay on the Principles of Translation, In Amsterdam Studies in Theory and History of Linguistic Science, Series I – Amsterdam Classics in Linguistics, 1800-1925, New edition with an introductory article by Jeffery Huntsman, Edited by E. F. K. Koerner, Vol.13, Amsterdam: John Benjamin B.V, 1978, p15-16.

الحرفية، و التشديد على الترجمة المعنوية كأفكار بالدرجة الأولى، مروراً بالترجمة البلاغية و انتهاءاً بالتركيز على عدم التكلّف باصطناع المحسنات البديعية اصطناعاً مبتذلاً يؤدي إلى الخروج عن الهدف المنشود. و ثمة أيضاً طرائق ترجمة النصوص المسرحية عند أمبروز فيليب Ambroise Philipp التي لخصها في ثلاثة تتدرج من مدى قابلية النص المسرحي للترجمة، إلى العلاقة الكامنة بينه و بين أعراف المسرح الدارج و وضوح العلاقة بين الممثلين. و إذا كان تيتلر Tytler قد حصر مبادئ الترجمة في ثلاثة، فإنّ من خلفه من المنظرين قد انتهجوا نهجاً خاصاً آخر جعل البعض يدرجها في خانة الإملاءات و التزكيات مثل ما قام به دولي Dolet الذي أعاد صياغة بعض مبادئ تيتلر و كرّرها و أضاف إليها ما يمكن أن نعتبره شرح للخطوات الأساسية مثل فهم اللغتين المنقول منها و المنقول إليها و الابتعاد عن الترجمة الحرفية. و قد عمد سافوري Savory إلى قولبتها في ثنائيات بحيث أعدها في ستة فجاءت آراؤه لتناقش عمليات الترجمة و حيثياتها من تبني للترجمة الحرة التي يطلق فيها المترجم العنان لوجهة نظره و لكل ما من شأنه أن يسير به نحو قبوله من لدن المتلقي إلى مراعاة الحقبة الزمنية التي كتب فيها النص في اللغة المنقول منها، و ضرورة أن تواكب الترجمة الزمن الذي نترجم فيه (تهجير الترجمة أو عصرنتها/Archaiser-Moderniser). و ظهرت ضوابط معالجة أنواع النصوص الأخرى و إعادة تقييم ما جيء به من آراء، و منه اعتماد المبدأ الأنسب الذي يجمع بين الحس القديم و النبض الجديد الذي يراعي متطلبات الترجمة في هذا العصر.

تعد استراتيجيات الترجمة إحدى أهم الدعائم الرئيسة لعلم الترجمة، ذلك لأنّها تذلل الصعاب و مختلف أشكال المعوقات التي قد تنغص على المترجم عمله. و ثمة الكثير من اسهامات المنظرين في هذا الجانب دفعت بالترجمة –في شقها الإجرائي– إلى الإرتقاء بمستوى الطرح العلمي و إشكالياته، و تقنين الحلول و سبل البرهنة عليها. و من بين الأمثلة على ذلك ما ذهب إليه غواداك Gouadec في أنّ أنواع الترجمة سبعة، و هي الترجمة المطلقة (أو الترجمة الحرفية) (absolute translation) التي تنقل النص من اللغة المنقول منها بحرفية كاملة؛ و الترجمة الملخصة (abstract translation) التي تلخّص النص و تقدمه كجملة من الأفكار الرئيسة؛ و الترجمة البيانية (diagramatic translation) التي تنقل النص موضوع الترجمة على أساس أنّه مخطط بياني و تفصيلي لأفكاره الهامة؛ و الترجمة بالكلمات المفتاحية (keyword translation) التي تنقل الكلمات المحورية في النص لكونها الجوهر فيه مع إعادة هيكلة مكوناته التراكيبية و بناه اللغوية؛ و الترجمة الانتقائية (selective translation) التي تشبه إلى حد كبير الترجمة بالكلمات المفتاحية مع فارق بسيط في أنّها تركز على الأفكار الرئيسة للنص في اللغة المنقول منها و ما يتصل بكل فكرة على حدى، و هو ما يجعل من النص المترجم جملة من الأفكار تتوزع عناصرها بشكل مترابط و منسجم من خلال بنى النص و فقراته؛ و الترجمة المنظورة (sight translation) التي تعتبر تلخيصاً شفوياً للنص في

اللغة المنقول منها، و الذي قد يوظف في مجالات خاصة لا نحتاج فيها إلى التفاصيل كلها بل نكتفي باعطاء المطلوب مشافهة[1].

و يطرح بيتر نيومارك Peter Newmark من جهته مسألة التوظيفات المختلفة لتحليل المكونات (componential analysis) من إبدال و قلب و حذف و غيرها، علاوة على ظاهرة الإطناب الترجمي (أو الإستطالة أو تطويل الترجمات)، أو التقليل من المفردات اللغوية، أو إعادة الصياغة أو تغيير مواقع نظم الكلام. و ثمة حالتين لتوظيف مجمل هذه التقنيات[2]: أن يكون المترجم مضّطراً لتبني هذه التقنية أو تلك، فهو بالتالي مجبر على اتباعها لقلة البدائل المتاحة لديه؛ أو أن يكون مخيّراً ما يجعله ينتقي الأنسب منها و الأكثر ملائمة.

و تفرد مونا بيكر Mona Baker فصلاً خاصاً لأهم المشاكل المتصلة بمسألة عدم التكافؤ (non-equivalence) على مستوى الكلمة و الاستراتيجيات الكفيلة بتجاوزها. و يقصد بعدم التكافؤ انعدام المكافئ المباشر للكلمة المراد ترجمتها في اللغة المنقول إليها. و من بين الأمثلة على ذلك، المفاهيم المرتبطة بالثقافة المجردة منها و الملموسة (الاعتقادات الدينية، العادات الاجتماعية، أسماء الأطعمة...)؛ أو عدم وجود الكلمة في قاموس اللغة المنقول إليها على الرغم من أنّها معروفة لدى ثقافتها؛ أو أنّ الكلمات المراد ترجمتها تختلف في الطرق التي نحتت و ركّبت بها. و من أجل أن يتجاوز المترجم عقبة ذلك، تقترح بيكر Baker مجموعة من الاستراتيجيات مثل توظيف كلمة أكثر حياداً/أقل تعبيراً من نظيرتها في اللغة المنقول منها؛ أو الترجمة بتوظيف البدائل الثقافية كمفاهيم موجودة في ثقافة اللغة المنقول منها و منعدمة في ثقافة اللغة المنقول إليها و العكس؛ أو الترجمة بالحذف؛ أو الترجمة بالرسوم الإيضاحية؛ أو الترجمة بتبني كلمات دخيلة مع شرح إضافي أو بدونه[3].

لقد تمكن المنظرون –عبر مختلف هذه الطرائق الترجمية و غيرها– من تحقيق مكتسبات عدة أثروا بها المشهد الترجمي نظرياً و تطبيقياً. مكتسبات تصب كلها في خانة تذليل صعاب الترجمة و فك طلاسم الفعل الترجمي، و هو ما نصّب المترجم في موقع قوة لامتلاكه من الموارد ما لا ينضب أبداً، و الذي إن توفر على الملكات و الكفاءات الضرورية –زيادة على الاستعانة بهذه الطرائق من استراتيجيات و اجراءات– تمكن من انجاز المهام الموكلة إليه على أكمل الأوجه و بأيسر السبل. ثم إنّ بين يدي المترجم العديد من التصنيفات العلمية–العملية التي تتصل باستراتيجيات الترجمة و اجراءاتها، بحيث عكف الباحثون –و لا يزالون كذلك– على تقديم البديل الاجرائي (بمفهومه الواسع) تلو الآخر، أو طرح مجموعة

(1)see Mark Shuttleworth & Moira Cowie, op.cit, p29.
(2)see Peter Newmark, Approaches to Translation, Cambridge: Prentice Hall International (UK) Ltd, Great Britain, 1988, p30-34.
(3)see Mona Baker, In Other Words A Coursebook on Translation, Routledge, London and New York, 1992-2001, p20-42.

البدائل و المتغيرات التي تتمايز فيما بينها بحسب كل اتجاه ترجمي معين مع البرهنة على صحتها و مدى ملائمتها للتوجه النظري المطروح، و ما على المترجم، في ذلك كله، سوى أن يختار من بينها الأكثر تماشياً مع ميوله و رغباته ثم مع توجهات ترجمته و أهدافها. و قد تمكنت أيضاً مختلف هذه التصنيفات الاستراتيجية و الاجرائية من إماطة اللثام عن أوجه أخرى عديدة، و دفعت بنا إلى الخوض في مسائل شتى مثل العناية بأنواع النصوص و أنماطها بتخصيصها لاستراتيجيات تعنى بترجمة كل نمط على حدى (استراتيجيات ترجمة النصوص الأدبية و المسرحية و السياسية و الدعائية و غيرها)، و العناية بالمسائل اللغوية و الخطابية (التدرج في المستويات اللغوية المختلفة أثناء الترجمة من لهجات فردية و لهجات اجتماعية و عاميات، و تداخل الخطاب الذاتي للمترجم مع خطاب المؤلف، و طرق التأويل و أشكاله)، و كذا المسائل المتصلة بكيفيات القراءة (القراءة الانتاجية و القراءة الناقدة و غيرها)، و شرح آليات التلقي و أنماطه و الوسائل الفاعلة فيه. كما أنّ هذه الصنوف الاستراتيجية المتنوعة (الشمولية منها و الموضعية) أولت عناية فائقة بمسائل ترجمية أخرى مثل الاهتمام بالبيئة و الثقافة اللّتان أنتجتا النص الأصلي، و البيئة و الثقافة اللّتان تلقتاه و احتضنتاه، ناهيك عن المسائل المرتبطة بالإنسان و أثنوغرافيته و بكل ما يؤطر حياته على وجه هذه البسيطة من سياسة و عقيدة و أيديولوجيا... و بهذا كان لعلم الترجمة مصداقية أكبر في كونه علم يلاقي بين مختلف صنوف المعارف و العلوم و لا يهمل أي منها.

و قد خلصنا إلى أنّ مختلف التعريفات التي أعطيت لمفهوم الاستراتيجية في الترجمة اتخذت شكلين اثنين: الأول (اجرائي) (procedural) و الثاني (نصي) (textual). كما اتفق جل الباحثين على أنّه ثمة نوعين بارزين من استراتيجيات الترجمة: (الاستراتيجيات الشمولية) (global strategies) التي توجّه صوب النص برمته؛ و (الاستراتيجيات الموضعية) (local strategies) التي تتعامل مع مقاطع منه، و كيف أننا ميّزنا في الأخير –انطلاقاً من هذا التصنيف– بين (الاستراتيجيات) (strategies) و (الاجراءات) (procedures) في كون الأولى أشمل من الثانية من حيث الماهية و التوظيف، إذ ينبغي أن يسمى أي توظيف اجرائي (بالمعنى التطبيقي) على أي مقطع نصي باجراء ترجمي لا باستراتيجية ترجمة، بخلاف التوظيف الاجرائي الشمولي الذي ينبغي أن يسمى باستراتيجية ترجمة لا باجراء ترجمي لاتساع الهوة التي تفصل بين المفهومين من حيث ماهيتهما و كيفية تجسيدهما.

و سنسعى في الأخير إلى البرهنة على حقيقة أنّ كل الاستراتيجيات الترجمية إنما الأصل فيها واحد بسبب أنّها تنبع من رؤية استراتيجية واحدة ذات الجذور الضاربة في تاريخ الترجمة، و أنّ ما جاء بعدها من استراتيجيات ليس إلاّ تطوراً للدرس الترجمي النظري الحديث و طرق تطبيقاته باختلاف المسميات فقط. و لكن دعونا قبل هذا و ذاك نفصّل في أنواع استراتيجيات الترجمة و لنبدأ بأندرو شسترمان Andrew Chesterman المنظر الفلندي البارز.

يبدأ شسترمان حديثه عن أنواع استراتيجيات الترجمة –بعد أن يعاود الاشارة إلى اللبس المصطلحي الذي يحيط بمفهوم هذه الأخيرة، و الذي يصوّره على أنّه غابة من الاختلافات المصطلحية– بقوله أنّها ذات أنماط متنوعة و أنّه بإمكاننا أن نصنّفها بطرق شتى. و مما لا يدع مجالاً للشك أنّ ذكر هاتين الملاحظتين –صعوبة الاحاطة بمفهوم الاستراتيجية في الترجمة و كثرة التصنيفات فيها و تنوعها– يأتي لإبراز المشكلات المحيطة باستراتيجيات الترجمة عموماً، و تبيان مدى صعوبة الوصول إلى آراء توافقية حولها على المستويات كافة (التوصيف و التصنيف و التوظيف). و هو ما يجعل من مسألة إعادة تمحيص ما قدم حتى الآن من دراسات حولها و تقريض الآراء و تصويبها مطلباً ملحاً خاصة لدى الدارسين العرب الذين تفتقد رفوف مكتباتهم لمثل هذه الأبحاث، بل تنعدم كلياً. ليصدق بحق الرأي القائل بأنّ الدرس الترجمي العربي ليس إلا نموذجاً منقولاً عن الدرس الترجمي الغربي في الكثير من جوانبه، إن لم نقل في الجوانب كلها ما نجم عنه معاناة طلابنا الأمرّين في محاولتهم فهم مختلف الظواهر الترجمية و السبب هو أنّ الأمثلة التي تحاكي هذه الظواهر تخص اللغات الأوروبية وحدها، لتبقى الحاجة كل الحاجة في ربط كل ذلك باللغة العربية منها و إليها.

يمكننا أن نستهل أي حديث عن التصنيفات التي أعطيت لاستراتيجيات الترجمة بأن نميّز بين أنواع ثلاثة منها: (استراتيجيات البحث) (Search strategies)، و (استراتيجيات الإبداع) (Creativity strategies)، و (الاستراتيجيات النصية) (Textual strategies)[1]. توظف (استراتيجيات البحث) (search strategies) لايجاد الحلول لمشكلات تخص مسائل تتصل بـ (الانتاج) (production) أو (الفهم) (comprehension) التي تكون في الغالب ذات طابع مصطلحي (terminological) مثل أن نلجأ إلى الشبكة العنكبوتية، أو أن نسأل زميلاً لنا طلباً للأفكار النيّرة، أو أن نجري اتصالاً هاتفياً مع صديق لنا للغرض نفسه، أو أن نتحرى عن المشكل في النصوص الشبيهة و ما إلى ذلك. و تشتمل (استراتيجيات الابداع) (creativity strategies) على أخذ استراحة لاحتساء فنجان قهوة، أو الذهاب في نزهة على الأقدام، أو تمكين العقل اللاواعي من أخذ زمام المبادرة، أو تأجيل النظر في هذا المشكل لوقت لاحق، أو محاولة التعبير عنه بالكلام، أو إعطاء تعريف آخر له، أو الخلود إلى النوم أو أي شيء من شأنه تشجيع و اطلاق العنان للجانب الخلاّق فينا عندما يصاب الدفق الترجمي و الالهام فيه بعجز و ركوض. أما (الاستراتيجيات النصية) (textual strategies) فيعني بها شسترمان Chesterman التلاعبات النصية الجلية الوضوح بوحدات الترجمة (units of translation)، و هي الأنواع التي يشير إليها بعض المؤلفين بالتبديلات (shifts) أو الاجراءات (procedures)، و التي تتوافر كذلك التصنيفات المختلفة حولها و بكثرة.

(1)see Andrew Chesterman, Teaching Strategies for Emancipatory Translation, In Developing Translation Competence, Edited by Christina Schaffner & Beverly Adab, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, vol 38, 2000, p82.

يستخدم شسترمان مجموعة استراتيجيات تشكل البنية القاعدية لتصنيفه، و التي تتكون من ثلاثين استراتيجية نصية ممتشقة من تشكيلة متنوعة لأعمال منظرين آخرين نذكر من بينهم ج.س كاتفورد J.C Catford و فيني و داربلنيه Vinay et Darbelnet و فان لوفن-زوارت Van Leuven-Zwart. و جاءت عشرة من هذه الاستراتيجيات النصية ذات نوع تركيبي (syntactic) (التلاعب بالبنية التركيبية مثل تغيير صنف الكلمة)، و عشرة منها دلالية (semantic) (التلاعب بالمعنى مثل الانتقال من الملموس إلى المجرد)، و عشرة أخرى تداولية (pragmatic) (التلاعب بالمرسلة نفسها مثل إضافة أو حذف معلومات). و قد نكون ملزمين بتوظيف بعض هذه الاستراتيجيات أثناء الترجمة من و إلى لغات معلومة في حين أنّ السواد الأعظم منها يأتي توظيفها اختيارياً.

ما يثير انتباهنا هنا هو أنّ شسترمان قام بتعداد بعض الخطوات التي يقوم بها المترجم و تصنيفها في خانة الاستراتيجيات بكل ما للكلمة من معاني و دلالات، في الوقت الذي يعتبر الكثير منا أنّ هذه الخطوات لا تعدو أن تكون أفعالاً روتينية و سلوكات مبتذلة تحمل من الرتابة ما تحمل و أنّها لا تستحق كل هذا الاهتمام. بيدأنّه ما من مترجم إلا و لجأ إليها مستعيناً بها مرة بل مرات، طوعاً أو كراهية و نخص بالذكر هنا (استراتيجيات الإبداع) (creativity strategies) و المشكلات الوثيقة الصلة بها. و على الرغم من أننا لا نعيرها عناية كبيرة في أن نخصص لها على سبيل المثال جانباً من دروس الترجمة و تطبيقاتها، أو أن نحدّث طلابنا بشأنها إلاّ أننا معاشر المترجمين نهمس بها لبعضنا البعض خاصة ضمن الدوائر الترجمية غير الرسمية التي نقصد بها بالتحديد اللقاءات التي تجمع بين المترجمين الذين تربطهم علاقة زمالة أو صداقة. ثم إنّ طبيعتنا البشرية تملي علينا قوانيناً معينة -جسدية كانت أم ذهنية- و حالات وجب فيها مسايرة قدراتنا العقلية و البدنية منها الركون إلى الراحة عندما نحس بالتعب. و تأخذ هذه الراحة أشكالاً متنوعة منها ما ذكرها شسترمان و منها ما لم يذكر. هذا و من الأكيد أنّ الذاكرة ستنشط و تعيد الإبداع إن هي حصلت على الراحة اللازمة لذلك. و عليه، فإنّ الطرح الشسترماني هنا يعتبر ذو أهمية قصوى كما أنّه يسلط الضوء على بعض السلوكيات التي ينبغي أن ننظر إليها على أنّها استراتيجية في المقام الأول، و التي تعتبر كذلك بامتياز. و لهذا وجب علينا العناية بمثل هذه المسائل و استغلالها في تعليمية الترجمة، و أن نترفع عن تلك التي يعاد اجترارها عند كل حديث عن استراتيجيات الترجمة و تصنيفاتها المختلفة.

و يعرض شسترمان التصنيف نفسه لكن بمقاربة مختلفة في مؤلف آخر[1]، بحيث يكون المنطلق فيه أنواع المشكلات الترجمية التي تصادفنا. فعلى سبيل المثال، إن نحن واجهتنا مشكلات بحثية صرفة (Search problems) فسنستعين

(1) Andrew Chesterman & Emma Wagner, Can Theory Help Translators? A dialogue between the ivory tower and the wordface, St. Jerome Publishing, Manchester, Uk & Northampton, MA, 2002, p57-58.

عندها بـ (استراتيجيات البحث) (search strategies). و يدخل في عموم ذلك المشكلات المتعلقة بالبحث عن كيفية ايجاد كلمة أو مصطلح ما، أو أين سيتم البحث عنهما على الشبكة العنكبوتية، أو بأي الأشخاص سنتصل طلباً للمساعدة و غيرها. و بغية أن نحل جميع تلك المشكلات سنحتاج إلى استراتيجيات البحث و هي الاستراتيجيات نفسها التي تلقن للمترجمين المحترفين مثل طرق استخدام القواميس، و كيفية ايجاد و توظيف النصوص الشبيهة التي تكون في الغالب نصوص غير مترجمة و نصوص كتبت باللغة الأصلية من النمط النصي نفسه الذي نحن بصدد الاشتغال عليه في ترجمتنا، و كيفية ايجاد البنوك المصطلحية و استغلالها أحسن استغلال. و إن نحن صادفتنا مشكلات انسدادية (Blockage problems) فسنستعين حينها بـ (استراتيجيات الإبداع) (creativity strategies). و يقصد بالمشكلات الانسدادية عدم معرفة ما الواجب القيام به عندما نصبح مشوشي الذهن، و التي نحس عندها بحالة من الانسداد تجعلنا غير قادرين على الإنتاج المبدع. و تتضمن استراتيجيات الإبداع حلولاً كثيرة مثل الذهاب في نزهة على الأقدام، أو احتساء فنجان قهوة، أو سؤال أحد معارفنا، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو الخلود إلى النوم، أو التفكير في شيء آخر لبعض الوقت، أو أن يكون لنا أحلام يقظة، أو الانتقال إلى مقطع نصي آخر.

أما إن قدّت مضاجعنا مشكلات نصية (Textual problems) فلا خيار أمامنا سوى (الاستراتيجيات النصية) (textual strategies) الكفيلة بحلها. و تكمن المشكلات النصية بالأساس في عدم معرفة الطريقة المثلى للتعامل مع مقطع نصي معيّن في اللغة المنقول منها، أو كيف لنا أن نأتي بترجمات بديلة يمكننا أن نختار من بينها، أو كيف بامكاننا ترجمة الاستعارات و اللهجات المحلية و التلميحات و البنى المقلوبة (المعكوسة) و الاستفهامات البلاغية، أو معرفة متى بمقدورنا توظيف الكلمات الدخيلة و الهوامش و الألفاظ و التعابير الجديدة. و بخلاف النمطين الاستراتيجيين الأولين ((استراتيجيات البحث) (search strategies) و (استراتيجيات الإبداع) (creativity strategies))، حازت الاستراتيجيات النصية (textual strategies) على نصيب وافر من الدراسة و التحليل من لدن المنظرين على اختلاف مشاربهم النظرية و خلفياتهم الترجمية.

و بما أنّ الاستراتيجيات على هذا القدر من الأهمية في كونها تلعب دوراً حاسماً في انجاز الترجمة عبر كافة مراحلها، وجب أن نقنن طرق التعامل معها ضمن أطر دقيقة و مضبوطة سعياً لاكتسابها على أحسن الأوجه و أكملها و بأقصر السبل و أنجعها. و هو ما يذهب إليه شسترمان من خلال مسألة تدريس الترجمة عبر الاستراتيجيات الترجمية، أي كيف يمكن لهذه الأخيرة أن تكون أدوات تعليمية ذات الأثر البالغ مثلها في ذلك مثل باقي الأدوات التعليمية الأخرى. و قد عدّد منها شسترمان إثني عشر استراتيجية توظف بحسب الخطوة الترجمية التي يكون الأستاذ بصدد التطرق إليها مع طلابه، و بحسب التمرين الترجمي الذي أعطي لهم و حتى بحسب مستواهم التأهيلي في الترجمة، أي في كونهم مبتدئين أو مبتدئين

ذوي المستوى المتقدم أو أكفاء أو محترفين[1].

و ينتقل شسترمان بعد ذلك إلى الحديث عن تصنيف استراتيجي آخر، بحيث يميّز بين (الاستراتيجيات الشمولية) (global strategies) و (الاستراتيجيات الموضعية) (local strategies) التي يعتبرها نصية بالمحظ. كما أنّه لا يختلف معنا حول أنّ الغاية من الاستراتيجيات الترجمية الشمولية تكمن في النص برمته، و أنّها في الغالب قرارات يتخذها المترجم قبل شروعه في الترجمة. و يعطي شسترمان مثالين عن الاستراتيجيات الشمولية تلك: (التكييف) (adaptation) و (التغريب) (foreignazation). و هو يرى في الأقلمة حاجة النص بأكمله أن يكيّف مع الثقافة المستقبلة، و بالتالي لا يجب أن نبقي على أي شيء من شأنه ربطنا بخصوصية ثقافته الأصلية بما في ذلك حتى أسماء العلم (proper names) كما هو معمول به في ترجمة أدب الأطفال و ترجمة النصوص الدعائية. أما في حالة التغريب فسيحتاج النص إلى الاحتفاظ بأجنبيته لدوافع جمالية أو ثقافية، و بهذا لن تكون سلاسة اللغة المنقول إليها أولوية في حد ذاتها و هو حال ترجمة الأدب عموماً. و على الرغم من أنّ هاذين المثالين جد بسيطين إلا أنهما لا يحاكيان حالة التعقيد التي تعتري عملية الترجمة في توظيف العديد من الاستراتيجيات الشمولية الأخرى[*]، و التي ينبغي فيها للمترجم أن يأخذ بعين الحكمة غرض النص و جمهور القرّاء المستقبل للترجمة. ذلكم ما دفع بالكثيرين إلى الجزم بأن هذه التصنيفات الاستراتيجية المتنوعة ما هي في الحقيقة إلا تمييزات وضعها أكاديميون مهلوسون بابتكار تصنيفات جديدة لأشياء متماثلة إلى حد بعيد، و هو الأمر الذي لم يستثني حتى الترجمة.

أما فيما يخص الاستراتيجيات الترجمية الموضعية (local strategies) فيكون تطبيقها على مقاطع معيّنة من النص. و قد تسمى لدى البعض بـ (التكتيكات) (tactics) كما قد تسمى بـ (الاجراءات) (procedures) أو (المنهجيات) (methods) أو (التبديلات) (shifts) أو (التغييرات) (changes). إنّ (التبديلات) (shifts) و (التغييرات)

---

(1) These strategies are:
Strategy exemplification, Strategy recognition, Strategy analysis, Strategy practice, Strategy contextualisation, Strategy-prompted translation, Strategy alternatives, Strategy flexibility, Strategy justification, Strategy comparison, Strategy preparation, Strategy evaluation.
(see Andrew Chesterman, Teaching Strategies for Emancipatory Translation, op.cit, pp83-85).

(*)We may add the following:
* s*implifying*= translating technical or specialized terms using everyday language (e.g. an EU text for the man in the street, farmer in the field, etc.);
* e*xplaining*= expanding acronyms and explaining unfamiliar concepts, maybe with footnotes or translators' notes (e.g. translating a degree certificate);
* *condensing*= summarizing the main message (for readers in a hurry);
* *straight translation*= translating in order to show what the original text says, without concessions (e.g. translating exam answers or research proposals – texts that will be used to assess the authors).
(Andrew Chesterman & Emma Wagner, Can Theory Help Translators? A dialogue between the ivory tower and the wordface, op.cit, p59).

(changes) تلقي الضوء على حقيقة أنّ الاستراتيجيات النصية التي نحن بصدد مقاربتها تعتبر طرائقاً لتبديل أوجه لسانية عديدة من النص في اللغة المنقول منها أثناء نقله. و أول من اهتم بهذا النوع من المسائل هم في الحقيقة علماء اللغة ذوي الاختصاصات اللسانية النظرية و التطبيقية الذين اعتبروا أنّ الترجمة نوع من أنواع إعادة الترميز. و قاموا بالمقارنة بين النصوص في اللغات المنقول منها و اللغات المنقول إليها من خلال تحليل تقابلي انتهى بوضع تصنيف للتغيرات اللسانية المختلفة. و ثمة نتائج كثيرة لذلك كله من بينها الاختلافات الجوهرية بين اللغات من حيث طرق النظم و التعبير، إذ بينما يوظف الفرنسيون على سبيل المثال الكلمات المجردة بكثرة يوظف الانجليز الكلمات أو الأفعال الملموسة، كما يوظف الفرنسيون البنى اللغوية بصيغة النفي أكثر مما يفعل الانجليز و غير ذلك من الأمثلة. و بهذا تتوفر لدينا قواعد عامة يمكننا أن نستغلها كاستراتيجيات نصية التي تمثل بالنسبة للمترجم خيارات يتم اللجوء إليها بحسب اللغات التي نشتغل عليها و السياقات المتنوعة.

يقسّم شسترمان الاستراتيجيات النصية إلى فئات ثلاثة هي: (الاستراتيجيات التركيبية) (syntactic strategies) التي تهدف في المقام الأول إلى التلاعب بالشكل (form)، و تقتضي على نحو محض إجراء تغييرات تركيبية على هذا النوع اللغوي أو ذاك. و من البديهي أنّ التغييرات التركيبية التي تمس وحدات لغوية كبرى ستشمل أيضاً الوحدات اللغوية الصغرى[1]؛ ثم (الاستراتيجيات الدلالية) (semantic strategies) التي يجمع فيها شسترمان أنواع التغييرات التي تعنى بشكل أساس بانحراف المعنى على المستويات المعجمية و المجازية و الموضوعاتية[2]. و إن كانت (الاستراتيجيات التركيبية) (syntactic strategies) هدفها الشكل (form) فإنّ (الاستراتيجيات الدلالية) (semantic strategies) هدفها المعنى (meaning). و استمدت العديد من هذه الاستراتيجيات من مفهوم (التطويع) (modulation) الذي جاء به كل من فيني و داربلنيه Vinay et Darbelnet؛ ثم (الاستراتيجيات التداولية) (pragmatic strategies) التي تعنى بانتقاء المعلومات في النص الهدف (التحكم في البعد الإخباري للنصوص و تمظهراته المختلفة كماً و نوعاً)، و هو انتقاء توجهه معرفة المترجم بجمهور القرّاء المحتملين للترجمة[3]. و يمكننا القول إنّ (الاستراتيجيات التداولية)

---

(1) The (syntactic strategies) are: literal translation, loan/calque, transposition, unit shift, phrase structure change, clause structure change, sentence structure change, cohesion change, level shift and scheme change.
(see Andrew Chesterman & Emma Wagner, Can Theory Help Translators? A dialogue between the ivory tower and the wordface, op.cit, p60-61).

(2) The (semantic strategies) are: synonymy, antonymy, hyponymy, converses, abstraction change, distribution change, emphasis change, paraphrase, trope change and other semantic changes.
(Ibid, p61-62).

(3) The (pragmatic strategies) are: cultural filtering, explicitness change, information change, interpersonal change, illocutionary change, coherence change, partial translation, visibility change, transedditing and other pragmatic changes.
(Ibid, p62-63).

(pragmatic strategies) تقتضي إحداث تغييرات كبيرة على النص في اللغة المنقول منها، و أنّها استطاعت أن تجمع على نحو مثالي بين التغييرات التركيبية و التغييرات الدلالية، أي بين الاستراتيجيات التركيبية و الاستراتيجيات الدلالية. و إن كانت كل من الاستراتيجيات التركيبية و الاستراتيجيات الدلالية تعنى على التوالي بالشكل و بالمعنى، فإنّ الاستراتيجيات التداولية تتلاعب بالمرسلة نفسها، و هي غالباً ما تنجم عن قرارت المترجم الشاملة حول الطريقة المناسبة لترجمة النص عامة.

يدفعنا البحث و التحري عن هذه الاستراتيجيات إلى التساؤل عن ماهيتها بشكل عام، و عن الشروط و القيود التي تملي علينا توظيف كل واحدة منها. و لقد تمكنّا حتى الآن من الإجابة –و لو بالنذر القليل– عن السؤال الأول، و الفضل في ذلك يرجع للصورة الشاملة و المعقولة التي تكوّنت لدينا عن الخيارات المتعددة التي يمتلكها المترجم في تعامله مع النصوص و مقاربتها ترجمياً على الرغم من التضارب المصطلحي الكبير. و بذلك صرنا نعرف تمام المعرفة ما هي الأدوات المفهوماتية المتاحة لنا و كيف بامكاننا التمييز بينها. لكن الصعوبة في محاولتنا الإجابة عن السؤال الثاني نظراً لاعتياص ضبط جميع الشروط و القيود التي تصاحب توظيف استراتيجية معينة، أو بالأحرى توظيفها بقدر كبير من التوفيق. و قد تكون مختلف تلك الشروط و القيود في غاية التعقيد لشمولها على الكثير من المتغيّرات. بامكاننا دائماً القيام ببعض التخمينات على أساس الحدس أو الخبرة، أو على أساس دراسة حال عرضية لكننا سنحتاج إلى المزيد من البراهين التجريبية قبل أن تصدق تنبؤاتنا بشكل لا غبار عليه.

نحن نعرف مثلاً أنّه يتكرر توظيف (استراتيجيات الترجمة الحرفية) (literal translation strategies) مراراً في بعض أنواع الترجمة (الترجمة القانونية على سبيل المثال)، و أنّه يتكرر أيضاً توظيف (استراتيجيات التكييف) (adaptation strategies) في أنواع ترجمية أخرى (كما في ترجمة أدب الأطفال). أضف إلى أننا نعرف تماماً أي الاستراتيجيات يكون توظيفها إلزامياً (عند الترجمة بين ثنائيات لغوية معيّنة) من تلك التي يجيء توظيفها اختيارياً (مسألة ترتبط بخيارات المترجم و قراراته). تتم دراسة الاستراتيجيات الإلزامية ضمن اختصاص اللسانيات التقابلية التي تهتم بالطرق القياسية التي تختلف فيها اللغات في التعبير عن المعنى نفسه بطريقة قد تقل أو تعظم بينها، و التي تعود إلى طريقة نظم اللغة، و الأبعاد الأسلوبية و البلاغية المائزة لها، و خلفية المتكلمين بها الثقافية و ما إلى ذلك. بامكاننا أن نعطي مثالاً عن ذلك: قد يحصل، في الكثير من الأحيان، أن تترجم البنية (س) في اللغة (أ) بالبنية (ع) في اللغة (ب)، غير أنّ ذلك لا يعني البتة أن ينقلها جميع المترجمين على هذا النحو في الحالات كلها. و عليه، إن نحن تمكنّا من التنبوء على نحو دقيق بشأن توظيف الاستراتيجيات المناسبة لترجمة هذا المقطع النصي أو ذاك كان بمقدورنا برمجة الحواسيب لتحل محلنا و كفى. لكن ذلك للأسف سراب يحسبه العطشان ماءا! و منه الصعوبة الجمة في انجاز أي دليل موجز حول الترجمة،

و الذي ينبني في الأساس على طرائق الترجمة و كيفياتها، ليتقلص بذلك هامش الحرية التعليمي الممنوح لنا أثناء تدريس استراتيجيات الترجمة بأن يقتصر على توصيات عامة كأن يطلب الأستاذ من طلابه الانتباه لغرض النص، و ضرورة أن تكون خياراتهم الاستراتيجية وثيقة الصلة بنوع المشكلات الترجمية التي يصادفونها و غيرها من المسائل، و هو ما من شأنه إبراز كفاءاتهم اللغوية و قدراتهم الترجمية، و دفعهم لأن يصبحوا هم أنفسهم مؤلفين مشاركين في انتاج النص. تلكم هي النظرة الحداثية لعلم الترجمة التي تهدف إلى جعل المترجم مؤلفاً مشاركاً (a co-author) في كتابة نص الترجمة و تخريجه شأنه في ذلك شأن مؤلف النص الأول.

يقول شسترمان Chesterman أننا بحاجة إلى التمييز أولاً بين (استراتيجيات الفهم) (Comprehension strategies) و (استراتيجيات الانتاج) (Production strategies) في مؤلفه (Memes of translation)، و هو ما يمكن أن نعتبره تصنيف ترجمي من نوع آخر. تعتبر (استراتيجيات الفهم) (comprehension strategies) استراتيجيات استنتاجية (inferencing strategies) يستدل بها المترجم، و هي تأتي بصفة مؤقتة كأول مرحلة في سير عملية الترجمة. أضف إلى أنّها تعنى بتحليل النص في اللغة المنقول منها و تأويل معانيه و استنباط أفكاره، و من ثم تحديد الطبيعة العامة للمهمة التي أريد بها للترجمة. أما (استراتيجيات الانتاج) (production strategies) فهي في الحقيقة ثمرة استراتيجيات الفهم المختلفة التي تعنى بالكيفيات التي يتلاعب بها المترجم بالمكنون اللغوي بغية أن ينتج نصاً يتلاءم و اللغة المنقول إليها[1].

و وفقاً لطبيعة الاستراتيجيات من المنظور العملياتي الذي تطرقنا إليه عند حديثنا عن مفهومها، ينبغي أن يكون نوع التصنيف الذي سنقرّه بالنسبة لاستراتيجيات الانتاج تصنيفاً مستنبطاً من اللسانيات (linguistics) أو اللسانيات النصية (text linguistics) بدلاً من أن يكون تصنيف مستمد من العلوم العرفانية (cognitivism) الذي سيتناسب أكثر و استراتيجيات الفهم. و سيشتمل هكذا تصنيف في شكله المبسّط على استراتيجية عامة واحدة فقط: (أن نغيّر شيئاً ما) (to change something)[2]. ذلك ما يصوّر بامتياز المجال الذي تتدخل فيه الاستراتيجيات، و الذي يكمن في المساحة التي تفصل بين النصين في اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها. بامكاننا أن نعبّر على هذا المفهوم ((أن نغيّر شيئاً ما) (to change something)) و لو بصفة ارتجالية على نحو أنّنا إن كنا غير راضين عن نسخة النص الهدف التي تتبادر إلى أذهاننا فما علينا سوى أن نغيّر شيئاً فيها. و بالتالي يكون عدم رضانا ذاك دليل على وجود مشكل ترجمي ما.

تقترح هذه الاستراتيجية العامة أيضاً أنّ من بين الطرق المتاحة لمقاربة الاستراتيجيات بالدقائق كلها تكمن في أن ننظر

(1)see Andrew Chesterman, Memes of translation, op.cit, p92.
(2) Ibid, p92.

إليها على أنّها أنواع من التغييرات. إنّ النص في اللغة المنقول منها ليتغير في كل الأحوال عندما يتم نقله من لغة إلى أخرى، لكن التغيير الذي يطال النص في إطار توظيف استراتيجية ما يبدأ فعلياً خارج نطاق هذا التغيير الطبيعي من لغة إلى أخرى. إنّ التغييرات التي نحن بصدد التركيز عليها هنا هي تلك التي تتطلب منا أن نختار بين امكانيتين. و قد أدت مثل هذه النظرة إلى وضع عدد من التصنيفات تخص التغييرات المختلفة التي تم التفكير فيها على نحو تقليدي في كونها أشكال متنوعة من عمليات التحويل أو التبديلات الشكلية التي يكون منطلقها النص في اللغة المنقول منها و غايتها النص في اللغة المنقول إليها. و يصف شسترمان Chesterman بعض تلك النماذج التصنيفية التي جاء بها العديد من المنظرين بأنّها غاية في البساطة (تصنيف نيدا Nida على سبيل المثال)، كما يصف أخرى بالصعبة و المركبة، بل و المثبطة للهمم أثناء السعي لتعلمها (تصنيف مالون Malone على وجه التحديد) الذي يوظف فيه (مصطلحية فُرادية)(*) (an idiosyncratic terminology) سيكون من الصعب تطبيقها في الوضع العملي من دون فترة ميراس شاقة.

يبقي شسترمان Chesterman في هذا الصدد على نفس تصنيفه السابق للاستراتيجيات النصية (textual strategies) الذي يضم (الاستراتيجيات التركيبية) (syntactic strategies) و (الاستراتيجيات الدلالية) (semantic strategies) و (الاستراتيجيات التداولية) (pragmatic strategies). و يقول شسترمان عن تصنيفه هذا –الذي يعده مساعداً على إماطة اللثام عن ما خفي من المسائل المتصلة باستراتيجيات الترجمة– بأنّه قابل للتطبيق في الوضع العملي، و أنّه يستخدم مصطلحية سهلة و مستصاغة كما أنّ هذا التصنيف المقترح يميّز كفاية بين الجوانب كلها، لكنه في المقابل لا يتعاطى مع التفاصيل التي يصعب علينا الالمام بها و من ثم الاحتفاظ بها في الأذهان، ناهيك عن أنّه يمتاز بالمرونة و قابلية التعديل و التوضيب. إنّ من بين ما هو مسلّم به، بحسب شسترمان، تداخل هذه الاستراتيجيات فيما بينها إلى حد ما كأن يشتمل توظيف (الاستراتيجيات التداولية) (pragmatic strategies) على توظيف (الاستراتيجيات التركيبية) (syntactic strategies) و (الاستراتيجيات الدلالية) (semantic strategies) معاً، و أنّ الاستراتيجيات من شتى الأنواع كثيراً ما توظف بالتتابع و التناوب. و من بين المسلمات أيضاً قابلية هذه الاستراتيجيات للتجزئة إلى مجموعات فرعية و بطرق متنوعة. ليبقى هذا التصنيف في نظر شسترمان محاولة منه لإعادة هيكلة المقترحات العديدة التي طرحها علماء الترجمة الآخرون ضمن نطاق شمولي جامع و مانع.

(*)إنّ من بين ما تعنيه كلمة (idiosyncratic) الغرابة و الخصوصية، و هي عكس الشمولية التي يكون فيها أي مفهوم لساني أو انجازه مقتصر على شخص معين دون سواه. و قد اعتمدنا في ترجمة هذا المصطلح على مدونة المنظمة العربية للترجمة التي تضم ترجمة العديد من المصطلحات الخاصة بالعلوم التقنية و التطبيقية و العلوم الاجتماعية و الإنسانية. (ينظر هيثم الناهي و آخرون، مشروع المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية للترجمة (الفصل التاسع: مصطلحات اللسانيات و المعاجم)، المنظمة العربية للترجمة، دت، ص601).

يعتبر تصنيف شسترمان Chesterman لاستراتيجيات الترجمة –من دون أدنى شك– من بين التصنيفات القليلة التي وُفّق أصحابها كل التوفيق في وضع أسس استراتيجية (strategic) ذات الأبعاد العلمية المثبتة و المبرهن عليها لنقل النص وفق طرائق ترجمية دقيقة، ذلك لأنّه من السهولة بما كان القيام بتحليل التوظيفات المختلفة لهذه الاستراتيجيات سواء تعلق الأمر بمقاطع نصية طويلة مثل الفقرات أو بالنص كله كما هو الحال مع (استراتيجية تحرير الترجمة) (transediting strategy) التي يقوم المترجم من خلالها بإعادة صياغة النص المصدر بشكل جذري لأنّه كتب بطريقة سمجة. و تعتبر كارين ستيتنج Karen Stetting أول من قدم هذا المصطلح (transediting) كمفهوم جديد لمجابهة المنطقة الرمادية بين الترجمة و التحرير عند اشتغالها حول الترجمة الإعلامية و الإخبارية[1]. تقول ستيتنج Stetting أنّه لا مناص من أنّ عملية التحرير هي جزء من عملية الترجمة نظراً لحجم التعديلات الثقافية الكبير. و زيادة على الكيفيات الخمسة الرئيسة التي تقترحها لعملية التحرير تلك، تورد ستيتنج Stetting ثلاثة أسباب جوهرية تستدعي تحرير الترجمة، أولها أقلمة النص بغية الارتقاء بمستوى كفاءة التعبير و هو ما يعرف بـ (تحرير الترجمة التنظيفي)؛ و ثانيها أقلمة النص لأداء وظيفة مقصودة في سياق اجتماعي جديد و هو ما يصطلح عليه تسمية (تحرير الترجمة الظرفي)؛ و ثالثها أقلمة النص لتلبية متطلبات و تقاليد الثقافة المستقبلة الذي يعرف بـ (تحرير الترجمة الثقافي). و تعتقد ستيتنج Stetting أنّ القيام بتغييرات في محتوى الترجمة (أي تحرير الترجمة) يعتبر أمراً مشروعاً و ضرورياً.

و قد تمكن شسترمان Chesterman أيضاً من الإحاطة ببعض المسائل التي أهملها منظرون آخرون، أو إهمالهم في النظر إليها على أنّها أفعال استراتيجية لا تقل أهمية عن الأفعال الاستراتيجية الأخرى. و نقصد هنا مختلف (استراتيجيات الإبداع) (creativity strategies). كما استطاع بتصنيفاته المتنوعة تلك من أن يجمع بين الجوانب كلها، منها ما يتصل بالمترجم و منها ما لا يتصل به. و يعتبر ذلك بمثابة الإشارة إلى ضرورة تغليب التفاعل بين المتغيرات المتنوعة من معارف لسانية و معارف غير لسانية و كفاءة استراتيجية. و هو النموذج الترجمي الذي وضعته ديبورا شاو Deborah Cao[2]، و الذي يتقاطع إلى حد كبير مع ما تقدم به شسترمان في أنّ الكفاءة اللسانية تشتمل على معرفة النحو و المفردات و القواعد الدلالية المتصلة ببناء الجمل في كلتا اللغتين من جهة، ثم معرفة العلاقات التداولية و السوسيولغوية اللازمة لتطبيق الوظائف اللغوية التي تتناسب و السياق موضوع الدراسة.

يعرض كل من إيف غامبيي Yves Gambier و لوك فان دورسلاير Luc Van Doorslaer صورة عن مختلف

(1)see Karen Stetting, Transediting- a new term for coping with the grey area between editing and translating, in G. Gaie et al. (Eds), Proceedings from the fourth Nordic conference for English studies, University of Copenhagen, Copenhagen, 1989, p373.

(2) Deborah Cao, Towards A Model of translation proficiency, Target: international journal of translation studies, 8 (2), 1996, pp325-340.

الاستراتيجيات الترجمية وفق ترتيب زمني محدد و من خلال أبعاد ثلاثة: يعنى البعد الأول بمسألة النقل بين اللغات (shift between languages)، و يرتكز البعد الثاني على مسألة ايجاد حل لمشكل ما (solving a problem)، أما البعد الثالث فيتصل بسير عملية الترجمة (translation working process)[1]. و نقصد بالترتيب الزمني هنا دخول كل صنف من استراتيجيات الترجمة حيز التداول بحسب الحقبة التي واكبت توظيفها، أما الأبعاد الثلاثة فنعني بها الهدف الأول الذي يسعى إلى تحقيقه متبنو كل صنف منها و النابع من خلفيتهم النظرية. و يعكس هذا التصنيف المسائل نفسها التي تطرقنا إليها أثناء حديثنا عن مفهوم استراتيجية الترجمة، بحيث يعنى البعد الأول (النقل بين اللغات– shifting between languages) بمختلف الاستراتيجيات النصية التي جاء بها العديد من المنظرين، و التي اعتبرت الترجمة نتاج نصي (a textual product) لا يتحقق إلاّ بتوظيف الاجراءات و التقنيات و التكتيكات و غيرها من المسميات الأخرى التي تعنى في الأساس بتبديل البنى اللغوية بأخرى، و هو ما عبّرنا عنه في كونه تلاعب بالمكنون اللغوي للنص في اللغة المنقول منها. و يصب البعد الثاني (ايجاد حل لمشكل ما– solving a problem) في صميم ماهية استراتيجية الترجمة التي يأتي توظيفها في المقام الأول بغية حل أي مشكل ترجمي من أي نوع كان (مورفوتركيبي، دلالي، تداولي...) و ذلك على الرغم من صعوبة الإلمام بمفهوم المشكل الترجمي عموماً، و ما الذي قد يشكل بالنسبة للمترجم مشكلاً ترجمياً من عدمه. أما البعد الثالث (سير عملية الترجمة–translation working process) فينبع من المنظور العرفاني لمفهوم استراتيجية الترجمة القائل بأنّ الترجمة ليست عملية نصية تنجز على مستوى النصوص بل هي عملية عرفانية تنبني في الأصل على (استراتيجيات الفهم) (comprehension strategies) التي يدخل في عمومها (الاستراتيجيات التنظيمية) (organizational strategies)، و (استراتيجيات القراءة) (reading strategies)، و (استراتيجيات تحليل النصوص) (text-analysis strategies)، و (استراتيجيات البحث) (search strategies)؛ ثم (استراتيجيات الانتاج) (production strategies) مثل كتابة المسودة الأولى، و حل المشاكل الموضعية في النص، و (استراتيجيات المراجعة) (revision strategies)، و انتهاءاً باستراتيجيات ما بعد الترجمة (post-translating strategies) مثل معرفة الطريقة التي سيقدم و ينشر بها العمل في نسخته النهائية، و الكيفية التي سيتم من خلالها انتقاء وسائل التوزيع و سداد حقوق الترجمة من أتعاب و غيرها.

لقد اهتم منظرو الترجمة و ممارسوها منذ زمن ليس بقريب بالطرائق و الكيفيات التي تساعد على نقل النص، و التي يشار إليها باسم جامع هو (الاستراتيجيات) (strategies) على الرغم من أنّ الكثير منهم لم يعرفها بهذه التسمية. فقد نشر

(1)see Yves Gambier, Translation strategies and tactics, in Handbook of translation studies, edited by Yves Gambier & Luc Van Doorslaer, vol.01, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, 2010, pp413-415.

كل من فيني و داربلنيه Vinay et Darbelnet في سنوات الخمسينات (1958) كتابهما الشهير (Stylistique comparée du francais et de l'anglais)، و هو الكتاب الذي يعرض في مجمله مجموعة الأساليب و الاجراءات الكفيلة بحل المعضلات الترجمية ذات البعد اللساني التي يلجأ إليها المترجم أثناء إعادة صياغة –في اللغة المنقول إليها– أفكار النص المعبر عنها في اللغة المنقول منها. و يحيلنا في الواقع مفهوم (الطرائق) (procédés) مباشرة على البعد العرفاني لمفهوم استراتيجية الترجمة أكثر منه على البعد النصي لها. و تتم دراسة هذه الطرائق السبع من خلال المقارنة بين بنى النصين في اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها. كما أنّ تصنيفهما هذا فتح الباب على مصرعيه لمنظرين آخرين حاولوا محاكاته مثل ما قام به ألفرد مالبلان Alfred Malblanc الذي طبّق هذه الطرائق على اللغتين الفرنسية و الألمانية.

و في سنوات الستينات، اقترح كل من نيدا Nida و كاتفورد Catford تصنيفات أخرى، بحيث جاء نيدا بنموذج من أربعة تغييرات تمس النص المصدر أثناء نقله إلى اللغة الهدف، و هي التغييرات على مستوى الترتيب، و الحذف، و التغييرات البنائية، و الزيادات. و طوّر نيدا Nida نظاماً من القيّم العددية لتحديد الأهمية التي ينبغي أن نوليها لكل نوع من هذه التغييرات، إذ يعتبر على سبيل المثال أنّ الزيادة –بخلاف الحذف– على قدر كبير من الأهمية لأنّ الأثر الذي يترتب عن كل حذف لن يكون بقدر الأثر الناجم عن الزيادة. و يقيم كاتفورد Catford، من جهته، أسس نظريته على إشكالية الفوارق الترجمية في التطابق الشكلي بين النص المصدر و النص الهدف. لكن نظرية كاتفورد وصفت بأنّها تختزل حقيقة اعتياص الترجمة لاقتصارها على دراسة الكلمات أو الجمل منعزلة و بمنئ عن السياق الوظيفي الذي ترد فيه. و ثمة مؤلفات أخرى سلّط الضوء فيها على مسائل عديدة تخص استراتيجيات الترجمة من بينها كتاب جون دوليل Jean Delisle الذي خص الترجمة المهنية من اللغة الانجليزية إلى اللغة الفرنسية بكثير من الدراسة و التحليل. و يقارب دوليل Delisle بعض المسائل التي تطرق إليها فيني و داربلنيه لكن بوجهة نظر مختلفة، بحيث يرى مثلاً أنّ (طرائق التحويل) (les procédés de transfert) –التي تأخد أشكالاً تصنيفية مختلفة عند فيني و داربلنيه– تشتمل على تلاعبات نصية. كما أنّ دوليل Delisle يوظف كلمة (استراتيجية) (strategie) للدلالة على نتاج عملية الترجمة برمتها (le résultat de l'opération traduisante). و يميّز دوليل Delisle بين نوعين من الترجمة: الترجمة الحرفية (la traduction littérale) و الترجمة الحرة (la traduction libre)، و هو تمييز يتوافق مع ذاك الذي وضعه فيني و داربلنيه في أنّ الترجمة صنفان: الترجمة المباشرة (la traduction directe) و الترجمة غير مباشرة أو الملتوية (la traduction indirecte ou oblique).

عرف تاريخ الترجمة تداول الكثير من المفاهيم المختلفة حول هدف المترجم و غايته. و من بين الثنائيات التي تقدم بها

المنظرون في هذا الصدد نجد: الترجمة الحرفية مقابل الترجمة الحرة، و ترجمة كلمة بكلمة مقابل ترجمة المعنى، و التكافؤ الشكلي مقابل التكافؤ الديناميكي، و الترجمة الدلالية مقابل الترجمة التواصلية. و قد حاول العديد من المنظرين توصيف و ضبط مفهوم استراتيجيات الترجمة الشمولية (global strategies) على غرار كريستيان نورد Christiane Nord التي ذهبت إلى القول بأنّ الترجمة نوعان: ترجمة موجهة نحو الثقافة المصدر (source culture-oriented) و أخرى موجهة نحو الثقافة الهدف (target culture-oriented). و من بين الأمثلة على ذلك لجوء الترجمات الانجليزية للكتب الفلندية إلى تغيير أسماء الشخوص لجعلها تبدو أكثر ألفة بالنسبة للقراء الانجليز، بحيث يصبح الإسمين الفلنديين (Mikko) و (Noora) في اللغة الانجليزية (Mike) و (Norah). كما ترجمت كتب هاري بوتر Harry Potter إلى اللغة الانجليزية الأمريكية للتخلص من الإحالات الوثيقة الصلة بالبيئة الانجليزية البريطانية. و تذهب نورد Nord إلى القول بأنّ الترجمة الموجهة نحو الثقافة المصدر (the source culture-oriented translation)، التي اصطلحت عليها تسمية (ترجمة توثيقية) (a documentary translation)، تؤدي عمل الوثيقة التواصلية الخاصة بالثقافة الباثة في كونها تجمع بين المؤلف و متلقي النص المصدر. إنّ القصد هنا إعطاء قارئ النص الهدف طريقة للوصول إلى أفكار النص الأصلي، لكنه سيبقى مدركاً لمسألة أنّ النص الهدف عبارة عن ترجمة. من جهتها، تلعب الترجمة الموجهة نحو الثقافة الهدف (the target culture-oriented translation)، التي تسميها بـ (الترجمة الآداتية) (the instrumental translation)، دور المرسلة المستقلة الناقلة لجهاز عبر اجراء تواصلي جديد في الثقافة المستقبلة. تهدف هذه المرسلة إلى تحقيق غايتها التواصلية من دون أن يدرك المتلقي بأنّه بصدد قراءة أو سماع نص قد تم استخدامه من قبل بشكل مختلف في موقف تواصلي آخر. و قد انتهت جوليان هاوس Juliane House إلى تمييز مشابه عند اقتراحها لنموذج يقوم على تحليل نوعية الترجمات، إذ ثمة طريقتان للترجمة بحسب هذه الأخيرة: (ترجمة صريحة) (overt translation) و (ترجمة معماة) (covert translation).

ينبغي أن نفهم أنّ (الترجمة الصريحة) (the overt translation) لا تدعي بأنّها نص أصلي في اللغة الهدف، و لكنها الترجمة التي توحي بأنّ جمهور القراء المستقبلين لها غير معني بها بطريقة مباشرة. و على النقيض من ذلك، تتمتع (الترجمة المعماة) (the covert translation) بصفة كونها نص مصدر أصلي في الثقافة الهدف. و بغية أن تؤدي أي ترجمة معماة الدور الذي أريد لها، يحتاج المترجم إلى استخدام (مرشح ثقافي) (cultural filter) يتم بموجبها تغيير تلك العناصر الثقافية المقيدة لها التي ستطمس حقيقة أنّ النص المصدر لم يكتب أصلاً لقارئ النص الهدف. تقول هاوس House أنّ الحاجة إلى الترجمات الصريحة تكمن في ترجمة النصوص التاريخية التي تحيل على مواقف و أحداث لم تعد موجودة حتى في الثقافة المصدر، و هو بالتالي ما يجعل المترجم مطالب بأن يختار بين هاتين الاستراتيجيتين. غير أنّ

هاوس تقر بأنّه نادراً ما نجد أمثلة خالصة عن كلتا الاستراتيجيتين، و أنّ هناك نوع من الاسترسال في توظيفهما من قبل المترجمين.

و ثمة العديد من السبل الأخرى لوصف هذا الاختلاف الكامن بين الاستراتيجيتين، أهمها آراء لورانس فينوتي Lawrence Venuti الذي اهتم، بشكل رئيس، بالدوافع الأيديولوجية و الإجتماعية و السياسية لعملية اختيار النص المراد ترجمته و الطريقة التي ستتم ترجمته بها. و قد قدم فينوتي مفهومي (التدجين) (domesticating) و (التغريب) (foreignizing) كاستراتيجيتين ترجميتين اللتان تعكسان، من حيث المبدأ، المفاهيم نفسها التي جاءت بها نورد Nord. تسعى (استراتيجية التدجين) (domestication strategy) إلى أقلمة النص ليمتثل لمعايير الثقافة الهدف، أما (استراتيجية التغريب) (foreignization strategy) فترمي إلى مقاومة معايير الثقافة المستقبلة و توصيل أجنبية النص المصدر.

يمكننا في هذا الصدد أن نعدد الكثير من المسميات المتداول بها في علم الترجمة التي دأب أصحابها على التمييز بين مفهومي هاتين الاستراتيجيتين الترجميتين الشموليتين. يعتبر ذلك بمثابة التقليد الراسخ منذ عهد شيشرون Ciceron؛ و أما الاستراتيجيات الترجمية المتنوعة و فئاتها الفرعية التي عكف المنظرون على دراستها و من ثم تصنيفها في مؤلفاتهم ليست سوى امتداد طبيعي و حتمي لاستراتيجية ترجمية واحدة ذات توجهين اثنين. ثم إنّ الفضل كل الفضل في ذلك يعود للفيلسوف و اللساني الألماني الشهير فريدريش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher الذي قام ببرلين في 24 جوان العام 1813 بالأكاديمية الملكية للعلوم (Royal Academic of Sciences) بعرض مقاله الموسوم بـ (Uber die verschiedenen Methoden des Ubersetzens)[1] (On the Different Methods of Translating). و قد شكل ذلك في حد ذاته نقلة نوعية في ميدان الترجمة، بحيث اعتبر هذا المقال ميثاقاً يؤسس للنمط الاستراتيجي الترجمي الأوحد الذي يتبعه المترجمون إلى اليوم. يقول شلايرماخر أنّ هناك طريقتان فقط لترجمة نص ما: إما أن يترك المترجم المؤلف بسلام قدر ما أمكنه ذلك و يجلب إليه القارئ، و إما أن يترك القارئ بسلام قدر ما أمكنه ذلك و يجلب إليه المؤلف. و قد تحدث جوهان غوتفرايد هردر Johann Gottfried Herder أيضاً عن السفر من القارئ أو الكاتب بحسب مفهوم شلايرماخر الترجمي. و تكمن أفضل الاستراتيجيات في نظر أنطوني بيم Anthony Pym في تسفير القارئ أي تحسيسه بغرابة النص[2]. و من بين التسميات الأخرى، بالإضافة إلى التكافؤ الشكلي و التكافؤ الديناميكي لنيدا، نجد: الترجمة الدلالية و الترجمة التواصلية

(1) André Lefevere, Translation, History, Culture, A Sourcebook, Routledge, London and NewYork, 2003, p149.

(2)voir Anthony Pym, pour une éthique du traducteur, Collection «Traductologie», Artois Presses Université, Collection «Pédagogie de la traduction», Presses de l'Université d'Ottawa, 1997, p21.

لبيترنيومارك، و ترجمة وهمية و ترجمة ضد وهمية لميشال ليفي، و ترجمة ما فوق نصية (أي الترجمة بالتمركز العرقي) و ترجمة حرفية لبيرمان[1].

إنّ هذا الاهتمام باستراتيجيات الترجمة يعكس دروها الفذ في توجيه المترجم و مد يد العون له بغية تمكينه من نقل النص نقلاً تتحقق به مقتضيات الوضع الترجمي كلها. كما أنّه لا ينبغي علينا إغفال قدرة فعل المترجم (son savoir faire) حيال جميع مراحل سير عملية الترجمة من فهم و تحليل و اتخاذ القرارات المناسبة، و التوفر على الكفايات اللازمة اللغوية و الترجمية و الاستراتيجية... لتبقى استراتيجيات الترجمة على اختلاف أنواعها الشمولية و الموضعية مجال بحث رحب لم تنكشف كل أسراره بعد.

4. استراتيجيات التوصيل الثقافي في الترجمة

يرى بيتر نيومارك Peter Newmark أنّه لا يمكن للمترجم، بأي حال من الأحوال، أن يلامس المعنى من دون أن يرجع إلى الخلفية الثقافية التي نشأ فيها هذا المعنى، و السبب هو أنّ اللغة وعاء للثقافة و ما الترجمة إلا تعبير عنهما في الآن نفسه. يستند نيومارك في حكمه هذا على فرضية (نسبية اللغات) لسابير و وورف Sapir & Whorf التي جاءت لتدعم الرأي القائل بوجود الفوارق الثقافية بين اللغات. و في سعيّنا لاستبدال مرسلة بأخرى من لغة إلى لغة، ثمة دائماً خسارة في المعنى نتيجة عوامل كثيرة. كما أنّ الترجمة بطبيعتها تخلق نوعاً من التوتر المستمر، و هو ما يشبه جواً من المناظرات الحماسية تنبني على أساس مقتضيات اللغتين معاً.

و قد خص نيومارك Newmark بالذكر هنا بعض المسائل التي من شأنها أن تنغّص على المترجم، أولها صعوبة ترجمة المعنى الذي يتطلب نقله عمليتين أساسيتين هما الفهم الذي يستلزم التفسير، و الصياغة التي تحتاج إلى قدرة التعبير و الإبداع الخلاّق. و ثانيها صعوبة إيجاد المكافئات، بحيث ينبغي على المترجم –إن هو أراد الوصول إلى أرقى مستويات الفهم و الإبداع– أن يستوعب كفاية عملية إيجاد المقابلات و المرادفات التي تعتبر من أصعب المهام الترجمية و أعقدها. و ينبغي أن يوفّق التكافؤ، بحسب نيومارك، بين الشكل و المعنى، و هي نظرة يختلف فيها مع نيدا Nida الذي يرى بضرورة التضحية بأحدهما، فإما أن يهتم المترجم بالتكافؤ الشكلي (formal equivalence) و يهمل التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence) أو العكس. و الترجمة السوية بالنسبة لنيومارك هي تلك التي بمقدورها أن تنقل للقارئ الهدف البعد الثقافي نفسه الذي جيء به في النص المصدر، و من المنظور نفسه الذي ارتكز عليه قارئه لادراك هذا البعد الثقافي و من ثم فهمه.

إنّ من بين ما استحدثه نيومارك من خلال نظريته السوسيوثقافية مفهوم (الكلمات الثقافية) (cultural words) التي

(1)voir Anthony Pym, op.cit, p22.

تختلف درجة معرفة مكنونها من قارئ إلى آخر. و يتوقف اختيار الاستراتيجية الترجمية المناسبة في هذه الحالة على نمط النص و مقصديته و أهمية هذه الكلمات الثقافية فيه. يقترح نيومارك Newmark مجموعة من العوامل السياقية تقترن بسير عملية الترجمة هي هدف النص، و المستويات اللسانية و الثقافية و الحماسية و التقنية لجمهور القراء المستقبلين، و أهمية الإحالات في النص المصدر، و الأطر الزمكانية، و العلاقة بين الكلم و الإحالات، و مستقبل هذه الإحالات. و ثمة طريقتان لنقل الكلمات الثقافية في نظر نيومارك Newmark: طريقة الإقتراض (borrowing) و طريقة تحليل المكونات (componential analysis). يعطي الإقتراض لوناً محلياً، بحيث يبقي على المفاهيم و المسميات الثقافية في حالتها الخام، أما تحليل المكونات فيمحو السمات الثقافية الخاصة بالنص المصدر مركزاً اهتمامه بذلك على المرسلة فقط.

يعتقد نيومارك Newmark أنّ الطرائق و الأساليب و التقنيات تدفع بنظريات الترجمة إلى التعدد و التنوع، كما أنّها تقدم لنا جملة من الأفكار النيّرة حول اللغة و الفكر و ما يدور بينهما من معاني، و حول التمظهرات الثقافية المختلفة للغة و السلوك. و هو ما من شأنه أن يقرّب أكثر فهم الثقافات و من ثم التحسين من مستوى الترجمة. فحين نلجأ إلى نظرية التحليل التقابلي بين اللغتين العربية و الفرنسية، نرى في مجمل قواعدهما الصرفية بأنّهما تختلفان في صياغة اللغة، بحيث قد يترجم ما هو مفرد في لغة إلى جمع في اللغة الأخرى. و مثال ذلك كلمة (الخطوبة) في اللغة العربية التي تنقل إلى (les fiancailles) باللغة الفرنسية في صيغة الجمع. أضف إلى أنّ هذه الفوارق الثقافية بين اللغات قد تؤدي في الكثير من الأحيان إلى نكسة تواصلية إن هي ترجمت حرفياً. و هنا نجد أنّ الفرنسي يصف شخصاً غادر بطريقة غير لبقة بقوله (filer à l'anglaise) أي غادر على الطريقة الانجليزية، في حين يصف الانجليزي الشخص ذاته بقوله (to take a french leave). كما ينظر الفرنسي إلى جان دارك Jeanne d'Arc بأنّها قديسة (une sainte)، في حين يعتبرها الانجليزي ساحرة (a witch). و مرد ذلك حرب المائة عام التي دارت رحاها بين فرنسا و انجلترا، و التي شاركت فيها جان دارك و تمكنت من طرد الانجليز خارج باريس إلى أن ألقي عليها القبض فاتهمت بالهرطقة و قضت الكنيسة بأن تموت حرقاً. و هنا تكمن صعوبة ترجمة أي مرسلة بعيداً عن السياق الثقافي الذي يظلها بظلاله، أو بتعبير آخر لا يمكننا فصل الرموز اللغوية التي تنسج على شكل مرسلات عن النماذج الثقافية التي تؤطرها و تخرجها إلى الحياة، و هو ما يسلّم به نيومارك Newmark من خلال نظريته السوسيوثقافية و الصنوف الترجمية فيها من دلالية و تواصلية التي يشبّه فيها النص موضوع الترجمة بجسم يقع في مجال كهربائي تتجاذبه قوتان متضادتان من ثقافتين مختلفتين، كما تتجاذبه سمات الكاتب الشخصية الذي قد يخالف معايير لغته كلها.

تنبني عملية الترجمة على ثلاث ثنائيات هي اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، و الثقافتين الباثة و المستقبلة، و الكاتب و المترجم و ظلال القراءة. و يتساءل نيومارك Newmark عن إمكانية الإكتفاء بنظرية واحدة في الترجمة. و بما أنّ

معوقات الترجمة متنوعة الأصول و الفروع في الدرس الترجمي، فإنّ الحاجة إلى أكثر من نظرية تبقى ضرورة عملية و واجب مهني بل و أخلاقي أيضاً.

يقدم نيومارك Newmark حلولاً عدة لتجاوز العقبات ذات الصلة بالمسميات الثقافية، بحيث يرافع من أجل وضع مدونات رسمية و عالمية الأبعاد، و السعي لتوحيدها عبر الأقطار كافة. و لم يغفل نيومارك المسميات الثقافية ذات المنطلق الشمولي خاصة تلك المتعلقة بأوساط التي من شأنها أن تطرح مشكلات نوعية بالنسبة لطلاب الترجمة، بحيث يرتبط كل مسمى فيها بالعادات و التقاليد و العلاقات السائدة بين الأفراد؛ علاوة على كيفية التعامل، حين الترجمة، مع المسميات التي تنتمي إلى الثقافات المهيمنة.

ينبغي أن نراعي أثناء تعاملنا مع المسميات الثقافية في الترجمة خصوصية الثقافتين الباثة و المستقبلة على حد سواء، إذ تختلف نظرة كل لغة إلى معطى ثقافي ما، و لكنها في الأخير تتكامل فيما بينها. فكلمة (حصان) (cheval) توحي في اللغة الفرنسية بالصحة و القوة، و لا تعدو أن تكون اسماً لحيوان في اللغة الانجليزية، و تشير في اللغة الألمانية إلى الصرامة و الجدية، و ترتبط في اللغة العربية بالأصالة و الشموخ. و هكذا دواليك، كلما باعدنا المسميات عن ثقافتها جانب حكمنا عليها الموضوعية.

و من الأمثلة أيضاً أنّ (الفيل) عديم الإحساس في الثقافات الغربية كلها مع أنّه قوي الجسم و الذاكرة. و قد أوحى بهذه الدلالة طول كتابة اسمه في هذه اللغات (elephant) و ليس فقط نتيجة لشكله أو سلوكه. أما اللغة الروسية فلا تقرن أي دلالة لهذا الإسم و هي بذلك تبغي الحياد، بينما يقع العربي في تناقض مفضوح بين صورته في مخيالنا و اسمه القصير من ثلاثة أحرف (فيل). فهل يصور ذلك القوة الجسدية مع الغباء؟

إنّ الوعي و الكفاءة الثقافيين و ما بيثقافيين (intercultural) اللّذان ينتجان عن تجريب الثقافة و معايشتها يعتبران من أكثر الظواهر تعقيداً مما قد يتراءى للمترجم، بحيث كلما زاد اطلاعه على التعقيدات التي تتسبب فيها الفوارق الثقافية علا كعبه في الترجمة و زادت احترافيته فيها. و قد لا نخطأ بقولنا أنّه لم يكن هناك زمن قط غفل فيه المترجمون عن الفوارق الثقافية و عن أهميتها في الترجمة. و قد كان منظرو الترجمة على دراية بالمشكلات المصاحبة للمعرفة الثقافية و للفوارق الثقافية منذ عهد روما الغابر على الأقل. كما أنّهم أولوا اهتماماً كبيراً بنظريات الترجمة و بتدريب المترجمين منذ أن ظهر هاذين البعدين إلى الوجود. و قد كان شغل المنظرين الشاغل الكلمات و العبارات المتأصلة بشكل وثيق و حصري في ثقافة ما التي يكاد يستحيل نقلها إلى أخرى –ملفوظة كانت أو غير ذلك– في ثقافة مغايرة. و قد كانت هناك نقاشات مريرة حول متى يتم اللجوء إلى صياغة المعنى بتغيير الألفاظ (paraphrase)، و متى يتم توظيف المكافئ المحلي الأقرب، و متى يتم وضع كلمة جديدة من خلال المحاكاة (النسخ) (calque) أو الترجمة الحرفية (literal translation)،

و متى تتم الاستعانة بالكتابة الصوتية (phonetic) transcription)). بيدأنّ هذه الكلمات و العبارات المقيّدة لثقافة ما و غير القابلة للترجمة أحياناً كثيرة لا تزال تأسر لب المترجمين و علماء الترجمة على حد سواء.

يعتبر جورج مونان George Mounin أول من بلور نظرية في هذا السياق سنة 1963، بحيث أكد على أهمية دلالة أي وحدة معجمية ما بقوله أنّه فقط إذا ما تمت مراعاة ذلك فإنّ الوحدة المترجمة ستنجز المهمة الوظيفية المنوطة بها على أتم الأوجه و أكملها. بيدأنّ المشكل مع هذه النظرية يكمن في أنّ العناصر الثقافية جميعها لا تشتمل فقط على الوحدات المعجمية ما يدفعنا إلى التساءل عن ما ينبغي على المترجم القيام به في حالة (التضمينات الثقافية) (cultural implications) التي يلمّح إليها من خلال الخلفية المعرفية (background knowledge) لقرّاء اللغة المصدر.

يعتبر مفهوم الثقافة، بالنسبة للترجمة، ذو أهمية بالغة لمدارسة التضمينات الثقافية. و على الرغم من اختلاف وجهات النظر حول ما إذا كانت اللغة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة، فإنّه يتضح أنّ مفهوما اللغة و الثقافة لا يقبلان الإنفصال(*). و قد ناقش نيدا Nida مشكلات التطابق (correspondence) في الترجمة مولياً الأهمية ذاتها للفوارق اللغوية و الثقافية بين اللغتين المنقول منها و المنقول إليها. استنتج نيدا Nida أنّ الفوارق الثقافية قد تتسبب في تعقيدات وخيمة أكثر مما قد تتسبب فيها الفوارق اللغوية. و أضاف بأنّ (التوازي) (parallelism) في الثقافة غالباً ما يزودنا بفهم عام على الرغم من التغييرات الشكلية البليغة في الترجمة؛ و بهذا تكون التضمينات الثقافية بالنسبة لنيدا Nida على قدر كبير من الأهمية مثلها في ذلك مثل المسائل المتصلة بالوحدات المعجمية.

تراعي التعريفات التي قدمها نيدا Nida للتكافؤ الشكلي (formal equivalence) و التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence) مسألة التضمينات الثقافية في الترجمة. و تجسد (الترجمة بالحواشي) (gloss translation)، في نظره، خصائص التكافؤ الشكلي أين يتم إعادة انتاج الشكل و المضمون بأكبر قدر ممكن من الوفاء، و سيكون بإمكان القارئ في اللغة الهدف أن يفهم –بحسب استطاعته– العادات و طرائق التفكير و وسائل التعبير الخاصة بسياق اللغة المصدر. و بخلاف ذلك، يحاول التكافؤ الديناميكي أن يربط المتلقي بأنماط السلوك ذات الصلة بسياق ثقافته هو من دون أن يلح على فهم النماذج الثقافية البدئية (original cultural patterns) الخاصة بسياق اللغة المصدر. و يمكن أن يتوقف مدى تنوع المشكلات بالنسبة إليه على الثغرة اللغوية و الثقافية بين اللغتين

(*)ثمة العديد من الآراء الداعمة لهذا التوجه، فعلى سبيل المثال تذهب سنال هورنبي Snell-Horenby إلى القول بأنّه لا ينبغي أن ننظر إلى اللغة في كونها ظاهرة منعزلة تدور في فراغ و لكن بوصفها جزء لا يتجزء من الثقافة.

(Language is not seen as «an isolated phenomenon suspended in a vacuum but as an integral part of culture»).(M.A. Homeidi, Arabic translation across cultures, Babel, vol.50 N°01, Fédération internationale des traducteurs, John Benjamins publishing company, 2004, p13).

أو اللغات المعنية بالترجمة.

إنّ أول تصور حول الدراسات الثقافية في الترجمة كان مرده (المنحى الثقافي) (the cultural turn) الذي تم التنبؤ له من خلال أعمال إيفين زوهار Even-Zohar و جدعون توري Gideon Toury التي اهتمت بـ (تعدد النظم) (Polysystems) و (معايير الترجمة) (translation norms). لقد غضّ كل منهما النظر عن الصنوف اللغوية لنظريات الترجمة التي يعتبران بأنّها انتقلت من الكلمة كوحدة إلى النص لكن ليس أبعد من ذلك. لقد ولج كل منهما في عالم ما وراء اللغة و ركزا اهتمامهما على التفاعل بين الترجمة و الثقافة؛ على الطريقة التي من خلالها تقوم الثقافة بالتأثير في الترجمة و إكراهها على مسائل كثيرة تخص السياق و العرف و التاريخ. و بالتالي، يكون الإنتقال من الترجمة بوصفها نصاً إلى الترجمة بوصفها ثقافة و سياسة هو ما يصطلحان عليه تسمية المنحى الثقافي في الدراسات الترجمية. و قد كان ذلك بمثابة حجر الزاوية الذي أقام عليه كل من أندري لوفيفير André Lefevre و سوزان باسنيت Susan Bassnett أسس الاستعارة التي تبناها سنة 1990. يعتبر المنحى الثقافي، في الحقيقة، مجاز اقتبسته الدراسات الثقافية الموجهة نحو نظريات الترجمة للإشارة إلى تحليل الترجمة ضمن سياقاتها الثقافية و السياسية و الأيديولوجية.

امتد المنحى الثقافي منذ العام 1990 ليشمل نطاقاً متكاملاً من المقاربات التي تنتمي إلى الدراسات الثقافية، و قد كان ذلك بمثابة المؤشر الفعلي على طبيعة الدراسات الترجمية المعاصرة الجامعة للإختصاصات (interdisciplinary). إنّ من بين النتائج المتمخضة عن المنحى الثقافي اهتمام الدراسات الثقافية المتزايد بالترجمة، و هو ما نجم عنه استمالة علماء من تخصصات متنوعة. إنّه لمن الأهمية بما كان أن ننوه هنا بأنّ هؤلاء المنظرين للدراسات الثقافية قد حافظوا على برامجهم و نزعاتهم و أيديولوجياتهم التي ساقت آراءهم النقدية. كما ساعدت هذه المقاربات الثقافية على بسط آفاق الدراسات الترجمية بتبصرات جديدة على الرغم من الخلاف الكبير الذي كانت عليه، و هو أمر طبيعي و محتوم نتيجة الفوارق في التصورات من الجوانب كافة.

و في منتصف الثمانينيات، جاء فيرمر Vermeer بنظرية (Skopos) –((اسم يوناني الأصل يعني الهدف (aim) أو الغرض (purpose))– التي تعنى بغرض الترجمة و منه الاستراتيجيات الترجمية الواجب توظيفها بغية الحصول على نتيجة وظيفية مناسبة. يعبّر عن الناتج بالنص الهدف الذي يصطلح عليه فيرمر تسمية (translatum). و عليه، تعد معرفة السبب الكامن وراء ترجمة النص في اللغة المنقول منها على هذا النحو أو ذاك، و ما هي وظيفته الأولى في اللغة المنقول إليها عوامل حاسمة بالنسبة للمترجم.

يرى فيرمر Vermeer أنّ اللغة جزء لا يتجزأ من الثقافة، و هو بذلك يخالف نظرة بيتر نيومارك Peter Newmark القائلة بأنّ اللغة ليست عنصراً ثقافياً أو ميزة من ميزات الثقافة. إنّ موقف فيرمر Vermeer يفترض ضمناً، بحسب

نيومارك Newmark، استحالة الترجمة بينما يرى هو أنّ أي نقل من لغة مصدر إلى شكل يتوافق و اللغة الهدف يعد من المهام التي يضطلع بها المترجم في التواصل المتعدي الثقافات (transcultural). و قد أكد نيومارك أيضاً على وثاقة صلة (تحليل المكونات) (componential analysis) بالترجمة لكونه منهجية تتسم بالدقة و المرونة في الآن نفسه بغية جسر الهوة بين الثغرات اللغوية و الثقافية في اللغتين المنقول منها و المنقول إليها.

إن نحن ارتكزنا على ماهية الترجمة بمعناها الشمولي الذي هو نقل مفهوم أو فكرة من نظام رموز إلى آخر فسيكون عندها مجرد الكلام ترجمة (نقل من الكيان النفسي إلى الكيان اللساني)، و ستكون كذلك ترجمة شرح صورة إشهارية أو لوحة فنية (نقل من نظام رموز يعتمد على الشكالم (les formèmes) و اللوانم (colorèmes) إلى النظام اللغوي). غير أنّ الترجمة بمعناها الحصري المتداول به نقل مرسلة من لغة مصدر إلى لغة هدف. و يذهب البعض إلى القول بأنّ التجربة الإنسانية واحدة، و أنّ البشر جميعهم يتقاسمون فيما بينهم وسائل التفكير و الشعور نفسها، و بذلك تكون الترجمة ممكنة بين لغتين أياً كانتا و مهما اختلفتا في طرائق التفكير و وسائل التعبير. لكن هذا الرأي قد تناسى بأنّ الطبيعة و العالم الخارجي يبسطان لنا مكاناً رحباً ذا أبعاد متعددة الأشكال و الأحجام و الألوان، و نقوم نحن بتقسيمه بحسب إشارات لغتنا، أي وفقاً لمنظومة الكلم و التعابير الجامدة التي يفرض علينا استعمالها، و لكن أيضاً وفقاً لأنظمة القيّم الخاصة بثقافتنا و للوظائف العملية الوثيقة الصلة بحاجاتنا التواصلية. و خير دليل على العلاقة المتجذرة بين لغتنا و العالم المحيط بنا هو المثال الذي يسوقه بسام بركة على لسان روبنسون في مذكراته و هو وحيد على الجزيرة. يقول روبنسون: "لقد تحدثت بصوت عال، طويلاً و دون توقف، لم أترك و لو فكرة واحدة خطرت ببالي إلاّ و عجلت بالنطق بها إلى الأشجار أو الغيوم، و مع ذلك، يوماً بعد يوم، تتداعى تحت ناظريّ جوانب كاملة من هذه القلعة اللغوية التي يتحصن فيها فكرنا و يتحرك بحرية..."[1].

يبرز هذا المثال أنّ طبيعة الإنسان الأولى هي الكلام، بحيث لا يمكنه العيش من دون التواصل اللغوي مع من يحيط به. ثم إنّ الفكر ليجد صياغته في اللغة، و من دون اللغة لن يستطيع الواحد منا أن يعيّ وسطه المادي الذي يعيش فيه، و هو ما سيتسبب، لا محالة، في إضعاف النشاط الذهني عند الإنسان و اعتلاله.

تقع اللغة، من حيث طبيعتها و استعمالها، بين الطبيعة و الثقافة. فالطبيعة تتشكل من قوانين و حقائق عالمية و كونية، و هي لا ترتبط البتة بإرادة الإنسان أو ميوله في حين أنّ الأنظمة الثقافية نتاج الإنسان، و جوانب من تمظهراته

(1)LES LIAISONS DANGEREUSES, Langues, traduction, interprétation, COLLECTION "SOURCES-CIBLES", Dirigée par Henri AWAISS et Jarjoura HARDANE, Ecole de Traducteurs et d'Interprètes de Beyrouth, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Saint-Joseph, 2011, p222.

الاجتماعية و الفكرية، و بالتالي فإنّها تتغير بتغير طقوسه المعيشية كلها. بين هذه و تلك، تأتي اللغة بوصفها الرابطة بين الطبيعة و الثقافة. إنّها الحد الفاصل بين ما هو طبيعي و ما هو ثقافي. فاللغة طبيعية من حيث أنّ كل إنسان يملك، منذ ولادته، القدرة على تعلم أي لغة من لغات العالم. و لكنها في الوقت نفسه ثقافية من حيث أنّها نظام يضعه المجتمع و يتطور بتطوره. انطلاقاً من هذه الطبيعة المزدوجة للغة، يمكننا القول بأنّ الفرق بين لغة و أخرى مرده الفوارق الثقافية بين المجتمعات التي تتكلمها، و هو تمايز ذو أثر بالغ على عملية التواصل و طرائقها المتنوعة. يقول كلينكنبرغ Klinckenberg أنّ الطبيعة، من حيث أنّها طبيعة، لا تلقي إلينا بأية مرسلة، بل إنّ ثقافاتنا هي التي تضفي على الطبيعة صفة المرسل، كما أنّ توظيف إشارة ما أو استخدام شيء ما كإشارة يقتضيان بالضرورة العودة إلى ثقافة محدّدة و إلى مجتمع محدّد[1]. تكون النتيجة المباشرة لذلك ضرورة عدم الإكتفاء بنقل ما هو لغوي فحسب، بل ينبغي أيضاً مراعاة المسائل الميتالغوية التي ترتبط بالسياق عامة، لأنّ السياق الميتالغوي مهمّ بقدر أهمية الخطاب اللغوي نفسه، هذا إذا لم يكن أهم منه. و يدعم بول ريكور Paul Ricoeur هذا الرأي كل الدعم بدعوته إلى ضرورة أن لا يتوجه المترجم "من الكلمة إلى الجملة فإلى النص ثم المجموعة الثقافية و لكن العكس. و بتمثله القراءات واسعة لروح الثقافة ينزل المترجم من النص إلى الجملة فإلى الكلمة"[2].

إنّ أي تواصل ثقافي يشتمل أولاً على تواصل لغوي، ذلك لأنّ اللغة آداة حاملة لشحنة ثقافية معينة. و بهذا ستترك كل لغة نتكلمها أثرين إثنين: الأول لغوي محض و الآخر ثقافي. يكمن الأثر اللغوي أساساً في مفهوم التواصل باتجاهيه الإثنين. يربطه الاتجاه الأول بنظام اللغة، بحيث يرى أنّ التواصل هو انتقال المعرفة بين المتكلم و المخاطب من خلال خطاب ينبني من إشارات أو علامات تمر عبر قناة تصل بينهما. هذا و يخضع بناء هذه الإشارات و قواعد إنتاجها و انتقالها لنظام مشترك من الإشارات بين المتكلم و المخاطب. تكون اللغة، من هذا المنظور إذن، أفضل نظام يستخدم للتواصل. أما الاتجاه الثاني فيعرّف التواصل بأنّه عملية تبادل بين متكلمين إثنين في سياق محدّد و بواسطة وسائل تنتمي إلى النظام اللغوي أو إلى أنظمة أخرى غير لغوية. و يكمن الأثر الثقافي في معرفة المتلقي طرق و أشكال ربط كل إشارة أو علامة لغوية من هذا النظام اللغوي بواقعه الثقافي و بتقطيعاته لهذا الواقع. و هنا يوظف البعد الدلالي الذي يصل الدال بمدلوله، بحيث يعرض كل نظام إشارات –في هذه الحالة نظام الإشارات اللغوية– على الناطق الفطري تقسيماً خاصاً به. فنظام اللغة يتكون من فئات ترتبط فيما بينها ضمن شبكات متعددة المستويات من العلاقات، و تستقي هذه الفئات قيمتها الفعلية من الفوارق و التقابلات و الاختلافات فيما بينها، و هي بذلك تقوم، بفعل سمتها الإعتباطية، بوضع

(1)voir LES LIAISONS DANGEREUSES, Langues, traduction, interprétation, op.cit, p224. (Jean-Marie Klinckenberg, Précis de sémiotique générale, Paris, ‘‘points’’, De Boeck Université, 1996, p38).

(2)بول ريكور، عن الترجمة، تر. حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)–منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1، 2008، ص60-61.

الرابط بين العالم المادي المحيط بنا و العالم الذهني الذي بداخلنا، كما أنّها تقوم بتنظيم فكرنا و هيكلته و بناء رؤيتنا للعالم.

إنّ إحدى الخصائص الكبرى للسان البشري –بالإضافة إلى التمفصل (أو الانبناء) المزدوج و الإبداع[1]– هو أنّه يتم فيه التعبير عن الذاتية. يتحدث سيلفان أورو Sylvain Auroux عن هذه الخاصية في كتابه (فلسفة اللغة) (la philosophie du langage)، بحيث يعتبرها ميزة أساسية من ميزات اللغة البشرية، و هي تتلخص في أنّ استعمال أي فرد للّغة يعني أنّ هذا الفرد موجود في الزمان و المكان ذاته (الآن و هنا)، كما أنّه لا يكتفي بالتعبير عن مضمون يمثّل العالم الموجود في ذهنه، بل يقدم أيضاً وجهة نظره في هذا المضمون. و يقتبس أورو Auroux عن شارل بالي Charles Bally تعريفه للجملة بأنّها أصغر شكل يوظف لتوصيل فكرة، و أنّها تتضمن بالضرورة المقول (dictum) الذي يرتبط بالتمثيل و الموقف (modus) الذي يرتبط بطريقة التقييم الذي يقوم به الشخص المفكّر. و عليه، لن يكون بمقدورنا أن نسند قيمة الجملة إلى قول ما (مهما كان هذا التعبير) ما لم نكتشف فيه التعبير عن الوجه[2]. و بذلك، يتشكل كل قول لغوي بالأساس عبر التمييز بين ما ينتمي إلى المقول و ما ينتمي إلى الموقف. يرتبط التعبير عن الذاتية عند إيميل بانفنيست Emile Benveniste بضمائر المتكلم و بعملها. إنّ هذه الضمائر، في نظر بانفنيست، معروضة مثل سائر الإشارات اللغوية، و هي مثلها جاهزة للإستعمال. فما من أحد يتلفظ بها إلاّ و يأخدها على عاتقه، بحيث يتحول الضمير (أنا) (je) من عنصر في نمطية الاستبدال إلى دلالة وحيدة، و ينتج هذا الضمير في كل مرة يقوم فيها شخص آخر بالتلفظ به. يمثل ذلك، بالنسبة لبانفنيست Benveniste، تحقيق لتجربة أساسية لا يمكننا أن نتصور بأنّ عناصرها غير موجودة في أي لغة من اللغات[3].

لكن هذه الذاتية مزدوجة الدلالة، إذ ثمة ذاتية الفرد (في علاقته مع الأفراد الآخرين ضمن المجموعة البشرية الواحدة) و ذاتية المجموعة البشرية (في علاقتها مع المجموعات البشرية الأخرى). و عندما نستخدم اللغة في خطاب تواصلي موجّه إلى أحد أفراد جماعتنا فإننا سنقوم، من جهة، باستحضار بعض جوانب هويتنا (الجنس، و المكانة الاجتماعية، و الإنتماءات المتنوعة من سياسية و دينية و غيرها) و نؤكدها في مواجهة المخاطب و نطلب منه، بطريقة لاواعية، الإيمان بها و التصديق عليها. و نقوم، من جهة أخرى، ببناء مكان مشترك مع المخاطب، أي التأسيس لفضاء متبادل من المواقف و المعتقدات الذي من شأنه تثبيت الأسس الرئيسة التي يقوم عليها تماسك المجموعة و تلاحمها.

([1])LES LIAISONS DANGEREUSES, Langues, traduction, interprétation, op.cit, p227.

([2])Ibid, p227. (Sylvain Auroux et alii, La Philosophie du langage, Paris, PUF, 2004, p31-32; Charles Bally, Linguistique générale et linguistique francaise, Berne, Francke, 1950, p36).

([3])Ibid, p228. (Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale II, Paris, Gallimard, 1974, p68).

يعتبر ذلك بمثابة العودة إلى النقطة التي بدأ منها كل شيء: عروقية الإنسان (أو إناسته) التي اعتبرت ضرباً من ضروب الترجمة. لقد قام دونيس تادلوك Dennis Tedlock بوضع نموذجه المسمى بـ (ثنائية التوأم المعكوس) (pair of inverted twins) الذي يخص مهام كل من المبشّر (missionary) و الأنثروبولوجي (anthropologist)، و التي حددها برونيسلاو مالينوسكي Bronislaw Malinowski العام 1935 في أنّها ترجمة وجهة نظر الرجل الأبيض إلى أهل البلاد الأصليين، و ترجمة وجهة نظر أهل البلاد الأصليين إلى الرجل الأوروبي[1].

و قد ذكر طلال أسد Talal Asad في مقاله المميّز (The Concept of Cultural Translation in British Social Anthropology) العام 1986 أنّه منذ سنوات الخمسينات (1950)، زاد مفهوم (ترجمة الثقافات) (translation of cultures) شيوعاً خاصة في الأنثروربولوجيا الاجتماعية البريطانية. و السبب هو أنّ العالم الدخيل للمواضيع التي تتداولها الأنثروبولوجيا احتاجت إلى إعادة هيكلة في لغة يمكن للأكاديميين الغربيين فهمها. و عليه يمكن القول بأنّ الكتابة الدارسة للتراث العرقي (ethnographic)، بوصفها نمطاً ترجمياً، تعد محاولة لفهم الثقافات إلى أقصى حد ممكن من خلال كلماتها و تعابيرها الخاصة بها و لكن في لغتنا نحن؛ مهمة تستلزم، في النهاية، إعادة رسم تفصيلي للأفكار و الممارسات ضمن فئات الفهم لدى الغرب[2].

فيما يخص بناء النص المصدر، يلاحظ طلال Talal أنّه على الرغم من أنّ الأنثروبولوجي يحاول في الميدان أن يتعلم عيش حياة مختلفة، و أن يفكر داخل خطاب مختلف إلا أنّه عندما يعود إلى موطنه سيكتب ترجمة تخاطب جمهوراً من نوع خاص؛ جمهور ينتظر أن يقرأ عن نمط معيشي آخر و أن يتلاعب بالنص الذي هو بين يديه وفق قواعد مؤكدة و ليس أن يتعلم عيش نمط معيشي جديد. و هو ما يعني، بأسلوب آخر، ضرورة أن توضع الحياة في شكل نصي.

إنّ الترجمة، بطريقة مثلى، نتاج عمل شخص يتقن اللغة/الثقافة المنقول منها بقدر اتقانه اللغة/الثقافة المنقول إليها. يرى بعض علماء الترجمة أنّه يستحيل نقل السمات الثقافية لعدم تطابقها من ثقافة إلى أخرى، و يقر آخرون، في المقابل، بوجود حقائق ثقافية مشتركة لعالمية الإنسان (l'universalité de l'homme)، و عليه تبقى ترجمتها ممكنة دائماً. بإمكاننا أن نتخيل رأياً ثالثاً على الأقل يرى بقابلية نقل جميع الحقائق الثقافية حتى و إن يفترض مثل هذا النقل تكبد هذه الحقائق تحولات جمة.

لقد تطرقنا آنفاً إلى مسألة المثاقفة، و كيف أنّ الترجمة استطاعت تغيير الأنماط الثقافية البدئية لكل ثقافة مستقبلة.

([1])see Kate Sturge, Representing Others, Translation, Ethnography and the Museum, St. Jerome Publishing, Manchester, UK & Kinderhook (NY), USA, 2007, p05.

([2])Ibid, p05.

و قد تبيّن لنا مدى خطورة العوامل الميتالغوية عامة (خاصة ما يتصل بالثقافة بشقيها المادي و اللامادي) المصاحبة للغة التي لا يمكننا عزلها البتة عن هذه الأبعاد القمينة بإخراجها إلى الحياة. و منه كان (التوصيل الثقافي) (the cultural conveyance) عنواناً لهذا المبحث إيماناً راسخاً منا بحقيقة أنّ اللغة ما إن توظف في سياق معيّن إلاّ و تجلب معها عوالم الإنسان ظاهرها و باطنها. و بقدر ما نعبّر عن الأشياء بلغة قد نقول عنها أنّها قحة أو فصيحة كذلك يكون التوصيل الثقافي الذي قد نقول عنه أنّه يقارب أو يطابق البعد الثقافي الأول. و هو ما قد يوحي به اسم (توصيل) على وزن (تفعيل) و كأنّه صيغة مبالغة و توكيد الغرض منها الإنباء عن الإحاطة بشيء ما قشره و لبابه.

لا جرم في أنّ أي توصيل ثقافي ينبغي أن يتجاوز أولى العقبات المتمثلة في كيف السبيل إلى تقليص الفارق الثقافي (l'écart culturel) بين اللغتين/الثقافتين المنقول منها و المنقول إليها، لكن ذلك سيكون صعب المنال إن لم يجتنب المترجم الخلاف الأزلي بين المصدريين و الهدفيين (sourciers-ciblistes) من خلال عدم التوفيق بين (غرابة) (l'étrangeté) النص المصدر الذي يعتبر نصاً مقروءاً سيتم ضمّه في فضاء الثقافة المستقبلة الأدبي، و (ألفة) (familiarité) النص الهدف التي تعكس حالة من السكينة و الوقار و عدم الخذلان اتجاه الثقافة المستقبلة و جمهور القراء فيها.

سيؤدي الإشتغال على المكنون الثقافي حتماً إلى اختفاء عناصر ثقافية للغة/الثقافة الباثة و بروز أخرى في اللغة/الثقافة المستقبلة بحسب طرائق الترجمة المتنوعة التي تحتضنها الاستراتيجية الشمولية (global strategy) المتبناة، و التي ستشير، بالتالي، إلى مقصدية مختلفة للكاتب و المترجم.

تقاوم الحقائق الثقافية الترجمة بشدة، و السبب هو أنّها تنتمي إلى لغة/ثقافة مصدر مترسخة بشكل وطيد في وسطها (البدئي) (original). لن يكون أبداً النقل الثقافي، من خلال سير عملية الترجمة، تاماً، بل سيشتمل الأمر دوماً على وجود خسارة في محتواه. و بغية الانتباه إلى الفوارق الثقافية التي يتم تجاهلها أو المبالغة فيها، سلّط الكثير من المنظرين الضوء على هذه الإشكالية باقتراحهم لاستراتيجيات ترجمية تخوّل للمترجم القيام بالنقل الثقافي بتعامله –على قدم المساواة– مع غرابة النص المصدر و مقرؤية النص الهدف. و منه، ستقوم اللغة/الثقافة الدخيلة بترك بعض المساحة للغة/الثقافة المصدر لضمان اللقاء بين المؤلف و قارئه من دون أن تلحق، رغم ذلك، الضرر بمقرؤية النص الهدف لدى قارئ أجنبي. يتعلق الأمر هنا بموقف يتوسط توجهين إثنين، أو كما يصطلح عليه بول باندیا Paul Bandia تسمية (المساحات المابينية) (spaces in-between).

سنسلط الضوء هنا على ثلاث استراتيجيات تخص النقل الثقافي هي لمنظرين تركوا بصمتهم في علم الترجمة، و هم أنطوان برمان Antoine Berman و لورانس فينوتي Lawrence Venuti و بول باندیا Paul Bandia، على أن لا نهمل

استراتيجيات أخرى متداول بها ترجمياً من اقتباس و تهجير و عصرنة و تمركز عرقي. و سنسعى إلى إبراز التصور القابع وراء كل ترجمة ثقافية[1]، و كيف تتم مقاربته إجرائياً من خلال استراتيجية الترجمة الموظفة التي تعني بشكل رئيس (مشروع الترجمة) (le projet de la traduction) كما عكفنا على عرضه آنفاً في خضم حديثنا عن ماهية استراتيجيات الترجمة و صنوفها.

ينصح أنطوان برمان في كتابه (la traduction et la lettre ou l'auberge du lointain) (الترجمة و الحرف أو مقام البعد)[2] بتبني استراتيجية ترجمية تبين عن غرابة النص المصدر و تستقبل الدخيل باعتباره كذلك. يعارض هذا المفهوم كل شكل من أشكال (إلحاق) (annexion) و (استملاك) (appropriation) و (ادماج) (assimilation) النص المصدر. ثمة تعارض، من خلال هذه المقاربة، بين القصد الأخلاقي للترجمة الذي يفضله برمان و التمركز العرقي الذي ينبذه. يصف برمان المقاربة المتمركزة عرقياً في الترجمة بأنّها تلك التي ترجع كل شيء إلى ثقافتها الخاصة بها، إلى قيّمها و معاييرها، و تعتبر ما يقع خارجها –الدخيل– بأنّه سلبي أو جيد كفاية ليتم إلحاقه و تكييفه لزيادة ثراء هذه الثقافة. و يذكر برمان Berman، من ناحية أخرى، المبدأين اللذين يجعلان من الترجمة متمركزة عرقياً. يتمثل المبدأ الأول في ترجمة النص الأجنبي على نحو لا نستشعر بأنّ الحاصل (النص المترجم) عبارة عن ترجمة. و يتمثل المبدأ الثاني في ضرورة أن تولّد الترجمة الأثر نفسه لدى القارئ في اللغة المنقول إليها كما لدى القارئ في اللغة المنقول منها. يختار برمان Berman القصد الأخلاقي للترجمة الذي يعتبر، في نظره، ايجابي لأنّه يعترف للآخر بوجوده الخاص و يسلّم بانفتاح النص الهدف على خصوصيات النص المصدر. لكنه يندد، في المقابل، بالقصد ذو الخلفية المتمركزة عرقياً و يعتبره سلبي لأنّه يتنكر لكل سمة من سمات (الغيرية) (l'alterité-otherness) و لكل أثر للغرابة، كما أنّه يخفي المترجم من خلال حجب عمله.

يقول برمان Berman أنّ هذا القصد لا يعطي سوى ترجمة رديئة، و أنّه يقوم عموماً –وراء ستار قابلية الانتقال– بإلغاء ممنهج لغرابة المؤلف الأجنبي[3]. يشير فينوتي Venuti إلى أنّ برمان Berman، و من خلال اسهامه في علم الترجمة، سمح لنا بالنظر إلى الفعل الترجمي على أنّه فعل إقرار بالاختلافات اللغوية أكثر مما هو فعل إدماج أو تماثل.

يسير فينوتي نفسه على النهج البرماني باقتراحه لبعد أخلاقي يعترف للدخيل بخصوصياته و اختلافاته اللغوية و الثقافية. و هو يؤكد في مقدمة كتابه (The Scandals of translation: Towards an Ethics of difference) بأنّه

(1)voir Manal Ahmed El Badaoui, Traduction de quelques faits culturels du francais vers l'arabe: retour de l'original à son point d'origine, TTR, vol.15 N°01, Association Canadienne de traductologie, Université Concordia, Canada, Septembre 2012, p133.

(2)تمت ترجمة هذا الكتاب، الذي نشر العام 2009 عن المنظمة العربية للترجمة، من قبل عز الدين الخطابي و مراجعته من قبل جورج كتورة.

(3)Ibid, p135.

يتبع برمان، و أنّ الترجمة الجيدة هي الترجمة التي تظهر حقيقة الشيء: إنّها تظهر في لغتها غرابة النص الأجنبي[1].

لا يبقي برمان، في الواقع، بدءاً من مؤلفه (la traduction et la lettre ou l'auberge du lointain) و انتهاءاً بمؤلفه الأخير (Pour une critique des traductions) على نفس القصد الأخلاقي، إذ يعتبر بأنّ الترجمة الأخلاقية الحقة ينبغي أن تتجنب أثر الغرابة المفرط بقدر ما ينبغي أن تتجنب أثر (التطبيع) (naturalisation) المفرط. كما أنّه لم يعد يشدّد على ضرورة النقل الأمين للحرف، بل يؤكد بأنّ للمترجم الحقوق كلها بمجرد أن يتعامل بصراحة. إنّ تطور التصور الأخلاقي لبرمان يسمح لنا بتصنيفه، بحسب بول باندیا Paul Bandia، في خانة المواقف الوسيطية (les positions médianes). لم يعد الأمر يتعلق بارتباط زائد بالحرف و لا بإقصاء تام لعمل المترجم، و لكن بالأحرى المساواة بين غرابة النص المصدر و مقروئية النص الهدف؛ أي الكشف عن الاختلاف في هذا الأخير من دون التعدي لا على شخص المترجم و لا على شخص القارئ. يعتبر هذا التغيير في المقاربة البرمانية بالنسبة لباندیا Bandia، الذي يسميه بـ (المساحات المابينية) (spaces in-between) أو (الوسطية النصية) (textual middles)، توجه جد حصيف. إنّه يستند على الترجمات المنجزة من قبل المؤلفين الأفارقة الذين يكتبون باللغات الأوروربية في سياق ما بعد الكولونيالية. إنّ لجوء هؤلاء الكتاب في ترجماتهم إلى ممارسات ذات خلفية مصدرية (sourcières) و هدفية (ciblistes) في آن واحد قد أتاح، حسبه، الأخذ بعين الاعتبار غرابة النص الإفريقي و ضمان قابلية بلوغه (son accessibilité) في الوقت نفسه.

يشابه تصور لورانس فينوتي Lawrence Venuti تصور أنطوان برمان Antoine Berman في أنّه يدعو من خلاله إلى بعد أخلاقي يسمح باحترام الآخر المختلف. إنّنا نلتمس عند فينوتي –كما عند برمان– تبدلاً في منحى نظريته بغية أن تستوعب طرائق الترجمة المختلفة. تدور مقاربة فينوتي Venuti، مع ذلك، في فلك المجتمع و أبعاده السياسية و الأيديولوجية و الثقافية؛ في حين تتمحور مقاربة برمان Berman حول مؤلفين فرادى.

إنّ تفكير فينوتي Venuti موجّه نحو استراتيجيتين ترجميتين (التغريب) (distanciation-foreignization) و (التدجين) (naturalisation-domestication)، و هو يشجع استراتيجية (التغريب) (foreignization) على المستويين النظري و العملي. تقوم هذه الاستراتيجية على إبراز الاختلافات اللغوية و الثقافية للمجتمع الباث معارضة بذلك استراتيجية (التطبيع) (naturalisation) التي يسميها أيضاً باستراتيجية (التدجين) (domestication). تنطوي هذه الاستراتيجية على تحويل الثقافة الأجنبية لجعلها مألوفة بالنسبة لقارئ اللغة الهدف، و ترنو إلى محق كل أثر للغيرية و إعطاء انطباع بأنّ الترجمة قد كتبت من قبل مؤلف النص المصدر، و كأنّه لم تكن هناك ترجمة قط. يدعو فينوتي

(1)voir Manal Ahmed El Badaoui, op.cit, p135.

Venuti إلى تطوير استراتيجيات ترجمية مقاومة تسمح بمجابهة القوى المهيمنة. و يتم ذلك عن طريق ادخال في النص الهدف لعناصر خاصة بثقافة النص المصدر أو لعناصر تكون مهمشة من قبل النظامين اللغوي و الأدبي للثقافة المستقبلة. ينتقد فينوتي Venuti في كتابه (The Translator's Invisibilty) خفاء المترجمين، بحيث يندد بطريقة الترجمة الغالبة على العالم الأنجلوأمريكي، أي بتلك التي ترتكز على استراتيجية (الشفافية) (transparence) التي تطبّع النص الأجنبي و تشدد على انتاج و تلقي الترجمات. و بحسب فينوتي فإنّ هذه الاستراتيجية لا تقوم سوى باستملاك الدخيل عبر طمس كل أثر لغرابته، بل زيادة على ذلك تخفي الدور الذي يلعبه المترجم كوسيط. إنّه ينبذ، بذلك، الترجمات الشفافة بسبب أنّها إلحاقية (annexionistes) و أنّها لا تطمح إلاّ لمآزرة القوى المهيمنة من خلال إدماج الثقافات الأجنبية. و لهذا يعيب فينوتي بحدة على المجتمع الأمريكي الذي يسعى إلى انكار الآخر عن طريق الترجمة.

يعارض فينوتي إنتاج الترجمات (الانسيابية) (fluides) التي تعرض على القارئ ترجمة مجردة من كل غرابة. تؤدي الترجمات التي تتميز بالانسيابية (fluidity)، في نظره، إلى إلحاق الضرر بالمترجم بسبب أنّها تحجب دوره باعتباره الشخص الناقل. إن لم يتمكن القارئ في الحقيقة من أن ينتبه حين قرائته لترجمة ما بأنّ الأمر يتعلق فعلاً بواحدة فلن يتمكن من إدراك العمل المنجز من قبل المترجم، و سيدفع ذلك إلى طمس دور هذا الأخير. أضف إلى أنّ فينوتي يحدد دور المترجمين ضمن سياق سياسي، و يهيب بهم إلى التصدي للقوى المهيمنة بالقيام بترجمات غير انسيابية (non-fluides) مدعمة باستراتيجيات مقاومة بهدف أن يبرزوا من خلالها ظهوريتهم و دورهم بصفتهم منتجين للنص.

لقد تغيّرت مقاربة فينوتي Venuti بين مؤلفيه (The Translator's Invisibility) و (The Scandals of Translation: Towards an Ethics of Difference)، إذ لم يعد يحافظ، بطريقة جد صريحة، على التفريع الثنائي نفسه (تدجين/تغريب) (domestication/foreignazation)، بل يوصي باستراتيجية خاصة بالأقلية (minoritizing). كما أنّه لم يعد يجابه خفاء المترجمين و تواريهم بل تهميش الترجمة؛ ليؤدي هذا التبدّل المفاجئ في موقف فينوتي Venuti إلى تحديد موضع التفريع الثنائي ذاك ((تدجين/تغريب) (domestication/foreignazation)) ضمن سياق جديد. في الواقع، يتم الإبقاء على الخيار بين الطريقتين الترجميتين و لكن ضمن سياق سياسي و ثقافي أين تكتسب علاقات الهيمنة أهمية أكبر. لا تعتبر الترجمة بالتطبيع (naturalisante) –ضمن هذا الإطار الجديد– سيئة بالضرورة، بحيث يمكن البرهنة عليها لدعم جهود الثقافات المغلوبة على أمرها (الثقافة الأقلية) في المقاومة و ذلك في مواجهة الثقافات المسيطرة (الثقافة الأمريكية).

يدعو فينوتي Venuti إلى القيام بترجمات تعتمد على بعد أخلاقي يعكس الاختلاف. إنّه لمن الأهمية بما كان، بالنسبة إليه، التأسيس لبعد أخلاقي يأخذ بعين الإعتبار الاختلافات الثقافية مع ضمان قراءة و مقرؤية الترجمات لدى الأوساط

التي تتلقاها. بيدأنّ ذلك لن يحدث إلاّ من خلال توظيف الاستراتيجيتين معاً، أي بواسطة الإبقاء على بعض من عناصر الثقافة الباثة و أقلمة أخرى في الثقافة المستقبلة. لا يتعلق الأمر إذن بالإبقاء على عناصر كثيرة تخص الثقافة الباثة و إلا فلن تتمتع الترجمة بصفة المقرؤية، و لكن على اختيار عناصر من الثقافة المستقبلة التي لا تندرج ببساطة ضمن الأيديولوجيا المهيمنة لهذه الثقافة. ينطوي الأمر هنا على إعادة تشكيل عناصر تنتمي أصلاً إلى الثقافة المستقبلة؛ بيدأنّه على الرغم من انتمائها إلى هذه الثقافة تكون هذه العناصر مهمشة فيها نوعاً ما.

يتفق باندیا Bandia مع فينوتي Venuti كل الاتفاق حول المزج بين الاستراتيجيتين الذي يصطلح عليه تسمية (الوسطية النصية) (textual middles). يسمح هذا المزج بعدم محو لا عناصر من الثقافة الباثة و لا أخرى من الثقافة المستقبلة ليضمن بذلك مقرؤية النص المترجم في اللغة و الثقافة و المجتمع الهدف، و سيخوّل للقارئ بأن ينتبه لنصية العمل موضوع الترجمة و سير عملية انتاجه.

تنكشف (الوسطية النصية) (textual middles) بأنّها الاستراتيجية التي ينبغي توظيفها في ترجمة الوقائع الثقافية. و من خلال اجتناب عملية إبراز خصوصيات الثقافة الباثة (المقاربة الخاصة بالمصدريين Sourciers) أو طمس خصوصيات الثقافة المستقبلة (المقاربة الخاصة بالهدفيين Ciblistes) ستتشابك الثقافات المختلفة و ستثري بعضها البعض، كما أنّها ستنفتح على آفاق ثقافية جديدة لتتخلى بذلك عن الجدل السرمدي القائم بين المصدريين و الهدفيين (sourciers/ciblistes).

إنّ هذا و إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنّ المترجم هو الحاكم بأمره في سير عملية الترجمة، إذ بإمكانه أن يرضي طرفي النزاع حول ملكية شيء يدعي كل طرف أحقيته به من غيره بالوقوف موقف المعتدل الوسط الذي يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يبالغ في مؤازرة هذا و لا يغالي في شد عضض ذاك. و بما أنّ المترجمين و التراجمة على حد سواء يسعون إلى بسط جسور التواصل بين الحضارات البشرية المتنوعة، و رتق الفتق الثقافي بينها بإعتبارهم وسطاء ثقافيون (cultural mediators) فإنّه من الضروري أن ننظر إليهم على أنّهم مسهّلون لفهم متبادل بين الناس بدلاً من أن ننظر إليهم على أنّهم قواميس بشرية غير فعالة[1].

يقول ساندور هارفي Sandor Hervey و إين هكنز Ian Higgins أنّ أسماء العلم (proper nouns) تمدنا في الواقع ببعض الأمثلة الدقيقة عن المسائل القاعدية التي تخص التوصيل الثقافي. لا يعدّ في الغالب التعامل مع مثل هذه الأسماء في الترجمة مسألة ذات شؤ عظيم، بيدأنّ مثل هذا التعاطي يزودنا بعرض أولي ذو فائدة كبيرة عن البعد الثقافي في

([1])see Sandor Hervey & Ian Higgins, Thinking French Translation, A course in translation method: French to English, Second Edition, Routledge, London and NewYork, 2002, p31.

الترجمة. و ثمة خياران لنقل أسماء العلم: إما الإبقاء عليها كما هي في النص الهدف، أو تكييفها لجعلها تتماشى مع الأعراف الصوتية و الخطية للغة المنقول إليها. و إن كان الإسم المراد ترجمته ينتمي حصرياً إلى اللغة المنقول منها و أراد المترجم أن ينقله كما هو بحسب الخيار الأول فسيكون ثمة إدخال عنصر غريب في النص الهدف. قد تكون مثل هذه الخسارة غير مهمة، بل غالباً ما يرحب بها لتذكير القارئ بأصل النص و خلفيته. إنّ نقل الإسم في اللغة المنقول منها من خلال الإبقاء عليه على حاله في اللغة المنقول إليها قد يكون حلاً غير عملي إذا كان ذلك يفضي فعلياً إلى مشاكل تخص قابلية نطق هذا الإسم و تهجئته و تذكّره كما هو الحال مع الأسماء الروسية و الصينية على سبيل المثال. تمكّن استراتيجية نسخ كلمة في لغة ما بحروف لغة أخرى (transliteration) -بوصفها حلاً آخر- من تذليل هذه الصعاب نوعاً ما بواسطة توظيف أعراف اللغة المنقول إليها لإعادة تشكيل إسم ينتمي حصرياً إلى لغة ما. يعتبر هذا التوجه الطريقة المعيارية لنقل أسماء العلم في النصوص الانجليزية المترجمة. غير أنّ ذلك يشتمل أيضاً على معوقات أخرى مثل ضرورة أن يتّبع المترجم الإسم نفسه و يتقيد به إن تم وضعه آنفاً من قبل المترجمين.

و ثمة خيار استراتيجي آخر يسميه هارفي Hervey و هكنز Higgins بـ (الازدراع الثقافي) (cultural transplantation). يقوم المترجم هنا بتعويض الأسماء في اللغة المنقول منها بأخرى أصلية في اللغة المنقول إليها التي لا تعتبر مكافئاتها الحرفية أو العرفية و لكن تجمعها بها نفس الدلالات الثقافية الحافة. و كمثال على ذلك، يستشهد هارفي Hervey و هكنز Higgins بترجمة مغامرات (تانتان) (Tintin) لكاتبها جورج ريمي Georges Remi (المسمى آرجي Hergé) إلى اللغة الانجليزية، بحيث تمت ترجمة إسما المحققين (Dupont et Dupond) بـ (Thompson and Thomson). لقد نجحت هذه الطريقة الحذقة في جعل هاذين الشخصين انجليزيين بامتياز، و المحافظة على الدلالات الحافة الخاصة بشيوع هاذين الإسمين كما أنّها استطاعت محاكاة تلاعب النص في اللغة المنقول منها بالتهجيئات المختلفة.

و ما يسترعي الانتباه هنا هو أنّ مفهوم (الازدراع الثقافي) (cultural transplantation) الذي جاء به كل من هارفي Hervey و هكنز Higgins يخضع لسلم من الخيارات الاستراتيجية الترجمية المقننة و المضبوطة التي يجيء توظيفها إما منحازاً نحو الثقافة المصدر (Source-culture bias) أو منحازاً نحو الثقافة الهدف (Target-culture bias).

ثمة على طول المسافة الفاصلة بين حدي هذا السلم الانحيازي التدرجي -اللذان هما (الغرابة) (exoticism) و (الازدراع الثقافي) (cultural transplantation)- مرتبات متفاوتة من التوصيل الثقافي هي كالتالي[1]:

([1])see Sandor Hervey & Ian Higgins, op.cit, p33.

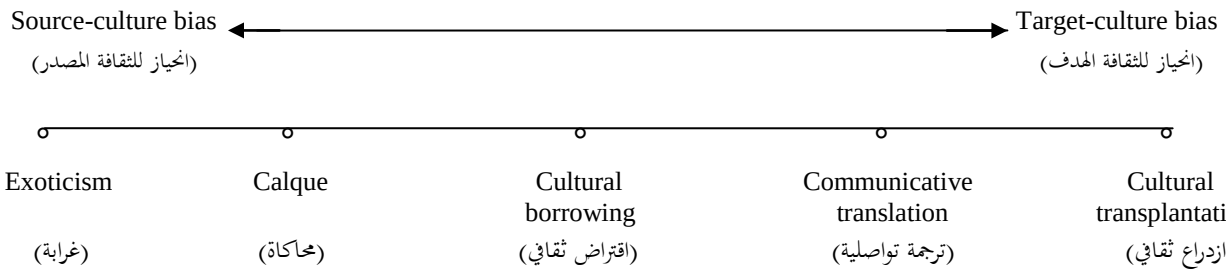

تندرج أقصى الخيارات الاستراتيجية التي نشير من خلالها إلى مفاهيم ثقافية دخيلة في النص الهدف ضمن فئة (الغرابة) (exoticism)، و يتمثل ذلك في توظيف ملائم لسمات نحوية و ثقافية يتم جلبها من النص المصدر بأدنى حد من التكييف. و بهذه الطريقة تتم الإشارة و باستمرار إلى الثقافة الأصلية الدخيلة و غرابتها الثقافية، و هو ما قد يشكل في حد ذاته أكبر مفاتن النص في اللغة المنقول إليها. و من بين الأمثلة على ذلك، ترجمة روائع أدب الشرق من شعر و نثر إلى اللغة الانجليزية من قبل رينولد ألين نيكلسون Reynold Alleyne Nicholson بما في ذلك (المقامات) العربية؛ ترجمة استطاعت أن تصور أبعاداً ثقافية غير مألوفة بالنسبة للقارئ الانجليزي التي سيكون تأثيرها على جمهور اللغة/الثقافة المستقبلة مختلف كلياً عن تأثيرها على جمهور اللغة/الثقافة الباثة الذي يحمل النص بالنسبة إليه سمات قليلة لثقافة مختلفة تكمن بالأساس في المكونات الإجتماعية و الحضارية للمجتمع العربي في تلك الحقبة من تاريخه و في الأسلوب الذي نظم به هذا اللون الأدبي[1].

و ثمة في الجهة المقابلة للغرابة (الازدراع الثقافي) (cultural transplantation) الذي من الصعب أن نعتبر أقصى أشكاله على أنّها ترجمات، و لكن أكثر على غرار الأقلمة التي يتم فيها الازدراع الكلي لخلفية النص المصدر ما سينتج عنه إعادة كتابة هذا النص كلياً بخلفية الثقافة المستقبلة.

(1)The following excerpt is an example of this:

113

« *The Makama of Damascus*

Al-Harith son of Hammam related:

I went from Irak to Damascus with ist green water-courses, in the day when I had troops of fine-bred horses and was the owner of coveted wealth and resources, free to divert myself, as I chose, and flown with the pride of him whose fullness overflows. When I reached the city after toil and teen on a camel travel-lean, I found it to be all that tongues recite and to contain soul's desire and eye's delight. So I thanked my journey and entered Pleasure's tourney and began there to break the seals of appetites that cloy and cull the clusters of joy, until a caravan for Irak was making ready__ and by then my wild humour had become steady, so that I remembered my home and was not consoled, but pined for my fold__ wherefore I struck the tents of absence and yearning and saddled the steed of returning ».

(REYNOLD A. NICHOLSON, TRANSLATIONS OF EASTERN POETRY AND PROSE, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY PRESS, LONDON, 1922, p119). (Digitized by the Internet Archive in 2010 with funding from University of Toronto).

لا يمكننا هنا أن نعتبر (الازدراع الثقافي) ممارسة ترجمية عادية، بل قد يُنظر إليه على أنّه خيار جدي ما دام أنّ جميع النقاط التفصيلية لا تولّد سلسلة من ردود الفعل التي من شأنها أن تجعل النص الهدف برمته متضارباً. إنّ الممارسة الترجمية العادية تجتنب عموماً كلا طرفي هذا المنحى من غرابة و إزدراع ثقافي، و بالتالي سيأخذ المترجم بعين الإعتبار الحلول البديلة الأخرى الموجودة بين حدي هذا المنحى.

يوجد بديل آخر يتمثل في ادخال غرابة خاطفة تأتي على شكل محاكاة. تعتبر المحاكاة (calque) كل تركيب تعبيري (syntagme) يتشكل من كلمات اللغة المنقول إليها و يتماشى تركيبه مع قواعدها، لكنه غير اصطلاحي (unidiomatic) في هذه اللغة لأنّ قولبته تمت وفق بنية العبارة الأصلية في اللغة المنقول منها. قد يكون مرد هذا النقص في اصطلاحيته –على نحو محض– معجمي أو قد يرتبط بالنحو عموماً.

يعتبر هارفي Hervey و هيكنز Higgins أنّ المحاكاة السيئة تنسخ السمات اللغوية للنص في اللغة المنقول منها إلى درجة أنّه يصبح غير نحوي في اللغة المنقول إليها؛ في حين أنّ المحاكاة الجيدة تسوي بحل وسط بين نسخ سمات النص في اللغة المنقول منها و إنتهاك حرمة النحو في اللغة المنقول إليها. إنّه لمن السهل، بحسب هارفي Hervey و هكنز Higgins، أن نشوّه النص في اللغة المنقول إليها بالمحاكاة المعوجّة بدافع التسرع أو الجهل. و لكن مع ذلك، قد يحدث أن يكون أثر الغرابة الخاطفة للمحاكاة مرغوب فيه أو ضروري في بعض النصوص المترجمة حتى و إن دعت الحاجة إلى التخفيف منه بواسطة بعض (استراتيجيات التعويض) (compensation strategies). قد يصبح، في بعض الأحيان، ما كان في الأصل عبارة عن تعبير تركيبي تمت محاكاته مكافئ ثقافي معياري (standard) في اللغة المنقول إليها للعبارة الأصلية في اللغة المنقول منها (مثال ذلك عبارة (objet volant non-identifié O.V.N.I) التي نسخت وفق العبارة الانجليزية (unidentified flying object U.F.O)).

أما فيما يخص (الإقتراض الثقافي) (cultural borrowing) فيعرّفه هارفي Hervey و هيكنز Higgins بأنّه شكل من أشكال ادخال العناصر الغريبة الذي ينطوي على نقل عبارة من النص في اللغة المنقول منها حرفياً إلى النص في اللغة المنقول إليها. يختلف (الإقتراض الثقافي) عن (الغرابة) (exoticism) و (المحاكاة) (calque) في أنّه لا يقتضي تكييف عبارة اللغة المنقول منها وفق أشكال اللغة المنقول إليها. غالباً ما يلجأ المترجمون إلى (الإقتراض الثقافي) عندما يستحيل عليهم ايجاد عبارة ملائمة بلون محلي في اللغة المنقول إليها. و كما هو الحال مع المحاكاة، تصبح مثل هذه الإقتراضات أحياناً مفردات معيارية في اللغة المنقول إليها مثل المفردات الانجليزية الخاصة بموسيقى (الباليه) (ballet) التي تعتبر كلمات مقترضة (loan-words) من اللغة الفرنسية. يتكرر توظيف (الإقتراض الثقافي) (cultural borrowing) في النصوص التي تسلط الضوء على مسائل تاريخية أو قانونية أو اجتماعية أو سياسية، أين يكمن الحل الأبسط في ادراج

تعريف لمفردات مثل (datcha, glasnost, perestroika) الروسية، أو لأخرى فرنسية مثل (pétanque, armagnac, bastide)، و توظيف بعد ذلك كلمة اللغة المنقول منها بوصفها كلمة مقترضة في نص اللغة المنقول إليها.

يمثل (الإقتراض الثقافي) خياراً ترجمياً صائباً بالنسبة للمترجم فقط في حالات لم تتمكن فيها الممارسات الترجمية السابقة و بحزم من توطيد عبارة اللغة المنقول منها في اللغة المنقول إليها. و بالتالي سيكون من الإجباري عملياً –إلاّ إذا تنكر لها السياق و وقف أمامها كحجر عثرة– نقل عبارات مقترضة مثل (joie de vivre) و (savoir faire) حرفياً إلى نص هدف في اللغة الانجليزية لأنّها أصبحت المكافئات المتواضع عليها لعبارات اللغة المنقول منها.

أما عن (الترجمة التواصلية) (communicative translation)، فيقول هارفي Hervey و هيكنز Higgins أنّها خيار ترجمي يتم تبنيه عند نقل كل (التعابير الإصطلاحية) (idioms)، و الأمثال (proverbs)، و (العبارات المبتذلة) (clichés) التي تتوفر على مكافئات تواصلية يمكن الوصول إليها بيسر في اللغة المنقول إليها. إنّ عدم اللجوء إلى الترجمة التواصلية كبديل استراتيجي يمكن تبريره فقط لأسباب سياقية خاصة جداً كما في نقل العبارات الآتية:

- Chien méchant	Beware of the dog
- Sens interdit	No entry
- Légitime défense	Self-defence
- Maigre comme un clou	As thin as a rake [1]

من المحتمل أكثر أن تؤدي الترجمة الحرفية لمثل هذه العبارات إلى نوع من الغرابة الهزلية أو المسلية المنعدمة في النص المصدر. غير أنّه قد يحدث في بعض الأحيان أن لا يتماشى المكافئ التواصلي الذي يبدو لنا بديهياً مع السياق. سيكون من غير المساعد، على سبيل المثال، في نص هدف أنتج في فرنسا و يشارك فيه فقط أشخاص فرنسيون أن نترجم مقولة (charbonnier est maitre chez soi) بعبارة (An Englishman’s home is his castle). إن كان هذا الأثر الهزلي غير مرغوب فيه، فسيكون على المترجم أن يبدّل هذه الترجمة بشيء آخر على غرار (My home is my castle)، أو أن يبتدع تعميماً يُعبر عنه بقول مثلي (proverbial) كأن يقول (Every man’s home is his castle) أو (Every man is master in his own house)، أو أن يبدّل ذلك بمثل تقريبي له و يقول (Every dog is a lion at home). تحمل كل من هذه الترجمات دلالاتها الحافة الخاصة بها، و ستتوقف مسألة أي ترجمة منها أكثر ملائمة على الفوارق الدقيقة في المعنى (les nuances) التي يفرضها السياق.

(1)see Sandor Hervey & Ian Higgins, op.cit, p36.

يجيء هذا المثال متوسطاً الحالات التي تكون فيها الترجمة التواصلية أمراً محتوماً في الوضع العملي، و الحالات التي لا تحوز فيها عبارة النص في اللغة المنقول منها على مكافئ تواصلي معياري في اللغة المنقول إليها. يملك المترجم في حالات كهاته خياراً أصيلاً بين الترجمة الحرفية و بعض من درجات الترجمة التواصلية. يسرد هارفي Hervey و هيكنز Higgins المثال المشوّق التالي: يتحدث بيير Pierre عن ابنته الطفلة الهادئة و المتحفظة مع أحد جيرانه المتطفلين. و لتتأكد شكوكه، يهز الجار أصبعه و يقول بطريقة فيها من الحكمة و الوعي الشيء الكثير: (N'oubliez pas: il n'est pire eau que l'eau qui dort). يتمثل البعد الجمالي هنا في ترجمة مثل بآخر لنقول (Just remember: still waters run deep). تعتبر هذه الترجمة في الواقع الترجمة القاموسية الأولى، غير أنّها لا تفيد البتة في هذه الحالة. يشير المثل الفرنسي بوضوح إلى أنّ المياه الساكنة أمر فيه سوء، و السبب المحتمل في أنّها تعطي معنى زائف عن الأمان. إنّها تشير استعارياً إلى الأشخاص الهادئين الذين يخفون طبعهم الحقيقي -بكياسة و بخداع- وراء قناع من التحفظ، و هو ما يعبر بوضوح عن شيء إزدرائي ينتقص من القدر. قد يكون للمثل الانجليزي في الأصل القوة نفسها غير أنّه يعبّر في أيامنا هذه و بامتياز عن شيء تحسيني: إنّه يعني بأنّ للناس الهادئين أفكار و مشاعر عميقة و متّقدة أكثر من نظرائهم كثيري الضجة حتى و إن يتطلب اكتشاف مثل هذه الخصال الرائعة وقتاً. قد يحدث أن يتداخل في بعض الحالات المثل في اللغة المنقول إليها مع المثل الفرنسي و يكون توظيفه مقبولاً في السياق، غير أنّه ينبغي أن يتضح من السياق بأنّ الشخص المعني شخص خطير أو غير موثوق فيه، و أنّه سيكون من الضروري أن يتلفظ به بصوت يحمل نبرة انتقادية مناسبة. بيدأنّ ذلك سيكون بمثابة ضربة حظ، لنقول عن المثل (still waters run deep) بأنّه ليس بترجمة تواصلية للمثل الفرنسي (il n'est pire eau que l'eau qui dort).

سنتساءل هنا عن الخيارات الترجمية المتوفرة في ظل انعدام مكافئ تواصلي معياري لهذا المثل الفرنسي. تتمثل الإمكانية الأولى، بحسب هارفي Hervey و هيكنز Higgins، في الترجمة الحرفية (literal translation) كقولنا (There is no water worse than the water that sleeps). غير أنّ هذه المحاكاة تدخل عنصراً غريباً و تجعل من هذا الجار يبدو و كأنّه من أولئك الكتاب غريبي الأطوار، أو ممثل كوميدي ساخر عوض كونه و ببساطة شخص يستشهد بقول مبتذل. مرة أخرى، تتوقف مسألة ما إذا كانت مثل هذه الانطباعات مقبولة من عدمها على السياق وحده.

و ثمة خيار أقل أسلوبية يكمن في إعادة صياغة تفسيرية (an exegetic paraphrase) كأن نقول (It's the quiet ones you've got to watch) الذي سيكون بمثابة أكثر الحلول أماناً، كما أنّ من بين محاسنه

كونه قول معترف به غير أنّه ليس بمثل حقيقي ما سيشكل خسارة معتبرة إذا كانت أحد خصال هذا الجار البارزة قول الأمثال بانتظام. في هذه الحالة، قد يكمن الحل في إعادة صياغة منطبقة على أسلوب يحاكي الأمثال و مسبوق بجملة تفسيرية توضح بأنّ الجار بصدد الاستشهاد بمثل موجود (Remember the saying: 'water asleep is water too deep). و بما أنّه لا وجود لهذا المثل في اللغة الانجليزية، فإنّ هذه الترجمة تجمع في اللغة المنقول إليها بين إعادة الصياغة التواصلية (communicative paraphrase) (في الإشارة إلى (still waters run deep)؛ و التفسير (exegesis) (في (Remember the saying) و خاصة في ظرف الحال (too) الذي يصور الخطر المحدق و المعبر عنه في المثل في اللغة المنقول منها بـ (pire))؛ و مسحة غرابة (في المحاكاة الزائفة لأحد أمثال اللغة المنقول منها).

يقر هارفي Hervey و هيكنز Higgins بأنّ المترجمين أنفسهم يحتاجون إلى الإبحار في مياه نص اللغة المنقول منها بحيطة و حذر، ليستنتجا –كما جرت عليه العادة دائماً مع منظرين كثر– أنّ السياق و استراتيجية الترجمة هما وحدهما اللّذان يحددان القرار الترجمي الأول و الأخير.

سيكون هذا النموذج الذي اقترحه كل من هارفي Hervey و هيكنز Higgins، و خصاّ به كيفية التعامل مع أسماء العلم في الترجمة، و طرائق نقلها المتفاوتة ثقافياً ذو أهمية قصوى فقط إن نحن مارسناه نظرياً و عملياً، و بشكل جامع و مانع على كل المسائل الثقافية الأخرى و ليس على أسماء العلم فحسب، ذلك لأنّ أسماء العلم وثيقة الصلة بالروافد الثقافية التي تدخل في تشكيلها من عادات و تقاليد و تاريخ و جغرافية، و هو ما سيعتبر بمثابة عملية استحضار جميع المكونات الثقافية، الأساسية منها و الثانوية، المائزة لمجموعة بشرية معينة و الغالبة على وسط اجتماعي ما.

و ثمة العديد من استراتيجيات التوصيل الثقافي التي عكف منظرو الترجمة على شرح ماهيتها و تبيان طرق توظيفها في السياقات الثقافية كافة، لكننا سنخص بالدراسة بعض هذه الاستراتيجيات فقط، بحيث ركزّنا على مدى أهميتها ثم على صنفها في كونها استراتيجيات شمولية (global strategies) قد تشتمل على أخرى موضعية (local strategies)؛ لكن السبب الأهم يكمن بالأساس في أنّها الاستراتيجيات الترجمية التي تتماشى مع موضوع دراستنا و متطلباته النظرية و الإجرائية. لتكون الاستراتيجيات التي ستعنى بالدراسة هي: التكييف (adaptation)، و التمركز العرقي (ethnocentrism)، و التهجير/العصرنة (archaization/modernization).

1. التكييف (adaptation)

يعد مفهوم (التكييف) (l'adaptation-adaptation) في الترجمة من بين المفاهيم التي لاقت اهتماماً كبيراً من لدن الباحثين، و مرد ذلك هو أنّ هذا المفهوم يتعامل مع البعد الثقافي الذي يشكل العائق الأكبر بالنسبة لكل مترجم، كما

أنّه يجمع –مثله في ذلك مثل التكافؤ (l'equivalence-equivalence)– بين ملكة المترجم اللغوية و ملكته الميتالغوية، أي في مدى معرفته بالخلفيتين المترجم منها و المترجم إليها. و يعرف مفهوم (التكييف) (adaptation) أيضاً تداول العديد من الترجمات في اللغة العربية للكلمتين الأجنبيتين (l'adaptation-adaptation): التكييف و التصرف و الاقتباس و الأقلمة و الملاءمة و التطويع، و ربما غيرها كثير. و من بين الترجمات المتواترة لفظة (اقتباس) من (قبس)، بحيث ورد في معاجم اللغة العربية أنّ "قبس: (أخذ شعلة من النار، قبس قبساً من العلم: تعلمه و استفاده، و قبس فلاناً العلم: علمه إياه و اقتبس، قبس: تعلم و استفاد[68] و في معاجم اللغة الانجليزية قبس too abtain اقتبس عبارة نقلها to quate; excerpt و اقتباس quotation[69]"[1].

أما عن المعنى الدلالي للفظة (اقتباس)، فيقول مجدي وهبة أنّها عرفت "منذ أن تداولتها الأقلام العربية عدة معان ضاق بعضها أحياناً، فدل على "إدخال المؤلف كلاماً ما منسوباً للغير في نصه بقصد التحلية أو الاستدلال[70] وفق شروط معينة، بصفة عامة، أو على تضمين الكلام، نثراً كان أو شعراً، شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف مع السماح بقليل من التغيير فيهما في البديع العربي بصفة خاصة"[71]، "و اتسع بعضها ليدل على الإعداد و التهيئة أي على إعادة سبك عمل فني لكي يتفق مع وسيط فني آخر و ذلك لتحويل المسرحية إلى فيلم أو القصة إلى مسرحية[72]"[2].

و يتطابق هذا المعنى الأخير مع النوع الثالث في التصنيف الترجمي الذي اقترحه رومان جاكبسون Roman Jakobson، بحيث يسمي النوع الأول بالترجمة ضمن اللغة الواحدة (intralingual translation) التي تعني إعادة صياغة مفردات مرسلة ما في إطار اللغة نفسها. و يسمى النوع الثاني بالترجمة من لغة إلى أخرى (interlingual translation) التي تعني أن ننقل إشارات لفظية للغة ما بما يقابلها من إشارات لفظية في لغة أخرى. أما النوع الثالث فيسمى بالترجمة من علامة إلى أخرى (intersemiotic translation)، و هي نقل مرسلة من نوع معيّن من النظم الرمزية إلى نوع آخر دون أن تصاحبها إشارات لفظية بحيث يفهمها الجميع. و مثال ذلك لجوء أفراد البحرية الأمريكية إلى تحويل مرسلة لفظية إلى مرسلة يتم إبلاغها عن طريق رفع الأعلام المناسبة[3].

يمكننا بذلك إقرار معنيين يدور في فلكهما مفهوم التكييف عامة: يتصل المعنى الأول حصرياً بفكرة الاقتباس، و هو يتقاطع مع النوع الترجمي الخاص بتحويل مرسلة ما إلى لوحة مرسومة أو فيلم أو موسيقى، أي ما معناه الاشتغال على الرموز و تبديلها وفق الوسيط الفني أو البعد الجمالي الذي نبتغيه، كما أنّ هذا المفهوم لا يقتصر على الترجمة فقط بل

([1])أبو الحسن عبد الحميد سلام، حيرة النص المسرحي بين الترجمة، الاقتباس و الإعداد و التأليف، مركز الإسكندرية للكتاب، ط2، 1414هـ-1993م، ص59.

([2])م ن، ص59.

([3])ينظر محمد حسن يوسف، كيف نترجم؟ دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1 أغسطس 1997/ط2 أبريل 2006، ص46.

يتجاوزها إلى ممارسات أخرى. أما المعنى الثاني فيرتبط بشكل وطيد بالفعل الترجمي، و يكمن بالأساس في محاولة تجاوز الصعاب ذات النوع الثقافي أو السوسيوثقافي عند الانتقال من لغة إلى أخرى، أي بذلك الذي يندرج ضمن النوع الترجمي الثاني (interlingual translation). كما أنّ هذا المعنى حكر على الترجمة لوحدها دون أن تشترك فيه مع غيرها من الممارسات.

إنّ الترجمة بالنسبة لفيني و داربلنيه Vinay et Darbelnet إما مباشرة أو غير مباشرة (ملتوية)، إذ يدخل (التكييف) (adaptation) بوصفه إجراء ترجمي ضمن النوع غير المباشر (أو الملتوي). و يعتبر (التطويع) (modulation) بالنسبة لهما ذلك الإجراء الترجمي الذي نقوم من خلاله بتبديل وجهة نظر ما، لكن لو تمعّنا في مفهوم (التطويع) لديهما لوجدنا (التكافؤ) (equivalence) الذي يسعى المترجم من خلاله إلى البحث عن الموقف الأصلي نفسه باللجوء إلى صياغة مختلفة تماماً[*]، و (التكييف) (adaptation) الذي يعنى بتوظيف تكافؤ متعارف عليه بين موقفين يندرجان ضمن المنظور نفسه.

يقول جورج ل. باستين Georges L. Bastin إنّ الأدب الترجمي منذ زمن القديس جيروم إلى يومنا هذا ليعّج بالكتابات حول التكييف. لكن التاريخ لم يرحم المترجمين الذين اعتمدوا على استراتيجية التكييف في ترجماتهم، بحيث تنعت هذه الترجمات أحياناً بأنّها تقليد لناسخ، و أحياناً بأنّها تشويهات من قبل مزوّر، ليظهر التكييف و بشكل دائم

([*])يلجأ المترجم إلى (التكافؤ) (equivalence) عند نقل مختلف الصيغ الثابتة و الكلام الجامع و الأقوال المأثورة من أمثال و حكم و تعابير جاهزة و عبارات اصطلاحية و إكليشيهات التي لا يمكن نقلها حرفياً. و يعتبر ويلس Wilss بأنّ التكافؤ استبدال وضعية في اللغة المنقول منها بوضعية ثانية مشابهة في اللغة المنقول إليها (يعطي فيني و داربلنيه هنا مثال الهاوي الذي يدق مسماراً فيصيب إصبعه: إن كان فرنسياً فسيقول 'Aie' و إن كان انجليزياً فسيقول 'Ouch'). و ترى هلال بأنّ التكافؤ ما هو إلا تطويع مطول في بنية الجملة، فالتطويع تضميني أما التكافؤ فهو شامل.

يكون التعبير عن الموقف نفسه باستعمال وسائل أسلوبية و تراكيبية مختلفة خاصة بكل لغة. كما أنّ التكافؤ يعمل على المعنى الاجمالي للمرسلة، و لذلك غالباً ما تأتي النصوص المتكافئة على شكل صيغ ثابتة (unités phraseologiques) تتم ترجمتها كوحدة لا تتجزأ.

لا يقوم (التكافؤ) (equivalence) بالتالي على نقل الكلم، بل السعي لايجاد الموقف نفسه في اللغة المنقول إليها. و يرى فيني و داربلنيه أنّ التكافؤ يرتكز على المعرفة التامة باللغتين المنقول منها و المنقول إليها، بحيث يترك تحليل الوحدات الترجمية جانباً و يوجّه الإهتمام نحو معالجة الوضعيتين معاً. و من بين الأمثلة على ذلك: actions speak louder than words/السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد و اللعب؛ east or west, home is the best/وطني لوشغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي؛ ce qui nuit à l'un duit à l'autre/مصائب قوم عند قوم فوائد؛ birds of a feather flock together/وافق شنّ طبقة؛ too many cooks spoil the broth/deux patrons font chavirer la barque؛ comme un éléphant dans un magasin de porcelaine/كالبعير في سوق الحرير.

و ثمة العديد من الأمثلة على التكافؤ في الوضعيات أنتجت مجموعة من العبارات التي قد يقل أو يعظم النظر إليها على أنّها أقوال مأثورة، إذ لا تعتبر في الحقيقة سوى مجموعة من العبارات المترادفة (expressions synonymiques). بل حتى على المستوى اللغوي نفسه، فعبارة (dès le lever du soleil) تتناسب مع عبارة (dès le chant du coq)، و عبارة (il fait un froid sibérien) مع عبارة (il fait froid à pierre fendre)، و (il est de mauvaise humeur) مع (il s'est levé du pied gauche).

(ينظر: إنعام بيوض، الترجمة الأدبية مشاكل و حلول، دار الفرابي، الجزائر، 2004، ص ص104-107؛

Momar Khary Diagne, De l'équivalence à la traduction, Meta, vol. 16, n° 3, 1971, p153).

على أنّه تقليل من الاحترام، أو حتى خيانة أو جريمة.

يتساءل باستين Bastin عن عدد الترجمات المكيّفة التي قام بها كل مترجم، و ما هي الخطوات المتبعة في ذلك، و متى وجب عليه التكييف، و بالأخص ما الذي سيكون موضوع تكييفه. انطلاقاً من هذه التساؤلات التي طرحت نفسها بإلحاح، تبلورت لدى باستين Bastin فكرة إنجاز أطروحة تهدف إلى الإحاطة بهذا المفهوم من كل الجوانب.

إنّ تجربة باستين Bastin المتميّزة مع التكييف قد أبانت عن فرضيات ثلاث: الأولى إنّ التكييف إعادة ابتداع (re-création)، و الثانية إنّه أمر حتمي، و الثالثة إمكانية رسم خط فاصل بين الترجمة و التكييف[1].

لا شك في أنّ التكييف يعتبر قبل كل شيء طريقة لنقل كل ما هو متعذر (intraduisible). و الأمثلة الأكثر وضوحاً و شيوعاً على ذلك قد تعنى بالمسائل اللغوية، و التلاعبات الجناسية بالألفاظ، و الخطاب اتجاه اللغة و خصائصه[*]، و الصعاب التي يطرحها و الأخطاء التي قد يفضي إليها، و التي تعتبر بامتياز أكثر المسائل ملائمة لإثارة مخيال و مهارة الكتابة لدى المترجم. بيدأنّ أحدق المترجمين و أوسعهم مخيالاً قد يقف عاجزاً أمام نقل و تصوير حالة ثقافية من لغة إلى أخرى. كما أنّ منظروا الترجمة دائماً ما يشيرون إلى التكييف عند حديثهم عن الحلول الممكنة لتجاوز الصعاب الخاصة بنقل الشحنة الثقافية للنص في اللغة المنقول منها نحو النص في اللغة المنقول إليها. و لكن هل يبقى التكييف محصوراً على الثقافة وحدها في الترجمة أم يتجاوز ذلك إلى اللغة؟

يتحدث ج.س كاتفورد J.C Catford عن تعذر الترجمة الثقافية، و هو مشكل يظهر عند انعدام وجود سمة تخص الموقف (la situation) في النص المصدر الوثيقة الصلة بالجانب الوظيفي في الثقافة المستقبلة. يكون الحل عندها بحسب كاتفورد –بإستثناء الإقتراض المباشر المصحوب بهوامش شارحة– تعويض المفردة التي يتعذر ترجمتها بأخرى أكثر شيوعاً. غير أنّ كاتفورد يتساءل ما إذا كان تعذر نقل المعطيات الثقافية في جوهره ليس سوى تعذر ترجمي من النوع اللساني.

و يذكر بيتر نيومارك Peter Newmark أيضاً التكييف ضمن طرائق الترجمة، بحيث يعتبره أكثر الأنماط الترجمية حرية (the freest form of translation)، إذ يوظف بالخصوص في المسرحيات (الكوميديات) و في الشعر، بحيث يتم الاحتفاظ بالمواضيع و الشخوص، و تبدّل الثقافة المخبرة بالثقافة المخبر عنها، و بهذا نعيد اختلاق النص من جديد.

أما موريس برنييه Mourice Pergnier فيربط التكييف بمشكل التعذر الترجمي النسبي، و سبب ذلك في نظره اختلاف

([1])voir Georges L. Bastin, La notion d'adaptation en traduction, Meta, vol.38, n°3, 1993, p473.

([*])بالنسبة للمفردات التي تنمي إلى سجلات و مستويات اللغة المختلفة، و بالنظر إلى عدم تطابق التنوعات السوسيوموقفية للغة، و بسبب أنّه على الرغم من كون مفردتين تنتميان إلى نفس المستوى اللغوي إلاّ أنّهما ليستا بهذا القدر قابلتين للتعويض المتبادل، فإنّه يمكننا أن نميّز بين حالات التداخلات الخطابية التالية: حسب الفوارق الاجتماعية بين المتكلمين (diastratique)، و حسب السيرورة الزمنية (diachronique)، و حسب المكان (الجغرافية) (diatopique)، و حسب السجل اللغوي أو التوظيف الأسلوبي الذي يلجأ إليه المتكلمون في الحالة التواصلية (diaphasique).

(Mioara Codleanu, l'adaptation: difficultés de delimitation d'un concept, Ovidius University Annals of Philology, Vol.XIII, N° 57-67, 2002, p63-64).

المجموعات اللسانية في تسمية العوالم الاجتماعية و الفيزيائية. و يطرح هذا التعذر الترجمي مشكل تكييف المرسلة لمستقبل الترجمة. يعتبر التكييف بالنسبة لبرنييه Pergnier تبني كلمة أو عبارة تحيل إلى الحالة الأكثر تماثلاً في اللغة المنقول إليها. يمكننا الجزم إذن بأنّ آلية التكييف عنده مشابهة لتلك التي جاء بها فيني، و يبقى الإختلاف فقط في أنّه عوض الموقف (situation) يتحدث برنييه عن شيء منعدم الوجود في الثقافة المستقبلة، بحيث ثمة هوة يجب جسرها على المستويين الإحالي و التعبيري. كما أنّ تكييف أي مرسلة يمكن أن يعرف، في نظره، درجات مختلفة بحسب مستوى تقاسم الموقف. إنّ عدم تقسيم الواقع بالطريقة نفسها من قبل المنتسبين إلى الجماعات اللغوية المختلفة سببه الأول إختلاف ثقافاتهم و إختلاف ألسنتهم أيضاً. هنا يوظف التكييف أحياناً لتجاوز الصعاب اللغوية البحتة، أي في كل مرة يوجد في اللغة المنقول إليها ثغرة معجمية ناجمة عن غياب سمة خصيصة واحدة على الأقل ذات الطبيعة السوسيوثقافية. يمكن بالتالي لاستراتيجية التكييف أن تنصّب الحواجز غير لسانية للترجمة على نحو لافت للانتباه[1]. و ما يزكي هذا الطرح هو مبدأ الخسارة في الترجمة (entropie) الذي شدّد عليه المنظرون جلّهم. بيدأنّ ما يسترعي الانتباه هنا إمكانية أن يقلل المترجم من حجم أي خسارة لغوية بإضافة بعض الأدوات و الحروف التي من شأنها أن تخفف كثيراً من وطأة فقدان المعنى و تسربه من هنا و هناك. لكن المعظلة تبقى دائماً و أبداً في خسارة المعطى الثقافي جزئه أو كله الذي لا يتم المعنى إلا به و لا يترك للمترجم في الغالب أي بد سوى حتمية التعويض في النص الهدف. و هو ما سيدفعنا إلى القول بأنّه بغية إعطاء تعريف كاف و واف للتكييف في الترجمة، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار عاملين إثنين: العامل السوسيوثقافي، أي التنوع على المستوى الإحالي، و العامل اللساني أين يتم التعبير عن هذا التنوع[2]. و بحضور هاذين العاملين، يتأكد بأنّ التكييف نمط من أنماط التواصل. إنّ تكييف مرسلة ما معناه –ضمن هذا التصور– أن تحوّل في شكل يجعلها سهلة بالنسبة للمتلقي. بمعنى آخر، تعيق الشحنة الثقافية عملية التواصل فيوظف التكييف لترجمة المعطيات السوسيوثقافية التي نريد توصيلها. و قد يحدث أن يحوّل المترجم نص اللغة المنقول منها، و يكون ذلك بصفة عامة لأهداف تجارية؛ عندما لا يكون الجمهور متحمساً للأمانة اتجاه النص المصدر، و عندما يكون من الضروري تكييف العمل الأدبي وفق المتطلبات الثقافية للبلد الذي ستنشر فيه الترجمة. و يتعلق الأمر في الكثير من الأحيان بالقصص البوليسية الأكثر مبيعاً، و الرويات الغرامية، و الكتب الخلاعية المخففة.

يقوم المترجم من خلال التكييف بالعمل على تغيير محتوى و شكل النص المصدر بطريقة تتماشى و الأعراف اللغوية و الثقافية للجماعة التي نترجم لها. و توظف هذه الاستراتيجية الترجمية، بشكل عام، كطريقة فعالّة للتعامل مع الكلمات

(1)Laurence Malingret, Les enjeux de l'adaptation en traduction, Écrire, traduire et représenter la fête, Universitat de València, 2001, p795. (www.uv.es/dpujante/PDF/CAP3/B/L_Malingret.pdf).
(2)voir Mioara Codleanu, op.cit, p64.

و العبارات الثقافية، و الإستعارات و الصور المجازية، بحيث يلجأ المترجم إلى إعادة تحرير نص اللغة المنقول منها وفق خصائص النص في اللغة المنقول إليها. و ترى المنظرة السورية مونيا بيار Monia Bayar أنّ استراتيجية التكييف في الترجمة ترتكز على ثلاثة اجراءات فرعية هي (الاستبدال الثقافي) (cultural substitution) و (إعادة الصياغة) (paraphrase) و (الحذف) (omission)[1].

يتمثل (الاستبدال الثقافي) في الإشارة إلى كلمات مكافئة تكون جاهزة في اللغة المنقول إليها التي تفي بالغرض نفسه، أي أنّ المترجم يستبدل الكلمات الثقافية في اللغة المنقول منها بأخرى تنتمي إلى اللغة المنقول إليها. و كمثال على ذلك، عبارة (tel père, tel fils) في اللغة الفرنسية و ترجمتها العربية (هذا الشبل من ذاك الأسد)، بحيث استبدلت الكلمتين الفرنسيتين (père) و (fils) بالكلمتين (الشبل) و (الأسد)[2]. و على الرغم من أنّ الترجمة هنا اعتمدت على أسلوب التكافؤ (l'équivalence) لنقل الحكمة الفرنسية، إلاّ أنّه ثمة تغيير في الترميز عند الانتقال إلى اللغة العربية، و هو الانتقال الذي ينبغي أن يراعي أيضاً الخلفية الثقافية للجمهور المستقبل للترجمة. فالعبارة الانجليزية (she is innocent as an egg) لا ينبغي أن تترجم إلى اللغة الفرنسية بـ (elle innocente comme un œuf) بل بـ (elle innocente comme un agneau)، لأنّ كلمة (œuf) الفرنسية تحمل دلالة حافة مشينة، إذ توحي بالحماقة و البلاهة كما في قولنا (ne fait pas l'œuf) أي (ne fait pas l'imbécile)[3]، و هو ما يعني أنّ كلمة (egg) (بيضة) في اللغة الانجليزية و كلمة (agneau) (حمل) في اللغة الفرنسية تشكلان حالة من التكافؤ الثقافي تتحقق بموجبه المقصدية الشمولية للمرسلة. مع ذلك، إن عجز المترجم على ايجاد عبارة ثقافية خصيصة التي قد تستبدل بها عبارة اللغة المنقول منها، وجب عليه حينها اللجوء إلى (إعادة الصياغة) (paraphrase).

يهدف هذا الإجراء الفرعي الثاني إلى تخطي الحواجز الثقافية التي قد يفرضها النص المصدر، و هو إجراء يعتمد على الشروحات (explanations) و (الإضافات) (additions) و تغيير مواضع الكلم (change in words order)[4]. فمثلاً إن نحن أردنا نقل العبارة الانجليزية (he is a ship without compass) التي تحمل معنى مجازي إلى اللغة العربية، فسنجد أنّه لا وجود لعبارة تكافئها (ship=سفينة و compass=بوصلة). سنقوم إذن بإعادة صياغة معنى هذا المقول بجملة تشرح ماهيته كقولنا مثلاً

(1)see Marouane Zakhir et al, op.cit, p118. (Monia Bayar, To Mean or Not to Mean, Kadamous cultural foundation, khatawat for publishing and distribution, Damascus, Syria, 2007, p67-68).
(2)Ibid, p118.
(3)Ibid. (Edith Harding & Philip Riley, The Bilingual Family: A Handbook for parents, Cambridge University Press, 1986, p57).
(4)Idem.

(إنّه يعيش في عالم من الضياع لا موجه له فيه)[1].

لا توظف (إعادة الصياغة) (paraphrase) في نقل النصوص الثقافية فحسب، بل أيضاً في النصوص التي كتبت بأسلوب سمج و في تلك التي يجهل مؤلفوها. كما أنّه ينبغي على المترجم أن يتفادى توظيفها في مقاطع النص كله إلاّ عند الضرورة القصوى حتى لا تجانب ترجمته الأمانة المنشودة.

أما الإجراء الفرعي الثالث فيتمثل في (الحذف) (omission)، و هو أن نسقط كلمة أو كلمات من النص في اللغة المنقول منها أثناء الترجمة. يمكن أن يأتي توظيف هذا الإجراء الترجمي كنتيجة مباشرة لصراع الثقافات (cultural clashes) القائم بين اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، كما أنّ توظيفه يبلغ الذروة في الترجمة السينيماتوغرافية من (سترجة) (subtitling) و (دبلجة) (dubbing). و قد يحذف المترجم الكلمات التي لا تتوفر على مكافئات في النص الهدف، أو تلك التي قد تثير ردة فعل المتلقي السلبية. و من الأمثلة على ذلك لجوء المترجمين العرب في الغالب إلى حذف الكلمات الانجليزية المتعلقة بالطابوهات (taboos) مثل (fuck off) و (shit) عند الاشتغال على الأفلام حرصاً منهم على احترام المتلقي العربي الذي لا تسمح ثقافته بذلك[*].

تعرض ماري سنيل-هورنبي Mary Snell-Hornby مقالة لكل من فيرونيكا سميث Veronica Smith و كريستين كلاين-برايلي Christine Klein-Braley تدعمان فيها توظيف التكييف الذي يقتضي نوعاً من (التعديل التكتيكي) (tactical adjustment) بغية تلبية احتياجات الجمهور و تطلعاته[2]. و تشاطرهما كريستينا شافنر Christina Schaffner الرأي ذاته من منطلق أنّ ما يلائم مجموعة ما ثقافياً لا يلائم بالضرورة المجموعة الأخرى[3]، و هي بمثابة الحقيقة الكونية المترسخة التي لا يجرأ على تكذيبها أي أحد.

([1])see Marouane Zakhir et al, op.cit, p118.

([*])من الأمثلة أيضاً: (to go to the bar to burry one's sorrows) التي لا يمكننا ترجمتها حرفياً إلى اللغة العربية بقولنا (يذهب الواحد منا إلى الحانة ليدفن أحزانه) لتعارضها مع مبادئ ديننا الحنيف، فنلجأ إذن إلى استبدال ثقافي (cultural substitution) و نقول (يذهب الواحد منا إلى الملهى ليروح عن نفسه) (حانة/ملهى- ليدفن أحزانه/ليروح عن نفسه). و كذلك عبارة (hell knows) التي يوظفها الانجليزي للتعبير عن جهله بالشيء أو جهل غيره به. و إن نحن ترجمناها حرفياً بـ (الجحيم تعرف) فلن يفهم منها القارئ شيئاً، و عليه نلجأ إلى استبدال ثقافي آخر ذو بعد ديني و نقول (الله أعلم) أو (علمه (ها) عند الله). و الشيء نفسه ينطبق على عبارة (son of bitch)، بحيث أنّ كل نقل حرفي لها سينظر إليه بأنّه تعد سافر على خلفية القارئ العربي المحافظ و المتشبع بأخلاق الدين الإسلامي، كما أنّه سيشكل خدشاً للحياء (يا ابن السافلة/يا ابن الساقطة/يا ابن العاهرة). سنقوم هنا بالبحث عن أقصى عبارات التقريع في اللغة العربية، كأن نقول (سوّد الله وجهك)، و هي ترجمة تجمع بين الاستبدال الثقافي و إعادة الصياغة و الحذف. و عبارة (as smooth as body's bottom) التي تخدش الحياء أيضاً (أملس كطرف الجسم السفلي)، بحيث و تفادياً لذلك نلجأ إلى استبدال (body's bottom) ثقافياً بـ (راحة اليد) و نقول (أملس/أنعم من راحة اليد).

([2])Mary Snell-Hornby et al, Translation as Intercultural Communication: Selected Papers from The EST Congress, Prague, John Benjamin Publishing, Amsterdam and Philadelphia, 1995, p182-183.

([3])see Christina Schaffner, Translation in the Global Village: Current Issues in Language and Society, Multilingual Matters, UK, 2000, pp333-336.

و قد تطرق باسل حاتم Basil Hatim إلى (التعديل) (adjustment)[*] الذي يشتمل على بعض التقنيات مثل الإضافة (addition) و الحذف (omission) و الاستبدال الثقافي (cultural substitution)[1]، و هي التقنيات التي من شأنها توضيح ما أشكل من المعاني حتى يفهم. كما يؤكد لورن بلوم Lauren Blum على حاجة المترجم لأن يزيد في ترجمته كلّما كان من العسر الحصول على ترجمة حرفية دقيقة[2].

هناك من المنظرين من يعتبر أنّ كلمة (التكييف) (adaptation) مرادفة لكلمة (localization)[**] (التحويل إلى مواصفات محلية). يشدّد ماثيو غيدر Mathieu Guidère بهذا الخصوص على الخلاف الموجود بين استراتيجيتين متعارضتين توظفان لنقل الخطابات الإشهارية، بما في ذلك لوائح الطعام (menus): (التدويل) (internationalization) (أو التقييس أو المقايسة standardization)؛ و (التكييف) (adaptation) (أو التحويل إلى مواصفات محلية localization)[3] التي تتطلب من المترجم توخي الحذر بشأن المعايير الاجتماعية و الدينية و الأخلاقية حين تعامله مع مكنونات النص اللغوية و التصويرية. فعلى سبيل المثال، ثمة ميل اتجاه الترجمة التقييسية (standardized translation) لدى الكثير من المترجمين عند نقلهم للوائح الطعام (food menus)، غير أنّ بعض المنظرين ينتقدون التقييس الكلي و ينادون بإقامة توازن بين الاستراتيجيتين. و السبب هو أنّ التقييس

(*)Jeremy Munday defines (adjustment) as to be:
« A translation technique relating to textual units smaller than a whole text. Suggested by Nida (1964) as a means of creating **equivalence** in translation, this technique can affect textual units at three levels: morphology/syntax, lexis and message (by which he understands the entire meaning of a text, i.e. the ideas and feelings the ST author wants to communicate). Adjustment ensures semantically and stylistically correct TL equivalents as well as **dynamic equivalence**. Though a variety of terms is in use to describe adjustment, three main types can be identified: (1) *addition* (information that is not specified in the ST is inserted into the TT), (2) *subtraction* (information in the ST is omitted in the TT), and (3) *alteration* (changes are required when SL and TL exhibit different semantic and grammatical structures) ».
(The Routledge Companion to Translation Studies, Revised Edition, Edited by Jeremy Munday, Routledge, London and New york, 2009, p167 (Key Concepts)).

(1)Basil Hatim, Teaching and Researching Translations, Pearson Education Limited, London, 2001, p19-20.

(2)see Lauren Blum et al, Community Assessment of Natural Food Sources of Vitamin A: Guidelines for an Ethnographic Protocol, IDRC, Canada, 1997, p82.

(**)This term is derived from (locale) which, according to Jeremy Munday, "refers to the geographical region and language in which a text operates. Thus, France and Québec are different locales. In localization, the requirements of the target locale determine the translation strategy employed". Besides, (localization) is concerned with "the adaptation of a product or website to the linguistic and cultural expectations of the target **locale**. In the translation industry 'localization' is distinct from, but may encompass, translation".
(The Routledge Companion to Translation Studies, Ibid, p205).

(3)Mathieu Guidère, The Translation of Advertisements: From Adaptation to Localization, Retrieved on 19 October 2010 (http://www.perso-univ-lyon2.fr/-mguidère).

(standardization) سلاح ذو حدين بما أنّه يشتمل على آثار سلبية و أخرى ايجابية، بحيث يزيل الغموض و الترجمات المظلّلة و لكنه في المقابل يبعّد الدلالات الحافة الثرية.

يكون توظيف التكييف بالنسبة لكل من مارك شتلورث Mark Shuttleworth و مويرا كووي Moira Cowie لغرضين: إما لجعل النص أكثر ملائمة بالنسبة لجمهور خاص (كالأطفال مثلاً)، أو لقصد معيّن نبتغيه من وراء الترجمة[1]. لكننا نحتاج إلى التكييف أيضاً و في الكثير من الأحيان لكبح جماح المسائل ذات البعد الثقافي خاصة ما ارتبط منها بالدين و الأيديولوجيا و العرف و العادات و التقاليد و طرائق المعيش و أنماط التفكير. إنّ كل هذه المقاصد مجتمعة لا تغيّر من حقيقة أنّ ما من تكييف إلا و يفترض ضمناً حدوث تغييرات جمة على النص المصدر خدمة لأي من هذه المرامي، و هو ما يدعم الرأي القائل بأنّ تكييف مرسلة ما ليس في الحقيقة سوى تبني استراتيجية الترجمة الحرة. يعطي فيني و داربلنيه[2] المثال التالي: (he kissed his daughter on the mouth)، و بنقله إلى اللغة الفرنسية[3] سنحصل على (il embrassa sa fille sur la bouche). لا تحاكي الجملة الانجليزية، في الواقع، إلا نفسها لأنّها تعبر عن معطى ثقافي لا تتوفر عليه اللغة الفرنسية، إذ يعتبر تقبيل الأب لابنته على ثغرها من السلوكات المبتذلة لدى الانجليز خاصة و أنّ الأمر يتعلق برب عائلة صالح كان في رحلة طويلة ثم عاد إلى بيته[4]. لن تخدم هذه الترجمة الفرنسية الغرض التواصلي الذي أراده صاحب المرسلة، و ستدفع بالمترجم إلى ابتداع حل عبقري يبلّغ به المقصدية. و إن نحن نقلنا هذه الجملة إلى اللغة العربية بـ (قبل ابنته على ثغرها) فسنحصل على مقال سليم المبنى و المعنى لكنه يصوّر بعداً ثقافياً يحمل من الغرائبية الشيء الكثير، و الذي سينفّر منه كل قارئ عربي هذا إن انفلتت ترجمة كهاته من رقابة المترجم الذاتية (self-censorship) و من حزم دور النشر إن كانت معدة لذلك. يكون الحل الأوحد عندها بالجوء إلى التكييف الذي سيعيد التوازن لعملية التواصل، كأن نقول (ضم ابنته إلى صدره)، و هو فعل ينم عن حب و شوق كبيرين خاصة و أنّ الموقف في اللغة المنقول منها يتحدث عن أب يعود إلى بيته بعد طول غياب. أما إذا كان الهدف الأول و الأخير هو إبراز فعل (التقبيل) (kissing) في النص الهدف فلن يعدم المترجم الحيلة لذلك، بحيث يمكنه اللجوء إلى الترجمة بتلطيف التعبير (euphemism) و ذلك باستبدال فكرة (التقبيل على الثغر) (kissing on the mouth) بـ (التقبيل على الوجنة) أو (التقبيل على الجبين). قد يقول البعض أنّه ينجم عن هذه الأخيرة خسارة ترجمية (une entropie) لأنّها لا تصوّر لهفة لقاء الأب بابنته. يبقى الحل الأمثل إذن في قوله (طبع ابنته بقبلة على وجنتها (أو وجنتيها))،

(1)see Mark Shuttleworth & Moira Cowie, op.cit, p03.
(2)Jean Paul Vinay & Jean Darbelnet, Stylistique comparée du français et de l'anglais, Méthode de traduction, Didier, Paris, 1977, p53.
(3)Ibid, p53.
(4)Idem.

و بها يتحقق الفعل الرئيس في الجملة الانجليزية (to kiss) من دون أن تستفز الترجمة القارئ المقصود إن كان عربياً[*].

بإمكاننا الجزم قائلين أنّه ثمة سمة مائزة بين التكافؤ (equivalence) و التكييف (adaptation) بوصفهما إجرائين ترجميين، و هي أنّ الأول يرتكز بالأساس على البحث عن الموقف نفسه في اللغة المنقول منها و محاكاة أبعاده الخطابية و الذرائعية، في حين أن الثاني لا يستلزم من المترجم البحث عن الموقف نفسه لأنّه موجود سلفاً غير أنّه يحتاج فقط إلى إعادة تشكيل حتى يتماشى و أفق انتظار القارئ المستقبل للترجمة. بيدأنّ هناك خاصية يشترك فيها الإجرائين معاً، و هي أنّ المترجم لا يهتم لأمر اللغة، أي لتلك الطريقة التي نقوم من خلالها ببناء المرسلة الهدف، و ما هي الأنماط اللغوية التي توظف لذلك (نوع المفردات، درجة اصطلاحية التعابير (idiomaticité)، طبيعة العلاقات النحوية و الأسلوبية التي تربط بينها...) ما دام أنّ ذلك كله لا يعيق بأي شكل من الأشكال الغرض الأول لكل منهما.

إنّ الانتباه إلى ماهية الجمهور المستقبل لأي ترجمة لمن المسائل الضرورية بل و الحتمية أيضاً. تقول كتارينا رايس Katharina Reiss في هذا الصدد أننا حين نترجم كتاب أطفال فسيكون لجمهور طبيعي هم الأطفال، و هو ما يمثل معياراً للحكم على ترجمة كهاته[1]، أي نقدها. لكننا حين نترجم للطفولة أو للشباب رواية مستقاة من الأدب العالمي مثل (دون كيشوت) (Don Quichotte)، أو (رحلات جوليفر) (Les Voyages de Gulliver)، و (روبنسون كروزو) (Robinson Crusoé)، أو (مغامرات بينوكيو) (Les Aventures de Pinocchio) فسنقوم بتعديل النص المصدر بطريقة تجعله في متناول الجمهور المستهدف. سيكون من الجدير في هذه الحالة الحديث عن تكييف، عن نسخة معدلة (une version remaniée) التي سيقل فيها أو يعظم ابتعاد المترجم عن مضمون أو شكل النص المصدر[2]. إنّه لأمر بديهي أنّ يرتبط مثل هذا النقل بالترجمة على الرغم من أنّ النص المصدر تكبد في هذه الحالة تدخلات هائلة[**] قبل أن يتم وضع النسخة الهدف. لم يعد نتاج هكذا عملية ترجمة بالمعنى الحرفي (stricto sensu).

و عليه، ينبغي على الناقد بحسب رايس Reiss أن يعلّق على العمل بمعايير و فئات نقد الترجمة الاعتيادية. و بغية إصدار حكم موضوعي و حصيف، وجب عليه قبل كل شيء معاينة ما إذا كانت هذه النسخة المكيّفة تشغل الوظيفة

([*])الشيء نفسه ينطبق على اللغة الفرنسية، إذ بغية رتق الفتق التواصلي بإمكاننا ترجمتها بـ (il serra tendrement sa fille dans ses bras). تحاكي هذه الترجمة الجملة العربية في تصويرها لمشهد اللقاء، مع تبديل (صدره) بـ (ses bras). كما أنّ ظرف الحال (tendrement) يعكس مدى الحب الذي يكنّه الأب لابنته.

(voir Jean Paul Vinay & Jean Darbelnet, op.cit, p53).

([1])voir Katharina REISS, La critique des traductions, ses possibilités et ses limites, catégories et critères pour une evaluation pertinente des traductions, Traduit de l'Allemand par Catherine Bocquet, Collection « Traductologie », Artois Presses Université, 2002, p130.

([2])Ibid, p130.

([**])Elle parle de (troncations, omissions, simplifications, changements de ton ou de registre, etc.) (Ibid, p131).

الخصيصة التي ألقيت على كاهلها، أي ما إذا كان النص المصدر في الحالة الراهنة قد نقل نقلاً نحترم فيه الطفل، مهما كان المعنى المتوخى من ذلك[1].

إنّ من بين الكلمات الكثيرة التي توظف للدلالة على مفهوم التكييف في اللغة الانجليزية[*] نجد الكلمة (remake) (إعادة التشكيل) التي تستخدمها أليسون غورفي Alison Gourvés عند حديثها عن الأفلام الفرنسية المكيّفة على الذوق و العادة الأمريكيين. و السبب هو التغيير الذي طرأ على النسخة الأمريكية لتلك الأفلام في الشق المتعلق بنقل المعطيات الثقافية و السمات المائزة للثقافة الفرنسية (يتعلق الأمر هنا بفيلم (Trois hommes et un couffin - Three men and a baby). تقول غورفي Gourvés أنّه ثمة حاجز ضخم يلقي بظلاله بين السينما الفرنسية و نظيرتها الهوليهودية الذي يتمثل في الترجمة و التبديلات الثقافية.

هناك مثال آخر يتعلق بتكييف (مغامرات أستريكس) (Les aventures d'Asterix) من قبل أنثيا بيل Anthéa Bell و دريك هوكريدج Derick Hockridge، بحيث تم تغيير الاستشهادات الأدبية الفرنسية أو تعويضها بأخرى لكتاب إنجليز مع الاحتفاظ بدرجة شعبية هؤلاء الكتاب. و لنا أن نتساءل كيف لتلك الاستشهادات الأدبية الانجليزية أن تتماشى و معنى الاستشهادات في النص المصدر؟ ألا يعتبر ذلك تمركزاً عرقياً مفضوح المعالم الناتج عن النظرة الاستعلائية للانجليز و تقزيمهم للفرنسيين و لغتهم؟ إن كانت الإجابة بنعم، فها نحن إذن نشهد من جديد الصراع المتجدر في تاريخ علم الترجمة بين الإمبراطورية و الترجمة، بين المستعمر و المستعمر.

إنّه لمن الصعب أن نفصل بين التكييف و الترجمة. هاذين الإجرائين يهدفان إلى إنشاء أفعال تواصلية أصلية (فيهما ابتداع في و نحو نظام لغوي و ثقافي مختلف)، و يتطلبان تأويلاً لفهمهما. كما يمكننا القول بأنّ التكييف شكل من أشكال الترجمة. يعرّف جورج ل. باستين Georges L. Bastin التكييف بأنّه ذلك الإجراء المبتدع و الحتمي الذي يهدف إلى خلق توازن تواصلي، و الذي سيفشل إن كانت هناك ترجمة فقط. أو بشكل آخر، هو ذلك الإجراء الذي يتمثل في التصريح بالمعنى بهدف إعادة إنشاء توازن تواصلي فشلت الترجمة في تحقيقه[2] (الترجمة لنا). لكننا نعلم أنّ كل من الترجمة و التكييف، مجتمعين معاً، قد يفشلان في تحقيق ذلك التوازن التواصلي، معمقان بذلك الفوارق الثقافية بين اللغتين المنقول منها و المنقول إليها.

قام تيودورا كريستيا Teodora Cristea في كتابه (contrastivité et traduction) بتسليط الضوء على مفهوم

---

(1)voir Katharina REISS, op.cit, p131.

(*)(adaptation, appropriation, recontextualization, tradaptation, spinoff, reduction, simplification, condensation, abridgement, special version, reworking, offshoot, transformation, remediation, re-vision).

(John Milton, Adaptation, in Handbook of translation studies, op.cit, p03).

(2)voir Georges L. Bastin, op.cit, p477.

التكييف في الترجمة ناهيك عن إجراءات ترجمية أخرى.إنّ التكييف في نظره تكافؤ يربط بين بنيتين ظرفيتين من وجهة نظر سوسيوثقافية، كما أنّه نقل وحدة دلالية التي تشير بصفة جلية إلى عناصر متداخلة اللغة تخص مجموعة لسانية معينة(*).

يوصف العنصر المتداخل اللغة بأنّه يحوز على مكونين فرعين: المكوّن الحضاري أين نقوم بوضع المفردات التي تشير إلى الثقافة المادية، و المكوّن الأسلوبي الوظيفي أين نجد بنى المتغيرات اللهجية.

يعمل التكييف في ماهيته –على جميع المستويات الوظيفية– بالشكل نفسه، إذ يفكك العنصر الموسوم (l'élément marqué) ذهنياً إلى سمات خاصة (des traits spécifiques)، و بالمرور بمنطقة التصورات (la zone des concepts) –التي تعتبر مستقلة عن بنى كل من اللغتين المترجم منها و المترجم إليها– سنبحث في اللغة المنقول إليها عن العنصر الذي يشتمل على أكبر عدد من السمات الدلالية المشتركة، أي عن تكافؤ تقريبي. يمكن لهذا العنصر أن يتواجد في منطقة التنوع (la zone de diversification) الخاصة باللغة المنقول إليها، أو غالباً في منطقة الأشياء الذهنية الفائقة (la zone des objets mentaux supérieurs)(1).

يمكننا التمييز بين نوعين من التكييف: التكييف الظرفي (l'adaptation ponctuelle) و التكييف الشمولي (l'adaptation globale). لا يعنى الأول إلا ببعض أجزاء الخطاب لنص ما، و يرتبط ارتباطاً مباشراً بلغة النص الأصلي. كما أنّه تكتيك (une tactique) يوظفه المترجم في حالات معينة، و يكون اللجوء إليه بمحظ الاختيار (و لو أنّه منصوح به) لأنّه ليس ذو أهمية كبيرة على أثر المعنى العام. أما النوع الثاني من التكييفات فيؤثر على النص الهدف برمته، و يتصل بفعل الكلام (acte de parole) و بالتالي يعتبر أجنبياً عن النص المصدر. يكون هذا النوع من التكييفات استراتيجياً لأنّه يعرض قبل كل شيء القصد العام للكاتب، كما أنّه ضروري لأنّ غيابه يؤدي إلى عدم نفع المؤلَف أو انقطاع التوازن التواصلي.

2. التمركز العرقي (ethnocentrism)

إنّ التمركز العرقي (أو الاستعلاء العرقي أو العرقية المركزية أو الاستعراقية) هو أن يعتقد الإنسان بأنّ أمته أو الجنس الذي

(*)Pour Teodora Cristea, l'adaptation « est le procédé de traduction indirect utilisé pour traduire une unité significative qui évoque d'une manière explicite des éléments périlinguistiques propres à une communauté linguistique ». Elle doit être conçue comme étant « un ensemble de modalités de transfert du culturel qui concernent les termes marqués du point de vue civilisationnel et les interférences discursives causées par la non correspondence des connotations variétales dans les langues mises en rapport par la traduction».
(Mioara Codleanu, Socio-cultural Specificity and Translation, Socio-culturally Charged Idioms and Cultural Equivalence, Annals of Ovidius University Constanta-Philology (Analele Stiintifice ale Universitatii Ovidius Constanta. Seria Filologie), issue: 20/2009, p17. (from the Central and Eastern European Online Library on: www.ceeol.com).

(1)voir Mioara Codleanu, l'adaptation: difficultés de delimitation d'un concept, op.cit, p66-67.

ينتمي إليه هو أحسن الأجناس و أكثرها اتساقاً مع الطبيعة، و أنّ الحكم على الآخرين يكون على أساس أنّ جماعة الفرد هي مرجع هذا الحكم إيماناً بالقيمة الفريدة و الصواب التام لهذه الجماعة، و الترفع عن الجماعات الأخرى إلى حد اعتبارها نوع من غير نوعها. و لا شك أنّ هذا التمركز العرقي يعد عاملاً هاماً في نشأة الصراعات المذهبية و التعصبية التي تنبني في جوهرها على عدم التسامح الديني و الثقافي و حتى السياسي. و يعود الفضل في نشأة هذا المصطلح إلى عالم الإجتماع الأمريكي وليام جراهام سمنر William Graham Sumner في العام 1906 الذي عرّفه على أنّه النظر إلى جماعة ما على أنّها مركز كل شيء، بحيث ترتب كل الجماعات الأخرى بعد هذه الجماعة المتمركزة عرقياً[1].

و يرى سمنر Sumner في كتابه (Folkways) أنّ (العرقية المركزية) مصطلح تقني يوظف للتعبير عن الرأي القائل بأنّ الجماعة التي ينتمي إليها الفرد هي مركز الأشياء كلها، و أنّ الجماعات الأخرى تقاس بها. و تقوم كل جماعة بتغذية كبرياءها و غرورها زاعمة بأنّها الأفضل، و تمجد آلهتها و تنظر إلى الآخرين بازدراء. كما تحسب كل جماعة بأنّ أعرافها (Folkways) هي وحدها ذات القيمة و الجودة. و يكمن السبب الرئيس وراء ذلك بحسب ليفي شتراوس Lévi-Strauss في صعوبة إدراك تنوع الثقافات و تقبله من طرف المجموعات البشرية المختلفة على الرغم من كونه ظاهرة طبيعية تولّدها العلاقات المباشرة بين المجتمعات الإنسانية[2]. و يعتبر شتراوس أن أغلبية الشعوب المسماة (البدائية) ترى بأنّ البشرية تتوقف عند حدودها العرقية أو اللغوية، و لهذا تطلق على نفسها صفة (عرقية) (ethnonyme) التي تعني بحسب الحالة (البشر الرائعون) أو (البشر الحقيقيون) عكس الأجانب الذين تُنفى عنهم سمة الكائنات البشرية المستقلة. و نجد في الجهة المقابلة أنّ المجتمعات (التاريخية) تصادف الصعوبة ذاتها في إدراك فكرة وحدة البشرية عبر التنوع الثقافي[3]. و من الأمثلة على ذلك وصف الحضارة اليونانية–الرومانية القديمة كل من لا ينتمي إليها بـ (البربري)، ليتداول الأوروبيون فيما بعد لفظة (المتوحش) تجسيداً للمعنى نفسه بغية استبعاد كل من لا ينتمي إلى الحضارة الغربية.

في تصديرهم للكتاب المقدس المنسوب إلى الملك جاك (King James version)، يقول المترجمون بأنّ الترجمة تفتح النافذة ليلج ضوء النهار، و تكسر القشرة لنتذوق الفاكهة، و تزيح الستار لنمعن النظر في أقدس مكان، و ترفع غطاء البئر لنصل إلى الماء، مثلما أزاح يعقوب الحجرة التي كانت تغطي البئر لترتوي أغنام لابان Laban[4]. أما الجاحظ فيعرض في كتابه (الحيوان) نصاً قد ينظر إليه على أنّه بيان الترجمة المطلق، بحيث يقول: "... و قد نقلت كتب الهند،

([1])ينظر هاشم حسين ناصر المحنك، موسوعة المصطلحات الإدارية و الاجتماعية و الاقتصادية و التجارية، مطبعة المساحة، القاهرة، 2008، ص240.

([2])ينظر دوني كوش، م س، ص37.

([3])م ن، ص37.

([4])ينظر أنطوان برمان، الترجمة و الحرف أو مقام البعد، ترجمة و تقديم عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، أيار (مايو) 2010، ص27.

و ترجمت حكم اليونان، و حوّلت آداب الفرس. فبعضها ازداد حسناً و بعضها ما انتقص شيئاً. و لو حوّلت حكمة العرب لبطل المعجز الذي هو الوزن، مع أنّهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعانيها و فطنهم و حكمهم. و قد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، و من لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، و كنا آخر من ورثها و نظر فيها"[1].

و الواقع أنّه منذ عصر النهضة، عكف الباحثون و الدارسون على سبر أغوار الترجمة تنظيراً و ممارسة، و تبيان دورها في نقل العلوم و توسيع دائرة المعارف و تطوير الآداب و إيقاظ الوعي و تحرير الفكر. غير أنّهم لم يدرسوا هذا الحراك الترجمي دراسة منهجية ترسم حدوده و تفسر معالمه و تكشف عن الخطوات العرفانية و اللسانية و الثقافية التي يقطعها المترجم في تجاوزه للنص المصدر إلى لغة الآخر بتسهيله و تسليسه على لسانه.

ضمن هذا الإطار، جاء كتاب (الترجمة و الحرف أو مقام البعد) للمفكر و المترجم الفرنسي أنطوان برمان Antoine Berman الذي شكلت أعماله في مجال الترجمة مرجعاً أساسياً ليس فقط بالنسبة للمهتمين بهذا الحقل، بل أيضاً بالنسبة للمفكرين و الباحثين في حقول الفلسفة و الأدب و اللسانيات و الأنثربولوجيا، ذلك لأنّ الترجمة من المنظور البرماني طاقة دفينة و منبع للاختلاق و الابتداع، و منه قابلية هذا التخصص لأن يكون فضاءاً لاستقبال الغريب و احتضانه، خاصة و أنّه أجنبي في لغته و ثقافته، لكنه أيضاً انصات و تفاعل مع الآخر دون تعنييف للغة الأم.

و لعل كتاب أنطوان برمان إنّما يبحث في بواعث الترجمة و مشكلاتها كنشاط أدبي و لغوي، و يوجز القول في انتشار اللغات الأجنبية في بلدان اللغة الأم. كما أنّه يبين عن المعوقات التي يواجهها المترجمون، و الحلول القمينة بتجاوزها من دون أن يتناسى البحث في مشكلات الترجمة نظرياً، في ضوء علم اللغة الحديث، و إجرائياً، في ضوء آراء كبار اللغويين و المترجمين العالميين، القدامى منهم و المحدثين.

اجتهد برمان في بلورة تصور مناهض للتمركز العرقي في الترجمة بغرض الحفاظ على ما اصطلح عليه تسمية (غرابة النص الأصلي). و هو يعرف الترجمة المتمركزة عرقياً (la traduction éthnocentrique) بأنّها تلك الترجمة "التي ترجع كل شيء إلى الثقافة الخاصة للمترجم و إلى معاييرها، معتبرة كل ما يخرج عن إطارها (أي كل ما هو غريب (étranger)) سلبياً، يتعين إخضاعه و تحويله إلى المساهمة في إغناء هذه الثقافة"[2]. و يورد برمان مقول شاعر فرنسي من القرن الثامن عشر إسمه كولاردو Colardeau الذي أعطى أحد أكثر التعريفات بساطة و إثارة للترجمة المتمركزة عرقياً حين قال "إذا ما كان هناك فضل في عملية الترجمة، فسيكون هو تحسين النص الأصلي، قدر الإمكان و تجميله و امتلاكه و إضفاء

([1])أنطوان برمان، م س، ص09.

([2])م ن، ص10.

نفحة وطنية عليه و تطبيع هذه النبتة الغريبة، بمعنى ما"[1]. و يبدو مثل هذا التصور للترجمة –الذي سمح بظهور (الجميلات الخائنات–les Belles infidèles) بفرنسا في القرنين السابع عشر و الثامن عشر– مهجوراً، بحيث لم نعد في زمن نحوّل فيه النصوص الأجنبية على أهوائنا مثلما فعل كوست Coste مترجم مؤلف جون لوك John Locke المعنون بـ (بحث في الفهم الإنساني) (Essai sur l'entendement humain)، الذي عوّض كلمات بأخرى مثل تعويضه لـ (كايوس) (Caius) بـ (تيتوس) (Titus) و الجوز بالمشمش، وحذف فقرة اعتبرها زائدة و مثيرة للسخرية أكثر من اللازم[2].

إنّ حديثنا عن الترجمة هو حديث عن مسألة الأمانة و الخيانة التي تؤسس للبعد الأخلاقي فيها، بحيث ينجذب المترجم نحو الدقة و الأمانة، و هو ما يعتبره برمان شغف أخلاقي أكثر من كونه أدبي أو جمالي. يتجلى هذا الفعل الأخلاقي –بخلاف الترجمة المتمركزة عرقياً– في الإعتراف بالآخر و تقبله. و يرى برمان أنّ هذا البعد الأخلاقي، الذي سماه بـ (جسدية الحرف)، متصل بالبعد الشعري الذي أسس له هنري ميشونيك Henri Meschonnic و المسمى (شعرية نحو النص)؛ بعد يسمح بإبراز أناقة و قوة النص المترجم، أي بـ (تجديد شبابه) (Verjungung) من منظور الفيلسوف غوته Goethe.

إنّ المتمعن في التوجه الترجمي البرماني ذو المتن الأخلاقي ليلحظ أنّ الطرح الذي ساقه يحاكي كثيراً واقع الترجمة المشهود، بل المنطق الذي يحكمها أيضاً، فإذا كانت الذات المترجِمة (الأنا) تلاقي عبر هذا الفضاء الرحب –من خلال مسار محدد و مضبوط، و توظيف لكل الوسائل المتاحة بغية إحقاق فعل التواصل و انجاحه– الذات المترجَمة (الآخر) التي تختلف عن الأولى شكلاً و مضموناً، فإنّه من الطبيعي أن تسعى كل واحدة إلى النهل من الأخرى كماً و كيفاً، و هو ما يشكل المطلب الأساس لكل فعل ترجمة من حيث إقامة علاقة مع الآخر (المختلف و الغريب) على المستوى المكتوب، و إخصاب الثقافة الخاصة عبر تلاقحها مع الثقافة الأجنبية. يقتضي هذا القصد في نظر برمان إلى "خلخلة البنية المتمركزة عرقياً داخل الثقافات و المجتمعات التي تريد أن تجعل من ذواتها كيانات خالصة غير ممزوجة، على اعتبار أنّ كل ثقافة تسعى إلى أن تكون مكتفية بذاتها حتى تتمكن عبر هذا الاكتفاء المتّخيل، من بسط إشعاعها و سيطرتها على الثقافات الأخرى"[3].

و بما أنّ غاية الترجمة أخلاقية في المقام الأول، فإنّها تنتمي بجدارة إلى البعد الأخلاقي، إذ ترغب من خلال ماهيتها في جعل الغريب منفتحاً كغريب على فضائه اللساني الخاص. و ينفي برمان أن تكون الترجمات عبر التاريخ قد تمت دائماً

([1])أنطوان برمان، م س، ص48.

([2])م ن، ص49.

([3])م ن، ص14.

على هذا النحو، ذلك لأنّ القصد الاستحواذي و التملكي المائز للغرب غالباً ما سعى إلى خنق الميل الأخلاقي للترجمة، فكان (منطق عين الذات) (la logique du même) هو الغالب دوماً.

و على الرغم من اعتراف أنطوان برمان Antoine Berman بصعوبة مهمة المترجم، نظراً لوضعية الترجمة غير المريحة و المشبوهة، سواء بالنسبة للجمهور المتلقي أو بالنسبة للمترجمين أنفسهم، و نظراً للمأساة التي تدور الترجمة في فلكها، و التي تعبر عن المأزق الذي يقع فيه المترجم في كونها تجربة، ذلك أنّ الترجمة تحاكي واقعاً معاشاً بحلوه و مره، بجماله و قبحه. زد على أنّ هذه التجربة بعد أن تبسط الآفاق للمترجم من خلال حله و ترحاله تدفعه إلى إمعان النظر في نفسه و في الوجود كله، ثم إلى التساءل عن ماهية هذا النقل و مقوماته، و هو ما يجعل المترجم "يكابد و يعاني التعارضات التي تتناول مجال الترجمة، مثل التعارض بين اختلاف اللغات و تشابهها و التعارض بين قابليتها للترجمة و عدم قابليتها لها و التعارض بين استرجاع المعنى و استنساخ المبنى"[1]، و بوصفها تأمل، لأنّ "الترجميات هي "تأمل الترجمة في ذاتها، انطلاقاً من طبيعتها التجريبية"[2]، و كيف أنّ الترجمة لا تستغني عن هذا التأمل المتورّع و المتدبر ذو البعد الفلسفي، بحيث يتفكر المترجم في نتاج هذا النقل و إلى ما أفضى إليه، و كيف يعقل أن يتبدل الكيان إلى كيان آخر و يتغير اللسان إلى لسان آخر من دون أن يتعارض ذلك مع الحقيقة أو أن يتضارب مع القصد الموضوعي للترجمة؛ ثم في محنة التعرف على الغريب و معضلة خدمة سيدين في الوقت نفسه التي من شأنها أن تؤثر على مردوده و جودة نقله، إلاّ أنّ برمان يمضي قدماً و يقول بصريح العبارة أنّ الترجمة الرديئة هي "تلك التي تقوم بنفي ممنهج لغرابة العمل الأجنبي، بحجة التبليغ"[3].

و أخلاقيات الترجمة عند برمان صنفان: (أخلاقيات إيجابية) و (أخلاقيات سلبية). تتمثل (الأخلاقيات الإيجابية) في "فضائل المترجم التي تتجلى فيما يبذله من جهد لكي تأتي نقوله على شرط الأمانة و الصحة، اعترافاً منه بوجود الغير و احتضاناً لقيمه الحية؛ و حيث إنّ هذا الاحتضان يتعلق بما هو حي في الغير و ما هو ملموس في عمله، فإنّ الأمانة و الصحة لا تتحققان إلا بأداء الصورة اللفظية للأصل الذي وضعه هذا الغير، أي بالتزام الحرفية في نقله، فتكون الغاية الأخلاقية للمترجم هي استقبال هذه الحرفية الخاصة"[4]. أما (الأخلاقيات السلبية) فتتمثل في "القيم الفكرية و الأدبية التي تحمل المترجم على ترك توجهه الخلقي؛ و لا شيء يصرف المترجم عن هذا التوجه مثل القيم التي تؤدي إلى محو آثار

([1])طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة: الفلسفة و الترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2008، ص117.

([2])م ن، ص117.

([3])أنطوان برمان، م س، ص15.

([4])طه عبد الرحمن، م ن، ص118.

الوجود الأجنبي من الأعمال المنقولة، بحجة تحسينها أو تكييفها أو "تطبيعها" "[1].

شكلت الحلقة الدراسية لأنطوان برمان حول الترجمة التي انعقدت بالمعهد الدولي للفلسفة العام 1984 فضاءاً علمياً لتبادل الآراء و الخبرات، و نشرت أعمال هذه الحلقة الدراسية ضمن عمل جماعي عنوانه (أبراج بابل. مقالات حول الترجمة) (Les tours de Babel. Essais sur la traduction). بلور برمان مع المشاركين في هذه الحلقة الدراسية عدة تصورات عن الترجمة، مستشهداً في ذلك بآراء العديد من المؤلفين و المنظرين و المترجمين. و تناولت أعمال هذه الحلقة الدراسية بإسهاب العديد من المواضيع، التي بفضل جرأتها في التعامل مع النصوص و حريتها المطلقة في التعبير، أسست لخطوة متقدمة هي من أكثر الخطوات نجاحاً و حرية في التعاطي مع إشكالات الترجمة المعاصرة. ثم إنّ برمان قد اقترح في هذا العمل الجماعي أول ترجمة فرنسية لمحاضرة شلايرماخر Schleiermacher الموسومة بـ (Uber die verschiedenen Methoden des Ubersetzens) التي قلنا آنفاً بأنّها تعتبر بمثابة ميثاق الترجمة الغليظ. و انطلاقاً من استراتيجيتي الترجمة اللّتان تقدم بهما شلايرماخر (إما تسفير الكاتب نحو القارئ، أو تسفير القارئ نحو الكاتب)، اعتبر برمان في ذات الحلقة أنّ الترجمة الأولى تنزع نحو المركزية العرقية (éthnocentrique) و أنّها تحويلية[*] (hypertextuelle). أما الترجمة الثانية –المفضلة لدى الرومانسيين الألمان– فتعنى باللغة الأم أمام تأثير لغة أخرى و عالم آخر.

تعتبر روما منشأ الترجمة المتمركزة عرقياً، بحيث كانت الثقافة الرومانية ثقافة ترجمة منذ بداياتها الأولى، فبعد أن كان المؤلفون يكتبون باللغة اليونانية، جاء زمن تم فيه نقل كل المتن المكتوب بهذه الأخيرة، و أنجز هذا النقل من خلال التملك الممنهج للنصوص و الصيغ و الألفاظ الإغريقية التي تم إخضاعها للاتينية (أي عملية لتينة latinazation). و قد انضم العديد من المنظرين إلى هذه الورشة الترجمية الإلحاقية (annexionniste) في روما، أهمهم شيشرون Ciceron و هوراس Horace، بيدأنّ الصدى التاريخي للمبادئ المحددة من قبل هؤلاء المنظرين سيكون بفضل القديس جيروم Saint Jérome ممثل روما المسيحية الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية (Vulgate) مرفقاً هذه الترجمة بتأملات نظرية و تقنية متنوعة، و هو ما سيشكل الميل الترجمي نفسه الموجود لدى الغرب إلى يومنا هذا.

إنّ مبادئ كل من القديس جيروم و شيشرون و هوراس تعود كلها إلى القديس بولس Saint Paul و إلى الفكر

([1])طه عبد الرحمن، م س، ص118.

([*])يقول عز الدين الخطابي أنّه اعتمد في ترجمة (hypertextuelle) بـ (تحويلي) على التعريف الذي خصّ به طه عبد الرحمن التحويل الترجمي، بحيث أكد بأنّ التحويل يزيد على النقل، أي أنّه أخص منه، إذ يعتبر كل تحويل نقل و ليس كل نقل تحويلاً. كما أنّ الترجمة ذات طبيعة تحويلية بموجب كيف اللغات و كم المعاني، و أنّ مظاهر التحويل متعددة منها الكذب و التحريف و الحذف و النقصان و الزيادة و التقديم و التأخير و الإخلال بالمعنى الخاص و العام. و أورد طه عبد الرحمن أنّ المراد بالكذب هو ما يقصد به المحدثون الخيانة.
(ينظر أنطوان برمان، م س، ص24-25).

الإغريقي، أي إلى أفلاطون الذي لم يتطرق إلى موضوع الترجمة لكنه أوجد "القطيعة الشهيرة بين المحسوس (le sensible) و "المعقول" (l'intelligible)، بين "الجسد" و "النفس"[1]. و الشيء نفسه موجود عند القديس بولس من خلال التقابل الحاصل بين (الروح) التي "تحيي" و (الحرف) الذي "يقتل"[2]. و عليه، تتخذ الترجمة ضمن هذا التصور ملامح ثلاثة: فعلى المستوى الثقافي تكون ذات نزعة مركزية عرقية، و على المستوى الأدبي تكون تحويلية، و من الناحية الفلسفية تكون أفلاطونية[3].

بالنسبة لبرمان، لا ينفصل التحويل عن التمركز العرقي، ذلك أنّ الترجمة المتمركزة عرقياً هي بالضرورة تحويلية و العكس أيضاً. و تحيل كل عملية تحويل إلى "كل نص متولد عن التقليد (imitation) و المحاكاة الساخرة (parodie) و تقليد الأسلوب و الطريقة (pastiche) و الاقتباس (adaptation) و الانتحال (plagiat) أو كل نوع من التحويل الشكلي انطلاقاً من نص آخر موجود سلفاً"[4]. و يأخذ التحويل أشكالاً مختلفة منها الاقتباس و التنويع و المحاكاة.

تقوم كل ترجمة متمركزة عرقياً على مبدأين أساسين: يتمثل الأول في ترجمة العمل الأجنبي بطريقة لا نستشعر من خلالها بأنّ هناك عملية ترجمة. و ينبغي على الترجمة أن تعطي الانطباع بأنّ ذلك هو ما كان سيكتبه المؤلف لو أنّه كتب باللغة المنقول إليها. يتطلب الأمر في مثل هذه الحالات أن يتوارى المترجم و يخفي كل أثر للغة الأصلية، أو أن لا يتجاوز حدوداً معينة على الأقل، بحيث ينبغي أن لا يصدم القارئ بصيغ غريبة من الناحية المعجمية أو التركيبية (syntactiques). و يعتبر المبدأ الثاني نتاج الأول، بحيث تطالب الترجمة بأن تترك نفس الأثر الذي أحدثه النص المصدر على القارئ الأول، فإذا كان المؤلف قد وظف كلمات جد بسيطة فعلى المترجم أن يلجأ إلى كلمات جد مألوفة ليحقق بها الوقع نفسه عند الجمهور المتلقي.

يتبنى الكثير من المترجمين التمركز العرقي بسبب هواجسهم و مخاوفهم من كل ما هو أجنبي، بل قد يصل بهم الأمر إلى حد كرههم له و إبداء العنف اتجاهه (أي xénophobie). و ثمة من المترجمين من يرفض –بسبب النظرة الاستعلائية المتزمتة و المقززة للآخرين– أن تتعالق ثقافته مع أي ثقافة أخرى بحجة أنّ الأولى خالصة فيما أنّ الثانية هجينة ستلطخها و تحدث فيها عيوباً. و بهذا يسهم أولئك المترجمون في تجسيد كل هذه الأفكار الإقصائية المتصلة بالتمركز العرقي عن طريق اشتغالهم على النصوص و تمريرهم لمثل هذه الأفكار فيها، و من ثم التداول بها على نطاق واسع، و هو ما يعني انتشار مثل هذه المفاهيم لدى الأوساط المختلفة بما فيها الجماهيرية، لتكون الترجمة بذلك –و من خلال ما يفيض به

([1])أنطوان برمان، م س، ص51.

([2])م ن، ص51.

([3])م ن، ص44.

([4])ن، ص48.

النص من ميول و أهواء تطرفية- عاملاً حاسماً ذو دور وسائطي خطير في تزكية النرجسية الثقافية.

و يرى برمان أنّ النزعة التحويلية ذات القصد التحريفي -بوصفها ميلاً متمركزاً عرقياً- تأتي بأوجه متعددة[1]، هي:

1. العقلنة (La rationalisation)

يعنى هذا النمط من التحويل، بشكل أساس، بالبنى التركيبية للنص المصدر و بعلامات الوقف (la ponctuation) التي تعد عنصراً دقيقاً بالنسبة للنصوص النثرية. و تقوم (العقلنة) على إعادة تركيب الجمل و مقاطعها (les séquences) على نحو يسمح بتنظيمها وفق فكرة معينة حول نظام الخطاب. و يتوفر النثر الكبير، من روايات و رسائل و مقالات، على بنية متفرعة (تكرار القول (redites)، وجود الأسماء الموصولة (les relatives) و أسماء الفاعل (les participes) و الجمل الإعتراضية (les incises) و غيرها بكثرة) التي تتعارض تماماً مع المنطق الخطي (la logique linéaire) للخطاب باعتباره كذلك. و عليه، تقوم (العقلنة) بجر الأصل و بعنف من التفرع إلى الخطية (la linéarité). و مرد ذلك (الكثافة) (la densité) من ناحية المدلولات و الإيحاءات التي تتميّز بها الأجناس الأدبية عامة، و الأنواع النثرية على نحو خاص.

2. التوضيح (La clarification)

يعتبر (التوضيح) نتيجة طبيعية بل و حتمية للعقلنة، إذ يوظف على مستوى وضوح الكلمات أو معانيها. و بعد أن يكون النص الأصلي داخل (اللامحدد) (l'indéfini)، يأتي (التوضيح) لفرض ما هو (محدد) (défini). و قد يكون (التوضيح) ضرورياً بالنسبة للكثير من المترجمين بوصفه يصاحب كل نقل، بحيث لا يستقيم أمر الترجمة إلا بعد أن يفهم المترجم النص المصدر ثم يُفهم في نص ترجمته، أي ما يرتبط بشكل وثيق بالفهم و الإفهام. و قد يتخد هذا (التوضيح) أشكالاً مختلفة كالإنتقال من (تعددية المعنى) (la polysémie) إلى (أحادية المعنى) (la monosémie). بيدأنّ الترجمة الشارحة أو التفسيرية تنتمي إلى نمط تحويلي آخر هو (التطويل) (l'allongement).

3. (التطويل) (L'allongement)

لقد اتفق جلّ المنظرين بأنّ الترجمات تأتي في الغالب أطول من النصوص الأصلية، و يكون ذلك نتيجة الميلين السابقين من عقلنة و توضيح اللّذان يستلزمان تطويلاً و بسطاً لكل ما أضمر في النص. و قد ننظر إلى هذا (التطويل) على أنّه فارغ من منظور النص، بحيث أنّ هذه الإضافة -بوصف (التطويل) كذلك- لا تضيف شيئاً، بل تعمل فقط على الزيادة في الكتلة الخام للنص من دون أن تزيد شيئاً إلى خطابه أو إلى دلالته. و الأهم من ذلك كله أنّ (التطويل) يعتبر تراخياً الذي يؤثر سلباً على إيقاعية النص (rythmique)، و هو ما يسمى غالباً بالترجمة الزائدة (la sur traduction).

([1])ينظر أنطوان برمان، م س، ص ص76-92.

4. التفخيم (L'ennoblissement)

يتمثل (التفخيم) في اعتبار الترجمة (أجمل) شكلاً من النص الأصلي، إذ يتعين على كل خطاب أن يكون جميلاً. و يقابل ذلك (التحسين الشعري) (la poétisation) في الشعر و (التحسين البلاغي) (la rhétorisation) في النثر. يكمن (التحسين البلاغي) في انتاج كل ما هو (أنيق) (élégant)، أي السعي وراء البعد الإستيتيكي من خلال توظيف الأصل كمادة أولية.

5. الاختصار الكيفي (L'appauvrissement qualitatif)

يُعوّل هذا النمط من التحويل على تعويض كلمات و عبارات و صيغ الأصل بأخرى لا تتوفر على غناها الجهيري (sonore)، و لا على غناها الدلالي (signifiante)، أو بالأحرى الإيقوني (iconique) الذي يقصد به عموماً ما يشكل صورة بالنسبة لمرجعه (référent) و ينتج وعياً بالتشابه. و قد يحدث أن ننقل معاني الكلمات و ليس الحقيقة الجهيرية و الدالة لهذه الكلمات. و حين يتم التعويض –الذي يهتم بالإشارة على حساب ما هو إيقوني في العمل برمته و جميع مصادره الإيقونية– فإنّه يدمر جزءاً هاماً من دلالته و من منطقه.

6. الاختصار الكمي (L'appauvrissement quantitatif)

سببه النقصان المعجمي، بحيث يتصف النثر الروائي و الرسائلي بالغزارة من حيث أنّه يعرض على سبيل المثال دوالاً غير ثابثة، و ذلك من منطلق أنّ ما يهم أكثر هو وجود دوال عديدة للمدلول. و يعتبر أي إسقاط لكل هذه الدوال حين الترجمة –مقارنة بما هو موجود في الأصل– مساساً بالنسيج المعجمي للمؤلف و بنمط معجميته (lexicalité). و قد يواكب هذا النقصان زيادة في كم أو كتلة النص الخام، و ذلك عن طريق التطويل، مثل إضافة أدوات التعريف، أو الدوال التفسيرية و المحسنات التي لا تربطها أي علاقة بالنسيج المعجمي الأصلي إلى الحد الذي تقدم لنا الترجمة نصاً مفتقراً و مطولاً في الوقت نفسه. و غالباً ما يوظف التطويل لإخفاء النقصان الكمي.

7. المجانسة (L'homogénéisation)

تهدف إلى توحيد نسيج النص الأصلي على المستويات كافة، علماً بأنّ هذا النسيج هو متفرع في الأصل. فأمام عمل نثري يتنوع دوماً، يميل المترجم إلى توحيد و ربط ما تنوع، بل و حتى ما تنافر. يسمى هذا التنوع عادة بـ (التمشيط) (peignage) الملازم لكل ترجمة.

8. هدم الإيقاعات (La destruction des rythmes)

يدخل في عموم ذلك الإيقاعية النصية (rythmique textuelle) التي تطرق إليها ميشونيك Meschonnic. و من المعلوم أنّ الروايات و الرسائل و المقالات ليست أقل إيقاعية من الشعر، بل تكون فيها الإيقاعات متشابكة. و بما أنّ

كتلة النثر تتحرك على هذا النحو، فإنّه يصعب على المترجم كسر هذا التواتر الإيقاعي. و هو ما يفسر كيف لرواية قد ترجمت بشكل سيئ أن تأسرنا مع ذلك. بيدأنّه يمكن للتشويه أن يؤثّر على الإيقاع بشكل كبير كأن يمس بعلامات الوقف مثلاً.

9. هدم الشبكات الدالة و الضمنية (La destruction des réseaux signifiants sous-jacents)

يشتمل كل عمل على نص ضمني تنتشر فيه بعض الدوال الرئيسية و تتسلسل على شكل شبكات تحت (سطح) النص، أي الظاهر المعروض للقراءة. إنّ النص السفلي (le sous-texte) هو الذي يشكل أحد الوجوه الإيقاعية لدلالة العمل. و هكذا تعود بعض الكلمات المتباعدة لتشكل، من خلال تشابهها أو نمط رؤيتها، شبكة نوعية، إذ ثمة نوع من الكلمات تحمل في ثناياها إدراكاً خاصاً على الرغم من التباعد الحاصل بينها و من دون وجود مبرر سياقي لتوظيفها. و ما لم تنقل الترجمة مثل هذه الشبكات فإنّها ستدمر أحد الأنسجة الدالة (tissus signifiants) للمؤلَف. و يقابل ذلك هدم مجموعة من الدوال الأساسية لنص ما ينتظم منطوقه وفقها. و هو ما دأب عليه الروائي صامويل بيكت Samuel Beckett –بخصوص مسألة الرؤية– من توظيف لأفعال و صفات و أسماء معنى دون غيرها، و هو ما يجعل من الترجمة عاجزة عن إدراك هذه النسقية (sytématique).

10. هدم التنسيقات (La destruction des systématismes)

إنّ تنسيق أي عمل يتجاوز مستوى الدوال ليمتد إلى الجمل و إلى التراكيب المستخدمة. و يعتبر توظيف الزمن أحد هذه التنسيقات، لكن العقلنة و التوضيح و التطويل تهدم هذا النسق (système) بإدراج عناصر يلفظها هذا النسق بالأساس. و تكون النتيجية أنّ النص المترجم –الذي قلنا آنفاً بأنّه أكثر وضوحاً من النسخة الأصلية– يجيء أيضاً أكثر عمومية و تنوعاً و أقل تماسكاً منه. و بمقارنة دقيقة بين العمل الأصلي و ترجمته، يتبيّن لنا بأنّ كتابة الترجمة اللانسقية (a-Systématique) تشبه كتابة المترجمين المبتدئين (néophytes) التي ترفضها دور النشر عند قراءة أول صفحة.

11. هدم أو تغريب الشبكات اللغوية المحلية

(La destruction ou l’exotisation des réseaux langagiers vernaculaires)

يُعد هذا النمط من التحويلات ذو أهمية بالغة، ذلك لأنّ ما من نثر إلا و يشتمل على توظيفات للغة المحلية. كما أنّ اندثار اللغات المحلية هو بمثابة مساس خطير بنصية الأعمال النثرية. و قد يتجلى هذا الهدم، على سبيل المثال، بحذف أسماء التصغير (diminutifs) أو تعريف الأفعال المعلومة (les verbes actifs) بأفعال مقرونة بأسماء موصوفة، أو نقل دوال اللغة المحلية. و ثمة طريقة تقليدية للحفاظ على التعابير المحلية و ذلك بتغريبها (exotisation). و يأخذ هذا التغريب شكلين: يتم الأول من خلال طريقة كتابتها (الحروف المائلة–les italiques مثلاً) بغية عزل ما لا يعتبر كذلك

في الأصل، ثم إضافة أشياء من عندنا بطريقة ماكرة لإضفاء المصداقية على نقلنا مع التشديد على العبارة المحلية بإرتكازنا على صورتها النمطية. أما الشكل الثاني فيتم من خلال تبسيطها، و هو ما يحصل عندما نقابل عبارة محلية في اللغة المنقول منها بعبارة محلية في اللغة المنقول إليها.

12. هدم العبارات (La destruction des locutions)

تتوفر الأعمال النثرية على صور و تعابير و صيغ و أمثال مستمدة جزئياً من اللغة المحلية التي تنقل معنى أو تجربة نجدها في تعابير اللغة الأخرى. إنّ تعويض عبارة اصطلاحية ما بما يكافئها هو بمثابة نزعة مركزية عرقية، ذلك لأنّ اللعب على التكافؤات يعتبر مساساً بمنطوق العمل. و بالتالي فإنّ الترجمة ليست البحث عن التكافؤات. ثم إنّ الرغبة في تعويضها يعكس جهلنا بوجود وعي بالمثل لدينا الذي يدرك في المثل الجديد على الفور ما يقابله في مثل آخر.

13. محو التراكبات اللغوية (L’effacement des superpositions de langues)

تتنوع التراكبات اللغوية الموجودة في العمل النثري، خاصة الروائي منه، إلى صنفين: تعايش اللهجات مع (اللغة المثقفة) (koine)، و التعايش بين عدة (لغات مثقفة) (koinai). يتعرض تراكب اللغات في الحالتين معاً لتهديد الترجمة، إذ كيف يمكننا الحفاظ مثلاً على التواتر بين (الغواراني) (Guarani)، اللغة المحلية الخاصة بالهنود الحمر، و اللغة الإسبانية؟ و على العلاقة بين إسبانية الإسبانيين و إسبانية الأمريكيين اللاتنيين؟ قد يعتبر ذلك المشكل الرئيس الذي تطرحه ترجمة النثر بسبب تميّز كل نثر بتراكبات لغوية صريحة قد تقل أو تعظم في المؤلف الواحد. ثم إنّ الرواية، كما يقول باختين Bakhtine، تجمع بين تنوع الأنماط الخطابية (hétérologie)، و تنوع الألسن (hétéroglessie)، و تنوع الأصوات (hétérophonie).

لقد عمد أنطوان برمان –من خلال هذا العرض القيّم لمختلف التمظهرات التي يأخدها التمركز العرقي– إلى تبيان مسألة هي في غاية الأهمية، و التي مفادها أنّ التمركز العرقي ظاهرة موجودة و مؤسس لها ترجمياً، و ليست فقط موقف مُعّوج يرنو إليه المترجم، كما أنّها قابلة للإثبات على مستوى النص منه و إليه. لكن ما ينبغي أن ننتبه له أكثر هو اشتمال كل هذه الأنماط التحويلية و التحريفية المقترحة –المبرهن عليها بالأمثلة و الشواهد– على جميع مكنونات اللغة البنيوية و الضمنية، و مستوياتها الدلالية و النسقية، و الفوارق المائزة بين ما هو لغوي و ما هو دون ذلك، و الإشارة –و لو حتى من بعيد– إلى وجوب العناية بالسجل اللغوي، و المناحي الكلامية و الخطابية فيه، و التمييز بين درجة رسمية كل واحد منها. غير أنّ ما يُعاب على برمان Berman، من خلال تصنيفه هذا، هو قابلية بعض أنماطه، التي قد نقول أنّها فرعية، أن تُصنّف ضمن فئات رئيسية أخرى حتى لا يتيه الدارس في متاهة التسميات المختلفة للأنماط ذاتها. كما قد يُآخد برمان على إهماله صراحة البعد الثقافي –و إن كان يحيل إليه أحياناً عبر مفهوم الدلالة لأنّ اللغة تُصبغ بطريقة

تقطيعاتنا الثقافية للواقع- الذي لا يقل أهمية عن العنصر اللغوي، بل قد يتجاوزه أهمية. لكن برمان وفق كل التوفيق في ربط المحدثات النظرية بأمثلة تاريخية مشهود لها بالتميّز. و بما أنّ المسألة هنا تُعنى بالتحويل -بوصفه تمركزاً عرقياً- فإنّه يمكننا توظيف هذه الأنماط التحويلية لفهم أساليب التدجين و استراتيجياته في الترجمة بوصف التمركز العرقي تدجين مكشوف المعالم، و مفضوح النوايا و المقاصد.

3. التهجير/العصرنة (archaization/modernization)

إذا كانت الترجمة اللغوية تعني النقل من لغة إلى أخرى فإنّ الترجمة الزمنية تحيل إلى الترجمة بين شكلين لغويين ينتميان إلى اللغة نفسها و لكن تفصل بينهما فترة زمنية معينة. و قد يُعنى هذا النوع من الترجمة بتحديث مؤلَف ما خُطّ منذ سنوات، ليس لتضمينه إشارات أحدث من الأولى فحسب، بل كذلك لتجسيد التزامن بين اللغة و نمط التفكير السائد حالياً، و هو ما قد ندعوه بـ (التحيين) (l'actualisation).

و لربما قد يتساءل الواحد منا كم ينبغي أن يمر من الوقت حتى نقول عن المؤلَف بأنّه ينتمي إلى لغة أخرى؟ وجب علينا هنا أن نفرّق بين عملية إعادة كتابة أعمال شكسبير Shakespeare، و ترجمة مؤلفات شوسر Chaucer، و السبب هو أنّ لغة شوسر تنتمي إلى اللغة الانجليزية الوسطى، و هي أكثر غرابة من اللغة الانجليزية التي وظفها شكسبير المنتمية إلى بواكير العصر الحديث. كما أنّ لغة شوسر أكثر اعتياصاً على الفهم من دون تدريب خاص، بحيث يعتبر تحويلها إلى لغة حديثة (عصرنتها) ترجمة. و مقارنة باللغة الانجليزية، لم تتغير اللغة الايطالية كثيراً خلال سبعة قرون منذ أن كتب دانتي Dante (الكوميديا الإلهية) (Divine comedy) التي جاءت قبل (حكايا كانتربري) (The Canterbury Tales) بقرن كامل. و بمقدور الايطاليين اليوم أن يقرؤا (الكوميديا الإلهية) من دون أي ترجمة زمنية.

و ينطبق ذلك أيضاً على اللغة اليونانية، بحيث يستطيع القارئ اليوناني المعاصر أن يقرأ لهوميروس Homer بعد ترجمة زمنية محدودة. دائماً ما تكون، في الواقع، الترجمة اللغوية -بمعناها الشمولي- بالضرورة زمنية أيضاً، ذلك أنّ اللغة تتسم بخاصية (السيرورة أو الزمنية) (la diachronie) التي تعتبر إحدى أهم خصائص اللسان البشري، و التي ينبغي مراعاتها حين التعامل مع أي موقف تواصلي. ثم إنّ الوقت ليمضي باستمرار بين زمن كتابة النص المصدر و زمن انتاج الترجمة. لن يكون لذلك أثر سلبي إن كانت الفترة الفاصلة بين كتابة النص الأصلي و ترجمته قصيرة نسبياً، لكن إن هي اتسعت زمناً فستبرز صعاب جمة و الناتجة عن شساعة الهوة الزمنية بين العمليتين. و هنا يكمن التحدي بالنسبة لكل مترجم: هل ينبغي السعي لإظهار الفارق الزمني بين النص الأصلي و النص المترجم (تهجير)؟ أم حجب هذا الفارق الزمني بكتابة نص الترجمة باللغة المتداول بها اليوم (عصرنة)؟

لقد عكف بعض المترجمين –من أمثال فرنسيس نيومان Francis Newman في ترجمته الانجليزية لهوميروس العام 1851، و رودلف بورشاردت Rudolf Borchardt في ترجمته الألمانية لدانتي العام 1908– على توظيف لغة مهجورة بغرض تنبيه قارئ الترجمة بأنّ الأمر لا يتعلق بنص حديث، و أنّه مرت فترة طويلة مذ أن كُتب نصها الأصلي. و ثمة مترجمون آخرون –مثل كلارنس جوردان Clarence Jordan الذي ترجم نسخة (Cotton Patch version) التي تعتبر من كتب العهد الجديد و المتداول بها سنوات الستينيات– قاموا بعصرنة النص بشكل جذري، فوضعوا عن قصد صوراً تاريخية تجعل القارئ يشعر بحداثته. و من المترجمين أيضاً من يتفادى مثل هذه الميول المتطرفة من خلال كتابتهم بلغة حداثية لا تعبر عن الزمن الأول و يمكن قراءتها دون عناء، بيدأنّها لا تشعر قارئها بحداثتها لعدم وجود أي تضمين صريح أو مضمر لأي موضوع أو شخص من الشخوص أو مكان لم يتواجد في زمن كتابة النص الأصلي، كما أنّها لا تشتمل على كلمات عامية أو لهجية التي من شأنها أن تدفع بقارئ الترجمة إلى الإحساس بالفارق الزمني بين النص الأصلي و ترجمته.

إنّ التهجير هو سمة استخدام قديم اللغة، بحيث يوظف الكاتب في نصه كلمات أو تعابير قديمة ولى زمانها. و يظهر ذلك جلياً في سياقات متنوعة لعل أبرزها الملحمات التاريخية و المسرحيات التراثية التي يستخدم فيها الكلم العتيق، بل حتى أسماء العلم تجيء قديمة مقارنة بما هو متواتر عليه اليوم، ثم في الروايات و الحكايا الخرافية. كما يوظف التهجير بكثرة في السياقات الدينية و القانونية حيث تكون العادة أمراً ذو أهمية بالغة.

إنّ أي حديث عن التهجير (archaizing) إلاّ و يقودنا حتماً إلى الحديث عن العصرنة (modernizing)، و الشيء نفسه ينطبق على التدجين (domesticating) و التغريب (foreignazing). و السبب هو أننا بصدد التعامل مع ثنائيات (dichotomies) لا تقبل الواحدة فيها أن تنفصل عن الأخرى. كما أنّ الوضوح التام و الإستبيان الدقيق لا يتحقق إلا بوجود الطرفين معاً، فإذا كان التعامل مع الأولى عملياً فسيكون التعامل مع الثانية افتراضياً. و نقصد بذلك أننا حين نقوم بدراسة و تحليل استراتيجية التهجير مثلاً، و البرهنة عليها بأمثلة ترجمية، فسيكون من الطبيعي أن يتبادر إلى أذهاننا ما يقابل ذلك التوجه (هنا استراتيجية العصرنة) بما يتماشى معه نظرياً و إجرائياً. و بذلك تقدم هذه الثنائيات مادة ترجمية في حالتها الخام في كونها تسهّل التحكم في الوضع من خلال الانسيابية في الطرح القائم على المبادلة بين عناصرها التي تربط بينها لحمة نظرية و مصير استراتيجي مشترك، من دون أن يستلزم منا الأمر تغيير هذا الوضع الترجمي إلى آخر تتبدل فيه كل المعالم النظرية و الإجرائية. بيدأنّه وجب على المترجم –قبل أن يلجأ إلى إحدى هذه الثنائيات (التهجير/العصرنة) أو (التدجين/التغريب)– أن يستولي على المحتوى الكلي أو الشمولي

(le contenu molaire) [1] للمؤلف حتى يكون واثقاً من أنّه لا يرتكب أي خطأ.

يقول أمبرتو ايكو Umberto Eco أننا إن قمنا بترجمة نص كتب منذ زمن ليس بقريب، فإنّه يجب علينا أن نختار بين استراتيجيتي التهجير أو العصرنة. مع ذلك، إذا حاول مترجم شكسبير، الذي يعيش في القرن الواحد و العشرين، عصرنة نصه، فعليه أن يعيّ أنّ هذه العصرنة لن تكون صالحة إلا لبعض العشرات من السنين. و سيكون هذا النص، بعد ذلك، بدوره نصاً مهجوراً لأنّ تطور اللغة لا يتوقف عند زمن من الأزمنة أو حقبة من الحقبات، بل تدخل في كل عام المئات من الكلمات المستحدثة حيز التداول في كل لغة في حين تغادرها أخرى، و هو ما يسمح بتحيين القواميس و المعاجم بين الفترة و الفترة. عندها سيواجه قارئ القرن الثاني و العشرين ترجمة القرن الواحد و العشرين لنص كتب باللغة الانجليزية المتداولة في القرن السادس عشر، و هو ما سيولّد لديه إحساساً بالغرابة[2]. و ما يجعل الأمر أكثر تعقيداً مما هو عليه في الأصل، وجود بعض الحالات المختلفة أيضاً، أين ينبغي على المترجم مجابهة التعارض المزدوج بين (التدجين/التغريب) و (التهجير/العصرنة). سيمدنا ذلك بأربع تركيبات مختلفة و ممكنة في الآن نفسه. و ما يبرره، قيام المترجمة الروسية لأمبرتو ايكو بتوظيف استراتيجية التغريب (foreignazation strategy) مقرونة باستراتيجية التهجير (archaization strategy) عند نقلها لرواية (Le Nom de la rose)، و ذلك بعد أن قدّرت أنّ القارئ الروسي لن يفهم العناصر الدينية اللاتينية. و بغية أن يستشعر القارئ هذه الدلالات الدينية الحافة، اختارت المترجمة توظيف اللغة السلافية القديمة الخاصة بالكنيسة الأرثودكسية (le slavon ecclésiastique) القروسطية عوضاً عنها[3].

إنّه لجهول ذلك من يحسب أنّ استراتيجيتي التهجير و العصرنة سهلتا المنال، و السبب هو أنّ الأمر يتطلب حنكة و براعة ترجميتين لتوظيفهما على أكمل الأوجه و أنجعها. زد على أنّ استراتيجية التهجير (archaization strategy) تحيلنا إلى مسألة المعرفة المسبقة (prior knowledge) التي ينبغي على المترجم حيازتها بشأن اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، ثم بجوانب الترجمة كلها من لسانية و ما وراء لسانية. فعلى سبيل المثال، سيكون من الأمثل أن يكتب مترجم شكسبير إلى الفرنسية باللغة الفرنسية المتداولة في القرنين السادس عشر و السابع عشر، و لكن المشكلة أنّه لا يتكلم اللغة الفرنسية السائدة آنذاك. من المؤكد أنّ بمقدوره محاولة ذلك، و لكن حتى و إن كان هذا المترجم أكثر الناس العارفين و أصدق الملمين بخبايا اللغة الفرنسية في ذلك القرن، فإنّ محاولته ستفشل سلفاً. و السبب هو أنّه ينبغي العيش في سياق اللغة حتى يقدر الواحد منا أن يتبيّن كل خباياها و عبقريتها. ستكون الترجمة في هذه الحالة ترقيعية بدلاً من أن تأتي في حلّة سلسة و منسابة. تعمد استراتيجية العصرنة (modernization strategy)، من جهة أخرى، إلى جعل

(1)Umberto Eco, op.cit, p77.
(2)Ibid, p72.
(3)Idem, p73.

هذا البعد الزمني الضارب في التاريخ مفقوداً. سيكون الحل الأمثل في أن يوظف المترجم استراتيجية التهجير فقط إن ارتبط الأمر بفترة زمنية حديثة نسبياً أو معروفة بشكل جيد و التي يتقن لغتها؛ و يوظف استراتيجية العصرنة –حسب الضرورة– في جميع الحالات الأخرى.

يرى ج.م كوهن J.M Cohen أنّ نظرية الترجمة الفكتورية (the theory of Victorian translation) –التي نزعت نحو الحرفية (literalness)، و إعطاء أهمية أكثر لدقائق الأمور و القواعد الشكلية خاصة ما اتصل بالنحو (pedantry)، و انتاج نص ذو استحقاق أدبي من الفئة الثانية موجه لأقلية نخبوية– قد تأسست على خطأ جوهري (a fondamental error) المتمثل في توصيل بعد الزمان و المكان من خلال توظيف لغة قديمة (an antique language). كما أنّ عناية العديد من المترجمين بالتفاصيل و القواعد النحوية، و تبنيهم استراتيجية التهجير (archaization strategy) استطاع أن يسهم فقط في تنصيب الترجمة بعيداً عن الممارسات الأدبية الأخرى و في انحدار هيبتها. و على الرغم من أنّ التهجير (archaizing) قد ولى زمانه إلاّ أنّه من المهم الإقرار بوجود مبادئ نظرية مترسخة تشرح للمترجمين طرق تبنيه. يثير جورج ستاينر George Steiner مسائل مهمة عند مناقشته لهذا الإجراء، مع إحالة خاصة على نظرية إيميل ليتري Emile Littré و مؤلفه الموسوم بـ (l'Enfer mis en vieux langage Francois)، و رودولف بورشاردت Rudolf Borchardt و ترجمته الألمانية لدانتي Dante.

و بالنسبة لباسنيت Bassnett، يمكن أن يقارن مبدأ التهجير –في عصر التغير الاجتماعي الذي لم يسبق له مثيل– بمحاولة احتلال الماضي (to colonize the past). و على الرغم من أنّ مترجمو العهد الفكتوري قد دأبوا على عديد الممارسات الترجمية من توظيف التقنيات و الاستراتيجات ذات البعد الحداثي في ذلك الوقت، بما فيه التهجير (archaizing)، إلاّ أنّ جميع هذه التقنيات و الاستراتيجيات ارتكزت على أسس نظرية مبررة. غير أنّ الحنين إلى الماضي (la nostalgie) قد يكون سبباً رئيساً في دفع المترجم إلى أن يهجّر نصه على حساب قارئ لا يعرف أو لم يعد يعرف كيف يسبر أغوار لغة لم تعد متداولة منذ زمن بعيد. و حتى لو حللنا عقدة البنى السطحية لتلك اللغة فلن نحل أبداً معضلة الدلالة و أنواعها، و الممارسات الخطابية و الكلامية و أنماطها السائدة في تلك الحقبة، بل و حتى نوع التراتبية الاجتماعية التي أقرها أفراد المجموعة البشرية المتكلمة بتلك اللغة، و التي تملي عليهم ضوابط سلوكية صارمة يجب اتباعها. إنّ مسائل مثل هذه لهي في مركز اهتمام الترجمة بحيث لا تنتقص منها أي شيء إدراكاً بالدور الخطير المنوط بها على الأصعدة كافة. و بما أنّ التهجير يبلغ توظيفه الذروة في الحقل الأدبي، فإنّ الأمر يزداد اعتياصاً في كون لغة الأدب مكسوة بالمفاهيم و مثقلة بالدلالات. زد على أنّ النص الأدبي –النثري بشكل خاص– غالباً ما يتضمن انجازات لغوية

تتنوع مستوياتها بين ما هو فصيح، و ما هو عامي، و ما هو لهجي. فكيف للمترجم أن ينقل نصاً أدبياً يشتمل على خطابات حوارية بلهجة محلية قديمة (أو لهجات محلية قديمة)؟ هل سيقوم، في هذه الحالة، بتهجير الفصيح و الإبقاء على العامي أو اللهجي دون تهجير؟ سنتحصل، عندها، على خليط هجين من اللغة يتفاوت بين الفصيح الذي ترجم بالتهجير (archaizing)، و العامي أو اللهجي الذي ينتمي إلى اللغة نفسها و لكنه جاء في حالته الأولى دون أن يخضع لأي عملية ترجمة. سيحمل ذلك القارئ على بذل جهد جهيد فقط لقراءة هذا النص المترجم و ليس حتى لفهمه. و إن تمكن هنا المترجم من تهجير اللغة بعد طول عناء من خلال بحث توثيقي يستعين فيه على الاستقصاء عن أصول الكلم و الصيغ و زمن الأفعال و ما إلى ذلك، فهل سيتمكن من تهجير ما هو دون القح أو الفصيح رسمية؟ إنّ مثل هذه الحالات لدليل قاطع على الوساطة السلبية التي قد تلعبها الترجمة بسبب عدم تقيدها بشروط (نصية) النص (textuality) من جهة، و بشروط التواصل و الإخبار من جهة أخرى.

و حتى يتمكن القارئ من أن يفهم كل هذا المكنون اللغوي، و أن يستظهر جميع مقاصد المؤلف و نواياه المسكوت عنها قبل المعبر عنها، سيقوم هو أيضاً ببحث توثيقي مضن لكي يفهم لأنّ ما عرض عليه حتى الآن عبارة عن نسيج لغوي يحمل من الغرائبية اللغوية و الدلالية و حتى الثقافية الشيء الكثير الذي يحتاج إلى تمييع على جميع المستويات ليبلغ الهدف مداه و مبتغاه. سيعد ذلك هدراً للوقت، و هو يتنافى مع مهمة المترجم اتجاه القارئ في تقديم عمل منقول يختصر به حيزي الزمان و المكان. و يمس هذا أيضاً الترجمة الشارحة أو التفسيرية التي تعتمد على الهوامش، بحيث يزوّد المترجم من خلالها القارئ بشروح و تفسيرات، و هو ما يؤدي دائماً إلى هدر وقت القارئ النفيس و إرهاق فكره و تشتيت انتباهه بسبب رحلة الغدو و الرواح التي لا تنتهي من المتن إلى الهامش و العكس.

يرى نيدا Nida بأنّ أولئك الذين يتمسكون بالتقاليد بشدة يفضلون في الغالب ما هو مهجور في اللغة الذي لا يبدو بأنّه يقوي التلاحم التاريخي فحسب، و لكنه يزيد أيضاً من غموض العبارات الدينية. إنّ الشيء المهم هنا هو أنّه علاوة على حفظ الهوية و العرف، ثمة أسباب أخرى متعددة تتدخل في أي خيار لساني. و عليه، عادة ما يولد المهجور في اللغة بعض البون (distancing) الذي يفهم منه بأنّه ملائم عند التعامل مع المسائل الروحية. يمكن أن يوظف بالتالي للإشارة إلى التبجيل (reverence) و إبداء الوقار اتجاه كل مقدس. مع ذلك، يرتبط الافتراض القائم على أنّ جانباً مهماً يكون مشار إليه عبر توظيف أسلوب تهجيري بأيديولوجية خاصة بنمط الدين بشكل عام عوض القيام بملاحظة موضوعية. يمكن للتهجير (archaizing) و العصرنة (modernizing) أن يكونا نتاج أسباب غير تلك التي تعنى بافتراض المترجم الخاص بشأن مشكلات تلبية مطالب الشخص الذي يفوضه (the commissioner) أو القلق بخصوص مقبولية الترجمة (acceptability).

لقد عكف مترجمو الحقبة الفكتورية على توظيف التهجير (archaizing) في نقل الكتاب المقدس لدفع الناس إلى استشعار البعد الديني بغرائبيته الذي سيثير فيهم الوعظ و الإنابة إلى الله، غير أنّ الأهم يبقى في الحفاظ على هذا الكتاب من الزوال و صونه من التحريف، من خلال إحياء قول الرب و معه التراث الكنسي لمباشرة مهام التبشير. و يطرح أي تعامل مع التهجير معرفة لغوية واسعة و صنعة معجمية دقيقة، بحيث يقارب المترجم النص الأصلي على مستويات ثلاثة، الأول معجمي صرف: و يتلخص في إيجاد ما يقابل الكلمة أو ما يكافئها من الكلمات المهجورة مع العناية بمسألة عدم الإخلال بالنسق التعبيري عبر توظيف كلمات لا تسير وفق المطلب نفسه كالإيقاع و النبرة؛ و الثاني دلالي: الذي يتمحور حول الدلالة من تقريرية و حافة و ما أريد بهما لتوصيل معنى ما. و بغية أن يتم هذا القصد، وجب على المترجم أن يعلم أي من الدلالات اكتسبتها الكلمة بعد زمن كتابة النص، أي أن يقف موقف الحريص –بعد مراجعة القواميس و المعاجم التراثية و التاريخية المختصة في تتبع سيرورة اللغة عبر الزمن، و مصنفات المجامع اللغوية– في أن لا يصبغ الكلمة في نصه بدلالة لم تكتسبها إلاّ بعد ردح من الزمن، بحيث سيضرب ذلك، إن تم على هذا المنوال، نص الترجمة في الصميم بإخراجه من كيان دلالي حقيقي أراده مؤلف النص الأصلي إلى آخر زائف لا يمت له بصلة؛ و آخرها ثقافي: بحيث يستلزم التعبير باللغة دوماً تعبيراً عن الثقافة، و هنا يسترعي الوضع من المترجم أن ينتبه للبعد اللغوي و ما يحاكيه من ثقافة، ثم إلى مختلف الترميزات التي تتداولها المجموعة البشرية التي ينتمي إليها النص و تسميها بأنماط التفكير و طرائق العيش و ما سواهما، مع الحفاظ على التأثير نفسه الموجود في النص الأصلي. يتم الإشتغال إذن على مستويات ثلاثة (المعجم و الدلالة و الثقافة)، بحيث لا يستوي حال الترجمة إلاّ إن هي توفرت على هذه العناصر معاً من دون إقصاء لأي منها، و من دون زيادة أو نقصان في مضامينها و إلاّ إعتل نص الترجمة و معه الجمهور المستقبل له.

أما العصرنة (modernizing) فتنطوي على خيار توظيف لغة معاصرة (contemporary) عند ترجمة نص كتب بلغة مهجورة. كما تحيلنا العصرنة على مختلف الأطوار التي مرت بها اللغة لتصبح على النحو الذي هي عليه الآن من العصرية. و ستكون ترجمة نص قديم إلى لغة أخرى معاصرة بمثابة تحديث لهذا النص و عصرنته. ففي حالة ما أردنا أن نترجم نصاً لإدموند سبنسر Edmund Spenser، شاعر الحقبة الإليزابيثية المخضرم، إلى لغة أجنبية، فإنّ إحدى أولى القرارات هي إما أن نستخدم لغة عصرية أو لغة أقل عصرية منها تنتمي إلى اللغة نفسها، أي التعامل مع طور تطوري أقل لتلك اللغة مقارنة بما هي عليه اليوم. ينبغي علينا، في هذه الحالة، أن ننتبه إلى مدى تماشي الطور أو الأطوار التطورية للغة المعاصرة التي نحن بصدد الإشتغال عليها مع التعابير المهجورة المراد ترجمتها. تعتبر هذه من المسائل التي يصعب، بل يستحيل، تجاوزها في ترجمة النصوص الدينية عامة و ترجمة الطقوس الأرثودكسية خاصة (في نص يعود إلى القرن الرابع

مثلاً) إلى اللغة الانجليزية المتداولة اليوم.

إنّ التهجير (archaizing) و العصرنة (modernizing) يعتبران من النماذج الاستراتيجية البالغة الصعوبة في الترجمة، كيف لا و المترجم يكابد الأمرين في توظيف الواحدة منهما أو توظيفهما معاً. و حتى و إن كانت اللغة العربية إحدى اللغتين المعنيتين بالترجمة فلن يبدّل ذلك من حقيقة الأمر شيئاً في كونها قد تعكس بعداً غرائبياً منفراً إن جاءت في حلة قديمة و مهجورة، و حتى و إن كتبت بحروف الأبجدية العربية التي نألفها و لا يخفى علينا تمييزها أبداً. و عندما نعود إلى أقدم نص أدبي عثر عليه في العالم، نجد أنّ الكثير من المفردات و الصيغ و البنى الصرفية و النحوية ما زالت مستخدمة في لغتنا العربية الفصحى إلى اليوم. هذا النص الأدبي هو (أخذةكش) الذي يعود إلى حضارة (كش) في العراق المنتمية إلى السلالة الأكادية القديمة ما بين 2200 إلى 2400 ق.م، أي قبل أكثر من أربعة آلاف عام. و يبدو أنّ النص تعويذة من شاعر لحبيبته جاء فيه مثلاً:

"إلُ حَيا إرْحَمَ يِرَءَّمْ

إرْحمَ مَرَءْ إلَتُ عَشْتَرْ إنْ زَجّ يُثَّبْ

إنْ رُغْتِ كَنَكْتِ يُدَرَّءْ

وَرْدَتا دَمِقْتا تُحْتَنّا.

...

آخُذْ فاكِ شَ رُقَّتِ آخُذْ بُرَّماتِ عنِيكِ آخُذْ عُرْكِ شَ ثِنتتِ"[1].

و هو بعربيتنا اليوم:

"الإله حَيَا يَرْأَمُ اليَرْحَمَ

اليَرْحَمُ ابنُ الإلهَةِ عَشتَر [عشتار] قائِمٌ في المِحْرابِ

بِبَخُورِ المرّ يَتَجَلَّى

البَتولَتَانِ الحَسَنَتانِ اسْتُشْفِعَتا.

...

أَخَّذْتُ فَاكِ ذا (ال)رِقَّةِ. أَخَّذتُ (ال)زَّرقاوَيْنِ عَيْنَيْكِ. أَخَّذْتُ عُرْوَتَكِ ذات (ال)ثِنَةِ"[2].

([1])عبد الله بن أحمد الفيفي، أقدم نص شعري في العالم، موقع صوت العربية (www.voiceofarabic.net)، تصنيفات: بحوث أدبية (تمت الزيارة الموقع بتاريخ 17 يناير 2013 على الساعة 13.34). (نقلاً عن: أخذةكش: أقدم نص أدبي في العالم، تقديم و تحقيق: البير فريد هنري نقاش و حسني زينة، مكتبة لسان المشرق، لبنان، 1989).

([2])م ن

و يقصد بـ (الأخذة) (التعويذة) كما في المعاجم العربية. و تبدو علاقة النص باللغة العربية واضحة و جلية، فكلمة (فاك) لا تزال بإعرابها بالألف في حالة النصب كما تمليه قاعدة الأسماء الخمسة. كذلك هو حال المثنى في (وَرْدَتا دَمِقْتا تُخْتَنّا) التي تعني (البَتولَتَانِ الحَسَنَتانِ اسْتُشْفِعَتا)، و (آخُذْ بُرَّماتِ عنِيكِ) التي تعني (أَخَّذتُ (ال)زَّرقاوَيْنِ عَيْنَيْكِ). و مثل هذه الظواهر كثيرة بحيث يمكننا تتبعها في هذا النص. كما نجد الحرف (إن) بمعنى (في) و كأنّه حرف الجر في اللغة الانجليزية (in)، و كلمة (يدرء) التي تبدو أنّها من (درأ، دروءًا) في العربية الفصحى، إذا طلع و ظهر و خرج فجاءة. و يقال: درأ الكوكب دروءاً من ذلك. و درأت النار: أضاءت[1].

و قد نلجأ، كما هو الحال هنا، إلى ترجمة هذا النص إلى اللغة العربية الفصحى المعاصرة قبل أن ننقله إلى لغة أجنبية ما. و هو ما يعني قابلية المسار الذي نبتغيه من التهجير إلى العصرنة و العكس أن يتدرج ضمن خطوات مدروسة و أن لا يكون من النقيض إلى النقيض.

أما النصوص العلمية –بخلاف النصوص المسماة بالأدبية– فتطرح المشكلات نفسها لكن بحدة أكبر، إذ نحن بصدد التعامل مع نص علمي يحمل من الأدلة و البراهين و الإثباتات ما يفرض شرعية الطرح و مصداقية الحجج التي يبلّغها، مما لا يدع أي مجال للشك بأنّ الخطأ في الترجمة العلمية لا يغتفر أبداً. و على الرغم من أنّ مسار التأويل يتم بالكيف نفسه في كلا التخصصين، إلاّ أنّ النص العلمي لا يحتمل إلاّ تأويلاً واحداً و السبب هو أنّ العنصر الإحالي فيه لا يخفي ورائه إلا دلالة واحدة بخلاف النص الأدبي الذي يقبل العنصر الإحالي فيه دلالات متنوعة و بالتالي تأويلات مختلفة. و إن كنا بصدد نقل نص طبي قوامه لغة طبية عربية قديمة إلى اللغة الفرنسية المعاصرة (عصرنة)، فسنجد أنفسنا مجبرين على تخطي صعاب جمة تقف بيننا و بين إعطاء ترجمة علمية ذات جودة تفي بالقصد العام، منها وجود الكثير من المصطلحات الطبية في اللغة العربية ذات أصل غير عربي تم تعريبها تسهيلاً للتداول بها، و أنّ منها من يأتي مركباً من اسمين أو من بادئة (préfixe) و اسم. في هذه الحالة، لم يكن مثل هذا التركيب –الخاص باللغات الهندوأروبية– معروفاً لدى المترجمين العرب فلجأوا إلى تركيب من نوع آخر يسمى بـ (الإلحاق) (l'annexion) الخاص باللغات السامية لوحدها و المتمثل في المقابلة بين اسمين[2].

و بما أنّ تهجير نص ما في الترجمة يستلزم توظيف لغة قديمة و تعابير مهجورة التي ستؤدي إلى تسفير القارئ إلى زمن غير ذاك الذي يعيش فيه، و جعله يحس بغرائبية اللغة و مدلولاتها، فإنّه بإمكاننا الجزم يقيناً بأنّ التهجير (archaizing) يعد من استراتيجيات التغريب (foreignization strategies) في الترجمة، و أنّ بعد الزمن (remoteness of time)

([1])عبد الله بن أحمد الفيفي، م س.

([2])voir Gérard Troupeau, Les problèmes posés par la traduction de l'arabe ancien en français moderne, Meta, vol 31, N°1, 1986, p12.

و غرائبية اللغة (exoticism of language) هما وقود هذا التغريب و محراكه. أما العصرنة (modernizing)، التي تقوم على توظيف لغة معاصرة و صيغ شائعة في هذا الزمن، و التي تؤدي إلى نقل القارئ و لكن في حيز الزمان و المكان نفسيهما، و تحسيسه بالألفة (familiarity)، فإنّها تعد من استراتيجيات التدجين (domestication strategies)، و أنّ حداثة الزمن و عصريته (recency and modernity of time) و ألفة اللغة المألوفة (familiarity with language's affinity) هما مرتكزا هذا التدجين و لبنته.

الفصـل الثانـي

استراتيجيتا التدجين (Domestication)
و التغريب (Foreignization) في الترجمة

I. التدجين (domesticating) في الترجمة

1. مفهوم (التدجين) (domestication)

1.1 'التدجين' لغة

– "**دجن**: الدَّجْنُ: ظلُّ الغيم في اليوم المطير. ابن سيده: الدَّجْن إلباسُ الغَيم الأَرضَ، و قيل: هو إِلْباسُه أقطارَ السماء، و الجمع أَدْجان و دُجون و دِجان؛ قال أَبو صخر الهذلي:

و لذائذ مَعْسولة في رِيقةٍ،

و صِباً لنا كدِجانِ يومٍ ماطرِ

و قد أَدْجَن يومُنا و ادْجَوْجن، فهو مُدْجن إذا أَضَبَّ فأَظلم. و أَدْجَنوا: دخلوا في الدَّجْن؛ حكاها الفارسي. ابن الأَعرابي: دَجَن يومُنا يَدْجُن، بالضم، دَجْناً و دُجوناً و دَغَن، و يوم ذو دُجُنَّة و دُغُنَّة. و يوم دَجْنٌ إذا كان ذا مطر، و يوم دَغْنٌ إذا كان ذا غَيم بلا مطر. و الدَّجْن: المطر الكثير. و أَدْجَنت السماء: دام مطرها؛ قال لبيد:

من كلّ ساريةٍ و غادٍ مُدْجِنٍ،

و عَشِيّةٍ مُتَجاوِبٍ إرْزامُها

و أَدْجَن المطر: دام فلم يُقْلع أَياماً، و أَدجَنت عليه الحمّى كذلك؛ عن ابن الأَعرابي.

و الدُّجُنَّة من الغيم: المطَبّقُ تطبيقاً، الرَّيان المظلم الذي ليس فيه مطر. يقال: يومُ دَجْنٍ و يومُ دُجُنَّة، بالتشديد، و كذلك الليلة على وجهين بالوصف و الإِضافة. و الدُّجْنة: الظُّلمة، و جمعها دُجُن[1]، مَثّل به سيبويه و فسره السيرافي، و زاد الجوهري في جمعه دُجُنَّات. و في حديث قُسٍّ: يَجْلو دُجُنَّات الدَّياجي و البُهَم؛ الدُّجُنّات: جمع دُجُنّة، و هي الظلمة. و الدياجي: الليالي المظلمة، و الفعل منه ادْجَوْجَن؛ و أَنشد:

لِيَسْقِ ابنةَ العَمْريّ سلمى، و إن نأَت

كِثافُ العُلى داجي الدُّجُنَّةِ رائِحُ[2]

و الداجنة: المطَرَةُ المطبقة نحو الدَّيمة؛ و قد جاء في الشعر الدُّجُون، قال:

حتى إذا انجَلى دُجى الدُّجونِ

و ليلة مِدْجانٌ: مُظلِمة. و دَجَن بالمكان يَدْجُن دُجوناً: أَقام به و أَلِفَه. ابن الأَعرابي: أَدْجَن، مثله، أَقام في بيته، و دَجَن في بيته إذا لَزِمه، و به سميت دَواجن البُيوت، و هي ما أَلِف البيتَ من الشاءِ و غيرها، الواحدة داجِنة؛ قال ابن أُمّ قعنب

1 قوله "و جمعها دجن" بضمتين في الحكم، و ضبط في الصحاح بضم ففتح، و نبه عليهما شارح القاموس.

2 قوله "داجي الدجنة" الذي في التهذيب: واهي الدجنة.

يهجو قوماً:

رَأْسُ الخَنا منهُمُ و الكفْر خامِسهُمْ،

و حِشْوةٌ منهُمُ في اللُّؤمِ قد دَجَنوا

و المداجَنة: حُسْن المخالطة. و سحابة داجِنة و مدجنة و قد دَجَنتْ تَدْجُن و أَدجنَت؛ ابن سيده: دَجَنَت الناقةُ و الشاةُ تَدْجُن دُجوناً، و هي داجِن، لزِمتا البُيوت، و جمعها دَواجِن؛ قال الهذلي:

رِجالٌ بَرَتْنا الحرْبُ، حتى كأَننا

جِذالُ حِكاكٍ لوَّحَتْها الدَّواجِن

و ذلك لأَن الإِبل الجرِبة تُحْبَس في المنزل لئلا تسرحَ في الإِبل فتُعْدِيها، فهي تَحْتَكّ بأَصل ينصب لها لتُشْفى به في المِرْك، و إِنما أَراد أَن نار الحرب قد لوَّحَتْنا، فبِنا منها ما بهذا الجِذْل من آثار الإِبل الجرْبى. و في الحديث: لعَن اللهُ مَن مَثَّل بدواجنه؛ هي جمع داجِن و هي الشاة التي تَعلِفها الناسُ في منازلهم، و المُثْلة بها أَن يَجْدَعها و يخصِيَها. و المداجنة: حُسن المخالطة، قال: و قد تقع على غير الشاء من كل ما يأْلف البيوتَ من الطير و غيرها. و في حديث الإِفك: تَدخُل الداجنُ فتأْكل عجينَها.

و الدَّجون من الشاء: التي لا تمنَع ضرْعَها سِخالَ غيرها، و قد دَجَنتْ على البَهْم تدجُن دُجوناً و دِجاناً. و في حديث عِمران بن حُصين: كانت العَضْباءُ داجِناً لا تُمْنَع من حَوْض و لا نبت؛ هي ناقة سيدنا رسول الله، صلى الله عليه و سلم. و كلب دَجُون: آلِفٌ للبُيوت. الليث: كلب داجِن قد أَلِف البيتَ.

الجوهري: شاةٌ داجن و راجِن إِذا أَلِفت البيوت و استأْنست، قال: و من العرب من يقولها بالهاء، و كذلك غير الشاة؛ قال لبيد:

حتى إِذا يَئِس الرُّماةُ، و أَرسَلوا

غُضُفاً دَواجِنَ قافِلاً أَعصامُها

أَراد به كلاب الصيد. قال ابن بري: و شاة مِدْجان تَأْلف البَهْم و تحِبُّها. و ناقة مَدْجونة: عُوِّدت السَّناوة أَي دُجِنت للسَّناوة، و جمَل دَجون و داجن كذلك؛ أَنشد ثعلب لهميان بن قحافة:

يُحْسِنُ في مَنْحاتِه الهَمالِجا،

يُدْعى هَلُمَّ داجِناً مُدامِجا

و الدُّجْنة في أَلوان الإِبل: أَقبَحُ السواد. يقال: بعير أَدْجَنُ و ناقة دَجْناء. و الدَّواجن من الحَمام: كالدواجن من الشاء و الإِبل. و الدُّجون: الأَلَفانُ. و الدَّجَّانة: الإِبل التي تحْمل المتاع، و هو اسم كالجبَّانة.

الليث: الدَّيْدَجانُ الإبل تحمل التجارة. و المداجنة: كالمداهَنة.

و دُجَيْنة: اسم امرأَة. و أَبو دُجانة: كنية سِماك ابن خَرَشة الأَنصاريّ، و في حديث ابن عباس: إنّ الله مَسَح ظهرَ آدمَ بدَجْناء[1]، هو بالمد و القصر اسم موضع، و يروى بالحاء المهملة"[2](*).

و من بين الكلمات المتداولة أيضاً في سياق (التدجين) التي يوظفها أصحابها لنقل الكلمة الانجليزية (domestication) إلى اللغة العربية نجد كلمة (توطين) التي تعني ما يلي:

- "الوَطَنُ، مُحرَّكةً و يُسَكَّنُ: مَنْزِلُ الإِقامَة [3]، و مَرْبَطُ البَقَرِ و الغَنَمِ، ج: أوطانٌ. و وَطَنَ به و أَوْطَنَ: أقامَ. و أَوْطَنَهُ و وَطَّنَهُ و اسْتَوْطَنَهُ: اتَّخَذَهُ وطَناً. و مَواطِنُ مكةَ: مَواقِفُها، و - من الحَرْبِ: مشاهِدُهَا. و تَوْطِينُ النفس: تَمْهِيدُها [4]. و تَوَطَّنَها: تَمَهَّدَها. و المِيطانُ، بالكسر: الغايَةُ، و موضِعٌ يُوطَنُ لتُرْسَلَ منه الخَيْلُ في السّباقِ. و واطَنَهُ على الأَمْرِ: وافَقَهُ"[5].

- "وطن: الوَطَنُ: محلُّ الإنسان، و قد خفَّفه رؤبةُ بقوله: [الرجز]

أَوْطَنْتُ وَطْنًا لم يكن من وَطَنِي

لو لم تكن عَامِلَها لم أَسْكُنِ

بها و لم أَرْجُنْ بها في الرُّجَّنِ

و أَوْطانُ الغنم: مرابِضها. و أَوْطَنْتُ الأرضَ، و وَطَّنْتُها تَوْطِينًا، و اسْتَوْطَنْتُها، أي: اتَّخذتها وَطَنًا. و كذلك الاتَّطانُ، و هو افتِعالٌ منه. و تَوْطِينُ النفس على الشيء، كالتمهيد. و يقال: من أين ميطانُكَ، أي: غايتك. و الميطانُ: الموضع الذي يُوَطَّنُ لتُرسَل منه الخيل في السباق، و هو أَوَّل الغاية، و الميتَاءُ و الميداءُ: آخر الغاية. و المَوْطِنُ: المشهدُ من مشاهد الحرب، قال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} [التوبة:25].

قال طرفة: [الطويل]

على مَوْطِنٍ يخشى الفتى عندَه الرَّدَى

متى تَعْتَرِكْ فيه الفرائصُ تُرْعَدِ"[6].

---

1 قوله "بدجناء" ضبط في النهاية بفتح فسكون، و في القاموس: و دجنا، بالضم أو بالكسر و قد يمدّ، و قوله "و يروى بالحاء" عليه اقتصر ياقوت و ضبطه بفتح فسكون كالحكم و سيأتي قريباً.

(2)أبو الفضل بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، م س، (مج13)، ص147-148.

(*)ينظر أيضاً (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، م س، ص526؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تحقيق محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 1430هـ-2009م، ص361؛ المعجم الوسيط، م س، ص272؛ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (الجزء 02)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1399هـ-1979م، ص330).

(3)كالمَوْطِنِ.

(4)أصل التوطين و التوطن: اتخاذ الوطن، ثم تُجُوِّز به عن عدم القلق و الضجر. اه محشي.

(5)مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، م ن، ص1763.

(6)أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، م ن، ص1254.

- "(وَطَنَ) بالمكان -ِ (يَطِنُ) وَطْناً: أقام به.

(أَوْطَنَ) المكانَ: وَطَنَ به. و - البلدَ: اتَّخَذَه وطناً. و - نفسَه على كذا: مهَّدها له و رضَّاها به.

(وَاطَنَهُ) على الأَمر: أَضمر فعلَه معه. و - وافقه عليه. و - القومَ: عاش معهم في وطن واحد. (محدثة).

(وَطَّنَ) بالبلد: اتخذه مَحَلاً و سكناً يقيم فيه. و - نفسَه على الأَمر، و له: حملَها عليه.

(اتَّطَنَ) البلدَ: اتخذه وطَناً.

(تَوَطَّنَ): مطاوع وطَّنَ. يقال: توطَّنَتْ نفسُه على الشيء: ذلَّت و تمهَّدت له. و - الأَرضَ، و بها: اتخذها وطناً.

(اسْتَوْطَنَ) البلدَ: توطَّنه.

(المَوْطِنُ): الوطنُ. و -كلُّ مكان أَقام به الإنسان لأَمر. و - المجلسُ. و - المَشْهَدِ من مشاهد الحرب (ج) مواطن.

(المِيطَانُ): يُوطَنُ لترسل منه الخيل في السَّباق. (ج) طين.

(الوَطَنُ): مكانُ إقامةِ الإنسان و مقرُّه، و إليه انتماؤه وُلد به أَو لم يولد. و- مربِض البقر و الغنم الذي تأْوي إليه. (ج) أَوطان"[1].

- "(وطن) الواو و الطاء و النون: كلمةٌ صحيحة. فالوَطَن: مَحَلُّ الإنسان. و أوطان الغَنَم: مَرَابضها. و أَوْطَنْتُ الأرضَ: اتَّخَذْتُها وَطناً. و الميطانُ: الغاية[4]"[2].

2.1 'التدجين' اصطلاحاً

إنّ من بين ما يعنيه التدجين اصطلاحاً، تليين طبائع الحيوانات و ترويضها بغية تطويعها و إخضاعها إشباعاً لحاجاتنا المختلفة منها. و حديثنا عن سياسة دولة ما في أنّها تدجّن شعبها، أي أنّها تطبق على أنفاسه و تحكمه بيد من حديد، و هو ما يعني سياسة البطش و الترهيب. و للتوطين معان اصطلاحية أيضاً كأن نقول عن دولة ما أنّها تساعد في توطين المهاجرين و اللاجئين، أي على إسكانهم و توفير الإقامة لهم. و قولنا توطين البدو أي نقلهم من حياة الحل و الترحال إلى حياة التمدن و التحضر. و يقصد بتوطين الأبناء على رفعة الأخلاق و مكارمها تنشئتهم عليها منذ الصغر. و أن نوطّن نباتاً ما بمعنى أن ننقله من بيئته الأصلية إلى آخرى مختلفة. و ثمة عبارة (توطين الدين) (debt domestication) التي توظف في ميدان المبادلات التجارية، و التي يقصد بها تحويل الدين بعملة أجنبية إلى دين بعملة محلية. و نجد في ذات الصدد كلمات أخرى مشتقة من الفعل (وطن)، مثل الفعل (استوطن)، كقولنا عن وباء ما بأنّه استوطن البلد، أي أنّه استفحل فيه و انتشر؛ و منه (الاستيطان) و هو أنّ يتوطّن الناس المكان و يتخذوه وطناً، و إن كان ذلك قد يقترن بأخذ الأرض عنوة و سلبها من ملاّكها الأصليين.

---

(1)المعجم الوسيط، م س، ص1042.

(4)هو أول الغاية، كما أن الميتاء و الميداء آخر الغاية.

(2)أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، م س، (الجزء 06)، ص120.

أما فيما يخص الكلمة الأجنبية (domestication)، فنجد أنّها تحمل معان متعددة(*) تختلف بإختلاف السياق الذي وردت فيه. كما أنّها تأتي بصيغ نحوية متنوعة (اسم، صفة، ظرف حال) تشتق كلها من فعل واحد هو (to domesticate). و من بين مرادفات الصفة (domestic) المتداولة في اللغة الانجليزية نجد (home, native, indigenous, internal, autochthonous)[1].

2. مفهوم (استراتيجية التدجين) (Domestication Strategy) من المنظور الترجمي

لطالما تميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فأسس لنفسه مذهباً خاصاً به لا يعدوه إلى من سواه، و لطالما كانت الثقافات و الحضارات متميّزة أيضاً عبر أدواتها و وسائلها التي طورتها لأجل الحفاظ على كينونتها من الزوال. و بوسعنا اليوم –من خلال الحل و الترحال، أو وسائل التواصل و الاتصال المتنوعة– أن ندرك مدى رحابة العالم الذي نحيا فيه، و حجم التنوع الثقافي الذي كان و لا يزال واقعاً مشهوداً وجب العيش به و التعامل معه، و ما أتبع ذلك من تنوع تراثي تفخر به الحضارة البشرية جمعاء. و أضحت المجتمعات البشرية تتعدد بتعدد أفرادها، فكثرت الميول و النزعات الاجتماعية، و تكاثرت الأقليات و تعاظم دورها، و خرجت إلى العلن عاميات و لهجات التي أصبحت مستخدمة على نطاق جغرافي واسع. بيدأنّ المتفحص لذلك سيدرك معه رغبة المجتمعات التقدمية و الثقافات المهيمنة و سعيها الحثيث في أن تساوي البشر، و أن تقولبهم ضمن نموذج ثقافي أوحد تذوذ به عن مصالحها، و تسير به نحو غاياتها تحت غطاء ما يسمى بالعولمة.

و ما يثبت صحة هذا القول (مزاعم بالنسبة للبعض) اختفاء الحدود الجغرافية التي كانت تفصل بين الأمم في السابق، و كلنا مدرك لما كان لهذه الحدود من قدسية أيديولوجية و حرمة تاريخية باعتبارها حمى لا ينبغي أن تمس بسوء. و حتى

(*)"domestic: adjective 2. existing or occuring inside a particular country; not foreign or international: Egypt's domestic affairs. 3. N.Amer a product not made abroad.
-derivatives: domestically adverb.
-origin late Middle English: from french domestique, from latin domesticus, from domus 'house'.
-domesticate: verb [with object] tame (an animal) and keep it as a pet or on a farm: mammals were first domesticated for their milk. **o** cultivate (a plant) for food.
o humorous: make (someone) found of and good at home life and the tasks that it involves: you've quite domesticated him.
-derivatives: domesticable adjective, domestication noun.
-origin mid 17th cent.,: from medieval latin domesticat-'domesticated', from the verb domesticare, from latin domesticus 'belonging to the house' (See domestic).
-domesticated: adjective (of an animal) tame and kept as a pet or on a farm: domesticated dogs.
o (of a plant) cultivated for food; naturalized: domesticated crops. **o** humorous (of a man) found of home life and housework: he is thoroughly domesticated".
(Oxford dictionary of English, edited by Angus Stevensen, third edition, first edition by Judy Revrsall, Patrick Hanks, Oxford University Press, UK, 2010 (dolly switch/dominant), p519).

(1)see Laurence Urdang, The Oxford Thesaurus: An A-Z dictionary of Synonyms, De Luxe Edition, 1991, p415.

و إن وجدت هذه الحدود اليوم فعلى الورق فقط. و استطاعت الضفاف كلها أن تتواصل فيما بينها تواصلاً تحقق معه تبديل البنى المجتمعية الخاصة بالكثير من الجماعات البشرية عبر تغييب نماذجها الثقافية البدئية التي كانت –لوقت قريب– تتمسك بها و تستميت في الدفاع عنها كل الاستماتة. و بما أنّ المترجم إنسان طبيعي في كونه فرد من أفراد مجتمعه، و إنسان ثقافي في كونه يميل إلى التوجه الثقافي لمجتمعه أو توجهه الخاص به، و إنسان حضاري في كونه وسيط يقارب وجودين فإما أن يقربهما من بعض أو أن ينفرهما من بعض، فإنّه هو وحده من يحق له أن يستطرد في هذا الحديث و أن يسبر أغواره شارحاً و مفسراً.

و إن نحن أقررنا بوجود فوارق مائزة بين المجتمعات البشرية و ثقافاتها التي تصبغ عليها طرائق التفكير و أنماط العيش، وجب علينا حينها الحفاظ على هذه الفوارق، و إحاطتها بكثير العناية و موفور التبجيل لأنّها المبلّغة –بلسان الحال لا بلسان القال– عن نوع الإنسان الذي يركبها، و عن خبايا فكره و كنائز نفسه. بل إنّ حقيقة الكون برمته تنبني على الإختلاف، أرادها الله عزّ و جلّ لأن يغير بها الحال بالحال (ليل و نهار؛ شتاء و صيف؛ شروق و مغيب...). و من الإختلاف أيضاً تنوع الألسن و تغير الجغرافية، و لعل أبرز القصص و أبلغها تصويراً قصة (بابل) و كيف جُعل لكل قوم من الأقوام لساناً يتكلمون به بعد أن دبوا على وجوههم يبتغون في الأرض معايشاً. و ثمة من الناس –و منهم المترجمون– من ينكر هذه الحقيقة الكونية الراسخة باعتقادهم أنّ الثقافات مشربها واحد، تطورت و تنوعت لتصل إلى ما هي عليه اليوم. و يعني ذلك أنّه لا وجود لتمايز ثقافي و لا لتنوع عروقي. ثم إنّ المعايير الترجمية التي يقترحها علم الترجمة كثيراً ما تنحاز إلى إسقاط أي أثر من شأنه أن يبين عن عملية النقل، و إلى ضرورة أن يُقرأ النص المترجم بانسيابية (هي السلاسة و الفصاحة) كما لو أنّ كاتب النص الأصلي هو من كتبه. غير أنّ ذلك يعد تطاولاً بائساً على ماهية الثقافات الذي لا جدوى منه، فإن كانت الثقافات واحدة فلماذا النقل و الترجمة إذن؟ و لماذا هذا الزخم في النظريات و المقاربات و الاستراتيجيات التي جاءت لتلقّن المترجم سبل تخطي المعضلات الوثيقة الصلة بالإختلاف و أنواعه؟ ألا يعتبر ذلك هدراً للوقت و إفساداً للجهد؟

لقد أكد الدارسون و الباحثون في حقل الترجمة أنّه يتعين علينا دراسة الترجمة إلى جانب ما سموه إعادة الكتابة، سواء كانت على شكل نقد أو ترجمة أو كتابة للتاريخ. و تصبح استراتيجية إعادة الكتابة في نظر هؤلاء، من أمثال أندري لوفيفير André Lefevere، ذات أهمية بالغة يوظفها الأوصياء على أدب ما لتطويع ما هو أجنبي من حيث الزمن أو الموقع الجغرافي أو كليهما معاً ليتماشى و نماذج الثقافة المستقبلة. و منه تصبح عملية إعادة الكتابة دليل على الوفادة و الاستقبال مع قابلية أن تحلل، و هو ما أنزلها المنزلة المرموقة التي تستحق في كل من نظرية الأدب و الأدب المقارن[1].

(1)ينظر سوزان باسنيت، م س، ص07.

و بكون المترجم إنسان ثقافي تتراءى له أبعاد تخص حاضنتين تختلفان في التركيب و في النسق، وجب عليه أن يعير اهتمامه للكم المعلوماتي الذي تطرحه هذه و تتقاذفه تلك و يمسك هو به خاصة و نحن نعيش عصر التدفق الهائل للمعلومات بامتياز. و ما يهم المترجم أكثر –و القارئ بدوره أيضاً– هي المعلومات المباشرة التي يمكن أن تنكشف و تفهم بسهولة، و من ثم معالجتها و حفظها في الأذهان كما هو الحال مع الترجمة العلمية و التداولية عموماً. أما فيما يخص الحقل الأدبي –الذي يحاكي ماهية الإنسان و ما يحيط بجوهره من أبعاد تتنوع بين نفسية و عرفانية و لغوية و اجتماعية و ما إلى ذلك– فتتنوع فيه الترجمة إلى ترجمة المعلومة المباشرة و ترجمة المعلومة الجمالية. و إذا قارنا بين كلتا الترجمتين نجد أنّ الأخيرة سهلة بكثير، لأنّ طريقة التلفظ و المفرداتية و تركيب الجمل و صياغة الأسلوب لا يمكن محاكاتها من دون أن يتعارض ذلك مع اللغة المنقول إليها و جمهور القراء فيها. كما بإمكاننا نقل المعنى السطحي من دون عناء، غير أنّ ما يشدنا أكثر هو نقل المعلومة غير المباشرة[1]. تقوم ترجمة المعلومة المباشرة، على العموم، بنقل المعنى الأجنبي أو محتوى النص المصدر، ذلك لأنّها تعمل على تحويل المعلومة الأجنبية التي تعتبر جديدة و مستحدثة بالنسبة للقارئ في اللغة المنقول إليها، كأن ننقل حبكة العمل الأدبي (الرواية على سبيل المثال) و أحداثه و حقائقه. أما ترجمة المعلومة الجمالية فتحتاج إلى نقل المفرداتية و تركيب الجمل و بنائها و أسلوب النص المصدر التي غالباً ما يعبر عنها بشكل النص الذي يضفي صبغة جمالية على قارئه. تكون الترجمة –وفق هذا المنظور– نوع من أنواع نقل المعلومات، و أنّ المعلومة غير المباشرة هي تلك التي تتخفى وراء المعلومة المباشرة. يمكننا أن نساوي بين المعلومة المباشرة و معاني النص، و بين المعلومة الجمالية و شكل و أسلوب النص. و بالتالي ثمة خاصيتان تفرقان بين هاذين النوعين من ترجمة المعلومات، ففي حين أنّ المعلومة المباشرة منطقية و موضوعية تأتي المعلومة الجمالية ذاتية و بلاغية[2].

لقد كان من الطبيعي إذن أن يعجّل هذا التضارب بين الرأيين (المقر بوجود الاختلافات الثقافية و المنكر له) بالتأسيس لمقاربتين في علم الترجمة تصوران الجدل نفسه القائم بين الموقفين. و يعتبر المنظر الأمريكي لورانس فينوتي Lawrence Venuti أول من صاغ لغوياً تسميتا (التدجين) (domestication) و (التغريب) (foreignization) في الترجمة، و ذلك في كتابه (The translator's Invisibility : A History of Translation) (اختفاء المترجم: تاريخ للترجمة). و قد شكلت ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية إحدى الفرص الناذرة التي مكنت مكتبتنا العربية عامة و رفوف مكتبتنا الترجمية خاصة من تحصيل كتاب فيه من الفائدة العميمة و الخير الكثير ما قد يغنينا –نحن طلاب الترجمة– عن ما سواه.

(1)see Ding Xiaosong, Why Foreignizing Translation Is Seldom Used in Anglo-American World in Information Age, (TranslationDirectory.com), Retrieved January 20, 2006, from (http://www.translationdirectory.com/article50.htm).
(2) Ibid.

لقد تطور مفهوما (التدجين) (domestication)[*] و (التغريب) (foreignization)[**] خلال السنوات الأخيرة ليتخذا شكل اختزال مناسب لرسم معالم استراتيجيتين ترجميتين تصنفان في خانة أخلقة الترجمة. كما أصبح هاذان المفهومان نمطان تحليليان في مجال الدراسات الوصفية. يوظف التدجين غالباً للإشارة إلى تكييف السياق الثقافي أو المدونة اللغوية لثقافة ما، أما التغريب فيشير إلى الحفاظ على السياق الثقافي الأصلي بجميع مكوناته.

و أدرج المفهومان لصاحبهما فينوتي Venuti لأول مرة في الدراسات الترجمية المعاصرة في سنوات 1991 و 1995 و 1998 بهدف التأسيس لبعد أخلاقي فيها. إنّ الممارسة و الخطاب الأنجلوأمريكيين المهيمنين على عملية الترجمة قد مهدا، بحسب فينوتي، لظهور استراتيجيتين سلستين و شفافتين تُنتجان تبادلاً ثقافياً متنوعاً. و يستمد فينوتي هذا التقابل (التدجين/التغريب) من شلايرماخر و محاضرته التاريخية التي يعود لها الفضل في تكوين أولى لبنات هاتين المقاربتين من خلال إعطاء السم (التدجين) و ترياقه (التغريب). و حتى فينوتي نفسه في مقاله الموسوم بـ (Genealogies of translation theory : Schleiermacher) لا ينكر على الرجل هذه الحسنى في محاولة منه

(*)In translation studies, many scholars use the word (familiarization) as being the synonym of (domestication). It has the following meaning:

"familiarize (also familiarise) Verb [with object] give (someone) knowledge or understanding of something: the need to familiarize pupils with dictionaries and their structures. **o** make (something) better known or more easily grasped: exercises which will help to familiarize the terms used.

-Derivatives familiarization noun".

(Oxford dictionary of English, op.cit, (Falun Gong/fanaticism), p631).

In french we have the word (familiarisation). It means the following:

"-Familiariser V.T [3] (avec). Rendre familier; habituer: Familiariser qqn avec les chevaux.

o Se familiariser V.pr (avec). S'habituer par la pratique, l'expérience: Se familiariser avec un nouveau portable.

Familiarité n.f grande intimité; manière familière de se comporter. **o** n.f. pl. Manières trop libres, pivautés.

familiarisation n.F. action de familiariser; fait de se familiariser".

(Le petit Larousse illustré, 2013, (fanatisme), p447).

We may also have :

"Familiariser [familjarize] V.tr (1)-1551- du latin familiaris « familier ».

1. Rendre (qqn) familier (avec qqch) **accoutumer**, **dresser**, **entraîner**, **habituer**. familiariser un soldat avec le maniement des armes.

se familiariser V.pron 1. (1584) Devenir familier avec qqn, avec les gens: s'apprivoiser. Enfant, oiseau qui se familiarise. **o** 2. Se familiariser avec qqch, se rendre familier par l'habitude, la pratique, l'exercise. **s'accoutumer**, **s'habituer**, se familiariser avec une technique.---peu familiarisé avec ce jargon".

(Le nouveau Petit Robert de la langue française 2010, Nouvelle édition du Petit Robert de Paul Robert et Amplifié sous la direction de Josette Rey-Debove et Alain Rey, Normandie Roto Impression, 2010 (Falot-Fan), p1008-1009).

(**)As synonym of (to foreignize) in english there is (to defamiliarize) too. It is defined as to be:

"defamiliarize (also defamiliarise). **o** Verb [with object] make (something) unfamiliar or strange: art serves to defamiliarize our experience of our own present".

(Oxford dictionary of English, op.cit, (D Deepavali/defeated), p457).

تتبع أصول نظرية الترجمة و المسار الأوحد ذو المنحيين الذي يمفصلها (إما تسفير للكاتب نحو القارئ (تدجين) و إما تسفير للقارئ نحو الكاتب (تغريب)). بيدأنّ فينوتي يعيب بحدة على شلايرماخر عدم منحه الجانب الأخلاقي أية أهمية ضمن أولوياته، بل إنّ تصنيفه ذاك أقامه على ضرورة اجتماعية في تكوين ثقافة وطنية بمساعدة النخبة المثقفة. و ثمة بعض الأسباب التي قدمها كل من فينوتي Venuti و برمان Berman تقف وراء انتهاج استراتيجية (التدجين) في الترجمة، منها تداولية محض و منها السياسية. أولها أنّ ما من مترجم إلاّ و يتعرض لقوى التمركز العرقي (ethnocentrism) التي لا يمكنه ردها بأي شكل من الأشكال، و التي ستحدد كيفية النقل بما في ذلك شكل النص في اللغة المنقول إليها، و ثانيها أنّ الناشر أو المراجع سيعتبر أنّ الترجمة مناسبة فقط إن جاءت سلسة في اللغة المنقول إليها بسبب أنّ السواد الأعظم من هؤلاء لا يتقنون اللغة الهدف جيداً. و ثالثها أنّ الناشرين في الولايات المتحدة الأمريكية و في بريطانيا يعكفون على اختيار أعمال يمكن فهمها و استيعابها دون مشقة في الثقافة المستقبلة. أما رابعها فتمتع الثقافة و النشر في العالم الأنجلوأمريكي بحس السيطرة، و عليه يبقى انتهاج (التدجين) بوصفه استراتيجية ترجمية هو المحبذ.

و من الأكيد أنّ تبديل الإختلافات التي توحي بكل ما هو أجنبي و غيري و غرائبي بعناصر مألوفة للقارئ في اللغة المنقول إليها من شأنه أن يسهّل عليه فهم الترجمة، غير أنّ الإقدام على هكذا خطوة سيحد من الخصوصيات الأجنبية للنص في اللغة المنقول إليها، هذا إن لم يمحوها تماماً.

تعتبر أخلاقيات الترجمة أكثر الجوانب أهمية في علم الترجمة، فقد استعرضت العديد من المقاربات القديمة استراتيجيات مختلفة لأخلقة الفعل الترجمي إلى أبعد الحدود، حتى أنّ بعضها عظّم التمثيل الوفي للنص الأصلي و راعى البعض الآخر التواصل كقيمة رئيسة ينبغي تجسيدها. يمكننا اقتفاء أثر الجدل القائم حول الترجمة (كلمة بكلمة) (الحرفية) (word-for-word) و الترجمة (معنى مقابل معنى) (الحرة) (sense-for-sense) من شيشرون Ciceron في القرن الأول قبل الميلاد، و القديس جيروم St Jerome أواخر القرن الرابع بعد الميلاد. كانت الترجمة (كلمة بكلمة) أثناء الحقبة الرومانية هي بالضبط ما نقول عنه أنّه تبديل كل كلمة في نص اللغة المنقول منها بمكافئها النحوي الأقرب في نص اللغة المنقول إليها[1]. بينما تتوقف الترجمة (معنى مقابل معنى)، بحسب بيكر Baker، على اختلاق نصوص سلسة في اللغة المنقول إليها تبلّغ معنى النص الأصلي من دون أن تشوّه اللغة الهدف[2]. يكمن الإختلاف الجوهري، مع ذلك، بين ما اقترحه فينوتي Venuti من استراتيجيات و كل الاستراتيجيات الأخرى في أنّ استراتيجيتي (التدجين)

(1)see Esmail Zare-Behtash and Sepideh Firoozkoohi, A Diachronic Study of Domestication and Foreignazation Strategies of Culture-Specific Items: in English-Persian Translations of Six of Hemingway's Works, World Applied Sciences Journal, 7 (12), IDOSI Publications, 2009, p1576.
(2) Ibid, p1576.

(domestication) و (التغريب) (foreignization) تأخذان بعين الاعتبار تأثير العوامل الثقافية و الأيديولوجية في الترجمة، و تراعيان تأثير الترجمات على القراء المستقبلين و على الثقافات.

تتبنى استراتيجية التدجين (domestication strategy) أسلوباً شفافاً و سلساً بغية التخفيف من غرابة النص الأجنبي (the strangeness of the foreign text) للقراء في اللغة الهدف. و يعني ذلك أن يجعل المترجم النص مألوفاً و قابلاً للتمييز، و بالتالي تقريب الثقافة الأجنبية إلى ثقافة القراء الخاصة بهم. و يشير فينوتي إلى أنّ كل ترجمة هي في الأساس عبارة عن تدجين الذي يتم، في الواقع، في الثقافة المحلية (domestic). و قد سلّم شلايرماخر بأنّه لا يمكن أبداً للترجمة أن تناسب كلياً النص الأجنبي، و أجاز للمترجم الاختيار بين طريقة التدجين التي يتم من خلالها التخفيف من حدة التمركز العرقي للنص الأجنبي إلى القيم الثقافية الخاصة باللغة الهدف التي تعيد الكاتب إلى منزله.

تقولب الترجمة المواضيع المدجنة (domesticated subjects) عبر تمكين مسار (انعكاس الصورة) (mirroring) أو (إدراك الذات) (self-recognition) من أن يأخذ مجراه. يصبح النص الأجنبي، وفقاً لذلك، مفهوماً عندما يتعرف القارئ على نفسه في الترجمة من خلال كشف القيم المحلية (الوطنية) التي دفعت إلى اختيار هذا النص الأجنبي، و التي نقشت عليه بواسطة استراتيجية خطابية معينة. و يقول فينوتي Venuti أنّ (التدجين) طريقة شفافة يتم تبنيها للتقليل من غرابة النص الأجنبي بغية أن يلائم (convenience) القراء في اللغة المنقول إليها، و هو ما من شأنه أن يدفع بهم إلى الإحساس بالراحة لأنّ ما يتمثل لهم في نص الترجمة من أبعاد مختلفة يعرفونها حق المعرفة، بل إنّها تتميّزهم و يميّزونها.

تقتضي هذه المقاربة (التدجين) بعض الخطوات مثل الاختيار الحذر للنصوص التي تعير نفسها لأن تترجم على هذا النحو، و تبني مدرك لأسلوب سلس ذو صوت طبيعي في اللغة الهدف، و تأويل المواد المفسرة و الشارحة ذات الصلة بالنص، و إزالة أفضليات اللغة المنقول منها (preferences)[1]. تحيلنا استراتيجية التدجين (domestication strategy)، كما قاربها فينوتي Venuti، على كل مشاريع الترجمة التي تتطابق مع القيم (values) المهيمنة حالياً على ثقافة اللغة الهدف، و تقارب الأجنبي بتحفظ و باستيعابية على نحو منفتح جداً مستحوذة عليه لدعم القواعد المحلية (domestic canons)، و ميول النشر (publishing trends)، و التحالفات السياسية (political alignments)[2]. و غالباً ما تستلزم ترجمة النصوص من ثقافة إلى أخرى أكثر من خيار بسيط حول ما الذي ينبغي ترجمته و ما لا ينبغي ترجمته، أي أنّها تتطلب الاختيار بين منهجيتين ترجميتين هما (التدجين) (domestication) و (التغريب) (foreignization).

إنّ القرار المبدئي بخصوص أي الاستراتيجيتين ينبغي أن نوظف (إما ترجمة تدجينية أو ترجمة تغريبية) يمكن أن يؤثر على

(1)see Esmail Zare-Behtash and Sepideh Firoozkoohi, op.cit, p1577.
(2) Ibid, p1578.

سير عملية الترجمة برمتها في أي مشروع ترجمة الذي سيؤدي إما إلى نص هدف يمكن تمييزه بسهولة من قبل جمهور القراء في اللغة الهدف أو إلى نص يذكّرهم –و باستمرار– بالإختلاف الثقافي.

تتم الموازنة بين الممارسات التدجينية و التغريبية بنوعين من الترجمة: (الترجمة الشفافة) (transparent translation) و (الترجمة المقاومة) (resistant translation). يتم في النوع الأول إدراك الخطاب الشفاف على أنّه صورة معكوسة للكاتب، و يثمّن النص الأجنبي بوصفه نصاً أصلياً (original)، و أصيلاً (authentic)، و حقيقياً (true). و تخفّض قيمة النص المترجم بوصفه نصاً مشتقاً (derivative) يقدم صورة زائفة (simulacra)، و يكره الترجمة على تقديم مشروع طمس منزلتها من المرتبة الثانية عبر إجراء سلس. أما النوع الثاني فيرتكز على (جمالية الانقطاع) (an aesthetic of discontinuity)، بحيث يمكنه بجدارة صون هذا الإختلاف، هذه الغيرية (otherness) من خلال تذكير القارئ بالربح و الخسارة (gain/loss) أثناء سير عملية الترجمة، و الهوة التي لا يمكن جسرها بين الثقافات[1].

تعد (السلاسة) (fleuncy) من أهم الركائز التي تقوم عليها أي ترجمة بالتدجين. غير أنّ هذه السلاسة لن تتأتى إلاّ من خلال اختفاء المترجم و تواريه عن الأنظار. و يوظف فينوتي Venuti مصطلح (الاختفاء) (invisibility) لوصف حال المترجم و نشاطه ضمن حيز خاص يعنى بالثقافة الأنجلوأمريكية المعاصرة. و يشير مفهوم الاختفاء إلى نوع من العلاقات التبادلية تجمع بين ظاهرتين: تعنى الأولى بانطباع يقول عنه فينوتي بأنّه مضلّل يوحي به النص المترجم نتيجة تلاعب المترجم باللغة الانجليزية، و تعنى الثانية بالطريقة المتبعة في قراءة و تقييم الترجمات التي لا تقتصر على الثقافة الانجليزية بل تهيمن على الثقافات الأخرى. و يدفع ذلك بالناشرين و النقاد و القراء إلى عدم قبول الترجمة إلاّ إذا كانت سلسة و شفافة تخلو من أية خصيصة لغوية و أسلوبية غريبة[2] بغض النظر عن نمط النص المترجم (أي النمطية النصية textual typology)، سواء كان دينياً أم علمياً أم قصصياً، معاصراً أو قديماً. و قد نفهم مما تقدم أنّ التغريب و ما فيه من غريب يتدرج من فئة إلى أخرى، و من نوع إلى آخر؛ بمعنى أنّ الغريب في اللغة قد يولد الغريب في الدلالة اللّذان سينتجان حتماً الغريب في الثقافة. و يعني ذلك أنّ كل غريب في الترجمة (اللغوي و الدلالي و الثقافي) لا ينتج إلا عن ترجمة غير شفافة الذي قد يشبّه بتلك التشققات و آثار الكسور التي تتراءى لنا من وراء الزجاج الشفاف. و يعبر نورمان شابيرو Norman Chapireau عن ذلك بقوله: "إنّ الترجمة في رأيي هي محاولة إنتاج نص يبلغ من فرط شفافيته حداً يبدو معه كما لو لم يكن ترجمته، فالترجمة الجيدة هي لوح زجاجي لا نلاحظ وجوده إلا إذا شاب نقاءه بعض الشوائب،

---

(1)see Esmail Zare-Behtash and Sepideh Firoozkoohi, op.cit, p1579.

(**2**)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص13.

كالخدوش و الفقاقيع، و هو ما لا يجب أن يكون، فلا ينبغي أن تلفت الترجمة النظر إلى نفسها"[1].

يسمي فينوتي Venuti (وهم الشفافية) كل ميل ترجمي أراد به صاحبه، أي المترجم، عن عمد، الإيحاء به أنّ ترجمته انعكاس مثالي لشخصية المؤلف الأصلي، و لنواياه و مقاصده. أو بعبارة أخرى، إنّها نص أصلي خام و ليست إعادة قراءة فتأويل فإعادة كتابة. و يخضع هذا المنحى الإجرائي إلى قواعد صارمة و مضبوطة لكنها قد تكون متهاوية و ساذجة أيضاً. و نقصد بذلك أنّه في الكثير من الترجمات التي قد تصادفنا، لا يتحقق التدجين أو التغريب سوى بإجراء ترجمي بسيط وُظف من قبل المترجم، فمثلاً أن ينتهج الترجمة الحرفية (literal translation) دليل على ميل تغريبي لا يقبل النقاش لأنّ النقل الحرفي للكلم قد استماله خشية أن يتسرب المعنى و يختل القصد، فاختار أن لا تكون الترجمة سلسة و بالتالي أن لا تكون شفافة أيضاً. و يعمد المترجم المنتهج لاستراتيجية التدجين إلى إنتاج نص سهل القراءة كتعهده بتوظيف ما هو شائع في اللغة، و العمل على اتمام الجمل الناقصة، و استخدام التراكيب التي توفر الوحدة العضوية للنص، و إعادة بناء الجمل ذات البناء الغريب أو الملتوي بما يتماشى و التراكيب في اللغة المنقول إليها، و الإصرار على إزالة الغموض بالتركيز على معنى واحد مما قد يوحي به النص من معان متعددة[2]. و يشبّه فينوتي هذا الوهم (وهم الشفافية) بالستار الحاجب الذي يخفي الظروف التي أدى المترجم في ظلها عمله، و التي تأتي في مقدمتها تدخله الحتمي في النص الأجنبي، بحيث كلما زادت سلاسة النص المترجم زاد اختفاء مترجمه و زاد الكاتب الأصلي، و ما أراد توصيله من معان، ظهوراً. تلكم هي القاعدة الرياضية التي تحكم سير كل ترجمة تدجينية بصرف النظر عن ما إذا كان هذا التدجين يقل أو يعظم فيها.

و ما يحز في نفس فينوتي Venuti سيادة مثل هذه الأفكار في الثقافة الأنجلوأمريكية، فنراه يعيب على نقاد الترجمة –على قلة اهتمامهم بالترجمة بوجه عام– تركيزهم في تعليقاتهم على أسلوب الترجمة متجاهلين مسائل أخرى لها أهميتها أيضاً مثل دقة الترجمة، و نوعية القراء المتوقعين لها، و قيمتها الإقتصادية في سوق الكتاب، و علاقتها بالاتجاهات الأدبية السائدة، و موقعها من حياة المترجم المهنية[3]. و ما يثير دهشة فينوتي أنّه طيلة الأعوام الخمسين الماضية، أجمعت تعليقات النقاد على مدح السلاسة و إدانة أي انحراف عنها أيا كان نوع النص المترجم. و رصد فينوتي العديد من الأمثلة عن تلك التعليقات تخص ترجمة الفن القصصي في أوروبا و أمريكا الجنوبية التي تشيد كلها بالسلاسة في نقلها. و تصور هذه النماذج المستقاة –إن هي جمعت إلى بعضها البعض– السمات التي تخلق السلاسة و تلك التي تسوق انعدامها في الترجمة. و يصف فينوتي الترجمة السلسة بأنّها "تلك التي تستخدم الانجليزية المعاصرة لا المهجورة، و التي تفضل الألفاظ

(1)لورانس فينوتي، م س، ص13.

(2)م ن، ص14.

(3)ن، ص14.

الشائعة لا المتخصصة، و تعتمد على اللغة القياسية لا الدارجة، كما تقوم السلاسة على تجنب الكلمات الأجنبية (الموصوفة هنا بالانجليزية المولّدة)، فلا تستخدم التعبيرات البريطانية في الترجمات الأمريكية مثلاً، و كذا تقوم على تجنب التراكيب النحوية التي تغالي في إخلاصها للأصل فتبتعد بذلك عن مصطلح اللغة المستهدفة، و الاستيعاض عن مثل هذه التراكيب بأخرى تستقيم للقارئ و تسلمه زمامها بسهولة و يسر؛ مما يضمن تحديد المعنى و الوصول الحتمي إلى نتيجة منطقية (فلا تدع مجالاً لذلك الارتطام الذي يتحدث عنه برادي). فالترجمة السلسة هي ترجمة يألفها القارئ و يفهمها في الحال.. إنّها ترجمة مستأنسة، لا أجنبية إلى حد التشتيت و الإزعاج (كما يقول ديكشتاين)، تتيح للقارئ الوصول إلى "الأفكار العظيمة" من دون مواجهة عقبات، و تأخده مباشرة إلى ما هو موجود و حاضر في الأصل"[1]. و عليه يبذل المترجم الذي يسعى وراء التسليس جهداً قاراً حتى يحجب نفسه، فيعطي انطباعاً زئفاً عن الشفافية، و هو انطباع يخفي في الآن نفسه طبيعته الزائفة بحيث يبدو النص المترجم طبيعياً أو أنّ يد الترجمة لم تمسسه قط.

إنّ مفهوم الشفافية، في نظر فينوتي Venuti، لا يسيطر على الترجمة إلى الانجليزية فحسب، بل يتعداه إلى الكتابة بوجه عام، اليدوية و الآلية، التي شهدت تطوراً هائلاً خاصة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة المبتكرات الحديثة في عالم تكنولوجيا الاتصال، و التي كرّست لخدمة مجالات الدعاية و الترفيه و دعم إنتاج السلع و تبادلها. و قد مس هذا التطور دور اللغة –و غيرها من وسائل الاتصال– لتحقيق المنفعة المادية، فكانت أقصى الأولويات أن تكون المرسلة مفهِمة، و أن تتوفر على المصداقية المطلوبة. ذلكم ما أشار إليه الشاعر الأمريكي تشارلز برنستين Charles Bernstein الذي اشتغل في مجال الكتابة الدعائية لعدة أعوام، بحيث يقول إنّ الجانب الاقتصادي وراء سيطرة مبدأ الشفافية على الكتابة المعاصرة بوضعه حدوداً للانحراف عن المقاييس لا ينبغي على أي كاتب أن يتجاوزها[2]. و لم يفرض هذا الأسلوب الشفاف و البسيط سلطانه على اللغة الانجليزية بين عشية و ضحاها، بل استغرق الأمر قروناً عديدة و أزمنة مديدة، فكان نتيجة لما وصف "بالاتجاه التاريخي إلى توحيد الهجاء و النحو، و الذي سار يداً بيد مع إيديولوجية تفضيل انسيابية التعبير و سلاسته، و خلوه من الشذوذ و الغرابة، و تحاشيه للسماجة و الافتقار إلى الرشاقة، إلخ، أي، و باختصار، تجنب كل ما من شأنه جذب الانتباه إلى اللغة في حد ذاتها"[3]. و قد كان لهذا الاتجاه أثره البالغ على الأدب الأنجلوأمريكي المعاصر، بحيث سيطرت الواقعية على الأدب القصصي و ساد الشعر الحر الأقرب إلى النثر في طبيعته. و قد نجم عن ذلك تتبع الشفافية كمطلب أساسي في الترجمة مهما كان الحقل الذي ينتمي إليه النص المراد ترجمته. يعلق ج.م كوهن J.M Cohen على ذلك فيقول "لقد تأثر مترجمو القرن العشرين بطريقة تدريس العلوم و ازدياد الاهتمام

(1)لورانس فينوتي، م س، ص18.

(2)م ن، ص19.

(3)ن، ص19.

بالدقة (في التعبير) ... فركزوا بوجه عام على المعنى و التفسير، متجاهلين ما لمحاكاة الشكل و الأسلوب من أهمية"[1]. كما أشار كوهن Cohen إلى الاستراتيجيات التقريبية التي يتبعها المترجمون لبلوغ مقاصدهم، فنراه يتكلم عن "خطورة اختزال التفرد الأسلوبي لكل كاتب و تجاهل ما يميز كل لغة عن غيرها من حيّل لفظية و أسلوبية، باتباع أسلوب نثري بسيط موحد لا تنجو منه إلاّ أجود الترجمات"[2]. لكن كوهن قد فاته، بحسب فينوتي، أنّ المعيار الذي تتحدد بموجبه جودة الترجمات هو معيار انجليزي صرف، فالترجمة الهادفة إلى إبراز المعنى و تفسيره، و القائمة على التوصيل لوحده تعيد كتابة النص الأجنبي وفقاً لقيم اللغة الانجليزية مثل الشفافية، و تعتم في الوقت نفسه على ما يبذله المترجمون من جهد في سبيل تحقيق الشفافية فتخفيه عن جميع الأعين بما في ذلك أعين المترجمين أنفسهم.

يقول فينوتي Venuti بوجود سبب آخر لاختفاء (أو خفاء) المترجم الذي يقوم على هيمنة المفهوم الفردي للإبداع و سيطرته على الساحة الثقافية الأنجلوأمريكية. يعد إبداع الكاتب –وفق هذا المنظور– تعبيراً حراً عن أفكاره و مشاعره، و يعد ما يكتبه بالتالي تمثيلاً أصيلاً و شفافاً لذاته لا دخل فيه لأية عوامل غير فردية من لغوية و اجتماعية و ثقافية التي من شأنها أن تشوب أصالة ذلك الكاتب. و لا شك أنّ لذلك المفهوم أثره السلبي على وضع المترجم الذي يتبدى في أمرين: فمن جهة، ينظر إلى الترجمة، في إطار ذلك المفهوم، على أنّها نص من الدرجة الثانية، و أنّ النص الأجنبي وحده هو الأصل و هو التمظهر الحقيقي لشخص الكاتب و نواياه و مقاصده. و تطالب الترجمة، من جهة أخرى، بأن تنزع عن نفسها منزلتها الثانوية بواسطة انتهاجها الشفافية التي تضفي عليها الانطباع المضلّل بحضور الكاتب الأصلي فيها، و بكونها عملاً أصلياً لا ترجمة. و قد بلغ هذا المفهوم الفردي للإبداع حداً من الهيمنة يجعله العامل الرئيس في تشكيل الصورة التي يمثل بها المترجمون أنفسهم، بل قد يدفع ذلك المفهوم بعض المترجمين إلى صياغة علاقتهم بالنص الأجنبي في قالب سيكولوجي (يسميه فينوتي بدفعة شعورية) يتماهون فيه مع الكاتب الأصلي. و يقوم المترجمون، من خلال الدفعة الشعورية تلك، بتمثيل أدوار الكتاب فتبدو ترجماتهم كما لو أنّها نصوصاً أصلية. و على الرغم من وعيهم التام بأنّ أي وجود للكاتب الأصلي في الترجمة هو وهم ناجم عن إنتاجهم الشفافية، يؤكد هؤلاء ارتباطهم بالكاتب الأصلي في علاقة نفسية تنبني على كبح شخصياتهم المستقلة. و يكون الاختفاء، من وجهة النظر تلك، نوع غريب من انمحاق الذات؛ طريقة لرؤية الترجمة و ممارستها تقوم على تأكيد هامشيتها في الثقافة الأنجلوأمريكية بلا منازع.

و على الرغم من أنّ العشرين عاماً الأخيرة قد شهدت تأسيس أقسام الترجمة في الجامعات البريطانية و الأمريكية، و كذا نشأة الهيئات المعنية بالترجمة و برامجها، و قيام المؤسسات الأدبية برصد جوائز لأفضل الترجمات و المترجمين، يرى فينوتي أنّ

(1)لورانس فينوتي، م س، ص20.

(2)م ن، ص20.

واقع عمل المترجم لا يلقى إلا أقل تقدير، حتى و إن كان نتاجه هو واحدة من تلك الترجمات التي تكتسب أهمية خاصة. بل إنّ المقالات النقدية التي تتناول الترجمة تُسقط في الغالب اسم المترجم و لا تذكره إلا في إشارة ثانوية مقتضبة عن مدى شفافية الترجمة.

إنّ هامشية المترجم في الثقافة الأنجلوأمريكية أمر يكرس له الوضع الثقافي المبهم و المزري للترجمة، و هي الحقيقة التي تصورها قوانين حقوق النشر و بنود عقود الترجمة. فعلى سبيل المثال، ينص القانون الأمريكي و البريطاني على أنّ الترجمة (اقتباس) (adaptation) أو (عمل مشتق) (derivative work) من آخر (إبداعي أصيل) لا يملك حقوق نشره، بما في ذلك الحق الحصري لاقتباس أعمال أخرى منه إلا (لمبدعه الأصلي). و هو ما يعني أنّ المترجم تابع للكاتب الأصلي المتحكم تماماً في نشر الترجمة ما دام هذا الأخير خاضعاً لحقوق النشر التي ستظل سارية حتى مرور خمسين عاماً من وفاة الكاتب الأصلي[1]. لكن و بما أنّ المقصود بالكتابة هنا هو إيجاد وسيط تعبيري لتوصيل فكرة موجودة بالفعل بما يضمن أصالة اللغة دون الأفكار، فإنّ نفس القانون الآنف ذكره يسمح للمترجم بالانتفاع بحقوق نشر ترجمته استناداً إلى اعتماده في عمله على لغة تختلف عن لغة العمل الأصلي، و على هذا الأساس يمكن اعتباره مبدعاً. و هو ما يعني أنّ ذات القانون يعتبر المترجم كاتباً و ليس بكاتب في الآن نفسه.

يخلص فينوتي Venuti إلى أنّ نجاح اختفاء المترجم يكمن في التعتيم على كل العوامل و الظروف التي تكتنف عملية الترجمة إلى الانجليزية، و كل الآثار التي تترتب عليها، إذ يحجب كل ما يقوم به المترجم من خطوات و ما يلجأ إليه من إجراءات، من تحديد لأولوياته، و اتخاذ قرارات بالتضحية ببعض الأشياء في سبيل الإبقاء على أخرى و ما إلى ذلك، و التي تعتبر من صميم عملية الترجمة و إحدى أهم إحداثيات سيرها على الإطلاق. إنّ اختفاء المترجم وهم تختلقه السلاسة فيختلق بدوره تدجيناً خبيثاً للنص الأجنبي يخفيه في الوقت نفسه تحت قناع الشفافية. و إن كان فينوتي يعرض واقع حال الترجمة في الثقافة الأنجلوأمريكية و ربما مستقبل مآلها أيضاً، فإنّ الكثير من المسائل التي ناقشها تمسك بواقع الترجمة و ترهن آفاقها في كل زمان و مكان. و قد يقول البعض أنّ فينوتي تنزع به نظرته المتمركزة عرقياً لثقافته الانجليزية و للعالم الأنجلوأمريكي الذي ينتمي إليه، لكن الإقرار بالحقيقة المتمثلة في كون اللغة الانجليزية أكثر اللغات تداولاً على وجه هذه البسيطة إلى حد اعتبارها (لغة مشتركة) (a lingua franca) أمر لا مفر منه. و بالتالي فإنّ آراء فينوتي و معها المعطيات و التحليلات التي يسوقها تلزمنا بشكل كبير ليس فقط لأننا نترجم من و إلى اللغة الانجليزية بدافع الحاجة العلمية و الضرورة الحضارية، بل لأننا أيضاً مجبرون على معرفة أحوال الترجمة في مداها العالمي، و ما يستجد فيها من مستجدات على الأصعدة كافة تلبية لحاجة الدرس الترجمي العربي الذي نتوق كلنا إلى بلورته و لو بمحاكاة الغرب

(1)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص23-24.

و تقليد واقعه إلى حين.

إنّ التسليس و الشفافية في الثقافة الأنجلوأمريكية يعرّضان النصوص الأجنبية لعملية إعادة كتابة وفقاً لقيم هذه اللغة، بل إن اختيار نصوص بعينها للترجمة يتوقف على مدى قابلية تلك النصوص لأن تترجم بطريقة سلسة. و الناتج هو ذلك التهميش الثقافي و الإستغلال المادي الذي يعاني منه المترجمون إلى اللغة الانجليزية منذ الأزل، بحيث لا يعترف لهم بأي مكانة تذكر و لا يحصلون على المقابل المادي اللائق بجهدهم على الرغم من الدور الحيوي الذي يقومون به لدعم الثقافة الأنجلوأمريكية و بسط سلطانها.

كما يقف وراء اختفاء المترجم افتقار التوازن التجاري الذي يعضد سيطرة تلك الثقافة و يحد من رصيدها بشأن القيم الأجنبية من خلال فرض السياسات التقريبية على ذلك الكم القليل الذي ينقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة الانجليزية. و يبين ذلك أيضاً عن حالة الرضا المفرط عن الذات التي أصبحت عليها الثقافة الأنجلوأمريكية، و التي أضحت تسوق علاقتها مع الآخر و ثقافته؛ حالة يقول عنها فينوتي بأننا لن نبالغ بوصفها أنّها إمبريالية تجاه الخارج، و خوف مرضي من الأجانب في الداخل.

يعتبر مفهوم (التكافؤ الديناميكي) (dynamic equivalence) مفتاح نظرية الترجمة عند نيدا Nida الذي أشار إليه لأول مرة في كتابه (نحو علم الترجمة) (Toward a science of translation)، و من ثم طوّره في مؤلفه الآخر (نظرية الترجمة و ممارستها) (The theory and practice of translation) بكثير من الشرح و التفصيل. و يعرّف نيدا Nida (التكافؤ الديناميكي) على أنّه مدى الاستجابة الفعلية لمتلقي النص في اللغة المنقول إليها بالطريقة نفسها التي استجاب بها المتلقون في اللغة المنقول منها. و بخلاف نظريات الترجمة التقليدية التي ترتكز على المقارنة اللفظية بين النص الأصل و ترجمته، تبدّل مفهوم نظرية نيدا Nida للترجمة بحيث انتقل من الاهتمام بشكل المرسلة إلى ردة فعل المتلقي، أي أنّها ترجمة تضع نصب عينيها القارئ في المقام الأول. يشترط على المترجم في مثل هذه الحالات إعادة تمثيل دقيقة للعلاقة الديناميكية التي ينبغي أن تكون في جوهرها نفس العلاقة التي كانت بين المتلقي الأول و النص الأصلي، و هو ما يتطلب تعبيراً سلساً و صياغة طبيعية لمكنوناته.

و في سعيه إلى التبشير و نشر الديانة المسيحية، كان هم نيدا Nida في ذلك مزدوجاً: أن ينقل المعلومات و الايحاءات التي يحتويها الكتاب المقدس، و أن يحث الشعوب على الدخول في هذا الدين و اعتناقه. و بغية تحقيق القصد الأول، لجأ نيدا إلى إضافة بعض التوضيحات البسيطة لبعض المفردات الغريبة أو الحديثة التي يجهلها المتلقي المبشر له من قبيل[1]:

(1)جينا أبو فاضل، المترجم في عماريتي النص: الشكل سمة دخول إلى المعنى، سلسلة المصدر الهدف، مدرسة الترجمة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة القديس يوسف، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2005، ص100.

(city of Jerusalem; rite of baptism; a linen cloth; the sect of the Pharisee). أما فيما يخص القصد الثاني، فتطلب الأمر من نيدا الحذر حتى لا يصدم المتلقي بأفكار أو سلوك التي قد لا تتقبلها ثقافته فتكون النتيجية نفوراً من الديانة الجديدة و الإعراض عنها. هنا يأتي دور (التكافؤ الديناميكي) (dynamic equivalence) الذي يضع نصب عينيه ما يلائم بشكل أفضل ثقافة اللغة المنقول إليها. و يعطي نيدا كمثال عن ذلك الآية التالية المستلة من الرسالة إلى الرومانيين: (Salute invicen in osculo sancto). تكون ترجمتها الحرفية، بحسب نيدا، على النحو التالي: (Greet one another with a holy kiss) (صافحو بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة). غير أنّ ذلك قد يشكل عائقاً في سبيل بلوغ الغاية التواصلية لدى بعض الأقوام و ثقافاتهم، و سيكون بالتالي المكافئ الديناميكي الذي يتناسب أكثر و ثقافة بعض الشعوب هو: (صافحو بعضكم بعضاً مصافحة قلبية) (Give one another a hearty handshake all around)[1]. و قد يكون السبب الرئيس في ذلك إختلاف الرؤى الحاكمة بأمرها في الطرق التي ننظر بها إلى عوالمنا الحسية و المادية، لكن ثمة أمر آخر قد نغفل عنه في الكثير من الأحيان و هو استحالة الإحاطة بكل أبعاد النص المصدر[*].

يقول نيدا أنّ (التكافؤ الديناميكي) (dynamic equivalence) يهدف إلى جعل التعبير و الصياغة يبدوان طبيعيين بشكل تام، و يحاول أن يربط المتلقي بأنماط السلوك المتصلة بالسياق الخاص بثقافته. يوحي تعريفه للتعبير في الترجمة –الذي وصفه على أنّه حالة من الصياغة الطبيعية– بأنّ نظريته ترتكز على استراتيجية التسليس، و هو ما يعني إذن أنّ التأثير المنشود يستلزم انتهاج استراتيجيات التدجين (domestication strategies). ينبغي على المترجم في نظر نيدا Nida أن يكون ذلك الشخص الذي بمقدوره أن يضع ستاراً حاجباً لتلك الإختلافات اللغوية و الثقافية حتى يتمكن الناس من رؤية الأشياء الوثيقة الصلة بالنص[2]، و تلك هي روح الترجمة بالتدجين. كما يستلزم على الترجمة بالتكافؤ الديناميكي أن تلائم لغة المتلقي و ثقافته بغية جعل النص المترجم واضحاً و طبيعياً بالنسبة إليه بصفته غير متعود على لغة الأصل و ثقافتها. و بما أنّ (التدجين) (domesticating) يقتضي دائماً تعويض معالم اللغة الأصل بمثيلاتها في اللغة الهدف، فإنّ بعض المنظرين اعتبروا أنّ العديد من النظريات –بما فيها نظرية نيدا Nida– تؤيد الترجمة بالتدجين إلى أقصى الحدود. و يعيب فينوتي Venuti على نيدا Nida تبنيه هذا النهج التدجيني و استماتته في الدفاع عنه. غير أنّه

---

(1)جينا أبو فاضل، م س، ص101.

(*)يؤكد أورتيغا إي غاسيت Ortega y Gasset على ذلك بقوله:

(Es possible, por lo menos lo es casi siempre, acercanos a todas las dimensiones del texto original). (Ibid, p101).

(2)see Hanna, Stella and Doris, Analysis of Nida's dynamic equivalence from the perspective of domestication and foreignization, Sino-US English Teaching, Vol.4, N°.9 (Serial N°45), USA, Sep. 2007, p75.

يرى في المقابل بأنّ تموقع نيدا Nida جد طبيعي بسبب أنّه أمريكي و ينتمي إلى الثقافة الأنجلوأمريكية التي طالما وقفت ضد النهج التغريبي، و حاربت كل من تسول له نفسه أن يبلغه.

لقد شبّه أنطوان برمان Antoine Berman المترجم برجل له صديقان يريد أن يعرّف أحدهما على الآخر، بحيث يملك في ذلك خياران: إما أن يدفع بالأول إلى زيارة الثاني و إما أن يحث الثاني على زيارة الأول. يدخل ذلك في صميم المهام الملقاة على عاتق المترجم، إذ تمثل أرض الترجمة فسحة رحبة يلتقي فيها المؤلف و القارئ، فإما أن تكون الملاقاة حميمية تدفع بالوقت لأن يمر بسرعة دون أن ينتبه إليه الطرفان، و زادهما في ذلك الألفة بينهما، و إما أن يكون اللقاء منفراً يشعر كل منهما بدقائق الزمن تمر و لا تنتهي، و عذرهما في ذلك غربة و تغريب و عدم ألفة. و ثمة فئة من المترجمين تؤثر القارئ على المؤلف باعتبار أنّ الترجمة موجهة إليه، و أنّ له السبق في ذلك فإكراماً لعينه يكرم مرج عيون لتستباح التنازلات بأنواعها اللغوية و الدلالية و الثقافية. يسمى أولئك بالهدفيين (the targeters). و بإمكاننا أن نشرح مكامن موقفهم ذاك من خلال النقاط الثلاث التالية: أولها احترام القارئ، بحيث يمنح المترجم الهدفي الأفضلية للقارئ الهدف لأنّه ينبغي في نظره مراعاة إحساسه المرهف فيتحاشى أن يصدمه بكل ما هو غريب عن تقاليده اللغوية و الخطابية و ممارساته الثقافية(*)، و سبيله في ذلك (التكييف) (adaptation) (أو الأقلمة acclimatization)، فتصبح الخمرة عصيراً يعتصر للقارئ إن كان مسلماً، و يستحيل البحر لجّة ليجوز لها أن ترضع الرجل الغريق، و تتحول شجرة الكرز إلى شجرة ثمرية أخرى إن كان القارئ ينتمي إلى بيئة جغرافية ليس بها كرز. و في الحقيقة، لا وجود لأدنى مشكل، بالنسبة لهؤلاء المترجمين، إن أصاب النص المصدر تغييراً أو تعديلاً، و إن تعرض لحذف أو إضافة، إذ يبقى المهم أن تصل المرسلة إلى متلقيها الهدف بلا تعثر، و أن يفهمها هذا الأخير من دون أن يحتّم عليه بذل العناء الشديد أو العودة إلى النص المصدر. و لأجل بلوغ هذه المرامي جميعها، يلجأ أصحاب هذا التوجه إلى عملية تدجين (domestication) أو طبعنة (naturalization) يزول معها الغريب و غرابته، و يحّل محله المألوف و ألفته. و لا ترى المترجمين هنا غافلين عن أنّهم يغيّرون في النص الأصلي، و يلحقون به الخسارة تلوى الأخرى، لكن فيهم من الواقعية ما يجعلهم يتخلون عن ترجمة مثالية لا يؤمنون بإمكانية التوصل إليها فيتقبلون الخسارة كأمر واقع لا محالة، و يقنعون بها كأهون الشرور. فخير أن تبلغ المرسلة قارئها و قد أخضعت لعمليات بتر و تجميل و تهذيب و تنقيح طفيفة على ألاّ تبلغه البتة. و ثانيها مراعاتهم أصول اللغة المنقول إليها، بحيث ينبغي ألا يشعر القارئ بأنّ النص مترجم بل أن يحسبه كتب أصلاً باللغة الهدف. يتحتم عليهم الأخذ في الحسبان أصول اللغة التي يترجمون إليها بأن تأتي سليمة و سلسة في

(*)pour Antoine Berman, la traduction "ne doit pas *heurter* par des « étrangetés » lexicales ou syntactiques".

(ينظر جينا أبو فاضل، م س، ص180).

آن واحد، فلا تبين عن أي أثر للغة المصدر، بل أن يأتي الأسلوب طبيعياً و منساباً لا تأنف اللغة الهدف من تراكيبه. و لا بأس، في نظر هؤلاء المترجمين، أن يأتي نص الترجمة أجمل من أصله. و قد أدى التزويق و التنميق اللغويان –اللّذان يتسم بهما المتعصبون من الهدفيين، و قد بالغوا في تملّك النص فاستملكوه حتى بات لهم أكثر منه لمؤلفه– إلى نشوء ظاهرة النصوص التي عرفت بـ (الجميلات الخائنات) (les belles infidèles)، و التي وطّنت الرأي السائد لدى هؤلاء في أنّ الروح تحيي بينما الحرف فيقتل. و مرد ذلك أنّ المترجم لا يتنحى أمام المؤلف بل يبقى محافظاً على دوره كصاحب قرار و مشارك في العملية الإبداعية. و قد يفسر مثل هذا السلوك بأنّه محاولة من هؤلاء المترجمين لإثبات ذواتهم من خلال الترجمة، و أنّه بمقدورهم أن يقفوا ندّاً لند مع المؤلفين في أنّ باستطاعتهم هم أيضاً التأثير في القراء، كما إنّه يمثل رداً حازماً على كل من تسوّل له نفسه أن يبعد المترجم و يعزله خارج أسوار الفعل الترجمي، و كأنّه شخص عديم النفع و الفائدة. توصف هذه النزعة الترجمية، من قبل البعض، بأنّها ميل فرداني يستهوي هؤلاء، و الذي يبتغون من ورائه استرجاع حق يعتبرونه مسلوباً. أما ثالثها فالمحافظة على الهوية الوطنية. فقد يشكل الاحتكاك المفرط بثقافة الآخر خطراً على الهوية الذاتية الوطنية(*)، و عليه كان لا بد من اتقاء هذا الشر و تطهير النص الهدف من كل ما قد يسيء إلى الهوية و الثقافة الوطنيتين من خلال سعي المترجمين إلى محو آثار الغيرية (l'altérité-otherness) من نصوصهم، و التشبّث بكل ما من شأنه أن يعزز القيم الوطنية. و لعل الخشية من اضمحلال الهوية الوطنية عبر الانغماس في نقل أعمال الشعوب الأخرى هو الذي كان وراء صحوة جماعة من الفرنسيين في القرن السادس عشر، فقد دعا (شعراء الثريا) (la Pléiade) إلى التخلي عن الترجمة لما فيها من خطر على اللغة و الأدب الوطنيين، و الانصراف إلى التأليف و الإبداع لما فيهما من إغناء للتراث الوطني و تطوير لأساليب التعبير(**) و ترقية للأذواق.

يرى المترجمون ممن ينتسبون إلى الهدفيين أنّه ما من مرسلة تكتب في لغة ما و تحيكها ثقافة أخرى إلاّ و تنصّب حواجزاً بينها و بين من يتلقاها، و لهذا السبب ينتهجون الترجمة التدجينية بغية تمكين القرّاء من التغلب على هذه الحواجز و معها غرابة الثقافة الباثة التي يعتبرونها عقبات في طريق التواصل المثمر. و ثمة في الواقع نوعين فقط من القرّاء ممن يعجبون

(*)يقر أنطوان برمان صراحة بالخطر الذي يشكله أي تماد في إدخال الغريب على الهوية الذاتية فيقول:

« […] la démesure du passage par l'étranger fait planer la menace perpétuelle, au niveau d'un individu aussi bien qu'à celui d'un peuple et d'une histoire, de la perte de l'identité propre ».

(جينا أبو فاضل، م س، ص182).

(**)دافع جواشيم دو بيلي Joachym Du Bellay عن اللغة الفرنسية في بيان عنونه بـ (Défense et illustration de la langue française)، بحيث حث الفرنسيين على الإقلاع عن الترجمة و تكريس الجهود لأعمال التأليف باللغة الوطنية سعياً لإغنائها. و قد تؤدي هذه الذهنية التي تقوم على الإكتفاء بالذات و الاستغناء عن الآخر، عند بلوغ ذروتها، إلى وقف أعمال الترجمة نهائياً و الانكفاء عن تعلّم اللغات الأجنبية. ذلك ما يحدث في البلدان المتطورة صناعياً، المكتفية بذاتها، التي تدعو الآخر إلى أن يغرف من معين ثقافتها و أن يتعلم لغتها إن أراد التواصل معها.

بالأعمال المترجمة: نوع من هؤلاء قد لا يتمكن من بلوغ النص المصدر و يطالب من أن تكون اللغة المترجمة واضحة و سلسة كما لو أنّه يُعرض عليه نصاً أصلياً، و بالتالي نراهم يعيرون أدنى الانتباه لأمانة النص الهدف اتجاه النص المصدر. أما النوع الآخر فهم أولئك الذين يبلغون النص المصدر و بمقدورهم فهمه، و بالتالي يُظهرون –على نحو محتوم– اهتماماً أكبر بالأمانة بين النصين في اللغة المنقول إليها و اللغة المنقول منها[1].

إنّ كل حديث عن التدجين (domesticating) إلاّ و يقودنا إلى الحديث عن العديد من المسائل المصاحبة له التي تعتبر مفصلية فيه. من بين هذه المسائل (الألفة) (familiarity)[*] التي نبحث عنها مع أنفسنا و مع من يتقاسم العيش معنا في حياتنا اليومية. و بما أنّ الترجمة تسعى في ماهيتها إلى تقريب البشر من بعضهم البعض، و تلاقح الثقافات فيما بينها، فإنّه كان لزاماً أن يُأخذ هذا الجانب النفسي و الروحي على محمل الجد، ليس لأنّ أهل الهدف يميلون إلى

---

(1)see Wang Yuefang, Exploring cultural transmission and translation strategies in the perspective of functionalist approaches, A case study of the two English versions of Hangloumeng, Babel, vol.58 N° 4, International Federation of Translators, 2012, p476-477.

(*)It has several meanings, they are:

"-familiar: adjective 1. well known from long or close association: their faces will be familiar to many of you/ a familiar voice. **o** often encountered or experienced; common: the situation was all too familiar.

o (familiar with) having a good knowledge of: ensure that you are familiar with the heating controls. 2. in close friendship; intimate: She had not realized they were on such familiar terms. **o** informal or intimate to an inappropriate degree.

-derivatives: familiarly adverb.

-origin Middle English (in the sense 'intimate', on a family footing'): from old french familier, from latin familiaris, from familia 'household servants, family', from famulus 'servant'.

familiarity: Noun (pl. familiarities) [Mass noun] 1. close acquaintance with or knowledge of something: his familiarity with the works of Thomas Hardy. **o** the quality of being well known from long or close association: the reassuring familiarity of his parent's home.

[phrases]: familiarity breeds contempt proverb: extensive knowledge of or close association with someone or something leads to a loss of respect for them or it.

-origin Middle English (in the senses "close relationship" and "sexual intimacy"): via old french from latin familiaritas, from familiaris 'familiar, intimate' (see familiar)".

(Oxford dictionary of English, op.cit, (Falun Gong/fanaticism), p631).

- As for the synonyms of (familiarity) in English there's the word (affinity) which means:

"Affinity: Noun (pl. affinities) 1. a natural linking for and understanding of someone or something: he had a special affinity with horses. **o** a similarity of characteristics suggesting a relationship, especially a resemblance in structure between animals, plants, or languages: a Semantic affinity between two words. **o** [mass noun] relationship, especially by marriage as opposed to blood ties.

-origin Middle English (in the sense 'relationship by marriage'): via old french from latin affinitas, from affinis 'related' (literally 'bordering on'), from ad-'to'+finis 'border'.

-affinity group: noun chiefly US a group of people linked by a common interest or purpose".

(Ibid, (AFDC/affinative), p27).

- The synonyms of (affinity) are:

(1. relationship, kinship, closeness, alliance, connection or Brit connexion; sympathy, rapport; 2. friendliness, fondness, liking, leaning, bent, inclination, taste, partiality, attractiveness, attraction).

(see Laurence Urdang, op.cit, p48).

التدجين لبث روابط الألفة بين القارئ و نصه و استئناسه به، بل لأنّه ينبغي على كل مترجم متدبر في شؤون الفعل الترجمي أن يفكر ملياً في هذه المسألة لأنّ الترجمة أولاً و قبل كل شيء تأمل (contemplation) و تقاسم تجربة (sharing an experience) كما يقول كل من برمان Berman و ايكو Eco. و ليس ذلك بدفاع عن النهج التدجيني، بل لتبيان ما لهذا الإحساس من أهمية قصوى في تقريبنا من الآخر و تقريب الآخر منا. ثم إنّ مختلف الدراسات الإنسانية و الاجتماعية قد برهنت بالأدلة و الحجج الدامغة كيف يمكن للألفة أن تبدّل سلوكنا من النقيض إلى النقيض، و كيف أنّها تمهد الطريق أمام من نعايشه (من أبناء جلدتنا) أو أمام ما يُقذف إلينا (من مرسلات) ليصير مصاحباً لنا أو مكتسباً فينا بفعل الطمأنينة (reassurance) التي تبثها في قلوبنا. و يعني ذلك أنّه متى ألفنا الشيء تقلصت الهوة التي تفصلنا به فأصبحنا له حافظين و به أو معه ممتعين. ذلك هو جوهر الترجمة، بحيث تعرّفنا على الغريب و تسهّل علينا محنة ذلك، و تستحثنا على أن نقيم معه أواشج التواصل و روابط التآزر مقرين بكل الإختلافات التي تميّزنا عنه و تميّزه عنا. و لنا أن نتخيل حالنا من دون أن نألف أو نؤلف. سيؤول الأمر إلى حالة من اللاتحاور و اللاتواصل التي تعني انسداداً في جميع القنوات المفضية إليهما، و السبب في ذلك هو أنّ الغريب كان غريباً و لا يزال كذلك، و بالتالي ترغمنا الألفة على استقبال الضيف و تزيد من قابليتنا على ذلك، و هو مراد الترجمة و غايتها الأسمى: الإقبال لا الإدبار.

II. التغريب (foreignizing) في الترجمة

1. مفهوم (التغريب) (*) (foreignization)

1.1 'التغريب' لغة

– "غرب: الغَرْبُ و المغْرِبُ: بمعنى واحد. ابن سيده: الغَرْبُ خِلافُ الشَّرْق، و هو المغْرِبُ. و قوله تعالى: رَبُّ المشْرِقَيْــنْ

(*)(foreign) in English means:

"-foreign: adjective 1. of, from, in, or characteristic of a country or language other than one's own: foreign currency/a man with a foreign accent. **o** dealing with or relating to other countries: foreign policy. **o** of or belonging to another district or area: a visit to a foreign clan. **o** coming or introduced from outside: the quotation is a foreign element imported into the work.

2. strange and unfamiliar: I suppose this all feels pretty foreign to you. **o** (foreign to) not belonging to or characteristic of: crime and brutality are foreign to our nature.

-derivatives foreignness/for (a) annis/noun.

-origin Middle English foren, forein, from old french forein, forain, based on Latin foras, foris,'outside', from fores 'door'. The current spelling arose in the 16th cent., by association with sovereign".

(Oxford dictionary of English, op.cit, (ford/foreign-returned), p684).

- The synonyms of (foreign) in english are:

(1. alien, imported, non-native; overseas, distant, tramontane, transalpine, transatlantic, transpacific. 2. strange, outlandish, exotic, unfamiliar, peculiar, odd, curious. 3. unknown, unfamiliar, strange, inappropriate, unrelated, unconnected, unassimilable, remote, extrinsic, extraneous).

(see Laurence Urdang, op.cit, p611).

و رَبُّ المِغْرِبَيْنِ؛ أَحدُ المِغْرِبين: أَقْصَى ما تَنْتَهي إليه الشمسُ في الصيف، و الآخَرُ: أَقْصَى ما تَنْتَهي إليه في الشتاءِ؛ و أَحدُ المِشْرِقين: أَقْصى ما تُشرِقُ منه الشمسُ في الصيف، و أَقْصَى ما تُشْرِقُ منه في الشتاءِ؛ و بين المغرب الأَقْصَى و المِغْرِبِ الأَدْنى مائةٌ و ثمانون مَغْرِباً، و كذلك بين المِشْرِقين. التهذيب: للشمس مَشْرِقانِ و مَغْرِبانِ: فأَحدُ مشرقيها أَقْصَى المطالع في الشتاءِ، و الآخَرُ أَقصى مَطالعها في القَيْظ، و كذلك أَحدُ مَغْرِبَيْها أَقصى المغارب في الشتاءِ، و كذلك في الجانب الآخر. و قوله جَلَّ ثناؤُه: فلا أُقْسِمُ برَبِّ المِشارق و المغارِب؛ جَمعَ، لأَنه أُريد أَنها تُشْرِقُ كلَّ يومٍ من موضع، و تَغْرُب في موضع، إِلى انتهاءِ السنة. و في التهذيب: أَرادَ مَشْرِقَ كلِّ يوم و مَغْرِبَه، فهي مائة و ثمانون مَشْرِقاً، و مائة و ثمانون مغْرِباً [...].

و المِغَرَّبُ: الذي يأْخُذُ في ناحية المِغْرِبِ؛ قال قَيْسُ بنُ المُلَوّح:

و أَصبَحْتُ من لَيلى، الغَداة، كناظِرٍ

مع الصُّبْح في أَعْقاب نَجْمٍ مُغَرَّبِ

و قد نَسَبَ المُبَرِّدُ هذا البيتَ إِلى أَبي حَيَّةَ النُّمَيري. و غَرَّبَ القومُ: ذَهَبُوا في المِغْرِبِ؛ و أَغْرَبُوا: أَتَوا الغَرْبَ؛ و تَغَرَّبَ: أَتَى من قِبَلِ الغَرْب. و الغَرْبِيُّ من الشجر: ما أَصابته الشمسُ بحَرِّها عند أُفُولها. و في التنزيل العزيز: زَيْتُونةٍ لا شَرْقِيَّةٍ و لا غَرْبِيَّةٍ.

و الغَرْبُ: الذهابُ و التَّنَحِّي عن الناس. و قد غَرَبَ عنا يَغْرُبُ غَرْباً، و غَرَّبَ، و أَغْرَبَ، و غَرَّبه، و أَغْرَبه: نَحَّاه. و في الحديث: أَن النبي، صلى الله عليه و سلم، أَمَر بتَغْريبِ الزاني سنةً إِذا لم يُحْصَنْ؛ و هو نَفْيُه عن بَلَده.

و الغَرْبة و الغَرْبُ: النَّوَى و البُعْد، و قد تَغَرَّب؛ قال ساعدة بن جُؤَيَّة يصف سحاباً:

ثم انْتَهى بَصَري و أَصْبَحَ جالِساً،

مِنْه لنَجْدٍ ، طَائفٌ مُتَغَرَّبُ

و قيل: مُتَغَرَّبٌ هنا أَي من قِبَل المِغْرب [...]

و التغريبُ: النفيُ عن البلد.

و غَرَبَ أَي بَعُدَ؛ و يقال: اغْرُبْ عني أَي تباعَدْ؛ و منه الحديث: أَنه أَمَرَ بتَغْريبِ الزاني؛ التغريبُ: النفيُ عن البلد الذي وَقَعَتِ الجِنايةُ فيه. يقال: أَغرَبْتُه و غَرَّبْتُه إِذا نَحَّيْتَه و أَبْعَدْته.

و التَّغَرُّبُ: البُعْدُ. و في الحديث: أَن رجلاً قال له: إِنَّ امرأَتي لا تَرُدُّ يَدَ لامِس، فقال: غَرِّبْها أَي أَبْعِدْها؛ يريدُ الطلاق.

و غَرَّبَت الكلابُ: أَمْعَنَتْ في طلب الصيد.

و غَرَّبه و غَرَّبَ عليه: تَرَكه بُعْداً.

و الغُرْبة و الغُرْب: النُّزوحُ عن الوَطَن و الاغْتِرابُ؛ قال المتَلَمِّسُ:

أَلا أَبْلِغا أَفناءَ سَعدِ بن مالكٍ

رِسالةَ مَن قد صار،في الغُرْبِ،جانِبُهْ

و الاغْتِرابُ و التغرُّب كذلك؛ تقول منه: تَغَرَّبَ، و اغْتَرَبَ، و قد غَرَّبه الدهرُ. و رجل غُرُب، بضم الغين و الراء، و غريبٌ: بعيد عن وَطَنِه؛ الجمع غُرَباء، و الأُنثى غَريبة؛ قال:

إذا كَوْكبُ الخَرْقاءِ لاحَ بسُحْرةٍ

سُهَيْلٌ،أَذاعَتْ غَزْلَها في الغَرائبِ

أَي فَرَّقَتْه بينهنّ؛ و ذلك أَن أَكثر من يَغْزِل بالأُجرة، إنما هي غريبةٌ. و في الحديث: أَن النبي، صلى الله عليه و سلم، سُئِلَ عن الغُرباء، فقال: الذين يُحْيُونَ ما أَماتَ الناسُ من سُنَّتِي. و في حديث آخر: إنّ الإِسلامَ بَدأَ غريباً، و سيعود غريباً كما بَدأَ، فطوبَى للغُرباءِ؛ أَي إنه كان في أَوّل أَمْرِه كالغريبِ الوحيدِ الذي لا أَهل له عنده، لقلة المسلمين يومئذ؛ و سيعودُ غريباً كما كان أَي يَقِلُّ المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغُرباء، فطُوبى للغُرَبَاءِ؛ أَي الجنةُ لأُولئك المسلمين الذين كانوا في أَوّل الإِسلام، و يكونون في آخره؛ و إنما خَصَّهم بها لصبْرهم على أَذى الكفار أَوَّلاً و آخراً، و لُزومهم دينَ الإِسلام. و في حديث آخر: أُمَّتِي كالمطر، لا يُدْرَى أَوَّلُها خير أَو آخِرُها. قال: و ليس شيءٌ من هذه الأَحاديث مخالفاً للآخر، و إنما أَراد أَن أَهل الإِسلام حين بَدأَ كانوا قليلاً، و هم في آخر الزمان يَقِلُّون إِلاَّ أَنهم خيارٌ. و مما يَدُلُّ على هذا المعنى الحديثُ الآخر: خِيارُ أُمَّتِي أَوَّلُها و آخِرُها، و بين ذلك ثَبَجٌ أَعْوَجُ ليس منكَ و لَسْتَ منه [...].

و اغْتَرَبَ الرجلُ: نَكَح في الغَرائبِ، و تَزَوَّجَ إِلى غير أَقاربه. و في الحديث: اغْتَرِبُوا لا تُضْوُوا أَي لا يتزوّج الرجلُ القرابة القريبةَ، فيجيءَ ولدُه ضاوِيّاً. و الاغْتِرابُ: افتِعال من الغُرْبة؛ أَراد: تَزَوَّجُوا إِلى الغرائب من النساءِ غير الأَقارب، فإِنه أَنْجَبُ للأَولاد. و منه حديث المغِيرة: و لا غريبةٌ نَجِيبةٌ أَي إِنها مع كونها غريبةً، فإِنها غيرُ نَجيبةِ الأَولاد. و في الحديث: إنّ فيكم مُغَرَّبين؛ قيل: و ما مُغَرَّبون؟ قال: الذين يَشترِكُ فيهم الجنُّ؛ سُمُّوا مُغَرَّبين لأَنه دخل فيهم عِرْقٌ غريبٌ، أَو جاؤُوا من نَسَبٍ بعيدٍ؛ و قيل: أَراد بمشاركة الجنّ فيهم أَمْرَهم إِياهم بالزنا، و تحسينَه لهم، فجاء أَولادُهم عن غير رِشْدة، و منه قولُه تعالى: و شارِكْهُم في الأَموال و الأَولاد [...].

و الغُرباءُ: الأَباعِدُ. أَبو عمرو: رجل غَريبٌ و غَرِيبِيٌّ و شَصِيبٌ و طارِيٌّ و إِتاوِيٌّ، بمعنى.

و الغَريبُ: الغامِضُ من الكلام؛ و كَلمة غَريبةٌ، و قد غَرُبَتْ، و هو من ذلك [...].

و أَغْرَبَ الرجلُ: جاءَ بشيءٍ غَريب. و أَغْرَب عليه، و أَغْرَب به: صَنَع به صُنْعاً قبيحاً. الأَصمعي: أَغْرَب الرجلُ في مَنْطِقِه إِذا لم يُبْقِ شَيْئاً إِلاّ تكلم به. و أَغْرَبَ الفرسُ في جَرْيه: و هو غاية الاكثار. و أَغْرَبَ الرجلُ إِذا اشْتَدَّ وجَعُه من

مرضٍ أَو غيره. قال الأَصمعي و غيره: و كُلُّ ما وَراك و سَتَرك، فهو مُغْرِبٌ؛ و قال ساعدة الهُذَليُّ:

مُوَكَّلٌ بسُدُوف الصَّوْم، يُبْصِرُها

من المغَارِبِ، مَخْطُوفُ الحَشَا، زَرِمُ"[1].

- "(غرب) الغين و الراء و الباء أصلٌ صحيح، و كَلمُهُ غير منقاسةٍ لكنَّها متجانسة، فلذلك كتَبْناه على جهته من غير طلبٍ لقياسه.

فالغَرْب: حَدُّ الشَّيء. يقال: هذا غَرْبُ السَّيْف. و يقولون: كفَفْتُ من غَرْبه، أي أَكْلَلْتُ حَدَّه. و قولهم: استَغْرَب الرّجلُ[2]، إذ بَالَغَ في الضَّحِك، ممكنٌ أن يكون من هذا، كأنَّهُ بلغ آخِرَ حدَّ الضَّحِك. و الغَرْب: الدَّلو العظيمة. و الغَرْبانِ من العين: مُقْدِمُها و مُؤْخِرُها. و غُروب الأسنان: ماؤُها. فأمَّا الغُروب فَمَجارِي العَين. قال:

مالَكَ لا تذكُرُ أُمَّ عمرِو إلاّ لعينَيْك غَروبٌ يَجْرِي [3]

و الغَرْب أيضاً بسكون الراء [4]، في قولهم: أتاهُ سَهْمٌ غَرْب، إذا لم يُدْرَ مَن رماه به.

و أما الغَرَب بفتح الراء، فيقال إنَّ الغَرَبَ [5]: الرَّاوية. و الغَرَب: ما انصبَّ من الماء عند البئر فتغيَّرَتْ رائحتُه. قال ذو الرُّمة:

* و اسْتُنْشِيءَ الغَرَبُ [6] *

و الغَرْب: شَجَر. و يقولون -و الله أعلَمُ بصحّته-: إنَّ الغَرَب: إناءٌ من ذهب أو فِضَّة. و يُنشِدون:

فدعْدَعا سُرَّةَ الرَّكِىَ كَمَا دَعْدَعَ ساقِي الأعاجم الغَرَبا[1]

و الغَرْب: الوَرَم في المأْق، يقال منه غَرِبَت العينُ غَرَباً. و الغَرْب: عِرْقٌ يَسقِي و لا يَنقطِع. و الغُرْبة: البُعد عن الوطن، يقال: غَرَبَت الدَّار. و من هذا الباب: غُروب الشَّمس، كأنَّه بُعْدُها عن وجه الأرض. و شَأْوٌ مُغَرَّبٌ[2]، أي بعيد. قال:

---

(1)أبو الفضل بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، م س، (مج01)، ص637-641.

(2) يقال أيضاً "استغرب" بالبناء للمجهول، بل هو أكثر.

(3) الرجز في اللسان (غرب).

(4) في اللسان: "بفتح الراء و سكونها، بالإضافة و غير الإضافة". و ضبط في المجمل سكون الراء مع الإضافة.

(5) يقال للراوية أيضاً بسكون الراء.

(6) قطعة من بيت لذي الرمة في ديوانه 11 و اللسان (غرب). و هو بتمامه:

و أدرك المتبقى من ثميلته و من ثمائلها و استنشيء الغرب

(1) البيت للبيد في ديوانه 142 طبع 1880 و اللسان (دعع، ركا). و نسب في (غرب) إلى الأعشى خطأ. و روى: "سرة الركاء"، و هذه أيضاً تروى بفتح الراء و كسرها، كما في اللسان (دعع، ركا) و هو اسم موضع.

(2) يقال بفتح الراء المشددة و كسرها.

أعْهَدَكَ مِن أُولَى الشَّبيبةِ تطلبُ على دُبُرٍ هيهاتَ شَأْوٌ مغرَّبُ[3]

و يقولون: "هل من مُغَرَّبةِ خَبَرٍ"، يريدون خبراً أتَى من بُعد.

و في كتاب الخليل: "إذا أمْعَنَت الكلابُ في طلب الصَّيد قيل: غرَّبَت". و فيه نظر.

و الغارب: أعلى الظَّهر و السَّنام. يقال: ألْقَى حبلَه على غاربه، إذا خلاَّه.

و الغُراب معروف. و الغُرابانِ: نُقرتانِ عند صَلَوَى العَجُز من الفَرَس. و الغُرَاب: رأس الفأس: و رِجْل الغُراب: نوعٌ من الصَّرَّ. قال الكميت: * صُرَّ رِجْلَ الغُرابِ[4] *

و الغِرْبيب: الأسود، كأنَّه مشتقٌّ من لون الغُراب. و المغْرَب: الأبيض الأشفار من كلَّ شيء. و الغَرْبيَّ: الفضيخ من البُسْر يُنْبَذ. و الغَرْبِيُّ: صِبْغٌ أحمر"[1](*).

2.1 'التغريب' اصطلاحا

من بين ما يعنيه التغريب اصطلاحاً قولنا عن العادات و التقاليد أنّها صارت مغرّبة، أي شاذة غريبة. و التغريب عقوبة جنائية لبعض الجرائم، و هي أن ينفى المتهم من البلاد من غير تحديد لمحل إقامته. كما أنّ التغريب حالة من الشعور بالاستلاب و الضياع، و هو ما يعبر عنه باغتراب النفس. و (الاغتراب الذهني) مرض نفسي يحول دون سلوك المريض سلوكاً سويّاً و كأنّه غريب عن مجتمعه، و لذا يعيش حالة من الاغترابية بين أهله و في عزلة عنهم. و ثمة عبارة (الملحق الاغترابي) المتداول بها في الشؤون الدبلوماسية التي تعني تكليف أحد أفراد البعثة الدبلوماسية بمهام تدبير شؤون المغتربين و مصالحهم في بلد أجنبي ما. و نجد في الحقل التجاري مفهوم التسويق التغريبي المتطور جداً الذي يسعى إلى شد المستهلك من خلال تغريب حواسه بما هو خارج عن المألوف من صور و روائح و أذواق. و التغريب في الدين العمل بكل منهي عنه، و في السنة الاتيان بالمحدثات و البدع و عدها من سنن النبي صلى الله عليه و سلم.

2. مفهوم (استراتيجية التغريب) (Foreignization Strategy) من المنظور الترجمي

عاش الإنسان على مر الأزمنة و العصور صراعاً مريراً مع الطبيعة لأنّه أراد أن يفرض نفسه و يبسط هيمنته عليها، لكنها لم ترضخ له و لم تسلمه زمام الأمر إلاّ بعد أن سلبته الغالي و الرخيص. و في خضم هذا الصراع المحتدم، تطورت الحضارات البشرية و طوّرت من أساليبها و تقنياتها بفضل ما أوتيت من علم، فكان ذلك بمثابة التأريخ لها. و جاء استعمال اللغة أول خطوة لقن بها الإنسان أسماء المسميات. ثم حاول، بعد ذلك، أن يفهم أكثر ما يجري من حوله،

---

(3) للكميت في اللسان (غرب، دبر).

(4) البيت بتمامه كما في اللسان (غرب):

صر رجل الغراب ملكك في النا س على من أراد فيه الفجورا

(1)أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، م س، (الجزء 04)، ص420-422.

(*)ينظر أيضاً (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، م س، ص1178-1180؛ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، م س، ص840-842؛ المعجم الوسيط، م س، ص647-648).

فإحتكم إلى العقل و المنطق ففسر الظواهر ليفهم، و به نبغ في الوصول إلى بعضها و استقراء أحوالها و وصف تبعاتها. و على الرغم من أنّ الحضارات القديمة قد تمكنت من أن تجد لنفسها مكاناً في هذا الكون الفسيح، و طوّرت بعض الطرائق التي يقول عنها علماء الإناسة بأنّها بدائية، إلاّ أنّها ظلت حبيسة مخاوفها في علاقتها بالظواهر التي لم تجد لها أي تفسير، فكان الريح و المطر و البرق و الرعد ظواهر ولّدت لديها إحساساً بالخوف، و هو خوف مقرون بالفهم من المنظور العقلي، و بقصور في الآداء من المنظور الإجرائي. فكان ذلك بمثابة العودة إلى نقطة البداية، و كأنّي بالطبيعة تخاطب الإنسان مخاطبة المتكبر المتعجرف قائلة أنّه قد أتى عليك حين من الظهر لم تكن شيئاً مذكورا. و ما انفك هذا الأخير أن تغلب على مخاوفه و هواجسه اتجاه الطبيعة بفضل العلم الراسخ و المعرفة اليقينة، فطار إلى الفضاء، و حلّق في الأجواء، و عبر البحار و المحيطات، و استوطن الكواكب و المجرات و ما إلى ذلك من حسن صنيع العلم و مستحثات الفاقة و العوز. بيدأنّ خوف هذا الإنسان لم يتبدد حتى و هو يعيش حياة الرفاه. و بما أنّ الطبيعة –أي الكون بتجلياته المختلفة– التي نتحدث عنها تثيرنا و تبث في أنفسنا الروع، فإنّ الترجمة تقوم بالشيء نفسه لأنّها إحدى تجليات الطبيعة، و ذلك في كونها تطرح مسألة الغيرية بحدة التي تعتبر أيضاً من الصور النمطية لهذه الطبيعة في أنّه ثمة أعراق و أجناس مختلفة تتعايش على وجه هذه البسيطة. و يفرض التأمل في الغيرية تأملاً في الإختلافات المائزة بين هذه الأقوام، و هو بعد تباركه الطبيعة أيضاً بما أنّ الجغرافية –التي تعتبر الحلقة الرئيسة في الطبيعة– هي التي تصبغ البشر في المعالم السيكولوجية و الذهنية و الجسدية. ثم إنّ دور الترجمة المركزي ذو الجاذبية –و لربما إنّه سيكون عصياً على غيرها– في جسر الهوة بين الثقافات و رأب الصدع و رتق الفتق الحضاري بين المجتمعات لقمين بنا أن نتفكره و نتدبره، و أن نسأل كيف له أن تجسد و يتجسد فقط من خلال حيز ضيق هو النص الذي يقول عنه الكثيرون بأنّه متواضع؛ حيز و إن استوفيناه حقه من الدراسة و التحليل من الناحية اللغوية لم ننصفه و كنوزه المخبؤة من الناحية الميتالغوية.

إنّ الإحساس بالخوف غالباً ما يحفّزنا على ابتكار الوسائل و الحلول لمجابهة المخاطر و الصعاب، و هو ما يدفع بنا إلى وضع الخطط و الاستراتيجيات التي نستبق بها حدوث المضار أو التخفيف من عواقبها. و نحن لا نقصد بالخوف ذلك الهوس المرضي الذي سيهلك صاحبه إن آجلاً أم عاجلاً، بل إنّه الخوف الذي يقوم على الشك (scepticism) و على التحليل و الإمعان في دقائق الأمور كلها. و تشبه هذه الطريقة المنهج الفلسفي (و حتى المنهج النفسي) الذي يرتكز على مساءلة الذات و استقصاء أحوالها من خلال جدليات مختلفة لعل أبرزها جدلية (الأنا) و (الأنا الآخر) التي يراد بها دوماً تسليط الضوء على أوجه التقارب و التباعد بين هاذين النسقيين و على الأصعدة كافة، و هو ما أثار عبر شتى الأزمنة و العصور جدلاً كبيراً حول ماهية الاختلاف و مسبباته و أنواعه، و عن الطرق القويمة التي تضمن مقاربة أبعاده كلها؛ منظور تشتغل الترجمة وفقه عبر أطر النص اللغوية و بواطنها الميتالغوية. و قد يتصل الخوف بالإثارة و المتعة، كما

يصاحبه دوماً إحساس بالغرابة[*] [**] (exoticism) و بغرائبية الأشياء.

تعتبر الغرابة مصطلحاً مهماً في النقاشات المعاصرة التي تدور في فلك عدد من الحقول المعرفية مثل الفلسفة و الأدب و علم الاجتماع و علم النفس و الدراسات السينيمائية و فن العمارة و غيرها. و يعود الفضل الأول في إلقاء الضوء على هذا المفهوم مع إبراز أهميته إلى عالم النفس سيغموند فرويد Sigmund Freud في دراسة مبكرة له أجراها العام 1919. يرى فرويد Freud أنّ الغرابة لا تتصل فقط بالمشاعر الخاصة اتجاه شيء ما يكون غامضاً و عجيباً على نحو متميّز، و لكنها ترتبط به لكونه مألوف أيضاً على نحو غريب[1]. و لطالما كانت الغرابة حاضرة في جوانب حياتنا المختلفة، و قد يولّد الإحساس بها تعاطينا مع كل غريب عنا. فمثلاً قد خرج الناس حين شاهدوا العرض السينيمائي الأول في باريس مهرولين و مرعوبين من صورة غريبة لقطار يتقدم نحوهم عبر الشاشة. لكن الإحساس بالغرابة قد ينجم أيضاً عن الأشياء المألوفة (familiar) التي تتحول إلى أشياء غير مألوفة [***] (unfamiliar)، أو كما تصطلح عليه الأوساط الفنية و الأدبية تسمية (الألفة غير المألوفة) (the familiar unfamiliarity)، مثلما هو الحال مع الكائن البشري الذي أصبح اليوم عرضة للمعالجات الغريبة كالتحويل و حتى المضاعفة بواسطة الهندسة الوراثية و علاج الجينات و الجراحة التجميلية و الاستنساخ و غيرها. و قد وظفت تقنية نزع الألفة عن المألوف المولّدة للغرابة من قبل العديد من

(*)ترجم مصطلح (exoticism) من قبل المنظمة العربية للترجمة بـ (غرابة مثيرة).

(ينظر هيثم الناهي و آخرون، مشروع المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية للترجمة، م س، (الفصل الخامس: مصطلحات العلوم الإنسانية و الاجتماعية)، ص160).

(**)it is derived from (exotic) that means:

"-exotic: adjective originating in or characteristic of a distant foreign country: exotic birds/they loved to visit exotic places. **o** atrractive or striking because colourful or out of the ordinary: youths with exotic haircuts/(as noun the exotic) there was a touch of the exotic in her appearance. **o** (especially of metals or fuels) of a kind not ordinarily encountered; specially produced.

o noun an exotic plant or animal: he planted exotics in the Sheltered garden.

-derivatives exotically adverb, exoticism noun.

-origin late 16th cent.: via Latin from Greek exotikos 'foreign', from exo 'outside'.

exotica: plural noun objects considered interesting because they are out of the ordinary, especially because they originated in a distant foreign country.

-origin late 19th cent.: from Latin, neuter plural of exoticus 'foreign' (see 'exotic')".

(Oxford dictionary of English, op.cit, (exocytosis/expansion slot), p614).

(1)see J. Jervis, Uncanny pressences, In. Collins & Jeris (eds), Uncanny Modernity, Cultural Theories, Modern Anxities, Palgrave, N.Y., 2008, p15.

(***)it refers to:

"unfamiliar: adjective 1. not known or recognized: he felts a stranger among the crowd of unfamiliar faces/his voice was unfamiliar to her. **o** unusual or uncharacteristic: the yellow taxicab was an unfamiliar sight on these roads.

2. (unfamiliar with) not having knowledge or experience of: he seems unfamiliar with recent research on this topic.

-derivatives unfamiliarity noun".

(Oxford dictionary of English, ibid, (U unexposed/unforthcoming), p1938).

الأدباء و المؤلفين، و الغاية أنّه بقدر ما يصبح الإدراك اعتيادياً بقدر ما يصبح آلياً. زد على أنّ إحدى أهم وظائف الفن تكمن في صدمنا حتى لا نكون مجرد ضحايا للعادة، و هو ما من شأنه أن يعيننا على استعادة متعة الإثارة بما في الحياة لنعاود رؤية الأشياء المألوفة من جديد[1].

و قد يتحول أي عمل فني يألفه صاحبه إلى غريب عنه و لا ينتمي إليه بقدر انتمائه إلى الآخرين. و قد تضمن مفهوم العمل عند الفيلسوف هيجل Higel جانبين أحدهما إيجابي و الآخر سلبي. أما الجانب الإيجابي فيتمثل في تحول العامل من كائن فرد إلى فرد اجتماعي، و أما الجانب السلبي فيتمثل في انفصال العمل عن صاحبه إلى الحد الذي قد يصبح فيه قوة مضادة له تسلبه ذاته عندما يصبح عبداً لهذا العمل و لأصحابه. و كذلك قد ينطوي العمل الفني على جانب إيجابي يتحول من خلاله الفنان من فرد منعزل إلى كائن اجتماعي، و جانب سلبي يصبح العمل لمجرد العمل بغض النظر عن قيمته.

لقد اهتمت الأوساط الفنية بالتغريب بوصفه بعداً مؤثراً في عملية التلقي. و قد تعددت الرؤى في تحديد مؤثر التغريب لكنها تتفق و تتقارب في بلورة مفهومه في كونه مصطلحاً. و التغريب "هو المصطلح الشائع في اللغة العربية كترجمة لتعبير Distanciation=الإبعاد الذي أطلقه الشكلاني الروسي شكلوفسكي Chklovski و استخدم لذلك في اللغة الروسية تعبير Ostranenija Priem الذي يعني تعديل إدراك المألوف من خلال إبراز الشاذ فيه"[2]. و الصورة المغربة عند حمادة إبراهيم "عبارة عن عرض لشيء أو موقف مألوف لنا في إطار القول أو الفعل يظهر غريباً. إنّه القوة التي تجبر المشاهدين على رؤية أو إدراك شيء تعودوا على رؤيته [...] حتى يصبح من السهل الاعتقاد بأنّ هذا الشيء دائماً كذلك [...] عندما نغرب شيئاً مألوفاً لنا و معتادين عليه فإننا نضعه في وضع الشيء الجديد اللاحتمي"[3].

و يعتبر التغريب أو (الاغتراب)[*] في المسرح من أهم تقنيات العرض المسرحي التي تهدف إلى التأثير في الجمهور بإخراجه من دوائر الابتذال و التفاهة و العقم. و قد ارتبط هذا المبحث حصرياً بالمنظر الألماني برتولت بريخت Bertolt Brecht على الرغم من أنّه لم يكن من اختراعه، إذ كان التغريب موجوداً في العصور الوسطى و في كل العصور. يقول بريخت Brecht في (الأرغانون الصغير): "كان المسرح الكلاسيكي أو مسرح العصور الوسطى يضفي على شخصياته نوعان

---

(1)ينظر آرثر برجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر. وفاء ابراهيم و رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 603، القاهرة، 2003، ص73.

(2)آن أوبر سفيلد، قراءة المسرح، تر. مي التلمساني، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، وزارة الثقافة، القاهرة، 1994، ص139.

(3)إبراهيم حمادة، معجم المصطلحات الدرامية و المسرحية، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص107.

(*)إنّ الاغتراب في اللغات الأجنبية مشتق من اللفظة اللاتينية (Aliento)، إذ نجد في اللغة الانجليزية مصطلح (Alienation)، و في أمريكا (Estrangement)، و في اللغة الفرنسية (Distanciation)، أما في الألمانية فنجد (Entfremdung). و قد أشتق المعنى الأصلي لهذه الكلمات من الفعل اللاتيني (Alienate) الذي يعني (ينقل) أو (يبعد). أما في اللغة العربية فترجمت هذه الكلمة إلى (التغريب) و (الاغتراب) و (الإغراب).

من الغرابة بأن يجعلها ترتدي أقنعة إنسانية أو حيوانية، كما تستخدم المسارح الأسيوية حتى اليوم وسائل تغريب تعتمد على الموسيقى و التمثيل الصامت، هذه التأثيرات تمنح بلا شك المشاركة العاطفية"[1]. و قد تبنى بريخت Brecht هذا القصد و جعل منه أداة فاعلة تكشف عن أنّ الإنسان في أي مجتمع هو ثمرة إفرازات التناقضات الاجتماعية التي تنعكس على حياته، فينجم عن ذلك حاجته الماسة إلى التغيير و نبذ الركود شريطة أن يشارك هو نفسه في هذه العملية.

و يقدم بريخت Brecht المسرح الملحمي القائم على التغريب بديلاً عن المسرح الدرامي القائم على الايهام[*]. و هو يرى أنّ التغريب يُعد ظاهرة حياتية يمارسها الإنسان يومياً دون أن يدري، فهو بذلك يسترعي الانتباه و يستوجب الوعي و الفحص. و لا يكون التغريب مبدأ جمالياً فحسب، و إنّما موقفاً سياسياً و أيديولوجياً من خلال ربطه بحالة الاغتراب الاجتماعي و مقاومته. و يمر التغريب البريختي عبر مراحل معينة هي: مرحلة البزوغ و الظهور، و مرحلة التعمق و مرحلة الاكتمال. أما عن الوسائل المفضية إليه، فيعتمد بريخت على تفتيت البنية الفنية للنص، و التكرار، و الانتقال إلى الماضي، و القصة التي يراها أساس المسرحية لأنّ الأحداث فيها هي مادة المناقشة أو النقد أو التغيير بالنسبة للجمهور.

يثير فينا الإحساس بالغرابة وحشة تؤثر على انفعالاتنا في مواقف خاصة تخص الزمان و المكان أو كليهما معاً. فالأعمال الفنية غالباً ما تتلاعب بالغياب أو بالأشياء القادمة من الماضي أو المستقبل. و قد يكون حضور هذه الحالات حضوراً شبحياً يمزج ما بين الواقع و المتخيل، و التجلي و الخفاء. و ما يدعم هذه الفكرة هو الظهور الشبحي لوالد هاملت Hamlet الذي أفزعه على الرغم من أنّه لم يكن سوى والده المألوف جاء في هيئة موحشة. و يتعلق الغريب، في المجالين الفني و الأدبي، بالتناص (intertextualty)، حيث تعاود نصوص أخرى الظهور في نص معين فتحدث –لبراعته أو لردائته– استجابة غريبة لدينا. ففي الإعجاب الشديد غرابة، و في النفور الشديد غرابة أيضاً، و في الولع و الافتتان غرابة، و في الإعراض المقيت غرابة أيضاً؛ كلها مشاعر تحاكي في الغرابة عجائبية فذة.

و قد تزايد الاهتمام بما يسمى بـ (الجليل) (sublime)، بحيث صُنّف الميل إليه لدى فلاسفة كثر بأنّه يقع ضمن نطاق الغريب و المخيف و القبيح، و كان الغريب الأكثر حضوراً و تدميراً بين كل هذه الأنواع. و قد أشار إدموند بيرك Edmond Burke إلى ذلك الشعور الذي يصعب تفسيره، و الذي يزداد حضوره بكثافة ضمن شبكات الإحساسات الخاصة بالغموض[2]. و بما أنّ الغموض (ambiguity) هو كل غريب عن الأقيسة اللغوية، و الإبهام هو ما يرد من

---

(1)برتولت بريخت، المنطق الصغير في المسرح، تر. أحمد الحمو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد02، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، تشرين الأول،1975، ص126.

(*)هو عملية السيطرة على شعور المشاهد بإقناعه أنّ ما يراه على خشبة المسرح حقيقي و واقعي إلى درجة الاندماج معه، في حين يتطلب الايهام الملحمي من المشاهد يقظة عقلية تمكنه من مناقشة ما يُعرض بعد إدراكه أنّ العرض تمثيل ليس إلا.

(ينظر إبراهيم حمادة، م س، ص58).

(2)see Edmond Burke, A philosophical Enquiry into the origin of our ideas of the sublime and beautiful, Oxford University Press, N.Y, 1990, p54 (originally published in 1859).

الكلم مبهماً في سياق ما و يحتاج إلى توضيح على الرغم من أننا نعرف أصله، فإنّه يمكننا القول بأنّ التغريب الترجمي (foreignizing) يُعْنَى بهاتين الظاهرتين (الغموض و الإبهام) بشكل وطيد اللّتان تفضيان إلى ترجمة تغريبية (a foreignizing translation) بسبب أنّ كل من التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) يتمان –كغيرهما من الاستراتيجيات الترجمية الأخرى– بواسطة اللغة على أن يكون من بين مضامينها شحنة أو شحنات ثقافية التي من شأنها أن تبدّل المرسلة و القصد. و هو ما يعني أنّ أية ترجمة تغريبية تقوم على نحو كبير "بإخراج القول غير مخرج العادة"[1].

إنّ انحياز شلايرماخر للتغريب دفع ببرمان إلى انتخابه دستوراً أخلاقياً للترجمة الذي يهدف إلى جعل النص المترجم مساحة يتجلى فيها الآخر المختلف ثقافياً مع التسليم بأنّ مثل هذا التجلي لا يتحقق إلاّ بشروط اللغة الهدف. و يرى فينوتي Venuti أنّ الأجنبي في الترجمة التغريبية ليس تمثيلاً شفافاً للّب ذي قيمة مطلقة، بل هو بناء استراتيجي محكم و منظم تتوقف قيمته على الظروف التي تسود الثقافة المستقبلة في لحظة معينة. و من أجل أن تبرز أية ترجمة تغريبية ما يتجلى في النص الأجنبي من إختلافات، وجب عليها أن تلحق الفوضى و الضرر الكبيرين بما يسود في الثقافة الحاضنة من قوانين، و هو ما يعني أنّه ينبغي على ترجمة مثل هذه أن تسيء إلى المألوف و المتعارف عليه بواسطة الانحراف عن المعايير المحلية (local norms) حتى تعرض على القارئ تجربة قرائية غريبة. و لن يتأتى ذلك إلا بإختيار نص أجنبي يتماشى و التقاليد الأدبية المحلية، و الابتعاد عن المستويات اللغوية القياسية عند اختيار لغة الترجمة؛ بذلك فقط تفي الآخر حقه كاملاً[2].

يسعى التغريب (foreignizing)، بحسب فينوتي، إلى وضع حد للعنف العرقي للترجمة بوصفه تدخلاً ثقافياً استراتيجياً في مسار الأحوال و الظروف العالمية الموجهة ضد هيمنة الأمم الانجليزية، و هو تموقع جاء نتيجة مباشرة للوضع غير المتكافئ في مواقف التبادل الثقافي. يمكن اعتباره، بالتالي، شكلاً من أشكال المقاومة الصريحة للتمركز العرقي و النرجسية الثقافية و الامبريالية في سبيل إرساء الديمقراطية أساساً للعلاقات السياسية بين الأمم.

و كثيراً ما ارتبط التغريب –على المستويين النظري و الإجرائي– ببلدان أوروبية بعينها و بحقب زمنية محددة. فقد ظهر، بادئ ذي بدء، في ألمانيا خلال الحقبتين الكلاسيكية و الرومانسية، ثم أعيد إحياؤه بعد ذلك في فرنسا في ظل ما جلبته ما بعد الحداثة للفلسفة و النقد الأدبي و التحليل النفسي و النظريات الاجتماعية[3]. و قد ذكرنا آنفاً أنّه قد سيطرت على الثقافة الأنجلوأمريكية النظريات التقريبية التي إنتصرت للترجمات السلسة (the fluent translations) بابتداعها

(1)كليطو عبد الفتاح، الأدب و الغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص66.

(2)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص35.

(3)م ن، ص36.

لوهم الشفافية و إيحائها بوجود تعادل دلالي مطلق. كما ينبغي –وفق هذا الاتجاه الترجمي– أن يقوم النص الأجنبي بإعطاء تفسير ينحاز إلى قيم الانجليزية و يختزل –إن لم يمحُ– الإختلاف الذي صوّرته الترجمة في المقام الأول.

قد يكون لمفهوم (الأمانة المسيئة) الذي جاء به فيليب لويس Philipe Louis فائدة جمة في تعاملنا مع الميل التغريبي في الترجمة، بحيث يعرض هذا المفهوم تلك العلاقة المسيئة و غير المحددة بين الترجمة و النص الأجنبي، و يتجنب الاستراتيجيات التي تضمن تحقيق السلاسة حتى يحتفظ للترجمة بكل وجه من أوجه الأصل الذي من شأنه الإساءة إلى قيم الثقافة المستقبلة. و يحبّذ فينوتي Venuti أن يسمي هذه الاستراتيجية بـ (المقاومة) ليس لأنّها تتحاشى السلاسة فحسب، بل لأنّها أيضاً تتحدى الثقافة المستقبلة حتى في ممارستها لعنفها العرقي الخاص بها على النص المترجم[1].

و بإمكاننا أن نوصّف لهذا الوضع بالترميز إلى الاستراتيجيات على النحو التالي: (التقريب/التغريب؛ السلاسة/المقاومة).

كما باستطاعتنا الإفادة من مفهوم التغريب في أية لغة أو ثقافة خارج دائرة اللغة و الثقافة الأنجلوأمريكية، و هو ما يفتح الباب على مصرعيه للتساؤل عن مدى تماشي معايير الترجمة التغريبية التي جاء بها فينوتي و خصوصيات كل لغة/ثقافة على حدى، و مع مقتضيات الفعل الترجمي و أبجدياته كما يتواضع عليها كل من له صلة به من قريب أو بعيد، بدءاً بالمحراك (المترجم) و انتهاءً بالوسيط القرائي (الناشر).

يكمن الهدف الأول للمترجم التغريبي في بسط نطاق ممارسات الترجمة و ليس إعاقة عملية القراءة أو تعريض عمله للإدانة أو الاستهجان باعتباره نوعاً من الرطانة الترجمية. كما يهدف هذا المترجم إلى وضع معايير نصية جديدة يقبلها القراء و النقاد. لكن التغريب يهدف، في الوقت نفسه، إلى وضع ظروف الثقافة المستقبلة و أحوالها موضع مساءلة من خلال توظيف تلك المواد الثقافية و اللغوية المنتمية إليها.

و من البديهي أنّ ذلك لن يحدث إذا اعتمد المترجم على ما يسود في هذه الثقافة، بل عليه الاعتماد على الهامشي و غير القياسي، و على المقصي و المستبعد إن هو أراد أن يطعن في الأوضاع الراهنة و يوقف الزحف المهيمن.

تقوم الترجمة باختلاق هويتين في الآن نفسه، بحيث تنشئ صورة معينة عن الثقافة الأجنبية و موضعاً يمكن للقارئ منه أن يفهم النص الأجنبي، و بالتالي تكون عملية المساءلة و التشكيك، التي تؤدي إليها الترجمة التغريبية، عملية مزدوجة. فلا يمكن لأية ثقافة –سواء كانت من المسيطرة أو المسيطر عليها– أن تتنزه عن نقد الذات. و بدون التغريب، الذي يضطّلع بمهمة النقد المنشود، تسقط الثقافات في هوة الرضا المبالغ فيه عن الذات و النرجسية، و تصبح مرتعاً خصباً لممارسات أيديولوجية خطرة مثل النزاعات القومية و الأصولية على الرغم من كون هذه الأخيرة المحرك لمشاريع تحررية كالحركات المناوئة للاستعمار. غير أنّها سرعان ما تتحول، بعد تحقيق أهدافها، إلى شكل آخر من أشكال القمع.

---

(1)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص39.

و بخلاف السلاسة التي فرضت وجودها على الثقافة الأنجلوأمريكية و المفضية إلى الترجمات التدجينية، لم يكن للمنهج التغريبي صيت ذائع في الثقافة الانجليزية حتى بداية القرن التاسع عشر، بل لعب في هذا الوقت دوراً حاسماً في تشكل ثقافة أخرى هي الثقافة الألمانية. و يُنسب المنهج التغريبي -كما هو الحال مع المنهج التدجيني- إلى شلايرماخر الذي أعطى شهادة ميلاده في محاضرته العام 1813، و ذلك في عز الحروب النابولونية و سيطرة اللغة و الثقافة الفرنسية على الأجواء الأدبية في أوروبا عامة. و قد أكد شلايرماخر في هذه المحاضرة على أنّه يمكن للترجمة أن تكون سنداً داعماً للحراك القومي البروسي، بحيث يمكن إثراء اللغة الألمانية بوضع الآليات المضبوطة لأدب نخبوي يتيح للثقافة الألمانية أن تبلغ قدرها في أن تسود العالم[1]. و قد اختار شلايرماخر لذلك بعداً نظرياً متفرداً قوامه الإختلافات الثقافية. و منه نفهم أنّ منظور شلايرماخر الترجمي ذو منحيين: الأول أيديولوجي و عقائدي صرف لكونه ينبع من رغبته في أن تسود أمته الألمانية العالم أجمع، و الثاني إنساني مرده الاعتراف بالآخر المختلف و الإقرار بوجوده صراحة. كما أنّ نقطة التلاقي التي تجمع بين هاذين المنحيين تكمن -و لو ضمنياً- في حاجة اللغة/الثقافة الألمانية إلى ما عند الآخر لبلوغ هذا القصد، و هو ما يملي عليها ضرورة الإصغاء إليه لمجاراة التطور. و يمكن أن ندرج نداء شلايرماخر في خانة الحركات القومية الداعية لسيادة اللغات المحلية التي انتشرت في ربوع أوروبا في القرن التاسع عشر.

يفضل شلايرماخر التغريب الترجمي، أي ذلك الميل الذي يترك الكاتب بسلام و يأخذ إليه القارئ. و أن نسفر القارئ معناه أن نجعله يحس بالتمايز الثقافي و ذلك بأن نتدخل في النماذج المألوفة لديه و نبدلها بأخرى غير مألوفة أي غريبة، كأن نترجم مثلاً لغة معاصرة بأخرى مهجورة.

لكن هل باستطاعة جميع القراء فهم هذه النماذج غير المألوفة؟ إنّه من الأكيد أنّ القرّاء -و نظراً لتفاوت مستوياتهم الإدراكية و العلمية- لن يتمكنوا من فهم الإختلافات الثقافية التي يتحدث عنها النص المترجم باستراتيجية التغريب، و هو ما يضع كل الميل التغريبي على المحك لأنّه يخاطب صنفاً واحداً من القرّاء هم النخبة المثقفة أو صفوة الصفوة من الناس و عليّة القوم. ذلك ما يعده منظرون كثر إحدى الخصائص المعوجّة للترجمة التغريبية بسبب أنّها تنصّب الفواصل بين القرّاء و تميّز بينهم، في حين أنّه لا ينبغي للترجمة أن تكون تمييزية على هذا النحو، بل أن توجّه بالأساس إلى الناس كافة، المثقفون منهم و العوام.

و قد أقر شلايرماخر بأنّ استراتيجيات الترجمة في أية ثقافة تحتل مواقع رئيسية أو هامشية طبقاً لسيادة أنواع من الخطاب على حساب غيرها، كما نجده مدركاً لإختلاف أنماط السيادة و الخضوع التي تجسد العلاقة بين استراتيجيات الترجمة و بين أنواع الخطاب من ثقافة إلى أخرى. و عندما يعمد المترجم إلى التغريب الذي يقوم على تضمين ترجمته من الغرائب

(1)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص137.

اللغوية ما يرمي به إلى محاكاة النص الأجنبي، أو حين تبدو الترجمة "ميلاً إلى ندّ أجنبي"[1] فإنّها "لن تنجح في لغة ما نفس نجاحها في غيرها، بل لن تنجح إلاّ في تلك اللغات غير الخاضعة لإسار الفصاحة الكلاسيكية الذي يعد كل ما يقع خارجاً خاطئاً مكروهاً"[2]، أو في "اللغات التي تتمتع بحرية أكبر، و التي تظهر تسامحاً أعظم مع الانحرافات عن القواعد و الابتكار، بحيث يمكن أن تتراكم تلك الأخيرة فتكوّن أسلوباً خاصاً للتعبير"[3]. و يتفق كل من فينوتي و شلايرماخر على مسألة قابلية التغريب لأن يجرب في كل لغة و ثقافة، لكنهما يختلفان في كون أنّ الأول لم يشير إلى إمكانية أن ينجح التغريب في ثقافة ما و أن لا ينجح في أخرى، أو أنّهما قد لا يتكافئان في نسبة النجاح تلك. و في الحقيقة، نجد أنّ مفهوم شلايرماخر للتغريب يقوم على التدرج، بحيث أنّ دعوته إليه تعد أيضاً دعوة لأنواع من الخطاب ترتبط بالنخبة المثقفة، و هو بهذا يخوّل لهذه الفئة السلطة الثقافية و مسؤولية التحكم فيها. بل أكثر من ذلك نراه "يقلدها دوراً اجتماعياً محدداً هو "خلق أسلوب تعبيري له خصائصه المميّزة" ليكون نواة لغة قومية "تسهم في قيام الحضارة"[4]. و هو بذلك يمكّن الطبقة المثقفة سياسياً و يبوئها المكانة الثقافية التي تخوّل لها قيادة الأمة لأهداف قومية، و التي يأتي على رأسها تحسين اللغة و ترقيتها عن طريق التغريب في الترجمة.

و الملاحظ أنّ خطاب شلايرماخر متمركز حول الذات (egocentric)، و هو ما قد يجد فيه البعض نزعة فردانية و ميلاً عنصرياً. و بغية أن ينجح التغريب في الترجمة، لا بد من توفر شرطين هما: الرغبة في فهم النصوص الأجنبية، و المرونة. و الفهم الذي يتحدث عنه شلايرماخر في هذا الشأن هو فهم رجال الثقافة و النخبة من أمثاله بوصفه أستاذاً جامعياً و رجل دين محنك. سيكون مسار التغريب بذلك متوقفاً على مدى نبوغ من يؤدونه في العلم و المعرفة، و الذي سيكون بمثابة الشرط التعجيزي فيه. بيدأنّ ذلك يقبل التفسير في أنّ القرن التاسع عشر شهد سيطرة القلة البورجوازية على الفنون الأدبية في ألمانيا، بحيث لم يكن للأدباء الكلاسيكيين الألمان –من أمثال غوته Goethe و شيلر Schiller– جمهوراً يقرأ لهم إلاّ بين أبناء المدن الكبرى، و خريجي الجامعات من الموظفين و رجال الدين و المعلمين و الأطباء و المحامين. و قد كان النبلاء الألمان قادرين على التعبير على أنفسهم باللغة الفرنسية أكثر منه بالألمانية. و ثمة هنا دافع آخر لقيام النزعة التغريبية لدى شلايرماخر، و هي ضرورة أن تأخذ اللغة الألمانية بالدور المنوط بها في أن تعوّض مكانة اللغة الفرنسية المستفحلة في الأوساط الثقافية، و أن تتطور أكثر فأكثر ليتحقق بها القصد القومي المنشود الذي سيبقى بذلك وطني التصور و وطني الوسيلة المفضية إليه.

---

(1)لورانس فينوتي، م س، ص140.

(2)م ن، ص140.

(3)م ن، ص140.

(4)ن، ص141.

لقد كانت الحرب بين فرنسا و بروسيا عام 1806 و ما نجم عنها من انهيار للجيوش البروسية و السلام المهين الذي فرضه نابليون على بروسيا العامل الأول في قرار شلايرماخر الاتجاه نحو الدعوة إلى القومية و التفرغ لها كاملاً. و قد تسببت هزيمة بروسيا في فقدان شلايرماخر وظيفته بجامعة هال و فراره إلى بارلين عاصمة بروسيا حيث عمل محاضراً بجامعتها و واعظاً في كنائس كثيرة، فألقى الخطب داعياً إلى المقاومة السياسية و العسكرية للجيوش الفرنسية، و أرسى ذلك مفهوماً ثقافياً للقومية عماده اللغة الألمانية و اللاهوت البروتستنتي(1).

و من هنا يتبين أنّ دعوة شلايرماخر إلى الترجمة التغريبية تقابلها دعوته إلى النهوض بالثقافة الألمانية الوطنية، و هو ما يعني أنّ الترجمة بالتغريب سلاح المقاوم الذي يمسك به دفاعاً عن أمته و عن بني جلدته. و يتطابق ذلك مع رأي فينوتي القائل بأنّ التغريب وسيلة للكفاح ضد السيطرة الثقافية و النرجسية و الامبريالية. و ربما لم يكن لشلايرماخر أن ينزع نحو المنهج التغريبي لو لا أنّ الدماء التي كانت تجري في عروقه دماء الحرية لا الخنوع. و جاء تفضيله للميل التغريبي أيضاً بمثابة رد حازم و مناوئ على التقريب الذي ساد في فرنسا، و الذي يقوم على تسفير الكاتب الأجنبي إلى القارئ و ليس العكس.

يوصي شلايرماخر مترجمه التغريبي بأن يبتكر الغرائب و يبتدع الفرائد الأسلوبية ليبرز أجنبية النص الأجنبي، إذ وجب عليه أن ينبذ نمط الخطاب أو المستوى اللغوي الأكثر شيوعاً في الثقافة المستقبلة، أو ما يسميه بـ (العامي) أو (الدارج)، و أن يرفض ما يجمع عليه الناس و ما يروق لأغلبهم في الأنواع الأدبية المختلفة. و يرتبط الإختلاف الثقافي عند شلايرماخر بالصفوة، بحيث لا ما يُجمع عليه الناس و لا الأنواع الأدبية كلها هي ما يجب أن تكون مبعث هموم المترجم، بل وحده التوجه إلى النصوص اللاتينية و اليونانية بحيث يفهمه الأساتذة و الخبراء القادرون –دون غيرهم– على فهم و تقدير ما يفعله باللغة في الترجمة هو ما يجب أن يشكل شغله الشاغل.

و تسهم استراتيجيات الترجمة التغريبية في عملية إعادة النظر في ترتيب القيم الثقافية للثقافة المستقبلة، و هي بذلك تهدد الأوضاع القائمة و تعتمد عليها في الآن نفسه، بحيث تتخد مادتها من المواد الثقافية الموجودة فيها سلفاً. و من بين ما يرتكز عليه التغريب عند شلايرماخر أيضاً اختيار نصوص معينة للترجمة، إذ نراه يركز على النصوص الأدبية و الفلسفية الموجهة بطبيعتها إلى النخبة المثقفة و يسقط من حسابه كل الكتابات المتصلة بالعامة.

يعرض نموذج شلايرماخر الترجمي العديد من المسائل التي ينبغي الانتباه إليها، منها ضرورة الحرص على اختيار النص عند الترجمة، إذ تعد النصوص التي تعمل الثقافة المستقبلة على إقصائها أكثر النصوص قدرة على تغيير الأوضاع في حال ما ترجمت إلى لغة تلك الثقافة. و وحدها الاستراتيجية التي يزكيها شلايرماخر هي الكفيلة بأن تحتفظ للنص المترجم بهويته

(1)ينظر لورانس فينوتي، م س، ص145.

لتلاعبها بالدال لا بالمدلول (بخلاف الترجمة التدجينية التي تتلاعب بالمدلول لا بالدال)، فلا تكون الترجمة تغريبية إلا إذا عمل المترجم على تقليد تلاعب المؤلف الأصلي باللغة، "فكلما تابع المترجم الكاتب في انعطافاته بدا النص أكثر أجنبية في عين القارئ"[1].

إنّه لمن الصعب أن تطبق هذه الاستراتيجية على النصوص الأجنبية المنتمية لمختلف المجالات، و المنبعثة عن شتى المواقف الثقافية مهما كانت خصوصيتها أو موضوعها، و السبب هو أنّ الآراء التي ناقشها شلايرماخر في محاضرته ارتبطت بلحظة تاريخية معينة، و هو ما يعني أنّه يجب على كل مترجم أو منظر مهتم بالتغريب أن يكيّيف هذه الآراء بما يتماشى و مشربه الثقافي.

ينظر أصحاب المنهج التدجيني إلى التغريب –الذي يتجسد عبر كل مبتكر لغوي و خروج عن المألوف– على أنّه ممارسة منحرفة، ذلك لأنّه لا يحترم ما هو متعارف عليه في اللغة المعنية بالترجمة و ما هو شائع فيها، و يقوم بخلخلة القواعد السائدة فيها بإدخاله الغريب إليها، و هو ما يعتبره هؤلاء خطراً محدقاً بلغتهم و ثقافتهم وجب التصدي له بشتى السبل.

و قد تعرض منهج التغريب (foreignization) لصاحبه فينوتي لانتقادات بالجملة، بحيث تعددت الأسباب في ذلك، فمن المنظرين من يرى أنّ المصطلحية التي قدمها فينوتي غامضة، و منهم من يعتبره (أي التغريب) نخبوياً و متناقض داخلياً. و من بين الآراء التي استوقفتنا ما ذهبت إليه ماريا تيموشكو Maria Tymoczko التي اعتبرت أنّ التصنيفات التي جاء بها فينوتي غير مترابطة، و تساءلت عن الكيفية التي سنعرف بها أي الأعمال وجب ترجمتها و ما الغاية المتوخاة منها حتى و إن كانت غايتنا القصوى هي تعزيز المقاصد الأخلاقية[2]. و يرى أنطوني بيم Anthony Pym أنّ منهج فينوتي التغريبي قد أثبت عجزه عن بلوغ الأهداف التي ينشدها[3]. كما تتهم باربارا فولكارت Barbara Folkart فينوتي بعدم إيلائه أدنى الاهتمام بالجماليات[4] على الرغم من إختلاف مفهومها للجماليات مع مفهوم فينوتي القريب جداً من فكرة التشويش على القارئ لصاحبها بريخت Brecht.

و في الواقع، لن ينكر أحد من هؤلاء المنظرين أو غيرهم حقيقة أنّ أية ترجمة بالتغريب من شأنها أن تمد آفاق الجمهور المخاطب في اللغة المنقول إليها. و يمكن أن تُنقل الثقافة الباثة –بهذه الطريقة– إلى الثقافة المستقبلة بقدر ما أمكن ذلك، و أن تثري، علاوة على ذلك، الثقافة المستقبلة بما في ذلك اللغة أيضاً.

---

(1)لورانس فينوتي، م س، ص156.

(2)see Maria Tymoczko, Translation and political engagement, Activism, social change and the role of translation in geopolitical shifts, The Translator 6 (1), 2000, p36-37.

(3)see Anthony Pym, Venuti's Visibility, Target 8 (1), 1996, p167.

(4)see Barbara Folkart, Second Finding. A Poetics of Translation, University of Ottawa Press, Ottawa, 2007, p304.

و من الواضح أنّ استراتيجيات التدجين و التغريب تأخذ بعين الاعتبار تأثير العوامل الثقافية و الأيديولوجية في الترجمة، و تأثير الترجمات على القراء المستقبلين لها و على الثقافات. و بإمكاننا القول بأنّ الآراء و المواقف التي ساقها كل من شلايرماخر و فينوتي و برمان تربطها علاقات وطيدة بتلك التي تخص منظري الدراسات الثقافية و المداخل الفلسفية حيث يكون مفهوم الأجنبي و علاقته اللغوية و الهرمنوطقية و الأخلاقية بالأصل ذات قيمة جليلة.

و ثمة فرضية مهمة لفنوتي Venuti يرى فيها أنّ النصوص التي تصدر عن ثقافة ضعيفة و المترجمة إلى ثقافة أكثر قوة تميل إلى أن تكون (مدجنة) (domesticated)، أي أنّها تحرر بطريقة تبدو فيها طبيعية لقراء هذه الثقافة، بينما تميل النصوص الصادرة عنها و المترجمة إلى ثقافة أكثر ضعفاً إلى أن تكون (مغربة) (foreignized)[1]. و من بين الأمثلة على ذلك ما حصل في اليابان في سبعينيات القرن العشرين من تحول للترجمات من مغرّبة إلى مدجنة و ذلك مع تعاظم أهمية اليابان الإقتصادية و تطور صورتها في نظر اليابانيين أنفسهم. و قد أقر المنظرون أنّه ثمة أنماط محددة من النقل بين أنواع الثقافات، بحيث يوجد النقل من ثقافة رئيسة إلى ثقافة رئيسة أخرى (major to major culture)، و النقل من ثقافة رئيسة إلى أخرى ثانوية (major to minor culture)، و النقل من ثقافة ثانوية إلى أخرى رئيسة (minor to major culture)، و النقل من ثقافة ثانوية إلى أخرى ثانوية (minor to minor culture). و الشيء نفسه ينطبق على الأدب (literature)، إذ ثمة النقل من أدب رئيس إلى أدب رئيس آخر (major to major literature)، و النقل من أدب رئيس إلى آخر ثانوي (major to minor literature)، و النقل من أدب ثانوي إلى آخر رئيس (minor to major literature)، و النقل من أدب ثانوي إلى آخر ثانوي (minor to minor literature). و بما أنّ استراتيجيتي التدجين و التغريب تعنيان مباشرة بقوة و سلطة الثقافتين الباثة و المستقبلة على حد سواء، و بمدى علو كعب منظومتيهما الأدبيتان، فإنّهما قد أتاحتا لعلم الترجمة فرصة دراسة و تمحيص معايير الترجمة السائدة في الثقافات القوية، خاصة ثقافات الدول المتطورة و الاستعمارية، و مقارنتها بتلك السائدة في الثقافات الضعيفة أو المقهورة، أو بتلك الخاصة بالدول التي كانت في السابق مستعبدة.

يولي فينوتي Venuti الاهتمام نفسه لعملية اختيار النص المراد ترجمته التي تعتبر محورية في الميل التغريبي كما فعل شلايرماخر من قبل، فمن بين المكونات القاعدية التي تعول عليها (استراتيجية التغريب) (foreignization strategy) عنده هي انتخاب نص يوفي بالتزامه التغريبي على أن يتم إتباع الطريقة الترجمية المثلى في ذلك. و قد يكون النص الأجنبي المنتخب مهمشاً في ثقافة اللغة المنقول إليها فيترجم بطريقة سلسة و منسابة؛ أو قد يكون ممجداً في الثقافة اللغة المنقول إليها فيُنقل بلغة مهمشة. تنطوي اللغة المهمشة هنا على الإلتصاق بشكل اللغة

(1)ينظر دانييل جيل، م س، ص08.

المنقول منها و الإحتفاظ بعناصر ثقافتها بما فيه توظيف في اللغة المنقول إليها لغة غير نمطية (غير معيارية).

يرى أمبرتو ايكو Umberto Eco أنّه ينبغي على المترجم –وفق منظور شلايرماخر الترجمي– أن يختار بين التدجين أو التغريب، إذ ليس بإمكانه أن يخلط الاثنين معاً، فإما أن يضع القارئ على الطريق الذي سيقوده إلى المؤلف أو أن يضع المؤلف على الطريق الذي سيقوده إلى القارئ لأنّه إذا قام بالإجرائين معاً فسيضل كل واحد منهما طريقه. و يستثني ايكو Eco من ذلك النصوص البعيدة عن السياق الثقافي الذي نترجم إليه، ففي حالة التوراة مثلاً يبقى اختيار التوجه نحو المصدر أو نحو الهدف محل تدبر جملة بجملة. و ينتصر ايكو Eco لاستراتيجية التغريب بقوله أنّه ينبغي أن تشكل استراتيجيات التدجين بصفة عامة الاستثناء و ليس القاعدة. كما يجب علينا دوماً أن نقدر على البرهنة عن سبب اختيار استراتيجية التدجين. فإما أنّ يكون النص بعد تغريبه غير مفهوم كلياً بالنسبة لقارئ النص الهدف أو أنّ الأمر يتعلق بشيء ذي جدوى[1].

إنّ تفضيل مؤلف النص الأصلي و اعتباره، في الكثير من الأحيان، متفوقاً بلغته و ثقافته لهي بحق من خصال أهل المصدر (sourcerers) و شيمهم. و ينبع مثل هذا الشعور من دوافع و مواقف فلسفية يعلنها هؤلاء على الجمهور بوعي و يجاهدون بها صراحة، و أخرى تضرب جذورها في اللاوعي فتفسد ممارستهم الترجمية و توجه خياراتهم الاستراتيجية و هم غافلون. و يمكننا أن نتتبع الموقف الفلسفي لهؤلاء من خلال مؤلفاتهم في الترجمة و نظرتهم العقائدية التي تلقي بظلالها على عملية الترجمة.

و قد تلخص هذه الدوافع في نقاط ثلاث[2]، أولها احترام الآخر، ذلك الغريب المختلف عن الذات، و يطال اختبار غرابة أفكاره و لغته و ثقافته الذي يعتبر بمثابة التجربة المريرة و المحنة الشاقة العسيرة. و لا يسمح المترجم لنفسه، في هذه الحالة، بأن يعدّل أفكار المؤلف أو يحذفها أو يخفف من حدة ما من شأنه أن يسيء إلى القارئ أو السامع أو يخدش رهافة إحساسه لأنّه يعتبر أنّ مهمته تلزمه بتوسيع حدود رهافة إحساس القارئ في اللغة المنقول إليها، و حمله على التسامح و الانفتاح على الغير[*] و تقبله على إختلافه التي يعتبرها برمان بمثابة المسألة التي تسهم أيما إسهام في أخلقة الفعل الترجمي في إطار الغيرية الإيجابية البعيدة عن النظرة الأحادية الضيقة التي لا تمت بصلة للفعل

---

(1)voir Umberto Eco, op.cit, p79-81.

(**2**)ينظر جينا أبو فاضل، م س، ص169.

(*)Francoise Wuilmart dit à ce propos:
« [...] c'est encore eux (les traducteurs) qui s'attellent à une tâche essentielle : mettre à la portée des leurs ce qui au départ leur était étranger, faire passer le message de *l'Autre* sans trop le défigurer et œuvrer ainsi dans le sens d'une tolérance et d'une compréhension mutuelle sans lesquelles l'avenir ne peut nous apparaître que noir ».

(م ن، ص170).

الترجمي(*). و يقوم المترجم باستضافة اللغة الأخرى في لغته، و هو ما يُعرف بـ (الضيافة اللغوية)(**) (l'hospitalité langagière) التي يرمي المترجم من خلالها إلى دفع القارئ إلى التمعن في تراكيب اللغة المنقول منها، فلا بأس، في نظره، إن أحس هذا الأخير بأنّ النص الذي يقف عليه نص مترجم بل يستحسن ذلك. و يحرص المترجم كل الحرص أيضاً على المحافظة على الغيرية الثقافية، فلا يحجب أو يمحو العناصر الثقافية الغريبة على قارئه، و لا يسعى إلى تكييفها و استيعابها و ضمها إلى ممتلكاته الثقافية كما يفعل نظراؤه من أهل الهدف، بل يبقيها على إختلافها و يدفعها إلى قارئه على غرابتها، "فلا يجوز أن يصبح Toto، بطل النوادر الفرنسية، "جحا" أو "أبو العبد" أو أن يتخلى أبطال مارون عبود عن السروال و اللّبادة لمصلحة الرودينغوت (Redingote) و القبعة الـ haut de forme أو أن تجنح سفينة روبنسون كروزوي إلى ساحل جزيرة الأرانب أو أن يتناول أحد أبطال همينغواي "الفلافل" بدلاً من سندويشات الهوت دوغ"(1).

و تكمن الثانية في تطوير اللغة الأم، بحيث يعتبر المصدريون أنفسهم أمام تحد يقضي بتخطي حدود اللغة و تليينها إلى أقصى الحدود، و ذلك بفرض المعاني الجديدة على المفردات القديمة المتداولة في لغتهم الأم التي عفى عليها الزمن بفعل التداول بها على المنوال نفسه. و يؤمن هؤلاء المترجمون بأنّ تعنيف اللغة –الذي لا يصل إلى حد الإغتصاب(***)– عبر إدخال تراكيب غريبة عنها لم تألفها، و بالتالي توسيع طاقاتها الدلالية و مد حدودها التعبيرية سيبعث فيها الحياة من جديد، فيؤدي ذلك كله إلى إثرائها و تطويرها. ثم إنّ تطور اللغة الأم إنّما يحصل باحتكاكها بلغات أخرى –و هو ما عبر عنه شلايرماخر بصراحة في حديثه عن حاجة اللغة الألمانية لأن تنفتح على الآخر المختلف و على

(*)إنّ الاعتراف بالآخر و تقبّله على إختلافه مسألة يعتبرها أنطوان برمان من أخلاقيات الفعل الترجمي إذ يقول:

«l'acte éthique consiste à reconnaître et à recevoir l'Autre en tant qu'Autre. [...] Accueillir l'Autre, l'Etranger, au lieu de le repousser ou de chercher à le dominer [...] Or, la traduction, de par sa visée de fidélité, appartient *originairement* à la dimension éthique. Elle est, dans son essence même, animée du *désir d'ouvrir l'Etranger en tant qu'Etranger à son propre espace de langue* ».

(جينا أبو فاضل، م س، ص170).

(**)يعود الفضل في التداول بهذا المفهوم إلى بول ريكور Paul Ricoeur الذي قال فيه:

« [...] sans l'épreuve de l'étranger, serions-nous sensibles à l'étrangeté de notre propre langue? Enfin, sans cette épreuve, ne serions-nous pas menacés de nous enfermer dans l'aigreur d'un monologue, seuls avec nos livres? Honneur, donc, à l'hospitalité langagière ».

(م ن، ص170).

(1)م ن، ص171.

(***)تتحدث فرانسواز ويلمار عن تعنيف اللغة الأم الذي لا يبلغ مع ذلك حّد الإغتصاب و يؤدي إلى إخصابها فتقول:

« Il (le traducteur) sera donc forcé de bousculer les habitudes de sa langue maternelle, de la violenter, sans pour autant la violer [...] Les grandes traductions [...] fécondent le matériau qu'elles travaillent: la langue maternelle ».

(ن، ص172).

العالم[*]- التي ستخصبها فينتج عن هذا التلاقح لغة ثالثة[**] هجينة لكنها تخدم الترجمة و تدفع بها إلى التألق و التباهي. و نجد أنّ هؤلاء المترجمين من أهل المصدر ينصبون أنفسهم أوصياء على اللغة الأم، و مسؤولون على مهمة تطويرها عبر تلقيحها و تطعيمها باللغات الأخرى، دافعهم في ذلك موقف فلسفي تزكيه أسطورة بابل التي تقول بأنّ اللغات كلها تجمع بينها جذور مشتركة، فالناس على إختلاف أعراقهم كانوا يتفاهمون و يتواصلون بلسان واحد غني إلى أن حلت عليهم اللعنة ففرقت شملهم و جعلت لكل منهم لساناً مختلفاً. و كانت النتيجة أن تشتت خصائص اللسان الأول، و توزعت على اللغات التي نشأت فيما بعد. فإذا بكل منها -إن أخذناها على حدى- لغة ناقصة تفتقر إلى كل ما إغتنى به اللسان الأول النقي، و لا تستعيد هذا الغنى إلاّ إذا اقتطفت ثماره، بيد الترجمة، من بساتين مثيلاتها.

و أما الثالثة فبناء الثقافة الوطنية، إذ لا تنبني الثقافة الوطنية و لا تنمو إلاّ إن هي غرفت من معين الثقافات الأخرى[***] التي يعتبرها أهل المصدر بأنّها متفوقة و تحتل مرتبة أسمى من تلك التي تحتلها ثقافتهم الخاصة. كما أنّ ميزات الذات لا تظهر إلا إذا قارناه مع ميزات الآخر، فانفتاح جماعة معينة على ما يوجد عندها و تجريبها للغريب يفضي بها إلى بلوغ جوهرها و يلقنّها دروساً حول ما يميّزها فإذا بها تبني هويتها الذاتية و تقوّم الاعوجاج فيها. زد على أنّ هذا الاحتكاك يجعلها تعي ما ينقصها فتروح تستورده و تتزود به لإصلاح ذات الذات. و لذلك وجب على اللغة الأم أن تغدو أرضاً مضيافة تستضيف الغريب فيحل بها مؤهلاً به و مسهلاً، و لا بد للمترجم من أن يستحيل سفيراً ثقافياً لوطنه يرتحل إلى الضفة الأخرى ليعود إلى دياره محملاً بما وسعت يداه من بضاعة هذا الآخر الثقافية، فيحيكها بثقافته هو لينميها حق النماء.

و يحفل تاريخ الترجمة بالأمثلة الوافرة على الشعور بالنقص الذاتي و تفوّق الآخر، و اعتبار ثقافته مثالاً يحتذى به و ثروة حضارية لا بد من الإفادة منها بوصفها نبع لا ينضب. فمنذ بداية حركة النقل، سعى الخلفاء الأمويون ثم العباسيون إلى

(*)يقول شلايرماخر في هذا الصدد:

"كما أنّ تربتنا و لا شك قد صارت أَثْرَى و أخصب و مناخنا قد صار ألطف و أجمل بعد استزراع الكثير من النباتات الأجنبية، فأنا أعتقد أنّ لغتنا، التي لا نمارسها كثيراً بسبب طبيعتنا الشمالية الكَسُول لن تصل إلى قمة ازدهارها و قوتها إلا من خلال الاتصال المتعدد المظاهر و الجوانب مع الأجنبي".

(لورانس فينوتي، م س، ص147).

(**)Wuilmart affirme que « La langue du texte dit « de départ » et celle du texte « d'arrivée » se marieraient pour former une langue troisième, à mi-chemin entre deux cultures [...] ».

(جينا أبو فاضل، م س، ص173).

(***)يقول رودولف بانويتز Rudolf Pannwitz حول ذات الفكرة:

« Surtout lorsqu'il traduit un texte écrit dans une langue très différente de la sienne, il doit remonter jusqu'aux éléments ultimes du langage, là où convergent mot, image, tonalité; il doit élargir sa propre langue en s'aidant de la langue étrangère; on ne se doute pas du point auquel on peut ainsi l'enrichir, du degré d'évolution dont toute langue est susceptible ».

(م ن، ص174).

ترجمة ما افتقرت إليه الثقافة العربية و إغتنت به الثقافات اليونانية و الرومانية و الفارسية من شتى صنوف المعرفة و العلوم. و دأب الملوك، حتى في أوروبا، على هذه الحركية الحضارية، فأسس فرانسوا الأول Francois I ملك فرنسا –على سبيل المثال لا الحصر– في عصر النهضة الغربية (المجمع الملكي) (Le Collège Royal) أو (مجمع اللغات الثلاث) (Le Collège des trois langues) العام 1530، و هي اللاتينية و اليونانية و العبرية مشجعاً أعمال الترجمة بهدف تعزيز اللغة و الثقافة الوطنيتين و إغنائهما بما جادت به قرائح الآخر الأجنبي[1]. و لعل خير دليل على الهاجس الذي راود المترجمين في حتمية إغناء لغتهم و تثقيف بني جلدتهم و محو جهلهم و رفعهم إلى مستوى الآخر المتفوق تلك الشروحات و الهوامش التي زخرت بها الترجمات في تلك الحقبات (حتى العربية منها) بغية تذليل الصعاب و حشد همم القراء في التزود بما يجد في هذا الحقل أو ذاك، و شعارهم في ذلك: ترجم لتحيا.

أما الدوافع اللاشعورية التي تقف وراء الممارسات الترجمية لأهل المصدر و استراتيجياتهم، و التي تقترب في الغالب الأعم من الترجمة بالحرف فقد سلط عليها الضوء العديد من المنظرين و خاصة مناوؤهم من أهل الهدف من أمثال لادميرال Ladmiral في مؤلفاته و أبحاثه. و يمكن أن تلخص هذه الدوافع في نقطتين رئيسيتين هما قدسية النص المصدر و استخدام الترجمة في تدريس اللغات[2]. و المقصود بقدسية النص المصدر أنّه لما شرع المترجمون في التعامل مع النصوص المقدسة لأغراض دعوية أو تبشيرية، تكونت لديهم خشية المؤلف و نما فيهم نوع من الإجلال المكبر له. فالله هو الذي يتكلم عبر نصوص القرآن الكريم و الكتاب المقدس، و أي نقل لكلامه إلى لغة أخرى قد يعرّضه للتحريف أو للتأويل الخاطئ أو حتى للتدنيس. و لذلك قارب الكثير من المترجمين هذا الصنف من النصوص بحذر لا يغلبه حذر، فاعتمدوا على استراتيجيتي الترجمة الحرفية (la traduction littérale) و الترجمة بالرصف (أي النسخ–le calque) إيماناً منهم بأنّ الالتصاق بحرف النص و حتى بطريقة ترتيب مفرداته هو السبيل الذي يوفر أقصى درجات الأمانة، و يجنب المترجم معصية انتهاك قدسية هذا النص. و للسبب نفسه يُجمع علماء الإسلام على عدم جواز ترجمة القرآن الكريم[*] على الرغم من أنّه ترجم إلى حوالي 70 لغة غير أنّ هذه الترجمات مجتمعة لا تقوم مقام القرآن الكريم بل تكمله باعتبارها شرح لمعانيه و تعليق عليها. ثم إنّ القرآن الكريم معجّز بألفاظه، و قد يضيع وجه الإعجاز فيه إذا ما ترجم إلى لغة أعجمية لأنّ ما

(1)ينظر جينا أبو فاضل، م س، ص175.

(2)م ن، ص176–177.

(*)يمكننا أن نذكر في هذا الصدد ما حصل لشيخ الأزهر العام 1936 عندما اضطرّ، بعد معارضة شديدة من خشية تحريف معاني القرآن الكريم، إلى أن يطلق على الترجمة التي كان ينوي الاشتغال عليها تسمية (ترجمة تفسير القرآن) (أو ترجمة معاني القرآن الكريم) و ليس ترجمة القرآن.
(م ن، ص101).

من بشري باستطاعته أن يقلد الخطاب الإلهي(*) المترفع عن كل خطأ و السامي عن كل شطط. لذا كان لا بد على كل مسلم أن يتعلم اللغة العربية ليقرأ القرآن و يؤدي الصلوات. و لا شك أنّ هذا الخوف الذي دب في نفوس مترجمي النصوص المقدسة بقي عالقاً في الذاكرة الجماعية فلازم المترجمين من أهل المصدر(**)، ثم امتد ليطال بشكل خاص النصوص الأدبية، خاصة الشعرية و الفلسفية منها، فصار المترجمون يلتزمون الحذر و يؤثرون الالتصاق بحرف النص على التحرر منه.

أما عن استخدام الترجمة في تعليمية اللغات، فقد لجأ واضعو أولى طرائق تعليم اللغات الأجنبية إلى توظيف الترجمة في تدريسها. فكانوا يطلبون من المتعلمين أن يترجموا بالحرف و بالرصف النصوص الأجنبية إلى لغتهم الأم، و كان القصد في ذلك قياس مدى حفظهم المفردات التي تلقّنها المتعلم و التراكيب اللغوية التي هو بصدد دراستها. و لعل العديد ممن لَقنوا أو لُقنوا اللغات الأجنبية بهذه الكيفية بقوا متأثرين –بوعي أو بغير وعي– بأسلوب الترجمة الحرفية التي تميّز أهل المصدر.

إنّ ما جاء به كل من شلايرماخر Schleiermacher و فينوتي Venuti من آراء و تبصرات بخصوص استراتيجيتي التدجين و التغريب في الترجمة لا يشتمل على أدنى إشارة إلى أي أنواع مفترضة لهما، بل اكتفيا بشرح ماهيتهما و تبيان مفهومهما بكثير من التمحيص و التقريض فقط. و ينبغي أن نجزم أنّه ما من ترجمة إلاّ و تنتهج إحدى هاتين الاستراتيجيتين أو تمزج بينهما، فثمة بالتالي حتمية واحدة لا تقبل الجدل أو المساومة أبداً. غير أنّه يمكننا، و بمعادلة بسيطة، القول إنّ استراتيجيتي التدجين و التغريب الترجميتين تتعالقان مع المناحي اللغوية و الدلالية و الثقافية للمرسلتين في اللغة المنقول منها و اللغة المنقول إليها بسبب أنّ كل نظرية أو مقاربة ترجمية (من المنظور التصوري) و الاستراتيجيات (أو الإجراءات و التقنيات و الطرائق ...) المفضية إلى هذه النظرية أو المقاربة (من المنظور العملي) تمسك بواحد من هذه المناحي أو ببعضها أو بكلها معاً: فمنها من يقف عند اللغة و لا يتجاوزها، و منها من يهتم بشكل المرسلة و بوظائف اللغة الغالبة فيها، و منها من يعنى بالبعد الدلالي للرموز اللغوية، و منها من يأخذ على عاتقه البعدين الثقافي

(*)يقول محمد عبد الغني حسن في هذا الصدد:

"القرآن نور و النور لا يُترجم. و املأ الليل بما شئت من أنوار الكهرباء، فهي لا تُغني عن نور النهار، و لا تقوم مقام الشمس، و لا تؤدي وظيفة الشمس". كما حذر الجاحظ من مفاسد نقل كتب الدين و اعتبره مضرة للإنسان في دينه و دنياه حين قال:

"هذا قولنا في كتب الهندسة و التنجيم و الحساب و اللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين و أخبار عن الله عزّ و جلّ، بما يجوز عليه، مما لا يجوز عليه [...] و متى لم يعرف ذلك المترجم، أخطأ في تأويل كلام الدين، و الخطأ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة و الصناعة و الفلسفة و الكيمياء، و في بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم".

(جينا أبو فاضل، م س، ص178).

(**)Jean René Ladmiral dit à ce propos:

« La thèse est que tout texte source (ou texte de départ) tend à être investi - au moins inconsciemment, par les « sourciers » comme un texte sacré ».

(م ن، ص178).

و الاجتماعي اللّذان يشكلان المرسلة و تتمخض هي عنهما. لكن الرأي الحصيف في هذا الشأن هو ذاك الذي يرى بأنّ البعد الثقافي المؤطر لكل مرسلة هو المتحكم الأكبر في هاذين التوجهين الترجميين.

و قد ركز فينوتي Venuti فيما ساقه من آراء حول التدجين على مسألة السلاسة (fluency)، و أقر بصريح العبارة أنّه لن يستقيم الأمر مع علم الترجمة و ممارساته، و لن يكون هناك أي تغيير للوضع القائم إلاّ بوضع هذه السلاسة –التي كما يراها المعاصرون هي الالتصاق بالانجليزية القياسية المعاصرة في الترجمة– موضع مساءلة و إعادة نظر. و انطلاقاً من ذلك، يتمثل التغريب –في أحد أوجهه– في عدم الانسياق وراء اللغة الانجليزية المعيارية المعاصرة، و التوجه نحو أنماط انجليزية أخرى تختلف عن الأولى في الكتابة و النظم و النطق التي من شأنها أن تكسر قواعد اللغة الانجليزية القياسية و الأعراف اللغوية فيها ضاربة بها عرض الحائط. و هو ما سيحفظ للنص المصدر على بعض من أجنبيته في النص الهدف(*). و الشيء نفسه قابل لأن يتحقق في اللغة العربية، إذ بإمكاننا أن نترجم ما هو معياري فيها بآخر غير معياري، كأن نتلاعب بمستوى الرسمية في الخطاب، أو أن نترجم حواراً دار في بيئة أجنبية ما بآخر نكتبه بلهجة أهل البادية في الأردن مثلاً.

انتقد شلايرماخر بشدة –و بشيء من الدعابة أيضاً– الطريقة التدجينية الفرنسية التي تقوم على الإستحواذ و التملك، أو بتعبير آخر على مبدأ تقديم عمل يمثل ما كان صاحبه سيكتب لو أنّه كان ناطقاً باللغة الهدف بأن طرح التساؤل التالي: "كيف لك أن تعرف ما كان الرجل سيكتب لو كان ناطقاً بهذا اللسان"، و يقول: "و ماذا لنا أن نرد لو أنّ المترجم يتقدم إلى القارئ قائلاً: إليك عمل المؤلف كما لو كان كتبه في اللغة الألمانية، فأجابه القارئ: سأكون ممنوناً لك لو أنك أيضاً قدمت لي صورة هذا الرجل لو أنّ أمه ولدته من رجل آخر"[1]. فالاستحالة بالتالي تكمن في أنّه ليس بمقدورنا مطلقاً معرفة ما يدور في خلد المترجم و في بواطنه من أفكار و مشاعر و ميول بسبب أنّ الإحاطة بها يخرج عن نطاق الطبيعة الإنسانية و يتجاوزها، كما أنّ المتغيرات التي تفرضها كل مرسلة لغوية و ميتالغوية تتدخل هي الأخرى و بشكل حاسم في الوعي و اللاوعي، لتكون السلاسة إذن نتاج سير العملية (the process) التي تدير ظهرها –عن قصد و بكل وعي– لكل الأبعاد الشعورية و المتغيرات النصية (les variantes textuelles) و غير النصية (les variantes extratextuelles) التي عاشها المؤلف لحظة الكتابة (أو لحظة الصفر) و انبثقت عنها المرسلة موضوع الترجمة، في محاولة منها فرض قانونها الصارم على جميع المشاركين في الحدث التواصلي (باعتبار النص كذلك a communicative event) الأصليين و المفترضين على حد سواء.

(*)A foreignizing translation designates the type of translation in which T.T "deliberately breaks target conventions by retainning something of the foreignness of the original".
(see Mark Shuttleworth & Moira Cowie, op.cit, p240).

(**1**)سعيدة كحيل، ريما لعريبي، اتجاهات التنظير في الترجمة، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 139، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف2009، ص257.

لقد شدد علماء اللغة –بعد أن تطور الدرس اللساني و سار قدماً نحو الأمام– على مختلف المتغيرات التواصلية (بمعناها الشمولي) المتحكمة بزمام أي موقف تواصلي و أطره بشكل كبير، بحيث أكد هؤلاء على وجوب عدم التنكر لها و الاعتراف بدورها كعنصر مكون رئيس لا يقل أهمية عن غيره من العناصر التكوينية الأخرى، و أن نضبط ماهيتها و صنوفها و العوامل التي تدخل في تشكلها و تلك التي تفضي إلى التقاطع بينها؛ ثم أن نبرز للقارئ من خلالها الممارسات اللغوية و الخطابية المتنوعة التي تقبل التعديل أو التغيير بحسب ماهية المتخاطبين و مكانتهم الاجتماعية، و السجل اللغوي الذي يُوظف من قبلهم، و مكان وقوع المخاطبة، مشافهة كانت أو مكاتبة، و المسار التطوري الذي عرفته اللغة في فترة ما و غيرها من المسائل الوثيقة الصلة بذلك.

و قد يكون لاستراتيجيات التدجين (domestication strategies) و استراتيجيات التغريب (foreignization strategies) في الترجمة الدور الحاسم إما في الحفاظ على نفس الأنساق التي تكون مألوفة بالنسبة لجمهور القراء في اللغة المنقول إليها (مثل احترام العرف التراتبي السائد بين المتكلمين بحسب الجنس أو العمر أو المكانة الاجتماعية؛ الإحتفاظ بالسجل اللغوي المتداول به في كل موقف بحسب العرف التراتبي الاجتماعي، الإبقاء على مكان الموقف التواصلي نفسه...) أو خلخلتها بأخرى غير مألوفة و غريبة بالنسبة إليه (تبديل أحد هذه الأنساق أو جميعها)، و هو ما يعني أنّ هاتين الاستراتيجيتين قابلتين للتجسيد حتى على مستوى البنى التحتية للغة، بل تعد هذه البنى القاعدية النواة في ذلك و الأصل. و ما يثبت صحة هذا الطرح تلك الأنواع التدجينية (أو الترجمة المتمركزة عرقياً) و الأنواع التغريبية (أو الميولات التحريفية) التي أشار إليها أنطوان برمان Antoine Berman، و التي تأخذ أشكالاً مختلفة و تتدخل في مستويات النص كافة[1] ما يعني أنّها تشمل الموقف التواصلي كله، أصوله و فروعه.

و ثمة العديد من التصنيفات الإجرائية التي يزخر بها علم الترجمة، و التي تنطوي على العديد من الأدوات العملية (الاستراتيجيات و المنهجيات و الطرائق و التقنيات...) بحسب المسمى الذي تم التداول به عند أصحابها. و قد ذكرنا آنفاً أنّ هذه الإجراءات الترجمية قد تميل إلى أن تكون تدجينية أو تغريبية، لكن قد يشتمل التصنيف الواحد على استراتيجيات التدجين و استراتيجيات التغريب في الآن نفسه. و لنبرهن على ذلك، سنقوم بعرض بعض هذه التصنيفات لعدد من المنظرين و المشتغلين في حقل الترجمة، و هم على التوالي: جورج ل. باستين Georges L.Bastin، و ساره لافيوسا–بريثويت Sara Laviosa-Braithwaite، و فيني و داربلنيه Vinay et Darbelnet، و مالكوم هارفي Malcom Harvey، و فرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà كما هو مبين في الجدول أدناه[2]، و التي سنعتمد على بعض ما جاء فيها من إجراءات عند دراسة و تحليل المدونة في الفصل التطبيقي.

(1)ينظر أنطوان برمان، م س، ص ص76–92.

(2)see Esmail Zare-Behtash and Sepideh Firoozkoohi, op.cit, p1579.

Domestication	**Foreignization**
Proposed by Georges L.Bastin - Omission - Exoticism - Updating - Situational equivalence	 - Transcription of the original - Expansion
Proposed by Sara Laviosa-Braithwaite - Simplification - Avoidance of repetition - Explication - Normalization - Discourse transfer - Distinctive distribution of lexical items	
Proposed by Vinay and Darbelnet - Transposition - Modulation - Equivalence - Adaptation	 - Borrowing - Calque - Literal translation
Proposed by Malcom Harvey - Functional Equivalence - Descriptive or self-explanatory translation	 - Formal Equivalence - Transcription
Proposed by Franco Javier Aixelà - Synonymy - Limited universalization - Absolute universalization - Naturalization - Deletion - Autonomous creation	 - Repetition - Orthographic adaptation - Linguistic translation - Extratextual gloss - Intratextual gloss

ستكون البداية مع تصنيف جورج ل. باستين Georges L.Bastin الذي يتضمن ستة إجراءات: أربعة منها تدجينية و إثنين منها تغريبيان. بيدأنّه ينبغي علينا –قبل أن نخوض في ذلك مفصلين– ضبط مفهومي التدجين و التغريب اللّذين سنرتكز عليهما في تحليلاتنا للتصنيفات الحالية و في دراستنا للمدونة موضوع البحث. و بما أنّ (استراتيجية التدجين) (domestication strategy) تعني عدم الانسياق وراء كل غريب في النص المصدر، و تميل إلى الترجمات التي تتوفر على السلاسة الهادفة إلى عدم إثارة القارئ أو جلب انتباهه بمسائل لغوية أو ميتالغوية، فإننا نعتبر أنّ التدجين هو كل تدخل من قبل المترجم الذي يهدف إلى جعل النص في اللغة المنقول إليها يخلو من الغموض و الشوائب إن على مستوى

البنى اللغوية و الدلالات المصاحبة لها أو على مستوى الموقف التواصلي (the situation of communication) بشكل عام. أما (استراتيجية التغريب) (foreignization strategy) التي تحيل على انسياق المترجم التام و اللامشروط وراء النص المصدر من خلال محاكاة و تقليد جميع بردغماته اللغوية و الدلالية و الثقافية الأجنبية التي تعتبر غريبة عن اللغة الهدف و شاذة عن ما هو متواضع عليه فيها فهي إلتزام المترجم الحياد في أن لا يتدخل بأي شكل من الأشكال في النص الذي هو بصدد نقله أو في اللغة التي يترجم إليها مبدلاً و مغيراً. و بهذا نكون قد رسمنا حدوداً لبحثنا و حدّدنا معالمه الجغرافية حتى لا نضيع في المتاهات النظرية من أجل أن نبلغ القصد المنشود و الفائدة المرجوة.

و قد جاء تصنيف باستين Bastin في خضم حديثه عن (التكييف) (Adaptation)[1]، و عن الإجراءات الواجب إتباعها من قبل كل مكيّف (adaptator). أولى الإجراءات التدجينية –التي تعكس حالة من تدخل المترجم الفاضح و المفضوح في النص الأصلي، و التي قد يصل مداها الانتكاسي إلى حد محق أحد المعايير النصية للنص الهدف، أي ما يجعله نصاً دون سواه (كالإخبارية informativity مثلاً) من منظور عالمي اللسانيات النصية دو بوغراند و درسلر De Beaugrande et Dressler– هو (الحذف) (omission) الذي يقصد به صاحبه التخلص أو إنقاص النص من أحد مقاطعه. و يتمثل الإجراء الثاني في (الغرابة المثيرة) (exoticism) التي تكمن في استبدال قوالب من الرطانة و الدارجة و الكلمات التافهة في النص المصدر بمكافئات لاذعة في اللغة المنقول إليها التي يشار إليها في بعض الأحيان بالحروف المائلة (italics) أو برسم خط تحتها. و يليه إجراء آخر المتمثل في (التحديث) (updating) الذي يقصد به باستين Bastin تبديل معلومات قديمة أو غامضة بمكافئاتها العصرية. أما الإجراء التدجيني الأخير فيكمن في (التكافؤ الموقفي) (situational equivalence) الذي يقوم على إدراج سياق أكثر ألفة من الذي جيء به في النص الأصلي. و جاء التغريب عند باستين Bastin في إجرائين إثنين من شأنهما الإبقاء على النص الأصلي و مكوناته على حالها. يتمثل الإجراء الأول في (انتساخ الأصل) (transcription of the original)، و هو أن نكتب مقطعاً من النص في اللغة المنقول منها كلمة بكلمة (word-for-word)، و التي تكون مصحوبة في الغالب بترجمة حرفية (literal translation). أما الإجراء التغريبي الثاني فيكمن في (البسط) (expansion)، و هو التصريح و الإبانة (explicitation) في نص الترجمة عن ما أضمر من معلومات في النص المصدر، و ذلك إما في المتن أو في الهوامش (footnotes) أو في مسرد الكلمات (glossary).

أما التصنيف الثاني فهو للافيوسا–بريثويت Laviosa-Braithwaite الذي أوردته في حديثها عن (جوامع الترجمة)

(1)GEORGES L.BASTIN, Adaptation, in Routledge Encyclopedia of Translation Studies, Edited by Mona Baker, assisted by Kirsten Malmkjaer, Routledge, London and New York, 2005, pp05-08.

(Universals of translation)[1]. و قد ضم هذا التصنيف ستة إجراءات جاءت كلها تدجينية، و هو ما يعني أنّ هذا النموذج يضع نصب عينيه اللغة المنقول إليها و جمهور القراء فيها بأن يجعل من نص الترجمة نصاً مستصاغاً لا يجد فيه القارئ أدنى مشكل في مقاربته و من ثم فهمه بوصفه شفاف يعكس صورة مرئية هي صورته لا صورة الآخر.

يتمثل الإجراء التدجيني الأول عند لافيوسا Laviosa في (التبسيط) (simplification) الذي ينقسم إلى أنواع ثلاثة: المعجمي (lexical)، و التركيبي (syntactic)، و الأسلوبي (stylistic). بالنسبة للنوع الأول من التبسيط، (التبسيط المعجمي) (lexical simplification)، تقتبس لافيوسا Laviosa تعريف كل من شوشانا بلوم-كولكا Shoshana Blum-Kulka و إدوارد أ. ليفنستون Edward A. Levenston لهذا النوع في أنّه سير عملية و/أو نتاج التعبير عن الشيء بكلمات أقل. أما فيما يخص النوع الثاني، (التبسيط التركيبي) (syntactic simplification)، فتسوق لافيوسا العديد من الأمثلة التي تم فيها تبسيط التركيب المعقد (complex) من خلال استبدال العبارات الجملية غير المنتهية (non-finite clause) بأخرى منتهية، و إزالة النقاط التي تقطعها و ذلك باعتمادها على دراسة قامت بها ماريا (ريا) فانديروويرا Maria (Ria) Vanderauwera العام 1985. و قد أعطت هذه الأخيرة أيضاً أدلة مهمة حول الأشكال المتنوعة التي يأخذها النوع الثالث من التبسيط، (التبسيط الأسلوبي) (stylistic simplification)، الذي تكمن أحد أنماطه الأكثر شيوعاً في الميل إلى تقطيع المتواليات و الجمل الطويلة، و استبدال التعابيرية (phraseology) المتقنة بمتلازمات لفظية (collocations) قصيرة، و تقليص أو حذف التكرار و المعلومات المطنبة، و إختصار اللف و الدوران (circumlocutions) الذي يطول أكثر مما ينبغي، و إهمال العبارات و الكلمات التعديلية (modifying). و يندرج الإجراء الثاني (تفادي التكرار) (avoidance of repetition) ضمن النوع التبسيطي نفسه، أي (التبسيط الأسلوبي) (stylistic simplififcation) الذي يعتبر أحد مظاهره. و يرى العديد من المنظرين أنّ التوجه نحو تفادي التكرار الموجود في النص المصدر هو أحد المعايير في الترجمة الأكثر استمرارية و دقة في كل اللغات التي تمت دراستها حتى الآن.

ثم يلي ذلك إجراء آخر يتمثل في (الإبانة) (explicitation)، بحيث تذكر لافيوسا Laviosa ما ذهبت إليه بلوم-كولكا Blum-Kulka في دراسة لها أجرتها حول الترجمة المهنية و غير المهنية من اللغة الانجليزية إلى اللغة الفرنسية و العكس، أين لاحظت حدوث تغييرات في أنواع علامات الاتساق (cohesion markers) التي وظفت في النصوص المترجمة، و أشارت إلى أمثلة قام فيها المترجم ببسط النص الهدف عن طريق إدخال كلمات إضافية. و ترى بلوم-كولكا أنّ لكلتا الظاهرتين أثر في الرفع من مستوى وضوح النص الهدف مقارنة بالنص المصدر. كما أنّ هذه

(1)SARA LAVIOSA-BRAITHWAITE, Universals of translation, in Routledge Encyclopedia of Translation Studies, op.cit, pp288-291.

السمات الترجمية قد لا تعنى بزوج لغوي محدد و لكنها تنتج بالأحرى عن سير عملية تأويل النص المصدر.

من جهته، يعنى (الاستنظام) (normalization) بالتغييرات التي تحدث على مستوى علامات الوقف (punctuation)، و إختيار الكلمات (lexical choice)، و الأسلوب (style)، و بنية الجملة (sentence structure) و التنظيم النصي (textual organization). و تشير لافيوسا Laviosa في هذا الصدد إلى مدونة فانديروويرا Vanderauwera التي اشتغلت فيها على روايات مترجمة من اللغة الهولندية إلى اللغة الانجليزية، و التي استقت منها براهين شاملة على كل ما تعتبره تجليات نزعة عامة اتجاه عرفية نصية (textual conventionality) هي مقبولة بوضوح من قبل الجمهور الهدف.

تضمنت بعض التعديلات الموجودة على مستوى الكلمة تكييف الأسماء الهولندية و الإحالات الخاصة بالثقافة، و التقليل من نقل عبارات اللغة الأجنبية الموجودة في النص المصدر. و تم تقييس الترقيم غير العادي من خلال استرجاع علامات الاقتباس المفقودة أو من خلال استبدال الفواصل (commas) بالشولات المنقوطة (semi-colons) و النقاط (full-stops) لفصل العبارات الجملية المستقلة (independent clauses). و تم إكمال الجمل التي تركت بدون تتمة في النص المصدر، و استبدال البنى غير مصقولة (clumsy) و الفُرادية (idiosyncratic) للجملة بأخرى ذات تركيب أبسط. و تم أيضاً تعويض صيغ الزمن المضارع بصيغ الزمن الماضي التي كثيراً ما توظف في الكتابات السردية الانجليزية. كما أنّ الجمل و الفقرات و المتواليات السردية و الفصول قد رتبت بشكل منطقي أكثر.

تهدف كل أنواع المعالجة تلك، بحسب فانديروويرا Vanderauwera، إلى اختلاق نص أكثر مقروئية (أي سهل القراءة)، و أكثر اصطلاحية (أي أكثر إلتزاماً بالأعراف اللغوية)، و أكثر ألفة و تنظيماً على نحو متسق من النص الأصلي.

و تعتمد لافيوسا Laviosa في شرح مفهوم (تحويل الخطاب) (discourse transfer) على ما أقره جدعون توري Gideon Toury في وجود جامع ترجمي إضافي من جوامع الترجمة الذي يتمثل في توجه المترجمين إلى إنتاج مقول مترجم ليس من خلال استرجاع اللغة الهدف بواسطة معرفتهم اللغوية الخاصة بهم، بل مباشرة من المقول الأصلي نفسه. و يتم التعبير عن كلية تحويل الخطاب من خلال قانون ترجمي آخر هو (قانون التداخل) (law of interference). و بحسب توري Toury فإنّ تحويل الخطاب، بنوعيه الإيجابي و السلبي، متأصل في سير العمليات الذهنية التي تنطوي عليها الترجمة.

أما عن الإجراء التدجيني الأخير (التوزيع المميّز للوحدات المعجمية) (distinctive distribution of lexical items)، فتحيلنا لافيوسا Laviosa إلى دراسة قامت بها شمعة نجاح

Shama'a Najah التي لاحظت أنّ تواتر كلمتي (say) و (day) في الترجمات الانجليزية من اللغة العربية يمكن أن يكون أكثر من الضعف بقدر ارتفاع تواترهما في النصوص الانجليزية الأصلية، و أقل بكثير من وجود مكافئاتها في النصوص العربية المصدر. و تشير مونا بيكر Mona Baker في السياق نفسه إلى أنّ التوزيع غير العادي لنماذج بعض الوحدات المعجمية في نصوص مترجمة مقارنة بنماذج هذه الوحدات في نصوص اللغة المنقول منها و النصوص الأصلية في اللغة الهدف يمكن أن يكون نتيجة سير عملية وساطة اللغة (language mediation process) في حد ذاته. و يشير مثل هذا التوزيع غير العادي إلى أنّ الترجمة تمثل نوعاً مميّزاً للسلوك اللغوي الذي يستحق لوحده العناية كلها.

و يخص التصنيف التالي الكنديين جون بول فيناي Jean-Paul Vinay و جون داربلنيه Jean Darbelnet الذي ينقسم إلى سبعة طرائق ترجمية (procédés de traduction)[1]. و على الرغم من أنّ الكثيرين منا يستصغرون هذا التصنيف و يحتقرونه معتبرين إياه تصنيفاً عتيقاً و متآكلاً بحيث لا ينبغي الحديث عنه إلا عند تلقين الأبجديات الأولى في الترجمة، إلا أنّ هذا النموذج قد تمكن من إخراج الترجمة من الدائرة اللغوية الصرفة إلى ما يحيط بها من عوامل تدخل في بلورتها أيضاً مثل مراعاة طرق تقطيع العوالم الحسية و المادية من لغة إلى أخرى، و الانتباه للتقاليد الخطابية السائدة لدى كل مجموعة بشرية (الفرنسية و الانجليزية في هذه الحالة)، و ضرورة أن نأخذ بالمرسلة و معها البعد الثقافي الذي يخرجها إلى الحياة حتى و إن لم يصرح هاذين المنظرين بذلك علناً. و ربما كان هذا التصنيف أولى التصنيفات الأوائلية –من بين كل التصنيفات الأخرى– السبّاقة إلى ذلك. و هو ما يستلزم منا إعادة نظر في هذا النموذج بكثير من التفكر في شؤونه و التدبر في مزاياه.

لقد جاءت أربعة طرائق من هذا التصنيف تدجينية بإمتياز، و هي الإبدال (أو المبادلة) (transposition)، و التطويع (modulation)، و التكافؤ (equivalence)، و التكييف (adaptation). تملي هذه الإجراءات على المترجم أن يتدخل –بشكل أو بآخر– في شكل و محتوى المرسلة أو فيهما معاً. فالإبدال (transpostion) هو أن نستبدل صنف كلمة ما (class of a word) بصنف آخر من دون أن نغير في معنى المرسلة. و قد يعرّف الإبدال أيضاً بأنّه مجمل التغييرات النحوية و الصرفية التي تطرأ على مرسلة ما عند الانتقال من لغة إلى أخرى. و بإمكاننا أن نوظف هذا الإجراء الترجمي ضمن اللغة نفسها (intralingual transposition) كأن نبدل عبارة (il a annoncé qu'il reviendrait) بعبارة (il a annoncé son retour)، أي بإستبدال الفعل التابع (le verbe subordonné) (reviendrait) باسم (substantif) (retour). و قد أعطى فيناي و داربلنيه

(1)see Jean-Paul Vinay and Jean Darbelnet, A METHODOLOGY FOR TRANSLATION, Translated by Juan C.Sager and M.-J.Hamel, In Lawrence Venuti, The Translation Studies Reader, op.cit, pp84-92; see J.P Vinay et J.Darbelnet, Stylistique comparée du français et de l'anglais, op.cit, pp46-55.

Vinay et Darbelnet الكثير من الأمثلة عن الإبدال في الترجمة، من بينها إبدال فعل باسم (verb/noun) (الأولوية لليمين/give way/priorité à droite)، و إبدال الصفة باسم (adjective/noun) (في بداية القرن التاسع عشر/In the early XIX century/au début du XIX siècle)، و إبدال الصفة بفعل (adjective/verb) (يخول البنك بإصدار هذه الوثيقة/il incombe à la banque d'établir ce document/the proper authority to issue this document is the bank)، و إبدال صيغة ظرفية بفعل (adverb/verb) (اكتفى بإيماءة/il se contenta de faire oui de la tête/he merely nodded) و غيرها من الأمثلة. أما عن التطويع (modulation)، فهو نوع من التحوير الذي يطرأ على المرسلة، و الذي ينجم عن التغيير في وجهات النظر (points of view). و يمكن أن نعلل ذلك بأنّه و على الرغم من أنّ الترجمات الحرفية (literal translations) و حتى الترجمات بالإبدال (transposed translations) قد تنتج مقولاً صحيحاً على المستوى الصرفي إلا أننا سنعتبرها غير ملائمة أو غير لسنّية (unidiomatic) أو سمجة (awkward). و ثمة أنماط متعددة لهذا النوع الخاص بتغيير وجهة النظر، من بينها الانتقال من المجرد إلى الملموس (abstract/concrete) (donnez un peu de votre sang/give a pint of your blood)، و العكس المنفي (the negated contrary) (il est facile de démontrer/it is not difficult to show).

و يتحقق التكافؤ (equivalence) عندما تعبر المرسلة في اللغة المصدر و المرسلة في اللغة الهدف عن الموقف نفسه لكن بتوظيف وسائل أسلوبية و تركيبية مختلفة تخص كل لغة على حدة. كما أنّ هذا الإجراء يشتغل على المعنى الإجمالي للمرسلة الذي تريد تبليغه (البنية العميقة) لا على شكلها الخارجي (البنية السطحية). و لذلك تأتي النصوص المتكافئة في الغالب على شكل وحدات ترجمية أو صيغ ثابتة (unités phraséologiques) تتم مقاربتها بوصفها وحدة لا تتجزأ. و يوظف هذا الإجراء في نقل الأمثال و الحكم و المتلازمات اللفظية و التعابير المبتذلة و ما إلى ذلك. و هو ما يعني بأننا سنقوم بالبحث في اللغة المنقول إليها عن نفس المقول الذي يكافئ الأول من حيث المعنى (meaning) و من حيث الأثر (effect) أيضاً. و من بين الأمثلة على ذلك (إنّها تمطر كأفواه القرب/ il pleut à seaux/des cordes/it is raining cuts and dogs)، (أحبها و تحبني و يحب ناقتها بعيري/love me love my dog)، (كالبعير في سوق الحرير/like a bull in a china shop/comme un chien dans un jeu de quilles).

و ثمة إجراء تدجيني آخر يفرض على المترجمين التدخل في لب المرسلة و جوهرها، ألا و هو التكييف (adaptation) الذي يلجأ إليه المترجم عندما يكون الموقف الذي تحيل عليه اللغة المصدر غير معروف في ثقافة اللغة الهدف. يتطلب الأمر من المترجم في مثل هذه الحالات أن يبتدع موقفاً جديداً الذي يمكن أن ينظر إليه على أنّه يكافؤه. و بالتالي يمكننا

القول بأنّ التكييف (adaptation) هو نوع خاص من التكافؤ (equivalence) لكونه (تكافؤ موقفي) (situational equivalence).

أما بخصوص طرائق الترجمة التغريبية في تصنيف فيناي و داربلنيه Vinay et Darbelnet فجاء عددها ثلاثة، يأتي الإقتراض (borrowing) في مقدمتها الذي يُوظف بغية تجاوز ثغرة (a gap) تكون في العادة ميتالغوية (metalinguistic)، و التي قد تتصل بتقنية جديدة أو مفهوم غير معروف. يعتبر هذا النوع من الترجمات الأسهل على الإطلاق. و قد يلجأ المترجمون إلى الإقتراض (borrowing) بغية إصباغ النص بأسلوب جمالي يضفي عليه نكهة محلية (a local flavor) تذكر القارئ بأجنبية ما يقرأ و بغرابته: (tequila, tortillas, dollar, party). و قد تصبح الكلمات المقترضة مع مرور الوقت جزء لا يتجزأ من معجم اللغة الهدف كتلك المتداولة في اللغة الفرنسية (alcool, paquebot, acajou) أو كتلك المتداولة في اللغة الانجليزية (hangar, chic, menu, rendz-vous, déjà vu).

و يتمثل الإجراء التغريبي الثاني في المحاكاة (le calque) التي تعرّف بأنّها نوع خاص من الإقتراض، بحيث تقترض اللغة تركيباً تعبيرياً (un syntagme) من لغة أخرى و لكن بأن تترجم كل عناصره حرفياً. و تكون النتيجة إما (محاكاة بنيوية) (calque of structure) أو (محاكاة تعبيرية) (calque of expression). و من بين الأمثلة على ذلك (وضع النقاط على الحروف/« I »to dot one's I's/mettre les points sur les)، (يذرف دموع التماسيح/ to shed crocodile tears)، (يطلب يدها/to ask for her hand/demander sa main)، (ذر الرماد في العيون/to throw dust in the eyes/jetter la poudre aux yeux)، (يصطاد في الماء العكر/ to fish in stable water). و كما هي الحال مع الإقتراض (borrowing)، تصبح العديد من العبارات التي تمت محاكاتها من لغة إلى أخرى –بعد فترة من الزمن– جزء لا يتجزأ من معجم اللغة الهدف.

أما آخر الإجراءات التغريبية فتتمثل في الترجمة الحرفية (literal translation) (أو الترجمة كلمة بكلمة word-for-word) التي تعني ذلك النقل المباشر لنص اللغة المنقول منها إلى آخر يكون ملائماً في أبعاده النحوية و التعبيرية في اللغة المنقول إليها. و تقتصر مهمة المترجم هنا في الالتصاق بالقيود اللغوية (linguistic servitudes) التي تفرضها اللغة الهدف. كما أنّ هذا النوع من الترجمات قد يكون سهلاً من الناحية الإجرائية و مقبولاً من الناحية المعنوية في حال ما إذا كانت اللغتين المنقول منها و المنقول إليها تنتميان إلى العائلة اللغوية نفسها. أما إذا كانت هاتين اللغتين لا تنتميان إلى العائلة اللغوية نفسها فستستحيل الترجمة عملياً و لن تفيد شيئاً ذا معنى. و من الأمثلة على ذلك: (I left my spectacles on the table downstairs/j'ai laissé mes lunettes sur la table en

(this train arrives at Union Station at ten/ce (where are you?/où êtes-vous?) ،(bas (train arrive à la gare Centrale à 10 heures).

و يندرج التصنيف ما قبل الأخير ضمن الأبحاث التي تعنى بالترجمة القانونية، بحيث يعرض فيه مالكوم هارفي Malcom Harvey –الذي استله من برنامج دراسي كان قد أعده لتدريس طلاب الماستر في تخصص اللغات التطبيقية (Applied Languages) بجامعة ليون2– الإجراءات القمينة بتجاوز العقبات المتمثلة في الكلمات الوثيقة الصلة بالثقافة منها و إليها عند الاشتغال على النصوص القانونية[1]. و على الرغم من كون هذا البرنامج موجه لطلاب فرنسيين درسوا الترجمة المتخصصة لفصل دراسي واحد فقط إلا أنّ تجاوبهم مع المادة العلمية التي أعطيت لهم في الدروس –و التي اشتملت على أنواع مختلفة من الوثائق القانونية الانجليزية الأصلية من عقود و شهادات كفالة و أحكام قضائية و استدعاءات للمثول أمام القضاء– كان كبيراً و النتائج طيبة بسبب تمكنهم من اللغتين المترجم منها و المترجم إليها (الانجليزية و الفرنسية)، و امتلاكهم لمعرفة أساسية محكمة في الترجمة العامة، و هو ما شكل قاعدة متينة لانطلاقة مقننة بعض الشيء حتى و إن كنا نعد الفوارق التي تفصل بين الترجمة العامة و الترجمة المتخصصة و لا نحصي لها عدداً.

يظهر من تصنيف هارفي Harvey أنّ البعد الثقافي لا يعرف حدوداً نصية يستقر عليها في الترجمة، بل إنّه بمثابة القاسم المشترك بين جميع أنواع الترجمة المهنية منها (professional) و البيداغوجية (pedagogical) على حد سواء. زد على أنّ جميع الصنوف الإجرائية التي نحن بصدد مناقشتها –و إن اختلفت من منظور التسمية و كيفية التطبيق، و انتمى أصحابها إلى ميول نظرية مختلفة و نبعوا من مشارب معرفية متنوعة– تشترك في مسألة واحدة لكنها ذات شأو عظيم: وجود طريقتين للتأثير على القارئ الهدف، فإما أن تجيء الترجمة شفافة تمايز بين عوالم النص المصدر المعرفية (اللغة و الثقافة و الخطاب و الأعراف اللغوية و الأعراف الخطابية و غيرها) الأجنبية و الدخيلة و عوالمه هو، و إما أن تجيء ملتوية تمحق عوالم النص المعرفية محيلة إياه (أي القارئ) على عوالمه الخاصة به في ترجمة تدعي الأمانة و الوفاء لكنها بعيدة عن ذلك البعد كله.

و جاء هذا التصنيف من أربعة إجراءات تساوت فيما بينها عدداً من حيث الانتماء إلى التدجين (domestication) أو التغريب (foreignization). و يعتبر التكافؤ الوظيفي (functional equivalence) أول الإجراءات التدجينية الذي يعني توظيف مدلول في ثقافة اللغة الهدف يؤدي وظيفة المدلول نفسها في اللغة المصدر. و يعطي هارفي Harvey بعض الأمثلة على ذلك من قبيل (the Cour d'Assises) الفرنسية التي تعتبر المكافئ المضبوط لـ (English Crown Court) الانجليزية؛ و (intime conviction) المكافئة لـ

(1)see Malcom Harvey, A Beginner's Course in Legal Translation: the Case of Culture-bound Terms. (from://www.tradulex.com/Actes 2000/harvey.pdf), pp01-06.

(being satisfied beyond reasonable doubt)، و (hypothèque) المكافئة لـ (mortgage). سيكون هناك حتماً إختلافات دلالية تقريبية و حافة بين المصطلحين في اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، بيدأنّه ينبغي أن يقتنع المترجم بأنّ المدلولات التي يختار قريبة كفاية من أغراض النص الهدف و مقاصده. و قد انقسم المنظرون بين مؤيد و معارض لهذه التقنية الترجمية، فمنهم من يعتبرها المنهجية المثالية للترجمة، في حين ينظر إليها آخرون بأنّها مضللة و أنّه من الواجب تفاديها في الترجمة القانونية. و يقول هارفي Harvey أنّ التجربة قد أثبتت بأنّ الطلاب يميلون إلى التوظيف المبالغ فيه لهذا النوع من الإجراءات لأنّه يرضيهم جمالياً و يخوّل لهم تطبيق المعرفة الحديثة التي اكتسبوها بشأن نظام اللغة الهدف.

و يتمثل الإجراء الثاني في الترجمة الوصفية أو الشارحة (a descriptive or self-explanatory translation) التي توظف كلمة عامة (generic) عوضاً عن الكلمات الثقافية الخصيصة لتوصيل المعنى. و على الرغم من كون ذلك تعليق (a gloss) من المنظور التقني إلا أنّها موجزة بقدر كاف لتؤدي وظيفة كلمة شبه مستقلة من دون الحاجة للجوء إلى الكتابة الصوتية (transcription). فمثلاً بغية أن ننقل التقسيم الثلاثي الأبعاد لأنواع الجنح في الإجراءات الجنائية الفرنسية إلى (contraventions) و (délits) و (crimes) فإنّه من الممكن الحديث عن (minor offences) و (major offences) و (serious crimes)؛ أو عن (minor infringements) و (intermediate offences) و (serious crimes). و بالمنوال نفسه، يمكن نقل عبارة (détention provisoire) إلى (pretrial detention) أو إلى (custody pending trial)؛ و (instruction) إلى (judicial investigation).

إنّ من بين محاسن هذا الإجراء كونه شفاف و سهل الحفظ. كما إنّه يلائم أنواعاً كثيرة من السياقات التي يعتبر فيها المكافئ الشكلي (formal equivalent) غير واضح.

أما أولى الإجراءات التغريبية فتتمثل في التكافؤ الشكلي (formal equivalence) (أو التكافؤ اللساني linguistic equivalence) الذي يقصد به هارفي Harvey الترجمة كلمة بكلمة (word-for-word). و يمدنا هارفي بأمثلة عن ذلك من قبيل (Conseil constitutionnel=Constitutional Council)، و (notaire=notary). كما أشار إلى أنّ عدداً من المكافئات الشكلية (formal equivalents) تعتبر أيضاً مكافئات وظيفية (functional equivalents) بما أنّها تتوافق و وجود مؤسسات أو وجودها السابق في ثقافة اللغة الهدف مثل (Court of Appeal, Assize Court, police court). تعود هذه التطابقات إلى عملية الإخصاب المتبادلة للقوانين الانجليزية و الفرنسية على مر القرون. و قد يتطلب هذا الإجراء في أمثلة أخرى طبعنة

(naturalisation) مصطلح ما في اللغة المنقول منها مثل (contraventions, delicts).

يختلف المنظرون بشأن مقبولية ما يتم نقله بالتكافؤ الشكلي (formal equivalence) خاصة عندما يتطلب طبعنة. يوظف التكافؤ (Cour de cassation=Court of Cassation) من قبل العديد من المنظرين الذين يبررون ذلك من منطلق أنّ كلمة (cassation) كانت موجودة في اللغة الانجليزية لقرون. في حين يرفض آخرون –مع ذلك– هذا النوع من الترجمة التي لا تبلّغ أي معنى للقارئ بحسبهم. و يقترح هؤلاء بديلاً ترجمياً آخر يتمثل في الجملة الشارحة التالية: (Supreme court of review within the ordinary legal system) التي يمكننا تبنيها كتعليق و ليس كمقول مستقل ما يجعل من الضروري إضافة المصطلح الفرنسي (cassation).

و يتمثل الإجراء التغريبي الثاني في الكتابة الصوتية (transcription) أو الإقتراض (borrowing) الذي يقصد به صاحبه استنساخ المصطلح المصدر –متى لزم الأمر– صواتمياً أو إعادة كتابته كما هو. و يصف هارفي هذا الإجراء بأنّه يقع في أقصى حدود الاستراتيجيات الترجمية الموجهة نحو اللغة المصدر (source language-oriented strategies). و بمقدورنا توظيف هذا الإجراء لوحده إذا كان المصطلح شفافاً على نحو رسمي أو أنّ السياق قد تكفل بشرحه. و في حالات أخرى –خاصة عندما لا يفترض على القارئ أية معرفة باللغة المصدر– يضاف إلى الترجمة بالاستنساخ الصواتمي تعليق أو هامش كأن نقول مثلاً (an acte authentique) و نكتب معلقين داخل النص أو خارجه ما يلي: (an authenticated document usually drawn up by a notaire)؛ أو (the Cours d’assises) و نضيف شارحين: (the courts that try such serious crimes as murder, rape and robbery).

يمكن أن يشير التعليق إلى إختلافات إجرائية (procedural differences) أو إلى إختلافات مفهوماتية (conceptual differences). كما أنّه و لأسباب تتعلق بالموجزية، غالباً ما يتم الاستغناء عن التعليق بعد أول ظهور للمصطلح المراد ترجمته في النص.

تكمن الفائدة الرئيسة لهذا الإجراء في أنّه ليس غامضاً من ناحية الدلالة. بيدأنّ الحاجة إلى تعليق أو هامش يجعل منه إجراء متكلف و مطنب بعض الشيء، كما يجعل من وجود المترجم تطفلياً. و يستهجن بعض المنظرين هذه الطريقة من حيث المبدأ لكون المترجم فيها يسلم بالهزيمة (admits defeat). من الأحسن، بالنسبة لهؤلاء، أن يُوظف هذا الإجراء بشح في النصوص الموجهة للقراء العوام (laymen readers)، و لكنه سيلائم كثيراً القراء المتخصصين الذين يطلبون درجة عالية من الدقة و يأخذ الوضوح عندهم الأسبقية على السلاسة (fluency) و الموجزية (conciseness).

أما آخر هذه التصنيفات المقترحة فهو لفرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà الذي قام بدراسة مفصلة

حول الكلمات الخصيصة بالثقافة ((Culture-specific Items (CSIs))[1](*)، و سبل تجاوزها ترجمياً. و يعتبر هذا النموذج في الحقيقة من بين النماذج الترجمية الذائعة الصيت بخصوص هذا الموضوع، ليس لما يحتويه من شروحات وافية و مستفيضة حول هذا المشكل الذي يؤرق المترجمين عند كل اشتغال ترجمي فحسب، بل أيضاً للكيفية المميّزة جداً التي قارب بها آيكزيلا Aixelà هذا البعد الترجمي الحساس، و التي نستشف منها الدقة و التحليل كعنوانين بارزين للتأصيل العلمي المطلوب في كل زمان و مكان، و هو ما دفع بالكثير من المنظرين و كذا المشتغلين في مجال الترجمة للعودة إلى هذه المقالة إما باحثين في ثناياها أو مستشهدين بما جاء فيها من تبصرات قيّمة.

و قد احتوى هذا التصنيف الترجمي على إحدى عشر استراتيجية (هكذا يسميها آيكزيلا Aixelà)، ستة منها تدجينية و خمسة تغريبية. و بغية التمييز بين استراتيجيات الترجمة الموجهة نحو ثقافة النص المصدر (التغريب)، و تلك الموجهة نحو ثقافة النص الهدف (التدجين)، يوظف آيكزيلا في تصنيفه مصطلحي (الانحفاظ) (conservation) الذي يعني قبول الإختلاف عبر إعادة إنتاج العلامات الثقافية الخاصة بالنص المصدر، و (الاستعاضة) (substitution) التي تعني تحويل الآخر المختلف إلى نسخة ثقافية مطابقة للأصل.

أول الاستراتيجيات التدجينية –أو استراتيجيات (الاستعاضة) (substitution) كما اصطلح على تسميتها آيكزيلا Aixelà– هو (الترادف) (Synonymy) الذي يقوم على دوافع أسلوبية تتعلق بالتكرار، و يلجأ المترجم فيه إلى مرادف أو إحالة شبيهة بغية تجنب تكرار الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) المراد نقلها. و يعطي آيكزيلا هنا أمثلة من إحدى الترجمات الإسبانية لرواية (The Maltese Falcon) الانجليزية، و هي لـ (Casas Gancedo) التي نشرت العام 1933. جاء في النسخة الإسبانية اسم (Spade) الذي يتكرر في أغلب الحالات، و يُهمل في بعضها، و يُشار إليه –في بعضها الآخر– عبر إحالتين أساسيتين هما (Samuel) (اسمه المسيحي بدلاً من لقبه)، و عبارة (El mefistofélico rubio= The mephistophelain blond). كما أنّ تكرار كلمة (Bacardi)، في الترجمة نفسها، يؤدي بالمترجم إلى استبدال الإحالة الثانية (He had drunk his third glass of Bacardi) بـ (Acababa de tomar su tercera libacion del sabroso aguardiente de cana) (He had just had his third libation of the delicious liquor of sugar cane)، و نقل الإحالة

(1)see Franco Javier Aixelà, Culture-specific Items in Translation. In Alvarez, R & Vidal, C., Translation, Power, subversion, Multilingual Matters Ltd, Cleveland/Bristol/Aldelaide, 1996, pp54-64.

(*)Aixelà defines (culture-specific items (CSIs)) as being 'Those textually actualized items whose function and connotations in a source text involve a translation problem in their transference to a target text, whenever this problem is a product of the nonexistence of the referred item or of its different intertextual status in the cultural system of the readers of the target text'.
(Ibid, p58).

الثالثة للكلمة نفسها –التي يفصلها بالإحالات الأخرى بعض البون– ببساطة إلى (ron) (rum) (الرم: شراب مسكر).

و تكمن ثاني استراتيجية في (الكلية المحدودة) (Limited universalization) التي توظف مبدئياً عندما يجد المترجم أنّ الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) غامضة جداً بالنسبة لقارئه أو أنّه ثمة إمكانية أخرى تتيح نقلها بشيء أكثر من الألفة فيقرر استبدالها. و بسبب المصداقية (credibility) أحياناً كثيرة، يبحث المترجم هنا عن إحالة أخرى تنتمي أيضاً إلى ثقافة اللغة المنقول منها و لكنها أقرب إلى كلمة أخرى خصيصة بالثقافة (CSI) لدى جمهور القراء في اللغة الهدف لكن بخصوصية أقل (with less peculiarity). و من بين الأمثلة على ذلك:

(five grand= cinco mil dolares: five thousand dollars; an American footbal= un balon de rugby: a ball of rugby).

و يوجد في السياق ذاته استراتيجية تدجينية أخرى من النوع نفسه، و المسماة بـ (الكلية المطلقة) (Absolute universalization) التي تشترك مع الأولى في الموقف القاعدي المشابه، بيدأنّ المترجم هنا لا يجد كلمة خصيصة بالثقافة (CSI) تكون معروفة أكثر، أو أنّه يفضل حذف أي دلالات أجنبية حافة و اختيار إحالة محايدة لقارئه. و يعطي آيكزيلا Aixelà أمثلة على ذلك من قبيل:

(corned beef= lonchas de jamon: slices of ham; a Chesterfield= un sofa: a sofa).

و ثمة استراتيجية أخرى يصطلح عليها آيكزيلا تسمية (الطبعنة) (Naturalization)، و هي أن يقرر المترجم جلب الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) ضمن المتن البينصي (intertextual corpus) الذي تستشعره الثقافة المستقبلة بأنّه مميّز. و يشير آيكزيلا Aixelà إلى أنّ توظيف هذه الاستراتيجية في الترجمة الأدبية نادر في أيامنا هذه باستثناء أدب الأطفال، حيث بدأ توظيفها أيضاً ينحصر شيئاً فشيئاً. و من الأمثلة على ذلك: (Dollar=duro) (و هي عملة لازالت متداولة في إسبانيا)، و (Brigid=Brigida). و يقول آيكزيلا في هذا الصدد أنّ ترجمة أسماء الأعلام التاريخية إلى اللغة الإسبانية –المتواضع عليها سلفاً– مثل (Queen Elizabeth= la reina Isabel) لا تعد حالات للطبعنة (naturalization)، بل لترجمة لسانية (غير ثقافية) بما أنّه ليس ثمة قارئ إسباني سيشعر أنّ هاتين النسختين تنطويان على أي نوع من الاستعاضة الثقافية بسبب أنّ الاسم لا يزال يعتبر جزءاً من الثقافة الانجليزية حتى و إن كان قد استنسخ صواتمياً بكلمات إسبانية دعماً للعادة و تزكية للعرف.

أما (الحذف) (Deletion) فهو عدم قبول المترجم الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) لدوافع أيديولوجية أو أسلوبية، أو لكونها غير وثيقة الصلة كفاية بمسعى الفهم المطلوب عند قارئه، أو أنّ الغموض يكتنفها و أنّه غير مخول أو لا يبغي توظيف إجراءات مثل التعليق (gloss) و ما إلى ذلك، و بالتالي يقرر حذفها في نص الترجمة. و من الأمثلة التي يقدمها

آيكزيلا Aixelà في هذا الصدد: (dark Cadillac sedan= Cadillac oscuro: dark Cadillac; Casper Gutman, Esquire: Casper Gutman).

و يسمي آيكزيلا آخر استراتيجيات الاستعاضة –ذات التوظيف المحدود– بـ (الابتداع المستقل) (Autonomous creation) التي تعني أن يقرر المترجم (أو من يفوضه للقيام بالترجمة) بإدراج إحالة ثقافية في نصه تكون منعدمة في النص المصدر بدافع المتعة و التشويق. و تعد ترجمة عناوين الأفلام في إسبانيا، بحسب آيكزيلا Aixelà، من بين الأنماط الترجمية التي يمكن أن نجد فيها الكثير من الأمثلة عن هذه الاستراتيجية.

من بين النصوص التي اشتغل عليها آيكزيلا، ثمة مثال اعتبره هذا الأخير أحسن الأمثلة على الإطلاق، ليس لأنّه مثال مزدوج فحسب بل لأنّه يعد أيضاً تبريراً عن اختيار عنوان الكتاب في اللغة الإسبانية (El halcon del rey de Espana= The Falcon of the king of Spain)، و الذي جاء فيه:

(Shall we stand here and shed tears and call each other names ? Or shall we'-he paused and his smile was a cherub's – 'go to Constantinople?'= Que nos quedemos aqui derramando lagrimas como Magdalenas o que vayamos a Constantinopla en busca del verdadero halcon del rey de Espana ⟶ Shall we stay here shedding tears like Magdalens or shall we go to Constantinople in search of the real falcon of the king of Spain?)[(1)].

و إن كان المترجم هنا يتدخل مبدلاً و محوراً في النص المصدر، فإنّه ثمة في تصنيف آيكزيلا Aixelà توجه آخر يسمح بانحفاظ كل الإحالات الثقافية الأجنبية و صونها من التبديل و التحوير، بيدأنّ ذلك لن يتحقق إلا إذا كان المترجم يؤمن بالإختلاف الثقافي و يسعى دائماً إلى تنبيه القارئ بوجوده بوصفه حقيقة أزلية لا يمكن لأحد أن يتجاوزها.

أولى الاستراتيجيات التي تضمن تصوير الآخر ثقافياً في نص الترجمة هي (التكرار) (Repetition)، بحيث يحتفظ المترجم –قدر ما أمكنه ذلك– بالإحالة الأصلية. و تعتبر ترجمة الأسماء المواقعية (أو الأسماء الطوبونيمية toponyms)، في نظر آيكزيلا، من بين المسائل التي تعنى بهذا النوع من الاستراتيجيات مثل (Seattle=Seattle). و يشير آيكزيلا Aixelà إلى أنّ هذه الاستراتيجية –التي يصفها بالمحترمة– تنطوي في حالات عديدة على تأكيد سمتي الغرابة و التهجير للكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) التي تشعر القارئ في الثقافة المستقبلة بأنّها دخيلة بسبب شكلها اللغوي و تباعدها الثقافي. ذلك ما يذكرنا بأحد متناقضات الترجمة و مآزقها الكبيرة المتعلقة بالتصور التقليدي للتكافؤ (equivalence): حقيقة أنّه على الرغم من كون الشيء مماثلاً كلياً –حتى في مكوناته الكتابية– لشيء آخر إلا أنّ تلقيه الجمعي (the collective reception) يختلف تماماً.

(1) Franco Javier Aixelà, op.cit, p64.

تتمثل الاستراتيجية التالية –التي تنتمي إلى الرؤية نفسها– في (التكييف الإملائي) (Orthographic adaptation) الذي يضم إجراءات عديدة مثل الكتابة الصوتية (transcription). و يلجأ المترجم إلى هذه الاستراتيجية –بشكل رئيس– عندما يعبر عن الإحالة الأصلية بحروف أبجدية تختلف عن تلك المتداول بها لدى جمهور قراء النص الهدف. و يقول آيكزيلا Aixelà أنّ توظيف هذه الاستراتيجية في الترجمة من اللغة الانجليزية إلى اللغة الإسبانية كان نسبياً حتى سنوات الخمسينيات، بينما يميل المترجمون في الوقت الراهن إلى أقصى احترام لأشكال اللغة الانجليزية عندما لا توجد لديهم أدنى رغبة لترجمتها إلى الإحالات الإسبانية الموجودة سلفاً. كما تدخر هذه الاستراتيجية الترجمية –في أيامنا هذه– لدمج الإحالات من ثقافات ثالثة (الأسماء الروسية في الأعمال الانجليزية على سبيل المثال)، و لنقل الكلمات الإسبانية التي تشوبها أخطاء في التهجئة و الإملاء في النصوص الانجليزية.

أما (الترجمة اللسانية (غير ثقافية)) (Linguistic (non-cultural) translation) فهي أن يختار المترجم إحالة أقرب إلى الإحالة الأصلية من المنظور الدلالي التقريري (denotative) –بدعم من الترجمات المتواضع عليها في المتن البينصي للغة المنقول إليها أو بتوظيف الشفافية اللسانية للكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI)– و لكن بأن يزيد قابليتها لأن تُفهم من خلال اقتراح نسخة مترجمة التي يمكن أن ينظر إليها بأنّها لا تزال تنتمي إلى النظام الثقافي للنص المصدر.

و تندرج ترجمة وحدات القياس (units of measure) و العملات (currencies) ضمن الأنواع الترجمية التي تُعنى بتوظيف هذه الاستراتيجية مثل (dollars=dolares) و (inch=pulgada) (و هي وحدة قياس غير متداول بها في إسبانيا). و بالمنوال نفسه، غالباً ما تندرج مسميات الأشياء و المؤسسات –التي تعد دخيلة بالنسبة للثقافة المستقبلة و لكنها مفهومة بسبب نظيراتها (analogues) و حتى مماثلاتها (homologues) المحلية– ضمن النوع الترجمي ذاته.

و يأتي الدور بعد ذلك على استراتيجية (التعليق خارج النص) (Extratextual gloss)، فقد يوظف المترجم أحد الإجراءات الآنف ذكرها لكنه سيعتبر أنّه من الضروري أن يقوم بشرح بعض معاني أو تضمينات الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI). و يرى آيكزيلا Aixelà أنّ مزج مثل هكذا شرح بالنص لا يبدو –في الوقت نفسه– شرعياً أو مناسباً. يكمن القرار الصائب بالتالي في أن نمايز التعليق عن ما سواه بأن نشير إليه على أنّه كذلك (بواسطة هامش أو حاشية أو مسرد للكلمات أو تعليق/ترجمة تكتب بين قوسين أو بحروف مائلة...إلخ).

يتم اللجوء إلى هذه الاستراتيجية متى أردنا نقل الأقوال المقتبسة (أي الاستشهادات quotations) من لغات ثالثة. أما في إسبانيا فتوظف هذه الاستراتيجية على نحو تقليدي، بحسب آيكزيلا، لعرض حقائق تخص أصحاب الشهرة من الناس، و شرح التلاعبات اللفظية (puns) التي يتعذر نقلها في الغالب بالنسبة للكثيرين. و ثمة مثال واحد فقط عن التعليقات التي تمت خارج النص وجده آيكزيلا Aixelà في الترجمات التي اشتغل عليها، و الذي يرتبط بكلمة خصيصة

بالثقافة (CSI) (هنا اسم علم) جاء فيه: (Arnold Rothstein= célebre gangster des los (anos 1920 .(N.delT.): famous gangster of the years 1920. (Translator's Note)

و توجد استراتيجية أخرى تُعنى بالتعليق دائماً، لكنه يتم هذه المرة داخل النص، أي (التعليق داخل النص) (Intratextual gloss). و على الرغم من تشابه الاستراتيجيتين إلا أنّه ثمة إختلاف جوهري بينهما، و هو أنّ المترجم يعتبر أنّ بمقدوره أو أنّه ينبغي عليه أن يضم تعليقه إلى النص كجزء غير متمايز عنه حتى لا يشتت انتباه القارئ. و من الأمثلة التي يقدمها آيكزيلا Aixelà في هذا الصدد نجد ما يلي: (five feet eight= cinco pies (con ocho .pulgadas: five feet with eight inches; St.Mark= Hotel St.Mark

تمنح هذه الاستراتيجية تغييراً يكون في العادة بسبب الحاجة إلى تجاوز المعضلات المرتبطة بالغموض (ambiguity) الذي يعتبر أيضاً من جوامع الترجمة. و يلمّح آيكزيلا في هذا الصدد إلى استراتيجية الإيضاح (strategy of explicitiness) التي تقوم على إبانة ما كشف عنه صاحبه جزئياً في النص المصدر مثل إضافة ألقاب الشخوص التي أشير إليها من خلال أسمائهم المسيحية فقط أو تلك التي استبدلت بضمير.

يتبين لنا من خلال هذه التصنيفات (taxonomies) أنّه ما من منظر ترجمي إلا و لديه وسائله الخاصة في سعيه إلى الترجمة بالتدجين أو بالتغريب. كما أنّ العديد من الإجراءات –التي اشتملت عليها هذه التصنيفات– جاءت متشابهة من حيث الماهية و سير عملية التوظيف مع إختلاف في التسمية فقط، و هو ما قد يُعاب على هؤلاء المنظرين في أنّهم ابتدعوا تعاريف صعبة و مركبة للعديد من المسميات الإجرائية (مثلما هو الحال مع فرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà) و التي تدور في الفلك الواحد، أو بحكم أنّها موجودة سلفاً و متواضع عليها من قبل منظرين آخرين.

بيدأنّ هذا الزخم في المفاهيم و المسميات أبان عن حقيقة أنّ البعد الثقافي (the cultural dimension) هو المتكلم في سير أية عملية تدجين أو تغريب ترجمية بصرف النظر عن إختلاف الأنماط النصية، و الاستراتيجيات الترجمية الموظفة، و الأهداف المتوخاة منها؛ من دون أن ننسى أو نتناسى أنّ اللغة تعد ثقافة في المقام الأول.

الفصـل الثالث: التطبيقي

استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies)

و استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies) الموظفة

من قبل إحسان عباس في ترجمته لرواية (موبي ديك)(Moby Dick)

لصاحبها هرمان ملفيل Herman Melville

I. التعريف بالمدونة

يعد هرمان ملفل Herman Melville من بين أبرز الروائيين الأمريكيين الذين ألقت أعمالهم بظلالها على الساحة الأدبية في القرن العشرين بخوضها في مواضيع خرجت عن المألوف و المبتذل، و لامست حدود النفس البشرية و الأبعاد الميتافيزيقية للحياة. و قد ظلت أعمال ملفل Melville مغمورة حتى سنوات العشرينيات عندما تم الاعتراف بعبقريته الفذة ليحتفظ لنفسه بالمكانة المرموقة في أدب الرواية الأمريكي.

تدور أحداث رواية (موبي ديك) (Moby Dick) حول بطلها آخاب Ahab، و هو قبطان سفينة لصيد الحيتان تسمى (الباقوطة) (the Pequod)، و موبي ديك Moby Dick الحوت الأبيض الضخم، و هما الشخصيتان البارزتان في الرواية. و تعرض الرواية موضوعاً قديماً في حلة جديدة بهية: الصراع السرمدي للإنسان مع الطبيعة. و على الرغم من أنّ الحوت موبي ديك Moby Dick قد بتر إحدى ساقي آخاب Ahab في لقاء من لقاءاتهم إلا أنّ هذا الأخير لم يستسلم و تملّكه الشعور بالثأر، فراح يجوب البحار مع طاقمه (من بينهم إسماعيل Ismael الراوي) بحثاً عن عدوه الحوت من دون كلل أو ملل لينتصر عليه و ينصب نفسه سيداً على البحار. لكن آخاب يفشل في بلوغ مبتغاه ما يسبب له أزمة نفسية حادة تكاد تعصف به إلى الجنون. و على الرغم من الفشل تلو الفشل، و الهزيمة بعد الهزيمة، يحاول آخاب حشد طاقات أكبر و همم أكثر ليواجه هذا الحوت مرة أخرى و ينتقم منه، غير أنّ الحوت موبي ديك Moby Dick يحطم (الباقوطة) فيغرق جميع أفراد طاقمها ما عدى إسماعيل Ismael الذي ينجو ليروي القصة.

و قد جاءت الرواية[1] في مائة و خمسة و ثلاثون فصلاً، صاغها ملفل Melville بأسلوب سردي أصيل ينبض بالحياة. و لعل أشد المقاطع أثراً تلك العظة البليغة التي تُلقى قبل الإبحار، و الضروب من المناجاة التي يطلقها البحارة، و العناصر الزخرفية و التزينية مثل حكاية (Tally-Ho) التي يمكن عدها مجموعة قصصية في حد ذاتها. و جاءت الرواية مشبعة بأحاسيس تمتزج فيها الدهشة و الرهبة التي اعتملت في صدر إسماعيل حيال ما يروي من مشاهد و وقائع، لكن ذلك لم يمنعه من كتم ما يتراءى له في أنّ سعي آخاب Ahab الحثيث للتسيّد لم يكن لينتهي إلا بنهاية واحدة كانت مأساة في حد ذاتها، و هو ما حصل بالفعل. و بذلك تكون الطبيعة قد لقنت الإنسان، مرة أخرى، درساً قاسياً بإذلاله و كسر شوكته، و نصّبت نفسها سيداً عليه رغماً عن أنفه.

أما عن ترجمة إحسان عباس لرائعة هرمان ملفل Herman Melville (موبي ديك) (Moby Dick) فتعتبر في حد ذاتها إنجازاً عظيماً، إذ ليست ثمة حاجة للوقوف مطولاً عند حقيقة أنّ الترجمة الأدبية لهي بحق "أصعب و أعسر من

(1)HERMAN MELVILLE, MOBY-DICK; OR, THE WHALE. HARPER & BROTHERS, PUBLISHERS, RICHARD BENTLEY. LONDON, 1851.

ترجمة الآثار العلمية و الثقافية"[1]، و السبب هو أنّ النص الأدبي يكاد لا يحيلنا إلى معنى بعينه بل إلى كل مركب و متداخل هو كالزئبق ما يجعل من الإحاطة به و الإمساك بزمامه أمراً صعباً بل و قد يستحيل أحياناً كثيرة.

إنّ من بين الهوايات التي دأب عليها إحسان عباس مراجعة جوامع الكتب و قراءة الأعمال الروائية التي كانت تأخذ كل ساعات يومه تقريباً كما يقول شقيقه عباس عباس. ثم إنّ هذا النوع من الترجمات يطرح مشكلة عويصة هي النوعية (quality) التي تلزم كل ترجمة بأن تكون دقيقة و مطابقة للأصل. و يُعد هذا المبتغى صعب المنال لاختلاف اللغات فيما بينها و تباعد عوالمها الحسية و المادية، الظاهرية منها و الباطنية. و قد وُفق إحسان عباس كل التوفيق في تقديم مادة أدبية أجنبية للقارئ العربي ذات نوعية راقية و دقة متناهية تكاد تكون هي الأصل لا الرواية الانجليزية، و السبب في ذلك هو أنّ المترجم حائز على خصلتين أساسيتين هما الفهم و الإفهام.

و ثمة مسألة أخرى شديدة الصعوبة أيضاً ينبغي الانتباه لها، و هي أنّ الثقافتين الانجليزية و العربية تختلفان من حيث الماهية و النوع، بحيث أنّ الثقافة الانجليزية ثقافة بحرية أما الثقافة العربية فثقافة بدوية كما أشرنا إليه آنفاً. و هو ما يُضفي على الترجمة صعوبة ما بعدها صعوبة في أنّ المترجم يخاطب فيها جمهوراً لا يحوز على أية دراية نافذة بالبحر و أسراره، و لا تمثل له ألحان البحارة و أشعارهم أي شيء بخلاف ما هو سائد في الثقافة الانجليزية من دراية و ولع بهذا النموذج الثقافي لأنّ المسألة هنا مسألة انتماء و وجود. كما يبدو جلياً أنّ إحسان عباس كان واسع الاطلاع و المعرفة ليس بالأدب فحسب، و إنّما بعلوم أخرى ذات صلة بطبيعة أحداث الرواية و كأنّ النص المترجم إلى اللغة العربية هو من صنع فريق عمل مشترك (نقصد بها الترجمة التعاونية collaborative translation) كل في اختصاصه و ليس نتاج شخص واحد.

و قد اعتمدنا في بحثنا هذا على الطبعة الثانية من الرواية المترجمة[2] التي جاءت في مائة و خمسة و ثلاثون فصلاً، أي بنفس عدد فصول النسخة الانجليزية الأصلية. و ثمة على غلاف الرواية المترجمة صورة قد تلخص للقارئ العربي موضوعها العام، بحيث يمكن رؤية ظل رجل واقف و هو يرفع يديه إلى السماء (آخاب Ahab في أغلب الظن) الدالة على النصر أو إستظهار القوة أو التحدي، و أمامه رسمٌ لحوت ضخم (على الأرجح موبي ديك Moby Dick) يطفو على السطح و من ورائه قوس قزح، و قد كُتب في أعلى الصفحة (موبي ديك) بالبند العريض الذي يعتبر ترجمة لعنوان الرواية في نصها الأصلي، غير أنّ المترجم اكتفى بهذا الاسم (موبي ديك) الذي يقابل (Moby Dick) من دون أن يزيد عليه (أو الحوت) كما في العنوان الأصلي (OR, THE WHALE). و يكون الناشر العربي قد اعتمد بذلك على بلاغة

(1)ابراهيم زكي خور رشيد، الترجمة و مشكلاتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص42.

(2)موبي ديك، تأليف هرمان ملفل، ترجمة إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط2، 1980.

الصورة التي تمثل إحدى أهم أشكال شد الانتباه (les formes de captation) التي من شأنها جلب القارئ و بعث الفضول لديه بخلاف الناشر الانجليزي الذي لم ير ضرورة في استمالة قارئه من خلال غلاف الرواية (على الأقل في هذه النسخة التي اشتغلنا عليها) لأنّ البحر بالنسبة له مألوف المنظر و المظهر، يعرفه القاصي و الداني.

II. استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies) و استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies) الموظفة من قبل إحسان عباس في ترجمته لرواية (موبي ديك) (Moby Dick) لصاحبها هرمان ملفيل Herman Melville:

1. استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies)

1. الإبانة (explicitation)

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY.
SUPPLIED BY A LATE CONSUMPTIVE USHER TO A GRAMMAR SCHOOL.)

– و ترجمتها بـ (أعده معلم مسلول كان يعمل أثناء الحياة في مدرسة اعدادية) (ص9).

قام المترجم هنا بترجمة الصفة (Late) (adjective) بجملة اسمية (كان يعمل أثناء الحياة) التي تتكون من أربع كلمات. تسمى هذه الاستراتيجية باستراتيجية الإبانة (explicitation strategy)، بحيث أنّ القارئ العربي قد يستعصي عليه فهم معنى (late) في هذا السياق (أخير، متأخر...؟) –التي تفي بالغرضين التواصلي و التداولي معاً في اللغة الانجليزية بسبب أنّ الانجليزي يوظف ما يسمى بالحذف (ellipsis)، بل و يحبذ ذلك، و هو ما يترك مهمة تأويل المضمر للقارئ أو السامع و كشفه– من دون أن نبسط له الأمر كاملاً بقولنا أنّ (late) نعت يعود على هذا الشخص المصاب بالسل الذي اشتغل في السابق مربياً. تنتمي استراتيجية الإبانة (explicitation strategy) إلى استراتيجيات التدجين التي تهدف إلى استئصال كل غريب في القول و الدلالة، و هو ما يرتبط في هذه الحالة بغريب الدلالة.

– قول الكاتب

([…] Therefore you must not, in every case at least, take the higgledy-piggledy whale statements, however authentic, in these extracts, for veritable gospel cetology. Far from it. As touching the ancient authors generally, as well as the poets here appearing, these extracts are solely valuable or entertaining, as affording a glancing bird's eye view of what has been promiscuously said, thought, fancied, and sung of Leviathan, by many nations and generations, including our own) (p9-10) (A*).

– و ترجمها بـ ([…] لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال، و إن كان صحيح النسبة، و تعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. فما أبعد هذه الأقوال من

ذلك! إذ إنّ المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة و عن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنّها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم و الأجيال العديدة –و منها جيلنا– أو تصورّته أو تغنت به –على نحو مختلط– عن "اللوياثان") (ص11).

وظف المترجم هنا استراتيجية الإبانة (explicitation strategy) التدجينية حتى يستقيم المعنى في اللغة العربية و معه فهم القارئ في قوله (Far from it) التي تُرجمت بـ (فما أبعد هذه الأقوال من ذلك!)، مع تبديل لعلامات الوقف لأنّ الجملة الانجليزية تنتهي بنقطة أما الترجمة فبعلامة تعجب. إنّ ترجمة الناقل هنا موقفية تخص البعد التواصلي الذي تعكسه الفقرة برمتها، و هو ما قد يفشل فيه المترجم إن كان خياره الترجمة اللسانية كقولنا (بعيداً/إلى حد بعيد عنها) التي قد تقابل عبارة (Far from it) على المستوى المعجمي الصرف من دون أن نكون قد حللنا معضلة المعنى المراد و المقصدية المتوخاة من سياق الكلام.

– قول الكاتب

"What spermacetti is, men might justly doubt, since the learned Hosmannus in his work of thirty years, saith plainly, *Nescio quid sit.*"

Sir T. Browne. Of Sperma Ceti and the Sperma Ceti Whale. Vide his V.E. (p13).

– و ترجمها بـ (للناس الحق في أن يتساءلوا عن ماهية زيت الحوت، لأن العالم أوزمان يقول دون مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً: "إننا لا نعرف ما هو").

("في زيت الحوت، و حوت العنبر" للسير توماس براون 26:3) (ص15).

تبدو الإبانة (explicitation) جلية في قوله (قضى في كتابته ثلاثين عاماً) التي تقابل عبارة (of thirty years). و تعني الجملة (since the learned Hosmannus in his work of thirty years) أنّ هذا العالم قد استغرق ثلاثون عاماً في كتابة مؤلفه، و هي المدة المعبر عنها بحرف الجر (preposition) (of). لا يطرح ذلك أدنى مشكلة للقارئ الانجليزي ليفهم القصد من الكلام لكونه معتاد على مثل هذه الأساليب إدراكاً و تداولاً. لكن المسألة تختلف بالنسبة للقارئ العربي الذي ستطرح له عبارة (of thirty years) صعباً جمة لفهم النية المتوخاة من الكلام خاصة و أنّ الإشارة هنا تخص فقط المدة الزمنية التي قضى فيها أوزمان Hosmannus الحكيم كتابة مؤلفه (و ليس أنّ هذا المؤلَف قد تم نشره منذ ثلاثين عاماً خلت)، و هو ما أدى بالمترجم إلى بسط المعنى لقارئه بعد أن أحاط به ليقول (لأن العالم أوزمان يقول دون مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً)، بحيث ترجم حرف الجر (of) بعبارة كاملة (قضى في كتابته). و تتطلب الإبانة (explicitation) في الغالب زيادة الكلم في اللغة المنقول إليها مقارنة بما هو عليه

الحال في اللغة المنقول منها، و هو ما يُعتبر ضرورياً للقراء في اللغة الهدف تفادياً للبس و الغموض، لكن في المقابل يمكن تجاوز ذلك بالنسبة للقراء في اللغة المصدر إما لأنّها تتميز بتلك الخاصية التعبيرية أو بسبب العرف اللغوي للمتكلمين بها.

– قول الكاتب

"While the whale is floating at the stern of the ship, they cut off his head, and tow it with a boat as near the shore as it will come; but it will be aground in twelve or thirteen feet water."

Thomas Edge's Ten Voyages to Spitzbergen, in Purchass. (p14).

– و ترجمها بـ (و حين يكون الحوت عائماً عند كوثلة السفينة يقطعون رأسه و يجرونه بواسطة قارب فيقربونه من الشاطىء قدر المستطاع، و لكنه لو جرَّ في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً أو ثلاثة عشر للامس الأرض).

(عشر سفرات إلى سبتزبرجن لتوماس إدج

مضمنة في رحلات بركاس) (ص17).

يقوم المترجم في الكثير من الأحيان ببسط المعنى ليتسنى للقارئ الفهم، و هو ما حصل عند نقله لجملة (but it will be aground in twelve or thirteen feet water) التي تقابلها الجملة العربية (و لكنه لو جرَّ في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً أو ثلاثة عشر للامس الأرض). و تعني الجملة الانجليزية أنّ الحوت و لشدة ضخامته سيلامس الأرض (المعبر عنها بـ aground) لو جره الصيادون على سطح يبلغ ارتفاعه عن القاع اثني عشر أو ثلاثة عشر قدماً (المعبر عنها بـ in twelve or thirteen feet water). و بمقارنة بسيطة بين الجملتين نلاحظ وجود إختلاف جوهري بينهما من حيث أنّ الجملة العربية احتوت على كلمات زائدة لا تحويها الجملة الانجليزية (لو جرَّ، ارتفاعه، للامس) ليس لأجل التزويق و التنميق، بل ليستوي المعنى و يلين لقارئه.

2. الاختصار الكيفي (qualitative impoverishment)

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY.
SUPPLIED BY A LATE CONSUMPTIVE USHER TO A GRAMMAR SCHOOL.)

– و ترجمتها بـ (أعده معلم مسلول كان يعمل أثناء الحياة في مدرسة اعدادية) (ص9).

إنّ ترجمة (Grammar School) بـ (مدرسة اعدادية) كانت لتكون ترجمة متمركزة عرقياً (éthnocentrique) لو أنّ النص كتب باللغة الانجليزية المتداول بها في بريطانيا، و ليس بتلك المتداول بها في الولايات المتحدة الأمريكية. و يُقصد بتسمية (Grammar School) في بريطانيا كل مدرسة يأوي إليها التلاميذ بين سن إحدى عشر سنة و ثمانية عشر سنة و لكن فقط بعد إجراء امتحان يمنح لهم حق ارتيادها. تعتبر ترجمتها بـ (مدرسة اعدادية)، في هذه الحالة، تمركزاً عرقياً

مفضوحاً، فقد يكون التبرير عندها أنّ المترجم استبدل عنصراً ثقافياً الذي لا تتوفر عليه ثقافته بآخر يخص ثقافته هو (هنا تسمية لأحد أطوار التعليم) الذي يختلف عنه، و السبب هو أنّ جلّ المدارس في الدول العربية تسمح للتلاميذ الإلتحاق بها دون إجراء أي امتحان قبول صوناً لحق كل طفل في التعلم و المساواة بينهم لمجانيته. كما أنّ سن هؤلاء يكون في الغالب بين خمس سنوات و إحدى عشر سنة. لكن بما أنّ النص لكاتب أمريكي و يصور البيئة الأمريكية فإنّ (Grammar School) تعني في الولايات المتحدة الأمريكية (مدرسة اعدادية أو ابتدائية). غير أنّ المتفحص للتسمية الانجليزية و ترجمتها العربية سيدرك أنّ عبارة (مدرسة اعدادية) لا تحوز على الغنى الجهيري (sonore)، و لا على الغنى الدلالي (signifiante) أو بالأحرى الإيقوني (iconique) لعبارة (Grammar School). تسمى هذه الطريقة بالاختصار الكيفي (qualitative impoverishment) التي تنتمي إلى نوع الترجمات المتمركزة عرقياً ذات النزعة التدجينية.

3. الترادف (synonymy)

- قول الكاتب

(ETYMOLOGY.
SUPPLIED BY A LATE CONSUMPTIVE USHER TO A GRAMMAR SCHOOL.

The pale Usher-threadbare in coat, heart, body, and brain; I see him now. He was ever dusting his old lexicons and grammars, with a queer handkerchief, mockingly embellished with all the gay flags of all the known nations of the world. He loved to dust his old grammars; it somehow mildly reminded him of his mortality).

- و ترجمتها بـ

(فصل في الاشتقاق

أعده معلم مسلول كان يعمل أثناء الحياة في مدرسة اعدادية.

ذلك المعلم الشاحب، مهلهل الرداء و القلب و الجسد و اللبّ، أذكره كأنني أراه. كان دائماً ينفض الغبار عن معجماته و أجروملياته القديمة، بمنديل عجيب الطراز، مزخرف –على نحو ساخر– بكل الأعلام البهيجة التي ترمز إلى جميع الأمم المعروفة في العالم. و كان يروقه أن ينفض الغبار أيضاً عن المعلومات النحوية في ذاكرته، فذلك أمر كان يذكّره –في لطف وديع– بأنّه ينتمي إلى أهل الفناء) (ص9).

لقد تُرجمت عبارة (his old lexicons and grammars) بـ (معجماته و أجروملياته القديمة)، و فيها نجد أنّ المترجم قد نقل كلمة (grammars) –التي تعني هنا الكتب التي توضع فيها القواعد النحوية و الصرفية المتحكمة في أية لغة

ما- بأجروميات، و هو الاسم الشامل لهذا النوع من الكتب المتداول به في اللغة العربية. أما كلمة (grammars) الثانية فتبدّلت ترجمتها من أجروميات إلى (المعلومات النحوية) مع معين لها كلمة (ذاكرة) التي لم يأتي الكاتب على ذكرها في النص الأصلي. يعتبر ذلك تدجيناً و مرده التلاعب الدلالي للمترجم بكلمة (grammars)، و هو من نوع الترادف (synonymy) الذي يلجأ إليه المترجم أحياناً كثيرة تفادياً للتكرار. و عن السبب في توظيفه لكلمة (الذاكرة) استخدامه لكلمة (المعلومات) في عبارة (المعلومات النحوية) التي دائماً ما يحتفظ بها في الأذهان و من ثم تسترجعها الذاكرة.

4. الاستنظام (normalization)

- قول الكاتب

(ETYMOLOGY.
SUPPLIED BY A LATE CONSUMPTIVE USHER TO A GRAMMAR SCHOOL.

The pale Usher-threadbare in coat, heart, body, and brain; I see him now. He was ever dusting his old lexicons and grammars, with a queer handkerchief, mockingly embellished with all the gay flags of all the known nations of the world. He loved to dust his old grammars; it somehow mildly reminded him of his mortality).

- و ترجمتها بـ

(فصل في الاشتقاق

أعده معلم مسلول كان يعمل أثناء الحياة في مدرسة اعدادية.

ذلك المعلم الشاحب، مهلهل الرداء و القلب و الجسد و اللبّ، أذكره كأنني أراه. كان دائماً ينفض الغبار عن معجماته و أجروملياته القديمة، بمنديل عجيب الطراز، مزخرف -على نحو ساخر- بكل الأعلام البهيجة التي ترمز إلى جميع الأمم المعروفة في العالم. و كان يروقه أن ينفض الغبار أيضاً عن المعلومات النحوية في ذاكرته، فذلك أمر كان يذكّره -في لطف وديع- بأنّه ينتمي إلى أهل الفناء) (ص9).

تعد ترجمة ظرف الحال (adverb) في اللغة الانجليزية (mockingly) بـ (-على نحو ساخر-) الواقعة بين مطتين، و التي تعتبر ظرف حال أيضاً استنظاماً (normalization) أدى وظيفة تدجينية، بحيث أراد المترجم لظرف الحال العربي (-على نحو ساخر-) أن يحاكي وظيفة ظرف الحال الانجليزي (mockingly) نفسها في خطوة منه للمحافظة على النسق اللغوي الأصلي عبر محاكاة بنيوية للإبقاء على بنية الخطاب فيه. و تستلزم هذه الاستراتيجية الترقيم المعمول به في اللغة الهدف موضوع الترجمة، و هو ما كان من المترجم بأن وضع ظرف الحال -الذي جاء ليجيب عن السؤال

(كيف يبدو المنديل مزخرفاً؟) على غرار ظرف الحال الانجليزي الذي جاء ليجيب عن السؤال (how?) (أي ما يصطلح عليه في اللغة الانجليزية تسمية (adverb of manner))- بين مطتين المتعارف عليهما في اللغة العربية لمثل هذه الحالات، من دون الحاجة إليهما في اللغة الانجليزية بحسب العرف اللغوي فيها.

الشيء نفسه ينطبق على ترجمة ظرف الحال (mildly) في الجملة، فقد قام المترجم بوضع ظرف الحال في الجملة العربية بين مطتين (-في لطف وديع-)، و هو استنظام (normalization) ابتغى المترجم من ورائه محاكاة بنية الجملة الانجليزية من المنظورين الوظائفي و التعبيري.

- قول الكاتب

([…] Therefore you must not, in every case at least, take the higgledy-piggledy whale statements, however authentic, in these extracts, for veritable gospel cetology. Far from it. As touching the ancient authors generally, as well as the poets here appearing, these extracts are solely valuable or entertaining, as affording a glancing bird's eye view of what has been promiscuously said, thought, fancied, and sung of Leviathan, by many nations and generations, including our own) (p9-10) (A*).

- و ترجمها بـ ([…] لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال، و إن كان صحيح النسبة، و تعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. فما أبعد هذه الأقوال من ذلك! إذ أنّ المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة و عن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنّها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم و الأجيال العديدة -و منها جيلنا- أو تصورّته أو تغنت به -على نحو مختلط- عن "اللوياثان") (ص11).

إنّ ترجمة ظرف الحال الانجليزي (promiscuously) بـ (-على نحو مختلط-) استنظام (normalization) يهدف إلى الحفاظ على الدور الوظائفي المنوط بظرف الحال في اللغة المصدر مع اللجوء إلى الترقيم المناسب، و هو ما سيجعل القارئ في اللغة العربية يخمن بأنّ ما يقع بين مطتين قد جاء إما لوصف فعل أو صفة أو ظرف آخر أو الجملة كاملة.

5. التطويع (modulation)

- قول الكاتب

(It will be seen that this mere painstaking burrower and gub-worm of a poor devil of a Sub-Sub appears to have gone through the long Vaticans and Street-stalls of the earth, picking up whatever random allusions to whales he could anyways find in any book whatsoever, sacred or profane […]) (9-10) (A*).

- و ترجمتها بـ (سترون، أيها القراء، أنّ هذا الحفار النقّاب، أنّ تلك الأرضة النفاذة التي أسميها مساعد الخازن المساعد،

قد تغلغل في أقبية المكتبات و سراديبها الطويلة، ملتقطاً الاشارات المتناثرة إلى الحيتان أيّان وجدها، من كتب دينية أو دنيوية [...]) (ص11).

تعتبر ترجمة عبارة (it will be seen) الانجليزية بـ (سترون، أيها القراء) تطويعاً يُعنى بالزمن في شقه الأول، بحيث انتقل المترجم من المبني للمجهول (passive) (it will be seen) إلى المبني للمعلوم (active) (سترون)، و يُعنى في شقه الثاني بالانتقال من المجرد (abstract) (it) إلى الملموس (concrete) (أيها القراء) (و حتى الانتقال من الخاص (specific) إلى العام (general)). يندرج التطويع -كما عكفنا على تبيانه آنفاً- ضمن الاستراتيجيات التدجينية بسبب أنّ المترجم يقوم فيه بقلب وجهات النظر (points of view) و تغييرها، و تحوير طرق تسليط الضوء على المرسلة و ما تحويه من أبعاد، و هو ما يعني تدخل المترجم في نص الترجمة و عدم إبقائه على الأبعاد نفسها التي جيء بها في النص المصدر.

6. الترجمة بالتجميع (translation by accumulation)

- قول الكاتب

(ETYMOLOGY

"While you take in hand to School others, and to teach them by what name a whale-fish is to be called in our tongue, leaving out, through ignorance, the letter H, which almost alone maketh up the signification of the word, you deliver that which is not true.") *Hackluyt.*

- و ترجمتها بـ

(فصل في الاشتقاق

أعده معلم مسلول كان يعمل أثناء الحياة في مدرسة اعدادية.

[...] حين تعين الآخرين على أن يتعلموا، و تلقنهم اسم الحوت في لغتنا، مسقطاً -بطريق الجهل- من اسمه حرف «هـ» H، و هو الحرف الذي يمنح الكلمة مغزاها، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب).

(هكليوت) (ص9).

تعد ترجمة (and to teach them by what name a whale-fish is to be called in our tongue) بـ (و تلقنهم اسم الحوت في لغتنا) ترجمة تختزل العبارتين الانجليزيتين (by what) و (is to be called)، خاصة و أنّ الجملة العربية جاءت أقصر من نظيرتها الانجليزية بخلاف ما هو متعارف عليه في الترجمة. سنتبين الفارق بين هذه الترجمة و أن نترجمها على سبيل المثال بـ (و تلقنهم ما الاسم الذي ينبغي أن يُسمى به الحوت في لغتنا) التي تعتبر ترجمة حرفية،

أو بـ (و تلقنهم بماذا ينبغي تسمية الحوت في لغتنا) المعنوية. يصطلح على هذه الطريقة تسمية الترجمة بالتجميع (translation by accumulation) التي تتجلى في تركيز الكم الدلالي و تكثيفه في مقول لغوي واحد. غير أنّه ثمة هنا خسارة ترجمية (une entropie) تتمثل في إسقاط الوجوب الذي ذكره المؤلف في جملته و المعبر عنه بـ (is to be called). لقد اعتبر الناقل بأنّ السياق كفيل بتبيان ذلك للقارئ من دون أن يكون هو قد أخل بالمعنى. لتبقى هذه الاستراتيجية التدجينية التي تتجمع فيها الدلالة و يقل فيها الكلم من بين استراتيجيات الترجمة التي تتماشى و الإمكانات التعبيرية الهائلة التي تمنحها اللغة العربية لمتكلميها، و خاصة ما اتصل منها حصرياً بالإيجاز و الإطناب و المساواة.

7. التبسيط (simplification)

– قول الكاتب

([…] Therefore you must not, in every case at least, take the higgledy-piggledy whale statements, however authentic, in these extracts, for veritable gospel cetology […]) (p9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ ([…] لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال، و إن كان صحيح النسبة، و تعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه […]) (ص11).

لقد قام المترجم بنقل عبارة (higgledy-piggledy) التي تعد متلازمة لفظية (collocation)، و التي استخدمت كصفة أو ظرف حال في هذا السياق إلى (خليط) في اللغة العربية. و إن كانت هذه المتلازمة اللفظية تعني أن نقوم بالأشياء من دون أن نخطط لها، و أنّ طريقتنا في ذلك تكون مشوشة و غير مقننة فإنّ كلمة (خليط) تفي بالغرض. بيدأنّه و على الرغم من ذلك فقدت هذه المتلازمة اللفظية لسنيّتها (idiomaticity) أو مصوغها الثابت (fixedness) من خلال ترجمتها على هذا النحو إلى اللغة العربية، حتى أنّها تخلت عن الجانب الإيقاعي فيها الذي يتكرر بواسطة (iggledy-iggledy). و مرد ذلك أنّ المترجم قام بتبسيط (simplification) من النوع الأسلوبي (stylistic simplification) من خلال نقل ما هو معياري (standard) إلى ما هو نمطي (normative) و ليس بما يقابله من النمط نفسه. تنتمي المتلازمات اللفظية (collocations) إلى الوحدات الجملية (les unités phraséologiques) التي تفرض على المترجم اللجوء إلى التكافؤ (equivalence) و ذلك بأن يجد في اللغة المنقول إليها صيغة ثابتة تكافؤها من حيث المعنى (meaning) و من حيث الأثر (effect). ذلك ما تناساه المترجم هنا بسبب توظيفه للتبسيط (simplification) الذي أزال جميع السمات المائزة التي تميّز هكذا أساليب من المقول الأصلي.

- قول الكاتب

([…] As touching the ancient authors generally, as well as the poets here appearing, these extracts are solely valuable or entertaining, as affording a glancing bird's eye view of what has been promiscuously said, thought, fancied, and sung of Leviathan, by many nations and generations, including our own) (p9-10) (A*).

- و ترجمتها بـ ([...] إذ أنّ المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة و عن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنّها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم و الأجيال العديدة –و منها جيلنا– أو تصورّته أو تغنت به –على نحو مختلط– عن "اللوياثان") (ص11).

يتمثل التبسيط هنا في قوله (نظرة خاطفة) التي تقابل عبارة (a glancing bird's eye view) الانجليزية. تقابل هذه الترجمة العربية كلمة (a glancing) لوحدها، و التي تعني أن نلمح أو نومض أو نسترق النظر إلى الشيء خاطفين. إنّ كلمة (view) في هذه العبارة ليست جزءاً من هذه الكلمة (a glancing) بل هي شطر لا يقبل الانفصال عن شطره الآخر (bird's eye). تصنّف عبارة (bird's eye view) من قبل البعض في خانة الصيغ الثابتة (fixed expressions) التي تتميّز بلسنيتها (idiomaticity)، كما أنّها تأتي على شاكلة اسم و تعني لغة أن تكون لنا رؤية جيدة لشيء ما من مكان علي. أما اصطلاحاً فتوظف في سياقات متعددة كحديثنا عن نمطي القراءة اللّذان ينبغيان على كل مترجم: تتمثل الأولى في القراءة السطحية و الإستئناسية التي نعبر عنها بقولنا ((a bird's eye view (reading) تيمناً بالطائر الجارح الذي يجوب الآفاق من عليائه بحثاً عن الطريدة، أما الثانية فهي القراءة المتفحصة و المتدبرة التي نسبر بها أغوار النص و نصطلح عليها تسمية ((a worm eye view (reading). تعني كلمة (worm) الدودة في اللغة العربية، و هنا تشبيه لهذا النمط من القراءات و مسارها بعمل تلك الدودة التي تنخر القشرة لتخوض في اللباب. و لعله الإعتياص في إيجاد ما يقابل هذه العبارة الانجليزية في اللغة العربية هو ما دفع بالمترجم إلى الاكتفاء بـ (نظرة خاطفة) لإيهام القارئ بعد توهمه هو بأنّها ترجمة للصيغة الجملية الانجليزية برمتها. لقد كان لهذا التبسيط من النوع الأسلوبي (stylisctic simplification) الدور كله في إزالة الخصوصيات الاستثنائية (unusual) التي إتسم بها المقول في اللغة الانجليزية.

8. التمركز العرقي (ethnocentrism)

- قول الكاتب

([…] Therefore you must not, in every case at least, take the higgledy-piggledy whale statements, however authentic, in these extracts, for veritable gospel cetology […]) (p9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ ([...] لذلك ليس عليكم أن تأخذوا هذا الخليط من الأقوال، و إن كان صحيح النسبة، و تعدوه في جميع الأحوال كتاباً موثوقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه [...]) (ص11).

لقد تُرجمت كلمة (gospel) الانجليزية التي تعني الانجيل بـ (كتاباً موثوقاً معتمداً). يتحدث الكاتب هنا عن كتاب ديني مقدس، و هو ما لا يتفق و الترجمة العربية لأنّ جميع الكتب الموثوقة و المعتمدة قد تكون في غير الدين أيضاً. و ليشعر القارئ بهذه القدسية (sacredness) التي يدور في فلكها هذا المقول، زاد المترجم على ذلك بأن قال (لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه)، و هو قول مقتبس من آية قرآنية (سورة فصلت، الآية 42) أراد منه المترجم أن يحاكي الشحنة الثقافية المرتبطة بقدسية هذا الكتاب و لكن بمقول ينبع من كتابه عزّ و جلّ. ثم إنّ المترجم قام باستبدال الشيء (الانجيل) بما ينسب إلى قدسية هذا الشيء (قوله تعالى: {لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل حكيم حميد} (أي ليس للبطلان إليه سبيل لأنّه منزل من رب العالمين، الحكيم في أقواله و أفعاله و حميد بمعنى محمود، أي في جميع ما يأمر به و ينهى عنه). يعتبر ذلك تمركزاً عرقياً مفضوحاً، إذ قام المترجم بتعويض حقيقة ثقافية ذات بعد ديني تخص اللغة/الثقافة المنقول منها (ثقافة مؤلف النص الأصلي) بأخرى تخص اللغة/الثقافة المنقول إليها (ثقافة المترجم)، و هو إجراء تدجيني يكمن الهدف الأساسي منه في بسط معنى المقول و المقصدية المتوخاة منه، و تسهيل ذلك على قارئه من خلال تقديم نماذج ثقافية تخصه هو لا بعرض تلك الخصيصة بالآخر التي تكون عصية الإدراك و الفهم إلا على صفوة الصفوة.

9. التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence)

– قول الكاتب

"And God created great whales." *Genesis*. (p11).

– و ترجمتها بـ (فخلق الله الحيتان[2] العظام) (التكوين 1: 21) (ص12).

– و قوله

"Leviathan maketh a path to shine after him; One would think the deep to be hoary."
Job. (p11).

– و ترجمتها بـ ([اللوياثان] يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب) (أيوب 32:41) (ص12).

– و قوله

"Now the Lord had prepared a great fish to swallow up Jonah."
Jonah. (p11).

– و ترجمتها بـ (و أما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان) (يونان 17:1) (ص12).

– و قوله

"There go the ships; there is that Leviathan whom thou hast made to play therein."
Psalms. (p11).

– و ترجمتها بـ (هناك تجري السفن؛ لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه) (مزامير 26:104) (ص12).

– و قوله

"In that day, the Lord with his sore, and great, and strong sword, shall punish Leviathan the piercing serpent, even Leviathan that crooked serpent; and he shall slay the dragon that is in the sea." *Isaiah*. (p11).

– و ترجمتها بـ (في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان، الحية الهاربة، لوياثان، الحية المتحوّية، و يقتل التنين الذي في البحر) (اشعيا 1:27) (ص12).

يوظف المترجم هنا التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence) لنقل أقوال مقتبسة من نصوص دينية، و المستلة من كتب سماوية متنوعة. و لقد اصطلحنا على هذه الاستراتيجية تسمية التكافؤ الديناميكي لأنّ المترجم انتبه لخطورة الأمر في أنّ هذه الأقوال تتصل ببعد مهم من أبعاد حياة البشر، إن لم نقل من أهمها على الإطلاق ألا و هو الدين، فعوض أن يقترح ترجمة من لدنه لنقل هذه الترنيمات إلى اللغة العربية قام بالاستقصاء عن الترجمات العربية المضبوطة التي قام بها أصحاب الاختصاص لذات الكتب الدينية، ليس لأجل أن يضفي المصداقية (credibility) على هذه الترجمات فحسب، بل لأن الأمر منوط بقدسية ما ينقل بحيث أراد أن تحاكي هذه الأخيرة البعد الدينامي نفسه للترنيمات الدينية في اللغة الانجليزية، و التي تشعر قارئها بالورع و التقى، و تدخله في جو طقوسي ملؤه السكينة و الوقار. ذلك هو الموقف نفسه الذي أراد المترجم للقارئ أن يستحضره بأن خاطب فيه القلب و العقل معاً، غير أنّ ذلك لم يكن ليتسنى لو أنّه اعتمد على ترجمة مصطنعة قد لا تؤدي الوظيفة نفسها، و هو ما كان ليشكل صدعاً لن يكون من السهل رأبه و فتقاً قد يصعب رتقه. تنتمي استراتيجية التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence) –التي تضطلع بمهمة واحدة هي بلورة حالة من الإحساس و التفاعل مع نص الترجمة التي ينبغي أن تكون نفس الحالة التي عايشها القارئ مع النص الأصلي– إلى النزعة التدجينية، بل يمكن عدها من بين أبرز الاستراتيجيات المعول عليها في الذوذ عن هذا النهج لدى أصحابه.

– قول الكاتب

"Whales in the sea
God's voice obey."
N. E. Primer. (p15).

- و ترجمتها بـ

(حتى الحيتان في البحار

تطيع أمر الجبّار)

(كتاب المطالعة الأولي) (ص18).

- و قوله

"Oh, the rare old Whale, mid storm and gale
In his ocean home will be […]".

Whale Song. (p23).

- و ترجمتها بـ

(آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف و النكباء ،

يظل في بيته في الماء […]).

(أغنية الحواتين) (ص28).

- و قوله

"[…] In black distress, I called my God,
When I could scarce believe him mine,
He bowed his ear to my complaints —
No more the whale did me confine. […]" (p44).

- و ترجمتها بـ

([…] و في محنتي السوداء دعوت ربي

حين كدت أجحده رباً

فسمع الله شكاتي

و لم يعد بطن الحوت لي محبساً […]) (ص88).

- و قوله

"[…] Oh, your tubs in your boats, my boys,
And by your braces stand,
And we'll have one of those fine whales,
Hand, boys, over hand! […]" (p189).

- و ترجمتها بـ

([...] ضعوا دنانكم في قواربكم يا فتيان

وقفوا عند معاقد الحبال

و سنصيد حوتاً من هذه الحيتان

فاعقدوا العزائم و تكاتفوا كالبنيان [...]) (ص290).

- و قوله

"Oh ! jolly is the gale,
And a joker is the whale,
A' flourishin' his tail, —
Such a funny, sporty, gamy, jesty, joky, hoky-poky lad, is the Ocean, oh ! […]"
(p556).

- و ترجمتها بـ

(آه ان الريح طروب

و الحوت ساخر ضحوك

و ذيله ناضر

و البحر فتى دعوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجّان [...]) (ص790).

لقد تمكن المترجم عبر هذه الأمثلة من أن يبرز شخصه بمجاراته للمؤلف في إبداعه، و السبب هو حنكته و حسه المرهف. و قد حملت هذه الترجمات -التي تنوعت بين أبيات من الشعر و قصائد غنائية- أبعاداً جمالية هي نفس الأبعاد الجمالية في الأشعار و القصائد الغنائية الأصلية، بدءاً باللغة المميّزة التي وظفها إحسان عباس، و التي جاءت بسيطة في تركيبها و قوية في تعبيرها و دلالاتها، و انتهاء بالقافية و الإيقاع (أو الغنائية) الواجب تجسيدها إن نحن أردنا أن نحصل على لغة شاعرة تهتز لها النفوس و تطرب لأجلها الجوارح. و يعني ذلك أنّ إحسان عباس -و هو المجرب للشعر و المتقن لأسسه و فنونه- استطاع أن يحاكي البعد الديناميكي نفسه الذي يهدف إلى التأثير في قراء اللغة الهدف، و التأسيس لحالة من التجاوب تكون الحالة نفسها التي تجسدت عند أول اتصال لقراء اللغة المصدر بالنص الأصلي. إنّ هذه الترجمات لخير مثال على التكافؤ الديناميكي الذي ابتغاه إحسان عباس من وراء نقلها بهكذا أسلوب، كما أنّه يلقي الضوء على بعد مهم من أبعاد الترجمة، و هو مدى نبوغ المترجم و قدرة فعله في أن يكون مؤلفاً مشاركاً (a co-author).

10. التكييف (adaptation)

- قول الكاتب

"Let us fly, let us fly! Old Nick take me if it is not Leviathan described by the noble prophet Moses in the life of patient Job." *Rabelais*. (p12).

- و ترجمتها بـ (لنهرب ! لنهرب ! حاز روحي الشيطان الرجيم إن لم يكن هذا هو اللوياثان الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة أيوب الصبور). (رابليه) (ص14).

قام المترجم بنقل عبارة (Old Nick) الانجليزية إلى (الشيطان الرجيم) في اللغة العربية. و تعني هذه العبارة (the devil) أي الشيطان، لكنها إن ترجمت حرفياً إلى اللغة العربية فلن توافق المعنى المراد و المقصدية المتوخاة من المقول بما أنّ القارئ سيحسب أنّ الأمر يتعلق بشخص عجوز (الصفة old) اسمه (Nick)، و هو ما يحتم على المترجم في مثل هذه الحالات تقريض المقول و تفحص معنييه الحرفي (literal) و الاصطلاحي (idiomatic). هذا من جهة، أما من جهة أخرى فثمة هنا خلفية ثقافية تتطلب من المترجم الحذر و الانتباه، و هي أن الأمريكيين يصطلحون على الشيطان تسمية (Old Nick) (تسمية من بين العديد من التسميات الأخرى التي يتداولونها في هذا الصدد)، لذلك وجب عليه أن يكيّيف المقول بأن يجد كلمة أو كلمات مكافئة تكون جاهزة في اللغة المنقول إليها، و التي تفي بالغرض نفسه. ذلك ما حصل بالفعل، بحيث أنّ عبارة (الشيطان الرجيم) تُعنى بالخلفية الثقافية للجمهور المستقبل، و التي يوظفها دائماً للإشارة إلى خبيث الأفعال و الأقوال و قبيحها. و حتى إن تُرجمت عبارة (Old Nick) إلى (إبليس) مثلاً فلن تحقق ذلك الإجماع الذي حققته عبارة (الشيطان الرجيم). ثمة إذن تكييف يُعنى بالاستبدال الثقافي (cultural substitution) الذي يتمثل بالأساس في توظيف الكلمات المتكافئة التي تكون جاهزة في اللغة المنقول إليها، و السبب الخلفية الثقافية (the cultural background) لجمهور القراء. ينتمي التكييف (adaptation) إلى استراتيجيات التدجين التي تتطلب تدخل المترجم في المرسلة جزئها أو كلها (إما تكييف موضعي une adaptation ponctuelle أو تكييف شمولي une adaptation globale) عبر توظيف إجراءات ثلاثة هي: الاستبدال الثقافي (cultural substitution)، و إعادة الصياغة (paraphrasing)، و الحذف (omission).

11. الترجمة الموضوعاتية (thematic translation)

- قول الكاتب

"THE RAMADAN." (p91).

- و ترجمتها بـ

(الصوم) (ص149).

– و قوله

"THE LEE SHORE." (p117).

– و ترجمتها بـ

(الشاطئ الآمن من الريح) (ص187).

– و قوله

"THE ADVOCATE." (p118).

– و ترجمتها بـ

(دفاع عن التحويت) (ص189).

– و قوله

"THE FIRST LOWERING." (p240).

– و ترجمتها بـ

(القوارب تنزل أول مرة) (ص359).

لقد وظف المترجم استراتيجية تدجينية أخرى في نقل هذه العناوين الخاصة ببعض فصول الرواية (الصوم: الفصل 17؛ الشاطئ الآمن من الريح: الفصل 23؛ دفاع عن التحويت: الفصل 24؛ القوارب تنزل أول مرة: الفصل 48). و تتمثل هذه الاستراتيجية في الترجمة الموضوعاتية (thematic translation) التي يسعى المترجم من خلالها إلى نقل الفكرة الرئيسة التي يدور حولها النص عامة، و إهمال الأمور التفصيلية مع توظيف لأسلوبه الشخصي. و يشبه هذا النوع من الترجمات إلى حد كبير الترجمة التلخيصية التي يلجأ إليها المترجمون لنقل بعض أنواع النصوص مثل نشرات الأخبار و النصوص الصحافية التي تأتي مسهبة، و السبب في ذلك إما لأنّ التفاصيل فيها لا تهم أو لضيق الوقت الذي لا يسمح بالتعاطي معها. و قد ذكرنا آنفاً أنّ التدجين يستلزم تدخل المترجم في المرسلة مبدلاً و مغيراً لنزع كل غرابة عنها، و الهدف من ذلك تسليسها و تسهيل الفهم و الاستيعاب على قارئها. ذلك ما كان من المترجم عند نقله لهذه العناوين، فقد ارتأى أن لا يترجمها ترجمة حرفية (literal translation) (رمضان، شاطىء لي Lee، المحامي، النزول الأول) التي ستبعد القارئ عن موضوع الرواية العام و مواضيعها الفرعية من حيث أنّها لن تفيد شيئاً يتعلاق معها، بل أن ينقلها باستخدام الترجمة الموضوعاتية (thematic translation) التي تُلخص أحداث كل فصل و موضوعه العام. فقد يظن القارئ أنّ العنوان (The Ramadan) إن ترجم حرفياً إلى (رمضان) قد يعود على شخص يُكنى بهذا الاسم، أو أنّ الأمر مرتبط بالشهر الفضيل (شهر رمضان)، شهر التوبة و الإنابة إلى الله عز و جلّ. و قد كان المترجم ذكياً لأنّه نقل هذا العنوان إلى (الصوم) درءاً للبس و صوناً لحرمة الشهر الفضيل إن كان ملفل Melville قد قصد بـ

(The Ramadan) شهر رمضان الكريم، و السبب أنّ ملفل يتحدث في هذا الفصل عن الصوم لدى تابع لديانة وثنية هو كويكوج Queequeg صاحب اسماعيل Ishmael الراوي الذي بقي يوماً كاملاً في غرفة جالساً القرفصاء و هو يحمل (اليوجو) (Yojo) (تمثال صغير أسود هو إلهه) على رأسه؛ الشيء الذي أثار القلق لدى صاحبه بعد أن ظن أنّ سوءاً ما قد أصابه لطول بقائه على هذا النحو و صعوبة الولوج إلى الغرفة. أما عنوان الفصل الثالث و العشرين (الشاطئ الآمن من الريح) فقد جاء ملخصاً لما فيه، إذ يتذكر الراوي البحار بلكنجتون Bulkington الذي لم تطأ قدماه الأرض لمدة طويلة، و ما عساه أن يشعر لو أنّه نزل بأحد الشواطئ أو الموانئ التي ستؤمّن له العطف و الراحة بعيداً عن البحر و أهواله، و هو الإحساس نفسه الذي كان يعتري الراوي حينذاك، و الذي راح يذكر خصال مثل هذا الشاطئ و صفاته المليحة. ذلك ما لا يتحقق مع ترجمة حرفية عنوانها (الشاطئ لي Lee) الذي سيحسبه القارئ –و لن يزيد– بأنّه شاطئ يقع بأرض ما و اسمه (لي Lee). و جاء عنوان الفصل الرابع و العشرين (دفاع عن التحويت) ملماً بأفكاره الرئيسة و الثانوية على حد سواء، إذ يتحدث الراوي عن مهنة التحويت و يستميت في الدفاع عنها و عن مقوماتها مبرزاً جميع أمجادها الحاضرة و الماضية، و فوائدها على البشرية قاطبة في رده على أولئك الذين يحتقرون هذه المهنة و لا يرون فيها إلا الدم و الدنس، و هو ما يلخصه هذا العنوان بكثير من الليونة و الحركية بخلاف نقله الحرفي إلى (المحامي) الذي يخلو من كل نبض. الشيء نفسه ينطبق على عنوان الفصل الثامن و الأربعين (القوارب تنزل أول مرة) الذي يتحدث فيه الراوي عن مغامرة قام بها بحارو (الباقوطة) (The Pequod) بعد أن نزلوا منها و خرجوا على متن القوارب ليصيدوا حوتاً من الحيتان التي برزت على السطح. و يسرد هذا الأخير كل تفاصيل هذا النزول، و كيف كانت المعركة مع الحوت حامية الوطيس، و تمكنهم من النجاة بأعجوبة بعد أن تحطمت قواربهم في مشهد جنوني كله رعب بعدما كانت الحماسة هي ما يؤجج ولعهم للظفر بأحد الحيتان. و قد تفادى المترجم نقل عنوان هذا الفصل –كما فعل مع سابقيه–حرفياً إلى (النزول الأول) الذي قد يفهم منه القارئ أنّه ثمة نزول ثاني و ثالث و رابع... بالإضافة إلى أنّه يحاكي بنية العنوان الانجليزي، و لا يضفي أية لمسة إبداعية على عمل المترجم ما يتنافى مع الترجمة الأدبية و أسس ممارستها؛ كيف لا و هي التخصص الذي يكاد يكون الوحيد من بين جميع التخصصات الأخرى الذي يفتح الباب على مصرعيه للمترجم لأجل أن يتساوى مع مؤلف النص الأصلي قيمة و عطاءً. تسعى الترجمة الموضوعاتية (thematic translation) إلى وضع القارئ في الإطار العام للنص، و تقريب المعنى إليه من دون أن يتطلب منه الأمر مراجعة كل إحداثياته؛ و كأنّها نوع من اختزال للمسافات لا يتحقق إلاّ بها.

12. التدجين اللهجي (dialectal domestication)

– قول الكاتب

“Fellow-critters: I’se ordered here to say dat you must stop dat dam noise dare. You

hear? Stop dat dam smackin’ ob de lip! Massa Stubb say dat you can fill your dam bellies up to de hatchings, but by Gor! you must stop dat dam racket!” (p328-329).

- و ترجمتها بـ

(اكواني المكلوقات: انا مأمور ان أقول إنه توقفوا ديك الدوشة الملئون هناك. سمئتوا؟ اوقفوا ديك طق طق الملئون من الشفتين. سي اسطب يقول انكوا تقدروا تملأوا كروش ملئونة بتاءكوا حتى فم الكروش. لكن و ربّينا لازم توقفوا ديك الدوشة الملئون) (ص478).

- و قوله

“Who dat? Den preach to him yourself” (p329).

- و ترجمتها بـ

(من دا؟ ما دام كده، انت تقول وأظة بنفسك) (ص478).

- و قوله

“Well, den, Belubed fellow-critters” (p329).

- و ترجمتها بـ

(جميل. ايتها المكلوقات، الإكوان المهبوبين...) (ص478).

- و قوله

“Do you is all sharks, and by natur wery woracious, yet I zay to you, fellow-critters, dat dat woraciousness—’top dat dam slappin’ ob de tail! How you tink to hear, ’spose you keep up such a dam slappin’ and bitin’ dare?” (p329).

- و ترجمتها بـ

(انتو هيوانات قرش و هو بطبئه شره كتير، لكن برده أقول لكم يا إكواني انه الشره داك _ امنأوا اللطم بالدنب! كيف ممكن تسمأوا إن كان بقيتوا مستمرين في اللطم و الأض الملئون هناك؟) (ص479).

- و قوله

“Your woraciousness, fellow-critters, I don’t blame ye so much for; dat is natur, and can’t be helped; but to gobern dat wicked natur, dat is de pint. You is sharks, sartin; but if you gobern de shark in you, why den you be angel; for all angel is not’ing more dan de shark well goberned. Now, look here, bred’ren, just try wonst to be cibil, a helping yourselbs from dat whale. Don’t be tearin’ de blubber out your neigh- bour’s mout, I say. Is not one shark dood right as toder to dat whale? And, by Gor, none on you has de right to dat whale; dat whale belong to some one else. I know some o’ you has berry brig mout, brigger dan oders; but den de brig mouts sometimes has de small

bellies; so dat de brigness ob de mout is not to swallar wid, but to bite off de blubber for de small fry ob sharks, dat can't get into de scrouge to help demselves." (p329).

- و ترجمتها بـ

(إن الشره بتاءكم يا إكواني لا ألومكم كتير من أجله. دا طبيئة، و الواهد منا أسير الطبيئة، لكن لازم هو يتهكم في داك الطبأ الشرير. دا هي المسألة. انتو هيوانات قرش – مؤكد؛ لكن اذا انتو تهكمتو في القرش اللي فيكو بقيتو ملايكة، لان الملاك هو قرش تهكمه الارادة القوية. إكواني: هاولوا انكم تكونوا مهذبين و انتو بتاكلوا من الهوت داك. أقول: لا تمزقوا الشهم من فم جاركو. مش كل قرش له هق متل القرش التاني في الهوت؟ لكن و الله ما واهد فيكم له هق في الهوت. داك الهوت من هق زول غير كو. أنا آرف انه في منكو ناس الكشم بتاؤهم كبير، اكبر من الكشم بتاء تانيين لكن اهياناً اللي كشمه كبير بكون كرشه زغير. و هذا مأناه انو كبر الكشم مش أشان انه الواهد يبلأ لقمة كبير، لكن أشان يقطأ شهم و يطأم القرش الزغير اللي ما يقدر يزاهم السمكات الكبار) (ص479).

- و قوله

"No use goin' on; de dam willains will keep a scrougin' and slappin' each oder, Massa Stubb; dey don't hear one word; no use a-preachin' to such dam g'uttons as you call 'em, till dare bellies is full, and dare bellies is bottomless; and when dey do get em full, dey wont hear you den; for den dey sink in the sea, go fast to sleep on de coral, and can't hear not'ing at all, no more, for eber and eber." (p330).

- و ترجمتها بـ

(مفيش فايدة. أولاد كلب ملئونين راه يبقوا يتزاهموا و يتلاطموا يا سي اسطب. ما بيسمئوا و لا كلمة واهدة. ما في فايدة من الوأظ للهيوانات السفاهين دول – زي انت ما سميتوهم – هتى كروشهم تبقى مليانة، لكن كروشهم ما ليها هدود، بدون قرار. لكن اذا ملوهم كمان ما فيهم يسمئوا نصيهة، لأنهم بيروهو يغطسوا في المويه و بينوموا فوق المرجان نوم شديد و ما بيسمئوا اي شي أبداً أبداً) (ص480).

- و قوله

"Cussed fellow-critters! Kick up de damndest row as ever you can; fill your dam' bellies 'till dey bust—and den die." (p330).

- و ترجمتها بـ

(اكواني الملئونين. ائملوا دوشة ملئونة كتير قد ما انتو تريدوا. ملوا كروشكم الملئونة هتى تنفجر ثم تموتوا) (ص480).

- و قوله

"What dat do wid de 'teak" (p330).

- و ترجمتها بـ

(شنو دخل الأمر في مسألة الشَّرايِهْ؟) (ص480).

- و قوله

"Bout ninety, dey say" (p330).

- و ترجمتها بـ

(تسئين تقريباً –كدا بيقولوا) (ص480).

- و قوله

"Bress my soul, if I cook noder one" (p331).

- و ترجمتها بـ

(أليّ لأنة ان سوّيت واهدة تانية) (ص481).

- و قوله

"Best cooked 'teak I eber taste; joosy, berry joosy." (p331).

- و ترجمتها بـ

(أهسن شريهة دقتها في هياتي. طرية، رخصة جداً) (ص481).

- و قوله

"When dis old brack man dies" […] "he hisself won't go nowhere; but some bressed angel will come and fetch him." (p331).

- و ترجمتها بـ

(لما الأسود الأجوز دا بيموت هو نفسه ما داير يروه مكان لكن فيه واهد ملاك مبروك بيجي ياكده) (ص482).

- و قوله

"Wish, by gor! whale eat him, 'stead of him eat whale. I'm bressed if he ain't more of shark dan Massa Shark hisself " (p333).

- و ترجمتها بـ

(و الله كنت أهب ان هوت ياكله بدل هو ما ياكل الهوت. ملئون أنا ان لم يكن هو قرش اكتر من سيد القرشان كلها) (ص483).

لقد قام المترجم من خلال هذه الأمثلة باستبدال لهجة انجليزية متداولة في الولايات المتحدة الأمريكية بأخرى ريفية متداولة في بلد عربي. و قد جاءت شخصية فليس Fleece –الذي كان يشتغل طباخاً على ظهر (الباقوطة)

(The Pequod)- بسيطة و ساذجة، إذ كان شيخاً عجوزاً أصيب بمرض في ركبتيه لأنّه لم يكن يعتني بنظافتهما كحال أبناء جلدته من السود الأمريكيين في ذلك الزمان. و دار بين فليس Fleece الطباخ و رئيسه اسطب Stubb هنا حوار شيق بدأه اسطب عندما أمر فليس بأن يذهب و يتحدث إلى أسماك القرش التي كانت تأكل من الحوت الذي اصطادوه و المربوط بالسفينة محدثة ضجة كبيرة، و هي الضجة التي أفسدت على اسطب التمتع بعشائه الذي كان بصدد تناوله (و منه عنوان الفصل: عشاء اسطب STUBB'S SUPPER). ليذهب فليس إلى أسماك القرش طالباً منها أن لا تحدث ضجة و هي تلتهم المضغة تلو الأخرى من لحم الحوت، و أن تكف عن خبط أجسامها بالباقوطة، غير أنّها لا تستجيب أبداً. و يأخذ الحوار بعد ذلك منحى آخر، بحيث يوبخ اسطب العجوز الطباخ على عدم إتقانه طهي شرائح لحم الحوت، و هو ما لا يروق لفليس من دون أن يبدي ذلك علناً. و تصور هذه الأمثلة بجلاء الانتقال من لغة انجليزية فصحى (لغة اسطب الرئيس الذي يحوز على مكانة اجتماعية أرفع درجة من مكانة فليس، و إن على ظهر الباقوطة فقط) إلى لهجة اجتماعية (a sociolect) تعكس مستوى فليس الاجتماعي و انتمائه الطبقي إلى عوام الناس (طبقة السود الكادحة)، و هو التدرج اللغوي الذي أراد من خلاله ملفل Melville تبيان الفوارق الاجتماعية و الثقافية بين المتكلمين، و حتى الفوارق الخطابية بينهما؛ مسألة تواتر حدوثها في الأعمال الأدبية عامة و في ترجماتها أيضاً. إنّ المتعارف عليه في مثل هذه الحالات هو أن يقوم المترجم بإبراز التدرج اللغوي نفسه الموجود في نص اللغة المنقول منها، و هو ما وفق فيه إحسان عباس التوفيق كله بأن اختار لهجة عربية تخص أهل الريف بالسودان، بحيث تمكنت هذه الأخيرة من أن تعكس تلك الشخصية البسيطة المنتمية إلى عامة الناس، ناهيك عن كون الناس هناك سود البشرة أيضاً مع الإبقاء على اللغة العربية الفصحى على لسان اسطب ما يضعنا أمام محاكاة حية للموقف التواصلي الأول خاصة و أنّ إحسان عباس قد خبر العيش في السودان لسنوات، و ألف الحديث بلهجة أهله البسطاء إلى حد الإتقان. يعتبر هذا النوع من التدجين (التدجين اللهجي dialectal domestication) أكثر أنواع التدجين اعتياصاً، ذلك لأنّه يتطلب الدقة في اختيار اللهجة المناسبة و النبوغ في التعامل مع الموقف التواصلي كله، قشره و لبابه. ليبقى الهدف من هكذا تدجين وضع القارئ في بيئة يعرفها أو يستطيع تمييزها بخلاف اللهجة الأجنبية التي تعكس ثقافة دخيلة و بيئة غريبة عنه.

- قول الكاتب

"Wood-house!" cried I, 'which way to it? Run for God's sake, and fetch something to pry open the door—the axe!— the axe! he's had a stroke; depend upon it!" (p92).

- و ترجمتها بـ

(صرخت: مستودع الخشب ! اين الطريق اليه؟ كرمال أَلله اركضوا، احضروا شيئاً نكسر به الباب، الفأس ! الفأس !

أصابته نوبة، يقيناً !) (ص151).

– و قوله

"Get the axe! For God's sake, run for the doctor, someone, while I pry it open!" (p93).

– و ترجمتها بـ

(فأساً ! كرمال ألله ! اسرعوا إلى الطبيب، واحد منكم، بينا أنا أكسر الباب) (ص151).

يوظف المترجم في هاذين المثالين أسلوباً لهجياً المتمثل في عبارة (كرمال أَلله) التي تقابل العبارة الانجليزية (for God's sake). و تفيد هذه العبارة الانجليزية ترجي المخاطَب و التوسل إليه للقيام بالشيء أو عدمه. و نظراً للموقف الجلل الذي تمخض عنه هذا المقول في المثالين السابقين، و هو أنّ اسماعيل Ishmael قد فزع لبقاء صاحبه كويكوج Queequeg في الغرفة مدة طويلة، و خشية أن يكون قد أصيب بمكروه ما حاول جاهداً أن يكسر باب الغرفة متوسلاً إلى الخادمة و ربة النزل –اللّتان كانتا حينها بصحبته– أن يحضرا ما قد يعينه على كسر الباب. يختلف هذا التدجين اللهجي (dialectal domestication) عن الأول في أنّه لا يقابل أي أسلوب لهجي وظفه المؤلف في نصه الأصلي، إنّما قدّر المترجم أنّ نقل العبارة الانجليزية (for God's sake) بما يقابلها في اللغة العربية الفصحى (من أجل الله أرجوك، أو لأجل الله، أو لوجه الله، أو حباً في الله) لن يحمل في طياته الدلالة القوية و الشحنة المعبرة كتلك التي تحملها العبارة المنتقاة من اللهجة الشامية (السورية) (كرمال ألله) التي تضاهي العبارة الأصلية تعبيراً و دلالة، بل و تتجاوزها في ذلك. و قد اعتبر المترجم بالتالي أنّ الجمهور العربي سيعرف هذه اللهجة أو أنّه سيميّزها، بل أكثر من ذلك سيدفعه هذا المقول إلى استحضار الواقعة و إدراك الخطب العظيم الذي أحاطها. و سيفهم أنّ الراوي –في الترجمة العربية– قد بلغ حداً من التوسل بتلك العبارة اللهجية قد لا يبلغه أحد بسواها.

13. التعريب (arabization)

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY

_____

[...]

……	*Hebrew.*
…… (KETOS),	*Greek.*
CETUS,	*Latin.*
WHOEL,	*Anglo-Saxon.*
HVALT,	*Danish.*
WAL,	*Dutch.*

HWAL, *Swedish.*
WHALE, *Icelandic.*
WHALE, *English.*
BALEINE, *French.*
BALLENA, *Spanish.*
PEKEE-NUEE-NUEE, *Fegee.*
PEHEE-NUEE-NUEE, *Erromangoan.*)

– و ترجمتها بـ

(ح ت بالعبرية

ق و ط س باليونانية [1]

ق ي ط س باللاتينية [1]

هُوَيل بالانجلوسكسونية

هوالت بالدنمركية

وال بالهولندية [1]

هوال بالسويدية

هويل بالانجليزية

هويل بالاسلندية

بليّن بالفرنسية

بليّنة بالاسبانية [1]

بيكي–نويه–نويه بالفيجية

بيهي–نويه–نويه بالارومانجونية) (ص10).

([1] دخلت كلمة "القاطوس" في اللغة العربية إلا أنّ بعض المصادر أوردتها خطأ بالفاء (أنظر مثلاً حياة الحيوان للدميري)، و كذلك كلمة "البلينة" عرفها الأندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي: 214). و قال ابن سعيد: البلينة حوت كبير يعرف بدابة البحر (المغرب 1: 193). و تعرب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الفال و الوال و الاوال و الافال) (الهامش) (ص10).

ثمة استراتيجية تدجينية وظفها المترجم كثيراً في نقل هذه الرواية الانجليزية إلى اللغة العربية، و هي التعريب (arabization). و يختلف التعريب عن الاستنساخ الصواتي (transliteration) في كون أنّ هذا الأخير يعتبر إجراءً فرعياً (a sub-procedure) الذي غالباً ما يصاحب الاقتراض (borrowing)، بحيث يقوم المترجم إما بإعادة

كتابة الكلمة كما هي في اللغة المنقول منها، أو أن يستنسخها صواتمياً، أو أن يلجأ إلى الإجرائين معاً بمعنى أن يكتب الكلمة كما هي في اللغة الأصلية و يزيد على ذلك استنساخها صواتمياً بحروف اللغة الهدف بغية تسهيل قرائتها أو لتنبيه القارئ بأنّ الأمر يتعلق بكلمة أجنبية مقترضة تنتمي إلى ثقافة أخرى. كما قد تكون الغاية القصوى من ذلك أيضاً، لدى الكثير من المترجمين، إيهام القارئ بأنّ الكلمة الأجنبية –و بعد أن استنسخت صواتمياً– أصبحت تنتمي حصرياً إلى اللغة الهدف، و هو ما طعنت فيه العديد من الآراء و وجهات النظر في علم الترجمة عموماً. و يرى بعض الدارسين أنّ التعريب (arabization) اسم شامل يضم في جعبته الاستنساخ الصواتمي (transliteration)، أي أنّ هذا الأخير يعتبر أحد أنواع التعريب و أشكاله المختلفة. غير أنّ التعريب يراعي الكثير من المقتضيات مثل اختصاصه بالمصطلحات التقنية، و الطرق التي يقوم عليها، و الاعتماد على الدرس اللغوي التراثي بخاصة، و السهر على توحيد التداول بما يعرّب في اللغة عبر كافة بلدان القطر الواحد لكي يصبح عرفاً لغوياً متبعاً، من دون أن ننسى أنّ من يقوم بالتعريب عامة هي المؤسسات و الهيئات الأكاديمية المعتمدة مثل مجمع اللغة العربية. و بعيداً عن كل هذا الزخم في المفاهيم و المقاربات التي يعج بها هذا الموضوع، و كذلك الآراء و الآراء المخالفة فيه، سنقول أنّ التعريب الذي نحن بصدد الحديث عنه و الذي وظفه إحسان عباس في ترجمته قام على أسس محددة أرادها صاحبها للقيام بوظيفة واحدة فقط: محو كل غريب و دفع القارئ إلى المؤانسة بنص الترجمة و كأنّه نص كتب في الأصل باللغة العربية و لم يترجم إليها. و بالعودة إلى هذا المثال، نجد أنّ المترجم وظف كلمة (القاطوس) –كتعريب لكلمتي (Ketos) اليونانية (ق و ط س) و (Cetus) اللاتينية (ق ي ط س)– الموجودة في قاموس اللغة العربية لكنها قليلة الشيوع فيها، و كأنّه يريد إحياء التراث اللغوي العربي من خلال استحضار ما تباعدنا عنه في لغتنا تداولاً إلى حد قد يعتبره البعض غريباً. بيدأنّ هذا التعريب قد وجد في اللغة العربية موطأ قدم جاء ليزكي انتخاب المترجم و يضفي عليه شفافية و مصداقية أكثر، و هو ما يتضح جلياً مع كلمتي (بليّن) بتشديد الياء (التي تقابل كلمة (Baleine) الفرنسية) و (بليّنة) العربية بتشديد الياء أيضاً (التي تقابل كلمة (Ballena) الاسبانية)، و التي عرفها أهل الأندلس بالتسمية نفسها. ينطبق ذلك أيضاً على كلمة (whale) الأجنبية التي عرفت عند العرب في مصادرهم القديمة بأشكال مختلفة هي (الفال)، و (الوال)، و (الاوال)، و (الافال).

– قول الكاتب

“And what thing soever besides cometh within the chaos of this monster’s mouth, be it beast, boat, or stone, down it goes all incontinently that foul great swallow of his, and perisheth in the bottomless gulf of his paunch.”

Holland’s Plutarch’s Morals. (p11).

– و ترجمتها بـ (و أيما شيء اقترب من واقوصة [1] فكّي ذلك الوحش، سواء أكان حيواناً أم قارباً أم صخرة، انحدر في تلك "البالوعة" الوبيلة المنهومة، و تلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار) (الفقرة 31 من كتاب الأخلاق

لفلوطارخس) (ص13).

([1] الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاووصة) و معناها الهوة، و قد عرفها العرب بهذا الاسم، و بها سمي المكان) (الهامش) (ص13).

لم يلجأ المترجم هنا إلى استنساخ كلمة (chaos) صواتمياً إلى اللغة العربية، بل أخذ يبحث عن كلمة موجودة أصلاً في اللغة العربية يراد بها المعنى ذاته. يتمثل هذا الاختيار في كلمة (واقوصة) التي و على الرغم من كونها كلمة موجودة في قاموس اللغة العربية، إلاّ أنّ التداول بها ليس متواتراً. ذلك ربما ما أراده المترجم من خلال هذه التوظيفات في أن يعيد إحياء التداول ببعض الكلمات التي كانت كذلك في السابق، و هو ما يمكن اعتباره إثراء للغة العربية و إغناء لرصيدها المعجمي بشكل أو بآخر.

– قول الكاتب

"Touching that monstrous bulk of the whale or ork we have received nothing certain. They grow exceeding fat, insomuch that an incredible quantity of oil will be extracted out of one whale." *Ibid "History of Life and Death."* (p12).

– و ترجمتها بـ (أما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان أو الأرخ[2] فليس لدينا شيء يقيني، و لكنها تطبق شحماً حتى أن كمية الدهن التي تستخرج من حوت واحد تفوق حدَّ التصديق).

(بيكون في "تاريخ الحياة و الموت") (ص14).

([2] في الأصل ork و صوابها orc و هي من اللاتينية orca و تعني الحوت أو الفرمبوز أو ما يشبهه) (الهامش) (ص14).

قام المترجم هنا بتعريب كلمة (ork) (أو orc) إلى (الأرخ) التي قال بأنّها تعني الحوت أو الفرمبوز أو ما يشبهه. لكنه لم يذكر إن كانت هذه الكلمة قد وجدت في قاموس اللغة العربية، و هو ما يقودنا إلى تعريب من نوع آخر انتهجه المترجم مراراً في ترجمته غير ذاك الأول، ألا و هو الاجتهاد الشخصي الذي يقوم في الكثير من الأحيان على إعطاء مكافئ للكلمة الأجنبية يجيء على نحو معرّب هو من صنيعه دفعاً للمنحى التدجيني و تزكية لبعد التسليس الذي يرتكز عليه من دون أن يعتبر أنّه ثمة أي ضرر في ذلك.

– قول الكاتب

"Like Spencer's Talus with his modern flail
He threatens ruin with his ponderous tail.
* * * * *
Their fixed jav'lins in his side he wears,
And on his back a grove of pikes appears."

Waller's Battle of the Summer Islands. (p13).

– و ترجمتها بـ

(كأنّه طالوس ذو "الفَلَقة" [1] الحديثة، الذي ذكره سبنسر،

ينذر بالويل و الثبور بذيله المهول.

و هو يحمل في جنبه حرابهم المثبتة

و على ظهره تبدو غابة من أسنّة).

(معركة جزائر سومر لادمند والر – النشيد الثالث) (ص15).

([1] الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum و تعني في الأصل "السوط") (الهامش) (ص15).

ثمة هنا تعريب لكلمتين اثنتين هما (Talus) التي تقابلها (طالوس)، و (الفلقة) القريبة من (flail) الانجليزية، بل من أصلها اللاتيني (flagellum). و إن كان المترجم قد أتى على ذكر كلمة (flail) و معناها فإنّه لم يذكر أية خلفية تداولية للفظة المعرّبة المتمثلة في كلمة (الفلقة) في اللغة المنقول إليها، و هو ما ينطبق أيضاً على كلمة (طالوس) التي لا وجود لما يمت بصلة إلى تعريبها تأصيلاً و تحقيقاً.

– قول الكاتب

"[…] ENGLISH SAILOR.

Blood! But that old man's a grand old cove! We are the lads to hunt him up his whale!

ALL.

Aye! aye! […]" (p193).

– و ترجمتها بـ

([…] البحار الانجليزي:

دم ! هذا الشيخ كاجار [1] عجوز. نحن الفتيان الذين سنصيد له الحوت !

الجميع: نعم. نعم. […]) (ص296).

([1] كاجار: Cajar شحاذ مكدَّ، و قد استعملها الجاحظ في البخلاء) (الهامش) (ص296).

قام المترجم في هذا المثال بنقل الكلمة العامية المهجورة (cove) –التي تعني في هذا السياق الرجل التافه– إلى الكلمة المعرّبة عن الاسبانية (cajar) التي قال بأنّها تعني شحاذ مكدَّ. و نفهم من الحوار أنّ استخدام كلمة (cove) أخذ صبغة تحقيرية و ازدرائية (pejorative) بسبب أنّ البحار الانجليزي قد نعت الشيخ العجوز بالرجل التافه الذي لا يقوى على اصطياد حوت. و عليه يكون نقلها إلى (شحاذ مكدَّ) –أي المستعط و المتسوّل الملحّ– قد أبان عن النظرة التقزيمية التي حملتها نبرة المتحدث (ما يلغي فرضية أنّ كلمة (شحاذ) قد تعني هنا من يقوم بشحذ السكاكين و المناشير و نحوها

(أي السنّان)، و أنّ كلمة (المكدَّ) تعني المشط). و قد رأى المترجم أنّه و بما أنّ الجاحظ قبله قد استخدم كلمة (كاجار) في مؤلفه (البخلاء) فإنّه ليس ثمة ضير من أن يوظفها في ترجمته على الرغم من قلة شيوعها في اللغة العربية لأنّ ما يهمه سلاسة نص الترجمة و التخلص من كل غرابة حتى و إن اقتضى الأمر اللجوء إلى الكلمات الغريبة.

- قول الكاتب

"[…] "Caramba! have done, shipmate, will ye? It's the three soaked biscuits ye eat for supper turning over inside of ye—nothing else. Lokk to the bucket!" […]" (p218).

- و ترجمتها بـ ([…] قرنبي [1] ! كفاك يا رفيق، بالله ! هذه هي البقسماطات الثلاث المنقوعة التي أكلتها في العشاء تتقلب في جوفك – لا غير. انتبه للدلو ! […]) (ص330).

([1] كلمة اسبانية تدل على الشعور بالمفاجأة أو الاشمئزاز) (الهامش) (ص330).

يأتي الدور بعد كلمة (كاجار) –المعرّبة عن الاسبانية (cajar)– على الكلمة الاسبانية الأخرى (caramba) التي تدل على التعجب أو الاشمئزاز. و قد قام المترجم بتعريب هذه الكلمة إلى (قرنبي) موظفاً إيّاها لنقل امتعاض كباكو Cabaco من إصرار آرشي Archy أنّه سمع صوتاً ما –الذي بدا بأنّه سعال شخص أو شخصين– قادماً من العنابر. و لا يشير المترجم إلى أدنى معلومة تخص تعريبه لهذه الكلمة، أو مسألة وجودها و التداول بها في اللغة العربية من عدمه. و ثمة في هذه الترجمة أيضاً كلمة أخرى يبدو بأنّ المترجم أعطاها صبغة عربية صرفة. هذه الكلمة هي (بقسماطات) التي تقابل لفظة (biscuits) ما يضعنا أمام نوع من التوليد المعجمي أراد به المترجم خدمة ميله التدجيني من جهة و إثراء اللغة العربية من جهة أخرى.

- قول الكاتب

"THE GAM." (p264).

- و ترجمتها بـ

(الجمة [1]) (ص393).

([1] The Gam، و قد استعملت لفظة "الجمة" في مقابلها للمشابهة و لأن اللفظة العربية تحمل معاني التجمع و الارتياح، و هي أيضاً من ألفاظ البحريين فجمة المركب البحري هي الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح من حزوزه، عربية فصيحة، كذا جاء في اللسان) (الهامش) (ص393).

لقد قام المترجم بنقل كلمة (The Gam) الانجليزية إلى (الجمة). و يعني اسم (Gam) في اللغة الانجليزية –كما يقول ملفل Melville– اجتماع ودي بين حواتتين أو أكثر الذي يكون غالباً في مجالات التطواف. و يقوم بحارة كلتا الحواتتين بتبادل الزيارات فيما بينهم. كما يشير ملفل إلى أنّ كلمة (Gam) لم ترد في القواميس و المعاجم اللغوية

الانجليزية آنذاك، لكن استعمالها أخذ في التوسع خاصة عند أولئك الذين عرفوا البحر و خبروه ما دفعه إلى تزويد القارئ الانجليزي بشرح لماهيتها. و بما أنّ لفظة (الجمة) العربية تحمل معاني التجمع و الارتياح، و تدل على الأحاديث الطريفة و الدعابات الظريفة التي تكون على شاطئ البحر، و بما أنّها أيضاً من ألفاظ البحارة إذ تحيل على الموضع الذي يتجمع فيه الماء الراشح من حزوز السفينة، قام المترجم بتوظيفها للمشابهة بينها و بين (Gam) الانجليزية بسبب أنّ كلتا اللفظتين موجودتين في اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، و تنتميان إلى الحقل نفسه مع تقاطع في دلالتهما. هذه المشابهة التي أرادها المترجم على المستويين النسخي و الدلالي –لكون أنّ كلمة (الجمة) تبدو كما لو أنّها عربت إلى اللغة العربية– سعى من خلالها إلى تدجين هذه اللفظة الأجنبية بلفظة موجودة أصلاً في اللغة المنقول إليها لكنها قليلة الشيوع فيها. ليكون المترجم بذلك قد استحضر كلمة و أعاد تذكير القارئ بما نسيه أو تناساه في لغته الأم.

– قول الكاتب

“Those rocky islands the ship had passed were the resort of great numbers of seals, and some young seals that had lost their dams, or some dams that had lost their cubs, must have risen nigh the ship and kept company with her, crying and sobbing with their human sort of wail” […]” (p577-578).

– و ترجمتها بـ (تلك الجزر الصخرية التي مرت بها السفينة هي ملاذ عدد كبير من حيوان الصيل [1]، و بعض افراد الصيل الصغار الذين فقدوا امهاتهم أو الامهات اللواتي ثكلن صغارهن قد اقتربن و لا بد من السفينة و ظللن يرافقنها معولات نائحات على نحوٍ شبيه باعوال بني الانسان و نواحهم […]) (ص826).

([1] Seal) (الهامش) (ص826).

اقترح المترجم أحياناً كثيرة ترجمات لبعض الكلم كما لو أنّه قد قام بتعريبها، من بينها كلمة (الصيل) التي تقابل لفظة (seal) الانجليزية. و لا يزود هذا الأخير القارئ بأي تفسير عن اختياره ذاك، بل يريد أن يدفعه إلى الاعتقاد بأنّها كلمة موجودة سلفاً في قاموس اللغة العربية و متداولة فيها أيضاً. يمنح هذا التعريب المعتمد من قبل المترجم الكلمات المعرّبة شكلاً و صوتاً عربيين خالصين، إذ لن يعدها القراء بعد ذلك كلمات أجنبية أو دخيلة، و هو ما يعتبر تدجيناً للقارئ و تسليساً للغة المفضية إليه.

– قول الكاتب

“[…] “Here he this instant stood; I stand in his air,—but I’m alone. Now were even poor Pip here I could endure it, but he’s missing. Pip! Pip! Ding, dong, ding! Who’s seen Pip? He must be up here; let’s try the door. What? neither lock, nor bolt, nor bar; and yet there’s no opening it. It must be the spell; he told me to stay here: Aye, and told me this screwed chair was mine. Here, then, I’ll seat me, against the transom, in

the ship's full middle, all her keel and her three masts before me. Here, our old sailors say, in their black seventy-fours great admirals sometimes sit at table, and lord it over rows of captains and lieutenants. Ha! what's this? epaulets! epaulets! the epaulets all come crowding! Pass round the decanters; glad to see ye; fill up, monsieurs! What an odd feeling, now, when a black boy's host to white men with gold lace upon their coats! […]" (p588-589).

- و ترجمتها بـ ([...] هنا وقف في هذه اللحظة. انا اتخذ مثل هيئته – غير اني وحدي، لو كان بيب المسكين هنا لتحملت ذلك و لكنه فقد. بيب ! بيب ! دن ! رن ! دن ! من رأى بيب؟ أظنه في الاعلى، لأجرب الباب. ماذا؟ لا قفل، لا مزلاج، لا عارضة، ثم لا يفتح. لا بد انه الحلقة السحرية. أمرني ان أمكث هنا، أجل و قال ان هذا الكرسي المثبت بالقلاووظ لي. ها هنا، أجلس إذن قبالة الطرنسوم في منتصف السفينة عينه و أمامي كل أرينتها و صواريها الثلاثة. ها هنا فيما يحدثنا ملاحونا الشيوخ يجلس امراء البحر العظام احياناً الى المائدة في مراكبهم السود المزودة بـ 74 مدفعاً و يتزعمون على المائدة و من دونهم صفوف من القباطنة و النواب. ها ! ما هذه اسبليطات؟ اسبليطات[1] ؟ انها تجيء محتشدة ! أديروا القناني، يسرني ان أراك، املأوا الكؤوس يا سادة ! اي شعور غريب ينتابني حين يكون غلام اسود مضيافاً لرجال بيض يلبسون الاشرطة الذهبية فوق معاطفهم ! [...]) (ص842).

([1] الاسبليطة: رمانة مقصبة فوق كتف السترة العسكرية) (الهامش) (ص842).

قام المترجم في هذا المثال بتعريب الكلمة الانجليزية (epaulets) إلى (اسبليطات) التي مفردها (اسبليطة). و تعني (الاسبليطة)، كما ذُكر في الهامش، الرمانة المقصبة التي توضع فوق كتف السترة العسكرية؛ ليكون بذلك قد فتح الباب على مصرعيه أمام هذه الكلمة ليتداولها آخرون في اللغة العربية من خلال كتابتها على نحو عربي لا يلفت انتباه القراء بخلاف استنساخها صواتمياً إلى (ايبولت) التي ستثير حولها شكوك القارئ و حفيظته لكونها كلمة أجنبية كتبت بحروف اللغة العربية. أما قرائتها على هذا النحو (اسبليطة) فلا يعدو أن يكون قراءة لكلمة عربية في معناها و مبناها كغيرها من الكلمات العربية الأخرى؛ ليشكل ذلك تدجيناً لغوياً الذي يعتبر أبرز أنواع الاستراتيجيات التدجينية التي وظفها إحسان عباس في نقل هذه الرواية على الإطلاق.

14. الترجمة اللّسنية (idiomatic translation)

- قول الكاتب

"It will be seen that this mere painstaking burrower and gub-worm of a poor devil of a Sub-Sub appears to have gone through the long Vaticans and Street-stalls of the earth, picking up whatever random allusions to whales he could anyways find in any book whatsoever, sacred or profane […]" (9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ (سترون، أيها القراء، أنّ هذا الحفار النقّاب، أنّ تلك الأرضة النفاذة التي أسميها مساعد الخازن المساعد، قد تغلغل في أقبية المكتبات و سراديبها الطويلة، ملتقطاً الاشارات المتناثرة إلى الحيتان أيّان وجدها، من كتب دينية أو دنيوية [...]) (ص11).

– و قوله

"Oh, the rare old Whale, mid storm and gale
In his ocean home will be […]".

Whale Song. (p23).

– و ترجمتها بـ

(آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف و النكباء ،

يظل في بيته في الماء [...]).

(أغنية الحواتين) (ص28).

– و قوله

"[…] though by no law of propriety that I ever heard of, is any man required to be private when putting on his boots. But Queequeg, do you see, was a creature in the transition state—neither caterpillar nor butterfly […]" (p31).

– و ترجمتها بـ ([...] لم أسمع بقانون من قوانين الاحتشام يتطلب من المرء أن ينزوي عن أعين الناس حين يلبس حذاءه؛ إلاّ أنّ كويكوج –كما ترى– كان مخلوقاً في مرحلة انتقالية: لا هو شرنقة و لا هو فراشة [1][...]) (ص67).

– و قوله

"ALL ASTIR." (p106).

– و ترجمتها بـ

(كل شيء على قدم و ساق) (ص169).

– و قوله

"Bethink thee of the albatross, whence come those clouds of spiritual wonderment and pale dread, in which that white phantom sails in all imaginations? Not Coleridge first threw that spell; but God's great, unflattering laureate, Nature.*" (p209).

– و ترجمتها بـ (و فكّر في طير الفطرس من أين جاءت سحب الدهشة الروحية و الرعب الشاحب التي يبحر فيها ذلك الشبح الأبيض في الأخيلة جميعاً. لم يكن كولردج أول من ألقى تلك الرقية السحرية. أول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي لا يشاري و لا يماري أعني الطبيعة *) (ص318).

– و قوله

"[…] However curious it may seem for an oil-ship to be borrowing oil on the whale-ground, and however much it may invertedly contradict the old proverb about carrying coals to Newcastle, yet sometimes such a thing really happens; and in the present case Captain Derick De Deer did indubitably conduct a lamp-feeder as Flask did declare." (p390).

– و ترجمتها بـ ([…] قد يبدو غريباً أن تستمدَّ سفينة زيت زيتاً في مجال من مجالات التحويت، و مهما يناقض هذا الوضع المثل القديم القائل: "كناقل التمر إلى هجر – و الفحم إلى نيوكاسل"، فإنّه أمر يحدث أحياناً؛ و كان القبطان دريك دي دير في تلك الحال يحمل دون جدال جهاز تزييت كما قال فلاسك) (ص564).

يوظف المترجم هنا تدجين من نوع آخر و المتمثل في الترجمة اللّسنية (idioamtic translation). و نقصد بالترجمة اللّسنية الطريقة الترجمية التي تُعنى بنقل شتى صنوف (العبارات الثابتة) (fixed expressions) (أو العبارات المسكوكة (expressions figées (ou locutions figée, figurées). و بإمكاننا أن نعرّف هذا النوع من العبارات بأنّها تلك التي لا يمكن أن يُستدل على معناها من خلال معاني الكلمات المكوّنة لها، بحيث أنّ معنى كلمها لا يتدخل في فهم التعبير المسكوك لكونها مرتبطة بمعنى واحد لا يتغير. و تسمى بالعبارات الثابتة لأنّها تتميّز بالثبات (أو الجمود) (fixedness)، ناهيك عن عدم القدرة على التنبؤ بمعناها عبر تجميع معاني أجزائها و السبب أنّ معناها متواضع عليه (conventionalized) لدى المجموعة البشرية المتكلمة بهذه اللغة. و هذا الثبات (أو الجمود) المعبر عنه باللّسنية (idiomaticity) (أو التعابيرية phraseology) يسم هذا النوع من التعابير بمظهرين اثنين: يكمن الأول في عدم إمكانية الاستبدال المعجمي، إذ لا يمكن استخلاف عنصر معجمي بآخر لتميّز هذه التعابير بالتلازم اللفظي المحدود؛ و يتمثل الثاني في عدم قابليتها للتغيرات النحوية و الصرفية مثل التعريف و التنكير، و التقديم و التأخير و غيرها. و قد ارتأى المترجم أن لا ينقل ما ورد في هذه الأمثلة من تعابير لسنية (idiomatic) بصيغ غير لسنية (unidiomatic)، بل بما يقابلها من النوع نفسه في اللغة المنقول إليها. يتمثل التعبير الأول في قوله (دينية أو دنيوية) (ديني أو دنيوي)، و هي متلازمة لفظية (a collocation) تقابل المتلازمة اللفظية الانجليزية (sacred or profane) التي تفيد التقابل الموجود بين ما هو مقدس (أي ما هو رباني مبجل) و ما هو دنيوي صرف (الذي غالباً ما يوصف بالعبثي). و ستؤدي أية محاولة لتعويض إحدى هاتين الكلمتين بمرادف من مرادفاتهما إلى شتات معنى هذه المتلازمة اللّسني و ضياعه. أما التعبير الثاني فيتمثل في المتلازمة اللفظية (بين العاصف و النكباء) التي تقابل التعبير اللّسني الانجليزي (mid storm and gale). و توظف هذه العبارة في اللغة الانجليزية للحديث عن معايشة المواقف الصعبة التي يشتد فيها البأس و يعظم فيها الخطب، بحيث تعني كلمة (storm) العاصفة القوية، و كلمة (gale) الريح الشديدة التي

تكون بين 45 و 90 عقدة في الساعة. و قد جاءت ترجمتها العربية لتعبر عن الحقيقة نفسها، فعبارة (بين العاصف و النكباء) توظف هي الأخرى مجازاً للدلالة على الإبتلاءات العظيمة و الآلاء الجسيمة التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته. و كلمة (العاصف) في اللغة العربية اسم للريح الشديدة، أما (النكباء) فهي الريح التي تقع بين ريحين.

أما المتلازمة اللفظية في الترجمة الموالية فهي قول المؤلف (neither caterpillar nor butterfly) الذي يقابله قول المترجم (لا هو شرنقة و لا هو فراشة). و يدل هذا التعبير اللّسني على حالة من التحول (metamorphosis) من وضع إلى آخر من دون أن يعرف المرء ما سيؤول إليه الأمر في الأخير. و قد وظف ملفل Melville هذه العبارة عند حديثه عن كويكوج Queequeg الوثني الذي بدا في بعض المرات متحضراً و في بعض المرات متوحشاً، و ذلك عندما نهض من نومه و بدأ يتأهب للخروج، و كيف راح ملفل يقارن بين عاداته الوثنية المتوحشة في تأهبه ذاك و العادات المسيحية. حتى أنّ كويكوج قد توارى عن أعين صاحبه اسماعيل Ishmael ليلبس حذاءه ثم اعتمر قبعته و وقف عند المرآة عارياً، فطلب منه اسماعيل أن يلبس سرواله حتى لا يراه أحد من النافذة المقابلة. هذه الحالة إذن من الإنفصام بين الوحشية (savagery) و التحضر (civilization) هي التي دفعت بملفل أن يسوق هذا التعبير اللّسني الذي نقله إحسان عباس بما يكافؤه في اللغة المنقول إليها أولاً من ناحية المعنى (meaning) ثم من ناحية الأثر (effect).

و يكمن التعبير اللّسني التالي في قول المترجم (على قدم و ساق) الذي يقابل (ALL ASTIR) الانجليزي. و للصفة (astir) في اللغة الانجليزية معنيين رئيسين: يكمن الأول في التعبير عن كل حالة يكتنفها النشاط و الحيوية، و الثاني الاستيقاظ و القيام من فراش النوم. و بما أنّ عبارة (ALL ASTIR) –عنوان الفصل العشرين– قد استخدمها ملفل Melville لرصد استعداد طاقم الباقوطة و انهماكه في التحضير للرحلة القادمة عبر التزود بكل ما يلزمه من أطعمة و أفرشة و معدات و وسائل في مشهد مفعم بالحركة و النشاط، و الغدو و الرواح من السفينة و إليها فإنّ الترجمة جاءت مصورة للمشهد ذاته عبر انتخاب متلازمة لفظية في اللغة العربية هي (على قدم و ساق) التي تُعنى حصرياً بمثل هذه المواقف التي تنبض بالكد و الجد و لا ينضبان منها أبداً.

ثم وظف المترجم المتلازمة اللفظية (لا يشاري و لا يماري) التي تقابل (unflattering laureate) الانجليزية. و لفظة (يشاري) (من استشرى) تعني في اللغة العربية التمادي في الغي و الفساد و الملاجة. أما كلمة (يماري) (من المماراة) فتعني الشك في الشيء و المجادلة فيه. و قد عرف العرب هذا المقول قديماً، بحيث وصف النبي صلى الله عليه و سلم مخالطه أبو عبد الله بن السائب المخزومي (أو أبو السائب بن صيفي المخزومي) بأن قال «نعم الخليط كان أبو

السائب لا يشاري و لا يماري»[*] و لا يداري. و قد تحدث اللّغويون و المفسرون عن معاني أخرى لهاتين الكلمتين، منها أنّ (يشاري) (أي لا يشاري) من الشر، و (يماري) (أي لا يماري) لا يخاصم في شيء ليس له، و (يداري) (أي لا يداري) لا يدفع ذا الحق عن حقه. و تعني الكلمة الأولى من المتلازمة اللفظية الانجليزية (unflattering) أن نجعل شخصاً أو شيئاً ما يبدو قبيحاً و غير جذاب. أما (laureate) فتطلق على كل شخص متفوق حائز على جائزة ما (خاصة جائزة نوبل Nobel Prize). و بالنسبة للدلالة المجازية لذات العبارة فتدور في فلك عدم التباهي و التفاخر بل التواضع في الأحوال كلها، و هو ما يعني أنّ كلتا المتلازمتين اللفظيتين في اللغتين المنقول منها و المنقول إليها تلتقيان عند المقصدية الأولى التي أرادها المؤلف من كلامه، و الذي خص بالذكر هنا الطبيعة (nature) التي خلقها الله عز و جلّ، و التي لا يقدر أحد على مجاراتها أو الوقوف كندٍ لها أو الاتيان بمثل صنائعها لتجلي قدرته تعالى و دلائل إعجازه فيها، و هي بعد كل ذلك تلين للإنسان و تخضع لرغباته حباً لا طواعية.

و يتمثل التعبير اللّسني الأخير في المثل الانجليزي (carrying coals to Newcastle) الذي نقله المترجم إلى (كناقل التمر إلى هجر). و يُضرب هذا المثل الانجليزي في وضع الشيء في غير موضعه (كأن نهبه إلى شخص يحوزه بكثرة، أو إلى مكان يتوافر به بغزارة). و بغية أن نفهم معنى هذا المثل ينبغي أن نكون مطلعين على ما كانت عليه مدينة نيوكاسل Newcastle –التي تقع شمال انجلترا– في سابق عهدها، فقد كانت تحوي الكثير من مناجم الفحم الذي كان

(*)(أخرجه الخطيب من طريق الزبير بن أبي بكر [بكار]، قال حدثني أبو ضمرة أنس بن عياض عن أبي السائب المخزومي قال: كان جدي في الجاهلية يُكنى أبا السائب، و به اكتنيت، و كان خليطاً لرسول الله في الجاهلية، و كان رسول الله إذا ذكره في الإسلام قال: « نعم الخليط كان أبو السائب لا يشاري و لا يماري ». و سنده صحيح.

و أخرج أبو داود من حديث إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن قائد السائب عن السائب قال: أتيت النبي فجعلوا يثنون علي و يذكروني فقال رسول الله: « أنا أعلمكم – يعني به – قلت: صدقت بأبي أنت و أمي، كنت شريكي فنعم الشريك كنت لا تداري و لا تماري ».

و أخرج ابن ماجه من طريق سفيان عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن قائد أبي السائب عن السائب قال للنبي: « كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك كنت لا تداريني و لا تماريني ». [...]

و أخرج أحمد أيضاً عن روح ثنا سيف قال: سمعت مجاهداً يقول: كان السائب بن أبي السائب العابدي شريك رسول الله في الجاهلية، قال فجاء النبي يوم فتح مكة فقال: « بأبي و أمي لا تداري و لا تماري ».

و أخرج أحمد أيضاً من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن السائب بن أبي السائب أنه كان يشارك رسول الله قبل الإسلام في التجارة، فلما كان يوم الفتح جاءه فقال النبي: « مرحباً بأخي و شريكي، كان لا يداري و لا يماري، يا سائب، قد كنت تعمل أعمالاً في الجاهلية لا تقبل منك، و هي اليوم تقبل منك »، و كان ذا سلف و صلة.

و هذه الروايات بينها تضارب لا يخفى، لخصه الحافظ ابن عبد البر بقوله: « الحديث فيمن كان شريك رسول الله من هؤلاء مضطرب جداً، منهم من يجعل الشركة مع رسول الله للسائب بن أبي السائب، و منهم من يجعلها لأبي السائب أبيه كما ذكرنا عن الزبير ههنا، و منهم من يجعلها لقيس بن السائب، و منهم من يجعلها لعبد الله بن السائب و هذا اضطراب لا يثبت به شيء، و لا يقوم به حجة، و السائب بن أبي السائب من جملة المؤلفة قلوبهم، و ممن حسن إسلامه منهم ».

(ينظر عبد الله بن سعاف اللّحياني، تخريج أحاديث زهر الآداب للحصري، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 126، السنة 37، المدينة المنورة، 1425هـ، ص104).

يشحن منها و يوزع على ربوع بريطانيا كلها. و هو ما يعنيه هذا المثل: ترى كيف يعقل أن نزود نيوكاسل بالفحم و هي منطقة إنتاجه الأولى؟ و قد جاء توظيف هذا المثل في سياق حديث ملفل Melville عن زيارة قبطان ألماني للباقوطة يدعى دريك Derick الذي جاء ليطلب بعض زيت الحوت للإنارة بعد أن نفذ كل ما كان بحوزته، و هو الذي بقي و رجاله من دون هذه المادة الحيوية لأيام إلى أن لمحوا الباقوطة فنزل بزورقه و ذهب إليها ليجلب بعضاً منه. و قد شبّه ملفل حال هذه الحواتة المختصة في صيد الحوت –الذي يُستخرج منه زيت الإنارة– بأنّ طلبها للزيت هو كحال من ينقل الفحم إلى نيوكاسل، أي أنّ حتى حواتة الزيت قد تستجدي زيتاً مثلما قد تستجدي نيوكاسل فحماً. و قد استخدم إحسان عباس القول العربي المأثور (كناقل التمر إلى هَجَرَ) الذي استشهد به الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إحدى كتبه التي بعثها إلى معاوية بن أبي سفيان(*). و (هَجَرَ) أرض في إقليم البحرين شرق الجزيرة العربية –تعرف اليوم بـ (الأحساء)– اشتهرت بكثرة إنتاجها للتمر. و قد وفق المترجم في نقل المثل الانجليزي بما يقابله في اللغة العربية مع الأخذ بعين الاعتبار جميع الخلفيات المصاحبة له. كما نجد أنّه قد زاد على المقول العربي (كناقل التمر إلى هَجَرَ) قوله (و الفحم لنيوكاسل) إما تلاعباً بالجملة عبر المقابلة بين المعنيين، أو لتوكيد المعنى عبر استحضار المثل الانجليزي في الترجمة العربية.

2. استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies)

1. الاستنساخ الصواتي(**) (transliteration)

لقد قام المترجم باستنساخ العديد من الكلمات الانجليزية صواتياً إلى اللغة العربية، و هي استراتيجية موظفة بكثرة في هذه الرواية. و قد يظن الكثير من المترجمين أنّ كتابة الأسماء الأجنبية كما نسمعها بحروف اللغة العربية (transliteration) من شأنها أن تضفي عليها صبغة محلية، بل على العكس من ذلك تماماً لا يزيد الاستنساخ الصواتي الكلمات المكتوبة

(*)(أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه و آله لدينه، و تأييده إياهُ لمن أيّدهُ من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا، و نعمته علينا في نبيّنا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده على النَّضَال).

(ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ط1، المجلد الثامن (15–16)، 1428هـ–2007م، ص113).

(**)ينبغي علينا أن نميّز بين الكتابة الصوتية (Transcription (phonétique)-(phonetic) Transcription) –التي تعتبر الوسيلة الكتابية التي تميز الحركات، و التي تستعمل الأبجدية الصوتية الدولية. و تكتب الكتابة الصوتية بين قوسين معقوفين هكذا [ ]. و يظهر الألوفون و عليه علامات تدل على بعض سماته الثانوية مثل الهمس و الجهر و التغوير و الإطباق و التطويل و التأنيف و الهائية و الانحباس و التدوير– و بين النقل الحرفي (Translittération-Transliteration) الذي يعني أن نكتب لغة ما بحروف لغة ثانية، إذ تستخدم رموز مختلفة كالحروف اللاتينية التي يستخدمها المستشرقون لكتابة اللغة العربية. و قد ارتأينا أن يكون الاستنساخ الصواتي بديلاً عن النقل الحرفي بسبب أنه يحقق القصدين: الاستنساخ (بمعنى كتابة الحرف الأجنبي بما يقابله من حروف اللغة الأخرى) و الصواتي (بمعنى الصوتي) لأنّ الحروف المكتوبة على هذا النحو دائماً ما تحافظ على جوهرها الصوتي، كما أننا نتفادى تسمية (النقل الحرفي) الذي قد يتداخل مفهومه مع نمط من أنماط الترجمة و نوع من أنواعها (الترجمة الحرفية–literal translation).

(ينظر: محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط1، 1402هـ–1982م، ص137–138؛ مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية فرنسي–إنكليزي–عربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص292–293).

على هذا النحو إلاّ غرابة و القارئ إلا تغريباً. و سيعد ذلك في أفضل الحالات "تعريباً للشكل الصوتي لا للمعنى أو المضمون"[1].

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY

_____

"While you take in hand to School others, and to teach them by what name a whale-fish is to be called in our tongue, leaving out, through ignorance, the letter H, which almost alone maketh up the signification of the word, you deliver that which is not true.") *Hackluyt.*

– و ترجمتها بـ (حين تعين الآخرين على أن يتعلموا، و تلقنهم اسم الحوت في لغتنا، مسقطاً –بطريق الجهل– من اسمه حرف «هـ» H، و هو الحرف الذي يمنح الكلمة مغزاها، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب).

(هكليوت) (ص9).

يبدأ المترجم في توظيف هذه الاستراتيجية مع الاسم الأجنبي (Hackluyt) الذي أصبح (هكليوت) في اللغة العربية. ثم في الفقرة الموالية عندما يعطي الكاتب معاني كلمة (whale) في بعض اللغات الأوروبية، بحيث نجد أنّ (WHALE) تقابلها (هويل)، و (hval) السويدية و الدنماركية تقابلها (هوال) العربية، و الفعل (hvalt) بالدنماركية يقابله (هوالت) العربي. حتى أنّ المصدر الذي اقتبست منه هذه التعريفات رسم هو أيضاً بحروف اللغة العربية (قاموس وبستر) (Webster's Dictionary) و ذلك في قوله:

(ETYMOLOGY

_____

"WHALE. * * * Sw. and Dan. *hval*. This animal is named from roundness or rolling; for in Dan. *hvalt* is arched or vaulted. ") *Webster's Dictionary.*

– و ترجمتها بـ (هويل ... و في السويدية و الدنمركية: "هوال" – اسمه مأخوذ من الاستدارة أو التكوّر، لأن الفعل "هوالت" في الدنمركية تعني "تقوس" أو "تقبب").

(قاموس وبستر) (ص9).

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY

_____

"WHALE.* * * It is more immediately from the Dut. and Ger. *Wallen*; A.S. *Walw-ian*, to roll, to wallow.") *Richardson's Dictionary.*

(1)حسن غزالة، ترجمة المصطلحات الأدبية و تعريبها، علامات في النقد الأدبي، المجلد10، الجزء48، ربيع الثاني 1424–يونيو 2003، ص12.

– و ترجمتها بـ (هويل .... اشتقاق مباشر من الهولندية أو الألمانية، ففي الألمانية "ويلن" و الصفة منها "ويليان" تعني "يلتوي" أو "يلتف").

(قاموس رتشاردسن) (ص10).

الشيء نفسه يتكرر مع تعريفات أخرى و مصدر آخر، بحيث يقول الكاتب أنّ كلمة (WHALE) مشتقة من (Wallen) الهولندية و الألمانية، و منها النعت (Walw-ian)، و يقابل هذه الكلمات في اللغة العربية (هويل) و (ويلن) و (ويليان) على التوالي، بما في ذلك المصدر (قاموس رتشاردسن) (Richardson's Dictionary).

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY

[...]

……	*Hebrew.*
…… (KETOS),	*Greek.*
CETUS,	*Latin.*
WHOEL,	*Anglo-Saxon.*
HVALT,	*Danish.*
WAL,	*Dutch.*
HWAL,	*Swedish.*
WHALE,	*Icelandic.*
WHALE,	*English.*
BALEINE,	*French.*
BALLENA,	*Spanish.*
PEKEE-NUEE-NUEE,	*Fegee.*
PEHEE-NUEE-NUEE,	*Erromangoan.*)

– و ترجمتها بـ

(ح ت	بالعبرية
ق و ط س	باليونانية [1]
ق ي ط س	باللاتينية [1]
هُوَيل	بالانجلوسكسونية
هوالت	بالدنمركية
وال	بالهولندية [1]

هوال بالسويدية

هويل بالانجليزية

هويل بالاسلندية

بليّن بالفرنسية

بلّينة بالاسبانية [1]

بيكي–نويه–نويه بالفيجية

بيهي–نويه–نويه بالارومانجونية) (ص10).

يقوم المترجم هنا باستنساخ الكلمات الأجنبية التي تعني الحوت برواسم اللغة العربية، من بينها (WHOEL) الأنجلوسكسونية التي نُقلت إلى (هُوَيل)، و (HWAL) السويدية التي نُقلت هي الأخرى إلى (هوال)، و (WAL) الهولندية التي تقابلها (وال)، و (PEKEE-NUEE-NUEE) الفيجية التي تقابلها (بيكي–نويه–نويه) العربية، و (PEHEE-NUEE-NUEE) الارومانجونية إلى (بيهي–نويه–نويه) العربية.

– قول الكاتب

([…] As touching the ancient authors generally, as well as the poets here appearing, these extracts are solely valuable or entertaining, as affording a glancing bird's eye view of what has been promiscuously said, thought, fancied, and sung of Leviathan, by many nations and generations, including our own) (p9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ ([...] إذ أنّ المقتطفات المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة و عن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، إنما تعد قيّمة أو ممتعة من حيث أنّها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الأمم و الأجيال العديدة –و منها جيلنا– أو تصورّته أو تغنت به –على نحو مختلط– عن "اللوياثان") (ص11).

ثمة ترجمة تغريبية في قوله (اللوياثان) التي استنسخت صواتمياً بحروف اللغة العربية بدلاً من الإبقاء على الاسم الأجنبي (Leviathan) و ذلك بتعريب الصوت لا المعنى أو الدلالة.

– قول الكاتب

([…] For by how much the more pains ye take to please the world, by so much the more shall ye for ever go thankless! Would that I could clear out Hampton Court and the Tuileries for ye! […]) (p9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ ([...] كلما ازددتم كدّاً لارضاء هذا العالم، زاد ما تلقونه من البخس و نكران الجميل أبداً. لتمنيت أنني أستطيع أن أوطنكم هامبتون كورت أو التويلري [1] بعد أن أخليهما ممن يحلهما […]) (ص12).

إنّ الطريقتان اللّتان كتب بهما المترجم اسما القصرين إلى اللغة العربية (هامبتون كورت) و (التويلري) تعتبران استنساخاً

صواتمياً (transliteration) لكل من (Hampton Court) و (Tuileries).

– قول الكاتب

"The Indian Sea breedeth the most and the biggest fishes that are: among which the Whales and Whirlpooles called Balaene, take up as much in length as four acres or arpens of land." *Holland's Pliny.* (p11).

– و ترجمتها بـ (و ينتج في البحر الهندي أكثر الأسماك و أكبرها، و من بينها الحيتان و الخطّارات التي تسمى البليّنات و يبلغ الواحد منها في مساحته أربعة أفدنة (640 قدماً مربعاً) أو أربعة أرفينات – و الأرفين 0.84 من الفدان).

(بليني 9/2 :4) (ص13).

ثمة استنساخ صواتمي لاسم (Pliny) الانجليزي الذي ترجم إلى (بليني) في اللغة العربية بكتابة كل حرف انجليزي بما يقابله رسماً و صوتاً.

– قول الكاتب

"He visited this country also with a view of catching horse-whales, which had bones of very great value for their teeth, of which he brought some to the king. * * * The best whales were catched in his own country, of which some were forty-eight, some fifty yards long. He said that he was one of six who had killed sixty in two days."

Other or Octher's verbal narrative taken down from his mouth by King Alfred. A. D. 890. (p12).

– و ترجمتها بـ (و زار هذه البلاد أيضاً ليصيد الحيتان، و لعظامها قيمة بالغة لما فيها من أنياب، و جلب بعضاً منها للملك.... و خير الحيتان يصاد في هذه البلاد، و بعضها يبلغ 48 ياردة في طوله و بعضها يبلغ خمسين، و قال أنه احد ستة صادوا ستين حوتاً في يومين). حديث شفوي جرى على لسان من اسمه ارثر أو أركثر و دونه الملك ألفرد عام 890 ب.م.) (ص13).

نقل المترجم عبارة (king Alfred) إلى (الملك ألفرد)، بحيث ترجمت كلمة (king) بمكافئها اللساني في اللغة العربية (ملك)، أما اسم العلم (Alfred) فاستنسخ بحروف اللغة العربية إلى (ألفرد). و قد وظف الاستنساخ الصواتمي قبل ذلك أيضاً لنقل الاسمين الأجنبيين (Other) و (Octher) ليصبح الأول (ارثر) و الثاني (اركثر).

– قول الكاتب

"And whereas all the other things, whether beast or vessel, that enter into the dreadful gulf of this monster's (whale's) mouth, are immediately lost and swallowed up, the sea-gudgeon retires into it in great security, and there sleeps."

MONTAIGNE. — *Apology for Raimond Sebond* (p12).

– و ترجمتها بـ (كل الأشياء حيوانات كانت أو قوارب، إذا هي دخلت الخليج المخيف الذي يسمى فم الحوت، غربت على التوّ، و أصبحت أثراً بعد عين إلا سمك القوبيون البحري فإنّه يلوذ إلى ذلك الكهف مطمئناً و ينام فيه).

(مونتين – في "دفاع عن ريموند سيبند") (ص13-14).

لقد نقل المترجم اسمي العلم (Montaigne) و (Raimond Sebond) إلى (مونتين) و (ريموند سيبند) باستنساخهما صواتمياً إلى اللغة العربية ما يشكل تعريباً للشكل لا للدلالة أو المعنى.

– قول الكاتب

"Let us fly, let us fly! Old Nick take me if it is not Leviathan described by the noble prophet Moses in the life of patient Job." *Rabelais.* (p12).

– و ترجمتها بـ (لنهرب ! لنهرب ! حاز روحي الشيطان الرجيم إن لم يكن هذا هو اللوياثان الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة أيوب الصبور). (رابليه) (ص14).

يبدو الاستنساخ الصواتمي جلياً في قوله (رابليه) الذي يقابل الاسم الأجنبي (Rabelais).

– قول الكاتب

"The great Leviathan that maketh the seas to seethe like boiling pan."
Lord Bacon's Version of the Psalms. (p12).

– و ترجمتها بـ ([اللوياثان] العظيم الذي يجعل العمق يغلي كالقدر).

(ترجمة اللورد بيكون للمزامير[1]) (ص14).

ثمة استنساخ صواتمي لعبارة (Lord Bacon) الانجليزية التي تقابلها عبارة (اللورد بيكون) المنسوخة بحروف اللغة العربية بدءاً بالمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها هذا الشخص (صفة اللورد Lord) و انتهاءاً باسمه (بيكون) (Bacon).

– قول الكاتب

"The sovereignest thing on earth is parmacetti for an inward bruise."
King Henry. (p13).

– و ترجمتها بـ (خير ما في الأرض لعلاج جرح دخيل هو زيت الحوت).

(الملك هنري الرابع 1:3/57-58) (ص14).

نجد هنا أنّ اسم (Henry) قد استنسخ صواتمياً إلى (هنري) في اللغة العربية، و ذلك بتبديل الحروف الأجنبية بما يقابلها من حروف اللغة العربية.

– قول الكاتب

"Immense as whales, the motion of whose vast bodies can in a peaceful calm trouble

the ocean til it boil."

Sir William Davenant. Preface to Gondibert. (p13).

– و ترجمتها بـ (جسيم كالحيتان التي إذا تحركت أجسامها في البحر الساكن تخبط البحر بها كأنّه يغلي).

(من أقوال السير وليم دافنانت في "مقدمة على جندبرت") (ص15).

يلجأ المترجم إلى استنساخ الأسماء الأجنبية بحروف اللغة العربية، و هو إجراء دأب على توظيفه كثيراً في ترجمة هذه الرواية. و نجد أنّ اسم (William Davenant) يقابله اسم (وليم دافنانت) في اللغة العربية، و اسم (Gondibert) يقابله (جندبرت) العربي. كما أنّه استنسخ قبل ذلك لقب (Sir) إلى (السير) –الذي ينتمي حصرياً إلى اللغة/الثقافة المنقول منها و لا يوجد ما يكافئه في اللغة/الثقافة المنقول إليها– الدال على مكانة هذا الشخص الاجتماعية مثلما كانت عليه الحال آنفاً مع لقب (لورد) (Lord) في العبارة الاسمية (Lord Bacon) (اللورد بيكون).

– قول الكاتب

"Like Spencer's Talus with his modern flail
He threatens ruin with his ponderous tail.
* * * * *
Their fixed jav'lins in his side he wears,
And on his back a grove of pikes appears."

Waller's Battle of the Summer Islands. (p13).

– و ترجمتها بـ

(كأنّه طالوس ذو "الفَلَقة" [1] الحديثة، الذي ذكره سبنسر،

ينذر بالويل و الثبور بذيله المهول.

و هو يحمل في جنبه حرابهم المثبتة

و على ظهره تبدو غابة من أسنّة).

(معركة جزائر سومر لادمند والر – النشيد الثالث) (ص15).

ثمة هنا استنساخ صوامتي للعديد من الكلمات الأجنبية إلى اللغة العربية، و هي (Spencer) التي تقابلها (سبنسر)، و (Summer) إلى (سومر)، و (والر) التي تقابل (Waller) مع إضافة المترجم لاسمه (ادمند) الذي لم يذكره الكاتب في نصه مكتفياً بلقبه (Waller).

– قول الكاتب

"[…] At length, by dint of much wriggling, and loud and incessant expostulations upon the unbecomingness of his hugging a fellow male in that matrimonial sort of style, I succeeded in extracting a grunt; and presently, he drew back his arm, shook

himself all over like a Newfoundland dog just from the water [...]" (p30).

- و ترجمتها بـ ([...] و بعد جهدٍ انفقته في التقلب و في عتاب جهوري مسترسلٍ على أنّه لا يليق به أن يحتضن رجلاً مثله احتضان الزوج لزوجته افلحت بأن انتزع منه نخرة فسحب ذراعه على التوّ، و انتفض كله انتفاضة كلب من كلاب نيوفوندلاند خارجٍ من الماء [1] [...]) (ص65-66).

- و قوله

"[…] Hear I the roaring streams from Pirohitee's peak of spears, when they leap down the crags and down the villages [...]" (p193).

- و ترجمتها بـ ([...] ها أنا أسمع الجداول الهادرة من قمة بيروهيتي ذات الشعاف حين تندفع من خلل القنان و تغرق القرى و القيعان. [...]) (ص295).

- و قوله

"[…] and though various nations have in some way recognised a certain royal pre-eminence in this hue; even the barbaric, grand old kings of Pegu placing the Title "Lord of the White Elephants" above all their other magniloquent ascriptions of dominion; and the modern kings of Siam unfurling the same snow-white quadruped in the royal standard; and the Hanoverian flag bearing the one figure of a snow-white charger [...]" (p207).

- و ترجمتها بـ (و قد رأت كثيرٌ من الشعوب - حتى الهمجية منها - في هذا اللون تفوقاً ملكياً، حتى إن قدامى ملوك بيجو العظماء وضعوا لقب "سيد الفيلة البيض" على سائر المتعلقات الملكية الفخيمة، و أبرز ملوك سيام المحدثين صورة الفيل الأبيض على العلَم الملكي [1]. و حمل علَم هانوفر صورة وحيدة هي صورة جواد فاره ناصع البياض [...]) (ص315-316).

- و قوله

"[…] Aye, you are the chap, ain't ye, that heard the hum of the old Quakeress's knitting-needles fifty miles at sea from Nantucket; you're the chap." (p218).

- و ترجمتها بـ ([...] نعم. أنت الذي سمع و هو في البحر على بعد خمسين ميلاً من نانتوكت صوت إبر العجوز الكويكرية و هي تخيط. أنت هو أليس كذلك؟) (ص330).

- و قوله

"If two strangers crossing the Prime Barrens in New York State, or the equally desolate Salisbury Plain in England [...]" (p265).

- و ترجمتها بـ (لو أن غريبين يقطعان يهباء "باين" في ولاية نيويورك أو يقطعان سهل سالزبري الذي يشبهها وحشة

بانجلترا [...]) (ص393).

- و قوله

"The predestinated day arrived, and we duly met the ship Jungfrau, Derick De Deer, master, of Bremen" (p390).

- و ترجمتها بـ (حلّ اليوم الموعود و التقينا السفينة "العذراء" - يونجفروا -، و رائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن) (ص563).

لقد قام المترجم من خلال هذه الأمثلة بنقل العديد من الطوبونيمات (toponyms) في اللغة المنقول منها بتوظيف الاستنساخ الصواتمي (transliteration) في اللغة المنقول إليها. هذه الكلمات الطوبونيمية هي كما يلي: (نيوفوندلاند) التي تقابل (Newfoundland)، و (بيروهيتي) التي تقابل (Pirohitee)، و (Pegu) و (Siam) اللّتان استنسختا صواتمياً إلى (بيجو) و (سيام)، و إبدال الصفة (Hanoverian) إلى الاسم (هانوفر)، و مقابلة النعت (Quakeress) بالنعت (الكويكرية). كما نقلت (Nantucket) إلى (نانتوكت)، و استنسخت (New York) و (Salisbury) و (Bremen) صواتمياً على التوالي إلى (نيويورك) و (سالزبري) و (برمن).

- قول الكاتب

"[…] Bildad did all the purchasing and providing at the stores; and the men employed in the hold and on the rigging were working till long after night-fall." (p106).

- و ترجمتها بـ ([...] و أما بلدد فقام بكل ما تحتاجه السفينة من مشتريات و من مخزونات. و أما الرجال العاملون في عنبر السفينة و على الحبال فكان عملهم يمتد بهم وقتاً طويلاً بعد حلول الليل) (ص169).

- و قوله

"Bethink thee of the albatross, whence come those clouds of spiritual wonderment and pale dread, in which that white phantom sails in all imaginations? Not Coleridge first threw that spell; but God's great, unflattering laureate, Nature.*" (p209).

- و ترجمتها بـ (و فكّر في طير الفطرس من أين جاءت سحب الدهشة الروحية و الرعب الشاحب التي يبحر فيها ذلك الشبح الأبيض في الأخيلة جميعاً. لم يكن كولردج أول من ألقى تلك الرقية السحرية. أول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي لا يشاري و لا يماري أعني الطبيعة *) (ص318).

- و قوله

"Hist! Did you hear that noise, Cabaco?" (p217).

- و ترجمتها بـ (صه ! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو؟) (ص329).

– و قوله

“It was in the midst of this repose, that Archy, one of the cordon, whose post was near the after-hatches, whispered to his neighbor, a Cholo, the words above” (p218).

– و ترجمتها بـ (في وسط هذه السكينة همس آرشي أحد رجال الطابور و كان يقف قريباً من العنابر الخلفية في أذن جار له شولويّ بتلك الكلمات [...]) (ص329).

– و قوله

“[…] I heard Stubb tell Flask, one morning watch, that there was something of that sort in the wind. [...]” (218).

– و ترجمتها بـ ([...] سمعت اسطب يخبر فلاسك في احدى النوبات الصباحية ان في الجو شيئاً من ذلك) (ص330).

– و قوله

“The predestinated day arrived, and we duly met the ship Jungfrau, Derick De Deer, master, of Bremen” (p390).

– و ترجمتها بـ (حلّ اليوم الموعود و التقينا السفينة "العذراء" – يونجفروا –، و رائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن) (ص563).

أما في هذه الأمثلة فثمة العديد من أسماء العلم الانجليزية (proper nouns) المستنسخة صواتمياً إلى اللغة العربية، و هي: (بلدد) التي تقابل (Bildad)، و (Coleridge) إلى (كولردج)، و (Cabaco) إلى (كباكو). و نقلت أسماء (Archy)، و (Stubb)، و (Flask) إلى (آرشي) و (اسطب) و (فلاسك). كما استنسخ الاسمان (Jungfrau) و (Derick De Deer) صواتمياً إلى (يونجفروا) و (دريك دي دير).

– قول الكاتب

“[...] Though, to be sure, from the small number of English whalers, such meetings do not very often occur, and when they do occur there is too apt to be a sort of shyness between them; for your Englishman is rather reserved, and your Yankee, he does not fancy that sort of thing in anybody but himself [...]” (p266).

– و ترجمتها بـ ([...] و إن كان من الأمور اليقينية ان مثل هذه اللقاءات لا تحدث كثيراً نظراً لقلة عدد الحواتات الانجليزية، فاذا حدثت حقاً سيطر الحياء على الفئتين لان الانجليزي متحفظ مثلما ان اليانكي يظن ان ليس في الناس متحفظ إلاّ هـ [...]) (394-395).

– و قوله

“Not that”, said Stubb, “no, no, it’s a coffee-pot, Mr. Starbuck; he’s coming off to make us our coffee, is the Yarman [...]” (p390).

– و ترجمتها بـ (فقال اسطب: "لا، ليس هو. هذه غلاية قهوة يا سيد استاربك؛ لقد جاء ليقدم لنا قهوتنا، ذلك اليرمان [...]) (ص563).

و بعيداً عن الأسماء الطوبونيمية (toponyms) و أسماء العلم (proper nouns)، ثمة في هاذين المثالين استنساخ صوامتي للكلمتين الخصيصتين بالثقافة (CSIs) (Yankee) و (Yarman). و قد ترجمت كلمة (Yankee) –التي تنتمي حصرياً إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية و ثقافتها، و التي تعني الرجل الأمريكي، أو الأمريكي ذو الأصول الأوروبية (من انجلترا خاصة)، أو الأمريكي الذي يقطن بإحدى الولايات الشمالية (New England على نحو رئيس)– بـ (اليانكي). أما كلمة (Yarman) –التي نقلت إلى (اليرمان)– فهي مكيّفة بحسب التهجئة الانجليزية الأمريكية من (Jahrmann)، و التي تعد بدورها رسماً مختلفاً للفظة (Gehrmann) (حرفياً: الرجل الذي يحمل الرمح Man with spear) و تعني الألماني الذي يقيم في الشمال (Gehr).

2. التعليق خارج النص (extratextual gloss)

– قول الكاتب

(ETYMOLOGY

_____

[...]

……	*Hebrew.*
…… (KETOS),	*Greek.*
CETUS,	*Latin.*
WHOEL,	*Anglo-Saxon.*
HVALT,	*Danish.*
WAL,	*Dutch.*
HWAL,	*Swedish.*
WHALE,	*Icelandic.*
WHALE,	*English.*
BALEINE,	*French.*
BALLENA,	*Spanish.*
PEKEE-NUEE-NUEE,	*Fegee.*
PEHEE-NUEE-NUEE,	*Erromangoan.*)

– و ترجمتها بـ

(ح ت بالعبرية

ق و ط س باليونانية [1]

ق ي ط س	باللاتينية [1]
هُوَيل	بالانجلوسكسونية
هوالت	بالدنمركية
وال	بالهولندية [1]
هوال	بالسويدية
هويل	بالانجليزية
هويل	بالاسلندية
بليّن	بالفرنسية
بليّنة	بالاسبانية [1]
بيكي–نويه–نويه	بالفيجية
بيهي–نويه–نويه	بالارومانجونية) (ص10).

([1] دخلت كلمة "القاطوس" في اللغة العربية إلا أنّ بعض المصادر أوردتها خطأ بالفاء (أنظر مثلاً حياة الحيوان للدميري)، و كذلك كلمة "البلينة" عرفها الأندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي: 214). و قال ابن سعيد: البلينة حوت كبير يعرف بدابة البحر (المغرب 1: 193). و تعرب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الفال و الوال و الاوال و الافال) (الهامش) (ص10).

يوظف المترجم هنا الهامش ليبيّن طرق نسخ كلمات (Ketos)، و (Cetus)، و (Wal)، و (Ballena) إلى اللغة العربية، مع إعطاء نبذة عن الكيفية التي تم من خلالها التداول بهذه الكلمات عربياً. و بما أنّ هذه الكلمات تنتمي حصرياً إلى مدونات لغوية/ثقافات أجنبية فإنّه يمكن اعتبارها بالتالي كلمات خصيصة بالثقافة (CSIs)، و عليه لجأ المترجم إلى استراتيجية التعليق خارج النص (extratextual gloss) بغية شرح ماهيتها و تفسير دلالاتها للقارئ العربي، و هو ما اعتبرناه تغريباً معتمدين في ذلك على ما جاء به فرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà في تصنيفه الترجمي الذي ناقشناه آنفاً.

– قول الكاتب

([…] For by how much the more pains ye take to please the world, by so much the more shall ye for ever go thankless! Would that I could clear out Hampton Court and the Tuileries for ye! […]) (p9-10) (A*).

– و ترجمتها بـ ([...] كلما ازددتم كدّاً لارضاء هذا العالم، زاد ما تلقونه من البخس و نكران الجميل أبداً. لتمنيت أنني

أستطيع أن أوطنكم هامبتون كورت أو التويلري [1] بعد أن أخليهما ممن يحلهما [...]) (ص12).

([1] في هامبتون كورت قصر ملكي زاره ملفل في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 1849 و لا بد أنه مرّ في إحدى جولاته الباريسية بقصر التويلري؛ و كان هذان القصران قد اتخذا متحفين في أيام ملفل، كما أن التويلري كان مقر لويس نابليون الذي انتخب رئيساً للجمهورية عام 1848 و نودي به امبراطوراً عام 1852) (الهامش) (ص12).

ثمة توظيف آخر للهامش في الترجمة العربية الذي يعلق فيه المترجم على زيارة ملفل Melville في إحدى جولاته لقصري (التويلري) (Tuileries) و (هامبتون كورت) (Hampton Court). و باعتبار أنّ هاذين الاسمين يندرجان أيضاً ضمن الكلمات الخصيصة بالثقافة (CSIs) –على غرار أسماء العلم و الأسماء الطوبونيمية و غيرها– ارتأى المترجم توظيف استراتيجية التعليق خارج النص (extratextual gloss) ليشرح مكنونهما بعد أن قدّر أنّ الاستنساخ الصواتمي لذات الاسمين ليس كافياً لوحده في اللغة العربية.

– قول الكاتب

"And what thing soever besides cometh within the chaos of this monster's mouth, be it beast, boat, or stone, down it goes all incontinently that foul great swallow of his, and perisheth in the bottomless gulf of his paunch."

Holland's Plutarch's Morals. (p11).

– و ترجمتها بـ (و أيما شيء اقترب من واقوصة [1] فكّي ذلك الوحش، سواء أكان حيواناً أم قارباً أم صخرة، انحدر في تلك "البالوعة" الوبيلة المنهومة، و تلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار) (الفقرة 31 من كتاب الأخلاق لفلوطارخس) (ص13).

([1] الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاووصة) و معناها الهوة، و قد عرفها العرب بهذا الاسم، و بها سمي المكان) (الهامش) (ص13).

يشرح المترجم في هذا الهامش معنى كلمة أخرى خصيصة بالثقافة (CSI)، و هي كلمة (chaos) (الواقوصة) التي يقول بأنّ العرب عرفوها بمعنى الهوة، و بها سمي كل مكان سحيق.

– قول الكاتب

"Touching that monstrous bulk of the whale or ork we have received nothing certain. They grow exceeding fat, insomuch that an incredible quantity of oil will be extracted out of one whale." *Ibid "History of Life and Death."* (p12).

– و ترجمتها بـ (أما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان أو الأرخ[2] فليس لدينا شيء يقيني، و لكنها تطبق شحماً حتى أن كمية الدهن التي تستخرج من حوت واحد تفوق حدّ التصديق).

(بيكون في "تاريخ الحياة و الموت") (ص14).

([2] في الأصل ork و صوابها orc و هي من اللاتينية orca و تعني الحوت أو الغرمبوز أو ما يشبهه) (الهامش) (ص14).

يسلط المترجم الضوء في الإحالة الثانية من هذا الهامش على كلمة أخرى خصيصة بالثقافة (CSI) هي كلمة (ork) التي ترجمها بـ (الأرخ) مع تصويب ما جاء في النص الأصلي من أنّها (orc) و ليس (ork)، ليقوم بعد ذلك بشرح معناها في اللغة العربية.

– قول الكاتب

"Like Spencer's Talus with his modern flail
He threatens ruin with his ponderous tail.
* * * * *
Their fixed jav'lins in his side he wears,
And on his back a grove of pikes appears."

Waller's Battle of the Summer Islands. (p13).

– و ترجمتها بـ

(كأنّه طالوس ذو "الفَلَقة" [1] الحديثة، الذي ذكره سبنسر،

ينذر بالويل و الثبور بذيله المهول.

و هو يحمل في جنبه حرابهم المثبتة

و على ظهره تبدو غابة من أسنّة).

(معركة جزائر سومر لادمند والر – النشيد الثالث) (ص15).

([1] الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum و تعني في الأصل "السوط") (الهامش) (ص15).

يوظف المترجم مجدداً استراتيجية التعليق خارج النص (extratextual gloss) عند تعامله مع الكلمة الخصيصة بالثقافة (CSI) (flail) (التي تقابلها كلمة (الفلقة) العربية) بأن ذكر أنّها (flagellum) اللاتينية، و أنّ الكلمة العربية (الفلقة) تعني في الأصل (السوط).

– قول الكاتب

"[…] At last some four or five of us were summoned to our meal in an adjoining room. It was cold as Iceland—no fire at all—the landlord said he couldn't afford it. Nothing but two dismal tallow candles, each in a winding sheet. We were fain to button up our monkey jackets, and hold to our lips cups of scalding tea with our half frozen fingers.[...]" (p14-15).

– و ترجمتها بـ ([…] و أخيراً دعي أربعة أو خمسة منا الى تناول الطعام في غرفة مجاورة، كانت باردة كأنها إسلندة،

لا نار فيها أبداً، إذ زعم رب النزل أنه يعجز عن القيام بإعدادها، و لم يكن ثمة سوى شمعتين كئيبتين مصنوعتين من الشحم و قد وضعت كل منهما في غلاف مفتول. و سررنا إذ قيّض لكل منا أن يزرّ "صدرة السعدان" [1] على جسمه، و أن يرفع إلى شفتيه كوباً من الشاي السامط فوق أصابع تجمدت أو تكاد [...]) (ص47).

([1] هي صدرة ضيقة يلبسها البحارة) (الهامش) (ص47).

– و قوله

"[…] But the interval I spent in deliberating what to say, was a fatal one. Taking up his tomahawk from the table, he examined the head of it for an instant, and then holding it to the light, with his mouth at the handle, he puffed out great clouds of tobacco smoke. The next moment the light was extinguished, and this wild cannibal, tomahawk between his teeth, sprang into bed with me. I sang out, I could not help it now; and giving a sudden grunt of astonishment he began feeling me." (p26).

– و ترجمتها بـ ([…] إلا أن الفترة التي بددتها في التهيؤ لما أريد أن أقول كانت ضربة قاضية فقد تناول الطبرزين عن الطاولة و تفحص رأسه لحظة ثم قربه من النور و قد جعل مقبضه في فمه و نفث سحباً كثيفة من دخان الطباق و في اللحظة التالية انطفأ النور و قفز المتوحش، و كدوسه [1] – و هو ما حسبته طبرزيناً – بين أسنانه، إلى السرير بجانبي فلم أتمالك من أن تندَّ عني صيحة – حشرجة دهشة – جعلته يشعر بوجودي) (ص60).

([1] الكدوس: كلمة دارجة في السودان تدل على ما نسميه "الغليون" أو ما يسمى "الشبك" في التركية، و قد اتخذته للدلالة على الغليون ذي الساق الطويلة مرادفاً للشبك، و قصرت كلمة "الغليون" على ما كانت ساقه قصيرة) (الهامش) (ص60).

– و قوله

"[...] On the after side, or side next the stern of the ship, is a comfortable seat, with a locker underneath for umbrellas, comforters, and coats. In front is a leather rack, in which to keep your speaking trumpet, pipe, telescope, and other nautical conveniences. [...]" (p173).

– و ترجمتها بـ ([…] و في الجانب الموالي لمؤخرة السفينة مقعد مريح تحته خزانة للمظلات و الأقبية و المعاطف و في الواجهة الأمامية لوحة مسننة يضع فيها المرء المصوتة[2] و الغليون و التلسكوب و غير ذلك من الحوائج البحرية […]) (ص263).

([2] آلة لتقوية الصوت) (الهامش) (ص263).

لقد أعطى فرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà في تصنيفه الترجمي الذي تطرقنا إليه آنفاً شرحاً مستوفياً

للأسس التي يقوم عليها التعليق خارج النص (extratextual gloss) بوصفه أحد الإجراءات الترجمية الحساسة التي قد يلجأ إليها المترجم لشرح ماهية الإحالات الثقافية و المعاني التضمينية للكلمات الخصيصة بالثقافة (CSIs) و ذلك بعد أن يستخدم واحداً من إجراءات (الانحفاظ) (conservation) التي عدّها في تصنيفه، و هو ما يثبت صعوبة التعامل مع هذا النوع من الكلمات من جهة، و ضرورة توظيف التعليق خارج النص (extratextual gloss) لتذليل صعاب الفهم و معوقاته من جهة أخرى. كما يشير آيكزيلا Aixelà إلى مسألة تسترعي الانتباه أكثر مفادها أنّ كل كلمة في اللغة يمكن عدها كلمة خصيصة بالثقافة (CSI)، و هو ما يفتح الباب على مصرعيه أمام جميع الكلم في لغة ما لكي تنتمي إلى هذه الفئة لأنّ التلفظ بها جاء في أطر ثقافية محددة و مضبوطة (الأطر الزمكانية و البيئة الاجتماعية و الجنس و مستوى المخاطب...) بصرف النظر عما إذا كانت هذه الكلمات مصبوغة ثقافياً و تُعنى بالثقافة على نحو رئيس و حصري من عدمه.

و ثمة في هذه الأمثلة كلمات انجليزية خصيصة بالثقافة (CSIs) هي (monkey jacket) و (tomahawk) و (speaking trumpet) التي نقلها المترجم إلى (صدرة السعدان) و (الكدوس) و (المصوتة)، و التي تعتبر مسميات ثقافية لأشياء مادية. و بعد أن نقل المترجم هذه الكلمات الخصيصة بالثقافة بما يكافئها لسانياً و تداولياً، انتقل إلى شرح ماهيتها و تبيان المضمر من معانيها من خلال اللجوء إلى التعليق خارج النص (extratextual gloss)، بحيث أنّ الأولى صدرة ضيقة يلبسها البحارة وقت العواصف أو عندما ينزلون على الزوارق لصيد الحيتان تفادياً لخطر الغرق، و الثانية (الكدوس) بدارجة أهل السودان و المعروف بالغليون الذي لجأ إليه المترجم لتبيان الفرق في الحجم بينه و بين الغليون (الأول ساقه طويلة بينما الثاني ساقه قصيرة). أما الثالثة فهي (المصوتة) –التي قد يظن القارئ بأنّها نوع من مكبرات الصوت أو ما شابه– التي تستخدم لتقوية الصوت و زيادة نبرته، و أنّها –كما يبدو– آلة يستخدمها البحارة بكثرة كغيرها من الوسائل البحرية الأخرى.

– قول الكاتب

"[…] Presently a rioting noise was heard without. Starting up, the landlord cried, "That's the Grampus's crew. I seed her reported in the offing this morning; a three years' voyage, and a full ship. Hurrah, boys; now we'II have the latest news from the Feegees." (p15).

– و ترجمتها بـ ([…] و على التوّ سمعنا جلبة في الخارج، و صاح رب النزل و هو يبادر للنهوض: "هؤلاء بحارة الباخرة "الغرمبوز"[1]. رأيتها اليوم على مسافة من الميناء. استغرقت رحلتها ثلاث سنوات. سفينة محملة بالمشحونات. مرحى. أيها الفتيان. سنسمع آخر الأنباء من جزر فيجي) (ص48).

([1] الغرمبوز: اسم لنوع من الحيتان، سيجيء تصنيفه في الفصل: 32، و قد قال فيه ملفل هنالك: " و يرى بعض

الصيادين أن ظهوره ارهاص بأن حوت العنبر العظيم على الأثر".) (الهامش) (ص48).

– و قوله

"[...] In thoroughfares nigh the docks, any considerable seaport will frequently offer to view the queerest looking nondescripts from foreign parts. Even in Broadway and Chestnut streets, Mediterranean mariners will sometimes jostle the affrighted ladies. Regent street is not unknown to lascars and Malays; and at Bombay, in the Apollo Green, live Yankees have often scared the natives. But New Bedford beats all Water street and Wapping. [...]." (p35).

– و ترجمتها بـ ([...] كل ميناء ذي شأن كثيراً ما يعرض لك في الشوارع العامة القريبة من دار الصناعة (الترسانة) أغرب السحن التي تنتمي إلى مختلف جهات العالم و تعجز الواصفين. حتى إنك لترى في شارعي برودواي و شسنت[1] بحارة من حوض المتوسط يزحمون النساء المروّعات أحياناً. و ليس شارع ريجنت[2] نائياً على بحارة جزر الهند الشرقية (العسكر) و الملايو. و في بومباي – و في أبولو جرين منها – يعيش أمريكيون يرعبون الأهالي أحياناً؛ إلا أن نيوبدفورد تفوق في هذا الشأن كل شارعي ووتر و وابنج[3] [...]) (ص73).

([1] الشارع الأول في نيويورك و الثاني في فيلادلفيا

[2] اسم شارع بلندن

[3] ووتر في لفربول، و وابنج في لندن) (الهامش) (ص73).

ثمة في هاذين المثالين أيضاً كلمات خصيصة بالثقافة (CSIs) لكنها لا تحيل إلى أشياء ثقافية مادية، بل يمكن اعتبارها مسميات ثقافية لأشياء غير مادية؛ فالكلمة الأولى الخصيصة بالثقافة هي (Grampus) المترجمة بـ (الغرمبوز)، و هو اسم لنوع من الحيتان يقول عنه الصيادون بأنّه يفتح الطريق لحوت العنبر عندما يظهر في البحر. أما الكلمات الثقافية الأخرى فهي (Broadway)، و (Chestnut)، و (Regent)، و (Water)، و (Wapping) التي نقلت على التوالي إلى (برودواي)، و (شسنت)، و (ريجنت)، و (ووتر)، و (وابنج) في اللغة العربية. تعود هذه الأسماء لشوارع معروفة في الولايات المتحدة الأمريكية (برودواي و شسنت) و في بريطانيا (ريجنت و ووتر و وابنج). و قد لجأ المترجم هنا إلى التعليق خارج النص (extratextual gloss) بعد أنّ وظف إجراء ترجمي آخر هو الاستنساخ الصواتمي (transliteration) بأن رسم حروف هذه الكلمات الأجنبية بما يقابلها من حروف اللغة العربية.

– قول الكاتب

"[...] A Sag Harbor ship visited his father's bay, and Queequeg sought a passage to Christian lands. But the ship, having her full complement of seamen, spurned his suit; and not all the King his father's influence could prevail. [...]" (p61).

– و ترجمتها بـ ([…] و ذات يوم زارت سفينة قادمة من ميناء ساج [1] الخليج الواقع في مملكة أبيه، و تلمس الشاب أن يسافر الى أرض مسيحية، إلا أن السفينة كانت مزودة بما يكفيها من بحارة و لذلك رَدّتْ طلبه بازدراء، و لم ينجع نفوذ والده في تذليل ذلك الردّ […]) (ص109).

([1] قرية صغيرة على الساحل الجنوبي، على مقربة من الطرف الشرقي من لونج آيلاند) (الهامش) (ص109).

– و قوله

"NANTUCKET" (p69).

– و ترجمتها بـ

(نانتوكت[1]) (ص119).

([1] جزيرة تقع على بعد 27 ميلاً إلى الجنوب من رأس كد، و أكبر مدنها تسمى نانتوكت) (الهامش) (ص119).

أما في هاذين المثالين فثمة كلمتين خصيصتين بالثقافة تعنيان بأماكن جغرافية، أو بالأحرى بأسماء طوبونيمية (toponyms) هما (Sag) و (Nantucket) اللّتان تقابلهما (ساج) و (نانتوكت) في النسخة العربية. و قد قام المترجم أولاً باستنساخ هاتين الكلمتين الطوبونيميتين –على غرار العديد من الأسماء المواقعية الأخرى الموجودة في هذه الرواية– إلى اللغة العربية، ثم اللجوء إلى التعليق خارج النص (extratextual gloss) عبر توظيف الهامشين بأن ذكر في الأول أنّ (ساج) قرية صغيرة تقع على الساحل الجنوبي بالقرب من لونج آيلاند، و في الثاني أنّ (نانتوكت) مدينة تقع جنوب رأس كد على مسافة 27 ميلاً، و التي هي في الأصل (أي نانتوكت) اسم للجزيرة التي تحمل كبرى مدنها الاسم نفسه.

– قول الكاتب

"[…] they say that men who have seen the world, thereby become quite at ease in manner, quite self-possessed in company. Not always, though: Ledyard, the great New England traveller, and Mungo Park, the Scotch one; of all men, they possessed the least assurance in the parlor.[...]" (p33).

– و ترجمتها بـ ([…] يقولون أن الرجال الذين رأوا الدنيا يصبحون ذوي سجاحة و اطمئنان في تصرفاتهم، و لباقة و كياسة بين رفقتهم. هذا لا يصح دائماً فإن لديارد الرحالة المشهور ابن نيوانجلند و منجو بارك الاسكتلندي[1] كانا بين الناس أقلهم ثقة بأنفسهم في الإبهاء و القاعات […]) (ص70).

([1] جون لديارد (1751–1789) قضى أربع سنوات في جزائر المحيط الهادي في رحلة مع الكابتن كوك (1776–1780) و قطع سيبريا في عربة تجرها ثلاثة خيول (صيف 1787) و اتهم بأنه جاسوس فرنسي فأعيد في عربة إلى موسكو ثم طرد من روسيا عند الحد البولندي (نيسان 1788). أما منجو بارك (1771–1806) فقد عرف برحلاتـه

في داخل افريقية (1799) و بين الرجلين مشابه كثيرة) (الهامش) (ص70).

- و قوله

"[...] Go and gaze upon the iron emblematical harpoons round yonder lofty mansion, and your question will be answered. Yes; all these brave houses and flowery gardens came from the Atlantic, Pacific, and Indian oceans. One and all, they were harpooned and dragged up hither from the bottom of the sea. Can Herr Alexander perform a feat like that?" (p36).

- و ترجمتها بـ ([...] إذا شئت جواباً على هذا السؤال فاذهب و أنظر إلى الرموز التي تمثلها رماح الصيد الحديدية المريشة حول ذلك الصرح العالي. أجل. إن تلك البيوت الجبارة و الجنائن الزاهرة إنما انبثقت من الأطلسي و الهادي و الهندي. إنها اصطيدت من أعماق البحر و جرّت حيث نصبت. هل يستطيع السيد اسكندر[1] أن يعمل مثل هذا العمل العظيم؟) (ص75).

([1] ساحر ألماني كان يؤدي ألعابه السحرية في مسارح نيويورك بين عامي 1845-1849) (الهامش) (ص75).

- و قوله

"[...] But this fine young savage—this sea Prince of Wales, never saw the captain's cabin. They put him down among the sailors, and made a whaleman of him. But like Czar Peter content to toil in the shipyards of foreign cities, Queequeg disdained no seeming ignominy, if thereby he might happily gain the power of enlightening his untutored countrymen. [...]" (p62).

- و ترجمتها بـ ([...] إلا أن هذا الشاب المتوحش الأريب، هذا الرجل الذي كان في بلده وريث عرش لم يرَ أبداً قمرة القبطان، و إنما وضعوه بين البحارة و جعلوا منه صياد حيتان. و مثلما كان القيصر بطرس الأكبر راضياً أن يكدّ في أحواض السفن في مدن أجنبية[1]، كذلك كويكوج لم يأنف من كل ما قد يلحق به الهوان، إذا هو استطاع بذلك أن يكسب القدرة على تنوير بني وطنه الأميين و تثقيفهم [...]) (ص110).

([1] بطرس الأكبر (1672-1725) سافر متنكراً باسم بطرس ميخايلوف و درس عدة فنون و علوم في مدن ألمانيا و هولندة و قضى بضعة أشهر من عام 1698 عاملاً في دار الصناعة بمدينة دبتفورد بانجلترا يتعلم بناء السفن، كي يدخل فنون أوروبا الغربية و صناعاتها إلى روسيا) (الهامش) (ص110).

- و قوله

"[...] Her venerable bows looked bearded. Her masts—cut somewhere on the coast of Japan, where her original ones were lost overboard in a gale—her masts stood stiffly up like the spines of the three old kings of Cologne. Her ancient decks were worn and wrinkled, like the pilgrim-worshipped flag-stone in Canterbury Cathedral where

Beckett bled. [...]" (p76).

- و ترجمتها بـ ([...] و تبدو مقدمتها الجليلة و كأنها قد التحت. فقدت صواريها الأصلية في إحدى العواصف و ركبت لها صوار جديدة قطعت من موضع على ساحل اليابان، و انتصبت كأنها أصلاب ملوك كولون الثلاثة القدماء[1]. أما ظهرها فقد بلي و تغضن كأنه الحجر الذي نهكته أيدي الحجاج الذين يؤمّون كنيسة كانتربري حيث لقي توماس بيكت مصرعه [...]) (ص131).

([1] المجوس الثلاثة الذين أتوا بالهدايا إلى عيسى في مهده، قيل أنهم مدفونون في كولون) (الهامش) (ص131).

- و قوله

"[...] Nevertheless, not three days previous, Bildad had told them that no profane songs would be allowed on board the Pequod, particularly in getting under weigh; and Charity, his sister, had placed a small choice copy of Watts in each seaman's berth." (p114).

- و ترجمتها بـ ([...] و أما عن تغني العمال بالفتيات فإني أذكر أن بلدد قبل ما يقل عن ثلاثة أيام أخبرهم بأنه لا يسمح بالأغاني الدنيوية على ظهر الباقوطة، و أحضرت أخته "إحسان" نسخاً صغيرة مختارة من أناشيد وطس الدينية[1]، و وضعت في سرير كل بحار نسخة منها) (ص181).

([1] هو اسحاق وطس (1674-1748) نظم أناشيد دينية كثيرة ترتل في الكنائس البروتستنتية) (الهامش) (ص181).

- و قوله

"[...] They may celebrate as they will the heroes of Exploring Expeditions, your Cookes, your Krusensterns; but I say that scores of anonymous Captains have sailed out of Nantucket, that were as great, and greater than your Cooke and your Krusenstern. [...]" (p121).

- و ترجمتها بـ ([...] إنهم قد يمجدون ذكرى أبطال الرحلات الاستكشافية مثل كوك و كروزنشترن[1] و من لف لفهما؛ و لكني أقول أن عشرات من القباطنة المجهولين الذين أبحروا من نانتوكت كانوا كهؤلاء المكتشفين عظمة بل أعظم من كوك و كروزنشترن [...]) (ص191-192).

([1] آدم ايفان كروزنشترن (1770-1846) أول روسي طاف حول الكرة الأرضية و كان ملفل يعرف حق المعرفة "رحلته حول العالم 1803-1806") (الهامش) (ص191).

- و قوله

"[...] Bear me out in it, thou great democratic God! who didst not refuse to the swart convict, Bunyan, the pale, poetic pearl; Thou who didst clothe with doubly hammered leaves of finest gold, the stumped and paupered arm of old Cervantes; Thou who

didst pick up Andrew Jackson from the pebbles; who didst hurl him upon a war-horse; who didst thunder him higher than a throne! [...]" (p128).

– و ترجمتها بـ ([...] أنصرني في موقفي هذا أيها الربّ، يا رمز الديمقراطية الأعظم، أنت يا مَن لم تحرم "بنيان"، الجاني الأسود من نعمة الشَّعر؛ أنت يا من كسوت بأوراق مطرّقة من رقيق الذهب ذراع ثرفانتس الشيخ حين بترت و أخذ من أجلها يستكفّ الأيدي، أنت يا من أنقذت أندرو جكسون[1] من اللصوق بالدقعاء و أمطيته حصان فارس محارب و رفعته إلى ما سما به فوق العروش [...]) (ص202-203).

([1] أندرو جكسون رئيس الولايات المتحدة: 1829-1837 توفي عام 1845 بعد أن عاد ملفل إلى الولايات المتحدة و بدأ حياته الأدبية) (الهامش) (ص203).

– و قوله

"[...] Yet now, federated along one keel, what a set these Isolatoes were! An Anacharsis Clootz deputation from all the isles of the sea, and all the ends of the earth, accompanying Old Ahab in the Pequod to lay the world's grievances before that bar from which not very many of them ever come back. [...]" (p133).

– و ترجمتها بـ ([...] و إذا احتشدوا على صعيد سفينة واحدة فأي قبيل هم ! مندوبون من أتباع الثوريّ أنخارسيس كلوتز[1] جاءوا من كل جزر البحار و من جميع أطراف اليابسة، يصحبون آخاب الشيخ في الباقوطة ليبسطوا مظالم الكون أمام قفص الاتهام الذي لم يرجع من عنده إلا القليل [...]) (ص209-210).

([1] ثوري بروسي فرنسي (1755-1794) كان اسمه جان بابتست فجعله أنخارسيس و لقب نفسه "خطيب الجنس البشري") (الهامش) (ص209).

– و قوله

"[...] But when, as in the case of Nicholas the Czar, the ringed crown of geographical empire encircles an imperial brain; then, the plebeian herds crouch abased before the tremendous centralization. [...]" (p162).

– و ترجمتها بـ ([...] و حين تقوم الخرافات السياسية المتطرفة باستغلال هذه الشئون و الحيل الصغيرة فإنها تمدها بقدرة كبرى، حتى إنها في بعض ما يتصل بالملوك من شئون لتمنح قدرة وصولة للبلهاء الأغبياء؛ و لكن إن كان التاج المستدير الذي يطوّق امبراطورية واسعة النواحي، يستدير أيضاً محكماً حول ذهن امبراطوري كما هو الشأن في حال القيصر نقولا[1] عندئذٍ تركع قطعان الرعاع مهينة أمام تلك السيادة المركزية المحكمة الهائلة [...]) (ص249-250).

([1] نقولا الأول امبراطور روسيا (1825-1855) مثال موفق على الاستبداد المطلق حتى عرف باسم القيصر الحديدي) (الهامش) (ص250).

غالباً ما تحوي المؤلفات الأدبية عامة و الروايات على نحو خاص العديد من أسماء العلم (Proper Nouns) التي قد تنتمي إلى ثقافات مختلفة غير تلك المترجم منها و المترجم إليها، كما أنّها قد تتمايز فيما بينها على مستويات عديدة منها درجة شيوعها عند القراء و مدى معرفة هؤلاء بهم. و يوجد في هذه الرواية الكثير من أسماء العلم التي عمد المترجم إلى استنساخها صواتمياً إلى اللغة العربية، غير أنّه لم يكتف بذلك بل راح يشرح الجوانب المحيطة بهذه الشخصيات من المناحي كافة التاريخية و الثقافية و الاجتماعية بحسب السياق الذي ورد فيه ذكر كل واحدة منها موظفاً التعليق خارج النص (extratextual gloss). و قد تنوعت هذه الشخوص بين رحالة و مغامرين (جون لديارد و منجو بارك و آدم ايفان كروزنشترن)، و رجال دين (المجوس الثلاثة و اسحاق وطس)، و رؤساء و ملوك (أندرو جكسون و نقولا الأول)، و سحرة (السيد اسكندر)، و ثوار (أنخارسيس كلوتز). و بما أنّ هذه الأمثلة تتعلق بأسماء أعلام أجنبية ترتبط حصرياً بثقافات و بيئات خاصة و تعتبر السمة المائزة لها دون سواها، و التي قد تتعالق أيضاً مع خلفيات متنوعة من تاريخية و أيديولوجية و دينية و غيرها –هي الركائز و الأركان في كل ثقافة– مشكلة مفخرة المجموعة العرقية المنتمية إليها فإنّها و بحق لكلمات خصيصة بالثقافة استحقت من المترجم –زيادة على الاستنساخ الصواتمي (transliteration)– أن يلقي الضوء على كل واحدة منها عبر توظيف التعليق خارج النص (extratextual gloss) الذي صنفناه ضمن استراتيجيات التغريب (foreignization strategies) و ذلك من منظور خافيير آيكزيلا Javier Aixelà الترجمي و تصنيفه الإجرائي.

3. التغريب المرتبط بالخلفية التداولية (pragmatic background foreignization)

– قول الكاتب (A*) (p9-10) (Supplied by a Sub-Sub Librarian.)

– و ترجمتها بـ (أعدها مساعدٌ لخازن مكتبةٍ مساعدٍ) (ص11).

تطرح ترجمة الكلمتين الانجليزيتين (Sub) و (Sub) مشكلاً عويصاً في اللغة العربية، خاصة و أنهما كتبتا بحرف تاجي. و تعني كلمة (Sub) في اللغة الانجليزية –التي قد تأتي على شاكلة اسم (a noun)، أو فعل (a verb)، أو بادئة (a prefix)– فيما تعنيه أن يكون شخص ما بديلاً لشخص آخر (اللاعب البديل في الرياضة مثلاً)؛ و المال الذي يدفع نظير الاشتراك في ناد ما؛ و ذلك المقترض من شخص ما؛ و القيام بعمل شخص آخر مؤقتاً؛ و أن يكون الشخص أصغر شأناً و أقل أهمية من شخص أو شيء آخر و ما إلى ذلك من المعاني. و نجد أنّ المترجم لم ينقل كلمة (librarian) بمكافئها المتداول به اليوم المتمثل في (أمين مكتبة) أو (حافظ مكتبة) أو حتى (قيم مكتبة)، بل ترجمها إلى (خازن) التي قد لا يفهم منها القارئ بأنّها تعني ذلك الشخص الذي يقوم برعاية المكتبة و تدبير شؤونها. ثم إنّ كلمة (خازن) تحيلنا مباشرة إلى ما هو مخزّن و مخزون الذي يكون في الغالب من غير الكتب. يُعنى هذا النوع من التغريب

بتبديل ما هو معروف و متداول به لدى جمهور القراء بما هو نكرة لديهم مفهوماً و تداولاً، أي الانتقال من خلفية تداولية مألوفة إلى أخرى غريبة، و هو ما من شأنه أن يربك القارئ و يخلخل مسار الفهم لديه.

4. التغريب المرتبط بالغموض المورفو–تركيبي (morpho-syntactic foreignization ambiguity)

– قول الكاتب (A*) (p9-10) (Supplied by a Sub-Sub Librarian.)

– و ترجمتها بـ (أعدها مساعدٌ لخازن مكتبةٍ مساعدٍ) (ص11).

ثمة تغريب آخر يتمثل هذه المرة في الطريقة التي بنيت بها الجملة العربية (مساعدٌ لخازن مكتبةٍ مساعدٍ)، بحيث تكررت كلمة (مساعد) (Sub) مرتين أسوة بالجملة الانجليزية. سيعتبر القارئ العربي أنّه ثمة خطب ما في بناء هذه الجملة و السبب وجود كلمة مكررة تبدأ و تنتهي بها الجملة. يتصل مثل هذا التغريب بغموض مورفو–تركيبي (morpho-syntactic ambiguity) الذي يقصد به كل كتابة و وضع للكلم، أو كل صياغة و ترصيص للجمل تكون شاذة عن العرف اللغوي في اللغة المنقول إليها، و هو ما ينجم عنه دائماً أسلوب سمج (awkward) على المستوى التركيبي و حتى على المستويين الصوتي و الإيقاعي خاصة و نحن بصدد دراسة نص أدبي مترجم إلى اللغة العربية منح الله عزّ و جلّ متكلميها ملكة الكشف عن المعوج في كلامهم، و إزالة الشوائب و الزوائد منه بتوظيف حاسة السمع فقط.

5. التعليق داخل النص (intratextual gloss)

– قول الكاتب

"The Indian Sea breedeth the most and the biggest fishes that are: among which the Whales and Whirlpooles called Balaene, take up as much in length as four acres or arpens of land." *Holland's Pliny*. (p11).

– و ترجمتها بـ (و ينتج في البحر الهندي أكثر الأسماك و أكبرها، و من بينها الحيتان و الخطّارات التي تسمى البليّنات و يبلغ الواحد منها في مساحته أربعة أفدنة (640 قدماً مربعاً) أو أربعة أرفينات – و الأرفين 0.84 من الفدان).

(بليني 9/2 :4) (ص13).

يوظف المترجم هنا تعليقاً من نوع آخر، و هو التعليق داخل النص (intratextual gloss) بشرحه لكلمتي (acres) (أفدنة) التي قال بأنّها تساوي 640 قدماً مربعاً، و (arpens) (أرفينات) التي يساوي الواحد منها 0.84 من الفدان. و بما أنّ كلمتي (acres) و (arpens) تعتبران وحدتي قياس (measuring units) فإنّهما تنتميان إلى الكلمات الخصيصة بالثقافة، و هو الشيء الذي دفع بالمترجم إلى توظيف التعليق الذي تم هذه المرة داخل نص الترجمة بأن وضع التعليق الأول بين قوسين، و كتب الثاني بعد الكلمة الخصيصة بالثقافة المعنية مباشرة مفرقاً بينهما بمطة. و قد يظن

البعض أنّ هذا النوع من التعليق الذي يتم داخل النص (intratextual gloss) قد يكون أقل وطأة على القارئ من سابقه (أي التعليق خارج النص (extratextual gloss)) في أنّه لا يشتت انتباهه لكونه امتداد للنص. و الحقيقة هي أنّه على الرغم من أنّ التعليق خارج النص دائماً ما يُعنى بتوظيف الهوامش التي تتطلب من القارئ الغدو و الرواح بين ما يقرأ فعلياً و ما هو مستزاد فيها من معلومات إلا أنّ التعليق داخل النص ينال هو أيضاً من جهده في أنّه يتدخل مباشرة في الكيفيات التي تتم بها التقطيعات ذهنياً من حيث الانتظام (regularity)، و التي ستكون أقل نجاعة من استيفاء الكم المعلوماتي المنقول فعلياً عن النص الأصلي من دون استزادة. ذلك ما توصلت إليه العديد من الدراسات الحديثة في علوم الأعصاب و علم القراءة.

– قول الكاتب

"And God created great whales."

Genesis. (p11).

– و ترجمتها بـ (فخلق الله الحيتان[2] العظام) (التكوين 1: 21) (ص12).

– و قوله

"Leviathan maketh a path to shine after him; One would think the deep to be hoary."

Job. (p11).

– و ترجمتها بـ ([اللوياثان] يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب) (أيوب 32:41) (ص12).

– و قوله

"Now the Lord had prepared a great fish to swallow up Jonah."

Jonah. (p11).

– و ترجمتها بـ (و أما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان) (يونان 17:1) (ص12).

– و قوله

"There go the ships; there is that Leviathan whom thou hast made to play therein."

Psalms. (p11).

– و ترجمتها بـ (هناك تجري السفن؛ لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه) (مزامير 26:104) (ص12).

– و قوله

"In that day, the Lord with his sore, and great, and strong sword, shall punish Leviathan the piercing serpent, even Leviathan that crooked serpent; and he shall slay the dragon that is in the sea." *Isaiah*. (p11).

– و ترجمتها بـ (في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان، الحية الهاربة، لوياثان، الحية المتحوّية، و يقتل التنين الذي في البحر) (اشعيا 1:27) (ص12).

– و قوله

"And what thing soever besides cometh within the chaos of this monster's mouth, be it beast, boat, or stone, down it goes all incontinently that foul great swallow of his, and perisheth in the bottomless gulf of his paunch."

Holland's Plutarch's Morals. (p11).

– و ترجمتها بـ (و أيما شيء اقترب من واقوصة [1] فكّي ذلك الوحش، سواء أكان حيواناً أم قارباً أم صخرة، انحدر في تلك "البالوعة" الوبيلة المنهومة، و تلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار) (الفقرة 31 من كتاب الأخلاق لفلوطارخس) (ص13).

– و قوله

"The Indian Sea breedeth the most and the biggest fishes that are: among which the Whales and Whirlpooles called Balaene, take up as much in length as four acres or arpens of land." *Holland's Pliny.* (p11).

– و ترجمتها بـ (و ينتج في البحر الهندي أكثر الأسماك و أكبرها، و من بينها الحيتان و الخطّارات التي تسمى البليّنات و يبلغ الواحد منها في مساحته أربعة أفدنة (640 قدماً مربعاً) أو أربعة أرفينات – و الأرفين 0.84 من الفدان).

(بليني 9/2 :4) (ص13).

– و قوله

"Scarcely had we proceeded two days on the sea, when about sunrise a great many Whales and other monsters of the sea, appeared. Among the former, one was of a most monstrous size. * * This came towards us, open-mouthed, raising the waves on all sides, and beating the sea before him into a foam."

Tooke's Lucian. "The True History." (p12).

– و ترجمتها بـ (و لم نكن قد تقدمنا مسافة يومين في البحر حتى ظهر لنا عند الشروق عدد كبير من الحيتان و وحوش البحر الأخرى و كان أحد الحيتان بالغ الجسامة... انتحى نحونا، فاغر الشدقين و هو يرفع الموج من كل جانب، و يخبط الماء أمامه زبداً) (التاريخ الصحيح للوقيان–الكتاب الأول) (ص13).

– و قوله

"The sovereignest thing on earth is parmacetti for an inward bruise."

King Henry. (p13).

– و ترجمتها بـ (خير ما في الأرض لعلاج جرح دخيل هو زيت الحوت).

(الملك هنري الرابع 1:3/57–58) (ص14).

– و قوله

"Very like a whale."

Hamlet. (p13).

- و ترجمتها بـ (كأنّه حقاً حوت) (هملت 2/3 :399) (ص14).

ثمة هنا أمر تشترك فيه جميع الترجمات العربية، و هو أنّ المترجم قد زود فيها القارئ بمعلومات لم يأتي الكاتب على ذكرها في نصه الأصلي. و قد تنوعت هذه المعلومات بين أرقام الترنيمات و الفقرات، و عناوين الكتب و أسماء العلم القائلين و ما إلى ذلك. و قد أقر المترجم بأنّ ذكر جميع هذه الأمور يعد حاسماً عند القيام بأي استشهاد (quotation)، بل إنّها تعتبر من أبجدياته الأولى بخلاف ملفل Melville الذي لم يعر هذا البعد الاهتمام كله لكونه قد أسقط في السواد الأعظم من الاستشهادات أموراً رئيسة فيها حتى أنّه قد اكتفى أحياناً بالحرف الأول من اسم العلم القائل، و هو ما يكون قد اعتبره المترجم خطأ ينبغي تصويبه. و قد قدّرنا أنّ مثل هذه المعلومات الآنف ذكرها تندرج ضمن استراتيجية التعليق داخل النص (intratextual gloss) لكونها جاءت في سياق الترجمة نفسها و اتصلت بالثبت المرجعي الضروري عند كل اقتباس. ذلك ما أشار إليه خافيير آيكزيلا Javier Aixelà في أنّ التعليق بنوعيه (التعليق داخل النص (intratextual gloss) و التعليق خارج النص (extratextual gloss)) يُعنيان بمسائل ثلاثة: تجاوز معضلات الغموض، و تفسير المعاني التضمينية للكلمات الخصيصة بالثقافة (CSIs)، و توظيف الاستشهادات.

- قول الكاتب

"Which to secure, no skill of leach's art
Mote him availle, but to returne againe
To his wound's worker, that with lowly dart,
Dinting his breast, had bred his restless paine,
Like as the wounded whale to shore flies thro' the maine."

The Fairie Queen. (p13).

- و ترجمتها بـ

(لم تجده شيئاً براعة الحجام، و كان عليه

إن شاء الشفاء، أن يعود كرة أخرى

إلى الذي سبب جرحه، حين رماه بسهم غائر

شكّ به صدره، و ابتعث فيه الألم المبرّح،

عودة الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل). (من قصيدة « The Fairie Queen » لسبنسر 6/ النشيد 10/ القطعة: 31) (ص14-15).

الشيء نفسه ينطبق على هذه الترجمة، بحيث يزود المترجم القارئ العربي باسم مؤلف هذه القصيدة (سبنسر)، و رقمي

النشيد و القطعة، و هذا كله لم يذكره صاحبه في النص الأصلي الذي اكتفى بعنوان القصيدة فقط. و يمكننا القول بأنّ إحسان عباس كان همه الأول التوثيق الشامل لكل الاستشهادات، و عدم الحيد عن النهج المتعارف عليه أكاديمياً حين النقل عن لسان الغير.

6. الإقتراض (borrowing)

– قول الكاتب

"Which to secure, no skill of leach's art
Mote him availle, but to returne againe
To his wound's worker, that with lowly dart,
Dinting his breast, had bred his restless paine,
Like as the wounded whale to shore flies thro' the maine."

The Fairie Queen. (p13).

– و ترجمتها بـ

(لم تجده شيئاً براعة الحجام، و كان عليه
إن شاء الشفاء، أن يعود كرة أخرى
إلى الذي سبب جرحه، حين رماه بسهم غائر
شكّ به صدره، و ابتعث فيه الألم المبرّح،
عودة الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل).

(من قصيدة « The Fairie Queen » لسبنسر
6/ النشيد 10/ القطعة: 31) (ص14–15).

يوظف المترجم الإقتراض (borrowing) في قوله (من قصيدة « The Fairie Queen ») بأن اختار المحافظة على العنوان الأصلي للقصيدة الانجليزية (The Fairie Queen) بدلاً من استنساخه صواتمياً إلى اللغة العربية، و هو الإجراء الذي عكف على القيام به مراراً و تكراراً في نقل هذه الرواية كأن يقول (دو فيري كويين)، أو أن يلجأ إلى الترجمة اللسانية و يقول (الملكة الساحرة (أو الفاتنة))، و هو ما تعنيه كلمة (fairie) في اللغة الانجليزية التي تعتبر (enchanted) إحدى مرادفاتها. ينتمي الإقتراض (borrowing) إلى استراتيجيات التغريب، بحيث يوظفه المترجمون في حال وجود هوة ميتالغوية بين اللغتين المنقول منها و المنقول إليها، أو لكي يضيفوا نكهة محلية (a local flavor) إلى نصوصهم من خلال ما هو مقترض ليشعروا القراء بالغرابة التي ستذكرهم بثقافة الآخر المختلف و بيئته كما هو الحال

مع المترجم هنا.

يتبين لنا من كل هذه الأمثلة أنّ إحسان عباس قد تمكن من فهم نص الرواية الأصلي و جميع تعرجاته فهماً عميقاً، و أنّه قد اشتغل –اشتغال الخبير العارف– على البنيتين السطحية و العميقة. و على الرغم من تباعد الثقافتين الانجليزية و العربية شكلاً و مضموناً، و اختلاف أنظمتهما اللغوية الأصلية و الفرعية إلاّ أنّ المترجم قد استطاع تجاوز كل الصعوبات المرتبطة بهذه الاختلافات التي قد يستعصي تجاوزها حتى على أمهر المترجمين و أحذقهم، و نقل النص الأصلي من دون إسقاط لأي من مضامينه أو حذف لأي من أنساقه. و قد جاءت فصول الرواية مترجمة بالوتيرة نفسها و النسق ذاته مما سهل علينا كقراء الانتقال من فصل إلى آخر من دون أن نحس في الأسلوب تصدعاً أو في المعنى شرخاً.

و قد غلب على ترجمة هذه الرواية إلى اللغة العربية استراتيجية التدجين (domestication strategy) التي بدا توظيفها واضحاً من أسلوب النص العربي الذي تميّز بالسلاسة (fluency)، و عكف المترجم من خلاله على إفهام القارئ العربي بأحداث الرواية من دون أن يشعر هذا الأخير بالغرابة في اللغة أو ما يتعداها. و ما يثبت ذلك عدد استراتيجيات التدجين (domestication strategies) الموظفة التي بلغت أربع عشرة استراتيجية مقارنة باستراتيجيات التغريب (foreignization strategies) التي لم تتجاوز الست استراتيجيات فقط. و الجدير بالذكر أنّ هذه الاستراتيجيات التدجينية (domesticating strategies) التي لجأ إليها إحسان عباس قد تعاملت مع جميع مستويات اللغة المصدر من بنية و دلالة و ثقافة، و هو الشيء الذي يجعل من هذه الرواية المرجع الرئيس في الترجمة التدجينية لكل دارس يبتغي فهم آليات التدجين و طرق عمله.

و ثمة استراتيجيتين تغريبيتين قد يعدهما البعض ضمن استراتيجيات التدجين (domestication strategies) هما التعليق خارج النص (extratextual gloss) و التعليق داخل النص (intratextual gloss). غير أننا و بعد تفحص نموذج خافيير آيكزيلا Javier Aixelà الترجمي، و تدبر كل إجراء فيه وجدنا أنّه من الضرورة بما كان أن نعيد إلقاء الضوء على ماهية استخدام الهوامش (footnotes) و التعليقات (glosses) –التي قد يتغير مفهومها و طرق توظيفها من منظر إلى آخر، و بالتالي نوعها و الهدف المتوخى منها– من خلال هذه المدونة. لتكون النتيجة –بسند نظري صحيح قوامه منظور آيكزيلا Aixelà الترجمي– أنّها استراتيجيات تغريبية (foreignizing strategies) خاصة و أنّ استخدامها يتلازم دائماً مع وجود الكلمات الخصيصة بالثقافة ((Culture-specific Items (CSIs) التي تعتبر من أهم الأبعاد المولدة لاستراتيجيات التغريب بصرف النظر عما إذا كانت مسميات ثقافية لأشياء مادية أو معنوية، و هو المفهوم نفسه المعبر عنه من قبل بيتر نيومارك Peter Newmark بالكلمات الثقافية (Cultural words)، ليأتي توظيف هذان النوعان من التعليقات (التعليق خارج النص (extratextual gloss)

و التعليق داخل النص (intratextual gloss)) في حالات محددة و مضبوطة هي وجود الاستشهادات (quotations)، و تفسير ما أضمر من معاني الكلمات الخصيصة بالثقافة، و تجاوز مشكلات الغموض.

و يمكننا القول أنّ رواية (Moby-Dick) الانجليزية قد تمكنت و بجدارة من المحافظة على جميع أبعادها الجمالية (aesthetic) و الإخبارية (informative) في اللغة المنقول إليها، و أنّه على الرغم مما تحتويه النصوص الأدبية عامة من مستويات لغوية مختلفة، و إشارات لا تنتهي لأسماء شخوص و أسماء طوبونيمية، و تداخل في الأحداث و الحبكات و الأطر الزمكانية و غيرها إلا أنّ اللغة العربية قد استطاعت محاكاة جميع هذه الأطر بكل يسر، كما أثبت إحسان عباس –المترجم الهدفي (targeter) بامتياز– ذاته بأن جعل نص الترجمة حيزاً ليبرز ملكاته التأليفية المبدعة. و تعد هذه الصفات من أبرز المعالم المائزة للمترجم ذي النزعة التدجينية، إذ يطلق العنان لشخصه كاتباً و معبراً خاصة و نحن أمام نص أدبي تشكل الخاصية التعبيرية إحدى أهم الوظائف فيه، و العلة هي أنّ التقيد بالنص الأصلي حرفياً، و الانسياق وراء كل غريب فيه ليس في الحقيقة –بالنسبة لكل مترجم تدجيني– إلا طمس لشخصه و مساس بسمعته و إلحاق الضرر بعمله. و يبقى المترجمون –بين التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)– في رحلة غدو و رواح لا تنتهي تمليها ميولهم لأحد التوجهين و انتمائهم لأهل المصدر أو أهل الهدف، غير أنّه ينبغي الانتباه إلى وجود عوامل أخرى تلقي بظلالها على عملية الانتقاء بينهما منها مشروع الترجمة العام (la démarche générale de la traduction)، و مدى معرفة القراء بمكنون الثقافتين المترجم منها و المترجم إليها –إئتلافاً و اختلافاً– و نبوغهم في ذلك.

الخاتمة

انطلاقاً من التساؤلات التي طرحناها في مقدمة الرسالة، و التحليل المفصل لها في المتن، توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوردها في ما يلي:

- إنّه لمن الصعوبة بما كان أن نحيط بمفهوم دقيق للثقافة (culture)، إذ يختلف مفهومها من دارس إلى آخر، و تتنوع أشكالها و أنماطها و كذا تجلياتها من نظرية إلى أخرى، و بالتالي فإنّه من الضروري الاشتغال على هذا البعد الإنساني كماً و نوعاً، و تفحص مقوماته و بدائله و متغيراته بالرجوع إلى الفكر الغربي، الكلاسيكي و الحداثي على حد سواء.
- تربط الترجمة و الثقافة علاقة وطيدة و متأصلة، إذ تعد هذه الأخيرة من أهم العوامل المتدخلة في الفعل الترجمي، و هو ما أدى إلى ظهور العديد من النظريات (theories) و المقاربات (approaches) التي عُنيت بهذا الجانب في علم الترجمة، بل قد شكل هذا الاهتمام في حد ذاته منحى يوصف من قبل الكثيرين بالتاريخي بعد أن كان الدرس الترجمي مقتصراً على النقل اللساني و تبديل البنى و المستويات في معزل عن كل خلفية اجتماعية و حضارية.
- لقد أدت هذه العناية المباشرة بالثقافة، و الاشتغال الحثيث عليها إلى إدراك معوقات أخرى تكتنف الفعل الترجمي عامة: تعذر نقل البعد الثقافي الذي يقبع وراء دهاليز البنى اللسانية، و السبب في ذلك (الغيرية) (l'altérité-otherness) التي يفرضها وجود الآخر المختلف، و هو الوضع الذي يفرض على المترجم أيضاً إيجاد الطرق القمينة بحفظ الشحنة الثقافية من الضياع في غيابات الجهل و الارتجال قدر ما أمكن الذي سيفضي إلى نص أجوف هو كالجسد بلا روح.
- يولّد كل فعل ترجمي احتكاكاً بالآخر في مناحي الحياة كلها ما أدى إلى بلورة فعل متولد يصاحب النقل في كل زمان و مكان هو الفعل التثاقفي (acculturation) الذي عرفته الأمم الأولى بفضل الترجمة التي أنشأت روابط التواصل و بعثت أواصر التبادل في شتى حقول المعرفة و ميادينها. و قد نجم عن ذلك إخصاب للثقافات البشرية عبر تغيير نماذجها البدئية (original patterns) بأخرى الذي أعاد تشكيل تاريخها و تراثها و أدبها، بل إنّه قد قلب كيانها كله ما يملي علينا حتمية العناية بهذا الجانب عبر مقارنة النماذج الثقافية قبل النقل و بعده، و تمحيص نتائج ذلك نظرياً و عملياً.
- يتجسد كل فعل ترجمي عبر مسار معين يلجأ فيه المترجم إلى العديد من العمليات الذهنية (mental operations) و النصية (textual operations). و يتطلب منه ذلك توظيف الوسائل المساعدة في القراءة و التحليل و النقل و إعادة الصياغة و المراجعة و غيرها. و قد كان لزاماً علينا أن نسبر أغوار هذه الوسائل التي نقصد بها الاستراتيجيات (strategies) و الإجراءات (procedures)، و أن نتدبر ماهيتها

و نقارب خصائصها المتنوعة. و توصلنا إلى مجموعة من النتائج في هذا الصدد كان أهمها شساعة الهوة بين مفهوم هاتين الوسيلتين من جهة، و طرق تطبيقهما من جهة أخرى و ذلك من منظور المشتغلين في حقل الترجمية باختلاف مشاربهم الفكرية و النظرية.

- إنّ الحديث عن مفهوم الاستراتيجيات (strategies) عامة و عند المترجمين خاصة يقودنا إلى معالجة أنماطها و أنواعها. و ينبغي الإشارة هنا إلى غياب الطرح الترجمي العربي عن هذا الموضوع ما جعلنا نلتفت صوب ما جاء به المنظرون الغربيون الذين أوفوا لهذا البعد حقه من الدراسة و النقد. و قد تبيّن لنا أيضاً أنّه ثمة الكثير من التصنيفات الاستراتيجية المختلفة في علم الترجمة التي حاولنا الخوض في بعضها مفصلين، و إبراز خصائص كل واحد منها و كيف أنّها تمد يد العون للمترجم في سعيه المتواصل لإيجاد السبل الكفيلة بنقل المرسلة في أطر سوية لا تشكو القصور أو العوج.
- على الرغم من المسميات العديدة التي أطلقها المنظرون على استراتيجيات الترجمة، و تباين الرؤى حول أنواعها و طرق توظيفها قد توصلنا في السياق ذاته إلى الإبانة عن حقيقة جوهرية شكلت لب هذا النقاش كله، و التي مفادها أنّ ما من استراتيجية ترجمية إلا و تنتمي حصرياً إلى أحد التوجهين: إما أن يكون المترجم فيها من أهل المصدر (Sourcerer) أو أن يكون من أهل الهدف (Targeter). و يعود الفضل في ذلك إلى الفيلسوف الألماني فريدريش شلايرماخر Friedrich Schleiermacher الذي كانت مداخلته بمثابة الدعامة الأولى لاستراتيجيتي التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) الترجميتين، و هو ما شكل تمهيداً لموضوع دراستنا الرئيس و مدخلاً له.
- يشتمل أي توصيل لغوي على توصيل ثقافي (cultural conveyance) الذي يتم عبر استراتيجيات متنوعة تتفاوت من جهة الماهية و طرق التطبيق. و قد عكفنا على دراسة النماذج الاستراتيجية التي خصت كل من أنطوان برمان Antoine Berman و لورانس فينوتي Lawrence Venuti و بول باندیا Paul Bandia و المقارنة بينها، كما أننا لم نهمل استراتيجيات أخرى مثل التكييف (adaptation) و التمركز العرقي (ethnocentrism) و التهجير/العصرنة (archaization/modernization). و قد اتضح أنّ جميع هذه الاستراتيجيات –خاصة ما ارتبط بالنزعة التحويلية ذات القصد التحريفي لصاحبها برمان Berman– تسهم بشكل أو بآخر في محو الغريب أو الانسياق وراءه. ناهيك عن أنّها تنطوي جميعها على كل مكونات اللغة البنيوية و الضمنية، و مستوياتها الدلالية و النسقية و لا تقصي أياً منها.
- تتسم كل ترجمة كونها تدجيناً (domestication) أو تغريباً (foreignization)، بحيث تشتمل جميع النظريات

و المقاربات الترجمية في الغالب على تصنيف إجرائي معيّن الذي يمكن أن يدرج و بسهولة ضمن أحد التوجهين. و بما أنّ لورانس فينوتي Lawrence Venuti يعتبر أحد المنظرين المحدثين الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع سياسياً و أيديولوجياً و اجتماعياً فإنّه كان من الضروري مناقشة آرائه و من ثم الخوض في ماهية التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) عامة، و أهم المسائل المصاحبة لهما كالسلاسة (fleuncy)، و الألفة (familiarity)، و السماجة (awkwardness)، و الغرابة (exoticism)، و كيف يتجسد هاذان المنهجان على مستوى نص الترجمة، و ما هي الأسس التي يرتكزان عليها في ذلك. كما أوردنا آراء شلايرماخر Schleiermacher الترجمية حول هاتين الاستراتيجيتين و تبعاتها الثقافية و القومية. و قد أثبتت آراء كل من فينوتي Venuti و شلايرماخر Schleiermacher أنّ كل من التدجين (domestication) و التغريب (foreignization) في الترجمة قد يوظفان كسلاح ضد الامبريالية و النرجسية الثقافية، و يعملان على الحد من هيمنة الثقافات المسيطرة عالمياً بالإضافة إلى قابليتهما في أن يتناوبا ضمن أطر النص نفسه. ذلك ما زكته النماذج الترجمية التي انتخبناها (جورج ل.باستين Georges L.Bastin، و ساره لافيوسا-بريثويت Sara Laviosa-Braithwaite، و فيني و داربلنيه Vinay et Drarbelnet، و مالكوم هارفي Malcom Harvey، و فرانكو خافيير آيكزيلا Franco Javier Aixelà) لتبيان الفوارق المائزة بين التدجين (domestication) و التغريب (foreignization)، و للتمهيد للفصل التطبيقي؛ كل ذلك بكثير من المراجعة و التقريض.

- و من خلال المدونة التي تمثلت في نص الرواية الانجليزية (Moby-Dick) لمؤلفها هرمان ملفل Herman Melville و ترجمتها العربية (موبي ديك) لصاحبها إحسان عبد القادر عباس، و عديد الأمثلة المستقاة تطرقنا بالتفصيل إلى أنواع الاستراتيجيات التدجينية (domesticating strategies) و التغريبية (foreignizing strategies) التي وظفها إحسان عباس في نقل هذه الرواية إلى اللغة العربية، و كيف أنّه تمكن من تدجينها عبر تسليسها و محو الغريب فيها، و لذلك آثرنا تسميته بالمترجم الهدفي الذي سعى بكل ما أوتي من حيل و وسائل إلى أن يبدو النص المترجم طبيعياً لقارئه في اللغة الهدف، و أن يفهم هذا الأخير كل المسائل المرتبطة بأحداث الرواية و على المستويات كافة من دون عناء كبير كما لو أنّ النص قد كتب أصلاً باللغة العربية و لم ينقل عن نص أصلي آخر. و قد أفصح هذا التدجين أيضاً عن قدرات اللغة العربية في أنّها تقبل التطويع في مختلف القوالب و الأشكال، و أن تتجسد في مختلف الصور و الهيئات بفضل إمكاناتها التعبيرية الهائلة و ميزاتها البنيوية التي انفردت بها عن غيرها من اللغات؛ لتبقى هذه الرواية –نصاً أصلياً و ترجمة– من أبلغ الأعمال الأدبية تعبيرياً

و تصويراً، و أجملها رونقاً و جمالاً، و صاحبيها من القامات البارزة الأول في التأليف (authoring) و الثاني في المشاركة فيه (co-authoring).

الملاحق

الملحق 1

بطاقة تعريف

(هرمان ملفيل Herman Melville)

ولد ملفل Melville في نيويورك New York العام 1818 لعائلة تشتغل في التجارة، لكن سرعان ما ساءت أوضاعها المادية إلى أن أفلست. عمل ملفل بعدها كخادم على ظهر سفينة أبحرت إلى انجلترا سنة 1837. و قد كان لهذا الاحتكاك بالبحر في هذه المرحلة الدور الكبير في إعداده أدبياً و صقل موهبته الإبداعية بسبب معايشته أجواء الإبحار و طقوسه. و لما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية أكمل تعليمه قبل أن يُبحر مرة أخرى العام 1841 على متن سفينة مخصصة لصيد الحيتان. و بعد رحلة دامت ثمانية عشر شهراً، غادر ملفل Melville السفينة في جزر (الماركيز) (Marquesas) ليعيش بين السكان المحليين هناك مدة شهر. و قد زار أثناء هذه الفترة تاهيتي و هاواي، ليخدم بعدها كبحار نظامي على متن فرقاطة للبحرية الأمريكية العام 1843 و لمدة سنة[1].

و قد حققت جميع روايات ملفل Melville شعبية كبيرة، نذكر من بينها رواية (Typee: A Peep at Polynesian Life) التي نشرت العام 1846، و رواية (Omoo : A Narrative of Adventures in the South Seas) التي نشرت سنة 1847، ثم رواية (Redburn: His First Voyage) التي نشرت العام 1849 و المستوحاة من رحلته البحرية الأولى، فرواية (White Jacket) التي قُدمت للجمهور سنة 1850، و التي يسرد فيها خلاصة تجاربه في البحرية الأمريكية. و ثمة أيضاً رواية (Billy Budd) التي نشرت العام 1891 و اقتبست إلى مسرحية و إلى فيلم سينمائي ثم إلى أوبرا سنة 1951. كما يمتلك ملفل Melville في رصيده الأدبي بعض الأشعار التي صارت تحظى بتقدير متزايد[2]. و قد شكل انتقال ملفل Melville إلى مزرعة قرب بتسفيلد (Pittsfield) في ماسشوستس (Massachusetts) العام 1850 حدثاً بارزاً في حياته، و السبب هو أنّه تعرف إلى الكاتب نثانيال هاوثرون Nathaniel Hawthrone الذي أصبح بمثابة صديقه الحميم. و قد ترك هاوثرون Hawthrone أثراً بالغاً في ملفل Melville لدرجة أنّه أهداه روايته الشهيرة (موبي ديك) (Moby Dick) التي نشرت سنة 1851.

---

(1)الموسوعة العربية (http://www.arab-ency.com)، المجلد437. (تمت آخر زيارة للموقع بتاريخ 2014/10/04 على الساعة 11.00 صباحاً).

(2)م ن.

الملحق 2

بطاقة تعريف

(إحسان عباس)

إنّ مترجم رواية (موبي ديك) (Moby Dick) إلى اللغة العربية هو إحسان رشيد عبد القادر عباس، الأديب و الناقد و المؤرخ العربي المعروف. ولد إحسان عباس في عام 1920 بقرية (عين غزال) بفلسطين، درس المرحلة الابتدائية بقريته و أكمل المرحلة الثانوية بحيفا و عكا؛ ثم أُرسل إلى الكلية العربية بالقدس فحصل على الثانوية سنة 1939 و على أهلية التعليم سنة 1941 ليعيّن بعد تخرجه كمدرس بثانوية (صفد) حتى العام 1946 عندما أُرسل لدراسة الأدب العربي بجامعة القاهرة فانغمس فيها بالنهل من المكتبات المتوافرة هناك، و تعرّف على أساتذة و كتاب كبار من أمثال شوقي ضيف و أحمد أمين ليشترك معهما في تحقيق موسوعة (خريدة القصر، و جريدة العصر) للعماد الأصفهاني سنة 1952. كما شارك إحسان عباس في منتدى الباحث لمؤسسه محمود محمد شاكر[1]. و قد امتزجت حياة إحسان عباس في هذه الفترة –بالإضافة إلى حب المطالعة و التلذذ بالمعرفة– بويلات الحرب و آلام الفقر بسبب الغربة و حرب 1948، إذ تشرد أهله بعد أن دُمرت قريتهم ما أدى بالكثير من الفلسطينيين إلى اللجوء إلى دول الجوار كالأردن و سوريا. و لو لا وقوف الأصدقاء إلى جانبه و عائلته لنالت منهم المعاناة، ولربما لم يكن ليتسنى لنا عندها أن نسمع عن هذه القامة أبداً.

و قد حصل إحسان عباس على الإجازة في الأدب سنة 1949 من جامعة القاهرة، و على الماجستير العام 1951 عن رسالته المعنونة بـ (حياة الأدب العربي في صقلية)، ليلتحق بجامعة الخرطوم في العام نفسه كأستاذ مدرس، و ينال بعد ذلك درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة 1954. و قد مكث يدرس و يشرف على الرسائل بجامعة الخرطوم حتى العام 1961 لينتقل بعدها إلى التدريس بالجامعة الأمريكية ببيروت حتى سنة 1986، ثم إلى عمان بالأردن أين عاش بها حتى وفاته. كما كانت لإحسان عباس تجربة بالولايات المتحدة الأمريكية أين عمل كأستاذ زائر بجامعة برنستون (Brenstone) بين عامي 1975 و 1977[2].

ألّف إحسان عباس قرابة المائة كتاب بمفرده أو بمشاركة مؤلفين آخرين. و أوردت كل البيانات المتعلقة بهذه المؤلفات في موسوعة الأب روبرت كامبل اليسوعي[*] لأعلام الأدب العربي المعاصر من قبل وداد القاضي بإسهام من أخيه بكر عباس. و تدور أهم المواضيع التي تطرق إليها إحسان عباس في فلك الغربة، و التجديد في التراث العربي و تأهيله

---

(1)الموسوعة العربية، م س، المجلد772.

(2)م ن.

(*)روبرت كامبل اليسوعي، أعلام الأدب العربي المعاصر، سير و سير ذاتية، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر، جامعة القديس يوسف، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1996.

بالإبداع، و النقد في تقنيات أدبية متعددة مثل (فن الشعر)، و (فن القصة)، و (فن المسرحية)، و (تاريخ النقد الأدبي). كما حقق في حياته إثنين و خمسين موسوعة في الأدب العربي، و كتب كذلك السيرة (غربة الراعي) العام 1996.

و أبرز ما نُشر لإحسان عباس (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، و ألّف مع محمد نجم (النقد الأدبي و مدارسه الحديثة)، و أسهم في نشر عدد من المصنفات التاريخية مثل (الوافي بالوفيات) لصلاح الدين بن أيبك الصفدي، و (وفيات الأعيان) لابن خلكان، و (معجم الأدباء) لياقوت الحموي، و (نفح الطيب) للمقّري.

الملحق 3

غلاف الرواية الانجليزية الأصلية

(المعتمدة في هذا البحث)

MOBY-DICK;

OR,

THE WHALE.

BY

HERMAN MELVILLE,

AUTHOR OF

"TYPEE," "OMOO," "REDBURN," "MARDI," "WHITE-JACKET."

NEW YORK:
HARPER & BROTHERS, PUBLISHERS.
LONDON: RICHARD BENTLEY.
1851.

الملحق 4

غلاف الرواية المترجمة إلى اللغة العربية

تبث المصطلحات

تبث المصطلحات (انجليزي/عربي)

الكلمة/المصطلح الانجليزي	المقابل العربي
Acculturation	المثاقفة
Adaptation	التكييف
Adaptation strategies	استراتيجيات التكييف
Adjustment	التعديل
Alternatives (culture)	البدائل (الثقافة)
Annexion	الإلحاق
Appropriation	الاستملاك
Arabization	التعريب
Archaization	التهجير
Archaization strategy	استراتيجية التهجير
Archaizing (process of)	التهجير (سير عملية)
Assimilation	الإدماج
Background	خلفية
Background knowledge	الخلفية المعرفية
Blockage problems	المشكلات الانسدادية
Civilization	الحضارة
Civilization	المدنية*
Communicative translation	الترجمة التواصلية
Componential analysis	تحليل المكونات
Comprehension strategies	استراتيجيات الفهم
Conservation	الانحفاظ
Context	السياق
Covert translation	الترجمة المعماة
Creativity strategies	استراتيجيات الإبداع
Cultural conveyance	التوصيل الثقافي

Cultural dimension	البعد الثقافي
Cultural filter	المرشح الثقافي
Cultural implications	التضمينات الثقافية
Cultural substitution (adaptation)	الاستبدال الثقافي (التكييف)
Cultural turn	المنحى الثقافي
Cultural words	الكلمات الثقافية
Culture	الثقافة
Culture	الحضارة*
Culture trait	السمات الثقافية
Culture-specific Items (CSIs)	الكلمات الخصيصة بالثقافة (ك.خ.ث)
Dialect	لهجة محلية
Dialectal domestication	التدجين اللهجي
Domestic canons	القواعد المحلية
Domesticated (translation)	مُدَجَنَة (الترجمة)
Domesticating (process of)	التدجين (سير عملية)
Domestication	التدجين
Domestication strategy	استراتيجية التدجين
Dynamic equivalence	التكافؤ الديناميكي/الدينامي
Equivalence	التكافؤ
Equivalent	المكافئ
Ethnocentric translation	الترجمة المتمركزة عرقياً
Ethnocentrism	التمركز العرقي
Exoticism	غرابة
Explicitation	الإبانة
Extratextual gloss	التعليق خارج النص
Familiarity	الألفة
Fleuncy	سلاسة
Fluent translation	الترجمة السلسة

Fluidity	انسيابية
Foreignization	التغريب
Foreignization strategy	استراتيجية التغريب
Foreignized (translation)	مُغَرَبَة (الترجمة)
Foreignizing (process of)	التغريب (سير عملية)
Formal equivalence	التكافؤ الشكلي
Gain/loss	الربح/الخسارة
Global strategies	الاستراتيجيات الشمولية
Idiolect	لهجة شخصية
Idiomatic	لسني/اصطلاحي
Idiomatic translation	الترجمة اللّسنية
Idiomaticity	لسنية
Inferencing strategies	الاستراتيجيات الاستنتاجية
Intratextual gloss	التعليق داخل النص
Invisibility	اختفاء/خفاء
Lexical simplification	التبسيط المعجمي
Lingua franca	لغة مشتركة
Linguistic	لغوي
Literalness	الحرفية
Local norms	المعايير المحلية
Local strategies	الاستراتيجيات الموضعية
Localization	التحويل إلى مواصفات محلية
Macro-strategies	الماكرو استراتيجيات
Meaning	المعنى
Mediation	وساطة
Mental process (translation)	سير عملية (الترجمة) الذهني
Message	المرسلة
Metalinguistic	ميتالغوي

Micro-strategies	الميكرو استراتيجيات
Mirroring	انعكاس الصورة
Modernization	العصرنة
Modernization strategy	استراتيجية العصرنة
Modernizing (process of)	العصرنة (سير عملية)
Morpho-syntactic foreignization ambiguity	التغريب المرتبط بالغموض المورفو–تركيبي
Natural translation	الترجمة الفطرية
Naturalisation	التطبيع/الطبعنة
Nomadism	البداوة
Normalization	الاستنظام
Omission (adaptation)	الحذف (التكييف)
Organizational strategies	الاستراتيجيات التنظيمية
Original Cultural Patterns	النماذج الثقافية البدئية
Otherness/alterity	الغيرية
Overt translation	الترجمة الصريحة
Paraphrase (adaptation)	إعادة الصياغة (التكييف)
(Phonetic) transcription	الكتابة الصوتية
Phraseology	التعابيرية
Plans	خطط
Post-translating strategies	استراتيجيات ما بعد الترجمة
Pragmatic strategies	الاستراتيجيات التداولية
Pragmatic background foreignization	التغريب المرتبط بالخلفية التداولية
Procedural (translation strategy)	إجرائي (استراتيجية الترجمة)
Procedure	إجراء
Production strategies	استراتيجيات الإنتاج
Qualitative impoverishment	الاختصار الكيفي
Reading strategies	استراتيجيات القراءة
Resistant translation	الترجمة المقَاوِمة

استراتيجيات المراجعة	Revision strategies
قواعد	Rules
استراتيجيات البحث	Search strategies
الرقابة الذاتية	Self-censorship
إدراك الذات	Self-recognition
الاستراتيجيات الدلالية	Semantic strategies
التبسيط	Simplification
الموقف التواصلي	Situation of communication
لهجة اجتماعية	Sociolect
الترجمة الموجهة نحو الثقافة المصدر	Source culture-oriented translation
اللغة المنقول منها/اللغة المصدر	Source language–SL
النص المصدر	Source text–ST
مصدري (المترجم)	Sourcerer (translator)
الخصوصيات (الثقافة)	Specialities (culture)
التقييس/المقايسة	Standardization
استراتيجية	Strategy
الأسلوب	Style
التبسيط الأسلوبي	Stylistic simplification
الاستعاضة	Substitution
الترادف	Synonymy
التبسيط التركيبي	Syntactic simplification
الاستراتيجيات التركيبية	Syntactic strategies
تكتيكات	Tactics
الترجمة الموجهة نحو الثقافة الهدف	Target culture-oriented translation
اللغة المنقول إليها/اللغة الهدف	Target language–TL
النص الهدف	Target text–TT
هدفي (المترجم)	Targeter (translator)
تقنيات	Techniques

Text	النص
Text-analysis strategies	استراتيجيات تحليل النص
Textual (translation strategy)	نصي (استراتيجية الترجمة)
Textual middles	الوسطية النصية
Textual problems	المشكلات النصية
Textual process (translation)	سير عملية (الترجمة) النصي
Textual strategies	الاستراتيجيات النصية
Textual typology	النمطية النصية
Textuality	النصية (الخاصية/المعايير)
Thematic translation	الترجمة الموضوعاتية
Think-aloud protocols TAP_S	بروتوكولات التصريح
Transfer	النقل
Transfer strategies	استراتيجيات النقل
Translating situation	الوضع الترجمي
Translation by accumulation	الترجمة بالتجميع
Translation methods	منهجيات الترجمة
Translation Norms	معايير الترجمة
Translation procedures	إجراءات الترجمة
Translation process	سير عملية الترجمة
Translation strategies	استراتيجيات الترجمة
Translational competence	الكفاءة الترجمية
Transliteration	الاستنساخ الصواتمي
Transparence	شفافية
Transparent translation	الترجمة الشفافة
Unidiomatic	غير لسني
Universals (culture)	العموميات (الثقافة)
Universals of translation	جوامع الترجمة

مكتبة البحث

المصادر:

❖ القرآن الكريم

مدونة البحث:

❖ HERMAN MELVILLE, **MOBY-DICK; OR, THE WHALE**. HARPER & BROTHERS, PUBLISHERS, RICHARD BENTLEY. LONDON, 1851.

❖ **موبي ديك**، تأليف هرمان ملفل، ترجمة إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط2، 1980.

1. القواميس و المعاجم:

أ. العربية:

❖ ابن زكريا (أبو الحسين أحمد بن فارس)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1399هـ-1979م.

❖ ابن منظور (أبو الفضل بن مكرم)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1994.

❖ الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد)، **الصحاح**، تحقيق محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 1430هـ-2009م.

❖ حمادة (إبراهيم)، **معجم المصطلحات الدرامية و المسرحية**، دار المعارف، القاهرة، 1971.

❖ الخولي (محمد علي)، **معجم علم الأصوات**، مطابع الفرزدق التجارية، ط1، 1402هـ-1982م.

❖ صليبا (جميل)، **المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية و اللاتينية)**، دار الكتاب اللبناني، 1994.

❖ الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط**، تحقيق أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ-2008م.

❖ مبارك (مبارك)، **معجم المصطلحات الألسنية فرنسي-إنكليزي-عربي**، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995.

❖ **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1425هـ-2004م.

❖ الناهي (هيثم) و آخرون، **مشروع المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية للترجمة**، المنظمة العربية للترجمة، دط، دت.

ب. الأجنبية:

❖ **Dictionnaire Encyclopédique Quillet**, Librairie Aristide Quillet, Paris, 1983.

- **Encarta**, **Encyclopédie professionnelle Eléctronique**, 2005.
- **Le nouveau Petit Robert de la langue française 2010**, Nouvelle édition du Petit Robert de Paul Robert et Amplifié sous la direction de Josette Rey-Debove et Alain Rey, Normandie Roto Impression, 2010.
- **Le petit Larousse illustré**, 2013.
- **Oxford dictionary of English**, edited by Angus Stevensen, third edition, first edition by Judy Revrsall, Patrick Hanks, Oxford University Press, UK, 2010.
- Urdang (Laurence), **The Oxford Thesaurus: An A-Z dictionary of Synonyms**, De Luxe Edition, 1991.
- **Webster**, **New Twentieth Century Dictionary-unabridged**, U.S.A, 1978.

2. قائمة المراجع:

أ. العربية:

- ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ط1، 1428هـ-2007م.
- ابن النديم (محمد بن اسحاق)، **الفهرست**، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1997.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر، بيروت، 1982.
- ابن خلدون، **المقدمة**، ضبط و تقديم محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998.
- أبو فاضل (جينا)، **المترجم في عمارتي النص: الشكل سمة دخول إلى المعنى**، سلسلة المصدر الهدف، مدرسة الترجمة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة القديس يوسف، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2005.
- أفاية (محمود نور الدين)، **الغرب في المتخيل العربي**، منشورات دائرة الثقافة و الإعلام، الشارقة، ط1، 1996.
- أمين (قاسم)، **تحرير المرأة**، القاهرة، 1899.
- البازغي (سعد)، **مقاربة الآخر، مقارنات أدبية**، دار الشروق، 1999.
- بدوي (أمين عبد المجيد)، **جولة في شاهنامة الفردوسي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976.
- بديع (محمد جمعة)، **دراسات في الأدب المقارن**، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1980.
- بركات (محمد مراد)، **ظاهرة العولمة، رؤية نقدية، كتاب الأمة**، تقديم عمر عبيد حسنه، العدد86، السنة21، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط1، ذو القعدة 1422هـ/يناير- فبراير2001م.

- بكار (عبد الكريم)، **العولمة، طبيعتها، وسائلها، تحدياتها، التعامل معها**، دار الأعلام للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 1421هـ/2000م.
- بيوض (إنعام)، **الترجمة الأدبية مشاكل و حلول**، دار الفرابي، الجزائر، 2004.
- التازي (عبد الهادي)، **تحقيق رحلة ابن بطوطة**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.
- الجابري (محمد عابد)، **تكوين العقل العربي**، دار الطليعة، بيروت، 1984.
- الجاحظ (أبو عثمان بن بحر)، **البيان و التبيين**، دار الكتب العلمية، ط1، 1999.
- جلال (محمد شوقي)، **تقرير المسح الميداني لوضع الترجمة الراهن في الوطن العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، فبراير 2000.
- الجميلي (رشيد حميد حسن)، **حركة الترجمة في الشرق الإسلامي في القرنين الثالث و الرابع للهجرة**، الكتاب و التوزيع و الإعلان و المطابع، طرابلس، 1982.
- حمودة (عبد الرحمن)، **المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك**، سلسلة عالم المعرفة، العدد232، الكويت، نيسان 1998.
- الخطيب (عمر عودة)، **لمحات في الثقافة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991.
- خور رشيد (إبراهيم زكي)، **الترجمة و مشكلاتها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.
- الخولي (يمنى طريف)، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ديسمبر 2000.
- الدهان (سامي)، **رحلة ابن فضلان**، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960.
- الديدواي (محمد)، **الترجمة و التعريب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002.
- الرفاعي (أنور)، **الإسلام في حضارته و نظمه الإدارية و السياسية و الأدبية و العلمية و الاجتماعية و الاقتصادية و الفنية**، دار الفكر، دمشق، ط3، 1997.
- الزيات (أحمد حسن)، **تاريخ الأدب العربي**، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة، دت.
- زيادة (معن)، (مجموعة من المؤلفين)، **الموسوعة الفلسفية العربية**، معهد الإنماء العربي، ط1، 1987.
- زيادة (معن)، **معالم على طريق تحديث الفكر العربي**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يوليو 1987.

- سلام أبو الحسن (عبد الحميد)، **حيرة النص المسرحي بين الترجمة، الاقتباس و الإعداد و التأليف**، مركز الإسكندرية للكتاب، ط2، 1414هـ-1993م.
- سلوم (داود)، **دراسات في الأدب المقارن و التطبيقي**، وزارة الثقافة و الإعلام، دائرة الشؤون الثقافية و النشر، دار الحرية، بغداد، 1984.
- شاهين (عبد الصابور)، **في علم اللغة العام**، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط6، 1413هـ-1993م.
- شاهين (محمد)، **نظريات الترجمة و تطبيقها في تدريس الترجمة من العربية إلى الإنجليزية و بالعكس**، مكتبة دار الثقافة للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 1998.
- شهبندر (عبد الرحمن)، **القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي (الأعمال الكاملة)**، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، ط2، 1993.
- صبار (خديجة)، **المرأة بين المثلوجيا و الحداثة**، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999.
- طه (عبد الرحمن)، **فقه الفلسفة: الفلسفة و الترجمة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2008.
- طه (ندا)، **الأدب المقارن**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.
- الطهطاوي (رفاعة)، **مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- طوقان (قدري حافظ)، **تراث العرب العلمي في الرياضيات و الفلك**، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، دار الشروق، بيروت، 1990.
- عبد الغني (حسن محمد)، **فن الترجمة في الأدب العربي**، دار مطابع المستقبل، الإسكندرية، ط2، 1986.
- عبد الغني (مصطفى)، **شهرزاد في الفكر العربي الحديث**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1985.
- عبده (محمد)، **رسالة التوحيد**، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1979.
- عصفور (جابر)، **مؤتمر الترجمة و تفاعل الثقافات**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.
- العقاد (عباس محمود)، **أثر العرب في الحضارة الأوروبية**، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1960.
- عقلة عرسان (علي)، **حرية الإبداع في المجتمع العربي، الثقافة و الإبداع**، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، في الخطة الشاملة للثقافة العربية (2)، تونس، 1992.

- عمارة (محمد)، **العطاء الحضاري للإسلام**، سلسلة اقرأ، العدد626، دار المعارف، القاهرة، 1997.
- عناني (محمد)، **نظرية الترجمة الحديثة، مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة**، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، مصر، 2003.
- عياد (كامل)، **أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوروبيين**، ضمن أبحاث المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، 2-7 نيسان 1981.
- العيسوي (بشير)، **الترجمة إلى العربية، قضايا و آراء**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 2001.
- غيانت (غيرمو غوستافينو)، **الرحالة الكدود ابن بطوطة**، دار النشر المغربية، تطوان، 1999.
- فهيم (حسين)، **قصة الأنثرويولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان**، سلسلة عالم المعرفة، العدد98، الكويت، فبراير 1986.
- قحة (محمد كمال)، **الترجمة في العصر الحديث، تاريخها و قضاياها**، قرطاج، بيت الحكمة، 1989.
- قدري (محمد)، **رسالة جليلة في التمدن**، القاهرة، 1287هـ.
- كليطو (عبد الفتاح)، **الأدب و الغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006.
- لبيب (الطاهر)، **سوسيولوجية الثقافة**، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1978.
- لواساني (أحمد)، **العلاقات التاريخية بين العرب و الإيرانيين**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، تموز-يوليو 1996.
- مجدي (يوسف)، **التداخل الحضاري و الاستغلال الفكري**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993.
- محمد حسن (يوسف)، **كيف نترجم؟** دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1 أغسطس 1997/ط2 أبريل 2006.
- المحنك (هاشم حسين ناصر)، **موسوعة المصطلحات الإدارية و الاجتماعية و الاقتصادية و التجارية**، مطبعة المساحة، القاهرة، 2008.
- مرحبا (محمد عبد الرحمان)، **قراءات و تحليلات في الفلسفة العربية الإسلامية**، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1995.
- مرعي (فؤاد)، **في اللغة و التفكير**، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق، 2002.
- المسعودي (أبي الحسن علي)، **مروج الذهب و معادن الجوهر**، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية،

صيدا-بيروت، ط1، 1425هـ-2005م.

❖ معروف (ناجي)، **أصالة الحضارة العربية**، دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط3، 1975.

❖ الملا (أحمد علي)، **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية**، دار الفكر، دمشق، ط3، 1417هـ/ 1996م.

❖ ميلاد (زكي)، **المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة**، سلسلة الدراسات الحضارية، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2010.

❖ نظمي (محمد عزيز سالم)، **الثقافة و العقيدة الإسلامية**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و التوزيع، الإسكندرية، 1986.

❖ هلال (محمد غنيمي)، **الحياة العاطفية بين العذرية و الصوفية**، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976.

و الآداب، الكويت، يوليو 1987.

ب. المترجمة:

❖ ابن نبي (مالك)، **مشكلة الثقافة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000.

❖ أرنولد (توماس)، **تراث الإسلام**، عرّبه و علق حواشيه: جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، ط3، تموز (يوليو) 1978.

❖ أوبر سفيلد (آن)، **قراءة المسرح**، ترجمة مي التلمساني، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، وزارة الثقافة، القاهرة، 1994.

❖ برجر (آرثر)، **النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة**، ترجمة وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، العدد603، القاهرة، 2003.

❖ برمان (أنطوان)، **الترجمة و الحرف أو مقام البعد**، ترجمة و تقديم عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، أيار (مايو) 2010.

❖ بودون و بوريكو، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، ترجمة سليم حداد، بيروت، 1986.

❖ بيليز (رالف) و هويجر (هاري)، **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، ترجمة محمد الجوهري و آخرون، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1977.

❖ توملينسون (جون)، **الثقافة و العولمة**، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، العدد354، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 2008.

- جولز (هنري)، **مصطلح البدائية عند كيركغارد و هايدغر**، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد53، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1982.
- ريكور (بول)، **عن الترجمة**، ترجمة حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)/منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1، 2008.
- سارتون (جورج)، **تاريخ العلم**، ترجمة محمد خلف الله و آخرون، القاهرة، 1957.
- سلامة كار (مريم)، **الترجمة في العصر العباسي، مدرسة حنين ابن اسحق و أهميتها في الترجمة**، ترجمة نجيب عزّادي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998.
- شكسبير (وليام)، **هاملت**، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار المأمون، بغداد، 1986.
- شكسبير (وليام)، **هاملت**، ترجمة مؤيد الكيلاني، منشورات دار مكتبة الحياة، 1975.
- فينوتي (لورنس)، **اختفاء المترجم: تاريخ الترجمة**، ترجمة سمر طلبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009.
- كاتفورد (ج.س)، **نظرية لغوية في الترجمة**، ترجمة خليفة العزابي-محي الدين حميدي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1، 1991.
- كاريذرس (مايكل)، **لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية: نشأتها و تنوعها**، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1998.
- كلوكهون (كلايد)، **الإنسان في المرآة، علاقة الأنثروبولوجي بالحياة المعاصرة**، ترجمة شاكر مصطفى، المكتبة الأهلية، بغداد، 1964.
- كوش (دوني)، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002.
- ليفي ستروس (كلود)، **الأنثروبولوجيا البنيوية**، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1977.
- لينتون (رالف)، **الأصول الحضارية للشخصية**، ترجمة عبد الحميد اللبان، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964.
- لينتون (رالف)، **دراسة الإنسان**، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.
- مجموعة من الكتاب، **نظرية الثقافة**، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد223، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1978.
- المرنيسي (فاطمة)، **العابرة المكسورة الجناح "شهرزاد ترحل إلى الغرب"**، ترجمة فاطمة الزهراء أزروبيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2002.

- ميلز (سارة)، **الخطاب**، ترجمة يوسف بغول، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.
- نيف (جون)، **الأسس الثقافية للحضارة الصناعية**، ترجمة محمود زايد، دار الثقافة، بيروت، 1962.
- نيومارك (بيتر)، **الجامع في الترجمة**، ترجمة حسن غزالة، دار الحكمة للطباعة و النشر و التوزيع، طرابلس،دت.
- هارفي (روبنسون جيمس)، **الحضارة**، ترجمة علي إسلام، مطبعة مصر، القاهرة، 1965.
- هونكه (زيغريد)، **شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبة**، نقله عن الألمانية فاروق بيضون و كمال الدسوقي، راجعه و وضع حواشيه مارون عيسى الخوري، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980.
- وايرل ديورانت (ول)، **قصة الحضارة، الجزء الأول: نشأة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، ط2، 1959.

ج. الأجنبية:

- ABOU FADEL SAAD (Gina) et al., **Thèses et Synthèses, Traduction-Traductologie**, collection "SOURCES-CIBLES", Dirigée par Henri AWAISS et Jarjoura HARDANE, Ecole de Traducteurs et d'Interprètes de Beyrouth, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Saint-Joseph, 2011.
- Adrada Rafael (Cristina), **La traduction de la connotation onomastique en Littérature**, in la traduction, contact de langues et de cultures, Artois Presses Université, 2005.
- Aixelà (Franco Javier), **Culture-specific Items in Translation**. In Alvarez, R & Vidal, C., Translation, Power, subversion, Multilingual Matters Ltd, Cleveland/Bristol/Aldelaide, 1996.
- Atiya (Aziz S.), **Crusade, Commerce and Culture**, Indiana University Press, Bloomington, 1962.
- Baker (Mona) & Saldanha (Gabriela), **Routledge Encyclopedia of Translation Studies (2nd edition)**, Routledge, 2009.
- Baker (Mona), **In Other Words A Coursebook on Translation**, Routledge, London and New York, 1992-2001.
- Basalamah (Salah), **Translation rights and the philosophy of translation. Remembring the debts of the original** (in translation reflection, refraction, transformation), Edited by Paul St Pierre and Parafulla C Kar, John Benjamins publishing company, Netherlands, 2007.
- Basil (Hatim), **Teaching and Researching Translations**, Pearson Education Limited, London, 2001.

- Bassnett (Susan), **Translation Studies (3rd edition)**, Routledge, London and NewYork, 2005.
- BASTIN (GEORGES L.), **Adaptation**, in Routledge Encyclopedia of Translation Studies, Edited by Mona Baker, assisted by Kirsten Malmkjaer, Routledge, London and New York, 2005.
- Bénéton (Philippe), **Histoire de Mots: Culture et Civilisation**, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1975.
- Bergen (David), **Translation Strategies and the Student of Translation**, In Tommola J.(ed.): Kieli ja kulttuuri kääntäjän työvälineinä.Turku: University of Turku (Department of English Translation Studies), 2006.
- Berman (Antoine), **La traduction et la lettre ou l'auberge du lointain**, Editions du Seuil, Paris, 1999.
- Blum (Lauren) et al, **Community Assessment of Natural Food Sources of Vitamin A: Guidelines for an Ethnographic Protocol**, IDRC, Canada, 1997.
- Borofsky (Robert), **Making History: Pukapukan and Anthropological Constructions Of Knowledge**, Cambridge University Press, 1978.
- Burke (Edmond), **A philosophical Enquiry into the origin of our ideas of the sublime and beautiful**, Oxford University Press, N.Y, 1990.
- Chesterman (Andrew), Wagner (Emma), **Can Theory Help Translators? A dialogue between the ivory tower and the wordface**, St. Jerome Publishing, Manchester, Uk & Northampton, MA, 2002.
- Chesterman (Andrew), **Memes of Translation**, Benjamins: Amesterdam & Philadelphia, 1997.
- Chesterman (Andrew), **Teaching Strategies for Emancipatory Translation**, In Developing Translation Competence, Edited by Christina Schaffner & Beverly Adab, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, vol 38, 2000.
- Collini (Stefan), Arnold (Matthew): **Culture and Anarchy and Others Writings**, Cambridge University Press, 1993.
- De Waard (Jan), Nida (Eugene Albert): **Traduire d'une langue à une autre: l'équivalence fonctionelle en traduction biblique**, trad. Janine de Waard, Alliance universelle, 2003.
- Delisle (Jean), **La traduction raisonnée**, coll. Pédagogie de la traduction, Presses de l'Université d'Ottawa, Ottawa, 1993.
- Delisle (Jean), Lee-Jahnke (Hannelore), Cormier (Monique C), **Terminologie de la traduction**, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 1999.
- Delisle (Jean), Woodsworth (Judith), **Translators Through History**, volume 13, John Benjamins publishing company, UNESCO publishing, 1995.

- Eco (Umberto), **Dire presque la même chose, Expériences de traduction**, traduit de l'italien par Myriem Bouzaher, édition Bernard Grasset, paris, août 2007.
- Eldridge (Michael), **The German Bildung Tradition**, U.N.C Charlotte.
- Etkind (Efim), **Un Art en Crise, Essai poétique de traduction poétique**, traduit par W. Troubetzkoy avec la collaboration de l'auteur, Lausanne, l'Age d'homme, 1982.
- Faerch (Claus), Kasper (Gabriele), **Plans and strategies in foreign language communication**. In Claus Faerch & Gabriele Kasper, strategies in interlanguage communication, Longman, London, 1983.
- Folkart (Barbara**), Second Finding. A Poetics of Translation**, University of Ottawa Press, Ottawa, 2007.
- Foucault (Michel), **L'ordre du discours**, N.R.F Gallimard, paris, 1971.
- France (Peter), **The Oxford Guide to Literature in English Translation**, Oxford: Oxford University Press, 2000.
- Gambier (Yves), **Translation strategies and tactics**, in Handbook of translation studies, edited by Yves Gambier & Luc Van Doorslaer, vol.01, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, 2010.
- Geerts (Clifford), **The Interpretation of Cultures**, New York, Basic books, 1999.
- Ghazala (Hasan), **Translation as Problems and Solutions: A Course Book for University Students and trainee Translators**, Valetta: ELGA publications, 1995.
- Godelier (Maurice), **The Mental and the Material**, London, Verso, 1986.
- Guidère (Mathieu), **Introduction à la traductologie, penser la traduction: hier, aujourd'hui, demain**, collection Traducto, de boeck Université, Bruxelles, Belgique, 2008.
- Harris (Brian), Sherwood (Bianca), **Translation as an innate skill**, In Gever, D. & Sinaiko, H.W (eds), 1978.
- Hitti (Philip K.), **The Arabs, A Short History**, Gateway Editions, October, 1996.
- House (Juliane), **A Model for Translation Quality Assessment,** Tubingen: Gunter Narr, 1997.
- Jakobson (Roman), **On Linguistic Aspect of Translation**, in R.A Brower (ed), 1959.
- Jervis (J.), **Uncanny pressences**, In. Collins & Jeris (eds), Uncanny Modernity, Cultural Theories, Modern Anxities, Palgrave, N.Y., 2008.
- Kammoun (Raoudha), **Traduire la sexualité en arabe, Traduire la langue,**

traduire la culture, rencontres linguistiques méditerranéennes, Maisonneuve et Larose, 2003.

- Kraszewski (Charles), **Four Translation Strategies Determined by Particular Needs of the Receptor, Translation Theory Backwards**, Lewiston-Queenston-Lampeter, The Edwin Mellen Press, 1998.
- Kroeber (A..L), Kluchhohn (C.), C**ulture: A Critical Review of Concepts and Definions**, Cambridge, M.A, Peabody Museum, 1952.
- Kuhiwczak (Piotr), Littau (Karin), **A Companion to Translation Studies**, Library of Congress Cataloging in Publication Data, 2007.
- Ladmiral (Jean René), **Traduire, théorèmes pour la traduction**, Payot, Paris, 1979.
- Laval (Christian), Bentham (Jeremy), **Le pouvoir des fictions**, P.U.F, paris, 1994.
- LAVIOSA-BRAITHWAITE (SARA), **Universals of translation**, in Routledge Encyclopedia of Translation Studies, Edited by Mona Baker, assisted by Kirsten Malmkjaer, Routledge, London and New York, 2005.
- Leclerc (Lucien), **Histoire de la médecine arabe**, Tome II, Paris Ernest Leroux, 1876.
- Lefevere (André), **Translation, History, Culture, A Sourcebook**, Routledge, London and NewYork, 2003.
- **LES LIAISONS DANGEREUSES, Langues, traduction, interprétation**, COLLECTION "SOURCES-CIBLES", Dirigée par Henri AWAISS et Jarjoura HARDANE, Ecole de Traducteurs et d'Interprètes de Beyrouth, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Saint-Joseph, 2011.
- Linton (Ralph), **The Study of Man, An Introduction**, NewYork: D. Appletine Century Company, 1963.
- Mauss (Marcel), **Sociologie et Anthropologie**, PUF, 1968.
- Mccleon (James), Tylor (Edward Burnett), **Encyclopedia of Religion and Society**, ed. William Swatos and Peter Kivisto, Walnut Creek: Altamira, 1998.
- Mead (Margaret**), l'Anthropologie Comme Science Humaine**, traduit par Elisabeth le Quéré, Paris, Payot bibliothèque scientifique, 1971.
- Meschonnic (Henri), **Poétique du traduire**, Verdier, 1999.
- Milton (John), **Adaptation**, in Handbook of translation studies, edited by Yves Gambier & Luc Van Doorslaer, vol.01, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelphia, 2010.
- Mounin (Georges), **Les problèmes théoriques de la traduction**, Gallimard, 1963.
- Newmark (Peter), **Approaches to Translation**, Cambridge: Prentice Hall

International (UK) Ltd, Great Britain, 1988.

- NICHOLSON (REYNOLD A.), **TRANSLATIONS OF EASTERN POETRY AND PROSE**, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY PRESS, LONDON, 1922.
- Nida (Eugene), Taber (R. Charles), **The Theory and Practice of Translation**, published for the United Bible Societies, E.J Brill, Leiden, 1982.
- Oseki Dépré (Ines), **Théories et pratiques de la traduction littéraire**, Armand collin, 1999.
- Piotrowska (Maria), **Towards a Model of Strategies and Techniques for teaching Translation**, in Translators' Strategies and Creativity, edited by Ann Beylard-Ozeroff, Jana Králová and Barbara Moser-Mercer, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 1998.
- Pym (Anthony), as quoted in **Routledge Encyclopedia of Translation Studies**, edited by Mona Baker, 2001.
- Pym (Anthony), **pour une éthique du traducteur**, Collection «Traductologie», Artois Presses Université, Collection «Pédagogie de la traduction», Presses de l'Université d'Ottawa, 1997.
- REISS (Katharina), **La critique des traductions, ses possibilités et ses limites, catégories et critères pour une évaluation pertinente des traductions**, Traduit de l'Allemand par Catherine Bocquet, Collection « Traductologie », Artois Presses Université, 2002.
- Reiss (Katharina), **Translation criticism, The Potentials and limitations**, **categories and criteria for translation quality assessment**, traduit de l'Allemand par Erroll F. Rhodes, St. Jerome Publishing, American Bible Society, Manchester, New York, 2000.
- Ricardo Munoz (Martin), **Translation Strategies. Somewhere Over the Rainbow**, edited by Beeby Allison, Ensinger Doris & Presas Marisa, Investigating Translation: Selected Papers from the 4th International Congress on Translation, Barcelona, 1998, John Benjamins: Amsterdam & Philadelphia, 2000.
- Sandor (Hervey) & Higgins (Ian), **Thinking French Translation, A course in translation method: French to English**, Second Edition, Routledge, London and NewYork, 2002.
- Sarton (Georges), **Introduction to the History of Science**, Vol II, part I, Published by Williams and Wilkins Company, Baltimore, 1931.
- Schaffner (Christina), **Translation in the Global Village: Current Issues in Language and Society**, Multilingual Matters, UK, 2000.
- Shuttleworth (Mark), Cowie (Moira), **Dictionary of Translation Studies**,

St.Jerome publishing, Manchester UK, 1997-1999.

- Snell-Hornby (Mary) et al, **Translation as Intercultural Communication**: Selected Papers from The EST Congress, Prague, John Benjamin Publishing, Amsterdam and Philadelphia, 1995.
- Steiner (George), **The Hermeneutic Motion**, In Lawrence Venuti (The Translation Studies Reader), Routledge, London and New York, 2000.
- Stetting (Karen), **Transediting- a new term for coping with the grey area between editing and translating**, in G. Gaie et al. (Eds), Proceedings from the fourth Nordic conference for English studies, University of Copenhagen, Copenhagen, 1989.
- Sturge (Kate), **Representing Others, Translation, Ethnography and the Museum**, St. Jerome Publishing, Manchester, UK & Kinderhook (NY), USA, 2007.
- **The Complete Works of William Shakespeare**, Selfridge's, coltd, London, 1990.
- **The Routledge Companion to Translation Studies**, Revised Edition, Edited by Jeremy Munday, Routledge, London and NewYork, 2009.
- Tytler (Alexander Frazer), **Essay on the Principles of Translation**, In Amsterdam Studies in Theory and History of Linguistic Science, Series I – Amsterdam Classics in Linguistics, 1800-1925, New edition with an introductory article by Jeffery Huntsman, Edited by E. F. K. Koerner, Vol.13, Amsterdam: John Benjamin B.V, 1978.
- Venuti (Lawrence), **The Translator's Invisibility**, Routledge, London and New York, 1995.
- Vinay (Jean Paul), Darbelnet (Jean), **Stylistique comparée du français et de l'anglais, Méthode de traduction**, Didier, Paris, 1977.
- Vinay (Jean-Paul), Darbelnet (Jean), **A METHODOLOGY FOR TRANSLATION**, Translated by Juan C. Sager and M.-J. Hamel, In Lawrence Venuti (The Translation Studies Reader), Routledge, London and New York, 2000.
- Wheeler (Everett L.), **Stratagem and the Vocabulary of Military Trickery**, Leyde, Brill; Mnemosyne Supplement 108, 1988.
- Wiener (Philip) (ed), **Dictionary of the History of Ideas**, New York: Charles Scribmer's sons, (1), 1973.
- Williams (Raymond), **Culture and Society**, Peguin, 1988.
- Wolfgang (Lorscher), **Process-oriented Approaches to Translation and the Development of Translation Competence**, in Neubert, A., Shreve, G. & Gommlich, K. (eds), 1995.

❖ Yowell (Y.Aziz), S.Lataiwish (Muftah), **Principles of Translation**, Dar Annahda Alarabiya, Benghazi, Libya, 2000.

3. الرسائل الجامعية:

❖ عارف (نصر محمد)، **نظريات التنمية السياسية المعاصرة**، رسالة ماجستير غير منشورة (مخطوط)، كلية الاقتصاد و العلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1994.

4. المجلات و الدوريات:

أ. العربية:

❖ أبو الحسين (هيام)، **شهرزاد و تطور الرواية الفرنسية من الكلاسيكية إلى الرمزية**، فصول، ع2، ج3، م13، صيف 1994.

❖ أراغون (لوي)، **الصفوة المختارة، تجارب الثقافة**، ترجمة سامي الدروبي، مجلة المعلم العربي، العدد7-8، أيار-حزيران 1955.

❖ ألكسان (جان)، **الترجمة الأدبية و التنمية الثقافية**، مجلة الوحدة، العدد62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.

❖ البحرة (نصر الدين)، **الحضارة العربية و الترجمة**، مجلة التراث العربي، العدد63، السنة 16،نيسان (أبريل)/ ذو القعدة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996م- 1416هـ.

❖ برهون (رشيد)، **الترجمة و رهانات العولمة و المثاقفة**، مجلة عالم الفكر، العدد1، المجلد31، يونيو/سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 2002.

❖ بن سعاف اللّحياني (عبد الله)، **تخريج أحاديث زهر الآداب للحصري**، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد126، السنة 37، المدينة المنورة، 1425هـ.

❖ بنعبد العالي (عبد السلام)، **الترجمة و المثاقفة**، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.

❖ بوعزة (محمد)، **إستراتيجية الترجمة في (جمالية التلقي) لرشيد بنحدو**، العلم الثقافي، السنة35، السبت 6 نوفمبر، الرباط، 2004.

❖ جريدة **البيان**، العدد103، الأحد 15 شوال 1422هـ الموافق لـ 30 ديسمبر 2001.

❖ **جريدة الجوانب**، الأعداد: (12/20 1286هـ، 18/6 1286هـ، 11/29 1286هـ، 15/10

1286هـ- 15/31 1286هـ).

❖ حزل (عبد الرحيم)، **أسئلة الترجمة**، سلسلة شراع، العدد55، ماي 1999.

❖ حسنات (محمد عبد المجيد)، **صعوبات الترجمة الثقافية للحديث النبوي الشريف من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية**، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية، سلسلة الآداب و العلوم الإنسانية، المجلد24، العدد2، 2005.

❖ حماد (أحمد)، **الترجمة الأدبية بين قيود النص و حرية الإبداع**، مجلة عالم الفكر، العدد4، المجلد3، أبريل- يونيو، الكويت، 2002.

❖ الدجاني (بسمة أحمد صدقي)، **دور الترجمة في حوار الحضارات، تجارب رائدة تركت أثراً بارزاً في المجتمع المتلقي**، مجلة فكر و إبداع، الجزء 52، رابطة الأدب الحديث، 2009.

❖ دياب (محمد حافظ)، **الترجمة و أسئلة النهضة العربية**، مجلة الوحدة، العدد62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.

❖ **روضة الأخبار الأسبوعية**، العدد08، 32 صفر 1294هـ، 8 مارس 1877.

❖ سلامة (موسى)، **الثقافة و الحضارة**، مجلة الهلال، القاهرة، ديسمبر 1927.

❖ الشناق (عبد الله)، **صعوبة ترجمة آداب المهمشين، هبيلة بشرى نموذجاً**، مجلة المترجم، العدد12، دار الغرب للنشر و التوزيع، جويلية-ديسمبر 2005.

❖ شوقي (عباس)، **طرق المواصلات في مصر**، جريدة السياسة الأسبوعية، العدد70، 9 يوليه 1927.

❖ شوقي (عبد المنعم)، **مجتمع المدينة: الاجتماع الحضري**، الفكر العربي، العدد30، ديسمبر 1983.

❖ شيخ الأرض (تيسير)، **الترجمة بين الفعل و الانفعال الثقافي**، مجلة الوحدة، العدد62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.

❖ ضاهر (مسعود)، **الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان و الوطن العربي**، مجلة الوحدة، العدد64/63، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1990.

❖ الطرابيشي (جورج)، **الترجمة و الأيديولوجيا المترجمة**، مجلة الوحدة، العدد62/61، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.

❖ الطرازي (عبد الله مبشر)، **العلماء الهنود في البلاد العربية و خدمتهم للعلم في العصر العباسي**، مجلة الفيصل، العدد114، سبتمبر 1986.

- طه الولي (الشيخ)، **المدينة في الإسلام**، مجلة الفكر العربي، العدد29، نوفمبر 1983.
- عبده (محمد)، **التمدن**، الوقائع المصرية، 1298/2/19هـ، 1881/2/20م.
- العبود (نافع توفيق)، **من تاريخ الترجمة عند العرب**، مجلة المؤرخ العربي، العدد10، 1979.
- عزام (عبد الوهاب)، **ابن المقفع حكايات كليلة و دمنة، قراءة جديدة في كتاب قديم**، مجلة وجهات نظر، العدد51، القاهرة، أبريل 2003.
- عزوز (أحمد)، **جذور نظرية الحقول الدلالية في التراث اللغوي العربي**، مجلة التراث العربي، العدد85، دمشق، 2002.
- عصفور (جابر)، **حول المشروع القومي للترجمة**، العربي، العدد494، يناير 2000.
- غزالة (حسن)، **ترجمة المصطلحات الأدبية و تعريبها**، علامات في النقد الأدبي، المجلد10، الجزء48، ربيع الثاني 1424-يونيو2003.
- فريد (آمال)، **إعداد المترجم للمشاركة في التنمية الثقافية**، مجلة عالم الفكر، العدد4، المجلد3، أبريل-يونيو، الكويت، 2002.
- كحيل (سعيدة)، لعريبي (ريما)، **اتجاهات التنظير في الترجمة**، مجلة الآداب الأجنبية، العدد139، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف 2009.
- كحيل (سعيدة)، **نظريات الترجمة: بحث في الماهية و الممارسة**، مجلة الآداب الأجنبية، العدد135، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف 2008.
- الكنز (نظيرة)، **شهرزاد في فرنسا من الانبهار إلى الاستلاب الأنا و الآخر في مواجهة**، مجلة الآداب الأجنبية، العدد124، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف 2005.
- مزيان (عبد المجيد)، **عواقب التعايش بين ثقافة الغالب و ثقافة المغلوب**، مجلة الثقافة، العدد71، أكتوبر، الجزائر، 1982.
- ناصيف (عبد الكريم)، **الترجمة: أهميتها و دورها في تطوير الأجناس الأدبية**، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.
- هاشم (صالح)، **دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي المعاصر**، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.
- هاشم (صلاح)، **أيديولوجية الترجمة**، مجلة العربي، العدد273، الكويت، 1981.

ب. المترجمة:

- باسنيت (سوزان)، **من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة**، ترجمة فؤاد عبد المطلب، مجلة الآداب الأجنبية، العدد124، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف 2005.
- بريخت (برتولد)، **المنطق الصغير في المسرح**، ترجمة أحمد الحمو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد02، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، تشرين الأول، 1975.
- جيل (دانييل)، **مبادئ في علم الترجمة**، ترجمة محمد أحمد طجو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد135، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، صيف 2008.
- غيدر (ماتيو)، **الثقافة و التواصل و الترجمة**، ترجمة محمد أحمد طجو، مجلة الآداب الأجنبية، العدد140، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، خريف 2009.
- كانط (ايمانويل)، **ما هو التنوير**، ترجمة اسماعيل المصدق، مجلة فكر و نقد، ديسمبر 1997.

ب. الأجنبية:

- Ahmed El Badaoui (Manal), **Traduction de quelques faits culturels du français vers l'arabe: retour de l'original à son point d'origine**, TTR, vol.15 N°01, Association Canadienne de traductologie, Université Concordia, Canada, Septembre 2012.
- Barthes (Roland), **Encore le Corps**, in Critique, 1978.
- Bastin (Georges L.), **La notion d'adaptation en traduction**, Meta, vol.38, N°3, 1993.
- Bensimon (Paul), **Traduire la culture**, Palimpsestes N°11, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 1998.
- Bouhadiba (Farouk. A.N.), **Semantic Fields and Translation**, Al Mutargim, Dar El Gharb, N° 01, 2001.
- Cao (Deborah), **Towards A Model of translation proficiency**, Target: international journal of translation studies, 8 (2), 1996.
- Cary (Edmond), **Poésie et traduction**, in Babel, III, N° 01, 1997.
- Chapdelaine (Annick), **L'échec du Faulkner comique en France: un problème de réception**, Meta, vol.34, N°2, 1989.
- Codleanu (Mioara), **l'adaptation: difficultés de delimitation d'un concept**, Ovidius University Annals of Philology, Vol. XIII, N° 57-67, 2002.
- Cordonnier (Jean-Louis), **Aspects culturels de la traduction: quelques notions clés**, Meta, vol.47, N°1, 2002.
- Coutau- Begarie (Hervé), **Traité de Stratégie**, Economica, paris, 1999.

- De Coster (Michel), **L'acculturation**, diogène, N°73, Janvier-Mars, 1971.
- Dib (Mohamed), **The Causes of Failure In Translation And Strategies**, Al-Meshaal journal, vol. I, issue 01, Department Of The Arabic Language and Literature, Laboratory Of Automatic Treatment Of Arabic Language, Linguistics and Applied Linguistics, University Of Tlemcen, April 2005.
- Fisher (Karin), Mikowski (Sylvie), **Avant-propos: Irlande: l'épreuve de l'étranger**, sources (revue d'études anglophones), N°15, automne 2003.
- Ghazala (Hasan), **The translator's Dilemaa with Bias (English-Arabic)**, Babel, vol.48, N°2, 2002.
- Ghazala (Hasan), **Translatability of Cultural Terms (English-Arabic): Translation Mechanisms**, Turjuman translation journal, vol.11, N° 02, 2002.
- Hanna, Stella and Doris, **Analysis of Nida's dynamic equivalence from the perspective of domestication and foreignization**, Sino-US English Teaching, Vol.4, N°.9 (Serial N°45), USA, Sep. 2007.
- Hara (Fujiko), **Understanding the Silent Culture of the Japanese**, Meta, vol.33, N°1, 1988.
- Haumont (Roland), **Pensée, culture et message**, Meta, vol.12, N°03, 1967.
- Hersent (Jean Francois), **Traduire ou la Rencontre Entre les Cultures**, BBF N° 05, paris, 2003.
- Homeidi (M.A.), **Arabic translation across cultures**, Babel, vol.50 N°01, Fédération international des traducteurs, John Benjamins publishing company, 2004.
- Khary Diagne (Momar), **De l'équivalence à la traduction**, Meta, vol.16, N°03, 1971.
- Kondo (Masaomi), **Japanese Interpreters in their Socio-Cultural Context**, Meta, vol.33, N°1, 1988.
- Laurian (Anne-Marie), **Humour et traduction au contact des cultures**, Meta, vol.34, N°1, 1989.
- Morin (Edgar), **L'individualité de l'Homme**, in philosopher, Fayard, 1980.
- Pym (Anthony), **Venuti's Visibility**, Target 8 (1), 1996.
- Sapir (Edward), **Anthropologie**, Point, N°27, 1971.
- Taber (R. Charles), **Sociolinguistic Obstacles to Communication through Translation**, Meta, vol.25, N°4, 1980.
- Toury (Gideon), **Natural Translation and the Making of Native Translator**, TEXTconTEXT, 1, 1986.
- Troupeau (Gérard), **Les problèmes posés par la traduction de l'arabe ancien en français moderne**, Meta, vol.31, N°01, 1986.
- Tymoczko (Maria), **Translation and political engagement, Activism, social**

change and the role of translation in geopolitical shifts, The Translator 6 (1), 2000.

- Yuefang (Wang), **Exploring cultural transmission and translation strategies in the perspective of functionalist approaches, A case study of the two English versions of Hangloumeng**, Babel, vol.58, N°4, International Federation of Translators, 2012.
- Zare-Behtash (Esmail), Firoozkoohi (Sepideh), **A Diachronic Study of Domestication and Foreignazation Strategies of Culture-Specific Items: in English-Persian Translations of Six of Hemingway's Works**, World Applied Sciences Journal, 7 (12), IDOSI Publications, 2009.
- Zi (Guang), **Les Sept Méthodes du Gouvernement**, cité dans Xu Zhen Zhou (l'art de la politique chez les légistes chinois), Economica, paris, 1995.

5. المواقع الإلكترونية:

أ. العربية:

- التمارة (عبد الرحمن)، **سؤال الترجمة: من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة**، (www.aljabriabed.net/n86_04tamarai.htm).
- جوني (عدي)، **إشكالية الترجمة و ثقافة النص**، مجلة أفق الثقافية، الموقع الالكتروني (http://www.ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=90)
- حسام الدين (مصطفى)، **الأدب الشعبي... ذاكرة الأمم، نموذج من الأدب الشعبي المصري**، مجلة جسور لعلوم الترجمة و اللغة (http://traductionmagazine.com).
- حنان نادر الكعبي، **تخطيط و بنيوية عمارة الصحراء** (http://www.jeaconf.org/UploadedFiles/Document/e5d6258b.pdf).
- حنفي (حسن)، **العولمة التبادلية خيار الاتفاق بين الأمم**، جريدة الزمان، العدد25، جوان 2002، موقع (Globalization) (http://glo110.blogfa.com/post-32aspx).
- الفيفي (عبد الله بن أحمد)، **أقدم نص شعري في العالم**، موقع صوت العربية (www.voiceofarabic.net)، تصنيفات: بحوث أدبية.
- مندي (جيرمي)، **ملخص نظرية الترجمة**، ترجمة و إعداد كاظم علي، منتديات الجمعية العلمية السعودية للغات و الترجمة (http://www.saolt.net/forums/showthread.php?t=4394).

ب. الأجنبية:

- Abdul-Latif (Abdul-Settar), **The matter of Arabic in Chaucer: Arabic loan words in chaucer's complete works**, Globusz Publishing, community books (http://archive.org/details/TheMatterOfArabInChaucerArabicLoanWordsInChaucersComlpeteWorks).
- Codleanu (Mioara), **Socio-cultural Specificity and Translation, Socio-culturally Charged Idioms and Cultural Equivalence**, Annals of Ovidius University Constanta-Philology (Analele Stiintifice ale Universitatii Ovidius Constanta. Seria Filologie), issue: 20/2009. (from the Central and Eastern European Online Library on: www.ceeol.com).
- Darwish (Ali), **The Translation Process: A view of the mind**, at-Turjuman Online(http://www.translocutions.com/translation/index.html,documentidentifier AD 020789-01, 1989).
- (education.qld.gov.au/curriculum/learning/literate-futures/glossary.html).
- (en.wikipedia.org/wiki/Strategy).
- Guidère (Mathieu), **The Translation of Advertisements: from Adaptation to Localization**, Retrieved on 19 October 2010 (http://www.perso-univ-lyon2.fr/-mguidère).
- Harvey (Malcom), **A Beginner's Course in Legal Translation: the Case of Culture-bound Terms**. (from://www.tradulex.com/Actes 2000/harvey.pdf).
- Malingret (Laurence), **Les enjeux de l'adaptation en traduction, Écrire, traduire et représenter la fête**, Universitat de València, 2001. (www.uv.es/dpujante/PDF/CAP3/B/L_Malingret.pdf).
- Pineri (Riccardo), **Identité, altérité, paysage: questions de traduction**, (www.montraykreyol.org), (http//www.montraykreyol.org/spip.plup? Article 15656 début articles rubriques=15).
- (www.deeptrancenow.com/dict_r.htm).
- (www.for.gov.bc.ca/hfd/library/documents/glossary/S.htm).
- (www.mdk12.org/instruction/curriculum/reading/glossary.shtml).
- (www.moh.govt.nz/moh.nsf/0/15f5c5045e7a1dd4cc256b6b0002b038).
- (www.nmlites.org/standards/language/glossary.html).
- (www.oas.org/usde/publications/Unit/oea03e/ch13.htm).
- (www.oup.com/uk/booksites/content/0199274894/student/glossary/glossary.htm).
- (www.undp.org/rbec/nhdr/1996/georgia/glossary.htm).
- (www.w0ipl.com/ECom/icsterms.htm).
- Xiaosong (Ding), **Why Foreignizing Translation Is Seldom Used in Anglo-American World in Information Age**, (TranslationDirectory.com), Retrieved January 20, 2006, from (http://www.translationdirectory.com/article50.htm).

❖ Zakhir (Marouane) et al., **The Theories of Translation: From History to Procedures**, Edited by Zainurrahman, Source: Personal Journal of Philosophy of Language and Education (http://zainurrahmans.wordpress.com), 2009.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

إهداء

شكر و تقدير

مقدمة ..... (أ. ب، ج، د، ذ)

الفصل الأول: 'الثقافة و الفعل الترجمي'

I. الثقافة و الترجمة 02

1. مفهوم الثقافة (culture) 02

2.1 محتوى الثقافة 30

1.2.1 العموميات (Universals) 30

2.2.1 الخصوصيات (Specialities) 31

3.2.1 البدائل (Alternatives) 31

3.1 مفهوم الثقافة و الحضارة من المنظورين الفرنسي و الألماني 32

4.1 اتجاهات ترجمة مفهوم كلمة (culture) إلى اللغة العربية 34

1.4.1 ترجمة كلمة (culture) إلى (الثقافة) 34

2.4.1 ترجمة كلمة (culture) إلى (الحضارة) 35

5.1 مفهوم كلمة (civilization) 35

6.1 اتجاهات ترجمة مفهوم كلمة (civilization) إلى اللغة العربية 38

1.6.1 ترجمة (civilization) إلى اللفظ العربي (المدنية) 38

2.6.1 ترجمة (civilization) إلى اللفظ العربي (الحضارة) 40

2. مكانة الثقافة من الفعل الترجمي 45

3. إشكالية نقل البعد الثقافي في الترجمة ..... 74 4.

الفعل الترجمي و الفعل التثاقفي (acculturation) ..... 103 II.

استراتيجيات التوصيل الثقافي في الترجمة ..... 139 1.

مفهوم (الاستراتيجية) (Strategy) 140

1.1 لغة 140

2.1 اصطلاحاً 143

2. مفهوم (الاستراتيجية) (Strategy) من المنظور الترجمي..... 148
3. أنواع (الاستراتيجيات) (Strategies) في الترجمة 176
4. استراتيجيات التوصيل الثقافي في الترجمة 194
1. التكييف (adaptation) 213
2. التمركز العرقي (ethnocentrism) 224
3. التهجير/العصرنة (archaization/modernization) 235

الفصل الثاني: 'استراتيجيتا التدجين (Domestication)

و التغريب (Foreignization) في الترجمة'

I. التدجين (domesticating) في الترجمة 245
1. مفهوم (التدجين) (domestication) 245
1.1 'التدجين' لغة 245
2.1 'التدجين' اصطلاحاً 248
2. مفهوم (استراتيجية التدجين) (Domestication Strategy) من المنظور الترجمي 249
II. التغريب (foreignizing) في الترجمة 265
1. مفهوم (التغريب) (foreignization) 265
1.1 'التغريب' لغة 265
2.1 'التغريب' اصطلاحا 269
2. مفهوم (استراتيجية التغريب) (Foreignization Strategy) من المنظور الترجمي 269

الفصل الثالث: التطبيقي

'استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies)

و استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies) الموظفة من قبل إحسان

عباس في ترجمته لرواية (موبي ديك) (Moby Dick) لصاحبها

هرمان ملفيل Herman Melville'

I. التعريف بالمدونة 304

II. استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies) و استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies) الموظفة من قبل إحسان عباس في ترجمته لروايــة (موبي ديك) (Moby Dick) لصاحبها هرمان ملفيل Herman Melville 306
1. استراتيجيات التدجين (Domestication Strategies) 306
1. الإبانة (explicitation) 306
2. الاختصار الكيفي (qualitative impoverishment) 308
3. الترادف (synonymy) 309
4. الاستنظام (normalization) 310
5. التطويع (modulation) 311
6. الترجمة بالتجميع (translation by accumulation) 312
7. التبسيط (simplification) 313
8. التمركز العرقي (ethnocentrism) 314
9. التكافؤ الديناميكي (dynamic equivalence) 315
10. التكييف (adaptation) 319
11. الترجمة الموضوعاتية (thematic translation) 319
12. التدجين اللهجي (dialectal domestication) 321
13. التعريب (arabization) 326
14. الترجمة اللّسنية (idiomatic translation) 333
2. استراتيجيات التغريب (Foreignization Strategies) 338
1. الاستنساخ الصواتي (transliteration) 338
2. التعليق خارج النص (extratextual gloss) 348
3. التغريب المرتبط بالخلفية التداولية (pragmatic background foreignization) 359
4. التغريب المرتبط بالغموض المورفو–تركيبي
(morpho-syntactic foreignization ambiguity) 360
5. التعليق داخل النص (intratextual gloss) 360

6. الإقتراض (borrowing) 364
خاتمة 367
الملاحق 372
تبث المصطلحات (انجليزي/عربي) 378
مكتبة البحث 385
فهرس الموضوعات 407
ملخص باللغة الانجليزية 412

ملخص باللغة الانجليزية

Summary

« The Strategies of Domestication and Foreignization in Translation –An Applied Study- »

Presented by: DRISS Mohamed Amine

Supervised by: Prof. FERGHANI Djazzia

Today, translation is considered one of the most important fields of knowledge that is completely tied to research and academic studies. This is because it is paramount for different trends in language treatment, that is thought to be the most vital trait of human reality. Perhaps the first reason for this, is due to the fact that the scope in which translation operates hinges upon many sources of knowledge; therefore, it is a meeting place for a barrage of ideas, and batch of reflections, hence, settled down in one of them. Thus, translation's concepts and genres became always blended with a mystery along the lines of its strategies and procedures; additionally, translation has been interfered with other sciences, making its scope broad and difficult.

The cultural role is one of the most prominent aspects that characterized the history of translation, on both the theoretical and the practical grounds. In this vein, theorists have pointed out to the need for the translator, who takes into consideration the whole substances: the linguistic and metalinguistic. Besides, renderings should not be restricted to the abstract structures, rather, it should go beyond their underlying semiotic, and cultural bottoms, and to the core of it as a whole; author's intentionality, and the foremost purpose of the message. It was natural, then, that culture plays a determining role in guiding the translator, and influencing his decisions and choices; thereby, occupying a prestigious status in translation studies, after it has been –for a not short time– the linguistic, the hermeneutic, and the literary approaches; those that dominate the scene in it.

The concept of culture has witnessed a far reaching controversy within various circles, and then a momentum has been found in the surrounding definitions, that reflect the intensive care accorded by these circles to this dimension of what constitutes a definite importance in the lives of all human beings. Culture has been

defined by some as that part of the environment, which the human has created for himself, and that of ideas, knowledge, beliefs, habits, ways of thinking, ways of living, his stories, and his games, his themes of love and beauty, the tools leading to them, the means of its production and evaluation, music that he plays, the family order, which he conducts, and all what man has established to combine members of the same society, and band their interests.

Others argue that culture is the language and the total prevailing customs, that consist of food, drink, clothing, religion, and science in a given society, which characterize it from another one, and lead to the achievement of the social life's functions. Culture has been also defined as the socially inherited practices, or all kinds of behavior that are transmitted by symbols, or deemed to be a special system of symbols.

It is noticeable that among the many definitions given to culture, some are too general and extremely wide, while others are specific and with a limited horizon. Perhaps most significantly we find, in this regard, the efforts of two cultural schools; the English and the American through the works of Thomas Hobber, Alfred Louis Kroeber, Clyde Kluchhohn, Matthew Arnold, Herbert Spencer, Lewis Henry Morgan, Edward Taylor Burnett, Franz Boas, Ruth Benedict, Margaret Mead, and others, in addition to the contributions of the German and French scholars in this field. The preoccupation devoted to culture, and its complexity of tendencies have resulted in emerging new perceptions towards and inwards the cultural realm, most importantly, the meaning of cultural anthropology in the field of anthropology, and that of acculturation with all its constructive and destructive types.

Translation poses a serious problem represented in the difficulty of transmitting the cultural shipment (or shipments), which sit behind the corridors of linguistic structures, because languages differ in the form and the recipes of arranging it, but they also differ in how those who are affiliated to express their ideas and perceptions towards what they are surrounded with of various representations belonging to all areas of life. The aforementioned fact has been demonstrated through many examples, which showed that the translator should hold the cultural dimension first

before working on the linguistic one. Besides, he should pay great attention to the worthy ways, that serve to convey the text culturally to the target language.

Translation requires also acculturation between the two sides; the transmitting culture (from which the text is transferred) and the receiving one (to which the text is transferred), whither the cultural original patterns of the receiving culture change, when being subjected to friction with another culture. There are many translation evidences, which demonstrated this reality. Hence, it is compulsory for the translator to find the accurate means to preserve the cultural core of the original text with all its considerations, so that the target reader will not feel that the translator undermines this requirement. It is obvious here that light should be thrown upon the tools that help in any rendering; that is to say, translation strategies of all sorts.

All the translation strategies –which are described as global– thus what revolves around its orbit of procedures, techniques, plans, and other different appellations –known as local– have been emerged from two translation tendencies; domestication and foreignization, which form the subject of the present survey which is entitled: **'The Strategies of Domestication and Foreignization in Translation –An Applied Study-'**.

This topic is one of the old new topics in translation studies. Being old is that it is rooted in the history of translation as a human practice and communicative act between nations and peoples, so all the translations brought ahead can be classified within one of the two approaches (domestication or foreignization) even if translators did not explicitly pay attention to that. There is another view that vindicates the question of this antiquity: the eternal conflict between the opinion, that advocates the must of translating the 'spirit', and the one which proclaims the exigency of transferring the 'letter'. Both are two orientations, which are not considered out of being domestication and foreignization with false nominations. Therefore, Schleiermacher's lecture in 1813 was as a charter that governs these two dimensions, which gather every statement that has been said about them in the past, either what may reach the status of a methodically and theoretically established research, or what

cannot reach that status alike. What is new is that the discussion of all its details is devised in translation studies, and has begun with the American theorist Lawrence Venuti in the nineties, who shed light on this subject in his book (The Translator's Invisibility), and who tackled the political and ideological facets, that dominate such trends. As a result, many books and articles appeared to investigate this subject from various aspects that may show its importance in translational domain. In other words, it is an expansion of what has been brought by ancient theorists in this field.

Doubtless, this was the spur behind the selection of this topic, after reading and reviewing what was written about by theorists, especially Westerners– that is a youthful topic which needs a careful insight with all the necessary arguments and evidences, and Arab researchers in translation, who did not lift a finger from it. Furthermore, this subject is, in fact, the basis of the translating act, and its peculiar law in that each translator is either a sourcerer (belonging to those of the source language/culture (les sourciers)), or a targeter (belonging to those of the target language/culture (les ciblistes)). Hence the significance of dealing with these two strategies as being the center of gravity for what encircle them of concepts, and apperceptions at both the theoretical, and procedural levels. The purpose of this work is twofold; to bring the attention of Arab researchers to this subject, and to all the relevant matters that go on a par with, and surmounting the difficulties in front of students of translation and providing them –albeit with the least– with the mechanisms that serve to grasp domestication and foreignization jointly, and to make the control of the ways that interfere in the employment of domestication and foreignization at all the texts and scopes.

In this respect, many questions arise, the most important may be:

What is culture, and what are the foundations that depends on?

What relationship has with translation, and what is the rank that occupies in it?

What does ‘strategy’ in translation mean and what are its types?

What is meant by domestication and foreignization in translation? And what are the similarities and dissimilarities between the two?

These are, in sum, the prominent questions that we tried to answer in this research

with much of exploration and analysis.

This work is composed of three chapters. The first chapter includes two sections, where the first section is dedicated to Culture and Translation, Definition of Culture, Specialities and Alternatives, and Difference between Cultuere and Civilization from the French and the German perspectives, trends of translating the words ‘culture’ and ‘civilization’ into Arabic, discussion of the status of culture in translation, and the problem of transferring the cultural dimension in it are put afetrwards. tackling the meaning of acculturation and debating the relationship that has with translation through memorable historical experiences are put afterwards.
The second section deals with the strategies of cultural conveyance in translation, where the following points are made: the definition of ‘strategy’ both linguistically and theoretically , importance and types of strategies in the sphere of translation, discussion of most important strategies of cultural conveyance that intersect with the topic of this research which are adaptation, ethnocentrism and archaization/modernization, in addition to the enclosure of perversion strategies brought by Antoine Berman.

The second chapter comprises two sections; the first is on domestication strategy, whereas the second is on the foreignization one, followed by an extensive explanation of all related issues to it. The second section is devoted to foreignization, foreignization strategy in translation, with regard to the views of theorists and many translation theories and approaches.

The third chapter contains a corpus from an English novel called (Moby-Dick) written by Herman Melville and translated into Arabic by Ihsan Abbas. The examples extracted from the corpus deal with domestication and foreignization, case by case, then studied and analyzed, with the implementation of the strategy and the pragmatic background of this use, relying on the theoretical aspect and its bases. The conclusion has been consecrated to the checking of the most important results obtained.

The method used in this study is analytical, because the nature of this study seeks to uncover a set of perceptions and concepts, that serve both the essence of culture,

cultural conveyance or strategies, and the concepts of domestication or foreignization and what is related to them. More simply put, this chapter relies on the comparative stylistic method, in order to reach some procedural outcomes through the comparison of the original text and its translation.

We were led to a set of results which are as follows:

- It is too difficult to encompass culture with a precise definition, because its meaning differs from one researcher to another, and its forms, patterns as well as, manifestations vary from theory to another; therefore, it is necessary to work on this humanitarian dimension in quality and quantity, and to examine all its components by refering to the Western thought, the classical and the modernist as well.
- There is a strong relation that links translation and culture. This latter is considered the most important intervening factors in translating, which led to an emergence of many theories and approaches that are meant to this aspect in translation studies. Moreover, this interest itself formed a turn that is described by many as historic, yet that translation was limited, solely to the lingual conveyance and shifting the structures, and levels in isolation from every social and cultural background.
- This immediate care of culture, and the intrinsic dealing with it had led to the recognition of other handicaps that surround translation; the impracticability of transfering the cultural dimension, and the reason behind is ‘otherness’ that is imposed by the presence of the other who differs. It is a situation that forces the translator to find the capable ways of preserving cultural shipment from the missing by ignorance, and extemporization as much as possible, which will entrain a hollow text like a body without a soul.
- Every translating act creates a friction with the other in all facets of life resulting in another generated act, that accompanies renderings in every time, and place which is acculturation. First Nations knew it thanks to translation that established the ties of communication, and aroused the bonds of exchange in different fields of knowledge and domains. This has resulted in a kind of a

enrichment of human cultures by changing their original patterns with others that reshaped its history and legacy. Not only this, but also it turns its essence upside down, then the decisiveness of taking care of it by comparing the cultural patterns before and after translation, and sifting the results theoritically and practically.

- Every translation takes a form through a particular process in which many of mental and textual operations are undertaken by the translator. To do so, the translator is required to apply the helpful means in reading, analyzing, transfering, reformulating and revising. It was necessary for us to probe these means which are strategies and procedures, to consider its essence and to approach its diverse characteristics. We have came also, in this regard, to a set of results, most importantly the widness of the gap between these two tools on the one hand, and the ways to apply them on the other hand from the perspective of the scholars of translation who diverge intellectually.
- Talking about the meaning of strategies , globally, and from the translators' perspectives, particularly, leads us to handle its classes and types. It should be noted here that the absence of the Arabic intervention on this subject, is the incentive that urged us to turn towards what was brought by Western theorists who have well fulfilled it through study and criticism. It has been also perceived that there is a lot of different strategic taxonomies in translation studies, where we tried to tackle some of them in details, and to highlight the properties of each one of them and how it gives a helping hand to the translator in his ongoing effort to transfer the message in the right frames, far from deficiency or distortion.
- Despite the numerous appellations given by theorists to translation strategies, and varied visions on its types, and ways of application, we have arrived at the proclamation of a fundamental fact that formed the core of this whole debate: every translation strategy belongs exclusively to one of the two orientations: either the translator is a sourcerer or a targeter. Thanks to the German philosopher, Friedrich Schleiermacher, and his intervention, which was the

first pillar for domestication and foreignization.

- Any liguistic conveyance comprises a cultural one that is achieved through a variety of strategies, which differ in essence and application. We have been studying the strategic models pertained to Antoine Berman, Lawrence Venuti and Paul Bandia, and make a comparison between them. We did not, as well, neglect other strategies, such as adaptation, ethnocentrism, and archaization/modernization. It was clear that all of these strategies, in one way or another, contribute to erase the exotic or drift after it. Not to mention they all involve the structural, and implicit linguistic ingredients, in addition to their semantic and systematic levels and does not exclude none of them.
- Every translation is either, a domesticated or a foreignized one, where at all the translation theories and approaches often include a specific procedural classification which can easily be inserted within one of the two forementioned tendencies. As Lawrence Venuti is one of the modern theorists, who touched on this subject politically, socially, and ideologically, then it was necessary to discuss his views and then go into the core of domestication and foreignization in general, and the most important matters, that are interlinked to them, such as fleuncy, familiarity, awkwardness and exoticism, and how the two trends are embodied on the translated text, and what is the basis that they underlie on it. As we included Schleiermacher's opinions about these two strategies and their cultural and nationalistic aftereffects. The views of both Venuti and Schleiermacher have shown that each of domestication and foreignization in translation may be utilized as a weapon against imperialism and cultural narcissism, and working to reduce the worldwide dominance of the prevailing cultures, in addition to their susceptibility to alternate within the same text. That was what the chosen translational models have vindicated (Georges L.Bastin, Sarah Aviosa-Braithwaite, Vinay et Darlbenet, Malcolm Harvey, Franco Javier Aixelà) in order to illustrate the dissimilarities between domestication and foreignization, and to introduce the practical chapter; all with much revision and refinement.

- Through the corpus, that is, the English novel (Moby-Dick) of Herman Melville, and its arabic version of Ihsan Abbas, and many extracted examples, we have discussed in detail the types of domesticating, and foreignizing strategies utilized by the translator in the transfer of this novel into Arabic. It has displayed also how able he was to domesticate it through fluency, and wiping off the exotic from it. Hence, we have opted to name him the targeter translator, who has sought to use all the tricks, and means to make the text natural for the reader in the target language, and that this latter understands all the related things to the events of the novel and at all the levels without much hardship as if the text was originally written in Arabic and not translated from another language. This domestication has also disclosed the Arabic language capacities in using modulation with its various forms, and be incarnated in several images and forms, thanks to its enormous expressive potentials, and structural features that singled it out from other languages. Thus, this novel (both the original and the translation of it) remains one of the best literary works, and the most attractive in elegance and beauty, and its authors of the first prominent stature: the earlier in authoring and the latter in participating in it (co-authoring).

It remains that any scientific research is exposed to criticism and comments, because it is not free from imperfections. This opens the way for researchers to bring new insights that inoculate the core and the purposes of domestication and foreignization especially in the arabic translational course that is really in great need of an arousal of the present topic's background and aspects.

الملخص

تعتبر الترجمة اليوم من بين حقول المعرفة المعول عليها كثيراً في مجال البحوث والدراسات الأكاديمية نظراً للتيارات المختلفة التي تتوسل بها في معالجة اللغة التي تعدها الترجمة أهم ما يميز واقع الإنسان. ولعل أول أسباب ذلك يرجع إلى أنّ المجال الذي تشتغل فيه الترجمة وحوله تتقاذفه مصادر معرفية عديدة، ولذلك عدت ملتقى لأفكار وتأملات متنوعة يصعب حصرها. ولا تكاد تستقر في أحد منها، فصار مفهومها ونوعها يكتنفهما الغموض دوماً على غرار استراتيجياتها وإجراءاتها، إضافة إلى أنّها تتداخل مع علوم أخرى مما جعل مجالها واسعاً وعسيراً. انبثقت كل الاستراتيجيات الترجمية التي توصف بأنّها شمولية وما يدور في فلكها من إجراءات، وتقنيات ، ومخططات وما إلى ذلك من تسميات مختلفة -التي تعرف بالموضعية عن توجهين ترجميين اثنين لا ثالث لهما: التدجين والتغريب اللّذان شكلا موضوع دراستنا هاته .

الكلمات المفتاحية:

التدجين؛ التغريب؛ الترجمة؛ استراتيجيات الترجمة؛ المثاقفة؛ الغيرية؛ المنحى الثقافي؛ هرمان ملفل؛ إحسان عباس؛ موبي ديك.

نوقشت يوم 18 أبريل 2016